إِكْسِيرُ التَّنْمِيَة

جَدَلِيَّةُ «التَّنْمِيَةِ» و«الثَّقَافَةِ»: أين الخَلَلُ؟

نَحْوَ تَأْصِيلِ «الثَّقَافَةِ العِلْمِيَّةِ» في المُجْتَمَعَاتِ العَرَبِيَّة

تأْليف

خضر محمد عبد الرحمن الشيباني

العبيكان
Obeikan

ح خضر محمد عبد الرحمن الشّيباني، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشيباني؛ خضر محمد عبدالرحمن

إكسير التنمية./ خضر محمد عبدالرحمن الشّيباني.- الرياض، ١٤٣٧هـ

٤٢٠ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٨-٠٨١٢-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- العالم الإسلامي - التنمية ٢- العالم العربي - التنمية أ. العنوان

ديوي ٣٣٨,٩٠٠٩٥٣ ١٤٣٧/٤١١٦

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

امتياز التوزيع شركة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣ ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إليها.

إلى والدتي السيِّدة نفيسة بنت السيِّد أحمد الدَّاه – رحمها الله -؛ ذلك النَّبْعُ الصَّافِي من الحَنَانِ والخَيْرِ والحُبِّ؛ كان يَنْسَابُ نَقِيّاً حفِيّاً دون طَلَـبٍ بالأمْسِ، وأفْتَقِدُهُ اليوم، وأسْتَحِثُّ الخُطَى في طَلَبِهِ، ولكن لا مُجِيـبَ. وتَبْقَـى الذِّكْـرَى الغَامِـرَةُ، أتَّكِـئُ عليها؛ فهي مَعِيـنٌ زَاخِرٌ بأصْدَقِ المَشَاعِرِ وأنْبَلِهَا.

-

إلـى والـدي الشَّيخ محمـد عبد الرَّحمـن الشَّيبانـي – رحمه الله -؛ تَعَلَّمْتُ منه الكثير في تَجَارِبَ حَيَّةٍ من الشُّمُوخِ والإيمَانِ والتُّقَى، وما زِلْـتُ أتَعَلَّمُ منه - بعـد رَحِيلِه - في وَمْضَاتٍ كَثِيفَةِ المُحْتَوَى وعَمِيقَةِ الدَّلالات، تَكْبُرُ بها الهِمَّةُ، وتَعِزُّ بها النَّفْسُ، وتَسْمُو بها الرُّوحُ.

اسْتِـهْلال

يَهْتَـمُّ هذا الكِتَابُ بظَاهِرَةِ ما يُعْـرَفُ بـ«إشْكَاليّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّة»، ويَسْعَـى إلى تَفْكيكِ عناصِرها، وفَهْـمِ أَسْبابِ ذلك القُصُورِ البَيِّـنِ في هذه المُجْتمعات، وفَشَلِهَـا الذَّريعِ في مُحَاوَلاتِهـا المُتَكَرِّرَةِ والمُتَبَايِنَـةِ لتَأْسيسِ «نَهْضَـةٍ» وتَحْقيقِ «تَنْمية»؛ فعَبْر قَرْنَيْنِ – منْذ ما عُرِفَ باسْم «عَصْر النَّهْضَة» – تَعَدَّدَتْ المَدَارِسُ الفِكْرِيّةُ والأَنْظِمَةُ السّياسِيّـةُ والخُطَـطُ الاقْتصاديّةُ بأُطْرُوحَاتِهـا النَّهْضَويّةِ المُتَعَـدِّدَةِ ودُفُوعَاتِها التَّنْمَويّةِ المُخْتلفـة، ولكن ما تـزالُ كُلُّ الحُلُولِ التـي طَرَحَتْهَا تلـك المَدَارِسُ والأَنْظِمَـةُ والخُطَطُ عَاجِزَةً عن تَغْييرِ «الوَاقِع العربيّ» وإخْرَاجِهِ من مَأْزِقِهِ التّنْمَويّ.

فـي مُحَاوَلَـةٍ مُتَأَنِّيَةٍ – عَبْر طَيَّاتِ هذا الكِتَـاب – يَتَقَصَّى المُؤلِّفُ طبيعـةَ «إشْكَالِيّة التّنْمية» ودَوَاعِيها، واسْتِجْلاءَ سُبُلِ الخُرُوجِ من مَأْزِقِها، ليَخْلُصَ إلى أنّ المُعْضِلَةَ الحقيقيّة تَكْمُـنُ في العَجْزِ المُتَفَاقِمِ فـي تَأْسيسِ عَلاقَةٍ حيويّةٍ، وتلاقُحٍ فَعَّـالٍ، وتَزاوُجٍ أصيلٍ، بين عناصِر «الثَّالُوث» النّاجِع: (التّنْمية – الثَّقافة – العِلْم).

مـن ذلـك المُنْطَلَقِ فـإنّ الأُطُرَ المُتَدَاخِلَةَ لثَالُـوثِ «التّنْمية – الثَّقافـة – العِلْم» هي الرُّبُوعُ التي يَهْتَمُّ المُؤلِّفُ – بجُهْدِ المُقِلّ – بتَحْليلِها واسْتِكْشَافِ أَبْعَادِهَا وبَلْوَرَةِ مُقَوِّمَاتِهَا؛ ومِـن المُنَاسِبِ أنْ نَسْتَشْهِدَ في اسْتِهْلالِنَا هذا بآيٍ من القرآن الكريم حول هذا «الثَّالُوثِ النَّاجِع» الذي هو مَحَلّ اهْتِمَام هذا الكِتَاب.

التَّنْمية

- ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].
- ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

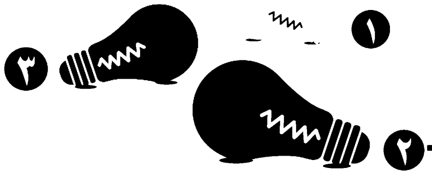

الثَّقافة

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرّعد: ١١].
- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

العِلْم

- ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزّمر: ٩].
- ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[المجادلة: ١١].

مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ

- اسْتِهْلال ٧
- مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ ٩
- المُقَدِّمَة.. ١٧

الفَصْلُ الأوَّل
إشْكَالِيَّةُ التَّنْمِيَة

١-١) مَدْخَل ٢٧
١-٢) مُشْكِلَةُ المُصْطَلَحِ: بين «النَّهْضَة و«التَّنْمية» ٢٩
١-٣) الحالةُ العربيّة.. ٣٢
١-٤) أَبْعَادُ «إشْكَالِيّة التَّنْمية».. ٣٤
١-٤- ١) الوَاقِعُ التَّنْمَويّ في العَالَمِ العربيّ ٣٥
١-٤- ٢) البُعْدُ الفِكْرِيّ ٣٧
١-٤- ٢ - أ) المَدْرَسَةُ التُّرَاثِيّةُ - الانْعِزَالِيّة ٣٩
١-٤- ٢ - ب) المَدْرَسَةُ الحَدَاثِيّةُ - الانْبِهَارِيّة ٤٠
١-٤- ٢ - ج) المَدْرَسَةُ التَّوْفِيقِيّةُ - الإِصْلاحِيّة.. ٤١
١-٤- ٢ - د) اسْتِمْرَارُ «الفِكْرِ الحَائِر».. ٤٣
١-٤- ٣) البُعْدُ العمليّ.. ٤٤
١-٥) «إشْكَالِيّةُ التّنْمية»: مُحَاوَلَةٌ للفَهْم.. ٤٨
١-٥-١) السِّجَالاتُ الفِكْرِيّة.. ٤٩
١-٥-٢) أين الخَلَل؟.. ٥٣

الفَصْلُ الثَّاني

«الثَّقَافَة»: التَّعْرِيفُ والرُّؤيَة

٢-١) مَدْخَل ٥٩

٢-٢) تَعْرِيفَاتٌ لمُصْطَلَح «الثَّقافة» ٦٠

٢-٢-١) التَّعْرِيفُ المُعْتَمَدُ لـ«الثَّقافة» ٦٣

٢-٢-٢) التَّرْكِيبُ العَامُّ لـ«الثَّقافة» ٦٥

٢-٣) مُشْكِلَةُ الثَّقافة ٦٧

٢-٤) «الثَّقافة» بين «النُّخْبَوِيَّة» و«الجَمَاهِيرِيَّة» ٦٩

٢-٥) «الثَّقافة» و«العَوْلَمَة» ٧٢

٢-٥-١) بِدَايةُ «العَوْلَمَة الحديثة»: العُلُومُ الطَّبيعيّة ٧٥

٢-٥-٢) أَخْطَاءُ «الخِطَاب العربيّ» ٧٦

٢-٥-٣) «وَقُودُ العَوْلَمَة» والبَحْثُ عن «ثقافةٍ حيويّة» ٧٨

٢-٦) «المُثقَّفُ العربيّ» والدَّوْرُ المَفْقُود ٨٠

٢-٦-١) المَأْزِقُ الثّقافي: بين «السِّياسَة» و«العِلْم» ٨٣

٢-٦-٢) البَحْثُ عن مَشَاجِب ٨٤

٢-٧) تَوْجِيهُ الثَّقافة ٨٧

٢-٧-١) «ثقافةُ التَّغْيير» و«تَغْييرُ الثَّقافة» ٨٩

٢-٨) إشْكَالِيّةُ الثَّقافَتَيْن ٩١

٢-٨-١) أُطْرُوحَةُ تشارلز سنو ٩٤

٢-٨-٢) مَوْقِعُ «الثَّقافة العربيّة» في «إشْكَالِيّة الثَّقَافَتَيْن» ٩٦

الفَصْلُ الثَّالِث

«الثَّقَافَةُ العربيّة»: مَصْدَرُ الأَزْمَة

٣-١) مَدْخَل ٩٩

٣-٢) «الإشْكَالِيَّةُ الكُبْرَى» في «الثّقافة العربيّة» ١٠١

٣-٢-١) بين الأمَانِيّ والحَقَائِق ١٠٣
٣-٢-٢) مَأْزِقُ «الخِطَاب العربيّ» ١٠٦
٣-٣) حالةُ «الانْفِصَام» في «عمليّة التّنْمية» ١٠٧
٣-٣-١) قَانُونُ «التَّحَدِّي والاسْتِجَابَة» ١١٠
٣-٤) «الثَّقافةُ العربيّة»: مَلامِحُ الأَزْمَة ١١٢
٣-٤-١) «الثّقافةُ العَوْرَاء» تَحْتَ الحِصَار ١١٤
٣-٤-٢) دِيوانُ العَرَبِ: «حَالَةٌ انْفِعَاليّة» ١١٦
٣-٤-٣) طبيعةُ «الأَزْمَة الثّقافيّة» ١١٨
٣-٥) مَدْخَلٌ إلى «البُعْد الزَّمْكَانِيّ» ١٢٢
٣-٥-١) «البُعْدُ الزَّمْكَانِيّ» و«إشْكَالِيّةُ الثّقَافَتَيْن» في الوَاقِعِ العربيّ ١٢٣
٣-٦) دون كيخوته و«الثّقافة العربيّة» ١٢٧
٣-٧) الدَّوائِرُ المُنْغَلِقَةُ في «الحَرَكَة الثّقافيّة العربيّة» ١٢٩

الفَصْلُ الرَّابع

إشْكَالِيّةُ التُّرَاث والحَدَاثَة

٤-١) مَدْخَل ١٣١
٤-٢) مُصْطَلَحَاتُ «الإشْكَالِيّة» ومَآزِقُها ١٣٢
٤-٢-١) مَآزِقُ «الخِطَاب التُّرَاثِيّ» ١٣٤
٤-٢-٢) مَآزِقُ «الخِطَاب الحَدَاثِيّ» ١٣٧
٤-٣) الحَدَاثَةُ العربيّة: مُنْتَجٌ هَجِينٌ بين «الاغْتِرَاب» و«الانْفِصَام» ١٤١
٤-٤) أَبْعَادُ «الإشْكَالِيّة» ١٤٣
٤-٤-١) هل «الأَصَالَةُ» مَفْهُومٌ «نِسْبِيٌّ»؟ ١٤٥
٤-٤-١- أ) «النّظَرِيّةُ النِّسْبِيَّة» تَنْسِفُ «النِّسْبَوِيَّة الفَلْسَفِيَّة» ١٤٧
٤-٤-١- ب) «النِّسْبَوِيَّة»: بين «المَنْطِق» و«نِهَايَةِ التَّارِيخ» ١٤٩
٤-٤-٢) «إشْكَالِيّةُ الثّقَافَتَيْن» على الصَّعِيدِ العربيّ ١٥١

٤-٤-٣) «المُؤَشِّرُ الحَدَاثِيّ» مُؤَشِّرٌ يَبْحَثُ عن تَأْسِيس ١٥٣
٤-٥) الإِشْكَالِيَّةُ هي «إِشْكَالِيَّةٌ حول العَدَم» ١٥٥
٤-٦) مُحَاوَلَةٌ لـ«فَكِّ الاشْتِبَاك» ١٥٩
٤-٦-١) نَمُوذَجُ «التَّوَافُق التَّنْمَوِيّ» ١٦٢
٤-٦-١- أ) نحو «قَانُونٍ صِفْرِيّ» ١٦٤
٤-٦-١- ب) مُقَارَبَةٌ عِلْمِيَّةٌ لـ«نَمُوذَجِ التَّوَافُق التَّنْمَوِيّ» ١٦٦
٤-٦-١-ج) من «التَّوَافُق التَّنْمَوِيّ» إلى «الثَّقافة التَّنْمَوِيّة» ١٦٧
٤-٧) «التَّنْميةُ الحقيقيّةُ» لا تَسْتَعْدِي أَحَداً ١٧٠

الفَصْلُ الخَامِس

«العَقْلُ العربيّ» و«الثَّقَافَةُ التَّنْمَوِيَّة»

٥-١) مَدْخَل ١٧٣
٥-٢) «العَقْلُ العربيّ»: تَرْمِيمٌ أَمْ إِعَادَةُ بِنَاء؟ ١٧٥
٥-٢-١) من مُحَدِّدَاتِ «العَقْل العربيّ» ١٧٦
٥-٢-٢) في رُبُوعِ «الشَّعْوَذَة» ١٧٧
٥-٢-٣) «العَقْلُ العربيّ» من مَنْظُورٍ فيزيائيّ ١٨١
٥-٢-٤) غُرْبَةُ «العَقْل العربيّ» في العَصْرِ الحديث ١٨٣
٥-٢-٥) البَحْثُ عن «تَوَازُنٍ جديد» ١٨٤
٥-٣) «ثقافةُ المُسْتَقْبَل» و«مُسْتَقْبَلُ الثّقافة» ١٨٧
٥-٣-١) «إِسْتراتيجيّةُ الثّقافة» و«الفَجْوَةُ المَعْرِفيّة» ١٨٨
٥-٣-٢) «ثقافةُ المُسْتَقْبَل» و«مَنْظُومَةُ العُلوم والتّقنية» ١٩٢
٥-٣-٣) «إِسْتراتيجيّةُ الثَّقافة» و«قضيّةُ المُسْتَقْبَل» ١٩٤
٥-٤) خَصَائِصُ «الثَّقافة التَّنْمَوِيّة» ١٩٦
٥-٤-١) نَحْوَ ضَبْطِ المُصْطَلَح ١٩٨
٥-٤-٢) «الشَّرْطُ الثّقافيّ» و«التَّنْميةُ المُسْتَدَامَة» ٢٠٠
٥-٤-٣) مَأْزِقُ المُصْطَلَحِ و«الإِنْسَانُ الجديد» ٢٠٤

٥-٤-٤) «الثَّقافةُ التّنْمَوِيّةُ» والمَعَارِفُ الإنْسانيّة ٢٠٦
٥-٤-٤- أ) نَحْوَ إرَادَةٍ مُجْتَمَعِيّة ٢١١
٥-٤-٤- ب) نَحْوَ رُؤيةٍ عمليّة ٢١٢
٥-٤-٥) على طريق «إسْتراتيجيّة الثَّقافة التّنْمَوِيّة» ٢١٤
٥-٤-٦) البَحْثُ عن «المُثَقّفِ التّنْمَوِيّ» ٢١٦
٥-٥) نَحْوَ المُصَالَحَةِ مع العُلوم والتّقنية ٢١٩
٥-٥-١) العَدَاءُ الخَفِيّ ٢٢١
٥-٦) المُنْطَلَقَاتُ الدِّينيّة و«الفِكْرُ التّنْمَوِيّ» ٢٢٥
٥-٧) المَدْخَلُ إلى «الثّقافة العِلْميّة» ٢٢٨

الفَصْلُ السَّادِس

«الثَّقَافَةُ العِلْمِيَّةُ»: وَقُودُ «الثَّقَافَة التَّنْمَوِيَّة»

٦-١) مَدْخَل ٢٣١
٦-٢) تَأْثيراتُ العلوم والتّقنية على المُجْتَمَعَات ٢٣٥
٦-٣) «الثّقافةُ العِلْميّةُ»: المَدْخَلُ إلى تَفْكِيكِ «إشْكَاليّة التّنْمية» ٢٣٩
٦-٤) الطَّبيعةُ الاقْتِحَاميّةُ للعُلوم والتّقْنية ٢٤١
٦-٥) «الثّقافةُ العِلْميّةُ» في التَّجْرِبَةِ الغَرْبيّة ٢٤٤
٦-٥-١) بين «الثّقافة العِلْميّة» و«الدِّيمُوقراطيّة» ٢٤٦
٦-٦) «الثّقافةُ العِلْميّةُ» و«مُجْتَمَعُ المَعْرِفَة» ٢٤٩
٦-٦-١) الشَّرْطُ الاجْتِمَاعِيّ ٢٥١
٦-٦-٢) الشَّرْطُ الثّقَافِيّ ٢٥٣
٦-٧) «الثّقافةُ العِلْميّةُ»: أولويّةٌ للمُجْتَمَعَات العربيّة ٢٥٤
٦-٧-١) في مُوَاجَهَةِ «المَأْزِق التّنْمَوِيّ» ٢٥٥
٦-٧-٢) «التَّفْكِيرُ العِلْميُّ» و«الثَّقافة» ٢٥٦
٦-٧-٣) عَقْلَنَةُ الثّقافة ٢٦٠
٦-٧-٤) في انْتِظَار «تَحَوُّلٍ ثقافيٍّ» ٢٦٣

الفَصْلُ السّابع
«الثّقافةُ العِلْمِيّةُ»: نَظْرَةٌ شامِلَةٌ

٧-١) مَدْخَل ٢٦٧

٧-٢) «الثّقافةُ العِلْميّةُ»: التَّعْريفُ والصُّنُوف ٢٦٨

٧-٢-١) من «المُثَقَّفُ عِلْمِيّاً»؟ ٢٧١

٧-٢-٢) مُؤشِّرُ أداء: «مُعامِلُ كَفاءَةِ الأَداءِ المُجْتَمَعِيّ» ٢٧٢

٧-٢-٣) نَحْوَ تَعْريفٍ شامِلٍ لـ«الثّقافة العِلْميّة» ٢٧٣

٧-٣) «الثّقافةُ العِلْميّةُ»: التّفرُّعات ٢٧٦

٧-٣-١) «الثّقافةُ العِلْميّةُ» في ضَوْءِ «الجُمْهور المُسْتَهْدَف» ٢٧٧

٧-٣-٢) «الثّقافةُ العِلْميّةُ» في ضَوْءِ «التَّخَصُّصات العِلْميّة والتّقنيّة» ٢٧٩

٧-٤) «الثّقافةُ العِلْميّةُ»: الأَهْداف ٢٨١

٧-٥) «الثّقافةُ العِلميّةُ» و«الأَمْنُ العِلْميّ» ٢٨٤

٧-٥-١) مُقَوِّماتُ «الأَمْن العِلْميّ» ٢٨٥

٧-٦) «الثّقافةُ العِلميّةُ» و«الأَمْنُ الفِكْريّ» ٢٨٨

٧-٧) «الثّقافةُ العِلْميّة» و«الأَمْنُ الوَطَنيّ» ٢٩٠

٧-٨) «الثّقافةُ العِلْميّةُ» و«الأَمْنُ الاجْتِماعِيّ» ٢٩١

٧-٩) «البَنْدُولُ الفِكْريّ» و«نُقْطَةُ التَّوازُن» ٢٩٢

٧-٩-١) «مَلَفُّ الإرْهاب» كمِثال ٢٩٤

٧-٩-٢) نَحْوَ «خِطابٍ مَعْرِفِيٍّ» فاعِل ٢٩٧

٧-١٠) «الثّقافةُ العِلْميّةُ»: القِيَم والمعايير ٣٠٠

٧-١١) «الثّقافةُ العِلْميّةُ»: المُعَوِّقات ٣٠٤

٧-١٢) «الثّقافةُ العِلْميّةُ»: العامِلُ المُهَيْمِنُ على شُرُوطِ التّأْهيلِ لـ«مُجْتَمَعِ المَعْرِفَة» ٣٠٧

الفَصْلُ الثَّامِن

الطَّرِيقُ إلى تَعْزِيزِ «الثَّقَافَة العِلْمِيَّة»

٨-١) مَدْخَل ٣١١

٨-٢) وَسَائِلُ تَعْزِيزِ «الثّقافة العِلْميّة» ٣١٢

٨-٢-١) التَّعْلِيم ٣١٢

٨-٢-١-أ) الأولويّةُ التي لم تَنْضَجْ في «إسْتراتيجيّات التّنْمية» في العَالَم العربيّ ٣١٥

٨-٢-١- ب) نَحْوَ «إسْتراتيجيّةٍ تَعْليميّةٍ» فَاعِلَة ٣١٧

٨-٢-٢) الإعْلام.. ٣٢٠

٨-٢-٢- أ) الوَاقِعُ العربيُّ و«الإعْلام»........................ ٣٢١

٨-٢-٢- ب) هُمُومُ «الإعْلام التّنْمَويّ»........................ ٣٢٣

٨-٢-٢-ج) المَوْقِعُ الرِّيَادِيّ لـ«الإعْلام العِلْميّ» ٣٢٥

٨-٢-٢- د) التَّلاؤُمُ بين «التّعْليم» و«الإعْلام»........................ ٣٢٨

٨-٢- ٣) «التَّعْرِيبُ» و«النَّشْرُ العِلْميّ» ٣٢٩

٨-٢-٣- أ) «الشَّرْطُ اللُّغَوِيّ» لـ«مُجْتَمَع المَعْرِفَة»........................ ٣٣٢

٨-٢-٣- ب) مُعْجِزَةُ التَّرْجَمَة ٣٣٤

٨-٢-٣-ج) بين «حِمَايَة البِيئَة» و«حِمَايَة اللُّغَة» ٣٣٦

الفَصْلُ التَّاسِع

جِمَاعُ القَوْل

٩-١) مَدْخَل ٣٣٩

٩-٢) بَرَامِجُ «التّنْمية النّمَطيّة» ٣٤١

٩-٢-١) هل نَحْتَاجُ إلى آينشتاين عربيّ؟........................ ٣٤٤

٩-٢-٢) «الرّأسمالُ البشريّ» و«نَزِيفُ الأدْمِغَة» ٣٤٧

٩-٣) ثَالُوثٌ في حَاجَةٍ إلى تَلاقُح ٣٤٨

٩-٣-١) نَحْوَ «التَّخْصِيب الفِكْرِيّ» ٣٥٠

٩-٤) نَحْوَ «نَمُوذجٍ عربيٍّ للتّنْمية» ٣٥١
٩-٤-١) «مُجْتَمَعُ المَعْرِفَة» و«قضيّةُ التّرْجَمَة» ٣٥٥
٩-٤-٢) رَجْعُ الصَّدَى ٣٥٨
٩-٤-٣) أُسْطُورَةُ «البَحْث العِلْميّ» في العَالَم العربيّ ٣٥٩
٩-٥) العَلاقَةُ بين «الثَّقافة» و«التّنْمية» ٣٦٣
٩-٥-١) «قضيّةُ المَرْأة» في المُجْتَمَعَات العربيّة ٣٦٥
٩-٥-٢) قضيّةُ الوَحْدَة العربيّة ٣٦٧
٩-٥-٢- أ) الوَظِيفَةُ التَّارِيخِيّةُ» لـ«الثَّقافة العربيّة» ٣٦٩
٩-٥-٣) قضيّةُ الدّيمُوقراطيّة ٣٧١
٩-٦) حَالَةُ «القُصُورِ الذَّاتِيّ»... إلى متى؟ ٣٧٣
٩-٦-١) إشْكَاليّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» ٣٧٦
٩-٧) نَحْوَ «عَقْلَنَةِ الثّقافة» ٣٧٩
٩-٧-١) «مِسْطَرَةُ العَوْلَمَة» و«الإصْلاح» ٣٨٢
٩-٧-٢) ما بَعْد «الرّبيع العربيّ» ٣٨٤
٩-٨) الخَاتِمَة ٣٨٦
- ثَبْتُ المَرَاجِع ٣٩١
- مَسْرَدُ الأَعْلاَم ٤٠٧

المُقدِّمة

طَـوَالَ قَرْنَيْـنِ من الزَّمنِ كانتْ – وما زالتْ – القضيّـةُ الكُبْرى في حياةِ المُجْتمعات العربيّـة هي «قضيّةُ النَّهْضَة»، وكانتْ – وما زالتْ – الأسْئلةُ الكُبْرى هي «أسْئلةُ النَّهْضَة»؛ ومن كُلِّ ذلك انْبَثَقَتْ «إشْكَاليّةُ النَّهْضَة»، وفي طَيّاتِهَا «إشْكَاليّةُ الأصَالَةِ والمُعَاصَرَة» التي وصَفَهَا محمد عابد الجابريّ بأنّها «الإشْكَاليّةُ المِحْوَريّةُ في الفِكْرِ العربيّ»(١)، وهي تُمَثِّلُ ذلـك التَّشَابُكَ المُعَقَّدَ بين تداعياتٍ وِجْدانيّةٍ، وتداخُلاتٍ تُرَاثيّةٍ، وقضيّة الهُويّة، والدِّفاعِ عنها ضِدَّ «الفِكْر الغَازي» القَادِمِ من الغَرْب؛ ويَحْدُثُ كُلُّ ذلك في الوَقْتِ نفْسه الذي تَظَلُّ فيـه مُعْطياتُ ذلك الغَرْبِ – على مُخْتلف الأصْعِدَةِ – مِثَالاً مَطْلُوباً في «التّنْمية»، ونَمُوذَجاً مَرْغُوباً في «النّهْضَة».

وبالرّغْـمِ من اخْتِلافِ المَوَارِد، وتبايُـنِ تَرْكيبة المُجْتمعات، وتَعَدُّدِ الأَنْظِمَةِ في دُول العَالَم الثّالث، إلاّ أنّها جميعاً كانتْ حريصةً على تَفْعيلِ «الخِيَار العِلْميّ – التّقنيّ» ومُوَاكَبَةِ مُتَطَلَّبَـاتِ «العَصْرِ الحديث»، ولكنّها في غالبيّتها السّاحِقَةِ – باسْتِثْنَاءِ حالَتَيْنِ أو ثلاثٍ – فَشِلَتْ في تَحْقيقِ الأهْداف المَنْشُودَة في نَقْلِ مُجْتمعاتِها إلى صُفُوفِ المُجْتمعات القَادِرَةِ علـى تَحْقيقِ الحُـدُودِ الدُّنْيا من الكفـاءَةِ الاقْتصاديّة والتّقْنيةِ الفَاعِلَـةِ والحَرَاكِ العِلْميّ النَّشِـط. وهكـذا بعد عُقُودٍ من الزّمن، وخُطَـطٍ لا تَنْتَهِي في مجـالات «التّنْمية»، وبرامِجَ طَمُوحَـةٍ في التَّعْليم والتَّدْريب والتَّصْنيع، فإنّ «المُجْتمعات النّامية» – ومنها «المُجْتمعات العربيّـة» – ظَلَّتْ تُرَاوِحُ مكانها، لتجـد أنّ «الفَجْوَةَ» بينها وبين «الـدُّول المُتَقدِّمَة» تَتَّسِعُ، وأنّهــا تَقِـفُ مَوْقِفَ «المُسْتَهْلِك» الـذي يَشْكُو دَوْماً من ضَيْم «المُنْتِـج» وغَزْوِهِ الاقْتصاديّ والعَسْكريّ والفِكْريّ.

إنّ هــذه المُفَارَقَةَ المَاثِلَـةَ للعِيَانِ تَسْتَفْحِلُ آثارُها يوماً بعد يـوم برغْم جُهُودٍ جبّارةٍ تَبْذُلُهَـا كثيـرٌ من «الدُّول النّامية» للسَّيْطَـرَةِ على هذا التَّرَدِّي، وهي تُمَثِّـلُ إشْكَاليّةً كُبْرى فـي وَاقِعِ «الدُّول النّامية» فيما أَصْبَحَ يُعْرَفُ باسْم «إشْكَاليّةُ التّنْمية». إنّ «أَسْئلة النَّهْضَةِ» و«إشْكَالِيّـاتِ التّنْميـة» تَتَّخِذُ أشْكَالاً مُتَعَـدِّدَةً إلاّ أنّها في صُلْبِهَـا تَتَمَحْوَرُ في «المُجْتمعات

العربيّـة» حول «حالة العَجْـزِ» في تفْعيل مُتَطَلَّبَاتِ «النَّهْضَـةِ» وشُرُوطِهَا بالرّغْم من توافُرِ الأدبيّاتِ المُرَصَّعَةِ في مَدْحِهَا، والآليّاتِ المُسْتَوْرَدَةِ لإنْتَاجِهَا، والنَّمَاذِجِ الجَاهِزَةِ لتَفْعِيلِهَا، والمَوَارِدِ الحَاضِـرَةِ لدَعْمِهَا؛ وهكذا على مدى قَرْنَيْنِ من الزّمن بَقِيَتْ الأَسْئلةُ حَيْرَى تَحُومُ حول الحِمَى، ولكنّها لا تَقَعُ فيه.

ولكـي لا نَبْدَأَ من فَـرَاغٍ، ولكي يكونَ تَأْسيسُنـا على وَاقِعِ اجْتماعـيٍّ وثقافيٍّ وحياتيٍّ مَلْمُوسٍ، فإنّنـا - في هذا الكِتَـابِ - نَقُـومُ بمُحَاوَلَةٍ لتَقَصِّـي طبيعة «إشْكَالِيّـةِ التّنْمية» ودَوَاعِيهَـا، واسْتِجْـلاءِ سُبُلِ الخُرُوجِ من مَأْزِقِهَا، وذلك عبْر جَوْلَـةٍ مَدْرُوسَةٍ نَفْحَصُ فيها هَوَاجِسَ المُثقَّفين وهُمُومَ المُفكِّرين، ونَقْتَفِي آثارَهـم؛ لنَتَعَرَّفَ على رُؤاهم وإحْباطاتِهم وتَأْويلاتِهـم وطُرُوحاتِهم في مُحَاوَلَةٍ للرَّبْـطِ فيما بينها لعلّنا نَشْتَمُّ رَائِحَةَ ذلك «الإكْسِير» القَادِرِ على نَفْخِ «رُوحِ الإبْدَاعِ» في خلايا «المُجْتمعات العربيّة»، وتوليدِ «نَبْضِ الفَاعِليّةِ» في أنْسجتِهـا؛ ولعلّنا بذلك نَتَعَرَّفُ على «الحَلْقَةِ المَفْقُـودَةِ» التي تَعَثَّرَتْ عند حُدُودِهَا «قَوَافِلُ التّنْمية»، وتَبَعْثَرَتْ لغِيَابِهَا جُهُودُ السّياسيّين والعُلَماء والاقْتصاديّين وغيرهم من رِجَالاتِ الأُمّة الذين جَنَّدُوا كثيراً من جُهُودِهِمْ لإخْرَاجِ الأُمّة من «عُنُقِ الزُّجَاجَةِ التّنْمَويّ».

لقـد تَعَدَّدَتْ الأَسْئلة، وتَنَوَّعَتْ الطُّرُوحات، ومنْها: (هل تَكْمُنُ المُشْكِلَةُ في إمْكاناتِ الأشْخاصِ وتَأْهيلهـم، أمْ في النِّظَـام السِّياسِيّ، أمْ في النِّظَام المَالـيّ والإداريّ، أمْ في التَّعْليـم ونُظُـم الاقْتصـاد، أمْ فيهـا كُلّهـا أو ربّما غيرهـا؟)؛ ولا شَكّ فـي أنّ الدِّراسات المُتَأَنِّيَـةَ تُشيـرُ إلى أنّ المُشْكِلَـةَ تَكْمُنُ في كُلِّ ذاك، ولكنّها أيضـاً - وفْق ما يُرَوِّجُ له هذا الكِتَـابِ - أكْبـر من كُلِّ ذاك؛ فهي - فـي المقام الأوّل - «مُشْكِلَةٌ ثقافيّـةٌ» بامْتيازٍ، عَانَتْ منهـا «الحَرَكَةُ النَّهْضَويّةُ» على مُسْتوى العَالَم العربيّ، فبَقِيَتْ كُلُّ الجُهُودِ المَبْذُولَةِ بمَنْأًى عـن ذلك «التَّحَوُّلِ النَّوْعِيّ» المَنْشُود، وفَشِلَتْ في تَحْقيقِ ما أَسْمَاهُ مالك بن نبيّ «التَّوَازُنُ الجديد»[٢].

لقـد حَرَصْـتُ - في هـذا الكِتابِ - علـى اسْتِكْشَـافِ طبيعـة «المُعْضِلَـةِ الثَّقافيّة» فـي «التَّكْوين العربيّ» عبْـر سَبْرِ «أدبيّات الثَّقافـة» نفْسها لعلّنا نُلامِسُ «الوَاقِعَ المُحَيِّرَ» الـذي يُكَبِّلُ الحَرَاكَ ويَذْبَحُ الإنْجـاز، ولكنّه في الوَقْتِ نفْسه يَسْتَنْجِـدُ بالمُنْقِذِينَ ويَطْلُبُ

الخَلاصِ!. ولذا تَكْثُرُ في هذا الكِتَابِ الاسْتِشْهاداتُ والاسْتِدْلالاتُ مِنْ تلك «الأدبيّات» لرَصْدِ أَبْعَادِ «المُعْضِلَةِ الثَّقافيّة» كما تَرِدُ في «الخِطَابِ الثّقافيّ العربيّ» الصَّادِرِ عن المُثقَّفين والمُفكِّرين بانْتماءاتِهِم الفِكْريّة ومدارِسِهِم السِّياسِيّة ونَزَعاتِهِمْ الفَلْسفيّة وخَلْفيّاتِهِم العِلْميّة المُتنوِّعة. ويُوضِّحُ مُلْحَقُ «مَسْرَد الأعْلام» – الوَارِدُ في نِهاية هذا الكِتَابِ – الطَّيْفَ الوَاسِعَ مِنَ المُثقَّفين والمُفكِّرين على المُسْتوى القُطْرِيّ في العَالَمِ العربيّ، ويُبَيِّنُ – بإيجازٍ – ما يُمَثِّلُونَهُ من انْتماءاتٍ فِكْريّةٍ وسِياسِيّةٍ مُخْتلفةٍ، وتخصُّصاتٍ عِلْميّةٍ مُتنوِّعَةٍ، وخَلْفيّاتٍ ثقافيّةٍ مُتَبايِنَةٍ، ليُمَثِّلَ هذا الطَّيْفُ عَيِّنَاتٍ مَقْبُولَةً للاسْتِشْهَادِ بمَقُولاتِهِمْ، والاسْتِدْلالِ بأفْكَارِهِمْ.

وفي الوَقْتِ الذي نَسُوقُ فيه نَمَاذِجَ مُتَنوِّعَةً لمَقُولاتِ عَدَدٍ كبيرٍ مِن المُثقَّفين والمُفكِّرين العرب ورُؤاهم وهم يَتَطَارَحُونَ هذا «الهَمَّ التّنْمَويَّ» المُؤرِّق، فإنّ حقيقَتَيْنِ تتجلَّيان في تلك الاسْتِشْهادات والأُطْرُوحات؛ فهي – أوّلاً – نَمَاذِج تُفْصِحُ – في عُمُوميَّتِهَا – عن «المَشْهَدِ الثّقافيّ العربيّ» الذي لم يَتَغَيَّرْ كثيراً على مدى قَرْنَيْنِ من الزّمن ممّا يُمَثِّلُ – كما يُرجِّحُ المُؤلِّفُ – جُزْءاً جوهريّاً من الأَزْمَةِ. وأمّا الحقيقةُ الثّانيةُ فتُوَضِّحُ درجةَ التّوَتُّرِ والتّأزُّم التي بَلَغَتْ إليها «الحالُ العربيّةُ» وهي تَبْحَثُ عن مَنْفَذٍ إلى نَهْضَةٍ لم تَتَحَقَّق، وتَطْرَحُ رُؤىً تَنْمَويّةً ما زالتْ في مَصَافِّ التَّخيُّلات، وتَسْتَنْجِدُ بمُحَاوَلاتٍ لم تُفْلِحْ في الهُرُوبِ من المَأْزِقِ الذي أَسَرَ «الثّقافة العربيّة» وقَيَّدَ حَرَكَتَهَا؛ ففَشِلَتْ في إحْدَاثِ «النَّقْلَة النَّوْعِيّة» في حياة الأُمّة، ليس فقط نتيجةً للقُصُورِ في مَنْهَجِيّتِها أو في وُقُوعِهَا أسيرةً لـ«الخِطَابِ الثّقافيّ العربيّ» المَأْزُوم، بل الأهمُّ من ذلك إغْفَالُهَا لطبيعة «الدِّيناميكيّة العَالَميّة» في «رُوحِ التّنْمية»، وكذلك إهْمَالُهَا لخصائص «التَّحْديث الحقيقيّ» عند التَّحدُّثِ عن بِنَاءِ «الإنْسان العربيّ» القَادِرِ على الإنْتاج والتّعْمير والإنْجاز.

ولا بُدَّ لي – في هذا المقام – أنْ أَعْتَذِرَ للقارئ الكريم عن قَائِمَةٍ طويلةٍ مُضَمَّنَةٍ بين المَرَاجِعِ تَحْتَوِي على مقالاتٍ للمُؤلِّفِ نُشِرَتْ في وسائل عِدَّةٍ، وتَمْتَدُّ على حِقْبَةٍ طويلةٍ من الزّمن، ولكن تَضْمين هذه القَائِمَة أَمْرٌ تَفْرِضُهُ شُرُوطُ «التَّوْثيق المَرْجِعيّ» من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخْرى تُمْليه حقيقةُ أنّ هذه القضيّة شَغَلَتْ المُؤلِّفَ على مدى ما يَرْبُو على رُبْعِ قَرْنٍ على الصّعيد العَامّ – تعاطيّاً وتأمُّلاً واطِّلاعاً ومُتابَعَةً وكِتَابَةً ومُسَاهَمَةً –.

إنّنَـا نَرْصُـدُ - في طَيّـاتِ هذا الكِتَـابِ - كيف يَعْبُـرُ المُثقَّفون والمُفكِّـرون العرب بخُيُولِهِـمْ - الإنْشَائـيّ منهـا والتَّأمُّليّ والوَعْظِيّ - علـى مِسَاحَاتٍ شَاسِعَـةٍ من المَخَاضِ الفِكْـريّ في مُحَـاوَلاتٍ تَسْتَنْسِـخُ نفْسها لمَعْرِفَـةِ أَصْلِ البَـلاءِ في «مُشْـكَلاتِ النّهْضَة»، ولتَشْخيصِ لُبّ «الإشْكَاليّة التّنْمَويّـة»، ولكنّ طُرُوحاتهم تَبْقَى عَاجِـزَةً عن بُلُوغِ الهدف، وتَلْتَفُّ حول نفْسها في عمليّةٍ مُشَابِهَةٍ لـ«حِوَارِ الطُّرْشَان». وفي رُبُوعِ هذه الجَوْلَةِ المَدْرُوسَةِ بيـن طُرُوحـات المُثقَّفين والمُفكِّرين - عرباً وغير عربٍ -، فـإنّ الهَمَّ الأوّلَ هو تَشْخيصُ التَّحدّيات والهَوَاجِس والهُمُوم، ووَضْعُهَا في إطَارِ «الوَاقِعِ العربيّ» وتفاعُلاتِه للخُلُوصِ إلى رُؤيـةٍ مُحَدَّدَةٍ تُسْهِمُ في تِبْيَانِ «الوَصْفَةِ العِلاجيّـة» اللازِمَةِ للخُرُوجِ من «المَأْزِقِ التّنْمَويّ» الذي انْحَشَرَتْ في دَاخِلِهِ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» بكُلِّ إمْكَانَاتِهَا وطُمُوحَاتِهَا ومَوَارِدِهَا.

على مدى عُقُودٍ من الزّمن طويلة، وفي هذا الفضاء التّنْظيريّ الشّاسِعِ بين المُدَاولاتِ المُتَكَـرِّرةِ واجْتِـرَارِ الألْفَاظِ المُتَشَابِهَةِ دَاخِلَ شَرْنَقَةِ «الثَّقافـة العربيّة»، فإنّ شيئاً ذا بَالٍ لـم يَطْرَأ علـى «الوَعْي العربيّ»؛ وهذا مـا يُؤكِّدُهُ محمد عابد الجابـريّ بقوله: (الخِطَابُ العربـيّ الحديث والمُعَاصِر لم يُسَجِّلْ أيَّ تَقَـدُّمٍ حقيقيٍّ في أيّةِ قضيّةٍ من قضاياه منذ أنْ ظَهَـرَ كخِطَـابٍ يُبَشِّرُ بـ«النّهْضَةِ» ويَدْعُـو إليها انْطلاقاً من أواسِـطِ القَرْنِ الماضي. لقد بَقِـيَ هذا الخِطَابُ طَوَالَ هذه الفَتْرَةِ - ومازال إلى اليوم - سجين «بَدَائِل» يَدُورُ في حَلْقَةٍ مُفْرَغَـةٍ لا يَتَقَدَّمُ إلاّ ليعـودَ القَهْقَرَى ليَنْتَهِيَ به الأَمْرُ - لـدى كُلِّ قضيّةٍ - إمّا إلى إحالتِها إلـى «المُسْتَقْبَل»، وإمّا إلى الوقُوفِ عندها، مع الاعْتِرَافِ بالوقُـوعِ في «أزْمَةٍ» والانْحِبَاسِ في «عُنُقِ الزُّجَاجَة». ومن هنا تَجَلَّى لنا زمنُ الفِكْرِ العربيّ الحديث والمُعَاصِر زمناً رَاكِداً جَامِـداً «مَيِّتـاً» أو قَابِلاً لأنْ يُعَامَلَ كزمنٍ «مَيِّتٍ»، أو على الأقـلّ لا شيء يُغَيِّرُ من مُجْرَيَاتِ الأُمُورِ فيه إذا عُومِلَ كـ«زَمَنٍ مَيِّت») (١)

وهكـذا نجدُ أنّ الهُمُومَ والإشْكَالاتِ والأَسْئلةَ ما زالتْ هِيَ هِيَ، وكأنّ شيئاً على مدى قَرْنَيْـنِ من الزّمن لـم يَسْتَجِدّ؛ فبَقِيَتْ الأَسْئِلَـةُ حَيْرَى تَائِهَةً منذ بُزُوغِ مـا يُسَمَّى «عَصْرُ النَّهْضَـة»، وذلك لأنّنا لـم نُغَيِّرْ من صِيَغِ الأَسْئلة، ولم نُعَدِّلْ طُرُقَ التّعَامُلِ معها، ولم نُبَدِّلْ نَمَطَ خِطَابِنَا، ولم نَقُمْ بتَفْكِيكِ الأَسْئلة ونَقْدِهَا وتَحْدِيثِهَا. وأمّا في حالاتٍ مَحْدُودَةٍ تَمَتَّعَتْ بالجُـرْأةِ والعُمْقِ - كما نجدُ في سِيَاقِ هـذا الكِتَابِ -، فإنّه بعد مُحَاوَلاتِ التَّفْكيكِ والنَّقْدِ

والتَّحْديـثِ والتَّحْليـلِ يَرْتَـدُّ «الخِطَابُ العربيُّ» من جديـدٍ إلى أُصُولِـهِ الخَطَابيّه، ومُتُونِهِ اللّغَويّة، وفي أَحْسَنِ الحالات يُغْرِقُ في المُعَالَجَاتِ الفَلْسَفِيّةِ والطُّرُوحَاتِ التَّنْظيريّة، وأمّا في أَسْوئِهَا فإنّه يُكَرِّسُ الجَدَلَ العَبَثِيّ والنَّرْجِسِيّةَ المُفْرِطَة.

لا يُمْكِـنُ لنا أنْ نُنْكِرَ وجود تَحوُّلاتٍ لَفْظيّةٍ ومُعَالَجَـاتٍ شَكْليّةٍ، ولكنّها - في مُعْظَمِهَا - لـم تُلامِـسْ شِغَافَ «الوِجْـدَانِ العربيّ»، ولـم تَسْتَثِرْ فيروسـات عَقْلِه، ولذا بَقِـيَ «الوَاقِعُ العربـيُّ» بمَنْأَىً عـن الإنْجَازِ المَنْشُود. وعلى مدى قَرْنَيْنِ رَاحَـتْ الأُمّةُ العربيّةُ تَبْحَثُ عن مَوْقِعٍ لها بين الأُمَم، وتَصْطَدِمُ بأَسْئلةِ «الهُوِيّة» و«النَّهْضَة» و«المُسْتَقْبَل» و«الغَزْوِ الثّقافيّ»، وتَرْنُو إلى مُقَوِّمَاتِ القُوّة وعَنَاصِرِ الحضارة وأُسُسِ الازْدهار، ويَذْهَبُ مُفكِّرُوها ومُثقَّفُوها وصُنّـاعُ القَـرَارِ في ذلك الشّأْنِ كُلَّ مَذْهَـبٍ، وتَتَنَوَّعُ تَجارِبُهُمْ العمليّـة، وتَتَعَدَّدُ مُقَارَبَاتُهُمْ النّظريّة، ولكن - بعد جَوْلاتٍ عديدةٍ وصَوْلاتٍ مديدةٍ - تعودُ هذه المُجْتمعاتُ إلى الأَسْئلة ذاتهـا، وتُجَابِـهُ التَّحدِّيات نفسهـا، مُضِيفَةً إلـى تَجْربتِهَا عَنَاصِرَ ذات آثـارٍ سَلْبيّة، ومن أهمِّهـا أنّها تَرْجِـعُ بحُمُولَةٍ مُثْقَلَةٍ بالهَزَائِـمِ والإحْبَاطِ والنَّكَسَاتِ مـن ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخْـرى تعودُ إلـى «المُرَبَّعِ الأوّلِ» بعد أنْ أَهْدَرَتْ الكثير من المَـوَارِدِ، وأضاعَتْ العديد من الفُرَصِ، وسَكَبَتْ الثّمين من الزَّمن.

إنّنـا لن نَجِدَ ظَاهِرَةً فِكْريّةً وَاحِدَةً - في صَخَبِ اليوم وجِدَاله - تَخْرُجُ بشيءٍ مُخْتلفٍ عمّـا طَرَحَـهُ مُفكِّرو القَرْنِ التّاسع عشـر والقَرْنِ العشرين في تطلُّعاتهـم النَّهْضَويّة، ولن نَسْمَـعَ صَوْتاً وَاحِداً - في صُرَاخِ اليوم ونِزَاعَاته - يَخْتَلِفُ بشَكْلٍ ذي مَغْنَىً عمّا تَنَادَى إليه مُثقَّفـو تلك الفَتْرَةِ من أَسْئلةٍ وحَيْرَةٍ وقَلَق. وهكـذا نَسْتطيعُ أنْ نقولَ إنّ «التَّجْربَةَ العربيّة» أَفْلَحَتْ - عَبْرَ قَرْنَيْنِ - في المُحَافَظَةِ على «الإشْكَاليّةِ النَّهْضَويّة» بخَصَائِصِهَا ومُعْضِلاتِهَا فراحتْ تُراوِحُ مكانها، ولم يَتَغَيَّرْ شيءٌ ونحن نَدْلِفُ إلى العَقْدِ الثّاني من «الأَلْفِيّة الثّالثة»، حيـث ما زِلْنَا نَطْرَحُ ذات السُّـؤال الذي طَرَحُوهُ في القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ: (لماذا تَأَخَّرْنَا وتَقدَّمَ غيرُنا؟).

أمّا الحقيقةُ المُحْزِنَةُ فهي أنّ «الإشْكَاليّةَ» قد ازْدَادَتْ عُمْقاً مع تَرَاكُمَاتٍ ومُسْتَجِدَّاتٍ تتفاقَمُ بفِعْلِ «عَامِلِ الزَّمَن» لتَفْرِضَ ثِقَلَهَا وأَسْئِلَتَهَا وحَيْرَتَهَا وضَبَابِيّتَهَا؛ وكُلُّ تلك الحقائق

المَاثِلَةِ للعِيَانِ تُجْبِرُنَا على أنْ نَطْرَحَ السُّؤالَ الأهمّ: (هل المُعَالَجَاتُ السّابِقَةُ بكُلِّ تَنَوُّعَاتِهَا، والتّجَارِبُ الماضيةُ بكُلِّ أَلْوَانِهَا، كانتْ بعيدةً في جوهرها عن طبيعة الإشْكَالِ وحقيقة التّحَدِّي ممّا جعلها عَاجِزَةً عن توفيرِ الحُلُول، وتأْمينِ الخُرُوجِ من المَأْزِقِ الكبير؟).

ولأنّني أَتَّفِقُ – ابْتِدَاءً – مع محمد عابد الجابريّ[1] في تَصَوُّرِهِ بأنّ تَجَاوُزَ أيّ إشْكَالِيّةٍ نظريّةٍ يَتِمُّ بـ(نَقْد الإشْكَالِيّةِ القَائِمَةِ وتَفْكِيكِهَا بصُورةٍ تُمَكِّنُ من كَسْرِ بِنْيتِهَا وتَدْشين قطيعةٍ معها)، ولأنّني أَتَّفِقُ معه في رُؤيتِه بأنّ: (مُهِمّة المُثقّفِ العربيّ في الظُّرُوفِ الرّاهِنَةِ هي مُهِمّةُ إعَادَةِ التَّفْكِيرِ في مَشْرُوعِنَا النّهْضَويّ انْطلاقاً من مُرَاجَعَةِ المفاهيم والتّصورات في ضَوْءِ الوَاقِعِ وتحت ضَوْءِ سِلاحِ النَّقْد)، فإنّ الهَمَّ الرّئيسَ – في هذا الكِتَابِ – هو مُحَاوَلَةُ التَّعَرُّفِ على عَنَاصِرِ «إشْكَاليّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّة»، وفَهْمُ أسْبابِ فَشَلِ الجُهُودِ المُضْنِيَةِ على طريق «التّحَوّل النّوْعِيّ»، وتَمْحِيصُ «آليّات العمليّة النَّهْضَويّة»، والسّعْيُ إلى بَلْوَرَةِ مَحَاورِ «المَأْزِقِ التّنْمويّ» الذي يُجَابِهُ «المُجْتمعات العربيّة» في زمن «العَوْلَمَةِ»، والاهْتِمَامُ بتأْصيلِ مفاهيم تَتَنَاغَمُ مع «الوَاقِعِ الجديد» ومُقْتضياتِه، واقْتِراحُ «آليَّاتٍ عمليّةٍ» تُسْهِمُ في تَحْجِيمِ المَأْزِقِ وتَضْييقِ أبْعَادِه.

يَتَبَنَّى المُؤَلِّفُ – في هذا التَّوَجُّهِ – مَبْدَأَ تَأْصِيلِ أَبْعَادِ «العُنْصُرِ الثَّقافيّ» في مُقَوِّمَاتِ «التَّرْكِيبَةِ التَّنْمَوِيّة» عبْرَ التَّرْكيزِ على تَحْقيقِ التّكامُلِ بين ثَالُوث «التّنْمية – الثّقافة – العِلْم» الذي تَسْتَنِدُ إليه مُقَوِّمَاتُ «الحياة المُعَاصِرَة»؛ فالهدفُ هو تَأْصيلُ «التّنْمية» عِلْمِيّاً، ودَمْجُهَا عُضْوِيّاً في تفاعُلاتِ المُجْتمع، ورَبْطُهَا مَنْهَجِيّاً بجَسَدِ «الثّقافة» وديناميّتها، وذلك عبْرَ جَمْعِ خُيُوطِ الرُّؤى والتّداعياتِ على «السَّاحَةِ الثّقافيّة العربيّة»، والرَّبْطِ بين مُعْطياتِها ووَاقِعِ حالِها وتوقُّعاتِ مُسْتَقْبَلِهَا؛ وهي خُيُوطٌ نَنْتَزِعُهَا من رَحِمِ «الثَّقافة العربيّة» عبْرَ رِحْلَتِهَا على مدى قَرْنَيْنِ في لُهَاثِهَا وراء «النّهْضَة»، لِنَنْسِجَ من كُلِّ ذلك تَكامُلاً يُشَخِّصُ «مُشْكلة الوَاقِع»، ويَسْتَوْعِبُ «تَحدِّياتِ الحَاضِر»، ويَنْتَظِمُ مع «مُتَطَلَّبَاتِ المُسْتَقْبَل»؛ فالقَاعِدَةُ في هذا الكِتَابِ هي: (فَتِّشْ ثُمّ انْقُشْ، وأَسِّسْ ثُمّ ابْنِ).

لقد احْتَلَّتْ «المَسْأَلَةُ الثَّقافيّةُ» مَقْعَداً خَلْفِيّاً قِيَاساً باللّغَط السّياسيّ والجَدَلِ الكلاميّ والاهْتِمَامَاتِ الفَلْسَفِيّة، وانْشَغَلَ العَالَمُ العربيُّ بمعارِكِ التّحْرير الوطنيّة،

وخِلافَـاتِ «التّغْريب» و«التّعْريب»، وقَلَـقِ «العَوْلَمَة»، وصِرَاعَاتِ «الثُّنَائِيَّـات»، مِثْلَ «ثُنَائِيَّة التُّرَاث والحَدَاثَـة»، وانْحَصَـرَتْ «مُشْـكلاتُ النَّهْضَة» و«قضايـا التّنْمية» فـي تَصَوُّرَاتٍ سياسيّـةٍ وثقافيّـةٍ واجْتماعيّـةٍ تَرَاوحَتْ بيـن التّقْليديّ والمُسْتَـوْرَدِ، وصِرَاعَـاتٍ سُلْطويّةٍ فَرَضَتْ مُغَامَرَاتِهَا على الوَاقعِ العربيّ، وجَدَلٍ كلاميٍّ ما زال يُنْهِكُ «المُجْتمعات العربيّة»، ويَسْتَنْفِدُ جُهُودَهَا، بينما راحتْ المُشْكلاتُ تَتَفَاقَمُ، والتَّحَدِّياتُ تَعْصِفُ، والهَزَائِمُ تَتَكَالَب.

يَخْلُصُ هذا الكِتَاب إلـى أنّ المُعْضِلَةَ الأساسَ التي تُعَانِي منهـا «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» هـي: «مُعْضِلَـةٌ ثقافيّـةٌ» بامْتيازٍ، ولكـنّ «الثَّقافة المَطْلُوبَـةَ» ليستْ أيّ تَخَرُّصَـاتٍ ثقافيّةٍ أو إرْهَاصَـاتٍ فِكْريّـةٍ، أو مُزَايَـدَاتٍ لَفْظيّةٍ غَائِمَةٍ عَائِمَـةٍ في سَمَاءٍ مُلَبَّـدَةٍ بالإجْهَاضَاتِ والنَّكَسَـاتِ والإحْبَاطَات، ولكنّها - بالضّـرورة - ثقافةٌ ذات نَكْهَةٍ خاصّةٍ، ومزايا مُحَدَّدَةٍ، ومُقَوِّمَـاتٍ وَاضِحَةٍ، تُحَقِّـقُ «الاسْتِجَابَةَ» اللّازمـةَ لطبيعةِ «التّحَدِّي» القَائِـم، وتَتَوَافَقُ مع «رُوحِ العَصْـر»؛ ولذا يَهْتَمُّ المُؤلِّـفُ بسَبْرِ «العُيُوب البُنْيَويّة» فـي «الثَّقافة العربيّة»، ليُؤَكِّدَ أنّهـا - في مُجْمَلِهَا - مَسْؤولةٌ عن تَفَاقُـمِ «إشْكَالِيّة التّنْمية». وفي ثَنَايَا هذا الكِتَابِ يَسْعَى المُؤَلِّفُ إلى بَلْوَرَةِ «قضيّةٍ غَائِبَةٍ»، وذلك بالرّغْم من أنّها قد تَجِدُ لها تَعْبيراً هنا، وتَحْبيذاً هنـاك، وإشَادَةً عند ذا أو ذاك، ولكنّها لم تَحْظَ بعْد بالدِّراسةِ المُعَمَّقَةِ والتّركيزِ المُكَثَّفِ والتّأْسيسِ المُنْضَبِطِ والتَّأْصيلِ الموضوعيِّ والمُعَالَجَةِ الجَادّة؛ فهناك شيءٌ ما مُضْمَرٌ في النُّفُوسِ، ومُعَلَّقٌ في الهوَاءِ، وغَائِمٌ في العُقُولِ، وهو ما زال يَنْتَظِرُ اللّحْظةَ المُوَاتِيَةَ ليَتَجَسَّدَ ويَتَبَلْوَرَ ويَنْزِلَ إلى الأرْض من عُلُوِّهِ التَّائِه، وحالته المَائِعَة، وعُمُوميّاته الضَّبَابيّة.

طَـوَالَ قَرْنَيْنِ تعامل مُفكِّرُونَـا ومُثقّفُونا وسياسِيُّونَا مع طُرُوحَـاتِ الغَرْبِ السّياسيّة والاقْتصاديّـة والاجْتماعيّـة؛ فحاول بعْضهم تَفْنيدَهَا من ناحيةٍ، وحـاول آخَرون تَقْليدَهَا مـن ناحيةٍ أُخْـرى، وحاولتْ فِئَةٌ أُخْرَى تَطْويعَهَا من ناحيةٍ ثالثـةٍ، وناهضتْها فِئَاتٌ أُخْرى. وفي كُلِّ الحالات أَخْفَقَتْ المُحَاوَلاتُ، وتَبَدَّدَتْ الجُهُودُ، ودَفَعَتْ الأُمّة أثْمَاناً غَاليَةً لتجاربِ فَاشِلَـةٍ؛ فلـم يَتَقَدَّمْ العَالَـمُ العربيُّ إلى الأمام، ولـم يَتَغَيَّرْ وَاقِعُهُ، بَـلْ ازْدَادَ اعْتِمَادُهُ على الآخَريـن، واشْتَدَّ اسْتِهْلاكُهُ لثقافتِهم الغَازِيَـةِ ومُنْتَجَاتِهِم المُتَطَوِّرَة؛ وفي هذا الهَمِّ يقولُ برنارد لويـس (Bernard Lewis): (أَصْحَابُ التَّحْديث، عن طريـقِ الإصْلاحِ أو الثَّوْرَة،

رَكَّـزوا جُهُودَهُمْ على ثلاثة مجالاتٍ رئيسةٍ هي: العَسْكريّــة والاقْتصاديّة والسِّياسيّة. أمّا النَّتَائِجُ التي تَحقَّقَتْ فقد كانتْ - على أقلِّ تَقْديرٍ- مُخَيِّبَةً للآمَال)(٣).

وأمّــا تَعَامُلُ «المُجْتمعات العربيّة» مع «العلوم والتّقْنية»، فقد أَخَذَ مَنْهَجاً اسْتِهْلاكيّاً بَحْتــاً يَتَوَافَقُ مع «رُوحِ الاسْتِهْــلاكِ» الكَامِنَةِ في أَعْمَاقِ «الثَّقافــة العربيّة»؛ فاعْتَقَدَتْ هذه المُجْتمعــاتُ أنّ الحَاوِيَاتِ والصَّنَادِيقَ التي تَشْتَرِيهَا بأَثْمَانٍ بَاهِظَةٍ، وأنّ البَعْثَاتِ المُتَنَوِّعَةَ - التــي بَدَأَتْ ببَعْثَةِ رفاعة الطّهطــاوي في أوائِلِ القَرْنِ التّاسع عشــر الميلاديّ، ونَشِطَتْ فــي القَرْنِ العشرين، وبَلَغَتْ أَوْجَهَا في مَطْلَعِ القَــرْنِ الواحد والعشرين -، وأنّ الاتّفاقيّاتِ الدَّوليــة والمُسَاعَدَاتِ الأُمَميّة والمؤتمراتِ العَالَميّة والثّــرواتِ الطّبيعيّة؛ كُلُّ ذلك سيَحُلُّ الأزْمَــةَ، ويَكْشِــفُ الكُرْبَةَ، ويُزيلُ الغُمَّة، إلاّ أنّ الحقائِقَ الحياتيّــة اليوميّة لواقِعِ «المُوَاطِنِ العربيّ» ومُشْكلاتِ «المُجْتمعات العربيّة» تُسَجِّلُ فَشَلاً ذَرِيعاً، وتَحْكِي قِصَصاً مريرةً تُؤكِّدُ وجود خَلَلٍ عُضْويٍّ في «مُعَادَلَةِ التّنْمية».

وهكــذا بَقِيَتْ الطُّرُوحَاتُ عن «النّهْضَة» و«التّنْمية» و«المَعْرِفَة» و«العلوم والتّقْنية» من قِبَــلِ شرائح المُفكِّرين والمُثقّفين والسّياسيّيــن وحَامِلِيّ الهَمّ العامّ مُغْرِقَةً في عُمُوميَّاتِهَا، وهَائِمَةً في مُصْطَلَحَاتِهَا، ومُكَرِّسَةً لما هو مَعْلُومٌ بالضّرورة في «الحياة المُعَاصِرَة»، ولكنّها فَاقِـدَةٌ للتَّأْصيلِ البُنْيــويِّ في التّفاعُــلاتِ الحياتيّــة، والاسْتراتيجيّةِ المُتَضَمِّنَــةِ لأولويَّاتِ المَسْأَلَة، والآليّاتِ اللّازمَةِ للانْخراطِ في مَسَارَاتِ التَّنْفيذِ والتّفْعيل. تلك الأُطُرُ المُتَداخِلَةُ لثَالُوثِ «التّنْمية - الثّقافة - العِلْم» هي الرُّبُوعُ التي يَهْتَمُّ المُؤلِّفُ - بجُهْدِ المُقِلّ - بتَحْليلِهَا وتأَمُّلِهَــا وتوضيحِ مَعَالِمِهَــا واسْتِكْشَافِ أَبْعَادِهَــا وجُذُورِهَا ومُقَوِّمَاتِهَا، مُؤَمِّــلاً طَرْحَ رُؤيةٍ مُوَحَّدَةٍ مُتَضَافِرَةٍ تُعَرِّي سَبَبَ الخَلَــلِ، وتُشَخِّصُ أَسْبَابَ «الإشْكاليّة»، وتُبَلْوِرُ خُطُوطاً عامّةً لـ«مَشْــرُوعِ النَّهْضَة» المَأْزُوم، وتَدْفَعُ إلى «مَشْرُوعٍ تَنْمَويٍّ» شَامِلٍ يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَعَامَلَ - برِفْقٍ وجِدِّيَّةٍ - مع كُلِّ تلك التَّنَاقُضَاتِ والمُفَارَقَاتِ التي تَتَكَثَّفُ في قاعِ «الثَّقافة العربيّة».

فــي ثَنَايَا هذا الكِتَابِ، نَجِدُ أنّ «السُّؤالَ الثّقافــيّ - التّنْمَويّ» يَعْبَثُ في فَرَاغٍ مُتَرَامِيَ الأَطْــرَافِ إذا فَرَّغْنَــاهُ مِــن «المُحْتَــوى العِلْمــيّ»؛ فإذا كانــتْ «رُوحُ العصْرِ» هــي «العلوم والتّقْنيــة»، فإنّ هذا - بالضّرورة - يَفْرِضُ أنْ تكون «رُوحُ الثّقافةِ المُعَاصِرَةِ» هي «الثَّقافة

العِلْميّــة»؛ لنَخْلُصَ إلى أنّ «الثّقافةَ العِلْميّةَ» هي «القضيّــةُ الغَائِبَةُ» في «الجُهُودِ التّنْمَوية» بأنْواعِهــا؛ فـ«البِنْيَــةُ العِلْميّــةُ» فــي «الثّقافة العربيّة» بِنْيــةٌ هَشَّةٌ، ممّا يَجْعَـلُ من «الثّقافة العِلْميّــة» عُنْصُــراً في حَاجَةٍ ماسَّةٍ إلــى التّأْصيــلِ المُسْتَمِرّ والرِّعَايَةِ الدّؤوبــةِ والتَّكْريسِ الحَازِم، وأمّــا «الإشْكَاليّةُ الحقيقيّةُ» فهي في تَرْجَمَةِ تلك الرُّؤى إلى وَاقِعٍ يَنْبِضُ بالحياة، وإنْجازاتٍ تَتْرُكُ بَصَمَاتِهَا على الأرْض.

تَأْسيســاً علــى مــا سَبَقَ، أقــولُ إنّه لو أَفْلَحَ هــذا الكِتَابُ فــي تَأْمينِ بُــذُورٍ لمِثْلِ تلك الرُّؤيةِ الجَامِعَــة، وتَأْسيسِ مَنْهَجِيّةٍ مُتَرابِطَةٍ لاسْتِنْبَاتِ «الثّقافــة العِلْميّة» دَاخِلَ «البَوْتَقَةِ الجماهيريّة»، وتَأْصِيلِهَا دَاخِــلَ «المَنْظُومَةِ الثّقافيّة»، عبْر اسْتراتيجيّةٍ حيويّةٍ لا تَسْتَجِيبُ فقــط للاعْتبارات العمليّة والنّفْعيّة، ولكن تكونُ أيضاً جُزْءاً من عمليّةِ التّفْكيرِ والمُمَارَسَةِ والسُّلُــوكِ فــي مَنْظُومَةٍ مُتَنَاغِمَةٍ مــن «الثّقافة التّنْمَويّــة» الفَاعِلَةِ على الأرْض؛ أقولُ: لو أَفْلَــحَ هذا الكِتَابُ في بَلْــوَرَةِ شيءٍ من ذلك على طريق «المُسْتَقْبَــل»، فإنّه يكونُ بذلك قد أَسْهَــمَ في قَطْعِ خُطْــوةٍ مُهِمّةٍ على طريقِ الألْف ميــلٍ لتَأْصِيلِ «مَفْهُــوم الثّقافة التّنْمَويّة»، وتَرْسِيــخِ تفاعُلاتِهِ فــي «بَوْتَقَةِ الوَاقِعِ العربيّ»، وتَكْوينِ «رُؤيةٍ مَعْرفيّــةٍ» تَهْتَمُّ بإرْسَاءِ «فِكْرٍ تَنْمَويٍّ» تكونُ وَقُودَهُ ومُحَرِّكَهُ «ثقافةٌ عِلْميّةٌ» مُتَغَلْغِلَةٌ في نسيجِ المُجْتمع، ومُتَأَصِّلَةٌ في بِنْيَتِهِ الفِكْريّة، ودَاعِمَةٌ لتفاعُلاتِهِ التّنْمَويّة والإنْتاجيّة والحياتيّة.

ولأنّ مــن أهمّ مــا يَخْلُصُ إليه المُؤلِّفُ هو أنّ «التّنميــة» – في الأساس – ثقافةٌ ذات ملامــحَ مُعَيَّنَةٍ وخصائص مُمَيَّزَة، ولأنّ اللّغة الحاويــة الواعية هي «المَرْكَبُ» الذي يَحْمِلُ الثّقافة ويَسْتَوْعِبُهَا ويَنْشُرُهَا، فإنّها تُصْبِحُ ذات دَوْرٍ حاسم في تأسيس «التّنمية» والتَّكَيُّفِ مع مُتَطَلّبَاتِهَا. لقد راع المُؤلِّفُ ما تُعَانِي منه «اللّغةُ العربيّةُ» من انْتِهَاكَاتٍ لُغَويّةٍ، وتَشَوُّهَاتٍ في النُّطْقِ، وتَسْطِيحٍ في المعاني، وامْتِهَانٍ في الاسْتِخْدَام، لا يَسْلَمُ منه جَهَابِذَةُ المُتكلّمين ونُخَبُ المُثقَّفين وفَطَاحِلَةُ الإعْلاميّين إلاّ من رَحِمَ ربّي. وأما أحد أبرز أسْباب تلك الرَّزايا فهــو «غِيَــابُ التَّشْكِيلِ» فــي مُختلف النُّصُوصِ المَقْرُوءِ منهــا والمَسْمُــوعِ والمَرْئِيّ؛ ولذا حَرَصَ المُؤلِّفُ على جعْل هذا الكتاب مَشْكُولاً قَــدْرَ الاسْتِطَاعَةِ وبما يفي بما هو ضروريٌّ لإيضــاحِ النُّطْقِ السَّليم للكلمات، وإبْرَازِ المَعْنَى، وتَحْقِيقِ الدَّلالَةِ، وتَقْلِيصِ درجة «التَّلَوُّثِ السّمْعِيّ – اللّغويّ». ونأملُ أن يكون ذلك خُطْوةً تُسْهِمُ في إقْنَاعِ أَهْلِ اليَرَاعِ والفِكْرِ والثَّقافةِ

والإعـلام بالاهتمـام بهذا الجانب وبخاصّةٍ في ظلِّ تَوَافُرِ التَّقْنيـاتِ والمَرَاجِعِ التي تُيَسِّرُ الأمْـرَ وتُقَلِّلُ الجُهْد. ومن نافلة القول أنّ هذا الكتَـابَ، كغيره من أعْمال البشر، لن يَسْلَمَ مـن أخْطَاءٍ مَطْبَعِيَّةٍ ولُغَوِيَّةٍ، ولكنّ المُهِمّ هو بَـذْلُ الوَسْعِ والاسْتِطَاعَةِ لاسْتِدْرَاكِ ما يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُـهُ وتَقْلِيصِ هذه الآفـات، ويبْقى الأمل كبيراً في تَسَامُـحِ القارئ الكريم مع هذه الأخْطَاءِ، وتَفَهُّمِهِ لطبيعتِها.

والله وليُّ التّوفيق.

المُؤلِّف

الرّياض في غرّة شهر جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

الموافق ١٠/٢/٢٠١٦م

إشْكَالِيَّةُ التَّنْمِيَة

١-١) مَدْخَل:

إنّ قضيّةَ النُّهُوضِ بـ«المُجْتمعات العربيّة» والأَخْذِ بها على مسارات الرُّقيِّ والازْدِهَارِ والتَّقَـدُّمِ قضيّـةٌ قديمةٌ مُتَجَدِّدَةٌ؛ فعبْـر المراحِل التّاريخيّة المُخْتلفـة، والأُطُر السّياسيّة المُتَعَدِّدَة، والمناهِج الفِكْريّة المُتَبَاينة، مَرَّتْ هذه القضيّة باجْتِهاداتٍ إصْلاحيّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، بعْضُهـا اهْتَمَّ بتَطْوير واقِـع مُجْتمعاته بأقلِّ الأضْرارِ المُمْكِنَـةِ، مُسْتَنِداً إلى معايير قِيميّةٍ إسْلاميّـةٍ مع مُرَاعَـاةِ التّقاليد السّائدة، وبعْضُها تبنّى مَشْرُوعـاتٍ ثوريّةً، رأتْ أنّ التّحرُّرَ مـن رِبْقَةِ الإحْبَاطِ والتَّخَلُّفِ يَكْمُنُ في نَسْفِ الواقِـع بكُلِّ قِيَمِهِ ومفاهيمِه واعْتباراته ليأتي بحَاضِرٍ جديـدٍ يَتَّجِهُ نحو مكاسِب المُسْتقبَل، ويَمْتَصُّ كُلَّ مُعْطيات «الحضارة الغَرْبيّة»، ويَتَبَرّأُ من تَرِكَة الماضي.

وبيـن ذَيْنَكِ المَوْقِفَيْـن المُتضادَّيْن، تَعَدَّدَتْ المحاولاتُ - التَّوفيقـيّ منها والتّلْفيقيّ - علـى الأَصْعِدَةِ السّياسيّة والاقْتصاديّة والفِكْريّـة والتّعْليميّة والثّقافيّة، وتفاوت تَأْثيرُ هذه المُحـاولات التـي كانـتْ - بطبيعتِها - تُمَثِّـلُ «رُدود فِعْلٍ» آنيّـةٍ وإجْراءاتٍ مُؤَقَّتَـةٍ للتّعامُلِ مـع ثَـوراتٍ عَارِمَـةٍ مُتلاحِقَةٍ في مجـالات العلوم الحديثـة والتّقْنية، والتّصـدّي لطُوفانٍ مُتلاطِـمٍ مُتَجَدِّدٍ مـن «التيّارات الفِكْريّـة» المُصَاحِبَـةِ لـ«الغُزَاة الجُـدُد» القادمين تارةً بلَبُوسِ الاسْتعمار المُباشِر، وتارةً أُخْرى عبْر آليّاتٍ اقْتصاديّـةٍ وتقنيّةٍ وسياسيّةٍ لتَحْقيقِ مصالِحِهم الاقْتصاديّة، وتَرْسيخِ هَيْمَنَتِهم العَالَميّة، وتوطيد نُفُوذهم الدَّوليّ.

لقـد شَهِدَ القَرْنَـانُ الماضيان أشْـكَالاً مُتَنَوِّعَةً من مُحاولاتِ «الإحْيـاء» و«النُّهُوض» فـي العَالَـمِ العربيّ، وجُهُـودِ مُقاومَـةِ الاسْتعْمـار الأوروبيّ، والسَّعـي نحو إعـادةِ تَشْكيلِ

«المُجْتمعـات العربيّـة» في ضـوءِ التّطوُّراتِ والتّغيُّراتِ فـي السّاحةِ العَالَميّـة، كما بَرَزَتْ «الدَّولـةُ القُطْريّةُ» بما وَاكَبَهَا من اهْتِمام بتَحْديثها وتوطيـدِ الانْتِماء إليها؛ ولكن بالرّغْم مـن كُلِّ تلك المُحاولات والتّغيُّـرات إلاّ أنّ «السُّـؤال النّهْضَويّ المِحْـوَريّ»[١] بَقِيَ مُهَيْمِناً علـى «الفِكْـر العربيّ» الحديـث، وحائِراً لا يجـدُ جواباً شافيـاً: (لمـاذا تَأَخَّرْنَا؟ ولماذا تَقَدَّمَ غيرُنا؟).

لقـد شَغَلَ هذا السُّؤالُ – بكُلِّ تداعياته الفِكْريّـة والسّياسيّة والعِلْميّة والاجْتماعيّة – أذْهان المُفكِّرين والمُثقَّفين والنّهْضَويين من مُخْتلف المشارِب على مدى قَرْنَيْن، فطَرَحَهُ سليم البستانيّ عام ١٨٧٠م قائلاً: (لماذا نحن في تَأَخُّرٍ؟)[٤]، وكَتَبَ جمال الدّين الأفغانيّ ومحمد عبـده في عام ١٨٨٤م عن «انْحِطَاطِ المُسْلِميـن وسُكُوتِهِم»[٥]، وتَسَاءَلَ عبد الله النّديـم في عام ١٨٩٢م: (بِمَ تَقَدَّمُوا وتَأَخَّرْنَـا والخَلْقُ واحِدٌ؟)[٦]، وضَجَّ بالسُّؤال شكيب أرسـلان في عـام ١٩٣١م ليَجْعَلَهُ عنواناً لِكتابه: (لمـاذا تَأَخَّرَ المُسْلِمـون، ولماذا تَقَدَّمَ غيرُهـم؟)[٧]، وغيرُهم كُثُرٌ، حيـث راح السُّؤالُ ذاته يَتَكَرَّرُ على امْتِـدادِ القَرْن العشرين عبْـر طُرُوحاتٍ مُخْتلفةٍ، وأنْماطٍ مُتباينـةٍ، وحُلُولٍ مُتعارِضَةٍ، مُتَخَفِّياً تارةً وراء مَشْرُوعاتِ «نَقْد العَقْل العربيّ»، ومُتوارياً تارةً أُخْرى في «ثُنَائِيَّة التُّراث والحَداثَة»، ومُنْدَسّاً تارةً ثالثةً فـي ثنايـا طُرُوحاتِ «إشْكَاليّة التّنْميـة» و«أَزْمَة العَقْل العربيّ»؛ ومـا زال السُّؤالُ مَطْرُوحاً بقُـوّةٍ أكْثر إصْراراً، وأشدّ إلْحاحـاً، ومُكْتَسِباً مزيداً من العُنْفُـوانِ والاضْطِرابِ والتّعْقيدِ ونحن نُواكِبُ العَقْد الثّاني من «الألْفيّة الثّالثة».

يَتَلَمَّسُ شاكر مصطفى أَبْعادَ ذلك السُّؤال المُؤرِّق فيقول: (هذا السُّؤال المصيريّ، النّـازِف كالجُـرْحِ في ضمير كُلِّ عربيٍّ مُلْتَزم، إذا كان ما يـزال يَأْخُذُ يوماً بعد يوم أبْعاداً مَأْساويّةً مُتزايدةً فلأنّه قد مَضَتْ على ارْتِطَامِ هذه الأُمّة بالحضارة الحديثة وبمُعْطياتِها وآلاتِهـا سُنُونٌ بعيدةٌ بعيـدة. كُتْلَةُ الأقاليم العربيّـة مَضَتْ عليها الفتْـرةُ الزّمنيّةُ الكافيةُ لتكـون في مُسْتوى العَصْرِ وتكنولوجيّته وفَيْضِهِ الحضاريّ. مُعْظمُهَا على الأقلّ انْطَلَقَ قبْلَ الصّين التي بَدَأَتْ منذ رُبْعِ قَرْنٍ، بعْضُها قبل روسيا التي بَدَأَتْ منذ سبعين سنة، وبعْضُها قبْلَ اليابان التي بَدَأَتْ منذ مائة سنة. ومع ذلك فهذه الأُمم وَصَلَتْ. كُلُّها وصَلَتْ، بينما لم

يَصِلْ أيُّ إقليمٍ عربيٍّ طليعيٍّ إلى شيءٍ بعْد. مَأْساويّة السُّؤالِ إنّما تَنْبُعُ من احْتمالاتِ الأجْوبة عليه: فهل وَصَلَتْ الأُمّةُ حقّاً مرْحلة الشَّيخوخة فهي إلى الإدْبارِ والعُقْم الحضاريّ؟، أو أضاعَتْ الطّريق؟، وأنّى طريق؟، أَمْ ثَمَّة من الأمْراضِ المُعَقّدَةِ في تَكْوينِها العامّ، ما يَشُلُّ المفاصِلَ أنْ تَسِيرَ السَّيْرَ الذي يَقْتَضِيهِ إيقاعُ العَصْرِ؟. تلك هي المَسْأَلَة)[1].

أمّا مسعود ضاهر، فإنّه يرى أنّه: (رغْم مُرُورِ أكْثر من نِصْف قَرْنٍ على اسْتقلال مُعْظَم الدُّول العربيّة، فإنّ أَسْئلة «النّهْضة العربيّة» ما زالتْ مُعَلَّقَةً أو دون حَلٍّ جِذْريٍّ)[8]، وأمّا برنارد لويس فيُبْحِرُ في خِضَمٍّ هذه «المُعْضِلَةِ النّهْضَويّةِ» الضّاربَةِ أطْنابها في الكِيان العربيّ اللّاهِثِ خلْف مسارات «التَّحْديث» بأنْواعها فيتساءَل: (سرُّ نجاح الغَرْبِ لم يُحَلّ بعْد. هلْ يُمْكِنُ أنْ يكون هناك شيءٌ أكْثر من تَحْديثِ القُوّات المُسَلَّحَة، والدَّولة التي تَحْكُمُهُم، والاقْتصاد الذي يُغَذّيهم ويُجَهِّزُهُم. في كلمةٍ وَاحِدَةٍ، هلْ هناك شيءٌ أكْثر من «الحَداثَة»؟)[3].

١-٢) مُشْكلة المُصْطلح: بين «النّهْضَة و«التّنْمية»:

مع إطْلالة مُصْطلح «التّنْمية» بعد «الحَرْبِ العالميّة الثّانية» ليُصْبِحَ أبْرز الاهْتمامات السّياسيّة والاجْتماعيّة في جميع مناطِق العَالَم[9]، فإنّ مُحاولاتِ «النّهْضة» في العَالَم العربيّ منذ الخمسينات من القَرْن الماضي تَبَنَّتْ «قضيّة التّنْمية» لتَدْخُلَ هذه القضيّة في إطار الشِّعَارَاتِ المَطْرُوحةِ والأهْدَافِ القوميّةِ والتّطَلُّعَاتِ الوطنيّة، ولتُصْبِحَ الشُّغْلَ الشّاغِلَ للخُطَطِ الخمسيّة والبرامِج السّياسيّة والخِطَابِ الإعْلاميّ في مُخْتلف الأقْطار العربيّة، مُمَثِّلَةً بذلك العُنْصر الأبْرز والأهمّ في مُقَوِّمَاتِ «النّهْضَة» التي يَحْلُمُ بها المُفكِّرون، ويَعْمَلُ على تَحْقيقِها السّياسيون، ويَنْتَظِرُ عَوائِدَهَا المواطنون.

وأمّا غازي القصيبي، فيرى أنّ «التّنْمية» هي «قضيّة القضايا» في القَرْن العشرين فيقول: (عبْر نِصْفِ قَرْنٍ ظَهَرَتْ كِميّةٌ هائِلَةٌ من الأدبيّات يُمْكِنُ أنْ نُسَمّيها، في مُجْمَلِهَا، «عِلْم التّنْمية»، أو بعِبارةٍ أدقّ، «علوم التّنْمية». تَخَصَّصَ في «التّنْمية» أساتذةٌ، وبُنِيَتْ

لـ«التّنْميــة» مراكِز بَحْثٍ، وعُقِدَتْ لـ«التّنْمية» ندواتٌ ومؤتمــراتٌ، وظَهَرَتْ لـ«التّنْمية» لُغَة. باخْتِصَــارٍ أصْبَحَــتْ «التّنْميةُ» تَمْــلأُ الدُّنيا وتَشْغَلُ النّاس. هناك مــن دَرَسَ «التّنْمية» من جَانِبِهَــا الاقْتِصــاديّ، وهــؤلاء يُمَثِّلون الغالبيّــة العُظْمَى من الباحِثين، وهنــاك من اهْتَمَّ بالعَوامِــلِ السّياسيّة، وهناك من رَكَّــزَ على العناصِرِ النّفْسيّة، وهنــاك من حَلَّلَ الجَوانِبِ الاجْتماعيّة، وهَلُمّ جَرّا. إنّ القارئ في «أدبيّات التّنْمية» سرْعان ما يجدُ نفْسه على ساحِلِ مُحيــطٍ هَائِــلٍ من الكُتُب لــه أوّل وليس له آخِــر)[10]. بطبيعة الحــال ليست العِبْــرَةُ بـ«الكَمّ»، ســواءً في إنْتَــاجِ الكُتُبِ أو غيره - بالرّغْم من دَلالَته -، ولكــن «الكَيْف» - في نهاية المطاف - هــو المُبْتَغَى والمَطْلَب، وهذا هو الهَــمُّ الأساس لهذا الكِتاب؛ وأمّا نادر فرجاني فيرى أنّ: (مُنْتَصــف السّبعينــات «من القَــرْنِ الماضي» شَهِدَ بدايــةَ حَمْلَةِ مُراجَعَةٍ نَقْديّــةٍ لمَفْهُوم «التّنْميــة» ونماذِجِهَا لأزْمَةِ جُهُود «التّنْمية» في العَالَــمِ الثّالث التي فَضَحَتْ قُصُورَ الأبْنية النّظريّة والتّنْفيذيّة لبرامِج «التّنْمية»)[11].

قد يكونُ من المُنَاسِبِ أنْ نتوقّفَ وَهْلَةً أمام ما يَطْرَحُهُ بعضهم من محاولاتٍ للفَصْلِ بيــن «مَسْألَة النّهْضَة» و«مَسْألَة التّنْميــة» والتّمْييز بينهما، ولقد أقَرَّ محمد عابد الجابريّ بعُيُــوب مِثْــل هــذا الفَصْــل، وإنْ حاول أنْ يضعــه في إطارٍ نظــريٍّ، فــرأى أنّ «إشْكَاليّات النّهْضَــة» هــي «إشْكَاليَّاتٌ فِكْريّــةٌ» بينما قضايــا «التّنْمية» هي: (قضايــا الواقِع، قضايا الاقْتِصاد والاجْتماع والتّعْمير...الــخ)[1]. وعلى أيِّ حالٍ فإنّ «الواقِعَ» لن يَسْتَقيمَ ويَصْلُحَ حاله دون اسْتِقَامَــةِ «الفِكْر» الذي يُهَيْمِنُ على ساحتِه، ويُوَجِّهُ طاقاته، ويُحَفِّزُ اهْتماماته، وفــي نهايــة المطاف فإنّه «لا مُشَاحّة فــي الاصْطلاح» وخاصّةً وأنّ كلمــة «النَّهْضَة» التي عَبَّرَ بهــا رُوّادُ «النّهْضَة» فــي القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ عن مَشْرُوعهــم النّهْضَويّ تتلاقى عند الجابــريّ مع كلمة «التَّمَــدُّن» حيث يقول: (أنْ نَنْهَضَ مَعْناه أنْ نَتَمَــدَّنَ، وأنْ نَتَمَدَّنَ مَعْناه أنْ نُواكِــبَ عَصْرَنَا، أنْ نُسايــرَ تطوُّرَهُ وتقدُّمَــه، أنْ نَقْتَبِسَ من مُنْجزاتِــه الفِكْريّة والماديّة)[1]. وأمّا نادر فرجاني فيجدُ مَخْرَجَهُ من أزْمَةِ «الاصْطلاح» فيقول: («التّنْمية» عندنا مُرادِفٌ لـ«النّهْضَة»، والفارِقُ الأساسيُّ بينهما هو أنّ «التّنْمية» - كما نتصوّرها - هي جُهْدٌ قَصْدِيٌّ، بينمــا «النّهْضَة» هي طَوْرٌ مُجْتمعــيٌّ يَنْشَأُ في مُجْتمعٍ ما نتيجــةً لتفاعُلِ ظُرُوفٍ موضوعيّةٍ تِلْقائيّاً. أمّا «التّنْميةُ» فهي «عمليّةُ إنْهاض»، إذا شِئْنا)[11].

مـن الواضِـح - إذاً - أنّ مُصْطلـح «التّنْميــة» يَرْتَبِـطُ بعوامِل التّخْطيـط والتّنْفيذ والمُتابَعـة التي تُفْرِزُ - عبْـر مُعْطياتها وتراكُماتها وتفاعُلاتها - تلـك «النّهْضَة الشّامِلَة» التـي كانتْ، وما زالتْ، حُلْمَاً يُراوِدُ «المُجْتمعات العربيّة». إنّ مُصْطلح «التّنْمية» مُصْطلحٌ جديـدٌ في لُغَة العَصْر، ولقـد ارْتَبَطَ - في بدايته - في «الفِكْرِ الغَرْبيّ» بمَنْظُورٍ اقْتصاديٍّ حيث عُرِّفَتْ «التّنْمية» بأنّها: (تَنْشيطُ الاقْتصاد القوميّ وتَحْويلُهُ من حالة الرّكُودِ والثّبَاتِ إلـى مرْحلة الحركـة والدّيناميكيّة عن طريـقِ زيادةِ مَقْـدِرَةِ الاقْتصاد القومـيّ لتَحْقيقِ زيادةٍ سنويّةٍ مَلْمُوسَةٍ في إجْمالي النّاتِج القوميّ مع تَغْييرِ هياكِل الإنْتاج ووسائِله ومُسْتوى العمالـة وتزايدٍ في الاعْتِمَادِ علـى القطاع الصّناعيّ والحِرَفِـيّ)[١٢]. وبالرّغْم من هَيْمَنَةِ هـذا «المَنْظُور الاقْتصاديّ» علـى «أدبيّات التّنْميــة»، بسبب معاييره الماديّـة ومُؤشِّراته الكَميّـة، إلاّ أنّ «التّنْميــة» عمليّـةٌ مُتَكامِلَةٌ فهي: (عمليّـةٌ حضاريّةٌ شَامِلَـةٌ لمُخْتلف أوجه النّشـاط في المُجْتمـع بما يُحَقِّقُ رفاه الإنْســان وكرامته، و«التّنْمية» أيضــاً بِناءٌ للإنْسان وتَحْريـرٌ له وتَطْويرٌ لكفاءاتـه وإطْلاقٌ لقُدراته للعمـلِ البَنّـاء، و«التّنْمية»كذلك اكْتِشَافٌ لمَـوارِدِ المُجْتمع وتَنْميتُها والاسْتِخْـدَامُ الأَمْثَلُ لها من أجْل بِنَاءِ الطّاقة الإنْتاجيّة القَادِرَةِ على العطاء المُسْتمرّ)[١٢].

مـن المُهِمّ - أيضاً - أنْ نَعْتَرِفَ - لأغْراضٍ عمليّـةٍ ومَنْطقيّةٍ - أنّ المُشْكلة لا تَكْمُنُ فـي المُصْطلحات، ولكن المُشْكلة تَتَجَسَّدُ في المُجْتمع الذي اسْتَفْحَلَتْ مشاكِلُهُ وتعاظمتْ تحدّياتُـهُ مهما تَنَوَّعَتْ المُصْطلحات وتوالـدتْ التّعْريفات وتَشَعَّبَتْ المَقُولات. ليس المُهِمّ هنـا المُسَمَّيات، ولكن المُهِمّ التّحقُّق من كُنْهِ المَسْأَلَـةِ وسَبْرِ أغْوَارِهَا، وهذا هو «المَنْهَجُ العِلْمِـيُّ» الأصيلُ كما يُوَضِّحُ ريتشارد فاينمان (Richard Feynman) بقوله: (بإمْكانِك أنْ تَعْـرِفَ اسْـم الطَّير بكُلِّ لُغَات العَالَم، ولكنّك عندما تَنْتَهِي مـن ذلك فإنّك لن تَعْرِفَ شيئاً علـى الإطْلاق عن الطَّير، ولكن دعونا نَنْظُرُ إلـى الطَّير ونَرْقُبُ ما يَفْعل، وذلك هو المُهِمّ. لقد تَعَلَّمَتُ منذ وَقْتٍ مُبَكِّرٍ الفَرْقَ بين أنْ تَعْرِفَ اسْمَ شيءٍ ما، وبين أنْ تَعْرِفَ شيئاً ما)[١٣].

١-٣) الحالة العربيّة:

لعلّ من العَجَبِ العُجَابِ في واقِعِ «المُجْتمعات العربيّة» أنّه بالرّغم من مُرُورِ ما يَرْبُو على نِصْفِ قَرْنٍ منذ أنْ غزا مُصْطلح «التّنْمية» الأدبيّات السّياسيّة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّة في العَالَم العربيّ، وما واكَبَ ذلك من تغيُّراتٍ سياسيّةٍ ومَشْروعاتٍ صِناعيّةٍ ومُنْجزاتٍ عِمْرانيّةٍ وتَشْييدٍ للبُنَى التّحْتيّة، إلاّ أنّ المضامين الحقيقيّة لـ«التّنْمية» في إحْداثِ قفَزاتٍ جوهريّةٍ ونَقْلاتٍ نَوعيّةٍ عبْر تَأْسيس قَاعِدَةٍ إنْتاجيّةٍ تَسْتَنِدُ إلى قُدراتٍ ذاتيّةٍ رَاسِخَةٍ ومُتَطوِّرَةٍ باسْتمرارٍ بَقِيَتْ حُلْماً يُراوِدُ الجميع، وسَرَاباً تَلْهَثُ وراءه الجُهُودُ وتُمَجِّدُهُ الكلماتُ حتّى إذا جاءته لم تَجِدْهُ شيئاً. أمّا أحد أبْعاد هذه «الإشْكاليّة» فيَكْمُنُ في ظَاهِرَةِ الحالة البَائِسَة لـ«البَحْثِ العِلْميّ» في العَالَم العربيّ التي وَقَفَ أمامها راشد المبارك مُسْتغْرِباً ومُتَعَجِّباً وحَائراً حيث يُقَرِّرُ أنّه: (في البلاد العربيّة وحدها ما يَقْرُبُ من مائة وخمسين جامعة تَضُمُّ ما لا يَقِلُّ عن ألْف كُليّةٍ جامعيّةٍ يَعْمَلُ بها ما قد يزيدُ عن مائة وخمسين ألْفاً من أعْضاء هيئة التّدريس، فإذا كان نِصْفُ هذا العَدَد يَعْمَلُ في مجالِ «العلوم البحْتة والتطْبيقيّة» مِثْل كُليّات العلوم والهنْدسة والطّب والزّراعة والصّيدلة، وكان كُلُّ عضو هيئة تدريس لا يَنْشُرُ أكْثر من بَحْثٍ وَاحِدٍ كُلّ عامين، فإنّ ذلك يَعْنِي وجود ما لا يَقِلّ عن خمسة وثلاثين ألفاً من الأبْحاث تُنْشَرُ في العام الوَاحِد، وهذا عدا ما يُمْكِنُ أنْ يُنْجَزَ في مراكِزِ البَحْثِ التّابِعَةِ للجامعات والمُسْتَقِلّة عنها، ويَمُدُّ المرء بصره ليرى أثر ما يجبُ أنْ يكون أو ما يُمْكِنُ أنّ يكون من تَأْثير هذه الأبْحاث في تقدُّم البلاد العربيّة العِلْميّ والصّناعيّ والاقْتصاديّ وفي المجالات الأُخْرى، فتَمْلأه الدَّهْشَةُ والذُّهُولُ لضعْف - إنْ لم يكنْ انْعدام - التّوازُنِ بين ما يُنْتَظرُ من هذه الأبْحاث، وبين ما عليه البلاد العربيّة من حال)[١٤].

لعلّ أبْرز مُعَوِّقَاتِ «الحركة التّنْمويّة» في العَالَم العربيّ ما يُقَرِّرُهُ غازي القصيبي بقوله: (لم تكنْ «التّنْمية» سوى نَقْلٍ عَشْوائيٍّ مَحْمُوم يَتِمُّ بدون رُؤْيةٍ صافيةٍ، وبدون نَظْرَةٍ شَامِلَةٍ، وبدون أهْدافٍ وَاضِحَة. كان من المَحْتُوم، والحالة هذه، أنْ تكون النّتيجة كما رأينا نُمُوّاً غير مُنَظّمٍ أفاد الأقليّة وترك الأغلبيّة السّاحِقَة كما وجدها. من تَحْليل نتائج

النُّمــوّ الأعْمى برزتْ شيئاً فشيئــاً الفلْسفة الجديدة التي تُنادِي بوَضْع «التّنْمية» في خِدْمَةِ النّاســ بَدَلاً من تَسْخِيرِ النّاس لخِدْمة «التّنْميــة»)[١٠]. ولعلّ تَعْريف مُصْطلح «الإشْكَاليّة» – فــي حَدِّ ذاتــه – يُلْقِي بعْض الضّوء علــى مَأْزِقِ «الفِكْــر العربيّ» فيما يَخُصُّ «المَسْأَلَةَ التّنْمويّــة»؛ فإذا اعْتَمَدْنَا تَعْريفَ محمد عابد الجابــريّ لمُصْطلح «الإشْكَاليّة» الذي يُقَرِّرُ أنّ: («الإشْكَاليّــة» هــي مَنْظُومــةٌ من العَلاقَاتِ التــي تَنْسِجُهَا، داخِل فِكْــرٍ مُعَيَّنٍ، مشاكِل عديــدةٌ مُترابِطَةٌ لا تتوافــرُ إمْكانيّة حَلِّها مُنْفَرِدَةً ولا تَقْبَلُ الحَلّ، من النّاحية النّظريّة، إلاّ في إطــار حَلٍّ عامٍّ يَشْمَلُهَا جميعاً)[١]، فإنّنا نُدْرِكُ ساعتهــا طبيعة المُعْضِلَة التي جَابَهَتْ وتُجَابِــهُ العَالَــم العربيّ في مُحاولاته النّهضَويّــة وتجاربه التّنْمويّة – علــى مدى قَرْنَيْن – انْتَهَتْ كُلّها بأثرٍ لا يكادُ يُذْكَرُ على مُجْمَلِ «الحالة العربيّة».

لقــد بَيَّنَ مالك بن نبيّ[٢] أنّ المُشْكلة – عبْر الحقْبة النّهضَويّة – كانت تَكْمُنُ في أنّ (كُلّ ذلــك التّشْخيصــ لا يتناولُ في الحقيقة المَرَضَ بَلْ يَتَحَــدَّثُ عن أَعْرَاضِه)، ويُوضِّحُ مالــك بن نبــيّ التّفاصيل فيقول: (مــن المُمْكِــنِ أنْ نَفْحَصَ الآن سِجِــلّاتِ هذه الحقْبة، ففيها كثيرٌ من الوثائق والدِّراسات، ومقالات الصُّحف، والمؤتمرات التي تَتَّصِلُ بموضوع «النّهْضَــة». هذه الدِّراسات تُعالِجُ الاسْتِعْمَارَ والجَهْلَ هنا، والفَقْرَ والبُؤْسَ هناك، وانْعِدَامَ التّنْظيمِ واخْتِلالَ الاقْتصادِ أو السّياسةِ في مُناسبةٍ أُخْرى، ولكن ليس فيها تَحْليلٌ مَنْهجيٌّ للمَرَض، أَعْنِي دِراسةً مَرَضِيّةً للمُجْتمع الإسْلاميّ، بحيث لا تَدَعُ مجالاً للظَنّ حول المَرَضِ الــذي يَتَأَلَّــمُ منــه منذ قُرُون). إنّه مــن المُحْزِنِ – ونحن فــي بدايات «الأَلْفيّــة الثّالثة» – أنْ نجــد أنّ الوَضْــعَ لــم يَتَغَيَّــرْ عن ذلك الوَصْــفِ الذي طَرَحَــهُ مالك بن نبيّ فــي أواخِرِ أربعينــات القَرْن الماضي، فلقد بَقِيَ التّعامُلُ مع الأعْرَاضِ دون تَشْخيصِ المَرَضِ ووَصْفِ الدَّواء، وبَقِيَتْ أبْرز صِفَــاتِ «المَشْرُوع النّهْضَويّ» بأنّه، كما يقول محمد الميلي: (مُوغِلاً فــي التّنْظيــر وشديد التّعْميــم)[٨]؛ وهذا هو الدَّافِــعُ إلى تَأْليفِ هذا الكِتَــابِ حيث يَسْعَى المُؤَلِّــفُ – عبْــر فُصُوله – إلى التّعامُلِ مــع هذه «الإشْكَاليّة» بمَنْهجيّــةٍ وَاضِحَةِ العناصِر، ومُحَــدَّدَةِ الأُطُر، عبْــر صَهْرِ تفاعُلاتِ المُثقّفيــن وطُرُوحاتِ المُفكِّريــن، وتَسْليطِ الضّوء على المُؤَثِّــراتِ الحقيقيّةِ وراء تلك المُعانَــاةِ الفِكْريّةِ والمَخَاضِ التّنْمــويّ، وبَلْوَرَةِ الرُّؤيةِ المُسْتَقْبَليّةِ المُنْسَجِمَةِ مع تلك الإرْهاصات، والمُتَناغِمَةِ مع طبيعة التّحدّيات.

إنّ «تَحَـدِّي التّنْمية» لا يُجابهُ «المُجْتمعـات العربيّة» وَحْدَهَا لأنّه ليس فقط الهَاجِسَ المُقيـمَ لكُلِّ «الدُّول النّامية»، ولكنّه أيضاً حالة أَرَقٍ يوميّةٍ لـ«الدُّول المُتَقَدِّمَة» وهي تُراجِعُ - بشَـكْلٍ مُكَثَّـفٍ ودَؤوبٍ - كفاءتهـا التّنافُسيّـة ومعايير تَنْميتها ومقاييسـ تقدُّمها، وهي فـي حالة قَلَـقٍ دائِمٍ خَوْفاً من الانْزِلاقِ إلى أسْفَلِ «سُلَّـم التّنْمية» بالمُقارَنَةِ مع منافسيها. ولـذا فلا صِحَّة لما قد يَعْتَقِدُهُ بعضهم - في ضوء إخْفاقات مُجْتمعاتٍ عديدةٍ في تأْسيسِ «البِنْيـة التّنْمَويّة» الصَّلْدَة - أنّ هناك «مَنْظُومةً سِحْريّـةً» لا تَمْتَلِكُهَا إلاّ مُجْتمعاتٌ مُعَيَّنَةٌ مـن الشُّعُـوبِ المُخْتَارَةِ التـي تَقَعُ غَالِباً في النِّصْـفِ الشّماليّ من الكُـرَةِ الأرْضيّة، أو أنّ هنـاك «إجْـراءاتٍ سِرِّيّـةً» بَقِيَتْ حِقَباً من الزّمـن - وما زالتْ - في حَـوْزَةِ القُوى الغَالِبَةِ المُهَيْمِنَةِ في «الأَلْفيّة الثّالثة». ومن ذلك المُنْطَلَقِ فإنّ من المُهِمّ - بدايةً - أنْ نَتَلَمَّسَ أبْعَادَ هـذه «الإشْكَاليّة التّنْمَويّة» ونَتَعَرَّفَ على جُذُورِها، ثـمّ نُلْقِي نَظْرَةً سريعةً على المُحاولاتِ المُتَنَوِّعَـةِ خلال القَرْنَيْـن الماضِيَيْن لانْتِشَـالِ «المُجْتمعات العربيّة» من هـذا «المَأْزِق»، والخُرُوجِ بها من متاهات التَّخَلُّفِ والإحْباط.

١-٤) أبْعَادُ «إشْكاليّة التّنمية»:

إنّ التّعْقيـداتِ المُحيطَـةَ بعمليّة «التّنْميـة»، وتداخُلاتِها المُتَعَـدِّدَةَ المحاوِر، تَجْعَلُ مـن الصّعْبِ الإحاطة بكُلِّ التّفاصيلِ والتُّخُـومِ والرّكَائِزِ المُرْتَبِطَةِ بـ«إشْكَاليّة التّنْمية» في «المُجْتمعـات العربيّة»، فكما يقولُ أسامة عبد الرحمن: (فالتّخَلُّفُ حَصِيلةٌ من الأمْراض الاجْتماعيّـة والاقْتصاديّـة والسّياسيّة والإداريّـة والثّقافيّة، وهَلْ «التّنْميـة» إلاّ تَشْخِيصٌ وعِلاجٌ لكُلِّ تلك الأمْراض، وكيف لا تكونُ «التّنْمية» بعد كُلِّ هذا عمليّةً مُعَقَّدَةً ومُسْتَعْصِيَةً، وكيـف لا تَسْقُطُ مُحاولاتُ «التّنْمية» أو يُصِيبُهَـا الإحْبَاطُ والوَهَنُ حين يكونُ هناك تهاونٌ فـي التّشْخِيصِ أو قُصُورٌ في العِـلاج، أو حين تكونُ خُطَطُ «التّنْميـة» تَصَوُّراتٍ تَبْسيطيّةً جُزْئيّةً سَاذَجَةً قد لا تَخْرُجُ عن دَائِرَةِ الأمَانيّ أو أضْغَاثِ الأحْلام؟)[١٢].

وهكذا يُصْبِحُ من المُهِـمّ لأيّ مُعالَجَةٍ جادّةٍ لتَحْليلِ هذه القضيّة المصيريّة وفَهْمِهَا أنْ تَلْجَـأَ إلى «مُحاولاتِ التّفْكيك»؛ ولذا فإنّنا نَطْرَحُ هنا ثلاثة أبْعَادٍ تُسْهِمُ في الكَشْفِ عن

مدى عُمْقِ هذه «الإشْكَالِيّة» وتَجَذُّرِهَا في الوجود العربيّ، وهي:

- الواقِعُ التّنْمَويّ في العَالَمِ العربيّ.
- البُعْدُ الفِكْرِيّ.
- البُعْدُ العَمَلِيّ.

١-٤- ١) الواقِعُ التّنْمَويّ في العَالَم العربيّ:

إنّ المرُاقِبَ للأوضاعِ في «المُجْتمعات النّامية»، بما فيها «المُجْتمعات العربيّة»، يجدُ أنّها تُعانِي - في المقام الأوّل - من مُشْكلةٍ في طرائِقِ التّعامُلِ مع أبْعَادِ «التّنْمية»؛ فهي تَتَحَوَّلُ بشَكْلٍ مُطَّرَدٍ إلى مُجْتمعاتٍ «اسْتِهْلاكيّة» تَعْتَمِدُ في احْتياجاتِها المُخْتلفة، وأنْمَاطِ حياتِها المُتَنَوِّعَة، على مُعْطياتِ «الدُّول المُتَقَدِّمَة» ومُنْتَجاتِها، والمُلاحَظُ أنّ الفَجْوَةَ تَتَفَاقَمُ بشَكْلٍ مُتسارِعٍ بين «الدُّول المُتَقَدِّمَة» (دُول الشَّمال) وبين «الدُّول النَّامية» (دُول الجنوب)، وهي فَجْوَةٌ تَعْتَمِدُ في أسْبابِها على «التَّطوُّر العِلْميّ - التّقنيّ - المَعْلُوماتيّ» الذي تُعايشُهُ وتَصْنَعُهُ «الدُّول المُتَقَدِّمَة»، بينما تُعَانِي «الدُّول النَّامية» - بدرجاتٍ مُتفاوتةٍ - من عَجْزٍ في القُدْرَةِ على اسْتيعابِ عناصِرِ هذه الحركة الدَّؤوبة، والتّعامُلِ معها مَعْرفيّاً، وثقافيّاً، وفِكْرِيّاً، واجْتماعيّاً، واقْتصاديّاً.

أمّا المُحْزِنُ في الأمْرِ، فهو أنّ هذه الحال ليست بجديدةٍ على الواقِعِ العربيّ وتُخُومِهِ الإسْلاميّةِ، فهي حالةٌ اسْتَشْرَتْ في هذه المُجْتمعات، وتَفَاقَمَتْ على مدى قُرُونٍ؛ ونجدُ أنّ برنارد لويس يَصِفُ حال «الدّولة العُثْمانيّة» في القَرْنِ السّابع عشر الميلاديّ فيقول: (لقد كانتْ «المَعْرِفَةُ» شيئاً يُقْتَنَى أو يُخَزَّنُ وإنْ كان لِزاماً يُشْتَرَى، وليس شيئاً يُسْتَنْبَتُ أو يُطَوَّر)[٣]. هذه هي الحقيقة التي تَتَأَكَّدُ لدى محمد عابد الجابريّ الذي يرى أنّ: (مُشْكِل النّهْضة كما يُعانِيه العرب اليوم إنّما يجدُ مَصْدره ومُكَوِّناته في التّناقُضِ الذي يُمَيِّزُ الوَضْعَ العربيّ الرّاهِن: التّناقُضُ بين مظاهِرِ الحضارة الحديثة كما يعيشونها على مُسْتوى الاسْتِهْلاك، وبين مظاهِرِ التَّخَلُّفِ كما يُعانُونها على مُسْتوى الإنْتاجِ والسُّلُوكِ والتَّفْكير)[١].

وأمّـا بالنِّسْبَةِ للمُراقِبِ العاديّ لأوضاعِ العَالَم العربيّ، فإنّه ليس في حاجَةٍ إلى دليلٍ لتَأْكيدِ حالـة «العَجْزِ العربيّ» بانْعكاساتها الحياتيّة والسّياسيّـة والاقْتصاديّة والعَسْكريّة والمعيشيّـة، ومـا يُصَاحِبُ ذلك من إحْبَاطَاتٍ ومُشْكِلاتٍ وهَـزّاتٍ على مُخْتلفِ الأصْعِدَة، وقد يكونُ الإتْيانُ بأدِلَّةٍ وشَواهِد في هذا المِضْمار هو من باب التَّحَدُّثِ عن بدهيّاتٍ فيكون الحالُ كما قال شاعرُنا:

وليس يصِحُّ في الأَفْهَامِ شيءٌ إذا احْتَاجَ النّهَارُ إلى دَليلِ

ولأنّنا هنا في مقامِ «دِراسةٍ موضوعيّةٍ» تَهْتَمُّ بالتّأْسيسِ العِلْميّ، والتّوثيقِ المُنْضَبط؛ فمـن الضّروري إيرادُ شيءٍ مـن الأدِلّةِ والدِّراسات، واسْتِقْـرَاءُ النّتائِج من شَواهِد عِلْميّةٍ ومُؤشِّراتٍ موضوعيّة.

تُشِيـرُ «الدِّراسـات التّنْمَويّة» إلـى جَوانِبِ قُصُـورٍ مُتَعَدِّدَةٍ في أوضـاعِ «المُجْتمعات العربيّـة» في مجـالاتِ «التّنْميـة» المُخْتلفة، ومـن أبْرز هـذه الدِّراسات «تَقْريـرُ التّنْمية الإنْسانيّـة العربيّـة للعام ٢٠٠٢ م»(١٥)، الصّـادر عن «برْنامج الأُمم المُتَّحـدة الإنْمائيّ»، الذي يُبْرِزُ مجْمُوعةً من السّلْبيّات من أهمِّها:

١) النُّموُّ في دَخْلِ الفَرْد العربيّ هو الأدْنَى في العَالَم عبْر العشرين عاماً الماضية حيث سيحْتاجُ المُواطِن العربيّ إلى ١٤٠ عاماً ليُضاعِفَ دَخْلَهُ، بينما مُواطِن شَرْق – آسيا أو الصّين يُضاعِفُ دَخْلَهُ في غُضُونِ عشرة أعْوامٍ فقط. تُوَضِّحُ الدِّراسة – أيضـاً – أنّ ممّـا يَحُدُّ مـن إمْكانيّة النُّمـوّ المُسْتقبَليّ في العَالَـم العربيّ هو «انْخفاض الإنْتاجيّة»، بَلْ وتراجُعها خلال السّنـوات الماضية بحيث أَصْبَحَتْ أقلّ ممّا هو الحال لدى مجْموعات الدُّول النّامية الأخْرى.

٢) تَبْلُـغُ «الأُمِّيّـة» في بعْض الـدُّول العربيّة إلى حوالـي ٦٠٪، ويَبْلُغُ عَـدَد الأُمِّيّين العرب ٦٠ مليون أُمِّيٍّ من البَالِغين ومُعْظمهم من النِّسـاء.

٣) تُعانـي مُعْظَمُ البلدان العربيّة من مُعَدَّلات بَطَالَةٍ تزيدُ عن ١٠٪، وهي من أعْلَى النِّسَبِ في العَالَم، والفَجْـوَةُ كبيرةٌ بين مُخْرَجَاتِ النُّظُم التّعْليميّة واحْتياجاتِ

أسْـواق العمـل، ويزيدُ من اتِّسَاعِ الفَجْـوَةِ التّغيُّرُ السّريعُ فـي احْتياجاتِ «سُوق العمل» النّاجِمِ عن «العَوْلَمَة»، وعن مُتَطَلَّباتِ التّقْنيات سريعة التّطوُّر.

أمّـا أسْبَابُ هـذه «الأَزْمَةِ التّنْمَوِيّةِ» فـي المَنْطقة العربيّة فيَعْزُوهـا التّقْريرُ[١٥] إلى نَواقِص ثلاثة:

١) النّقْصُ في الحُريّات السّياسيّة والمَدَنيّة.

٢) النّقْصُ في تَمْكين المرأة.

٣) نَقْصُ القُـدرات الإنْسانيّة المُتَمَثِّلُ في قُصُورِ اكْتِسَـابِ «المَعْرِفَة»، ناهيك عن إنْتاجها.

ولقد صَدَرَتْ بعد هذا التّقْرير تقاريرُ مُتتاليةٌ تَتَقَصّى أوجه أُخْرى للسّلبيّات، وتُفِيضُ في دَلالاتِها ومُؤشّراتِها وتَبِعَاتِهَا، إلاّ أنّ الأَسْبَابَ الأهمَّ تَبْقَى مُرْتَبطةً بتلك النَّواقِص التي أَكَّدَ عليها هذا التّقرير، وأَسْهَبَتْ في تفاصيلها التّقاريرُ المُتعاقِبة.

إنّ العَامِـلَ الأَبْـرزَ بين هذه النَّواقِص هو «العَامِلُ الثّالـث»، وسيتَّضِحُ في سِياق هذا الكِتَـاب أنّ الأَسْبَـابَ التـي أَدَّتْ إلى وجوده هـي الأَسْبَـابُ نفْسها التي عَمَّقَتْ مـن تَأْثير السَّبَبَيْـن الآخَرَيْن، كما سنُبَيِّـنُ أنّ التَّغَلُّبَ على «العَامِلِ الثّالث»، وهو «النَّقْصُ المَعْرِفيّ»، يقـودُ بطبيعتِـه إلى مُعَالَجَةِ قَـدْرٍ كبيرٍ مـن النّقْصِ فـي العَامِلَيْن الآخَرَيْـن: «الحُريّات» و«تَمْكين المرأة».

١-٤-٢) البُعْدُ الفِكْريّ:

لقد انْشَغَلَتْ الأُمّةُ الإسْلاميّةُ بقضايا «النّهْضَة» و«الإصْلاح» و«التّحْديث» منذ أواخِر القَـرْن الثّامـن عشر الميلاديّ عندما بَـدَأَتْ علاماتُ الوَهَنِ والتّآكُلِ تَضْـرِبُ في أطْنَابِ الدَّولـة العُثْمانيّة[١٦]، وبَرَزَ «النّمُوذَجُ الحضـاريُّ الأوروبيُّ» بصفته نَمُوذَجاً مُهَيْمِناً بسبب إنْجـازاتِ «الثَّوْرَةِ العِلْميّة – التّقنيّة» التي هَيّأَ العَالَمُ الغَرْبيُّ أَسْبابَها، واسْتَثْمَرَ مُعْطياتِها،

وحَقَّـقَ - عبْرها - مكاسِب اقْتصاديّةً وهَيْمَنَـةً عَسْكريّةً، وعَاصَرَ - من خلالها - تغيُّراتٍ جِذْريّةً وتطوُّراتٍ عميقةً على الأصْعِدَةِ الاجْتماعيّةِ والسّياسيّةِ والفِكْريّةِ والحياتيّة.

إنّ الوَعْـيَ بحالةِ الإحْبَاطِ والتّقَهْقُـر، وقَسْوَةَ الصَّدْمَةِ إزاء تَفَوُّقِ «النَّمُوذَجِ الغَرْبيِّ»، أَجْبَرَا المُفكِّرين والسّياسيين وعُلماءَ الدِّين - في العَالَمِ العربيّ - على الاهْتِمَامِ بتَشْخيصِ الحالة، وطَرْحِ وسائِل للنُّهُوضِ بالأُمّة، والتَّغَلُّبِ على أسْبَابِ الضَّعْف، والتّفاعُلِ مع مصادرِ القُوّة. وفي هذا الإطار تَبْرُزُ «المُشْكلةُ الفِكْريّةُ» - بظِلالِهَا الكثيفة - عبْر «ثُنَائِيَّة الأصَالَة والمُعَاصَرَة» التي أَرَّقَتْ «الفِكْر العربيّ» على مدى عُقُودٍ طويلةٍ، ويَتَحَدَّثُ عنها محمد عابد الجابـريّ فيقـول: (المُشْكِلُ الذي يُواجِهُنَـا ليس مُشْكِل أنْ نَخْتَارَ بين أحـد نَمُوذَجَيْنِ ولا مُشْـكِل أنْ نُوَفِّـقَ بينهما، بَلْ إنّ المُشْكِلَ الذي نُعانيه هو مُشْـكِلُ الازْدواجيّة التي تَطْبَعُ كُلَّ مَرافِـق حياتنا الماديّة والفِكْريّـة، لا، بَلْ المُشْكلة في الحقيقة هـي ازْدواجيّة مَوْقِفِنَا من هـذه الازْدواجيّة: نحن نَقْبَلُ هذه الازْدواجيّة على صعيـد واقِعنا الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ والسّياسـيّ والتّعْليميّ فنَبْنِي مُخطّطاتِنَـا التّنْمَويّة على أساسِ تَنْمية هذا الواقِعِ المُزْدَوَج: نَصْـرِفُ على «القطاعات العَصْريّة» من أجْل تَدْعيمهـا وتوسيعها باسْم «التَّحْديث»، كما نَصْـرِفُ على «القطاعات التَّقْليديّة» مـن أجْل الإبْقَاءِ عليها وإحْيَـاءِ المُنْدَثِرِ منها باسْم «الأصَالَـة» والحِفاظِ علـى التّقاليد، ولكننّا في الوَقْت ذاتـه، نَرْفُضُ هذه الازْدواجيّة على صعيدٍ آخَر: صعيد الحياة الرُّوحيّة والفِكْريّة)[1].

وهكـذا في ظِـلِّ الأَفْعـال ورُدود الأَفْعَال تَعَـدَّدَتْ المَواقِـفُ، وتباينـتْ الاجْتهاداتُ، وتَشَعَّبَتْ التّوجُّهاتُ، ويُمْكِنُ تَصْنيفُها - إجْمَالاً - في أنْمَاطٍ ثلاثة، هي:

1) المَدْرَسَةُ التُّراثيّة- الانْعِزاليّة.

2) المَدْرَسَةُ الحَداثيّة - الانْبِهَارِيّة.

3) المَدْرَسَةُ التَّوفيقيّة - الإصْلاحيّة.

١-٤-٢- أ) المَدْرَسَة التُّراثيّة - الانْعزاليّة:

لقد الْتَفَّ أَصْحَابُ هذه المَدْرَسَةِ حول التّبْشيرِ بإصْلاحِ «أَحْوالِ الخَلَفِ» بما صَلُحَتْ بـه «أَحْوالُ السَّلَفِ»، وتَمَسَّكُوا بمَبْدَأ الرّفْضِ المُطْلَقِ لـ«النَّمُوذَجِ الغَرْبيّ» بدَعْوَى التّمَسُّكِ بـ«المَـورُوثِ»، ومُقَاومَةِ «التَّغْريب»، والتَّعَصُّبِ للقديم، والحِفَاظِ على «الهُويّةِ الإسْلاميّةِ»، وعملـوا جَاهِديـن على كَبْـحِ ريـاحِ التّغْيير وحَـرَاكِ التَّطْويرِ عبْـر تَضْييقِ الواسِـع، وحَجْرِ الاجْتِهـاد، ومُحَارَبَـةِ المُسْتَحْدَثَاتِ التّقنيّـة، ومُحَاوَلَةِ فَرْضِ الرُّؤى الأَحَاديّـة. لقد تَعَدَّدَتْ «رُدودُ الفِعْـل» لدى أَصْحَابِ هـذه المَدْرَسَة؛ فتَطَوَّرَتْ – بفِعْلِ الزّمـن – عن شَكْلِهَا البُدائيِّ الذي كان يرى في كُلِّ تَطَوُّرٍ عِلْميٍّ، أو تَقْنيةٍ جديدةٍ، شَرَّاً مُسْتطيراً، إلاّ أنّها – بشَكْلٍ عامٍّ – حَافَظَـتْ على «النَّزْعَةِ التّبْسِيطيّة» التي أَهْمَلَـتْ التَّداخُلاتِ المُتَشَعِّبَةَ في طبيعة «التّدافُعِ الحضاريّ» بين البشـر، وتجاهلتْ التّفاصيل الدّقيقة في «تَرْكيبة المُجْتمعات المُعَاصِرَة» ومُقَوِّمات تطوُّرها.

لم تكُنْ لمِثْلِ هذه المَدْرَسَةِ القُدْرَةُ على الصُّمُود؛ فبِفِعْلِ «الطَّبيعة الاقْتِحَاميّة للعلوم والتّقْنيـة» التي تَفْرِضُ وجودها على المُجْتمعـات قَاطِبَةً عبْر توليدِ الاحْتياجـات، وتَلْبيَةِ الطّلبات، وتوفيرِ الخِدْمَات، وتَسْهيل المُهمّات، اضْمَحَلَّ تَأْثيرُ تلك «المَدْرَسَةِ الانْغلاقيّة»، وذلـك – على الأقـلّ – فيمـا يَتَعَلَّـقُ بالتّعَامُلِ مـع مُنْتَجَاتِ «الحركـة العِلْميّـة والتّقنيّة»، والاسْتِفَـادَةِ من مُعْطياتِها، ولكنّها بَقِيَتْ تُحَـاوِلُ المُحَافَظَةَ على بعْض نُفُوذِهَا في أشْكالٍ فِكْريّـةٍ مُجَـرَّدَةٍ، ووَصْفَاتٍ كلاميّةٍ عامّةٍ، وخِياراتٍ سياسيّـةٍ ضيّقةٍ، وتفاعُلاتٍ اجْتماعيّةٍ صَارِمَـةٍ، وراحتْ تتفاعـلُ – ببُطْءٍ شديدٍ وحَذَرٍ بَالِغٍ – مع مُقْتضيـات «الحياة العَصْريّة»؛ إلاّ أنّـه مـن الواضِحِ أنّ تداعياتِ أحْداثِ العَقْد الأوّل مـن «الألْفيّة الثّالثة» ورِياحَ ما عُرِفَ بـ«الرّبيـع العربيّ» فـي مَطْلعِ العَقْد الثّاني دَفَعَـتْ بجُلِّ مُكَوِّنَاتِ هـذه المَدْرَسَةِ إلى تَعْديلِ مَواقِفِهَـا، واسْتِيعابِ المُتَغيِّراتِ والتّعَامُلِ مـع «فِقْهِ الواقِع»، فأَصْبَحَتْ بذلك تَقْتَرِبُ كثيراً من «المَدْرسة التَّوفيقيّة – الإصْلاحيّة».

١-٤-٢- ب) المَدْرَسَة الحَدَاثيّة - الانْبهاريّة:

علـى النَّقِيضِ الآخَر لتلك «المَدْرَسَـة التُّراثيّـة - الانْعِزاليّة» بَرَزَتْ نُخَـبٌ انْبَهَرَتْ بـ«المَنْظُومَـة الغَرْبيّـة»، وتفوُّقهـا البارز في ميادين الحيـاة المُخْتلفة، فحاولـتْ أنْ تُلْغِيَ ماضــي الأُمّة، وأنْ تَبْعَـثَ فيها مفاهيم جديدةً مُسْتَوْرَدَةً من واقِـعِ الآخَرين، وانْتماءاتِهم العَقَدِيّة، واهْتِماماتِهم الفِكْريّة - وذلك بمزاعِم «العَقْلانيّة» و«البراجماتيّة» و«الليبراليّة» و«الدِّيموقراطيّـة» -، ودَعَـتْ إلـى اعْتِنـاقِ «النَّمُوذَج الحضـاريّ الغَرْبيّ» بـكُلِّ تفاصيله، والانْغِمَاسِ فـي كُلِّ مُعْطياته، وتَقْليـدِ الأَجْنبيّ الأوروبيّ دون تَحَفُّظٍ أو نَقْـدٍ أو تَرَدُّدٍ، وهو المَوْقِـفُ الـذي عَبَّرَ عنه طه حسيـن - أحد أبْرز رُوّاد هذه الحركة فـي القَرْن العشرين- بقولـه: (لكـن السَّبيل إلى الحضـارة ليستْ في الـكلامِ يُرْسَلُ إرْسَالاً، ولا فـي المظاهِرِ الكَاذِبَـةِ والأوضـاعِ المُلَفَّقَة، وإنّما هـي واضِحَةٌ بَيِّنَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ ليس فيهـا عِوَجٌ ولا الْتِوَاء، وهـي واحِدَةٌ فَـذَّةٌ ليس لها تَعَدُّد، وهي أنْ نسير سِيـرَةَ الأوروبيّين ونَسْلُكَ طريقَهم لنكون لهـم أنْداداً، ولنكون لهم شُرَكَاءَ في الحضارة، خَيْرِهَـا وشَرِّهَا، حُلْوِهَا ومُرِّهَا، وما يُحَبُّ منهـا وما يُكْرَهُ، وما يُحْمَدُ منها وما يُعَاب)[١٧]. أمّا «التَّيـاراتُ الرَّاديكاليّةُ»، المُتَمَثِّلَةُ في الحـركات اليساريّـة والقوميّة، فقد نَحَتْ نَحْـواً مُخَالِفاً في الاتِّجَاهِ انْطلاقـاً من عَدَائِهَا لـ«النَّمُـوذَجِ الرَّأْسماليّ الغَرْبـيّ»، إلاّ أنّها اتَّفَقَتْ مع «النَّمُـوذَجِ الحَداثيّ - الليبراليّ» في ضرورة إلْغَاءِ «الذَّاكِرَةِ التَّاريخيّة» للأُمّة، وإبْدَالِ هُوِّيتِها بشَكْلٍ جِذْريّ.

لقـد رَأَتْ تلـك النُّخَبُ - المُنْبَهِـرَةُ بـ«النَّمُوذَجِ الحضـاريّ الغَرْبـيّ» - أنّ «التُّرَاث» سَلاسِـلُ متينـةٌ تَمْنَعُ حركـة المُجْتمع فتُصِيبُهُ بإعَاقَـةٍ مُسْتَديمَـةٍ، وأنّ «التَّاريخ» ليس إلاّ مَكْمَنـاً للتَّخَلُّـفِ والتَّقَوْقُع، وبَشَّـرُوا باحْتِضَـانِ «المُسْتَقْبَل» عبْر نَبْذِ «الماضــي» والتَّحَرُّرِ مِـن قُيُودِه، ولم يكنْ حصاد تلك المُحـاولات إلاّ مزيداً من التَّخَبُّطِ الفِكْريّ، والإحْبَاطَاتِ المُتراكِمَـة، والهزائـم المُتتالية؛ لأنّ القَفْزَ فوق «التَّاريخ» هو «طَفْـوٌ في الفَرَاغ»، و«الطَّفْوُ فـي الفَرَاغ» حالةٌ من «انْعِـدَامِ الوَزْن» غريبةٌ وشَاذَّةٌ على الأَجْسَـامِ الماديّة، ونهايتُها هي

السُّقُـوطُ الحَتْمِيُّ والارْتِطَامُ بالأرْضِ الصُّلْبَةِ مع ما يُصَاحِبُ ذلك من أضْرَارٍ، فكيف بها إذا تَحَوَّلَتْ إلى حالةٍ فِكْرِيَّةٍ، ووِجْدانيّةٍ، وقِيميّة؟.

إنّ المُراجَعَةَ المُتَأنِيّةَ في ضوء التَّطَوُّرِ التّاريخيِّ لمَزَاعِم «مَدْرَسَةِ الانْبِهَار» تُبَيِّنُ أنّ فَكّ الارْتِبَاطِ بين الأُمّة، وبين ما حَسَبُوهُ سَلاسِلاً تُكَبِّلُ «الرُّؤية العَقْلانيّة» في زمنِ «العَقْلِ والعِلْـمِ والتّقْنيــة»، أفْرَزَ حالاتٍ بَائِسَةً مِـن التَّشَتُّتِ الذِّهْنيّ والإرْبَـاكِ المُجْتمعيّ، وتَوَرَّطَ فـي مُحاولاتِ مَحْوِ «الذَّاكِـرَة الجَمْعيّة»، وفُقْدَانِ «البَوْصَلَةِ الفِكْرِيّـة» التي تَشْحَذُ الإرادة، وتَسْتَقْطِـبُ الجُهُود، وتُرَتِّبُ الأولويّات. ولا شكّ أنّنا سنجدُ من الأعْذارِ ما يَكْفِي لأصْحَابِ هــذه «المَدْرَسَـةِ الانْبِهَارِيّة»؛ فقد كان مِـن الحَتْمِيّ أنْ يُؤَدِّيَ عُمْـقُ «الهزيمة الحضاريّة»، التــي ابْتُلِيَتْ بهــا الأُمّة، إلى أزْمَـةِ هُويّةٍ كَاسِحَــةٍ تَجَلّتْ بعضُ مظاهِرِها فــي «رُدود فِعْلٍ» مُتَمــرِّدَةٍ، ولكن لا يَمْنَعُ ذلك من طَرْحِ احْتِجَاجٍ عَقْلانيٍّ على أصْحَابِ «المَدْرَسَة العَقْلانيّة - الانْبِهَارِيّة» بشِقَّيْهَا «الليبراليّ» و«الرَّاديكاليّ»؛ فأوَّلُ مُعْطياتِ «العَقْلَنَة» تُؤكِّدُ أنّ «زِرَاعَةَ الأعْضَــاءِ الغريبة» في الجِسْمِ البشــريّ عُرْضَةٌ لأنْ يَلْفِظُها الجِسْــمُ وتَرْفُضُهَا تفاعُلاتُه، فكيف إذا فَرَضْنَا هذه «الزِّرَاعَة» على نسيجِ الذّاكِرَةِ وخلايا الدّماغِ ودخائِلِ الرُّوح؟! وهل يُمْكِنُ للإنْسان أنْ يُغَيِّرَ جِلْدَهُ، ويَسْتَبْدِلَ رُوحَهُ، ويَسْتَحْوِذَ على عَقْلِ غيره؟!.

١-٤-٢- ج) المَدْرَسَة التّوفيقيّة - الإصْلاحيّة :

لقد آثَـرَتْ هذه المَدْرَسَةُ أنْ تَجْمَـعَ بين «الحُسْنَيَيْن»؛ فحَرَصَــتْ على الحِفَاظِ على «الهُويّــة الإسْلاميّة» وقِيَمِهَا وتُرَاثِهَا، وفي الوَقْتِ نفْسه سَعَتْ إلى الاسْتِفَادَةِ من المُعْطياتِ العِلْميّــةِ والإنْجــازاتِ التّقنيّةِ في «النَّمُــوذَجِ الغَرْبيّ»، حيث رَأَتْ أنّ ذلــك من باب «الأَخْذِ بأَسْبَــابِ القُوّة»، وأنّه شَرْطٌ ضروريٌّ لتَحْقيقِ «النّهْضَــة»، فطَرَحَتْ بذلك رُؤيةً تَسْتَنِدُ إلى عمليّةِ «الانْتِقَاءِ والاخْتِيــار»، وأُسْلُوب «التَّوفيق بين التُّرَاث والحَدَاثَة»، لتَأْخُذَ ما يُنَاسِبُهَا، وتَلْفِـظَ ما يُعَارِضُهَا، وتُوَاكِبَ المُتَغيِّرَاتِ بحَذَرٍ وأنَاة. ومن أبْرز رُوّادِ هذه المَدْرَسَةِ رفاعة رافع الطّهطاويّ (١٨٠١م - ١٨٧٣م)، وجمال الدِّين الأفغانيّ (١٨٣٩- ١٨٩٧م)، ومحمد عبــده (١٨٤٩- ١٩٠٥م) الذين أكّدُوا أنّ «التَّفَوُّقَ الغَرْبــيّ» هو نتيجةٌ طبيعيّةٌ لنَهْضَةِ تلك

المُجْتمعات في مجالاتِ «العلوم والتّقْنية»؛ وبالتّالي فإنّ المُهمّةَ تَكْمُنُ في دِراسَةِ مُقوِّماتِ «الحَضَارَةِ الغَرْبيّة»، وتَمْحيصِهَا، وانْتِقَاءِ العناصِرِ التي يُمْكِنُ للمُجْتمعاتِ الإسْلاميّةِ أنْ تَقْتَبِسَهَا وتُوَظِّفَهَا في مسيرة «النّهْضَة» دون المَسَاسِ بالعقائِدِ الدِّينيّة والقِيَمِ الإسْلاميّة[١٦].

إنّ تأمُّلَ مَواقِفِ رجال هذه المَدْرَسَة يَشِي بأنّهم وضعوا نَصْبَ أعْينهم «النَّمُوذَجَ الإسْلاميّ» في العَصْرَيْنِ الأمويّ والعبّاسيّ في انْفِتَاحِهِ على ثقافاتِ الأُمَمِ المُغَايِرَة، واسْتَشْرَفُوا دَوْرَ «دار الحِكْمَة» في عَهْدِ المأمون في تَرْجَمَةِ أعْمال اليونانيّين ليَنْهَلَ منها عُلماءُ المُسْلمين، ويتفاعلوا - أخْذاً وعطاءً - مع مُقَوِّمَاتِهَا الفِكْريّة وعناصِرِهَا العِلْميّة. إنّ المُقارَنَةَ بذلك «النّمُوذَج» - إنْ كانتْ فَرَضِيَّتُنا باتِّخَاذِهِ نَمُوذَجاً لدى أَهْلِ «المَدْرَسَةِ الإصْلاحيّة» صحيحةً - تُعَانِي مِن خَلَلٍ وَاضِحٍ؛ ففي العَصْرَيْنِ الأمويّ والعبّاسيّ كان المُسْلِمون في أَوْجِ عُنْفوانِهم وحيويّتِهم، وكانوا يتعاملون من مَوْقِعِ القُوّة والرِّيادة، وفي الوَقْتِ نفْسِه كانتْ مُعْظَمُ أعْمال اليونانيّين وغيرهم من الأُمَمِ تَتَمَحْوَرُ حول القضايا الفلْسفيّة والتّنْظير المُجَرَّد، ولم يكنْ أيٌّ منها يَحْمِلُ مُعْطياتٍ ماديّةً تُغَيِّرُ أنْمَاطَ الحياة، وتُبَدِّلُ تفاعُلاتِ البشر، وتُؤَثِّرُ في الاقْتصادِ والمعاشِ والهَيْمَنَةِ العَسْكريّةِ ووسائِل الاتّصال وغير ذلك من انْقِلابَاتٍ جِذْريّةٍ تَمَيّزَتْ بها «الحركة العِلْميّة التّقنيّة» التي انْبَثَقَتْ على أَرْضيّةٍ غَرْبيّةٍ في القُرُون الثّلاثة الأخيرة.

إنّ تلك المُقارَنَةَ تَفْقِدُ - أيضاً - الكثير من جِدِّيَّتِهَا عندما نُدْرِكُ أنّ التّفاعُلَ مع «الفَلْسفة اليونانيّة» لم يكنْ مُجَرَّدَ عمليّة «انْتِقَاءٍ وتَوفيقٍ»، ولكنّها كانتْ عمليّةً فِكْريّةً عميقةً لم تَخْلُ من آثارٍ فلْسفيّةٍ وامْتِداداتٍ نظريّةٍ وإرْهاصاتٍ فِكْريّةٍ ورُدود فِعْلٍ مُتباينةٍ على المُسْتويات العَقَديّة والقِيميّة والكلاميّة في تاريخ المُسْلِمين، بما حَمَلَ ذلك التّفاعُلُ من سَلْبيّاتٍ وإيجابيّات. وتَفْقِدُ هذه المُقارَنَةُ ما تَبَقَّى لها من جِدِّيّةٍ عندما نَأْخُذُ في الاعْتِبار أنّ العرب كانوا في مَوْقِعِ الهَيْمَنَةِ آنذاك، وكانوا يَنْهَلُون من فِكْرِ أُمّةٍ يونانيّةٍ خَمَدَتْ جَذْوَتُهَا وغَابَتْ شَمْسُهَا؛ وأمّا واقِعُ العرب اليوم فهو مُخْتلفٌ تماماً، حيث إنّهم يَتَصَدّون لعِمْلاقٍ ضَخْمٍ هَيْمَنَ على أرْجاء الحياة بنُفُوذِه وقِيَمِه ومُمارَساتِه وأنْمَاطِ حياته.

نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّ غَالبيّةً مَلْمُوسَةً من المُثقّفين العرب انْتَهُوا إلى تَبَنّي مَوْقِف هذه «المَدْرَسَــة» الذي يَأْخُذُ من «الحَضَارَةِ الغَالِبَةِ» ما يُوافِقُ احْتياجاته ويرى أنّ له قِيمةً ذاتيّةً ومَرْدُوداً مُفيداً، ويَنْبُذُ ما لا يَتَّفِقُ مع قناعاتِه القِيميّةِ ومَواقِفه المَبْدئيّةِ وتصوُّراته الحياتيّة، ويرى أحمد صدقي الدّجاني أنّ هذا «المَوْقِف» يُؤدّي إلى أنْ: (يُحَقّقَ هؤلاء تفاعُلاً إيجابيّاً مع تُراثِهِم الحضاريّ فَضْلاً عن التّفاعُلِ الإيجابيّ مع الحضارة الأُخْرى)(١٨).

١-٤-٢- د) اسْتِمْرارُ «الفِكْر الحَائِر»:

لا شــكّ أنّ كُلاًّ مــن تلــك «المدارس» قــد سَعَتْ إلــى تَعْميــقِ حُضُورِهَا عبْــر كُلِّ ما أُوتيــتْ من فُرَصٍ في فضاءاتِ العمل السّياســيّ أو الاجْتماعيّ أو الاقْتصاديّ أو التّعْليميّ، ولكــن الشّواهِدَ – على مــدى عُقُودٍ مُتتاليةٍ – تُبْــرِزُ حقيقةَ اسْتِمْرَارِ «الفِكْــرِ الحَائِر» بين «التُّــرَاث والحَدَاثة»، واحْتِــدَامِ الصِّرَاعِ بينهما تارةً، ومُحــاولاتِ التَّهْدِئَةِ تارةً أُخْرى، وما يــزالُ الواقِعُ العربيّ أسير تَخَلُّفِه، على الرّغْم من تَنَــوُّعِ الطُّرُوحات الإنْشائيّة والمُناورات الجَدَليّــة والوَقَفَــات التّأمُّليّــة والخِطابات الوَعْظيّة، وما تــزالُ كُلُّ الحُلُولِ التــي تَطْرَحُهَا تلــك «المدارس» – عبْر الصَّوْلاتِ الخَطابيّةِ والجَــوْلاتِ الكلاميّةِ والتّحْليلاتِ التّعْميميّةِ – عَاجِــزَةً عن تَغْيير «الواقِع العربيّ» وإخْراجِهِ من مَأْزِقِهِ التّنْمَويّ، ممّا يَجْعَلُنَا نَتَّفِقُ مع عبد الإلــه بلقزيز فــي قوله: (إنّ «الفِكْرَ العربيّ المُعَاصِر» مــا زال يعيشُ اليوم الزّمن الفِكْريّ النّهْضَويّ الذي ابْتَدَأَ في مُنْتصف القَرْن التّاسع عشر)(١٩).

فــي هــذا السِّياقِ يُؤكّدُ برنــارد لويس «الحالــة الحَائِرَة» التي تُعَانــي منْها مُحاولات المُجْتمعــات الإسْلاميّة للنُّهُوضِ ومُنافَسَةِ «العَالَمِ الغَرْبــيّ» فيقول: (لقد تَمّ تَجْريبُ عَددٍ مــن طُرُق العِــلاج: الأسْلحة والمصانِع والمدارِس والبرلمانــات، ولكن أيّاً منْها لم يُحَقّقْ النّتيجــة المَنْشُودة. هنا وهنــاك جَلَبَتْ هذه العِلاجَات بعْض التّخْفيف من المُعاناة، وحتّى بعْض المنافِع لفِئاتٍ مَحْدُودةٍ من السُّكان. ولكنّها فَشَلَتْ في عِلاجٍ أو حتّى إيقافِ التّدَهْورِ فــي الموازين بين الإسْلام والعَالَم الغَرْبيّ)(٢٠). ويُوجِزُ لنا زكي نجيب محمود هذه الحالة التــي تَــدُورُ دَوْرَاتٍ كَامِلَــةً دون أنْ تُحَقّقَ نتيجةً عمليّــةً مُحَدَّدَةً فيقــول: (اسْتَخْرَجْتُ من

مَكْتبتــي مَجْموعــة المقالات الإصْلاحيّة التــي كتبها الشّيخ محمد عبــده لأرى ماذا يكون الفَـرْقُ بين المُشْكلات التي عَرَضَــتْ له، والمُشْكلات التي تَعْرِضُ لنا فإذا هي في جُمْلَتِهَا مُتَشَابِهَةٌ، ممّا دعاني إلى السُّؤال: «ماذا صَنَعَتْ - إذاً - كِتَابة الكُتَّاب في زمنٍ طُوله قَرْنٌ كامِـلٌ؟، فلو كُنّا قد أَدْرَنَا تَعْليمنا علــى الرَّبْطِ الوثيقِ بين الكلام الذي نقولُهُ والعمل الذي نُؤَدِّيــه، لتَغَيَّرَتْ حتّــى طريقة كلامنا نفْسه، فتَقِــلّ السُّيُولَةُ اللّفْظيّةُ التــي تَذْهَبُ هَوَاءً مع الهَوَاء، وتَبْقَى حالُنا هي حالُنا، ولا يُغَيِّرُهَا إلاّ سَواعِد العَامِلين)[٢٠].

١-٤-٣) البُعْدُ العَمَليّ:

من المُهِمّ أنْ نَتَلَمَّسَ أبْعَادَ «إشْكَاليّة التّنْمية» عبْر تَمْحيصِ آثارها المُجْتمعيّة المَاثِلَةِ للعِيان، وتَقْييمِ ظُرُوفِهَا الواقِعيّةِ المُهَيْمِنَةِ على السّاحة الحياتيّة في «المُجْتمعات العربيّة»، وهــذا يَعْنِي - بالضّــرورة - التَّوقُّفَ أمــام حقيقةٍ لا يُمْكِــنُ إنْكارها، وهــي أنّ «المَدَارِسَ الفِكْريّــة» المُخْتلفة، و«الأَنْظِمَــةَ السِّياسيّة» المُتباينة، التي تعاقبــتْ على السّاحة العربيّة طَــوَالَ القَرْنَيْنِ الماضِيَيْن لــم تتمكَّنْ من تَحْقيقِ غاياتها وتطلُّعاتهــا، ولم يكنْ هناك من نجاحٍ يُذْكَرُ على مُسْتــوى «النّقْلَة النّوْعيّة» المَطْلوبة في إمْكاناتِ الأُمّة، وقُدْراتِها الذّاتيّة، ونُفُوذِها بين الأُمم.

إنّ مــا يُؤَكِّــدُهُ برهان غليون[١٨] مــن فَشَلِ ما أَسْمَــاهُ «التّنْميــة البيروقراطيّة»، وهو الشّــكْلُ العمليُّ الذي اتَّخَذَتْهُ «التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّة»، يَطْرَحُ علاماتِ اسْتِفْهام حــول «الطَّبيعة البيروقراطيّــة» التي تَبْدُو وكأنّها تَعْمَلُ في فَــرَاغٍ، وتَنْشَأُ على وَرَقٍ، وتَنْتَقِلُ عبْر قراراتٍ لا تجدُ لها صَدَىً على الأَصْعِدَة الحياتيّة. إنّ هذا الحال يُشِيرُ - بالضّرورة - إلى أنّها تَنْميةٌ لم تَجِدْ لها جُذُوراً في مُجْتمعها، ويَبْقَى السُّؤالُ الأكْبر، الذي يُمَثِّلُ المِحْوَرَ الرّئيسَ لاهْتِمامات هذا الكِتاب، وهو: (ما الطَّريقُ إلــى تَجْذيرِ «التّنْمية»، ونَشْرِ فِكْرها، وتوطيدِ سُلُوكيّاتِها، وجَعْلِهَا جُزْءاً فاعِلاً من حركةٍ تَدِبُّ على الأَرْض؟).

إنّنــا نجــدُ - عبْــر تجــارب قَرْنَيْــنِ مــن الزّمــن - اسْتِمْــرَارَ المُحــاولات، وتَعَــدُّدَ الاسْتراتيجّيــات فــي «المُجْتمعات العربيّــة»، كما نجــدُ أنّ الإجْمَاعَ مَعْقُودٌ بيــن سياسيّي «الــدُّول النّاميــة» ومُفكِّريهــا ومُثقَّفيهــا أنّ طريــق النّجَاةِ والخَلاصِ من حالــة التَّخَلُّفِ والضّعْــفِ وهَيْمَنَةِ الآخريــن تَكْمُنُ في «الأُفُقِ العِلْميّ- التّقنــيّ»، وأَطْلَقُوا أَسْمَاءً عِدَّةً على الهــدف الرّئيس لـ«التّنْمية» لعــلّ أشْهرها وأبْرزها هو مُصْطلح «نَقْــل التّقْنية وتَوطينها». لقــد أَدْرَكَ الجميــعُ أنّ التّفَوُّقَ الحاليّ للدُّول المُتَقَدِّمَة ليســ تَفوُّقاً في المَواهِبِ الشِّعْريّة، ولا نُبُوغــاً في مجالاتِ الخَطابَــةِ والأدب، ولا تَمَيُّزاً جُغْرافيّاً، ولا طَفْرَةً وِراثيّةً آثَرَتْهُم دون غيرهــم مــن البشــر، ولا رِفْعَةً في الأخْــلاقِ والقِيَم، ولكنّــه يَكْمُنُ في قضيّــةٍ واحِدَةٍ هي: «المَعْرِفَةُ العِلْميّةُ والتَّمَكُّنُ التّقنيّ» بكُلِّ ما يَتَمَخَّضُ عنهما من صِناعاتٍ مُتطوِّرةٍ، وقُدْرَاتٍ عَسْكريّةٍ، ورفاهيّةٍ معيشيّةٍ، وغَزَارَةٍ إنْتاجيّةٍ، وهَيْمَنَةٍ إعْلاميّةٍ، ونُفُوذٍ فِكْريّ. ويُوجزُ زكي نجيــب محمود هذا المَوْقِفَ بقوله: (سُؤالُنا لماذا تَقدَّمَتْ أوروبا بعد تَخلُّفٍ وتَخَلَّفْنَا نحن بعد تَقَدُّم؟ إنّنا نَسْأَلُ سُؤالنا هذا، وكأنّ الجَوابَ خَافٍ عن الأبْصار، يَحْتاجُ من الباحِثين دَرْساً وتَنْقيباً، مع أنّ الجَوابَ يَخْرِقُ العَيْن، وهو: لقد حاولتْ أوروبا منذ نَهْضتِها في القَرْن السّادس عشر أنْ تَقِفَ الوَقْفَةَ العَقْليّةَ العِلْميّةَ التي تَبْتَكِرُ بها في كُلِّ يوم حقيقةً جديدةً عن دُنْيانا هذه التي نعيشُ على أرْضِها ونتنفَّس هواءَها، بينما اتَّجَهْنَا خلال الفتْرة نفْسها نحو الماضي، نُبْدِي في نُصُوصِهِ المَكْتُوبَةِ ونُعيد)[٢٠].

لقــد راح مُفكِّرونا وسياسيّونا وشُعراؤنــا وكُتّابُ المقال والرّواية يُدَاعِبُون «الأهْداف التّنْمَويّــة»، ويَتَغَنّون بـ«نَقْــل التّقنية وتَوطينها» في كُلِّ مُناسبــةٍ ومَحْفَلٍ، وانْعكس الاهْتِمام بـ«التّنْميــة» ومُتطلَّباتهــا على مُخْتلف مُسْتويات القرار ومجــالات التّنْفيذ؛ فراحتْ السُّفُنُ تجــوبُ البِحَار، والطّائراتُ تَخْتَرِقُ السُّحُــب، والشّاحناتُ تصولُ في الصّحارى والوديان، حَامِلَةً مُخْتلــف التّجْهيزات والمُعِــدّات والأدوات في صناديق مُخْتلفةِ الأحْجَــام ومُتَعَدِّدَةِ الألْوان، وأَتَتْ «وسائِلُ التّقْنية» تتهادى إلى الدُّول النّامية عبْر الشِّرَاءِ المُباشِرِ أو المُقايَضَةِ أو المِنَح، ولكن يَبْقَى السُّؤالُ المَأْزُوم: (هل تَحَقَّقَ الهدف؟، وهل اسْتَطَاعَتْ الدُّولُ النَّامية أنْ تُحْدِثَ «النَّقْلَةَ التّنْمَويّة» اللازِمة في مُجْتمعاتِها؟).

وفي إطار نَشْرِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّة»، وتَطْويرِ مهارات المُواطنين، ورَبْطِهم بالمُتطلَّبات العِلْميّة والضَّوابِط التّقنيّة، حَرَصَتْ الدُّولُ العربيّةُ على تَعْليم أبنائِها وتَدْريبهم في شَتّى مجالات «العلوم والتّقْنية»؛ فانْطَلَقَتْ البَعْثَاتُ إلى «الدُّول المُتَقَدِّمَة» لتَكْتَسِبَ المَعْرفة، وعادتْ لتقوم بدَوْرِهَا في عمليّةِ «النّقْلِ المَعْرفيّ» عبْر الجامعات والمعاهد والكليّات، وبَرَزَتْ الصِّناعاتُ في معاقِل هنا وهناك، ورَاحَتْ بدَوْرِهَا تَحْرِصُ على اسْتيرادِ التّقْنية المُتطوِّرة وتَدْريبِ المُواطِن وتأْهيلِه. ولكن مازال الهدفُ بعيداً، والفَجْوَةُ في اتِّسَاعٍ، وما زال أصْحَابُ القرار والمُفكِّرون والعُلماءُ والأدباءُ والشُّعراءُ يتحدَّثون عن «التّحدِّيات العِلْميّة – التّقنيّة» التي تتنامى، واتِّسَاعِ الفَجْوَةِ مع أصْدَاءِ «الثَّوْرَةِ المَعْلُوماتيّة» التي تَتَفَجَّرُ كَونيّاً، ومُشْكلاتِ التّعْليم والصِّحَةِ والبَحْثِ العِلْميّ والتّدْريب والفَقْرِ والبَطَالَةِ التي تَتَفَاقَمُ، ويقفون على أطْلالِ الأوضاع في «المُجْتمعات العربيّة» ليَلْهَثُوا وراء مُنْجزاتِ الآخرين، وليَنْعُوا واقِعاً أليماً، وليَصِفُوا حَاضِراً حزيناً، وهذا ما يُشِيرُ إليه إسماعيل صبري عبد الله بقوله: (التَّخَلُّفُ بالمَعْنَى الاصْطلاحيّ ليس رُكُوداً وجُمُوداً، ولكنّه تَنْميةٌ مُعْوَجَّةٌ مُتَوَجِّهَةٌ إلى الخَارِجِ تُورِّثُ التَّبَعِيّة)[11].

أمّا على أصْعِدَةِ عَقْدِ المؤتمرات، وتَنْظيم النّدوات، وإجْرَاءِ الدِّراسات، فحَدِّثْ ولا حَرَج، ونجدُ أنّ مُعْظَمَهَا يدورُ في الفلك نفْسه من التّنْديدِ بالواقِع، ومُنَاشَدَةِ مَنْ في الدَّاخِلِ والخارِجِ لدَعْم «التّنْمية» ومَنْحِهَا فُرصها السّياسيّة وشُرُوطها الاقْتصاديّة وبيئتها العِلْميّة، ويُلْقِي بعْضهم تارةً باللّوم على الحُكّام، وتارةً يكون «العَدُوّ الخَارِجيّ» هو المَسْؤول، وتُهَيْمِنُ «نظريّةُ المؤامرة» ليَقْبَعَ جميعهم في قفص الاتّهام باسْتِثْنَاءِ «الذّات العربيّة» البريئة التي لم يَتِمّ حتّى الآن تَحْديدُ سِمَاتِهَا ومُواصَفَاتِهَا وخَصَائِصِهَا وحُقُوقِهَا وواجباتِهَا، ويُغَنِّي جميعهم على ليلى المُتَمَثِّلَة في شِعارات «التّنْمية المُسْتَدَامَة» و«مُجْتمع المَعْرِفَة» و«نَقْل التّقْنية وتَوطينها»، ويَطْلُبون وِصَالَهَا، ويَنْفَضُّ الجَمْعُ، وتُرْفَعُ الأوراقُ، وتُصْدَرُ النّشراتُ، ليتكرَّرَ اللقاءُ في وَقْتٍ آخر ومكانٍ مُخْتلفٍ لسماع «الأسْطوانة» إيّاها، بينما يتراجعُ «الوَاقِعُ التّنْمويُّ»، وتَتَرَدَّى أوجهُ الحياة المُتَعَدِّدَةُ في مُعَانَاةِ «المُواطِن العربيّ».

إذا كان محمد جابر الأنصاري قد وجد أنّ «الوَاقِع السِّياسيّ» في «المُجْتمعات العربيّة» يَتَمَيَّزُ بظَاهِرَةِ «حَرْقِ المراحل» حيث يقول: (بالنَّظَرِ إلى القُوّة المُتعاظِمَة لأوروبا الليبراليّة في ذلك الوَقْت، ولفداحة الشُّعُور بـ«التَّخَلُّفِ» لدى النُّخَبِ العربيّة الوطنيّة والقوميّة، تجاهل «الوَعْيُ النُّخْبويّ» السّائِدُ عندئذٍ حقائِق القَاعِدَةِ السوسيولوجيّة في البِنْيَة الاجْتماعيّة التي يَقِفُ عليها)[٢١]؛ فإنّنا نُبْرِزُ - في سِياق هذا الكِتاب - مُعْضِلَةً أُخْرى نرى أنّها أهمّ وأكْبر من «المُعْضِلِ السِّياسيّ» و«الإشْكَالِيّةِ الاجْتماعيّة»، ولها التّأْثِيرُ الأكْبَرُ على حَلْحَلَةِ «المُعْضِلِ السِّياسيّ» وتَفْكيكِ «الإشْكَالِيّة الاجْتماعيّة»؛ وهي أنّ حال «الوَاقِع التّنْمَوِيّ العربيّ» قد أَغْفَلَ - في توجُّهاته نحو «الحركة العِلْميّة - التقنيّة» وتعامُلاته معها - حقائِق مُهِمّةً مُرْتَبِطَةً بخصائِص «التَّكْوين الثّقافيّ» في «البِنْية المُجْتمعيّة»، ممّا أدّى إلى أنْ يُرَاوِحَ هذا «الوَاقِعُ التّنْمَوِيُّ» مكانه - بَلْ ويَتَرَاجَعُ بمُرُورِ الأيام - بالرّغْم من برامِج التّطْوير في السّياسات، وخُطط التّوسُّع في الجامعات ومراكِز الأبْحاث، واتّساع حركة الاسْتيراد النَّشِطَة لكُلِّ ما هو جديد؛ وفي نهاية المطاف نَخْلُصُ - في هذا الكِتاب - إلى أنّ الْتِحَامَ الوَاقِعَيْن «الثَّقافيّ - التَّنْمَوِيّ» و«السِّياسيّ - الاجْتماعيّ» وتَأْثيراتهما المُتبادَلَة يُحَدِّدَان - بالضّرورة - مُسْتَقْبَلَ «المُجْتمعات العربيّة».

إنّ «الوَاقِعَ التّنْمَويّ»، بظِلالِه وألْوانه المُخْتلفة في غَالِبيّةِ «الدّول النّامية»، لا يَبْتَعِدُ كثيراً عمّا أوجزه أسامة عبد الرحمن بقوله: (لقد حَقَّقَتْ «إدارة التّنْمية» بعْض الإنْجازات المُتَمَثِّلَة في مشاريع البِناء والتّشييد، كما حَقَّقَتْ بعْض الإنْجازات في مجال الخِدْمَاتِ وإنْ لم تكنْ بالنّوعيّة المَطْلوبة، غير أنّها أَخْفَقَتْ بصُورةٍ مَلْمُوسةٍ في إحْداثِ تَغْييراتٍ أساسيّةٍ في أساليب الإنْتاج، وعَلاقَاتِ الإنْتاج، وفي تَطْويرِ القُوى البشريّة، وفي إيجادِ القاعِدَةِ الصّناعيّةِ المُرْتَكِزَةِ على المَعْرِفَةِ والمَهارَةِ الذّاتيّة)[١٢]. ويرى إسماعيل صبري عبد الله أنّ: (كُلّ نُموٍّ اقْتصاديٍّ «أيّ زيادة في النّاتِج القوميّ الإجْماليّ»، أو تَنْميةٍ اقْتصاديّةٍ «أيّ تغيُّر في بِنْية الاقْتصاد أساساً عن طريق التّصْنيع» تَتِمُّ في إطار النّظام العَالَميّ الحاليّ، تُوثِّقُ الارْتِباطَ به، وتُؤكِّدُ التَّبَعِيّةَ والاسْتِغْلال، وتكون أيضاً تَنْميةً مُعْوَجَّةً، أو شَكْلاً من التَّخَلُّفِ أكْثر تَعْقيداً من الأشْكال التّقْليديّة المَعْرُوفة)[١١]. أمّا نجيب عيسى، فيَذْهَبُ

إلــى أبْعد من ذلك حيث يرى أنّ تَجْربَةَ «نَقْل التّقْنية»- في دُول العَالَم الثّالث - قَادَتْ إلى تَعْميقِ «التّبَعيّة» للدُّول المُتَقدِّمَة فيقول: (حتّى الآن، لم تَتَوَصَّلْ سياسةُ «نَقْلِ التّكنولوجيا» علــى تَعَـدُّدِ أشْكالِها، إلى تَحْقيقِ الأهْداف التي حُدِّدَتْ لها أصْــلاً، والتي تَتَلَخَّصُ بتَسْريعِ «عمليّــة التّنْمية» عُموماً و«عمليّة التّصْنيع» خُصُوصاً في بلدان العَالَم الثّالث، على العَكْسِ مــن ذلك فقد أدّى «نَقْــلُ التّكنولوجيا» الحديثة بالبُنَــى الاقْتصاديّة والاجْتماعيّة في هذه البلدان إلى مزيدٍ من الاخْتِلالِ والتَّبَعِيّةِ تِجاه البلدان المُتَقدِّمَة) (٢٢).

هذا هــو الإخْفَاقُ الصَّارِخُ الذي نَصْطَدِمُ به فيما يَخُصُّ «البُعْدَ العَمَليّ» لـ «إشْكَاليّة التّنْمية» (١٢،٢٣،٢٤)، وذلك أينما وَجَّهْنَا وِجْهَتَنَا في العَالَمِ العربيّ، ويُمْكِنُ إيجاز هذا الإخْفَاقِ في السُّؤالِ التّالي: (لماذا تَتَمَدَّدُ - في الدُّول العربيّة - رُقْعَةُ الصِّناعات، وتَنْتَشِرُ المدارسُ والجامعــات، وتَتَنَوَّعُ مراكزُ التّدْريبِ والتّأْهيل، وتَتَعَــدَّدُ معاقِلُ البُحُوث، وفي الوَقْتِ نفْسه تَتَّسِعُ الفَجْوَةُ العِلْميّة، وتَتَفَاقَمُ الهُوّةُ التّقنيّة، وتَنْمُو قائِمَةُ المُسْتَوردات، وتَتَعَمَّقُ «التَّبَعيّة»، وتَتَجلّى مَظَاهِــرُ «التّنْمية المُعْوَجَّة»)؟). وفي مُقابِلِ هذا السُّؤالِ نَطْرَحُ سُؤالاً آخراً: (هلْ السّبَبُ الرّئيسُ وراء هذا الوَضْعِ المُتَرَدِّي في «المُجْتمعات العربيّة» هو أنّها وَضَعَتْ العَرَبَةَ أمام الحِصَانِ فما تَحَرَّكَتْ العَرَبَةُ، وذَبُلَتْ عَضَلاتُ الحِصَان؟).

١-٥) «إشْكَاليّة التّنْمية»: مُحَاوَلَةٌ للفَهْم:

إنّ المُتَأمِّــلَ لـ«البُعْــدِ الفِكْريِّ» لـ«إشْكَاليّــة التّنْمية» يجدُ أنّه، فــي أشْكالِه المُخْتلفة ومدارِسه المُتَنَوِّعة، ليس أكْثر من «رُدودِ فِعْلٍ» مُتفاوِتةِ الحِدَّةِ إزاء تَفَوُّق «النَّمُوذَجِ الغَرْبِيِّ» الذي فَرَضَ حُضُورَهُ ونُفُوذَهُ عبْر إنْجازاتِه على الصّعيدِ الحياتيّ وفي الأُطُرِ العمليّة، ونجدُ أنّ المُحَصِّلَــةَ - على مدى قَرْنَيْنِ مــن المُحاولاتِ الفَاشِلَةِ لإحْــداثِ «النّهْضَة» في العَالَمِ العربــيّ - كانــتْ تَقَوْقُعَ «الهَــمّ الفِكْريّ» حول الثُّنَائيّــاتِ الشّهيرة، مِثْل: ثُنَائيّــةِ «الأصَالَة والمُعَاصَــرَة»، أو «التُّــرَاث والحَدَاثَــة»، أو «العَوْلَمَــة والخُصُوصيّة» أو «النَّقْــل والعَقْل»، أو «الأمميّــة والوطنيّة»، كما انْضَــوَتْ الحالةُ البَائِسَةُ التــي أَطْلَقُوا عليها اسْــم «أَزْمَة العَقْل

العربيّ» تحت إطار هذا الهمّ المُتَفَاقِم، وهذا ما يُؤكِّدُهُ نادر فرجاني بقوله: (يَتَّسِمُ الإنْتَاجُ الفِكْريُّ العربيُّ عن «مَفْهُومِ التّنْمية» بالتَّبَعْثُرِ وقِلّةِ التَّعَاضُدِ التّراكُميّ)[١١].

أمّا «الوَاقِعُ التَّنْمَـوِيُّ» المَشْهُودُ لـ«المُجْتمعات العربيّة» في سِيَاقِ التَّطَوُّرِ التّاريخيّ لدُولِها في الأُطُرِ السّياسيّة والاقْتصاديّةِ والفِكْريّةِ والمَعْرفيّـةِ المُخْتلفة، فإنّه يُوَضِّحُ أنّ أيّاً من تلك «المدارسِ النَّظريّة» لم تُفْلِحْ في تَطْويرِ «برْنامج عمـلٍ» يَسْتطيعُ أنْ يُحْدِثَ «النَّقْلَـةَ النَّوْعيّـةَ» اللّازمَـةَ للتّفاعُلِ مع مُعْطياتِ العَصْـرِ - اكْتِسَاباً وإنْتَاجاً وريَادَةً -. هـذا الواقِعُ المُتَرَدِّي في أحْوالِ الأُمّة قاد كثيراً مـن المُفكِّرين والمُثقَّفين إلى حالاتٍ من الحَيْـرَةِ المُؤرِّقـة، وولَّدَ مَخَاضاً لا يَنْتَهِي، وتَتَمَثَّلُ هـذه المُعَانَاةُ - على سبيل المِثال - في صَيْحَـةٍ يُطْلِقُهَا راشـد المبارك وهو يتساءَل: (هَلْ سَبَبُ ما يُعانيـه العَالَمُ الإسْلاميُّ جُزْءٌ مـن الـذّات، أو خَارِجٌ عنهـا؟. هل هو نَابِتٌ من أرْضِـه، أمْ وَافِدٌ إليها؟. هَـلْ العِلّةُ نُضُوبُ الطّاقـة، أمْ مُجَافَاةُ الظُّـرُوف؟. إنّ المرء ليَشْعُر بالإرْهَاقِ، لأنّه لا يَعْرِفُ هَلْ السَّبَبُ وَافِدٌ رَاحِلٌ، أمْ مُواطِنٌ مُقيم؟)[٢٥]. ويَتَأَكّدُ ذلك الأُفُقُ المَسْدُودُ أمام «المَشْرُوع النّهْضَويّ» في الرُّؤيـةِ التي يَطْرَحُهَا عبد الإله بلقزيز حين يقول: (نحن في حاجَةٍ إلى بِنَاءِ نَظْرةٍ شَامِلَةٍ ومُتوازِنَـةٍ لمُجْمَلِ العَوامِلِ والأَسْبَابِ التي كانـتْ وراء إخْفاقِنا النَّهْضَويّ. نَظْرةٌ لا تتعامى عن الـدَّوْرِ المُؤثِّرِ للتّدخُّـلاتِ الأجْنبيّـةِ المُنَاهِضَةِ لـ«مَشْـرُوع النّهْضَة العربيّـة»، وآثاره الماديّـة الفِعْليّة في إعَاقَةِ «عمليّة النّهْضَة» تلك؛ كمـا لا تَتَرَدَّدُ في نَقْدِ العمْران السّياسيّ والاجْتماعـيّ والثّقافيّ الذي فَرَّخَ الهزيمة، وقاد المُجْتمـع والأُمّة إلى حالة الانْسِدَادِ التي نعيشُها اليوم)[٨].

١-٥-١) السِّجَالات الفِكْريّة:

لقد كان من الطّبيعيّ - في المُجْتمعات العربيّة - أنْ يَنْخَرِطَ عُلماءُ الدِّين والمُفكِّرون والسّياسيّـون والمُهتمّون بالشّأن العامّ فـي سِجَالاتٍ كلاميّةٍ وتأمُّـلاتٍ فِكْريّة تحت وَطْأةِ أوضـاعِ مُجْتمعاتِهم المُتَرَدِّيـة، وهَجْمَةِ «النَّمُـوذَجِ الغَرْبيّ» الكَاسِحَة، ومِثْـلُ هذا الجَدَلِ والاخْتـلافِ لا مناص عنه فـي أيِّ تَجَمُّعٍ بشريٍّ يُحَاولُ فَحْصَ وَاقِعه، وتَمْحيص ماضيه،

لبَلْـوَرَةِ مُسْتَقْبَـلٍ أَكْثَر تَوافُقاً مع احْتياجاتِـه ومُتطلَّباتِه وتطلُّعاتِه. وأمّـا الأَمْرُ الذي يُعَابُ علـى كُلِّ هذه السِّجَالات فهو أنّها اسْتَمَرّتْ لعُقُـودٍ طويلةٍ تَسْتَنْسِخُ ذاتها، وتَجْتَرُّ تأمُّلاتِها، وتُكَرِّسُ هزائِمَها، واسْتَغْرَقَتْ في الإنْشائيّات واللغويّات، وانْدَمَجَتْ في أَدْوارِها النَّمَطيّة، وتوقُّعاتِهـا التّقْليديّـة، وتحيُّزاتِها الذّاتيّـة، وانْغِلاقاتِها الفِكْريّة، ونَرْجسيّتِهـا المُتأصِّلَة، دون مُحَاوَلَـةٍ صَارِمَـةٍ للخَوْضِ في نَقْدٍ موضوعيٍّ لتَحْليلِ عناصِـر «التَّحَدِّي»، والسَّعي إلى تَحْقيـقِ «الاسْتِجَابَةِ» المُناسِبَةِ القَادِرَةِ على تَقْليصِ «الفَجْوَة» وتَحْجيمِ «الإشْكَاليّة»، وهذا مـا يَصِفُهُ زكي نجيب محمود بقوله: (إنّ جُهُودَنَـا كُلَّهَا تَدُورُ في دَائِرةِ «الفِكْر» وَحْدَهُ دون أنْ تتَعَـدَّى ذلك إلى «الإرادة» التي تَعْمَلُ بِنَاءً على ذلك «الفِكْر»)[٢٠]. ويُؤَكِّدُ عبد الله عبد الدّائـم ما آلَتْ إليـه الحالُ فيقول: (وقد قَامَـتْ جُهُودٌ تَتْرَى في العُقُـودِ الأخيرةِ لدِرَاسَةِ الواقِـع العربيّ وتَحْليلِـه تَحْليلاً عِلْميّاً. وتَكَاثَرَتْ هذه الدِّراسـاتُ حتى كادتْ تَنُوءُ بحِماها المَكْتبـات. ومـع ذلك فمُعْظَـمُ هذه الدِّراسـاتِ قليلُ الجَـدْوى، إذْ يَكْتَفِـي بتَقْديمِ صُورةٍ فوتوغرافيّـةٍ عن الواقِعِ الاجْتماعيّ والاقْتصـاديّ والثقافيّ والسّياسيّ في الوطن العربيّ، مُشِيـراً إلى مُشْكِلاتِـهِ وإلى تَخَلُّفِهِ من دون أن يُقَـدِّمَ نَظْرَةً تَحْليليّةً تَرْكيبيّـةً تُبَيِّنُ السُّبُلَ المُؤَدِّيَةَ إلى تجاوزِ تلك المُشْكِلاتِ والقَضَاءِ على التَّخَلُّف)[١٨].

ولتأْكيد عُمْقِ هذه «الإشْكَاليّة» واسْتمراريّتِها على مدى قَرْنَيْنِ في حياةِ «المُجْتمعات العربيّة» نَتَوَقَّفُ أمام مَقولاتٍ لسِتَّةٍ من المُفكِّرين الذين عاصروا مراحِلَ مُخْتلفة في حياةِ الأُمّـة، لنجد أنّ مَرْئياتهم تَخْلُصُ إلى حالةِ إخْفَـاقٍ بَارِزَةٍ في حياةِ «المُجْتمعات العربّية» بالرّغْم من الجُهُودِ الفِكْريّةِ والعمليّةِ التي بَذَلَتْهَا تلك المُجْتمعاتُ في سبيلِ الانْطِلاقِ على «دَرْبِ النّهْضَة»، وتَحْقيقِ الإنْجاز على «مَسَارِ التّنْمية»:

١) يقولُ جمال الدّين الأفغانيّ[١٦] وَاصِفاً الحال في زمانِه: (لا يُمْكِنُ للمعارِف التي يَكْتَسِبُهَـا أبناء المُجْتمع في العلوم الخاصّة أنْ تَسْتَمِرَّ لقَرْنٍ وَاحِدٍ إذا لم يَكْتَسِبْ المُجْتمعُ فَلْسَفَةً مُنَاسِبَـةً، لذلك نرى أنّ الحكومة العُثْمانيّة والحكومة الخديويّة مُسْتَمِرَّتَيْن في تَعْليم هذه المعارِف «التَّخَصُّصِيّة» منذ ستين سنة دون أنْ تَجْنِيَا ثمرةً من تَعْليمِ المعارِف هذه).

٢) يَتَوَقَّفُ طه حسين[١٧] أمام حقيقةٍ مُؤَرِّقَةٍ عن (أُمم اتَّصَلَتْ بالحياة الحديثة في الوَقْتِ الذي اتَّصَلْنَا بها فيه، ولكنّها كانتْ أسْرع منّا إلى الانْتِفَاعِ بهذا الاتِّصال، وأقْـدر منّا علـى أنْ تَفْرِضَ نفْسها على الحياة الحديثة)، ويَبْحَثُ طه حسين عن العِلَّة ليَخْلُصَ إلى القول: (وما أظنّ أنّ هذه الأُمم قد خُلِقَتْ من جوهرٍ أزْقى من جوهرنا، أو امْتَازَتْ بمَلَكَاتٍ لم نَظْفَرْ منها بنصيب، وإنّما أُتيحتْ لها ظُرُوفٌ لم تُتَحْ لنا، وبعْضُ هذه الظُّرُوفِ خَارِجيٌّ لا نُسْأَلُ عنـه إلاّ بمِقْدار، وبعْضُها دَاخِليٌّ نُلامُ عليه أشدّ اللّوم).

٣) يتأمّلُ زكي نجيب محمود[٢٠] أبْعَادِ «الإشْكَالِيّةِ» القَائِمَةِ ليَخْلُصَ إلى أنّ: (الإشْكَالُ الضّخْـمُ هو إشْكَالُنَا نحن، فحضـارةُ العَصْرِ ليست مـن صُنْعِنَا ولا شاركنا في ذلـك الصُّنْعِ بكثيرٍ أو قليلٍ، بَلْ هي حضـارةٌ فَتَحْنَا بابنا، فإذا هي وَاقِفَةٌ أمامنا كائِنَاً عِمْلاقاً مُتَكَامِلَ البِنَاءِ والأجْزَاء، يُريدُ الدُّخُولَ في الدِّيار، أو نُريدُ له نحن مُخْتاريـن ذلك الدُّخُول، فأَخَذَتْنَا الرَّبْكَةُ الشّديدة: ماذا أنا صَانِعٌ بمُحْتَوى بيتي إذا دَخَلَهُ هذا العِمْلاق؟ أأُلْقِي بذلك المُحْتَوى في البَحْرِ ليَخْلُصَ المكانُ للوَافِدِ الجبّـار، أَمْ أُسَارِعُ بإعـادةِ تَرْتيبِ المُحْتَوى بحيث لا يكون ثَمّة تعارُضٍ بينه وبين الزَّائِـرِ الكبير؟. إنّ شيئاً كهذا يَحْدُثُ بالفِعْـلِ حين تَشَاءُ المُصَادَفَةُ للواحِدِ منّا - إذا كان يحيـا فـي بيته حيـاةً مُتواضِعـةً - أنْ يُفَاجِئَهُ زَائِرٌ عُـرِفَ عنه الثّرَاءُ الضّخْـمُ أو التّحَضُّرُ الحديث، فعندئذٍ تَأْخُذُنَا رَبْكَـةٌ فيما نحن صَانِعُوه بأنْفسنا ليَتَّفِقَ الوَضْعُ مع مَنْزِلَةِ الزَّائِرِ المُتْرَفِ المُتَحَضِّر).

٤) يُؤَكِّدُ مالك بن نبيّ[٢] هذا الوَاقِعَ بقولِه: (ومن المُمْكِن أنْ نَفْحَصَ الآن سِجِلّات هذه الحِقْبَة، ففيها كثيرٌ من الوثائِق والدِّراسات ومقالات الصُّحف، والمؤتمرات التي تَتَّصِـلُ بموضوعِ «النّهْضَة». هذه الدِّراساتُ تُعالِـجُ الاسْتِعْمَارَ والجَهْلَ هنا، والفقْـرَ والبُؤسَ هنـاك، وانْعِدَامَ التّنْظيـم واخْتِلالَ الاقْتِصـادِ أو السّياسةِ في مُنَاسَبَـةٍ أُخْرَى، ولكن ليس فيهـا تَحْليلٌ مَنْهَجِيٌّ للمَرَض، أَعْنِـي دِراسةً مَرَضِيّةً للمُجْتمـعِ الإسْلامـيّ، بحيث لا تَدَعُ مجالاً للظَـنّ حول المَرَضِ الـذي يَتَأَلَّمُ منه

منــذ قُرُون. ففــي الوثائِق نجدُ أنّ كُلَّ مُصْلِحٍ قد وَصَفَ الوَضْعَ الرّاهِنَ تبَعاً لرأيه أو مِزاجِــه أو مِهْنَتِه، فــرَأَيُ رَجُلٍ سياسيٍّ كجمال الدين الأفغانــي: «أنّ المُشْكِلَةَ سياسيّــةٌ تُحَــلُّ بوسائِل سياسيّــة»، بينما قد رأى رَجُلُ ديــنٍ كالشّيخ محمد عبده أنّ «المُشْكِلَــةَ لا تُحَلُّ إلاّ بإصْلاحِ العقيــدة والوَعْظ..الخ..» على حين أنّ كُلَّ هذا التَّشْخيصِ لا يتناولُ في الحقيقة المَرَض، بَلْ يَتَحَدَّثُ عن أعْرَاضِه).

٥) يَتَوَقَّــفُ محمــد عابد الجابــريّ(١) أمام أنْــواعِ «الخِطَاب العربــيّ المُعَاصِر» من خِطَــابٍ نَهْضَويٍّ، وخِطَابٍ سياســيٍّ، وخِطَابٍ قَوميٍّ، وخِطَــابٍ فَلْسفيٍّ، ليَخْلُصَ إلــى أنّ: (الخِطَابُ العربيُّ الحديــثُ والمُعَاصِرُ لم يُسَجِّــلْ أيَّ تَقَدُّمٍ حقيقيٍّ في أيّة قضيّةٍ من قضاياه منذ أنْ ظَهَرَ كخِطَابٍ يُبَشِّرُ بالنَّهْضَةِ ويَدْعُو إليها انْطِلاقاً مــن أواسِطِ القَرْن الماضي. لقد بَقِيَ هذا الخِطَابُ، طَوَالَ هذه الفَتْرَة، وما زال سجين «بَدَائِل» يَدُورُ في حَلْقَةٍ مُفرغةٍ لا يَتَقَدَّمُ إلاّ ليعود القَهْقَرَى ليَنْتَهِيَ به الأمْرُ فــي الأخير، لدى كُلِّ قضيّــة، إمّا إلى إحالتِها على «المُسْتَقْبَل»، وإمّا إلى الوقوفِ عندهــا، مع الاعْتِرَافِ بالوقوعِ في «أزْمَة»، والانْحِبَاسِ في «عُنُقِ الزُّجاجة». ومن هنــا تَجَلَّى لنا زمن الفِكْرِ العربيّ الحديــث والمُعَاصِر زمناً رَاكِداً جَامِداً «مَيِّتاً»، أو قَابِلاً لأن يُعامَلَ كـ«زَمَنٍ مَيِّتٍ»، أو على الأقلّ لا شيء يُغَيِّرُ من مُجْرَيَاتِ الأُمُور فيه إذا عُومِلَ كـ«زَمَنٍ مَيِّت»).

٦) يَتَأَمَّــلُ عبد الحميد أبــو سليمان(٢٦) – في تقييم عامٍّ – حالــة المُسْلمين فيقول: (والمُسْلِمــون، منــذ أنْ تَبَيَّنُــوا هــذا التّحَدّي، أَخَذُوا فــي التّعَرُّف علــى الجُهُودِ الحضاريّــة للأُمَــم الأُخْرَى، وأقامــوا العَلاقَاتِ التي أمَّلُوا مــن خَلْفِهَا اسْتِدْرَاكَ مــا فَاتَهُم، وللأسف فإنّهم لم يُحَقِّقُوا كثيراً ممّا كانــوا يَأْمَلُونَه، فما زالتْ الهُوَّةُ الحضاريّــةُ بينهــم وبين مــن سِواهم مــن الأُمَمِ تَــزْدَادُ وتَتَّسِعُ علــى الرّغْم من ضخامة الجُهُودِ والنَّفَقَاتِ التي أنْفَقُوهَا للمُبَارَاةِ في سِبَاقِ الحضارةِ والقُدْرَةِ في هــذا العَصْر. ومن الواضِح أنّ المزيد من جُهُــودِ التّرْجَمَةِ العِلْميّةِ أو الأدبيّةِ من أعْمَالِ الحضارات الأُخْرَى، أو المزيد من البَعْثَاتِ والمعاهدِ والجامعاتِ لن يُغَيِّرَ

كثيـراً من الصُّـورَةِ المُؤسِفَةِ التي يعيشُها المُسْلِمون في هـذا العَصْر، ولا يَبْقَى مـن سببٍ لهذه العِلَّة إلاّ ما آلَتْ إليه العَقْليّةُ الإسْلاميّـةُ ومَنْهَجيَّتُهَا من المُتَابَعَةِ والجُزْئيّةِ وضعْفِ رُوحِ المُبَادَرَةِ واضْمِحْلالِ الحماس النَّفْسيّ والعقيديّ).

١-٥-٢) أين الخَلَل؟:

فـي ضوء ما سَبَقَ نجدُ أنّ المُعالَجَاتِ الفِكْريّة، والدِّراسَـاتِ التّنْمَويّة، والمُمَارَسَاتِ العمليّـة؛ كُلُّها تُؤكِّدُ وجود «إشْكَاليّةٍ جوهريّةٍ» في «تَرْكِيبةِ المُجْتمعات العربيّة» تَعُوقُهَا عن النُّهُوض، وتُحْبِـطُ مُحاولاتِها المُتَعَدِّدَةَ لـ«التّنْميـة» والتّطَوُّر، وتُبَدِّدُ جُهُودَهَـا وإمْكَانَاتِهَا وطاقاتِهـا، ونَتَوَقَّـفُ هنا أمام تَأَمُّلِ مالـك بن نبيّ وهو يُحاولُ «فَـكَّ الشِّفْرَة» حيث يقول: (فـي اسْتِخْدَامِنَـا للمُصْطلحاتِ البيولوجيّةِ نجدُ أنّ الحضـارة مَجْمُوعةٌ من العَلائِقِ بين المجـالِ الحيويّ «البيولوجيّ» حيث يَنْشَأُ ويَتَقَوَّى هيكلُها، وبين المجالِ الفِكْريّ حيث تُولَدُ وتَنْمُو رُوحُهَا؛ فعندما نَشْتَرِي مُنْتَجاتِها فإنّها تَمْنَحُنَا هَيْكَلَهَا وجَسَدَهَا لا رُوحَهَا)[٢].

إنّ المَدْخَـلَ المَبْدئـيّ لفَهْمِ هذه «الإشْكَاليّة» هو أنْ نُـدْرِكَ أنّ هَيْمَنَةَ «النَّمُوذَجِ الغَرْبيِّ» وتَفَوُّقَهُ الكَاسِحَ في مُخْتلف مضامير الحياة هو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لقَفَزَاتِه النّوْعيّةِ وإنْجازاتِه البَاهِرَةِ علـى صعيد «العلوم والتّقْنية»، وهذه حقيقةٌ أَصْبَحَتْ المدارسُ الفِكْريّةُ والتّوجُّهاتُ السّياسيّة جميعهـا - لحُسْنِ الحَـظّ - تَعْتَرِفُ بها وتَقْبَلُهَا دون جَدَلٍ كبيـرٍ أو تَحَفُّظٍ ذي بالٍ، ولكن تلك القناعة وَحْدَهَا لا تَكْفِي!. في هذا الإطار يَنْبَغِي أنْ نَتَأَمَّلَ بواقِعيّةِ المَقُولَةَ التي تُعْزَى إلى مايكل سبنس (Michael Spence) - الحَائِز على «جائزة نوبل في الاقْتصاد» -: (السِّرُّ الحقيقيُّ الكَامِـنُ وراء «التّنْميـة» هو أنّه لا تُوجَدُ أَسْرَار)، وقد تَبْدُو هـذه المَقُولَةُ تَبْسيطاً لـ«قضيّة التّنْميـة» إلاّ أنّها في جوهرها تتناغمُ مع «طبيعة التّنْميـة» لتُؤكِّدَ أنّ الصُّعُوبَةَ لا تَكْمُنُ في تَحْديـدِ مُقوِّمَاتِ «التّنْميـة» ومُتطلَّباتِها، ولكنّها - أساساً - رَابِضَةٌ في إشْكَاليّةِ تَفْعِيلِ تلك الشُّرُوطِ والمُقْتضيات. إنّ العَجْزَ الحقيقيّ، الذي يُمَثِّلُ «إشْكَاليّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّـة»، هو العَجْزُ في إجْـرَاءِ «النَّقْلَة» من «عَالَمِ الأَفْكار» إلى «عَالَـمِ الأَفْعال»، وإيجادِ صِيغة تفاعُلٍ دائِمٍ بين «العمل» و«الفِكْر»، وبين «الهياكِلِ التّنْظيميّة» و«الأداء الفَعّال»، ممّا

يَمْنَـحُ المُجْتمعَ ثراءَه ونشاطَه، ويُكْسِبُهُ العُمْقَ والحيويّة، وهذا يُجْبِرُنَا على إدْخَالِ عُنْصر «الثّقافـة» كـ«مُعْضِلَـةٍ» في حَـدِّ ذاتها تُجَابِـهُ «المُجْتمعات العربيّة»، ولهـا ارْتِباطٌ عُضْويٌّ بـ«إشْكَاليّة التّنْمية» وتحدّياتها.

إنّ المُتَأمِّـلَ لـ«أدبيّـات التّنْمية» ومُعْضلاتِهـا سيكْتَشِفُ أنّ هنــاك شُرُوطاً أخْلاقيّةً وسُلُوكيّةً وقِيميّةً وعَقْليّــةً وثقافيّةً ضروريّةً لاخْتِرَاقِ «تُخُوم التّنْمية»، والخَوْضِ باقْتِدَارٍ في عَالَمِ التّقَدُّم والازْدِهَار؛ وكُلُّ تلك القِيَم والمُمَارَسَاتِ والمفاهِيم والأدواتِ هي في انْسِجَامٍ كَامِـلٍ مع «السُّنَــن الكَوْنيّة» سواءً كانتْ علــى صعيد «العِلْم الطَّبيعــيّ» وتَطْبيقاته، أو على مُسْتــوى الرُّؤى السَّويّةِ في عَوالِم الاجْتمــاع والفِكْر والاقْتصاد؛ ولذا فإنّ «شُرُوط التّنْمية» لا تُحَابِي أحداً للونِه أو عِرْقِه أو دينِه، ولكنّها تَأْتِي – طَوْعَاً أو كَرْهَاً – لمن أَخَذَ بأسْبابِها، وتَعَـرَّفَ على جوهرِها، واسْتَوْعَبَ حقائِقَها. وعلى هذا الأساس فإنّ الحِواراتِ التّنْظيريّةَ فـي عُمُوميّاتٍ فِكْريّـةٍ، أو مُنْطلقاتٍ فَلْسفيّـةٍ، أو حَلَقَاتٍ وَعْظيّةٍ، أو مُزايـداتٍ لَفْظيّةٍ، في الإشَادَةِ بأهميّةِ «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة»، قد تكون أَمْراً طبيعيّاً في حياة البشر، وجُزْءاً مَقْبُـولاً مــن تفاعُلاتِهم اليوميّة، ولكنّها لا يُمْكِنُ أنْ تُنْجِزَ وَاقِعـاً مَلْمُوساً دون انْتِقَالِهَا من حَيِّـزِ التّنْظيرِ ونِطَاقِ التّفْكير، إلى مُمَارَسَاتٍ عمليّةٍ وإجْرَاءَاتٍ تَطْبيقيّةٍ تتناغمُ مع طبيعة المُشْكلة، وتتفاعلُ مع عناصِرها.

يَتَّضِحُ من الإخْفَاقَاتِ المُتَكَرِّرَةِ في مُعالَجَةِ «إشْكَاليّة التّنْمية» أنّ «التّقَدُّمَ» و«النّهْضَةَ» ليسا مُرْتَبِطَيْــن بالقُدْرَةِ على الحُصُولِ على التّقْنيّة، وشِرَاءِ أجْهِزَتِهَــا ومُعِدَّاتِهَا، واسْتِخْدَام أدواتِها ومُشْتَقَّاتِهَــا، ولكنّهمــا يَكْمُنان في القُدْرِةِ على «إنْتَــاجِ التّقْنيّة» وتَطْويعِهــا، و«امْتِلاكِ المَعْرِفَة» وتَطْويرِها، وذلك هو جَوْهَرُ «التّحَدّي المُعَاصِر» وأُسُّ هذه «الإشْكَاليّة التّنْمَويّة» المُتَفاقِمَة، وهو مــا يُوَضِّحُهُ أسامة عبد الرحمن بقولـه: (إنّ الإنْسانَ الذي تَهْدِفُ «التّنْمية» إلى إكْسَابِهِ القُدْرة على الإنْتَاجِ وقَطْفِ ثِمارِ الإنْتَاج ما زال بعيداً عن «مِحْوَرِ التّنْمية الحقيقيّ»)[١٢].

وإذا قَبِلْنَــا هذا المَدْخَلَ لفِهْمِ هذه «الإشْكَاليّة»، فإنّه يجب أنْ نُطِلَّ – بتأمُّلٍ عميقٍ – علــى حقيقــةٍ جوهريّةٍ سنُؤَصِّلُ لها ونُحَدِّدُ مَلامِحَهَا في سِياقِ هذا الكِتاب، وهي أنْ نُدْرِكَ

أنّ «آليّــات التّقْنيّــة والعلوم الحديثــة» لا تَسْتطيــعُ أنْ تَعْمَلَ في فَرَاغٍ؛ فهي فــي حَاجَةٍ إلى وَسَــطٍ يَدْعَمُهَا، ويُحَرِّكُ آليّاتِهَا، ويُكَيِّــفُ صُوَرَهَا، ويَضْبِطُ اتِّجَاهَاتِهَــا، ويُغَذِّيها بالعُقُولِ والمَواهِب، ويَسْنُدُهَا بالسّياسات والقرارات. إنّ الوَاقِعَ الحزينَ يُؤَكِّدُ أنّه عبْر عُقُودٍ طويلةٍ مِــن الجُهُودِ في مجــالاتِ التّصْنيعِ والبُحُــوثِ والتّدْريبِ فإنّ «المُجْتمعــات العربيّة» بَقِيَتْ حيــث هِيَ، إنْ لم تَتَقَهْقَرْ مُقارَنَةً بالتَّطــوُّرِ المُذْهِلِ لدى الآخرين؛ فلا هي أنْتَجَتْ، ولا هي طَــوَّرَتْ، ولا هي أبْدَعَتْ؛ وتَنْمُو «قَائِمَــةُ المُشْتريات» وتتوالدُ، بينما تعيشُ هذه المُجْتمعات «أنْمَاطــاً اسْتِهْلاكيّةً» مُتنامِيةً بمَنْأىً عــن عمليّاتِ «البَحْث والتّطْوير والإنْتاج»، وتُعَانِي من مُشْــكِلاتٍ عِدّةٍ منْها – على سبيــل المِثال – «هِجْرَةُ الأدْمِغَة» إلى «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة»، و«تَنْويــع مصادِر الدَّخْل»، وضعْف القُوّة الجَاذِبــة لـ«الاسْتِثْمَارَاتِ الأجْنبيّة» في المجالاتِ الإنْتاجيّة والصّناعيّة والتّقنيّة.

لا شَــكّ فــي أنّ أبْــرز سَلْبيّــاتِ «الفِكْــرِ التّنْمَويّ» الرّاهِــنِ هو ما وَصَفَــهُ رمزي زكي بـ«الصِّياغــة الخَاطِئَــة لعمليّــة التّنْمية»[11]؛ فلقد ظَنّــتْ «المُجْتمعات العربيّــة» أنّ حركة التّقْنية والتّقدُّمَ العِلْميّ والنّشاطَ الإنْتاجيّ أُمُورٌ تَحْدُثُ تِلْقائيّاً، وتَنْتَشِرُ عَفْويّاً بمُجَرَّدِ فَتْحِ الصّناديق المُغْلَقَةِ ووصولِ الخُبَرَاءِ المُتَمَكِّنين، ولم تُفَكِّرْ في طبيعة «الوَسَطِ» اللّازم لدَفْعِ عناصِــر «الحركة العِلْميّة – التّقنيّــة»، وتَفْعيلِ مُقَوِّماتِها، ولم تُــدْرِكْ أنّ «التَّغْييرَ المادّيَّ» المُتَمثِّلَ في «شَكْلِيّات التّنْمية» ومَظَاهِرِهَا أسْهل بكثيرٍ من «التّغْيير في المُمَارَسَاتِ والقِيَمِ والمفاهيــمِ الاجْتماعيّة» التــي تُمَثِّلُ جَوْهَرَ «التّنْمية» وأساسهــا الصُّلْب. إنّه من المُهِمّ أنْ نضــع أيدينا على ما أَسْمَاهُ جمال الدّين الأفغاني[16] بـ(الفَلْسَفَة المُنَاسِبَة) التي يجب أنْ يَكْتَسِبَهَا المُجْتمع، وأنْ نَتَعَرَّفَ – عبْر التّشْخيصِ الدّقيق – على (المَرَض وليس الأَعْرَاض) وفْق طَرْحِ مالك ابن نبيّ[2]، وأنْ نَسْبُرَ أغْوَارَ تلك الظُّرُوفِ الدّاخليّةِ التي (نُلامُ عليها أشدّ اللّوم) وفْق تَعْليلِ طه حسين[17]، وأنْ نَقْتَرِبَ من أسْبَابِ (الهُوّة الحضاريّة بيننا وبين من سِوانا من الأُمَمِ التي تَزْدادُ بالرّغْم من ضخامة الجُهُودِ والنَّفَقَاتِ التي أَنْفَقْنَاهَا للمُبَارَاةِ فــي سِباقِ الحضارةِ والقُــدْرَةِ في هذا العَصْر) وفْق تَحْليلِ عبــد الحميد أبو سليمان[26]. أمّــا أنور عبد الملــك فيَشْجُبُ – في هذا السِّياق – عمليّة «التَّحْديــث» لأنّها عمليّة (تَقْليد

للغَـرْبِ دون بِنَــاءِ القُوّة الإبْداعيّة، وتَضْخيــم نَوْعٍ من النّشاطِ الاقْتصــاديّ الطُّفيليّ دون تَنْميةِ القُــوى الإنْتاجيّةِ والعِلْميّةِ والتّكنولوجيّةِ تَنْميةً إسْتراتيجيّةً على المدى البعيد)[11]؛ وأمّا إسماعيل صبري عبد الله فيرى أنّ: («التّنْمية» بطبيعتِها عمليّةٌ شَامِلَةٌ، يُشَكّلُ «النُّموّ الاقْتصاديّ» عمودها الفِقْرِيّ، ولكنّه لا يَسْتَوْعِبُها كَامِلَةً)[11].

وهكــذا نرى في «أدبيّات التّنْمية» في العَالَــم العربيّ قَلَقاً وَاضِحاً وأَزْمَةً عميقةً حول «مَفْهُــومِ التّنْمية» ومُقَوّماتِها، كما نَشْهَدُ مُراجَعاتٍ كثيفــةً للنَّمَاذِجِ المَطْرُوحَةِ ومُؤشّراتِهَا الكَمّيّــةِ والنَّوْعيّة[11]، فيرى محمد لبيب شقيــر أنّ: (الوَضْع الرّاهن للفِكْر التّنْمَويّ يَتَمَثَّلُ فــي انْعِــدَامِ الثّقَةِ في «الفِكْــرِ التّنْمَوِيّ التّقْليديّ» الــذي ظَهَرَ وسَادَ بعد الحَــرْبِ العالميّة الثّانيّة وحتّى مُنْتَصف السّتّينات، وعدم التّوصُّلِ إلى إقَامَةِ بديلٍ نَظَريٍّ مُتَكَامِلٍ يَحُلُّ مَحَلّ هــذا «الفِكْــرِ التّنْمَوِيّ التّقْليديّ»، ويَصْلُحُ لأنّ يَلْعَبَ - بقُوّةٍ وكَفَاءَةٍ - الدَّوْرَ الذي كان يَلْعَبُهُ هذا الأخير كإطارٍ مَرْجِعِيّ)[11]، وأمّا نادر فرجاني فيُقَرِّرُ أنّ: (التَّوصُّل إلى تَصَوُّرٍ جديدٍ لـ«التّنْمية» هو «المُهِمّة الفِكْريّة الأولى» الجديرة بالرّعاية من المُثقَّفين العرب)[11].

إنّ الوقــوفَ أمــام تلــك الحقائــق بعناصِرِهــا السّياسيّــة والفِكْريّــة والمُجْتمعيّــة والتّنْظيميّــة، ومراحِــل الإخْفَاقَاتِ التي عايشتهــا «المُجْتمعات العربيّة» بمُخْتلــفِ أَلْوَانِهَا السّياسيّــةِ ومَدَارِسِهَا الفِكْريّةِ ومُحَاوَلاتِهَا التّكْديسيّةِ للمُنْتَجات العَصْريّة، تَشِي - كُلُّهَا - بخَلَلٍ رئيسٍ في طرائِق التّفْكير، ومناهِج العمل، ومَنْظُوماتِ المُمَارَسَة، وأُطُرِ التّعامُلات. ولــذا فإنّه يَنْبَغِي الخُــرُوجُ من دَوَّامَــةِ التّأمُّلاتِ الفِكْريّــةِ العَشْوائيّةِ وسَــرَابِ المُحَاوَلاتِ الارْتِجَاليّــةِ التــي أَثْبَتَتْ فَشَلَهَا عبْر الزّمن، وأَصْبَحَ من الحَتْمــيّ - ونحن نَقْطَعُ شَوْطاً في «الأَلْفيّــة الثّالثة» -التّفْكيرُ الجادُّ في «طبيعة الخَلَــلِ» و«جَوْهَرِ الإشْكَاليّة» عبْر البَحْثِ عن طبيعــة ذلك «الوَسَــطِ» اللّازِم لتَحْقيــقِ «شُرُوط التّنْميــة»، وتَكْثيفِ «الانْسِيــابِ المَعْرِفيّ - العِلْمــيّ» خلال «النَّسيــج المُجْتمعيّ»، وتَدَفُّــقِ الإبْدَاعَاتِ التّقنيّةِ عبْر قنــواتِ المُجْتمع المُخْتلفــة، وانْسِجَام مُمَارَسَاتِ أفْرَادِهِ الحياتيّةِ مع «طبيعة التَّحدّي». وغَنِيٌّ عن القَوْلِ إنّ مــن مُواصَفَاتِ ذلك «الوَسَطِ» أنْ يَحْتَوِيَ على الفِكْرِ والتَّعَامُلات، ويُهَيْمِنَ على التَّفَاعُلاتِ والمُمَارَسَــات، ويَحْمِــلَ مُجْمَــلِ النّشــاط البشــريّ، ويَجْمَــعَ المفاهيــمَ السَّائِــدَةَ والقِيَمَ

المُهَيْمِنَة، ويُنَظِّمَ المَدَارِكَ والعَلاقَات، ممّا يُجْبِرُنَا على التَّوَقُّفِ أمام مُصْطلح «الثّقافة»، ويَفْرِضُ علينـا مُرَاجَعَةً فَاحِصَةً لعناصِر هذا المُصْطلح وطبيعتِـه ومُقَوِّماتِه وتفاعُلاتِه. وأمّـا الأَمْـرُ الأهمُّ من ذلـك فهو ألاّ تَبْقَى تلك الحقيقـة مُجَرَّدَ رُؤيةٍ نظريّـةٍ وحِوارٍ عقيم وسَفْسَطَةٍ كلاميّةٍ، ولكن الطُّمُوحَ الأَسَاسَ هو أنْ نَتَعَرَّفَ على خصائِص «التَّكْوين الثَّقافيّ» الفَاعِلِ ومُقَوِّماتِـه وآليّاته، وأنْ نَتَلَمَّسَ الوسائِلَ الفِكْرِيّةَ والعمليّةَ القَادِرَةَ على تَحْقيقِ تلك «التَّنْميـة الشّامِلَـة» المَنْشُودَة، والخُرُوجِ من ذلك الحال - الذي تعيشُـهُ «الحالةُ التَّنْمَوِيّةُ العربيّـةُ» - المُشَابِهِ لذلك الوَصْفِ الـذي أَطْلَقَهُ ماثيو أرنولد (Mathew Arnold) على نِهَايَـةِ العَصْـرِ الفيكتوريّ في بريطانيا بأنّـه يَتَأَرْجَحُ بين عَالَمَيْن: (وَاحِـدٌ مَيِّتٌ، والثَّانِي عَاجِزٌ عن أنْ يُولَد)[11].

«الثَّقَافَة»: التَّعْرِيفُ والرُّؤْيَة

٢-١) مَدْخَل:

هناك شِبْهُ إجْماعٍ بين المُثقَّفين والمُفكِّرين العرب، بمُخْتلف أطْيافِهم واهْتماماتِهم، علـى أنّ «المَسْأَلَـةَ الثّقافيّةَ» تُمَثِّلُ عُنْصُراً جوهريّاً في «العمليّـةِ النّهْضَويّة»، وهذا – على سبيـل المِثال – مـا يُؤَكِّدُهُ طيِّب تيزينـي[٨] الذي يرى أنّ هناك: (ثلاثـة مَداخِل لا يَصِحُّ إغْفَالُهَـا باتِّجَـاهِ الدُّخُولِ في الفِعْـلِ النّهْضَويّ العربـيّ)؛ وهي: «المَدْخَـلُ الاقْتصاديّ»، و«المَدْخَـلُ السِّياسـيّ»، و«المَدْخَلُ الثّقافيّ» الذي لـه: (أهميّةٌ ذاتيّـةٌ خاصّةٌ على صعيد المَشْـرُوع النّهْضَويّ العربـيّ؛ ذلك أنّه يَعْمَلُ على إعادةِ بِنَاءِ الإنْسـان العربيّ عُمُوماً عبْر تَحْصينِه بالقِيَـم العَقْلانيّةِ والوطنيّـةِ والقوميّةِ النّقْديّة، وبمفاهيم المُسَـاوَاةِ والتَّسَامُحِ والتَّضَامُنِ والأُخُوّةِ والإنْسانيّةِ العالَميّة).

أمّـا إهمال «المَسْأَلَـةَ الثّقافيّةَ» في التّفاعُلاتِ العربيّـةِ وسياساتِها المُخْتلفةِ، فأمْرٌ يـكاد يكـون مُتَوَقَّعاً، لا لشيءٍ إلاّ لأنّ فَهْمَ مدى تَأْثيرِ «الثّقافة» على المُجْتمعات أمْرٌ حديثٌ نِسْبيَّـاً على خريطة «الفِكْـر الإنْسانيّ»، وهذا مـا يُؤَكِّدُهُ فريدريـك جيمسون (Fredric Jamson) بقولـه: (لقـد تَوسَّـعَ مَفْهُومُ «الثّقافـة» توسُّعاً هائِلاً في جميـع أرْجاء المجال الاجْتماعـيّ حتّـى صار مـن المُمْكِنِ القَـول إنّ كُلَّ ما في حياتنا الاجْتماعيّـة، من القيمةِ الاقْتصاديّـةِ وسُلْطَةِ الدّولةِ والمُمَارَسَاتِ إلى بِنْيَة النّفْس ذاتها، قد غدا «ثقافيّاً» بالمَعْنَى الأصْليّ للكلمة وعلى نَحْوٍ لم يُنْظَرْ له بعْد)[٢٧].

وبمَنْـأىً عن التّوصيفاتِ ذات النَّكَهَاتِ الحَرَكيّةِ والصِّبْغَاتِ التّعْميميّة، فإنّ ما يُهِمُّنَا هنا هو التّأْكيدُ على مِحْوَرِيّةِ «الدَّوْرِ الثّقافيِّ» في «مَشْرُوع النَّهْضَة». ولكي نُؤَسِّسَ لمُعَالَجَةٍ

موضوعيّةٍ لقضيّةِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، التي هي مِحْوَرُ اهْتِمَام هذا الكِتاب، فإنّه من المُهمّ أنْ نَتَعَرَّفَ – ابْتداءً – على مضامين مُصْطلح «الثّقافة»، وأنْ نَخْلُصَ إلى تَعْريفٍ مُنْضَبِطٍ لـه، حيث إنّه «لَفْظٌ طَارِئٌ» على اللّغـة العربيّة، ومن دَلالاتـهِ اللّغويّةِ «تَقْويـمُ الاعْوِجَاج» و«الفَطَانَـة» و«الحِذْقِ»، وقـد جاء في «لِسَانِ العـرب»: (ثَقِفَ الشّـيء، أيْ حَذَقَهُ وفَهِمَه) [١٨،٢٨،٢٩]. لقـد تَمَّ توليـدُ مُصْطلح «الثّقافة» في اللّغـة العربيّة ليُقَابِـلَ المُصْطلح الغَرْبيّ «Culture»، وليَحْمِـلَ أبْعَاداً فِكْريّةً، ومضاميـن اجْتماعيّةً، ورُؤىً حياتيّةً، أعْمق بكَثيرٍ من دَلالاتِ المَعْنَى اللّغويّ للكلمة، ويَبْدُو أنّ سلامة موسى هو الذي سَكَّ هذا المُصْطلح ليُقَابِلَ المُصْطلـح الغَرْبيّ بدَلالاتـه الحديثةِ حيث يقول: (كنتُ أوّل من أفْشَى لَفْظَةَ «الثّقافة» في الأدب العربـيّ الحديث ولم أكنْ أنا الـذي سَكَّهَا بنفسه فإنّي انْتَحَلْتُهَا من ابن خلدون، إذْ وَجَدْتُهُ يَسْتَعْمِلُهَا في مَعْنىً شبيهٍ بلَفْظَةِ «كلتور» الشّائِعَةِ في الأدب الأوروبيّ حيث «الثّقافة» هـي المعارِف والعلوم والآداب والفُنُون يَتَعَلَّمُهَا النّاسُ ويَتَثَقَّفُون بها، وقد تَحْتويها الكُتُبُ ومع ذلك هي خاصّةٌ بالذِّهْن) [٣٠].

٢-٢) تَعْريفاتٌ لمُصْطلح «الثقافة»:

يَتَّسِـعُ مُصْطلحُ «الثَقافة» (Culture) في «الفِكْرِ الغَرْبـيِّ» لدَلالاتٍ فِكْريّةٍ وتاريخيّةٍ ولُغَويّـةٍ واجْتماعيّةٍ وفَلْسفيّةٍ، ويرى مالك بن نبـيّ أنّ «مَفْهُومَ الثّقافة» في «الفِكْر الغَرْبيّ» هـو: (ثَمَرَةٌ من ثِمَـارِ «عَصْرِ النَّهْضَـة» عندما شَهِـدَتْ أوروبا في القَـرْن السّادس عشر انْبثـاق مَجْمُوعـةٍ من الأعْمال الأدبيّة الجليلـة في الفنّ وفي الأدب وفـي الفِكْر) [٢٨]، كما أنّ العَلاقَـةَ الجَدَليّـةَ – التّبَادُليّـةَ بيـن مُصْطلحاتِ «الثّقافـة» و«الحضـارة» و«المَدَنيّة» و«المَعْرِفَـة» و«الطَّبيعـة» تُلْقِي بظِلالِهَا الكثيفةِ والمُهمّة عند التّعْريـفِ والتّحْليلِ والتّقْويم والتّأصيـل [١٨،٢٠،٢٧،٢٨،٣١]. وفـي حالة «الفِكْـر الغَرْبيّ»، نجدُ أنّ تَعْريـفَ مُصْطلح «الثّقافة» يَخْضَعُ للتّوجُّهَاتِ الفِكْريّةِ السّائِدَةِ والاهْتِمامات الفلْسفيّة المُهَيْمِنَةِ في المرْحلةِ التّاريخيّةِ المَعْنِيَّة؛ فهو عند بعْضهم «تُرَاثُ الإنْسانيّات الإغْريقيّة اللاتينيّة» [٢٨] لتكون «الثّقافة» هي «ثَمَـرَةُ الفِكْر» لتُصْبِـحَ ذات عَلاقَةٍ وظيفيّـةٍ بالإنْسان، وعند آخَرين تكـونُ «الثّقافة» هي

«فَلْسَفَـةُ المُجْتمع» لتُصْبِحَ ذات عَلاقَـةٍ وظيفيّةٍ بالجماعة[٢٨]، ويرى بعضهم أنّ «الثّقافة» تُشيرُ إلى «أَرْفَعِ أشْكَالِ التّهْذيبِ البشريّ»[٢٧].

ومـن أقْـدم تَعْريفـات «الثّقافـة» ذلـك التَّعْريـف الـذي طَرَحَـهُ إدوارد تايلـور (Edward Taylor) في أواخِرِ القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ، وهو يَنُصُّ على أنّ «الثّقافة» هي: (كُلُّ مُرَكَّبٍ يَشْتَمِلُ على المَعْرفة والمُعْتقدات، والفُنُون والأخْلاق، والقانون والعُرْف، وغيـر ذلك من العـادات التي يَكْتَسِبُهَا الإنْسـانُ باعْتبارِهِ عُضْواً فـي المُجْتمع)[٣١]، ومن الواضِـحِ أنّ هـذا التّعْريـف يَغْرِسُ «الثّقافـة» في «التّرْكيبـة المُجْتمعيّـة» ليُصْبِحَا وَحْدَةً مُتفاعِلـةً، ممّا يَعْنِـي أنّ «الثّقافة» لا تُوجَدُ إلاّ في وجود «المُجْتمع»، وأنّ «المُجْتمع» لا يقومُ ويَبْقَى إلاّ بـ«الثّقافة» التي تَمُدُّهُ بالأدواتِ اللّازِمَةِ لاطِّرَادِ الحياة فيه، ولا فَرْقَ في ذلك بين الثّقافات البدائيّة والحديثة. أمّا أبْرز التّعْريفاتِ المُبَكِّرَةِ لـ«الثّقافة» عند العرب فهو أنّها (الأَخْـذُ من كُلِّ شيءٍ بطَرَف)[٢٩]، وفي أوروبـا قالوا: (لا يَتِمُّ عِلْمُ المَرْءِ إلاّ إذا عَلِمَ شيئاً عـن كُلِّ شـيءٍ، وكُلَّ شيءٍ عن شـيء)[٢٩]، إلاّ أنّ التّجْربة الإنْسانيّـة الحديثة والمُقارَبات الفِكْريّة المُتَطَوِّرة تجـاوزتْ هذه التّعْريفات بمراحِل؛ فما عُرِفَ بـ«المُثقَّف الشُّمُوليّ»[١٨]، وهو النَّمُوذَجُ الذي نَشَأَ في القَرْن الثّامن عشر في أوروبا، قد تآكل بفِعْلِ عناصِرِ عِدَّةٍ ليس أَهْونهـا بُرُوزَ أنْمَاطٍ مَعْرفيّـةٍ مُخْتلفةٍ ذات طَابَعٍ تخصُّصيٍّ وطبيعـةٍ تراكُميّةٍ وخصائِص مُتَجَدِّدَةٍ أَصْبَحَ لها التّأْثيرُ الأكْبر في حياةِ البشر وتَطَوُّرِ المُجْتمعات.

لقـد تفاعـل «مَفْهُومُ الثّقافة» مع أنْمَـاطِ «الحياة الحديثـة»، وأشْكالِها الاجْتماعيّة، وتفاعُلاتِهـا المُتَعَدِّدَة، فنجدُ – على سبيل المِثـال – أنّ تشارلز سنو (C.P.Snow)، في أواخِرِ الخمْسينات من القَرْن الماضي، يُقَرِّرُ أنّ: («الثّقافة» هي الاسْتِجَابَةُ المُتَماثِلَةُ التي تَحْـدُثُ دون تَفْكيـر)[٣٢]، وهذا يَعْنِـي أنّ «الثّقافة» هي الشّيء الذي يُصْبِـحُ شِبْهَ غريزيٍّ فـي التّفْكيـرِ والتّحْليلِ والسُّلُـوكِ والمُمَارَسَةِ، فهي بذلك تُصْبِحُ وفْـقَ التّعْبير الإنْجليزيّ: «طبيعةً ثانيةً» (Second nature). ويَلْتَقِي هذا التّعْريفُ مع رأي تيري إيجلتون (Terry Eagleton) الـذي يَعْتَبِـرُ أنّ «الثّقافة» هي: (تلك القناعات والمُيُـول المُسَلَّم بها بداهةً، والتـي لا بُدَّ مـن وجودها كي يكون بمقْدُورنـا أنْ نَتَصَرَّفَ أيّما تَصَـرُّف)[٢٧]، ويكاد هذا

التّعْريـفُ يتطابـقُ مع الرّأي الـذي رواه مالك بن نبـيّ[٣٣] عن إدوار هوريـو – عميد كلية الآداب فـي «جامعة ليون» – بقوله: («الثّقافة» هي مـا يَبْقَى عَالِقاً بالأذْهَانِ عندما نَنْسَى مـا تَعَلَّمْنَـاه)، وتَقْتَرِبُ هذه الرُّؤيةُ لـ«الثّقافة» مع ما طَرَحَـهُ توماس إليوت (T.S.Eliot) حيث يقول: («الثّقافة» هي قبل كُلِّ شيءٍ ما يَعْنِيه الأنْثروبولوجيّون؛ أَيْ طريقة حياة شَعْبٍ بعينه يعيشُ معاً في بُقْعَةٍ وَاحِدَة)[٢٧]؛ وبالتّالي فإنّ «ثقافة المُجْتمع» عند إليوت هي: (ما يَجْعَلُ من هذا المُجْتمع مُجْتمعاً)[٢٧]. ويتوافقُ هذا التّعْريفُ مع اخْتيار زكي نجيب محمود إذْ يقـول: (تَجَانُسُ الشَّعْـبِ الوَاحِدِ فـي ثقافةٍ وَاحِـدَة، معْنَاهُ أنّ أفْراد ذلـك الشَّعْب قد رَبَطَتْهُـم «اهْتمامات» مُتَشابِهةٌ، يَتَّجِهُون بها جميعـاً نحو أُفُقٍ وَاحِدٍ مُشْتَرَك)[٢٠]، وتَتَعَمَّقُ الرُّؤيةُ نفْسها عند قسطنطين زريق حيث يُؤكِّدُ أنّ «الثّقافة» هي: (جِمَاعُ حياة مُجْتمعٍ من المُجْتمعات، بُدَائيّاً كان أو مُتَقدِّماً رَاقِياً)[١٨].

وبالإضافـة إلـى أنّ لمُصْطلح «الثّقافـة» تداعياتٍ لُغَويّـةً وتاريخيّـةً وفَلْسفيّةً، فإنّه – أيضـاً – مَحَـلُّ صِراعٍ سياسـيٍّ؛ فيرى فريدريـك تشيللـر (Friedrich Schiller) أنّ: («الثّقافـة» هي الآليّـةُ المُحَرِّكَةُ حيث تُقَولِبُ الذّوات البشريّة تَبَعاً لحاجاتِ نَوْعٍ جديدٍ من النّظـام السّياسيّ، فتُعِيدُ صِياغتهم، وتُحَوِّلُهُمْ إلـى أدواتٍ طَيِّعةٍ ومُعْتدِلَةٍ ولا مُبالِيَة)[٢٧]، ويُمَحِّصُ ريموند ويليامز (Raymond Williams) تلك الرُّؤية لتَسْتَوْعِبَ مَفْهُوماً حركيّاً ديناميكيّـاً حيث يقـول: (إنّ المعاني المُتَشابِكـةَ المُعَقَّدَةَ التي يَنْطَـوِي عليها المُصْطلحُ تُشِيـرُ إلى سِجَالٍ مُتَشابِكٍ ومُعَقَّدٍ بشَأْنِ العَلاقَاتِ التي تَرْبط بين التّطوُّرِ الإنْسانيّ العامّ، وطريقـةِ حياةٍ مُحَدَّدَةٍ، وبين كليهما من ناحيةٍ، وبين أعْمالِ ومُمَارَسَاتِ الفنّ والذّكاء من ناحيةٍ أُخْرى)[٢٧].

من المُهِمّ – في هذا السّياق – أنْ نَتطَرَّقَ إلى تَعْريف «الثّقافة» الذي اخْتَارَهُ تشارلز سنـو[٣٢] عنـد صِياغتـه لمُصْطلـح «الثّقافتَـان» (The Two Cultures)، فهـو يـرى أنّ «الثّقافة» تَحْمِلُ مَضْمُونَيْن؛ حيث يَقَعُ المَضْمُونُ الأوّلُ في إطارِ تَعْريفِ القاموس للمُصْطلح الـذي يُوَضِّـحُ أنّ: («الثّقافة» هي التّطْويرُ الفِكْريُّ وتَنْميةُ العَقْـل)، وأمّا المَضْمُونُ الثّاني الـذي اخْتَارَهُ سنو فيتلخّصُ في أنّ: («الثّقافة» هـي العاداتُ والمعاييرُ المُشْتَرَكَةُ وأنْمَاطُ

السُّلُـوكِ المُوحَّدَةُ والفَرْضِيّاتُ والمُعَالَجَاتُ المُتوافِقَةُ بيـن الأَفْرَادِ في المُجتَمع المَعْنِيّ)[٣٢]، وأمّـا محمد عابد الجابريّ، فيَطْرَحُ تَعْريفاً لـ«المُثقّف» يَشْمَلُ جميع (الذين يَشْتَغِلُون بـ«الثّقافـة»، إبْداعـاً وتَوزيعاً وتَنْشيطاً، «الثّقافـة» بوَصْفِهَا عَالَماً من الرُّمُـوزِ يَشْمَلُ الفنّ والعِلْم والدِّين)[١٨].

نَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَـمَ سَبَبَ تَعَدُّدِ التَّعْريفـاتِ لمُصْطلح «الثّقافة» فـي ضوء اهْتماماتِ المُثقَّفين المُتَنَوِّعَة، والأنْشِطَةِ البشريّةِ المُتَعَدِّدَة، وطبيعةِ المرْحلةِ التي يعيشُها المُجْتمع، لنَخْلُصَ إلـى أنّ مُصْطلح «الثّقافة» مَرَّ بمراحِل مُخْتلفةٍ وفْـق طبيعة التّفاعُلات السّائِدة فـي البيئـات المُخْتلفة، ولعلّنا لا نُبَالِـغُ إذا قُلْنَا إنّـه كان لا بُدَّ لهـذا المُصْطلح من عُبُورِ تلـك المراحِـل حتى يَبْلُـغَ «مَرْحلة النُّضْـج»، ويَسْتطيـعَ أنْ يَسْتَوْعِبَ طبيعـة «التّلاقُحَاتِ المُجْتمعيّـة» فـي ضوء انْفِجَـارِ «المعارِف الحديثـة»، وآثارِها العميقةِ فـي حيواتِ النّاس وتَواصُلِهـم، وأنْمَـاطِ اقْتصادهم، وضُغُوطِ الحيـاة المُعاصِرة. بطبيعـة الحال ليس من أهْـدافِ هذا الكِتَـابِ أنْ يَدْلِفَ إلـى الإشْكَالاتِ اللّغويّـةِ والفِكْريّةِ والتّاريخيّـةِ والفلْسفيّةِ لمُصْطلـح «الثّقافة»، ولا يهمّنا هنا أنْ نُغْرِقَ القـارئَ في تَعْريفاتِ «الثّقافة» التي لا حَصْرَ لهـا[٣١]؛ فالولـوجُ في «مَأْزِقِ المُصْطلـح» يَنْبَغِي أنْ يُؤْخَذَ إلى نهايتـه للغَوْصِ في «أدبيَّات الثّقافة»، واستبطاناتِها الفَلْسفيّـة، وجُذُورِها التّاريخيّة، وارْتباطاتِها الماديّة، وتغيُّراتِها المُجْتمعيّة، وهذا في حَدِّ ذاته مجالٌ أكاديميٌّ وَاسِعٌ له رِجَالُهُ وفُرْسَانُه.

٢-٢-١) التّعْريفُ المُعْتَمَدُ لـ«الثّقافة»:

في رأْيي أنّ الأَمْرَ الأَهمّ والأبْرز فيما يَتَعَلَّقُ بمُصْطلح «الثّقافة» هو ما ذَكَرَهُ مالك بن نبيّ في أنّ: (مُشْكلة العالَم العربيّ والإسْلاميّ ليستْ مُنْحَصِرَةً في مُحَاوَلَةِ فَهْمِ «الثّقافة»، وإنّمـا في تَحْقيقِهَـا بصُورةٍ عمليّة)[٢٨]؛ ولذا فإنّه من المُهِـمّ أنْ نَضْبِطَ هنا «إطار عملٍ» لهـذا المُصْطلح، وأنْ نَتَعَرَّفَ على المُصْطلح بعـد أنْ بَلَغَ «مَرْحلة النُّضْج»، ونتعارفَ على أرْضيّةٍ مُشْتَرَكَةٍ نَسْتطيعُ أنْ نَبْنِيَ عليها الفَرْضِيّاتِ والاسْتِنتاجات، ونَسْتَمِدَّ منها مُقَوِّمَاتِ التّمْحيص، وعناصِر التّحْليل، وجُذُورِ التّعْليل.

اسْتِنـاداً إلـى ما سَبَق، فـإنّ التّعْريفَ الـذي سنَعْتَمِدُهُ في هذا الكِتَـابِ هو التّعْريفُ الأشْمَـلُ والأعَـمُّ الـذي طَرَحْتُـهُ في «ورقـة عمـلٍ»[٣٤]، وهو يَجْعَـلُ من هـذا المُصْطلح: (المَخْـزُونُ المَعْرِفـيُّ ومُسْتَودَعُ قِيَـم المُجْتمـع وأعْرَافِهِ وأحْكَامِـهِ ومَعَاييـرِهِ ومَفَاهِيمِهِ ومُعْتَقَدَاتِـهِ السَّائِدَةِ التي يَتَأثَّرُ بها أفْرَادُ المُجْتمـع بمُخْتلفِ فِئَاتِهم - المُتَعَلِّمُ، والجَاهِلُ، والكَهْـلُ، والطِّفْـلُ، والمَرْأةُ، والرَّجُلُ -، وذلك بدرجاتٍ مُتفاوتـةٍ وفْق اسْتيعابِ كُلٍّ منهم، وحسب اتِّسَاعِ مَدَارِكِه، وبالتّالي يكونُ لـ«الثّقافة» الدَّوْرُ الأبْرَزُ في تَحْدِيدِ سُلُوكيّاتِ الأفْراد، ورُدودِ أفْعالِهـم، وطرائِقِ تَفْكيرِهم). هذا التّعْريفُ هو الـذي اعْتَمَدَتْهُ «المُنَظَّمَةُ العربيّةُ للتَّربيـة والثَّقافـة والعلوم (أليكسو)» في تونس، وذلك في الدِّرَاسَـةِ التي نَشَرَتْهَا في عام ٢٠٠٦م تحت عنوان: (إسْتراتيجيّةُ نَشْرِ الثّقافة العِلْميّة والتّقانيّة في الوطن العربيّ)[٣٥].

بطبيعـة الحال إنّ مِثْلَ هذا «المَخْـزُونِ» من المَعْرِفَةِ والقِيَـم والأعْرَافِ والمفاهيم فـي أيِّ مُجْتمـعٍ لا يَنْمُو بين يـومٍ وليلةٍ، ولكنّه حَصِيلَـةُ تَرَاكُم خِبْرَاتٍ وتجـارِبٍ ومُؤثِّراتٍ تَفْعَـلُ فِعْلَهَا على فَتْرةٍ طويلةٍ من الزّمن؛ فتَتَجَذَّرُ بذلك في النُّفُوس، وتَرْسَخُ في اللاوعي، وتَحْتَـلُّ أغْوَارَ العَقْل، وتَتَأصَّلُ في الوِجْدان؛ فيَرْضَعُ الإنْسانُ فِكْرَهَا صغيراً، ويَتَرعْرَعُ على تفاعُلاتِها، ويَحْتَكِمُ إلى قَواعِدِهَا، فيَنْطَبِقُ عليها - في هذه الحالة - وَصْفُ مالك بن نبيّ حيـث يـرى أنّ: («الثّقافة» ليستْ عِلْمـاً يَتَعَلَّمُهُ الإنْسان، بَلْ هي مُحِيـطٌ يُحِيطُ به، وإطارٌ يَتَحَرَّكُ دَاخِلَـه، يُغَذِّي جنين الحضارة في أحْشَائِه، فهي «الوَسَطُ» الذي تتكوَّنُ فيه جميعُ خصائِصِ المُجْتمع المُتَحَضِّر، وهي «الوَسَطُ» الذي تَتَشَكَّلُ فيـه كُلُّ جُزْئيّةٍ من جُزْئيّاتِه تَبَعَاً للغايةِ العُلْيَا التي رَسَمَهَا المُجْتمعُ لنفسه)[٢٨].

تلـك الحقيقة، التي تَجْعَلُ من «الثّقافة» بِنْيَةً - تحْتيَّـةً ضروريّةً للتّفاعُلاتِ البشريّةِ ووسيلةً لتَشْكيلِ «العَقْل»، يُؤكِّدُهَا محمد عابد الجابريّ بقوله: (إنّ عمليّةَ التّفْكير ذاتها لا تَتِمّ إلاّ داخِلَ ثقافةٍ مُعَيَّنَةٍ وبواسِطَتِهَا. والتّفْكيرُ بواسِطة ثقافةٍ ما مَعْنَاهُ: التّفْكيرُ من خلال مَنْظُومَـةٍ مَرْجِعِيّةٍ تَتَشَكَّلُ إحْداثياتُها الأساسيّةُ من مُحَدِّدَاتِ هذه الثّقافة ومُكَوِّناتِها، وفي مُقَدِّمَتِهَا: المَـورُوث الثقافيّ، والمُحِيط الاجْتماعيّ، والنَّظْرَة إلـى المُسْتَقْبَل، بَلْ النَّظْرَة إلى العَالَم، إلى الكَوْنِ والإنْسان، كما تُحَدِّدُهَا مُكَوِّنَاتُ تلك الثّقافة. ونحن عندما نتحدَّثُ

عـن «العَقْل العربيّ» في هـذا الإطار إنّما نَعْنِي بـه «الفِكْر»، أو «القُوَّة المُفَكِّـرَة» بوَصْفِهَا أداةً للإنْتـاج النّظريّ والفنّيّ والعِلْميّ صَنَعَتْهَا ثقافةٌ مُعَيَّنَةٌ لها خُصُوصِيّتُهَا، هي «الثّقافة العربيّـة» بالذّات؛ الثّقافة التي تَحْمِلُ معها تاريخ العـرب الحضاريّ العامّ وتَعْكِسُ وَاقِعَهُم أو تُعَبِّرُ عنه وعن طُمُوحاتِهم المُسْتقبليّةِ كما تَحْمِلُ وتُعَبِّرُ - في الوَقْت ذاته - عن عَوائِق تقدُّمهِـم وأَسْبـابِ تخلُّفهِم الرّاهِن) [١]، وهذا ما يُكَـرِّرُهُ إبراهيم البليهي حيث يقول: (لا عَقْل دون ثقافةٍ، فعَقْلُ الإنْسان يَتَكَوَّنُ بالحضانة الثقافيّة ولو حُرِمَ من هذه الحضانة حتّى يَكْبُـرَ فإنّه سيُحْرَمُ من اللّغة ومن كُلِّ الآليّات الثّقافيّة التي يَتَكَوَّنُ بها العَقْل، وسوف تَفُوتُهُ إمْكاناتُ دُخُولِ نِطاقِ العَقْل) [٣٦].

من ذلـك المُنْطَلَق، فإنّ ثقافـةَ أيِّ مُجْتمعٍ تَتَّسِـعُ وتَزْدادُ عناصِرُهـا تَعْقيداً، وتَنْمُو تراكُماتُهـا وتداخُلاتُها وتَرْكيباتُها، كُلّمـا انْتَقَلَ المُجْتمعُ إلى مراحِل أكْثر تَقَدُّماً وتَحَضُّراً ورفاهيـةً. ولـذا فإنّه من الطّبيعـيّ أنْ يكون لتعقُّـدِ المُتَغيِّـراتِ الاقْتصاديّـةِ والسّياسيّةِ والمَعْرفيّةِ والاجْتماعيّةِ وتشابُكاتِها - في العُقُودِ الأخيرة - تَأْثيرٌ مُباشِرٌ في نُموِّ «الثّقافة» وتَشَكُّلِهَا وتَطَوُّرِهَا، ويَتَّفِقُ هذا مع ما يراهُ تيري إيجلتون حين يقول: (إنّ مُعْظَمَ المُجْتمعات الحديثـة هي في حقيقة الأَمْـرِ مَجْمُوعةٌ من الثّقافات التّحْتيّة أو الفَرْعيّة المُتَداخِلَةِ حيث يَغْـدُو من الصُّعُوبَةِ بمـكانٍ أنْ نُحَدِّدَ العَالَـمَ الثّقافيّ المِعْيَاريّ الـذي تَنْحَرِفُ عنه ثقافةٌ فَرْعيّـةٌ مُعَيَّنَـة) [٢٧]. فـي ذلك الإطار نَسْتطيـعُ أنْ نَخْلُصَ إلى أنّ «الثّقافـة» عِبارَةٌ عن: (مَنْظُومَـةٌ مُتَشَعِّبَةٌ تَنْضَوِي تحت لوائِها وتتشابكُ في ساحاتِها مُخْتَلَفُ العناصِر المَعْرفيّة والفِكْريّـة، والمُقَوِّمَـاتُ الدِّينيّـة، والأنْمَـاطُ الحياتيّة، والعـاداتُ السّائِـدة، والسُّلُوكيّاتُ المُعْتَمَدَة، والأحْكَامُ المُهَيْمِنَة) [٣٤].

٢ - ٢ - ٢) التَّرْكيبُ العامُّ لـ«الثّقافة»:

فـي إطـار التّعْريف الـذي اعْتَمَدْنَـاهُ لمُصْطلح «الثّقافـة» نَسْتطيـعُ أنْ نَتَعَرَّفَ على تَرْكيبتَيْن مُتبايِنَتَيْن لعناصِر «الثّقافة»؛ حيث تُهَيمِنُ على التّرْكيبةِ الأولى «عناصِر سَلْبيّة» ذات مفاهيـم ضَحْلَةٍ، وعاداتٍ عقيمـةٍ، وتَصَوُّراتٍ ضبابيّةٍ، تَعُوقُ حركـةَ المُجْتمع وتُؤَدِّي

إلــى ضُمُورِ طاقاتِه وكَبْــحِ عُنْفوانِه، وهذه التّرْكيبةُ تَدْخُلُ في إطــارِ ما أَسْمَاهُ دافيد لاندز (David S. Landes) بـ«الثّقافات المُخَدِّرَة» لأنّها: (عَائِقَةٌ للذين هم مُتعَلِّقِين بها، وهي ثقافــاتٌ يجدُ فيهــا أَصْحابُها العَزَاءَ والسّلــوان إلاّ أنّها تَعُوقُ قُدراتِهم علــى المُنَافَسَةِ في العَالَــمِ الحديث)[٢٧]. أمّــا «التَّرْكيبةُ الثَّانيةُ» من عناصِر «الثّقافــة»، فتَتَمَتَّعُ بـ«خصائِص إيجابيّــةٍ» ذات حيويّةٍ وفاعليّةٍ تكونُ بمَثَابَةِ قُوّةٍ دَافِعَةٍ للنُّمــوّ والتّرقِّي والإبْداع والإنْتاج في مُخْتَلَــفِ مناحــي الحياة، وفي هــذا السِّياق يقولُ مالك بــن نبيّ: (إنّ أهميّــةَ الأفْكار في حيــاة مُجْتمعٍ مُعَيَّنٍ تَتَجَلّى في صُورَتَيْن؛ فهي إمّــا أنْ تُؤثِّر بوَصْفِهَا عَوامِل نُهُوضٍ بالحياة الاجْتماعيّة، وإمّا أنْ تُؤثِّرَ على عَكْسِ ذلك بوَصْفِهَا عَوامِل مُمْرِضَةٍ تَجْعَلُ النُّموّ الاجْتماعيّ صَعْباً أو مُسْتحيلاً)[٢٨].

وهكــذا تَدْخُلُ «ثقافــةُ الإنْسان» إلى مَطْبَخِ «التَّفاعُلِ البشــريّ» لتكون له أو عليه وفْق أُسُسِ هذه «الثّقافة» ومُعْطياتِها ودرجةِ ما أَسْمَاهُ مالك بن نبي «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة»[٢٨]؛ فـ«الثّقافــة» كائِنٌ حَيٌّ يَنْمُو ويَضْمُــر، ويَشْقَى ويَسْعَد، ويَقْوَى ويَضْعُــف، وذلك وفْق أحْوالِ أَهْلِهِ ومُمَارَسَاتِهِم وقِيَمِهم ومفاهيمِهم وأولويّاتِهم؛ ولذا فإنّ تَغَلْغُلَ الجراثيم إلى «أَنْسِجَةِ الثّقافة» أمْرٌ وَارِدٌ، وفَتْكَهَا بقُدْرَاتِ المُجْتمع وتفاعُلاتِه قضيّةٌ مُحْتَمَلَةٌ، كما أنّ من المُمْكِن لـ«الثّقافة» أنْ تَبْلُغَ مرْحلــةً من الهُزَالِ والشّيخُوخةِ لتَتَكَالَبَ عليها عَوامِلُ التّآكُلِ الدّاخِليّ، والانْهِيــارِ الفِكْــريّ، والهزيمــةِ الحضاريّــة. لــذا كان من الضّــروريّ أنْ تقــوم «الثّقافة» بتَحْصيــنِ نفْسِهــا، وتَطْويــرِ ذاتها، وتَجْديــدِ خلاياها، لتَسْتطيــعَ أنْ تُواكِــبَ المُتَغَيِّرات، وتَتَصَدَّى للتّحدّيات، وتُطَوِّرَ الإمْكانات عبْر تراكُماتٍ قَادِرَةٍ على إحْداثِ التّأْثير المَطْلُوب، وخلال آليّاتٍ فَاعِلَةٍ تَعْمَلُ في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزّمن»، وتَدْفَعُ «الحَرَاكَ الثّقافيّ» نحو «الفَاعِليّة الاجْتماعيّــة»؛ فـ«الثّقافةُ» ليستْ تَرَفاً تُمارِسُــهُ المُجْتمعات، وتَتَسَلّى به في سُويعاتِ الأُنْسِ وليالي السَّمَر، ولكنّها تفاعُلٌ حياتيٌّ، وتَنْمَويٌّ، وفِكْريٌّ، واجْتماعيّ.

من نَافِلَةِ القول إنّ أيَّ ثقافةٍ إنْسانيّةٍ تَحْتَوي – في مَنْظُومَتِهَا – على عناصِر من كلْتا التّرْكيبَتَيْــن «السَّلْبيّــة» و«الإيجابيّة»، إلاّ أنّ تَفَوُّقَ ثقافةٍ على أُخْــرَى يَكْمُنُ في قُدْرتِها على تَقْليصِــ دَوْرِ «التَّرْكيبــة السَّلبيّة» من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخْــرى تَطْويرِ إمْكاناتِ «التّرْكيبة

الإيجابيّـة» عبْـر المُرَاجَعَـةِ الموضوعيّة، والتّقْييـمِ النّزيـه، والتّفاعُـلاتِ الدّيناميكيّة، لإحْـدَاثِ التّراكُمَاتِ السّليمة، وتوفيرِ العَوامِـل المُسَاعِدَةِ والمُحَفِّزَةِ على تَمْكينِ «الثقافة» الفَاعِلَةِ اجْتماعيّاً، وتَنْمَويّاً، ومعيشيّاً. عبْر تلك الرُّؤية نَسْتطيع أنْ نَتَعَرَّفَ على نَوْعَيْنِ من المُجْتمعـات؛ أحدهما تَغْلُبُ عليه خصائِصُ «ثقافةٍ مُتَخَلِّفَةٍ» تُقَيِّدُ حركته، وتَخْنُقُ قُدْراته، فتَمْنَعَهُ من التَّطَوُّرِ والنُّموّ والنَّهْضَة، وتَدْفَعَ به نحو «ثقافةٍ اسْتِهْلاكيّةٍ» عَاجِزَةٍ ذات طبيعةٍ اسْتِسْلاميّـةٍ وانْهِزاميّـةٍ، فهي تُكَرِّرُ ذاتهـا، وتَجْتَرُّ تخلُّفَها، وتَنْعَـى وَاقِعَها. أمّا مُجْتمعاتُ «النَّـوْعِ الثَّانـي» فنجدُ أنّها تَحْظَى بهَيْمَنَـةِ مُقَوِّمَاتِ «ثقافةٍ مُتَقَدِّمَةٍ» قَـادِرَةٍ على التَّجاوبِ مـع احْتياجاتِ المُجْتمـع وتحدّياتِ عَصْرِه، لتكـون - في مُجْمَلِهَا - «ثقافـةً مُنْتِجَةً» ذات عناصِـر حَافِزَةٍ على الرُّقِيّ والتَّقَدُّم. وهكذا يُصْبِحُ المِحَكُّ الحقيقيُّ لجَدْوَى «الثّقافة» هو في تَمَكُّنِهَا من أداءِ «الوظيفة الاجْتماعيّة» التي تَهْتَمُّ برَفْعِ المُسْتوى الاجْتماعيّ والمعيشيّ والفِكْريّ للفَرْد والمُجْتمع.

إنّ الرُّؤيـةَ التـي طَرَحَهَا مالـك بن نبيّ[٢٨] في مـا عَرَّفَهُ بـ«التَّرْكيب العـامّ للثّقافة» مُنْطَلـقٌ مُناسِبٌ لتَلَمُّـسِ «التَّفاعُلات الإنْسانيّة» التي تُبَلْوِرُ حيـاةَ الفَرْد، وتَصُوغُ مُجْتمعَه، وتُؤَسِّسُ قِيَمَه، فقد حَصَرَهَا مالك بن نبيّ في عناصِرِ أرْبعة هي:

١) «عُنْصُرُ الأخْلاق» لتَكْوينِ الصِّلاتِ الاجْتماعيّة.

٢) «عُنْصُرُ الجَمَال» لتَكْوينِ الذَّوْقِ العامّ.

٣) «المَنْطِقُ العَمَليّ» لتَحْديدِ أشْكَالِ النّشَاطِ العامّ.

٤) «الصِّنَاعَةُ» وتَشْمَلُ العلوم والتّقْنيات والمهارات والمِهَن.

٢-٣) مُشْكلة الثّقافة:

في ضوء تفاعُلِ تَرْكيبَتَيِ «الثّقافة» - السَّلْبيّ منها والإيجابيّ - نَسْتطيعُ أنْ نَتَعَرَّفَ على «مُشْكلة الثّقافة» في المُجْتمعات المُخْتلفة؛ فلهذه المُشْكِلَةِ أبْعَادُهَا التّاريخيّةُ والاجْتماعيّةُ

والتّربويّةُ والفكْريّةُ والدِّينيّةُ في حُدُودِ الزّمان والمكان والخَلْفيّات والأَعْرَافِ السَّائِدَةِ في كُلٍّ من تلك المُجْتمعات، ولذا فإنّ لِكُلِّ مرْحلةٍ من حياة المُجْتمع جَوانِب ثقافيّةً تُمَيِّزُ تلك المرْحلــة، وتُعَبِّرُ عن تحدّياتِها، وتَرْسُمُ قَسَمَاتِهَــا، وتُبَلْوِرُ سُلُوكيّاتِ الأفْرَادِ ومُمَارَسَاتِهِم، وهذا ما يُؤكِّدُهُ مالك بن نبيّ فيقول: (كُلُّ واقعٍ اجْتماعيٍّ هو في أَصْلِه «قِيمةٌ ثقافيّةٌ» خَرَجَتْ إلى حَيِّزِ التَّنْفيذ)[٢٨]. من ذلك المُنْطَلَقِ يُؤكِّدُ مالك بن نبيّ على طبيعة التَّطَوُّرِ الكَامِنَةِ في «التّرْكيبــة الثّقافيّة» فيقول: (يجب أنْ نُحَدِّدَ «الثّقافة» في ضوء تصوُّرنا لوَضْعِهَا التّاريخيّ بوَصْفِهَــا حركةً مُسْتَمرّةً «صيرورة»؛ فإنّ في التّاريخ مُنْعطفــاتٍ هَائِلَةً خطيرةً يَتَحَتَّمُ فيها هذا التّعرُّف، والنَّهْضَةُ في العَالَم الإسْلاميّ إحْدى تلك المُنْعطفات)[٢٨]. إنّ هذا يَعْنِي أنّ طبيعة تطـوُّرِ المُجْتمعات الإنْسانيّة، وأشْكَالَ «التَّحَدّيات» التــي تُجَابِهُهَا، تَفْرِضُ ضُغُوطاً علــى «الثّقافة» السَّائِدَةِ فــي المُجْتمع، وتُمْلــي مُعْطياتِها على ظُــرُوفِ «التَّفاعُل» وأشْكَالِ «الاسْتِجَابَة»؛ فإذا أَخْفقَتْ «الثّقافة» في التَّكَيُّفِ مع المُتَغَيِّرَاتِ الطّارِئة، وفَشِلَتْ في إفْرَازِ عناصــر قَادِرَةً على خَلْقِ «المُواءَمة» واسْتِعَادَةِ «التّوازُن»، فإنّها تكون قد خَذَلَتْ مُجْتمعها، حيث ضَيَّعَتْ وظيفتها وفَقَدَتْ «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة»، وبذلك تُصْبِحُ «ثقافةً مُتَخَلِّفَةً» تَشُدُّ مُجْتمعهــا إلى الخَلْف، وتَحْجِبُ عنه عناصِر الحيويّة والنّشاط، وبذا تَتَحَوَّلُ هذه «الثّقافة» إلى جَسَدٍ هَامِدٍ يُلْقِي بثِقَلِهِ على حركةِ المُجْتمع، ويُقَيِّدُ إبْدَاعَاتِهِ وانْطِلاقَاتِه.

بطبيعــة الحال لا يُمْكِنُ اسْتِثْنَاء «المُجْتمعات العربيّة» من تلك التّفاعُلات الإنْسانيّة والسُّنن الكَوْنيّة، ولذا حَظِيَتْ – في العُقُودِ الأخيرة من القَرْن العشرين – «مُشْكِلَةُ الثّقافة» فــي العَالَم العربيّ بقَدْرٍ من الاهْتمام بين النُّخَب، واتَّخَذَتْ هذه المُشْكِلَةُ أشْكالاً مُتَعَدِّدَةً، فهي تَتَخَفَّى – أحياناً – تحت اسْم «أَزْمَة العَقْل العربيّ»، أو ثُنَائيّات «الأَصَالَة والمُعَاصَرَة» و«العَوْلَمَــة والخُصُوصيّة» و«النَّقْل والعَقْل» و«الاتِّبَاع والإبْـدَاع» «والأمميّة والوطنيّة»، وهي تَبْــرُزُ – تــارةً – على شَــكْل تَصَادُمَاتٍ مُباشِــرَةٍ مع وَاقِــعِ الحياة السّياســيّ والاجْتماعيّ والاقْتصــاديّ، وهــي تَتَجَلّى – هنا وهناك – فــي تَنَاقُضَاتٍ حَادَّةٍ ومُفَارَقَــاتٍ غريبةٍ تُشَوِّهُ الحياةَ السّياسيّــة والمُمَارَسَاتِ العمليّة والتّياراتِ الفِكْريّة والتّوجُّهَاتِ الاجْتماعيّة. إنّنا لا نَحْتَــاجُ إلى كبير جُهْدٍ لنُــدْرِكَ أنّ «الثّقافة العربيّة» اليوم هي ثقافةٌ قَاصِرَةٌ عن فَهْمِ «رُوحِ

العَصْر»؛ فهي تَتَرَنَّحُ تحت تَأْثير «فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ» خطيرةٍ تُمَثِّلُ جَوْهَرَ «التَّحدِّي» الذي يجب أنْ تَتَصَدَّى له كُلُّ القُوى المُؤثِّرة لتَعْمَلَ على تَأْسيسِ «تَكْوينٍ ثقافيٍّ» يَحْمِلُ رُؤىً تَسْتَشْرِفُ «المُسْتَقْبَل» وتُدْرِكُ مُقْتضياتِه، وتَهْتَمُّ بتوليدِ الآليّاتِ والمُعْطياتِ القَادِرَةِ على تَأْسيسِ «الخصائِص الإيجابيّة»، وعلى رَأْسِهَا الحِرْص على جَعْلِ «ثقافة العِلْم والتِّقْنية» عُنْصراً مُؤَثِّراً في التّفاعُلاتِ الفِكْريّة السّائِدَة.

٢-٤) «الثّقافة» بين «النّخْبويّة» و«الجماهيريّة»:

مِن أبْرز ما يُطْرَحُ من مُشْكلات «الثّقافة» هو وقُوعُهَا بين مِطْرَقَةِ «النُّخْبَة» وسِنْدَانِ «الجُمْهُور»، إلاّ أنّه من الصَّعْبِ أنْ نَتَحَدَّثَ عن «الثّقافة النُّخْبويّة» وكأنّها ثقافةٌ ذات مُواصَفاتٍ فريدةٍ تَفْصِلُهَا عن مُجْتمعِهَا، وتَضَعُهَا في نِطَاقِ شريحةٍ ضيّقةٍ مَعْزُولَةٍ عن تفاعُلاتِ مُحيطِهَا. وإذا كانتْ المراحِلُ البُدائيّةُ من تفاعُلاتِ المُجْتمعات تَسْمَحُ بما يُسَمَّى «ثقافة النُّخْبَة»، وتَدْفَعُ بها إلى بُرْجٍ عاجيٍّ يَعْزِلُهَا عن تفاعُلاتِ «الجماهير» وهُمُومِهم، فإنّ ذلك الوَضْعَ لم يعُدْ مُمْكِناً في ظُروفِ «الحياة المُعَاصِرة»؛ لأنّ القطيعة بين «الثّقافة النُّخْبَويّة» و«الثّقافة الجماهيريّة» أَصْبَحَتْ وَصْمَةً في حياة المُجْتمع الذي يُحَبِّذُهَا ويَرْعَاهَا، وعَقَبَةً على طريقِ «تَنْميةِ المُجْتمع» وتَطْويرِه؛ فانْفِجَارُ المَعْلُومات، وثَوْرَةُ الاتّصالات، والإعْلامُ الجديد، ومُقْتضياتُ «الحياة العَصْريّة» بتشابُكاتِها وتَعْقيداتِها، أزالتْ الكثير من الحَواجِز بين «الثّقافتَيْن» وأَسْهَمَتْ في تقارُبهما وتفاعُلِهما، بَلْ إنّ «العَوْلَمَةَ» اليوم تَفْرِضُ ما يُمْكِنُ أنْ يُسَمَّى «ثقافةً كَوْنيّةً» لها خصائِصها ومعاييرها وتَأْثيراتها.

وأمّا من النّاحية الوظيفيّة البَحْتَة، فإنّ «الثّقافة النُّخْبَويّة» تُصْبِحُ ثقافةً فَاشِلَةً إذا لم تَسْتَطِعْ أنْ تتجاوز «النُّخْبَة» لتتفاعل مع «الجُمْهُور»، فكما يرى قسطنطين زريق فإنّ: (الفَرْد والنُّخْبة هما في تفاعُلٍ دائم مع مُجْتمعهما، فلا غِنَى لهما عن جماهير المُجْتمع كما لا غِنَى لهذه الجماهير عنهما. والإنْشَاءُ الحضاريُّ يَتَطَلَّبُ تجاوباً حيّاً صادِقاً بين الفريقَيْن، ولكن هذا الإنْشَاءَ يَنْطَلِقُ دوماً من خلايا الوَعْي والإبْدَاع الفَاعِلَةِ في المُجْتمع)(١٨). وهذا ما يُؤَكِّدُهُ زكي نجيب محمود وهو يَضَعُ تَعْريفاً لـ«المُثقّف» فيقول: (هو أنْ يكون رجلاً بضاعته

أفكارٌ يُريدُ بها أنْ يُغيِّرَ وَجْهَ الحياة إلى ما هو أفْضَل)[٣٨]، ومن نَافِلَةِ القول أنّ ذلك «التَّغْيير» لن يَحْدُثَ عبْر الانْعِزاليّة أو النُّخْبَويّة أو الاسْتِعْلاء؛ وكُلُّها صِفَاتٌ يَميلُ إليها كثيرٌ من المَحْسُوبين على التّيارات الثّقافيّة في العَالَمِ العربيّ.

وانْطِلاقاً من الحقيقة التي يَصُوغُهَا محمد عابد الجابريّ[١] بقوله: (النَّهْضَةُ الثّقافيّةُ وتَطَوُّرُ الفِكْرِ وتَقَدُّمُهُ إنّما يَتمّان عبْر عمليّة تَرَاكُمٍ كَمِّيّ)، فإنّ ذلك يُؤدِّي - بالضّرورة - إلى عَلاقَةٍ عُضْويّةٍ بين «النُّخْبَة» و«الجُمْهُور» يراها الجابريّ على النَّحْوِ التّالي: (إنّ الازْدهار الثقافيّ هو فِعْلاً من عمل النُّخْبَة، ولكن لا النُّخْبَة التي تَطْفُو على السَّطْحِ ويُمْكِنُ تِعْدَادُ أفْرَادِهَا، بَلْ النُّخْبَة التي تَلْتَحِمُ قَاعِدَتُهَا العريضةُ بكُلِّيَّةِ جِسْمِ المُجْتمع لتُمَثِّلَ مُخْتلف فِئاته وطبقاته، وتُعَبِّرَ عن آلامه وآماله، وتَعْمَلَ على تَنْشيطِ عمليّة الانْصِهَارِ دَاخِله، وتَحْريكِ مكامِن القُوّةِ والخُصُوبَةِ في أحْشَائِه)[١].

ولا شكّ في أنّ من أبْرز بَصَمَاتِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، وما أَحْدَثَتْهُ من آثارٍ بليغةٍ في حياة البشر، أنّها أَسْهَمَتْ الإسْهَامَ الأكْبر في تَصَدُّعِ ذلك الحَاجِز الذي كان يَجْعَلُ «المُثَقّفَ» يَأْنَسُ في بُرْجِهِ العاجيّ مُنْعَزِلاً ومُهْتَمّاً بـ«المَعْرِفَةِ من أجْل المَعْرِفَة»؛ فقد سَمَحَتْ وسائِلُ الاتِّصالِ الحديثة للجُمْهُورِ بأنْ يُسْهِمَ - عبْر شرائِحِهِ المُتَنَوِّعَة، ووعيه المُتزايد، واهْتماماته المُتَعَدِّدَة، وتفاعُلاته المُتَداخِلَة - في تَشْكِيلِ «الثّقافة»، كما أنّها فَتَحَتْ النّوافِذَ على مَصَارِيعِهَا لـ«ثقافةٍ كَوْنيّةٍ» في «عَصْرِ العَوْلَمَة». بطبيعة الحال ستكون هذه «النُّخْبَة» أكْثر انْعِزالاً وأشدّ تَقَوْقُعاً إذا وَقَعَتْ تحت تَأْثير «الأُمِّيّة العِلْميّة»، فمن السَّهْلِ لنا أنْ نَتَصَوَّرَ حال «الثّقافة» التي يَطْرَحُهَا مِثْل ذلك «المُثَقّف النُّخْبَويّ» وهو يُبْحِرُ بعيداً عن طبيعة التّفاعُلات التي تُشَكِّلُ «الحياة المُعَاصِرَة»، ويَسْبَحُ عَكْسَ تيّار «حركة المُجْتمع» السّاعية نحو آفاقٍ مُسْتقبليّةٍ تَحْمِلُ تحدّياتٍ مُتَجَدِّدَةٍ، ومُشْكلاتٍ عِلْميّةٍ، وقضايا تِقْنِيّةٍ، وخصائِص فِكْريّة.

لقد أَسْهَمَ اتِّسَاعُ رُقْعَةِ التّعْليم، وانْتِشَارُ وسائِل الإعْلام، وتَعَدُّدُ منافِذ «التّواصُل الاجْتماعيّ»، إسْهاماً كبيراً في رَفْعِ وَعْي الجماهير، وتَعْميقِ إدْراكِهِم بمُشْكلاتِهم، وفَهْمِ طبيعة التّحدّيات المُحيطة بهم، والتّفاعُلِ مع مُتَغيِّراتِ زمانهم وأدواتِ عَصْرهم،

واسْتِيعـابِ الفَوارِقِ الشّاسِعَةِ بين وَاقِعِهِم ووَاقِعِ «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة»؛ ولذا فإنّنا نَشْهَدُ انْكِمَاشــاً مُطَّـرِداً لدَوْرِ «المُثقَّف النُّخْبَـويّ» الذي يَحْرِصُ على البقاء فـي بُرْجِهِ العاجيّ، مُكَرِّسَــاً حياته لفنونِه ومعارِفِه واهْتماماتِه الفِكْريّــة بمَعْزِلٍ كَامِلٍ عن التّأْثيرِ في المُجْتمع والتّفاعُلِ مع قضاياه. وبتأمُّلٍ أكْبر لوَاقِعِ «الحياة المُعَاصِرَة» نجدُ أنّ «الثّقافة» ليستْ مِهْنَةً بحيث يُكَـوِّنُ «المُثقَّفُون» طَبَقَةً أو شريحةً اجْتماعيّةً مُحَــدَّدَةَ الملامِحِ والاهْتمام؛ فهناك مُثقَّفُون في جميع الطّبقات الاجْتماعيّة والمِهَن العمليّة في المُجْتمع؛ فقد يكون «المُثقّفُ» تَاجِـراً، أو ضَابِطــاً، أو مُهَنْدِســاً، أو طبيباً، أو مُوظَّفــاً، أو عَالِمــاً، وبطبيعة الحال سوف تتفــاوتُ مُسْتوياتُ ثقافتِهــم ونَوْعِيّتها وتَوَجُّهها تَبَعــاً للخَلْفيّةِ الفِكْريّــةِ والتّأْسيسِ العِلْميّ والتّجْرِبــةِ الحياتيّة، ولكنّهم جميعهم يَشْتَرِكُون كـ«مُثقَّفين» في الاهْتمامِ بـ«الشَّأْنِ العامّ»، والتّعْبيــرِ عن هُمُومِ المُجْتمعِ وقضاياه، والإسْهَامِ في تَفْعيلِ أدواتِه وتوظيفِ مَوارِدِه، وهذا مــا يُؤكِّدُهُ مالك بن نبيّ بقوله: (إنّ «الثّقافة» تَتَدَخَّلُ في شُؤون الفَرْد، وفي بِنَاءِ المُجْتمع، وتُعالِجُ مشاكِلَ القيادة كما تُعالِجُ مشاكِلَ الجماهير)[28].

وهكــذا نَخْلُصُ إلــى أنّ «النُّخْبَويّة» التي تُؤدِّي إلى انْفِصَــامِ «المُثقَّف» عن مُجْتمعه، وعَجْــزِهِ عن «الالْتِحَــامِ العُضْويّ» مع تطلُّعاتِ المُجْتمع وقضاياه، هــي في انْحِسَارٍ مُسْتَمِرٍّ بسبــبِ تسارُعِ المُتَغيِّــراتِ على السّاحة العَالَميّة في كُلِّ مجــالٍ، والضُّغُوطِ المُتزايدةِ على «المُثقّــفِ» لامْتِلاكِ القُــدْرَةِ على التّأْثيرِ العامّ، وتوجيهِ «الحَــرَاكِ الثّقافيّ» إلى «الفَاعِليّة الاجتماعيّــة»، وتوفيرِ «البُنَى التّحْتيّة الثقافيّة» القَادِرَةِ على الاسْتِجَابَةِ للتّحدّياتِ التّنْمَويّةِ والإشْــكالاتِ المُعَاصِرَةِ والمُسْتَجِدَّاتِ العَالَميّــة. وهذا ما يُبْرِزُهُ توماس إليوت عندما يرى أنّ شَكْلَيِ الثّقافــة، «النُّخْبَويّ» و«الجماهيريّ»، يتهاجنان فيقول: (من الواجب النَّظَرُ إلى هذا المُسْتوى الأعْلى من «الثّقافة» على أنّه قَيِّمٌ بحَدِّ ذاته، ويُمَثِّلُ إغْنَاءً للمُسْتويات الدُّنْيا فــي آنٍ معاً، وبــذا تتواصلُ حركة «الثّقافــة» في نَوْعٍ مــن الحَلْقَةِ حيث تُخَصِّــبُ كُلُّ طَبَقَةٍ الطَّبَقَةَ الأُخْرَى وتُغَذِّيها)[27].

ذلــك الدَّوْرُ الأساسُ الفَاعِلُ لـ«المُثقَّف» هــو الذي رَسَمَ زكي نجيب محمود ملامِحه بشَــكْلٍ عامٍّ عندما قال: (وأظنُّهُ قد بــاتَ وَاضِحاً ماذا تكونُ المُهِمّة الأولى للمُثقّفين؟، إذْ

هي قبل أيِّ شيءٍ آخَر، وبعد أيِّ شيءٍ آخَر، مُهِمّة «التّنْوير» التي تُضِيء ولا تُرْغِم، ونجاحُها مَرْهونٌ بأنْ تَتَوَلَّدَ في قُلُوبِ النّاس «إرادةٌ» تَرْغَبُ من تِلْقَاءِ نفْسها فيما يُرادُ لهؤلاء النّاس أنْ يَرْغَبُوا فيه، وإذا قُلْنَا ذلك فقد قُلْنَا - بجُمْلةٍ أُخْرَى - إنّ مُهِمّةَ المُثقّفين هي أنْ يَميلُوا بالنّاس نحو أنْ يَسْتَبْدِلُوا بمَجْمُوعَةِ قِيَمٍ عتيقةٍ كامِنَةٍ في صُدُورهم، مَجْمُوعَةً أُخْرَى من القِيَمِ الجديدةِ الصّالِحَةِ للمَوْقِفِ الجديد في العَصْرِ الجديد)[٢٠]. أمّا عند مالك بن نبيّ فتتلاقحُ وتتضافرُ «النُّخْبَويّة» و«الجماهيريّة» في «الثّقافة» عبْر وظيفتها فيقول: (إذا ما أردنا إيضاحاً أوسع لوظيفة «الثّقافة» فلنُمَثِّلْ لها بوظيفة الدَّم، فهو يَتَرَكَّبُ من الكُرَيّاتِ الحمراء والبيضاء، وكِلاهُمَا يَسْبَحُ في سَائِلٍ وَاحِدٍ من «البلازما» ليُغَذِّي الجَسَدَ: فـ«الثّقافةُ» هي ذلك الدَّمُ في جِسْمِ المُجْتمع، يُغَذِّي حضارتَه، ويَحْمِلُ أفْكارَ «النُّخْبَة» كما يَحْمِلُ أفْكارَ «العَامَّة»، وكُلٌّ من هذه الأفْكارِ مُنْسَجِمٌ في سَائِلٍ وَاحِدٍ من الاسْتِعْداداتِ المُتَشابِهَة، والاتِّجاهاتِ المُوحَّدَة، والأذْواقِ المُتَناسِبة)[٢]. وفي السِّياق نفْسه يَطْرَحُ إسماعيل سراج الدين دَوْرَ «المُثقَّف» ومَسْؤوليته بقوله: (يَظَلُّ «المُثقّفُ» هو العَيْنُ التي يرى من خلالها المُجْتمع ذاته. فوظيفته هي تَحْليلُ الظّواهر، ومُناقشةُ التُّراث، وتَلْقيحُ الأفْكارِ في صُورةٍ عَصْريّةٍ، ونَقْلُ تَجْرِبةِ الآخَر الإبْداعيّة وتَشْكيلُها في صُورةٍ محليّةٍ، وإعادةُ صَوْغِ فِكْرِ المُجْتمع وتوجُّهاتِه، لا تَقْبَلُ الوَضْعَ الرّاهِنَ أيّاً يكنْ. لذا يجبُ أنْ يكون «المُثقَّفُ» ناقِداً لما حوله، مُتَطَلِّعاً إلى الأفْضل، مُطَالِباً به)[٣٩].

٢-٥) «الثّقافة» و«العَوْلَمَة»:

لقد فَرَضَ «مَفْهُومُ العَوْلَمَة» حُضُورَهُ على السّاحة، وتناولتْهُ بالتّعْريفِ والتّحْليلِ والتّقْييمِ أقْلامٌ مُتخصِّصةٌ، وأُخْرى مُهْتَمَّةٌ بأحْوالِ مُجْتمعاتِها في الشَّرْقِ والغَرْب، وبطبيعة الحال لم يكنْ «المُثقَّفون العرب» اسْتِثْناءً للقَاعِدَةِ حيث وجدُوا في هذا المُصْطلح وليمةً دَسِمَةً، فانْقَضُّوا عليها بين مُؤيِّدٍ ومُعَارِضٍ ومُتَرَدِّدٍ، وكالعادة تَمَيَّزَ «الطَّرْحُ العربيّ» بأرْتَالٍ من الكلماتِ المُنَمَّقَةِ والعِباراتِ الجَزْلَةِ والأساليبِ البلاغيّةِ والمَزاعِم الحماسيّة، وكالعادة - في «الخِطَابِ العربيّ» - فَقَدَتْ الكلماتُ معانيها، وضَاعَتْ مضامينُها، في

طُوفـانِ المُبَالَغَاتِ والمُسَاجَلاتِ والسَّرْدِيَّات. إنّ المُتَابِعَ لِحـواراتِ «العَوْلَمَةِ» وطُرُوحاتِها في العَالَمِ العربيّ يَشْعُرُ أنّ مُعْظَمَ المُشاركين يتحدَّثُون عن مَأْزِقٍ وَقَعَتْ فيه الأُمّة؛ فمنهم مـن يرى أنّ الخُرُوجَ من المـأْزِق، الذي فَرَضَتْهُ هَيْمَنَةٌ خَارِجيّةٌ، هـو برَفْضِ تلك الهَيْمَنَةِ وتَبِعَاتِهَـا، ومنهم من يَحْسَبُ أنّ المَأْزِقَ حقيقةٌ لا مناص عنها وليس للمُضْطَّرِّ إلاّ رُكُوبُهَا؛ إمّـا عبْـر قَبُولِهَا بعُجَرِهَا وبُجَرِهَا، وإمّـا عبْر «عمليّةٍ انْتِقائيّةٍ» لا يـزالُ كثيرٌ من معالِمها خَافِيـاً علـى دُعاتِهـا ومُؤَيِّديهـا لنقع - مَـرّةً أُخْرى - في شِبـاكِ تلك المُعْضِلَـةِ القديمةِ المُتَجَدِّدَةِ المَعْرُوفةِ باسْمِ «إشْكَاليّة التُّراث والحَداثَة».

وكأيِّ قضيّةٍ مَطْرُوحةٍ للفَهْمِ والاسْتِجْلاء، فإنّه يَنْبَغِي تَمْحيصُ ظَاهِرَةِ «العَوْلَمَةِ» من وَاقِـعِ خصائِصِها ومُسَبِّباتِها وآثارِهـا ومُكَوِّناتِها؛ ولتيسيرِ «عمليّة التَّحْليل» يُمْكِنُ أنْ نَلْجَأَ إلـى عُنْصُرَيْن أسَاسَيْن في «التَّرْكيبة الذّاتيّـة» لظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة»؛ فيجبُ - أوّلاً - اعْتِبَارُ «الجَانِبِ الإنْسانيّ» الذي تُشَكِّلُـهُ «الطَّبيعةُ البشريّة» ودَوافِعُهَـا وتفاعُلاتُها، وهو الجَانِبُ الذي يَمْنَحُ ظَاهِرَةَ «العَوْلَمَـةِ» ثِقَلَهَا الفِكْريّ والاجْتماعيّ والإعْلاميّ. وأمّا العُنْصُرُ الثّاني فـي «تَرْكيبة العَوْلَمَة» فهو ضـرورةُ التّأمُّلِ - بدِقّةٍ وانْضباطٍ - في نَوْعِ «الوَقُودِ» الذي يَمْنَحُ هـذه الظّاهِرَةَ القُوّةَ الدّافِعَة، والتّأْثيرَ المُتزايـد، والثِّقَلَ المُتنامي في مُخْتلف السّاحات. أمّـا علـى صعيد «الجَانِبِ الإنْسانيّ» البَحْت، فإنّه ممّـا يُسْتَنْكَرُ على مُثقّفينا ما أثارُوه من الصَّخَبِ والضَّجيج، وما تَمخَّضَ من «رُدودِ فِعْلٍ» تعاملتْ مع «العَوْلَمَة» وكأنّها وَحْشٌ كاسِرٌ، انْقَضّ فجأةً على وعْينا الهادئ وحياتِنا المُسْتقرّة ليُهَدِّدَ مُحْتوياتِهما وأُطُرهما؛ فالحقيقةُ أنّ «العَوْلَمَـةَ» ليسـتْ بالأمْـرِ الطّارئ على تاريـخ البشر؛ فهي قد رافقـتْ الإنْسان - منذ البدايـة - بدرجاتٍ من التّأْثيرِ مُتفاوِتَة؛ لأنّهـا تَتَمَثَّلُ في نُزُوعِ «ثقافة الغَالِب» إلى الهَيْمَنَةِ وانْسِيـاقِ الآخريـن إليها، وهذا ما أَخْبَرَنَـا به عبد الرحمن بن خلدون منـذ أمدٍ طويلٍ أنّ: (النَّفْـس أبداً تَعْتَقِدُ الكَمَالَ في من غَلَبَهَا وانْقَـادَتْ إليه إمّا لِنَظَرِهِ بالكَمَالِ بما وَقَرَ عندها من تَعْظيمِه، أو لِمَا تُغَالِطُ به من أنّ انْقيادِها ليس لِغَلَبٍ طبيعيٍّ، إنَّما هو لكَمَالِ الغَالِب)[٤٠].

جَوْهَـرُ القضيّـة - إذاً - أنّ «العَوْلَمَةَ» هي البَصْمَةُ التي يُصِرُّ «الغَالِبُ» على طَبْعِهَا فـي حياةِ «المَغْلُوبِ»، وقد كان هذا هو السّائِد - وما زال - في تدافُعِ البشر وصِراعاتِهم،

وهـذا مـا يُؤكِّدُهُ برهان غليون بقوله: (الاتِّجاه نحو دَمْج العَالَـم في مَنْظُومةٍ وَاحِدَةٍ قديمٌ قِدَمَ الحركاتِ والتَّوسُّعاتِ الإمْبراطوريّة)(٤١). ولذا نجدُ أنّ أحد أبْرز أشْكَالِ الشّكْوى من «العَوْلَمَة» هي في اتِّهامِها بأنّها «أَمْرَكَةٌ»، وتَنْطَلِقُ هذه الشّكْوى - بحِدَّةٍ - من دُول «العَالَم الثّالـث»، وتَقِـلُّ درجةُ حِدَّتِهَا كُلّما ارْتَفَعَتْ الأُمّةُ في سُلَّم القُوّةِ والتّأْثير، فهي - على سبيل المِثـال - موجودةٌ - بشَكْلٍ عامٍّ - في «الخِطَابِ الثّقافـيّ الفرنسيّ»، ولكنّها أكْثر رصانةً، وأقلّ انْفعالاً، وأهْدأ نغمةً. وأمّا تَطَابُقُ مُصْطلحِ «العَوْلَمَةِ» مع مَفْهُومِ «الأمْرَكَة» في أذْهانِ كثيرٍ من النّاس فإنّه لم يَأْتِ من فَرَاغٍ؛ فالحُضُورُ الأمريكيّ الكثيف - في مجالات الاقْتصاد والعلـوم والتّقْنية والمَعْلُومات والاتّصالات والإعْلام - كان كفيلاً بتَغَلْغُلِ مُعْطياتِ «الحياة الأمريكيّة» وثقافتِها في مُخْتلفِ المجالاتِ على السّاحةِ العَالَميّة، وكما يقولُ برهان غليون فإنّ: («الثّقافة المُسَيْطِرَة» لا تَحْتَلُّ مَوْقِعَهَا المُتَفوِّقَ بسبب تَفَوُّقِ مَنْظُومَةِ قِيَمِهَا الأخْلاقيّة أو الدِّينيّـة أو الفنيّة، ولكـن لأنّها ثقافة «المُجْتمعات المُسَيْطِـرَة»)(٤١). وأمّا ما هو أدْهَى من ذلك وأَمَرّ، ممّا يَقَعُ في غياباته «المُثقَّفون العرب» بدرجاتٍ مُتفاوِتَةٍ، فهو أنّ دَوْرَ هذه «الثّقافة المُسَيْطِرَة» لم يَقْتَصِرْ لديهم على قَبُولِهَا والحماسِ لها في أُطُرٍ عِلْميّةٍ أو مَعْرفيّةٍ أو اقْتصاديّةٍ، ولكنّهم جعلوها معاييرَ وضَوابِطَ ومُنْطلقاتٍ يَحْكُمُون بها على المُصْطلحاتِ الشّرْعيّـة، ويَبْتَسِـرُون بها أَحْـكَامَ الدِّين وأَعْـرَافَ المُجْتمع، مِثْل بعضِ مفاهيم «حُقُوقِ الإنْسـان» و«حُقُوقِ المَرْأة» و«حُقُـوقِ الطِّفْل» و«الحُقُوقِ السِّياسيّـة» وغيرها. لقد أدَّى هذا المَوْقِفُ المُنْبَهِرُ والمُتَخَاذِلُ إلى أَثَرَيْن شَدِيدَيْ السَّلبيّة؛ فهو - أوّلاً - أدَّى إلى تصادُم هذه «النُّخْبَـة» بقِيَمِ مُجْتمعاتها واسْتِفْزَازِ أهْلها، وهو - ثانياً - شَجَّعَ أَصْحَابُ «الثّقافة الغَالِبة» أنْ يَجْعَلُـوا من مبادئِهم وسياساتِهم وقِيَمِهم ومعاييرِهم مُنْطلقاتٍ وأُسُسٍ يُحَاكِمُون عليها الدُّول والشُّعوب، ويُمْلُون شُرُوطَهُم السّياسيّة والاقْتصاديّة والحُقُوقيّة وغيرها.

ولعـلّ مِـن المُهِـمّ أنْ نَلْحَظَ أنّـه بالرّغْم من تَقَدُّم كثيـرٍ من المُجْتمعـات الأوروبيّة واشْتراكِهـا مـع أمريكا في ثقافتِها وقِيَمِهـا ونِظامِها، فإنّ التَّذَمُّرَ بيـن شرائِح وَاسِعَةٍ في تلك المُجْتمعات - بنبراتٍ مُتفاوتَةٍ - وَاضِحٌ لذلك الحُضُورِ الأمْريكيّ المُهَيْمِن، فما بالك بمُجْتمعاتٍ مُتَخَلِّفَةٍ في عناصِر الإنْتاج، ومُخْتلفةٍ في طبيعة الثّقافة والقِيَم؟. هذه الحقيقةُ

تُعْطِـي دَلالَـةً وَاضِحَةً على أنّ قضيّةَ «العَوْلَمَـةِ» في أحد جَوانِبها الأساسِ «قضيّةٌ إنْسانيّةٌ» حيث يَفْرِضُ «الغَالِبُ» مُعْطياتِه وشُرُوطَـه، ويَنْسَاقُ «المَغْلُوبُ» إليهـا بدرجاتٍ مُخْتلفةٍ من المُقاومَـةِ. وبالرّغْم مـن تَشَابُكِ التّأْثيراتِ وتَعَقُّدِ الظّاهِـرَةِ إلاّ أنّها – في نهاية المطاف – مُحَصِّلَـةٌ طبيعيّـةٌ لعُنْصُرَيْ «العَوْلَمَـةِ» بجانِبها «الإنْسانيّ» المَحْضِ مـن ناحيةٍ، و«دَفْعِها الذّاتـيّ» من ناحيةٍ أُخْرى، وذلك بواسِطَةِ «الوَقُـودِ» المُمَيِّزِ لتَرْكيبتِها، وهو الذي جعل لها دَلالاتٍ وأبْعَـاداً لم تكنْ لتَخْطُرَ على بالٍ، وهذا يقودُنا – بالضّرورة – إلى السُّؤال: (ما هو هذا «الوَقُودُ» المُمَيِّزُ لظَاهِرَةِ «العَوْلَمَةِ»؟).

٢-٥-١) بِداية «العَوْلَمَةِ الحديثة»: العُلُومُ الطّبيعيّة:

لكـي نَتَعَـرَّفَ على خصائِص «وَقُودِ العَوْلَمَـةِ» يَنْبَغِي الانْتِباهُ إلى أنّـه بالرّغْم من أنّ «مَفْهُـومَ العَوْلَمَةِ» بـدا كاسِحاً وقويّاً في العَقْـدِ الأخير من القَرْنِ العشريـن إلاّ أنّ بَوادِرَهُ بَزَغَتْ قبل ما يَرْبُو على ثلاثة قُرُونٍ عندما بدأتْ مُعْطياتُ «العلوم الطَّبيعيّة» تَتَبَلْوَرُ، وراحتْ آثارُها الحياتيّةُ والإنْتاجيّةُ تَغْـزُو مَعَاقِلَ الأنْمَاطِ القديمةِ للإنْتاجِ والتّعامُلِ والتّفْكير. لقد بَـدَأَتْ «العلومُ الطَّبيعيّةُ» بعَوْلَمَةِ نفْسِها، وذلك بتوحيدِ مُصْطلحاتِها ومقاييسِها وأدواتِها؛ فانْدَفَعَتْ في رُؤيةٍ مُوَحَّدَةٍ دون تَمْييزٍ من جِنْسٍ أو عِرْقٍ أو دِينٍ، وهَزَمَتْ الحُدُودَ الجُغْرافيّةَ والمَعَاقِـلَ التّقْليديّـةَ لتُصْبِـحَ نَمُوذَجاً تتنادى إليـه المُجْتمعات؛ وحتّـى أولئك الذين لم يُسْعِفْهُـمْ وَاقِعُهم علـى اسْتِيعابِها وتَطْويعِها، فإنّهم لم يُقَصِّرُوا فـي شِرَائِهَا واسْتِجْدَائِهَا واسْتِهْـلاكِ مُنْتَجَاتِهَـا. لقد حَوَّلَتْ «الثَّـوْرَةُ العِلْميّـةُ» المُجْتمعاتِ المُتَبَاعِـدَةَ – جُغْرافيّاً وثقافيّـاً وقِيميّـاً – إلى قريّـةٍ صغيرةٍ تتشابكُ فيهـا المصالِح، وتتصارعُ فيهـا التّيارات، وتتفاعـلُ معهـا المُؤَثِّرات، ويَتَيَسَّرُ لها انْتِقَالُ المَعْلُومـاتِ دون قَيْدٍ أو شَرْطٍ، فبَلَغَتْ بذلك «العَوْلَمَـةُ» أشُدَّهَا، ودَخَلَتْ كُلَّ دارٍ دون اسْتِئْذانٍ، وهذا ما يُشِيرُ إليه برهان غليون عندما يقول: (إنّ «العَوْلَمَةَ» لا تُرْفَضُ ولا تُتَقَبَّلُ بالمُطْلَقِ لأنّها لا تَتَعَلَّقُ فقط بظَاهِرَةٍ ذاتيّةٍ، ولكن أيضاً بظَاهِرَةٍ موضوعيّةٍ خَارِجَةٍ عن إرَادَةِ الأفْرَادِ هي «الثَّوْرَة التّقنيّة العِلْميّة»)[٤١].

وهكـذا كان مـن البدهـيّ أنْ يُمْسِـكَ بتلابيـبِ «العَوْلَمَـةِ»، ويقـودَ مسيرتَها، ذلك الطَّـرَفُ الـذي قَبَضَ على زِمَامِ «العلـوم والتِّقْنية»، وتَمَكَّنَ من تَطْويعِهـا لأَغْراضِهِ وفِكْرِهِ ومصالِحِـه؛ وأمّا أولئـك الذين اعْتَقَـدُوا أنّهم يتصـدّون لسَلْبيّاتِ «العَوْلَمَـةِ» بالقصائِدِ والإنْشائيّاتِ والحماسيّاتِ، فإنّهم يعيشـون خَارِجَ ضَوابِطِ «الزَّمان» و«المكان»، وسيَبْقُون مُجَـرَّدَ «ظَاهِرَةٍ صَوْتِيّـةٍ» لا تُقَدِّمُ ولا تُؤَخِّرُ، ولكنّها فقط تُحَـاوِلُ عبثاً التّصدِّي - بقَوارِبَ مُتَهالِكَـةٍ مـن خَشَبٍ - لطُوفانٍ من الأمْـواجِ مُتلاطِم. فعندما تَبَلْوَرَ «مَفْهُـومُ العَوْلَمَة» في الغَـرْبِ، فإنّه قد نَضِجَ على نارٍ هادِئةٍ، وانْبَثَقَ عن وَاقِعٍ يَفْهمونه، ويُؤَثِّرون فيه، ويصوغون نتائِجه؛ وعندما صَدَمَنَا هذا المُصْطلحُ في العَالَم العربيّ، وأثار هَلَعَنَا، وأوقظ هَواجِسَنَا، كانـتْ هذه الخلجـاتُ والانْفعالاتُ تَرْجَمَةً صَادِقَـةً لوَاقِعٍ مُتخاذِلٍ يَتَأَرْجَـحُ بين «ثُنَائيّاتٍ» غَامِضَةٍ عن «التُّرَاث والحَدَاثَة» و«العَوْلَمَة والخُصُوصيّة» وغيرهما، ويَقْتَاتُ على مُعْطياتِ الآخَريـن، ويَتَتَرَّسُ خَلْفَ حَواجِـز كثيفةٍ تَحْجِبُ عنه الرُّؤية الحقيقيّـة لما يدُورُ حوله من تَحَوُّلاتٍ مُتسارِعةٍ، وتَغَيُّرَاتٍ جِذْريّة(٤٢).

٢-٥-٢) أخْطاءُ «الخِطَاب العربيّ»:

لقد أَخْطَأَ «الخِطَابُ العربيُّ» في تَعَامُلِه مع «العَوْلَمَةِ» ثلاث مَرَّاتٍ؛ فهو أَخْطَأَ عندما حَسِـبَ أنّها شَـرٌّ مُطْلَقٌ يَنْبَغِـي مُحَارَبَتُه، وهو أَخْطَـأَ عندما ظَنَّ أنّها خَيـرٌ مَحْضٌ يَنْبَغِي الارْتِمَـاءُ فـي أَحْضَانِه، وهو أَخْطَأَ عندمـا اعْتَقَدَ أنّه سيُفْلِحُ في «عمليّـة الانْتِقاء» فيَخْتَارُ منهـا ما يُنَاسِبُه، ويَمْنَعُ بجَرَّة قَلَم ما يَكْرَهُه، فراح يَتَأَرْجَحُ بين «ثُنَائِيّاتٍ» مُبْهَمَةٍ، و«رُدود فِعْلٍ» مُضْطَرِبَة. لقد أَخْطَأَ «الخِطَابُ العربيُّ» في كُلِّ تلك المَواقِفِ؛ لأنّها - ابْتِداءً - كانتْ كالعـادة مُجَرَّدَ «رُدود فِعْـلٍ» خَالِيَةً من الرُّؤية الإسْتراتيجيّـة، وخَاوِيَةً من العمل المُنَظَّم؛ ولأنّهـا - انْتِهاءً - لـم تَسْتَوْعِبْ حقيقةَ «العَوْلَمَةِ» ومضامينَها، ولـم تُدْرِكْ طبيعةَ «الوَقُودِ» الذي يَدْفَعُ هذه الظّاهِرَة، ويُزَوِّدُها بالطّاقة والحيويّة.

وأمّـا قَاصِمَةُ الظَّهْرِ، فهي أنّ «الخِطَاب العربـيَّ» يَعْتَقِدُ جَادّاً أنّ له في الأَمْر خِياراً، وغَابَتْ عن مداركه أنّه لا يَمْلِكُ مفاتيحَ التّأْثيرِ في الظّاهِرَة، أو إعادةَ صِياغَتِها، أو تَعْديلَ

وِجْهَتِهَا؛ فيَبقَى حالُه - في نهاية المطاف - حال العَاجِزِ الذي يَشْتَكِي ويُوَلْوِلُ، ولكنّه يَبْقَى عَاجِزاً لا حِيلة له إلاّ التّمنّي والتّنْظير، وتحمُّل العَواقِب السّلْبيّة، ودَفْع ضريبة التّخلُّف. ويُعَقِّبُ برهان غليون على حقيقة أنّ «لا خِيار في أَمْرِ العَوْلَمَة» فيرى ضرورة أنْ يَحْصُلَ الانْخِرَاطُ فيها بصُورةٍ إيجابيّةٍ عبْر: (بَلْورة إسْتراتيجيّةٍ ذاتيّةٍ وخاصّةٍ للدُّخُولِ في «العَوْلَمَةِ» من مَنْطِقِ الصِّرَاعِ من دَاخِلها في سبيل تَعْدِيلِ موازين القُوى المُتَحَكِّمَة بها، وتَحْسِينِ فُرَصِ السَّيطرة على جُزْءٍ من آليّاتِها، والتَّحَكُّم في نُظُمِهَا وفعّاليّاتِهَا)[41]. أمّا من مَنْظُورِ «صِراع الثقافات» الذي يرى بعضهم أنّ «العَوْلَمَة» تَسْعَى إلى تَأْجيجِ ناره، فإنّنا نَتَّفِقُ مع برهان غليون حين يقول: (ليستْ «العَوْلَمَةُ» هي المُنْشِئَة لسَيْطَرَةِ ثقافة على ثقافةٍ أُخْرى، ولكنّها مُنْشِئَةٌ لنَمَطٍ جديدٍ من «السَّيْطَرَةِ الثّقافيّة». وليس للثّقافاتِ الأُخْرى أيُّ مُسْتَقْبَلٍ بالفِعْلِ إلاّ إذا أَدْرَكَ أصْحَابُهَا طبيعة هذا النَّمَطِ الجديدِ من «السَّيْطَرَةِ الثّقافيّة» وآليّاته، وبَلْوَرُوا الإسْتراتيجيّاتِ المُناسِبَةَ التي تَسْمَحُ لثقافتِهم أنْ تَبْقَى على مُسْتوى المُشاركة العَالَميّة الإبْداعيّة، وألاّ تَتَحَوَّلَ إلى مُجَرَّدِ ثقافاتِ هُويّةٍ، أو مُعَبِّرَةً عن الاسْتمراريّةِ والدَّيمُومَةِ التّاريخيّةِ لمَجْمُوعةٍ بشريّة. وهذا يَفْتَرِضُ التَّعَمُّقَ في فَهْمِ آليّاتِ هذه «السَّيْطَرَةِ الثّقافيّة»، وتَجْديدِ أساليبِ طَرْحِ مُشْكلاتِ تَحَوُّلِ الثّقافات والمَهَامِّ المَطْرُوحَةِ على أصْحَابِهَا للنّجاح في هذا التَّحَوُّل، والارْتفاعِ بثقافاتِهم إلى مُسْتوى مُتطلَّباتِ العَصْر)[41]. الهَاجِسُ نفْسُهُ يَتَكَرَّرُ لدى ثُلّةٍ من المُثقَّفين العرب؛ فعلى سبيل المِثال يَتَأَمَّلُ محمد محفوظ «الظَّاهِرَةَ العَوْلَميّة» ليَخْلُصَ إلى أنّ: (المَطْلوب ليس الخُرُوج من السِّياقِ الدّولي، وإنّما العملُ على اسْتيعابِ آليّاتِ فِعْله، والتّكيُّفُ الإيجابيُّ مع مُتطلَّباته، عبْر إطْلاقِ مَشْرُوعٍ وطنيٍّ مُتكامِلٍ، يَسْتَهْدِفُ خَلْقَ الكفاءاتِ والفُرَصِ والقُدْرَاتِ بما يُعَظِّمُ ويُنَمِّي كُلَّ إمْكاناتِنا وفُرَصِ نُمُوِّنا في هذا العَالَمِ المليء بالإراداتِ والقُوى)[42].

وهكذا نَقِفُ على «المَشْهَدِ العربيِّ» لنَرْقُبَ كيف تَحُومُ الأُطْروحاتُ والهَواجِسُ حول «شيءٍ ما» فيه «تَجْديد»، وفيه «اسْتِيعاب»، وفيه «تَكيُّف»، وفيه «تفاعُل»؛ ولكن تَبْقَى «مَاهِيَّةُ» هذا الشّيء في حاجةٍ إلى تَعْبيرٍ أقْوى وتَحْريرٍ أوضح وتَأْصيلٍ أمْتن. وهكذا تَجِدُ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» نَفْسَهَا في المَوْقِعِ ذاته الذي كانتْ فيه في عَصْرِ «ما قبل

العَوْلَمَة» عندما كانتْ صيحاتُ «النَّهْضَة»، وصرخاتُ اللّحاق برَكْبِ «التّقدُّم»، تَتْرَى من كُلِّ «النّهْضويّيــن» على مُخْتلفِ مشاربِهم وانْتماءاتِهــم. ذلك «المَشْرُوعُ النّهْضَويُّ» الذي حَلَمَ به «النَّهْضَويّون» في القَرْنَيْنِ التّاسع عشر والعشرين الميلاديّ، وهذا «المَشْرُوعُ العَوْلَمِيُّ» الــذي يَرْنُو إليه «المُتَعَولِمُون» فــي مَطْلَعِ «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ كِلاهُمَا فــي حاجةٍ إلى «وَسَطٍ» كثيــفٍ قَادِرٍ على اسْتِيعابِ «الحركة المُعَاصِرَة»، ومَزْجِهَا مع قِوَامِ المُجْتمع، وتَأْصيلِهَا في نسيجِ الحياة.

مــن أبْرز معالــم المَأْزِقِ هو الشُّعُــورُ بوقُوعِ «الثّقافة» فيما وَصَفَــهُ تيري إيجلتون[٢٧] فــي حالةٍ تقعُ بين (مِطْرَقــةٍ كَوْنيَّةٍ مُخْتَلَّة، وبين سِنْدَانِ خُصُوصيّــاتٍ مُشَوَّهَة)، وبالرّغْم مــن أنّ إيجلتون يَتَحَــدَّثُ عن سِياقٍ مُخْتلفٍ تماماً عن واقِعِ «الثّقافة العربيّة» إلاّ أنّ الحالة المَوصُوفة تُشْبِهُ طبيعة المَأْزِقِ الذي تَتَرَدَّى فيه «الثّقافة العربيّة». وأمّا - في نهاية المطاف - فإنّــه يَنْبَغِي الاتّفاقُ مع إيجلتون بــأنّ: («الثّقافة» كقيمةٍ كَوْنيّة، و«الثّقافة» كشَكْلٍ حياتيٍّ مَخْصُوصٍ ليستا مُتضادَّتان بالضّرورة)[٢٧]، إلاّ أنّه يَنْبَغِي أنْ نُؤَكِّدَ هنا على أهميّةِ تَأْمين «صِمَامَاتِ أمانٍ» تَضْمَنُ عدم التَّصَادُم، وتُحَقِّقُ عناصِر التَّضَافُرِ والتّوافُقِ والتّنَاغُم.

٢-٥-٣) «وَقودُ العَوْلَمَة» والبَحْثُ عن «ثقافةٍ حيويّة»:

فــي سِياقِ «العَوْلَمَةِ» و«وَقُودها» تَبْرُزُ - بشَكْلٍ صَارِخٍ - حَتْميّةُ تَأْسيسِ «ثقافةٍ حيويّةٍ» وتَأْصيلِها وتَطْويرِها لتتجاوَبَ مع طبيعةِ آليّاتِ «العَوْلَمَةِ» وخصائِصِها ووَقُودِها، وتُفْلِحَ في التَّحكُّــمِ بأدواتِها ومُعْطياتِهــا، وتتمكَّنَ من بِنَاءِ الجُسُورِ مع «الهُويّــةِ المحليّة»، و«الانْتِمَاءِ الدِّينــيّ»، و«الخُصُوصيّةِ الثّقافيّــةِ»، و«القِيَمِ المُجْتمعيّة»؛ فتكونُ قَــادِرَةً على التّفاعُلِ مع ثقافةِ «العَوْلَمَةِ الغَازِيَة»، ليس بالبُكاء والعويل، أو الانْعِزال والانْغِلاق، أو التّنْظير والتّمنّي، ولكن بالفِعْلِ الذي يَتْرُكُ بصماته على الأرْض - إنْتاجاً وتَطْويراً وتَنْميةً -، ولقد اسْتَشْرَفَ مالــك بن نبــيّ هذا الحال منــذ خمسينات القــرْن الماضي حين كتب يقــول: («الثّقافة» أَصْبَحَــتْ تتحدَّدُ أخْلاقيّاً وتاريخيّاً دَاخِل تَخْطيــطٍ عَالَميٍّ، لأنّ المنابِع التي سوف تَسْتَقِي منهــا أفْكارهــا ومشاعِرهــا، والقضايا التــي سوف تتبنّاهــا، والاسْتِفْــزازات التي سوف

تَسْتَجِيبُ لهـا، والأعْمال التي سوف تقومُ بهـا، لا تَسْتطيعُ هذه كُلُّهـا أنْ تَتَجَمَّعَ في أرْض الوطـن)[٢٨]. لقد بات وَاضِحـاً أنّ الأَمْرَ الذي مَنَحَ «العَوْلَمَة» أبْعادها الكَاسِحَة هو «الفِكْر العِلْمِـيّ» بما تَمَخَّضَ عنه مـن كُشُوفٍ عِلْميّةٍ، وتَطْبيقـاتٍ تِقنيّةٍ، ومَنْظُومَـاتٍ مَعْلُوماتيّةٍ، وشَبَـكات اتِّصَـالٍ؛ فـ«العَوْلَمَةُ» - عند التّحْليـل والتّمْحيص - لا تَعْـدُو أنْ تكون «التَّرْجَمَة الفِكْريّـةَ والثّقافيّـةَ والاقْتصاديّةَ والعَسْكريّةَ للسَّطْوَةِ العِلْميّـة، وهي الفِعْلُ المُتَحَرِّكُ على الأرْض كنتيجةٍ حَتْميّةٍ للهَيْمَنَـةِ التّقنيّة المُعَاصِرَة»؛ وكما يقـول برهان غليون: (تَبْدُو لي «العَوْلَمَـةُ» حَاصِـلَ دَمْجِ مُعْطيـات «الثَّوْرَةِ العِلْميّـة التّقنيّة» و«إسْتراتيجيّة إعـادة الهَيْكَلَةِ الرّأسماليّة» معاً)[٤١].

قُلْنَا إنّ بُرُوغَ ظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة» لم يكنْ قبل عَقْدٍ أو عَقْدَيْن من الزّمن، ولكنّه بدأ منذ حوالـي ثلاثة قُرُونٍ، عندما أَصْبَحَـتْ لُغَةُ «العلوم الطَّبيعيّة» هي «اللّغـة العَالَميّة» للإنْتاج والتَّقَـدُّم وتَشْكيـل المُجْتمعات الحديثة، وهي مَنْبَـعُ القُدْرة والرِّيـادة والنُّفُوذ؛ ولذا فمن الخطـأ أنْ نَعْتَقِـدَ أنّ «المَأْزِقَ» الذي وَقَعَتْ فيـه الأُمّة العربيّة والإسلاميّـة بدأ مع هَجْمَةِ «العَوْلَمَة» في لِبَاسِهَا الحديث؛ فالحقيقةُ أنّ «المَأْزِقَ» قديمٌ منذ أنْ أَهْمَلَتْ الأمّـةُ «الفِكْرَ العِلْمِـيَّ» وتَطْبيقاته، ونَسِيَتْ الأَخْـذَ بـ«أَسْبَابِ القُوَّة»، وانْجَرَفَتْ فـي التّيارات الكلاميّة، والخِلافـات الفِكْريّة، وصِراعـات السُّلْطَة، وديكتاتوريـة الفَرْد. ولأنّ سُنَـن الله لا تَتَبَدَّلُ ولا تَتَغَيَّـرُ؛ فـإنّ «المَأْزِقَ» سيَسْتَمِرُّ سَواءً اسْتَمَرَّتْ ظَاهِـرَةُ «العَوْلَمَة» واسْتَشْرَتْ، أو دخلنا فـي مَرْحلة «ما بَعْد العَوْلَمَة» أيّـاً كانتْ احْتمالاتُها وأشْكالُها؛ فمَأْزِقُ «المُجْتمعات العربيّة» يَكْمُنُ في ضَعْفِهَا، وليس في ما يُقَدِّمُهُ الآخَرُون من أفْكارٍ وإسْتراتيجيّاتٍ وحُلُول.

عندمـا تُنْتِجُ المصانعُ في الشَّرْق والغَـرْب مُخْتلف مُتطلَّبات الحياة من غِذاءٍ ودَواءٍ وكِسَاءٍ وسِلاحٍ ووسائِل، فإنّ الأثر النّاتِج عن تشابُكِ تقْنياتها، وتداخُلِ مُتطلَّباتها، وتَوحُّدِ مُواصِفاتهـا، لا يَتَوَقَّفُ عند الجَانِـبِ الماديّ، ولكنّه يَحْمِلُ معـه - بالضّرورة - مضامين ثقافـةٍ، وطُـرُق تَفْكيـرٍ، ومُمارَسات عمـلٍ، وقِسْ على ذلـك كُلَّ نَمَطٍ من أنْمـاط «الحياة المُعاصِرة»؛ فكُلُّهَا تَخْضَعُ للتّفاعُلات العِلْميّة، والابْتكارات المُتَجَدِّدَة؛ وكُلُّها تَحْمِلُ أنْساقاً ثقافيّـةً، ورُؤىً فِكْريّـةً، ومضامين حياتيّةً؛ وكُلُّهـا تُوجِزُ - في مُجْمَلِهَـا - طبيعة «الثّقافة

الحيويّـة» المَنْشُودة؛ وهذا ما يُشِيرُ إليه برهان غليـون إذْ يقول: (وما دام من غير المُمْكِن للعـرب في حُـدُودِ تطوُّرهم العِلْميّ والتّقنيّ الرّاهِن التّأْثير علـى الطّابع التّقنيّ للعَوْلَمَة، أَيْ الدُّخُـولُ فيها من زاوية المُشارَكـة الفعَّالة في ثَوْرَةِ المَعْلُوماتيّـة والاتّصالات، فلا يُمْكِنهم الاسْتِفادة الفِعْليّة منْها إلاّ إذا نجحوا في توفير شُرُوطٍ تَسْمَحُ بتفتُّح إمْكاناتها لديهم، وبَلْورة إسْتراتيجيّةٍ تُتِيحُ لهم السَّيْطَرَةَ على بعْض عناصِرها أو على عناصِر أساسيّة فيها)[٤١].

إنّ الحقيقـة الحزينة تقول إنّ «القُـوَّةَ الكَامِنَةَ» وراء تفاعُلاتِ «الحيـاة المُعَاصِرَة» كانـتْ آخِـر اهْتِمامـات «العَالَم العربـيّ» الحَائِـر، وحتى أولئـك الذيـن وضعوها ضمْن أولويّاتهم الخَطَابيّة والشَّكْليّة فَشِلُوا في تَفْعيلها، واحْتِضَانِ قِيَمِهَا، والتّفاعُلِ مع شُرُوطِها، والاحْتِكَام إلى ضَوابِطِهَا. ولا شَكّ في أنّ «المَأْزِق» سيَسْتَمِرُّ طالما أنّ «المُجْتمعات العربيّة» لـم تَسْتَوْعِبْ بعد طبيعة «الوَقُـود» الذي يَدْفَعُ صاروخ «العَوْلَمَة»؛ ولأنّ «العَوْلَمَةَ» هي «الابن الشَّرْعـيّ للعلوم والتّقْنيـة»، فإنّه ليس لدى هذه المُجْتمعات ما تهابه مـن «العَولَمَة» سوى ضَعْفها واسْتِرخائها إزاء «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» بكُلِّ امْتِداداتِها التّطْبيقيّة وعُنْفوانِها الفِكْـريّ وتشعُّباتِهـا الثّقافيّة، وكما يقول زيـن العابدين الرّكابي: (هنـاك حَافِزٌ إضافيٌّ يُلْهِـبُ الإرادة ويُحَفِّزُهَا علـى الاسْتِبْحَارِ فـي «الثّقافة العِلْميّة». هـذا الحَافِزُ هو «تَحَدِّي العَوْلَمَـة»؛ فإذا كانتْ «العَوْلَمَةُ» خطراً دَاهِماً فليس يُدْفَـعُ هذا الخطر إلاّ بحقائِق «العِلْم» ومُعْطياتـه، وإذا كانتْ هناك معارِف جديـدةٌ تُكْتَسَب، وعَلاقاتٌ جديدةٌ تُنْسَج، فلا سبيل لتَحْقيق ذلـك إلاّ بحقائِق «العِلْم» ومُعْطياته، وإذا كانتْ «العَوْلَمَة» «بَيْنَ بَيْن»، فإنّ التَّمْييزَ بين خَيْرِهَا وشَرِّهَا لا يكون إلاّ بحقائق «العِلْم» ومعاييره)[١٤].

٢ - ٦) «المُثقّفُ العربيّ» والدَّوْرُ المَفْقُود:

عند الحديث عن «الثّقافة العربيّة» يُصْبِحُ الاهْتِمام بمن يُمَارِسُهَا ويُطَوِّرُهَا ويُشَكِّلُهَا أَمْـراً حَتْميّـاً ممّا يُوجِبُ تَسْليط الضّوء علـى «المُثقّف العربيّ»، وهنا تَبْـرُزُ بوضُوحٍ حَالَتَا «النَّرْجَسِيّـة» و«العُزْلَـة» التـي يتميَّزُ بها هـذا «المُثقّف» ممّا أَدَّى، وفْـق رُؤْية محمود عبد الفضيـل، إلـى: (عدم نُشُـوء مدارِس فِكْريّـةٍ حقيقيّةٍ، بَـلْ «حوانيت فِكْريّـةٍ» فلقد اخْتار

المُثقَّفـون العرب، في مُعظَمهـم، أُسْلوب «العَزْفِ المُنْفَرِد» فـي عُزْلَةٍ عن حركة الجماهير فـي المُجْتمع، وفي عُزْلَةِ بعْضهم عن بعْض، وانْتَشَرَتْ بينهم أمْراضُ «الفَرْدِيّة» و«الشُّلليّة»، وحَفلَـتْ المنْطقـة العربيّة بنمـوذج «المُثقّف الطّاووس» يَخْتَالُ عجبـاً بنفْسه الذي لا يرى إلاّ نفْسـه في المِـرآة، ولا يَرْجِعُ سوى إلى أعْمالـه، ويُهْدِرُ الإشارة إلى غيـره من المُثقَّفين والمُبْدعين، وبالتّالي لم يَحْدُثْ نَوْعٌ من التَّراكُمِ المَعْرفيّ الخَلاّق في المَنْطقة العربيّة) [١٨].

فـي «أدبيّات الثّقافة» اهْتِمـامٌ جَلِيٌّ بطَرْحِ تَصْنيفـاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ لـ«المُثقَّـف العربيّ» منذ بُـرُوز هـذا المُصْطلح في «الفِكْر العربـيّ»، ويُعَبِّرُ كُلُّ تَصْنيفٍ عن مَرْحلـةٍ مُعَيَّنَةٍ من مراحِل التّطوُّر التّاريخيّ في «المُجْتمعات العربيّة»؛ فنجدُ[١٨] - على سبيل المِثال- أنّ هناك «المُثقّف الاجْتِـراريّ»، و«مُثقّف التَّحَـرُّر الوطنيّ»، و«مُثقّـف النِّضَال القوميّ»، و«المُثقّـف الليبراليّ»، و«المُثقّف التِّكْنوقراطيّ»، وفي حالاتٍ أُخْرى تَعْمَدُ «الأدبيَّات» إلى التّمْييز بين «مُثقّف السُّلْطَة» و«مُثقّـف المُعَارَضَـة»؛ ومن الوَاضِـح أنّها جميعها تَكْتَسِـبُ دَلالاتٍ سياسيّـةً، وتَعْكِسُ تجارب مُتَنَوّعَـةً في مُجْتمعاتٍ عربيّةٍ مُخْتلفة، ولا يَخْلُـو الأَمْرُ - في نهاية المطاف - من انْضِواءِ أيٍّ مِـن هؤلاء المُثقّفين تحت لِواء إحْدى «المدارِس الفِكْريّـة» التي تَطرَّقْنَا إليها في الفَصْل الأوّل من هذا الكِتاب.

وعلـى الرّغْـم من وُجُود جِـذْرٍ ثقافـيٍّ رَاسِخٍ في «الثّقافـة العربيّة» يُكَرِّسُ «الحالة الانْفِصَاليّة» بين «المُثقّف» و«المُجْتمع» إلاّ أنّ «النّزْعَةَ الأكاديميّةَ المُفْرِطَةَ»[١٨]، وبالذّات لـدى رِجال «العلوم الطَّبيعيّة» ومُتخصِّصي «التّقْنية»، قامتْ بدَوْرٍ فَاعِلٍ في عَزْلِ «الثّقافة العِلْميّـة» عـن «الجُمْهُـور»، وأدَّتْ دَوْراً فَاعِلاً في إنْجَـابِ ما وَصَفَهُ عبـد الإله بلقزيز[١٨] بـ«المُثقّف المُنْفَصِل». أمّا ما اشْتَهَرَ باسْم «المُثقّف الشُّمُوليّ»[١٨]، وهو (المُثقّفُ العَارِفُ بالحقيقة، ومُوقِظُ الوَعْي، وضميرُ المُواطِنين)؛ وهو النَّمُوذَجُ الذي نشأ في القَرْن الثّامن عشـر الميلاديّ في أوروبا، فقد تـآكل بفِعْل عناصِر عِدّةٍ ليس أهْونها بُروز أنْماطٍ مَعْرفيّةٍ مُتَنَوِّعَـةٍ ذات طابعٍ تخصُّصيٍّ وطبيعةٍ تراكُميّـةٍ وأنْماطٍ مُتَجَدِّدَةٍ أَصْبح لها التّأْثير الأكْبر على حياة البشر وتطوُّر المُجْتمعات.

وتماشياً مع سِياق هذا الكِتاب واهْتِمامه الحَصْريّ بـ«قضيّة التّنْميّة»، فإنّه لا بُدّ أنْ نَتَّفِقَ مع عبد الإله بلقزيز في مَيْلِه إلى اخْتيار ما أَسْمَاهُ «التّعْريف الوظيفيّ للمُثقّف» الذي (نَنْتَبِـهُ فيه إلى ما يُكَوِّنُ عناصِر التّحْديد لدى «المُثقّف» من خلال «الشّكْل المادِّيّ» الذي تَتَجلَّى فيه فَعّاليّته)[١٨]، ولا شَكّ أنّ هذا التّعْريف، عند السَّعي إلى إسْقَاطِه على «المُثقّف العربيّ»، سيُبْرِزُ قُصُوراً فَادِحاً في «التَّكْوين الثّقافيّ» لهذا «المُثقَّف»، وهو قُصُورٌ نَزْعُمُ في هذا الكِتاب أنّه يَقَعُ في قَلْبِ «إشْكَالِيّة التَّنْمية».

تَبْـرُزُ المُشْكِلَـةُ ذاتها إذا أخذنـا بذلك التّعْريف الـذي خَلَصَ إليـه جلين سيبورج (Glenn Seaborg) بقَولـه: (إنّ المُثقّف - إذاً - هو الإنْسـان الذي يَمْتَلِكُ مَعْرفةً كافيةً تُلائـمُ بيئتـه)[٤٤]؛ وبمـا أنّ لـ«البيئـة المُعاصِـرَة» مُرْتكزاتٍ عِلْميّـةً ومُنْطلقـاتٍ تَنْمَويّةً ومُتطلَّبـاتٍ تِقنيّـةً، فإنّ هـذا التّعْريف سيُخْـرِجُ، من زُمْـرَةِ المُثقّفين، الغَالِبيّـةَ العُظْمَى مـن المَحْسُوبين على «الثّقافة» فـي العَالَم العربيّ، وبخاصَّةٍ عندمـا يُذَكِّرُنَا محمود عبد الفضيـل أنّ: (التَّحَـدِّي الكبير الـذي يُواجِهُ العرب في القَرْن القَادِم هـو كيف يُمْكِنُ لهم اقْتِحَـامُ «مُجْتمـع المَعْلومات» و«التِّقانـة المُتَقدِّمَة»، واجْتِيازُ «الحَاجِـزِ الحَرِج» نحو هذا العَالَـم الجديد من دون افْتِقادِهم الخُصُوصيّة الثقافيّة والهُويّة الحضاريّة)[١٨]. في هذا السِّيـاق يُؤَكِّـدُ أنيس صايغ[١٨] على ظَواهِـر مُرْتَبِطَةٍ بـ«المُثقّف العربـيّ»، ويَصِفُهَا بأنّها: (جديـرةٌ بالانْتِبَاه والتّفحُّص ليَسْتَقِيمَ الحُكْمُ في ما يتعلّقُ بالنِّتاج الثّقافيّ العربيّ)، ومن بيـن هذه الظَّواهِـر: (أنّ «الثّقافة» شَـأْنٌ مُتَطوِّرٌ لأنّه شَـأْنٌ حَيٌّ، ومن هنـا يُواجِهُ مُثقَّفُنَا العربـيّ اليوم، مهْما كانتْ أحْجَامُ هُمُومِه ومُسْتويـاتُ عطائِه، تحدِّياتٍ لم يَأْلَفْهَا أسْلافه مـن أهْل العِلْم والمَعْرفة من عرب الأمْس. هنـاك تحـدّي «النَّهْضة العِلْميّة والتّكْنولوجيّة» فـي العَالَم التي لا يجـوز لبلادنا أنْ تَبْقَى بعيـدةً عنها، بَلْ إنّها لا تَسْتطيـع أنْ تتجاهلها، لأنّها إذا فعلتْ ذلك تجاهلها التّقدُّم في حُقُول المَعْرفة، وأبْعَدَهَا عن المُشَارَكَةِ في الفِعْلِ الحضاريِّ المُعَاصِرِ والمُقْبِل).

أمّـا وَاقِعُ الحال، فيَشْهَـدُ بأنّ خِطَابَ «المُثقّف العربيّ» بَقِـيَ خِطَاباً مَهْوُوساً بذاته، مُغْرِقـاً في نَرْجَسِيّتـه، مُسْتَنْسِخاً لمُعْطياتـه، مُجْتَرّاً أَحْلامه؛ وأمّـا الطَّامَةُ الأُخْرى فهي

إغْراقُ خِطَابِ «المُثقّف العربيّ» في «الجَدَلِ السّياسيّ» ليكون وفْق وَصْفِ شاكر مصطفى: (العطـاء الثّقافيّ كان سياسيّاً بالضّرورة أكْثر ممّا هـو ثقافيّ. صَبَغَتْ السّياسة الفِكْر كُلَّه بلَونِهَـا الكَالِح لأنّهـا أَصْبَحَتْ خُبْزَ النّاس على الرّغم منهم)[١٨]. وبقِـراءةٍ مُتأنِّيةٍ نجدُ أنّ شيئـاً ما لم يتغيّرْ في أنْماط «الحياة الثّقافيّـة» ومُمارَساتها واهْتِماماتها عبْر قُرُونٍ طويلةٍ مـن الزّمن، وكما يقول شاكر مصطفى: (فخِطَـابُ المُثقَّفين في الرُّبْعِ القَرْنَ الأخير أخذ -كما كان من قَبْل - الطَّابع الأدبيّ والفنّيّ، لا الطَّابع الفَلْسفيّ أو العِلْميّ. وإذا كان التَّوجُّهُ الأدبيّ يَسْتَقِي من تُراثٍ محلّيٍّ في الغَالِب، فقد تداخلتْ فيه وفي تَغْذيته منابِع غَرْبيّةٌ شَتّى. أمّا العطاء الثّقافيّ العِلْميّ فقد كان في مُعْظَمِهِ مُتَرْجَماً عن الإنْجليزيّة والفرنْسيّة)[١٨].

٢-٦-١) المَأْزِقُ الثقافي: بين «السِّياسة» و«العِلْم»:

إنّ «الخِطَـابَ الثقافـيّ»، الذي تَمَيَّزتْ به الحـركات النَّهْضَويّة فيمـا يُسَمَّى «عَصْر النّهْضـة» خلال القَرْنَين الماضِيَيْن، كان خِطَاباً سياسيّاً في المقام الأوّل، واهْتَمَّ - تحت ضُغُوط الظُّرُوف السّائِدَة - بقضايا التّحرُّر من الاسْتعمار، وتأْسيس بُنىً سياسيّةٍ تَنَوَّعَتْ بيـن دَعاوى الوَحْدَةِ والاشْتراكيّـة، واتِّهاماتِ الرّجعيّة والدّكتاتوريّـة، واسْتِعادةِ فلسطين المَسْلُوبـة، لتضيـق رُقْعَـةُ المُطَالَبـاتِ والشِّعَـارَاتِ والبُكَائِيّاتِ مـع «النَّكْبَـةِ الثّانية» في عـام ١٩٦٧م لتَقْتَصِرَ على «إزالة آثار العُدْوان»، ولتَسْتَجْدِي العَوْدَةَ إلى حُدُودِ ما قبل عام ١٩٦٧م، وما زال أُفُقُ التَّنَازُلاتِ مَفْتُوحاً!.

مـن المُهمّ أنْ نَتَوَقَّفَ هنـا أمام مُلاحَظةٍ قَيِّمةٍ يَطْرَحُهَا محمـد عابد الجابريّ عندما يقـول: (الدَّوْرُ المُحَـرِّكُ للحياة الثّقافيّة فـي التّاريخ العربيّ الإسْلامـيّ كان للسّياسة. لقد قامـتْ «السِّياسة» في السّاحة الثّقافيّة العربيّة بالـدَّوْرِ ذاته الذي قام به «العِلْم» في الثّقافة الأوروبيّـة)[١]، ويقودُنـا هذا التّحْليلُ إلى وَضْعِ إصْبعنا على السَّبَـبِ الذي أَدّى إلى انْحِطَاطِ الأُمّـة العربيّـة وتَخَلُّفِهَا، وأَدّى - في الوَقْتِ نفْسـه - إلى تَقَدُّمِ أوروبـا وتَفَوُّقِهَا؛ ففي الحالة الأولـى كانـتْ «السِّياسَةُ» تُضْرِمُ أَتُـونَ الفُرْقَةِ والصِّراعات، وتُؤَجِّجُ نـار الخِلافات ومطامِع السُّلْطَة؛ وأمّا في الحالة الثّانية فقد كان «العِلْمُ» في أوروبا يُحَقِّقُ الإنْجازات المادّيّة، ويُطَوِّرُ

الاقْتصاديّــات، ويَدْفــعُ «التّنْمية»، ويُكرِّسُ «العَقْلانيّة»، ويَضْبِطُ الانْفعــالات. وهكذا راحتْ «الثّقافــة السِّياسيّة»[٣١] - في المُجْتمعات العربيّة - تتفاعل مــع المَلَكاتِ الأدبيّة والمهاراتِ اللفْظيّة المُهَيْمِنَة على «الثّقافة العربيّة»، وبالتّالي تَدْخُلُ في دَوَّامَاتِ المُسَاجَلاتِ والمُزايدات، وتَجْييشِ المَشَاعِـرِ والانْفعالات، لتَصْطَـدِمَ بوَاقِع العَصْر وتحدّياتــه، دون أنْ تَمْتَلِكَ أدواتٍ فَاعِلةً للتّعامُلِ مع المُتَغيِّراتِ المُتسارِعة في أنْمَاطِ الحياة و«مُقْتضيات التّنْمية».

وهكـذا نَصْطَـدِمُ بعَدَدٍ من الأسْئلة مــن أبْرزها: (ما أَبْعَادُ ذلك الــدَّوْرِ الذي يَنْبَغِي أنْ يَتَبَنّــاهُ «المُثقّــفُ» ويَتَحَلّى بخصائِصِهِ ليكون له الفَاعِليّة المَطْلوبة في الخُرُوجِ من نَفَقِ الإحْبَــاطِ والعَجْز؟. ما «القضيّــةُ الغَائِبة»، أو «الحَلْقَــةُ المَفْقُودَة»، القَــادِرَةُ على إحْداثِ «النَّقْلَــةِ النَّوْعيّــة» فــي عطاء «المُثقّــف العربــيّ» وتفاعُلاتــه وإبْداعاتــه؟). إنّ المُشْكلة الكَامِنَــة - في كُلِّ تلك الطُّرُوحات والتّفْسيــرات والتّعْريفات المُرْتَبِطَة بـ«المُثقّف العربي» وأحْوالــه - هي أنّهــا تَدُورُ في أفْلاكِ السّياســة، أو الفِكْرِ المُجَــرَّد، أو الهُمُوم المُجْتمعيّة الآنيّــة، فــي رُؤىً عَشْوائيّةٍ لا تَتَعَــرَّفُ على جَوْهَرِ التّحدّيات ولا تَسْتَجِيــبُ لمُشْكلاته. ولذا فــإنّ تَعْريفــاتٍ فَضْفَاضَةً مثل تَعْريف «المُثقّــف» بأنّه «مُنْتِجُ الوَعْــي»، كما يرى عبد الإله بلقزيــز[١٨]، لا يُمْكِــنُ لها أنْ تُقَدِّمَ أو تُؤَخِّرَ في حَلِّ مُعْضِلَةِ «الثّقافة العربيّة»، وذلك لسببٍ جوهــريٍّ هو أنّ تلــك المسارات والتّعْريفات والمَواعظ والإنْشائيّــات جميعها تُغْفِلُ طبيعة «الــدَّوْرِ التّنْمَــويِّ» للمُثقّــف، وتُهْمِلُ خصائِص «المَــدَارَاتِ التّنْمَويّة» التــي يَنْبَغِي لـ«ثقافة الألْفيّــة الثّالثــة» أنْ تَنْخَرِطَ فيهــا وتتعامل معها بجِدِّيَّةٍ واهْتمام. وهكــذا نجدُ أنّ الحاجة مَاسَّــةٌ فــي «المُجْتمعات العربيّــة» إلى ما يُسَمِّيه عبــد الله عبد الدّائــم «الثّقافة الجَادَّة» التي: (تُقَدِّمُ لأبناء المُجْتمع على مُخْتلف مُسْتوياتهم أَجْوبةً وَاقِعيّةً عن مُشْكلاتِ حياتهم، وأمْرَاضِ مُجْتمعهم، ومَطَالِبِ مُسْتَقْبَلهم)[١٨].

٢-٦-٢) البَحْثُ عن مَشَاجِب:

تميــلُ جَمْهَــرَةٌ مــن المُثقَّفين إلى إلقــاء مَسْؤوليّة مــا يُعانيه «المُثقّــف العربيّ» من يَأْسٍ وإحْباطٍ وعَجْزٍ علــى جِهاتٍ عِدَّةٍ؛ فالبَحْثُ عن «المَشَاجِب» تَقْليدٌ أصيلٌ في «الثّقافة

العربيّـة»؛ و«المَشَاجِـبُ» كثيرةٌ، وهي تتوالدُ مع الزَّمـن، وبكفاءَةٍ عاليةٍ، لأنّهـا تَنْبَثِقُ من الخيـال العربيّ الجَامِحِ والوِجْـدان الجَانِح؛ ومنْها - على سبيل المِثـال - «نِظَامُ السُّلْطَةِ البيروقراطيّـة» الـذي عزا إليـه برهان غليـون[18] رُوح الإحْبَـاطِ والضَّيـاعِ واليَأْسِ التي أَلَمَّـتْ بمُعْظَمِ المُثقَّفين. وأمّا القِرَاءَةُ المُتَأنّيةُ لطبيعة التّحدّيات المُعاصِرَة، وخصائِص التّفاعُلات الثقافيّة، ومُتطلَّبات «الحركة التّنْمَويّة»، فتُوَضِّحُ أنّ العَيْبَ «عَيْبٌ بُنْيويٌّ ثقافيٌّ» فـي المقام الأوّل، وهـو عَيْبٌ لا يُمْكِنُ تَقْويمـه إلاّ بحُلُولٍ ثقافيّةٍ مُلائِمَـةٍ، ولقد وَضَعَ زكي نجيـب محمود إصْبعه على الجُـرْحِ النّازِفِ عندما قـال: (أَحْسَبُ أنّ الحقيقـة ستَصْرُخُ فـي وجوهنا صُراخاً يَسْمَعُـهُ حتّى الأصَمّ، بأنّهم هناك قد أخـذوا يَقْرؤون كِتاب الطّبيعة المَفْتُـوح، ويَقْرؤونـه على ضوء «المَنْهَـجِ العِلْميّ» المُؤدّي حَتْماً إلـى نتائِجِ عمليّةٍ في حياة النّاس، بينمـا أَخَذْنَا نحن نَقْرَأُ صحائِـف الأقْدمين لنَحْفَظَهَا حِفْظـاً، ونَشْرَحَهَا ونَشْرَحَ شُرُوحَهَا ونَكْتُبَ عنها الهَوامِش، ثم نَشْرَحُ هذه الهَوامِش في هَوامِش، إلى آخر هذا الجُهْدِ الشّاقّ الذي يَبْدَأُ بالورق، ويَنْتَهي بالورق)[20].

وهكذا يَتَّضِحُ دون لَبْسٍ أنّ «الثّقافة العربيّة» أَخْفَقَتْ في توليد «مَشْرُوعٍ نَهْضَويٍّ» شَامِلٍ - ذي نَكْهَةٍ مُعاصِرَةٍ - قَادِرٍ على اسْتِشْرَافِ المُسْتقبَل، وتَقْييم الحَاضِر، وتَنْقيح الماضي، ومُجارَاةِ التّفاعُلات العَالَميّة، والتَّجاوبِ مع مُتطلَّبات العَصْر، واسْتِيعابِ مُتَغَيِّراته؛ وهكذا بَقِـيَ «المُثقّف العربيّ» أسير تَكْوينه الثّقافيّ؛ نَادِباً حَظَّه، ولائِماً غيره، وبَاكِياً - كالعادة - على الأطْلال. لقد أَدْرَكَ بعْض المُهتَمِّين بـ«المُعْضِلَة الثّقافيّة» أبْرز مَلامِح «الخَلَلِ البُنْيويّ» فـي «الثّقافة العربيّة»، وهـو ضَعْفُ «التّكْوين المَعْرفيّ» لـ«المُثقّـف العربيّ»، وهذا ما يُشِيرُ إليه عبد الله عبد الدّائم فيقول: (إنّ فَقْرَ المُحْتوى العِلْميّ والعَقْليّ والتّغْييريّ والتّجْديديّ لعطاء «المُثقّف العربيّ» في كثيرٍ من الأحْيان، وعَجْزَهُ غَالِباً عن الغَوْصِ في أعْماق حاجات المُجْتمع من أجل إدْراك مُسْتلزمات تَغْييره، وضَعْفِ الْتزامه أحياناً بما تُمْليه عليه ثقافته، أُمُورٌ تَجْعَلُ قُدْرته على مُخَاطَبَةِ المُجْتمع مَنْقُوصَةً ومُقَصِّرَةً عن مداها)[18].

إذا كانَتْ «الثّقافة» مُحِيطاً تَسْبَحُ فيه مُكَوِّنات المُجْتمع وخصائِصه، وكانَتْ الإشْكَاليّة القَائِمـة «إشْكَاليّةً تَنْمَويّةً» بامْتيازٍ، وكانَتْ «التّنْميـة» حركةً مُجْتمعيّةً ديناميكيّةً يَنْبَغي أنْ

تَتَحَـرَّكَ دَاخِل ذلك «المُحِيط الثّقافـيّ» وتتفاعلَ مع أَبْعادِه وأَغْـوارِه؛ وإذا كان «المُثقّفُ» هــو العُنْصُر الــذي يَحْمِلُ هَمَّ مُجْتمعــه، وصَاحِـب رأيٍ ورِسالةٍ وقضيّةٍ يَدْفَـعُ بـ«الحَرَاك الثّقافـيّ» طَامِحاً في إحْداث تَغْيير نحو الأفْضل، فإنّه من البدهي أنْ تقود تلك المُعْطيات إلــى عمليّاتٍ تَدْفعُ بـ«المُثقّف» بعيداً عن التّنْظيرِ الغَائم والشِّعَارَاتِ السّياسيّةِ والانْفعالاتِ المُلْتهبة، وتُحَرِّرُهُ من التّقَوْقُعِ تارةً في أُطُرٍ فِكْريّةٍ تَقْليديّةٍ، وتارةً أُخْرى من الانْكِبَابِ على جَـدَلٍ عقيمٍ حول «حَدَاثَةٍ كلاميّةٍ» لا تَفْقَهُ أَبْجديّـات «المُعَاصَرَة»، وتُفْلِحُ فقط في أنْ تَزُجَّ بـ«المُثقّف» في صِراعٍ مُحْتَدِمٍ تارةً مع السُّلْطَة، وتارةً مع معايير المُجْتمع.

وأمّا «قضايا التّنْمية»، بشُمُوليّتِهَا وتداخُلاتِها وتَحَدّياتِها ووَاقِعيّتِها وصرامتِها، فإنّها شــيءٌ آخَرٌ تماماً، وهي بعيــدةٌ كُلّ البُعْدِ عن تلك الانْفعالات والتّخيّلات والجَدَلِ والأمانيّ؛ وهي لا تَنْتَظِرُ الوَصَفَاتِ السِّحْريّةِ والتّنْظيراتِ الوَهْميّة، ولا تَعْمَلُ من وَاقِع الحُلُول السَّهْلَة والتّصــوُّرات المُرْتَجَلَة، ولكنّها – بطبيعتها الحيويّة – «قضيّةٌ تراكُميّةٌ» حيث يَرْتَفِعُ البِنَاءُ لَبِنَــةً لَبِنَــة، ويَعْضُدُ بعْضُه بعْضاً، فــلا يُلْغِي العمل ما قبله من إنْجــازاتٍ، ولا يَنْسِفُ جُهْدُ المُتأخِّريــن عطــاءات المُتقدِّمين. تلك «الطَّبيعــة التّراكُميّة» تُؤدِّي – عبْــر الفَرْزِ الدّائم والتّمْحيصِ النّزيه – إلى «عمليّةٍ عُضْويّةٍ توليديّةٍ»، حيث إنّها – ابْتداءً – تَنْغَرِسُ في تُرْبَةِ بِيئتِهــا لتَنْمُو في تَنَاغُمٍ مع مُقَوِّمَاتِ البِيئة ونسيــجِ المُجْتمع، ثم هي لا تَفْتَأُ تتوالدُ وتتكاثرُ عبْــر التّفاعُلات الطّبيعيّة لعمليّةٍ تَنْمَويّةٍ رَاسِخَةِ الجُذُورِ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا في السَّمَاءِ لتُؤتِي أُكُلَهَا في سَخَاءٍ ونَقَاء.

مــن ذلــك المُنْطلــق، لم تكــنْ «التّنْمية الحقيقيّــة» – يوماً مــا – جُهْدَ رَجُـلٍ وَاحِدٍ، ولــم تَرْتَبِــطْ – ساعةً ما – بأَحْلام نُخْبَــةٍ دون غيرها، ولكنّها كانتْ دومــاً إرادةً جماعيّةً، وجُهُــوداً مُجْتمعيّةً، ورُؤىً مُشْتَرَكَــةً، وتلاقُحاتٍ مُتتابعةً، وشَغَفــاً بالتّفاصيل، وتَدْقيقاً في الآليّــات؛ وهذه هي تمامــاً مُقَوِّمَاتُ «المَنْهَجِ العِلْميّ التَّجريبيّ» الــذي أَفْلَحَ – ابْتِداءً – في تَطْويــرِ علومِه ومناهِجِه وأدواتِه ليُحْدِثَ الثَّوْرَةَ الأضْخَمَ فــي حياة البشر، ثم اسْتطاع أنْ يَنْتَقِــلَ، بفِكْرِه وثقافتِه وأدواتِه ومُنْجزاته، إلى كُلِّ خليّةٍ من خلايا الحياة في «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» ليَدْفَعَ بها نحو الحيويّة والفاعِليّة والإنْجاز.

أقـول: الحاجـةُ مُلِحَّةٌ إلـى بَلْـوَرَةِ «دَوْرٍ تَنْمَـويٍّ» لـ«المُثقَّـف» يَنْتَقِلُ به مـن كُلِّ تلك الاحْتِقَانَـاتِ اللّفْظيّة، التـي تُمَيِّزُ «المُثقّف العربيّ»، إلى فِعْلٍ يسيـرُ على الأرْض، ويُوَظِّفُ المَـوارِد، ويَصْنَـعُ الآليّات؛ وكُلُّ هـذا لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّـقَ بمَعْزِلٍ عن فَهْـمٍ عميقٍ لطبيعة «الحركـة التّنْمَويّة»، ومُقْتضياتها المُعَاصِرَة، وأدواتها المُتَجَدِّدَة. ومن هنا يَنْبَغي أنْ يَبْرُزَ تَصْنيـفٌ جديدٌ لـ«المُثقّف» وهو «المُثقّف التّنْمَويّ»؛ هذا «المُثقّفُ» القَادِرُ على الاضْطِلاعِ بدَوْرٍ مَلْمُوسٍ في التّفاعُلات العَالَميّة، والتّعامُلِ مع مُعْطياتِ «الفِكْرِ المُعَاصِر»، واسْتِيعابِ مُتطلَّباتِ «الحركة التّنْمَويّة» ومُقْتضياتِها ووسائلِها.

٢-٧) توجيهُ الثّقافة:

مـن مُنْطلـق ضرورة بُـروز «المُثقّف التّنْمَويّ» فـي تفاعُلات «المُجْتمعـات النّامية» ليكون له دَوْرٌ فَاعِلٌ في إطار تلك الرُّؤية التي طَرَحَهَا تيري إيجلتون التي تُقَرِّرُ أنّ: (المُهِمّ فـي أَمْرِ «الثّقافة» هـو فِعْلُهَا التَّغْييريّ علـى مُسْتويات المُجْتمع الأُخْـرى)[٢٧]، فإنّنا نجدُ أنّـه من اللازم إبْراز مَفْهُـوم «توجيه الثّقافة»[٢] الذي طَرَحَهُ مالك بن نبيّ حيث يرى أنّ: (حَـلّ مُشْكلة الإنْسان يتكامَـلُ في ثلاثة عناصِر أساسيّة هي: «توجيـهُ الثّقافة»، و«توجيهُ العمـل»، و«توجيهُ رَأْسِ المـال»)[٢]. وعندما نَتَأَمَّلُ تلك العناصِـر الثّلاثة نجد أنّ أبْرزها وأشدَّهـا تَأْثيراً هـو «توجيهُ الثّقافة» حيث تَرْسُـمُ «الثّقافة» مسار «العمـل» في المُجْتمع، وتصوغُ «أَخْلاقيّات العمل» و«ثقافـة الإنْتاج»، كما تُحَدِّدُ «الثّقافة» - بطبيعتِها وتفاعُلاتِها - مَنْحَـى الاسْتِثْمَارَات، وحركـة «رَأْسِ المال»، والحَوافِز الاجْتماعيّـة والماديّة والمَعْنويّة بحيـث يَتَّفِقُ «توجيه رَأْسِ المال» مع معاييـر «الثّقافة» وخصائِصها، فكما يقول مالك بن نبيّ: (القضيّةُ ليستْ في تَكْديسِ الثَّرْوَة، ولكن في تَحْريكِ المال وتَنْشيطِه، بتوجيه أمْوالِ الأُمّة البسيطة، وذلك بتَحْويلِ مَعْناها الاجْتماعيّ من أمْوالٍ كَاسِدَةٍ إلى رَأْسِ مالٍ مُتَحَرِّكٍ يُنَشِّطُ الفِكْر والعمل والحياة في البلاد)[٢].

مـن المُهِمّ - إذاً - أنْ نَفْحَصَ مُصْطلح «توجيه الثّقافـة»، ونَمْنَحَهُ أولويّةً بَارِزَةً في «التَّخْطيـط النَّهْضَويّ» و«السِّياسات التّنْمَويّة»، وأنْ يَتِـمَّ تَطْويعُه وفْقاً للمُعْطيات الحديثة

والمُسْتجِدَّات المَعْرفيّة؛ ففِكْرَةُ «التَّوجيه» لدى مالك بن نبيّ هي: (قُوّةٌ في الأساس، وتَوافُقٌ في السَّيْر، ووَحْدَةٌ في الهدف، فكَمْ من طاقاتٍ وقُوىً لم تُسْتَخْدَمْ لأنّنا لا نَعْرِفُ كيف نُكَتِّلُهَا. وكَـمْ من طاقـاتٍ وقُوىً ضاعتْ فلم تُحَقِّقْ هدفها حين زَحَمَتْهَا قُوىً أُخْرى صَادِرَةً عن نفس المَصْدر، مُتِّجِهَةً إلى نفْس الهدف. فـ«التَّوجيه» هو تَجَنُّبُ هذا الإسْرَافِ في الجُهْدِ والوَقْت. فهنـاك ملاييـن السَّواعـد العَامِلة، والعُقُـول المُفَكِّرَة في البـلاد الإسْلاميّـة، صَالِحَةً لأنْ تُسْتَخْدَمَ في كُلِّ وَقْتٍ، والمُهِمّ هو أنْ نُديرَ هذا الجهاز الهَائِل، المُكَوَّن من ملايين السَّواعِد والعُقُول، في أحْسن ظُرُوفه الزّمنيّة والإنْتاجيّة المُناسِبة لكُلِّ عُضْوٍ من أعْضائه)[٢].

وانْطلاقـاً من تلك الرُّؤية، وفي ضوء «الحالة النّهْضَويّة» البَائِسَةِ في العَالَم العربيّ، يـرى مالك بن نبيّ: (إنّه ليجب بـادئَ الأَمْر تَصْفية عاداتنا وتقاليدنـا، وإطارنا الخُلُقيّ والاجْتماعـيّ، ممّا فيه من عَوامِـل قَتَّالَةٍ، ورِمَم لا فَائِدَة منها، حتـى يَصْفُوَ الجَوّ للعَوامِل الحَيّـة والدَّاعِية إلى الحياة. إنّ هذه التَّصْفية لا تَتَأَتّى إلاّ بفِكْرٍ جديدٍ يُحَطِّمُ ذلك الوَضْعَ المَـورُوث عن فتْرة تَدَهْورِ مُجْتمـعٍ أَصْبَحَ يَبْحَثُ عن وَضْعٍ جديدٍ، هو «وَضْعُ النَّهْضة»)[٢].

ويرى مالك بن نبيّ أنّ: (مفْتاح المُشْكلة يَكْمُنُ في وَضْعِ برنامجٍ لـ«توجيه الثّقافة» توجيهاً يَتَّفِقُ وسُمُـوّ الغايـة التي نَنْشُدُهَـا)[٢٨]؛ وهذا - بطبيعـة الحال - يَقْتَضِي إعـادة النَّظَرِ في تَرْكيب «عناصِـر الثّقافة»، ومُراجَعَةِ مُقَوِّماتِها، وغَرْبَلَـةِ أَطْيافِها، وتَمْحيصِ أُسُسِها، وتَحْديـدِ أَهْدافِها، لإضْفَاءِ الحيويّةِ والنّشـاطِ وتَحْقيقِ «الوظيفة الاجْتماعيّة» عبْر القُدْرَةِ علـى مُواجَهَةِ المُشْكلات، واسْتِيعابِ المُسْتَجِدَّات، والانْسِجام مع مُتطلَّبات المَرْحلة، وهو الأَمْرُ الذي يُحَـدِّدُهُ مالك بن نبيّ حَصْراً بطريقَتَيْن: (الأولى: سَلْبيّةٌ تَفْصِلُنَا عن رَواسِبِ الماضي، والثّانية: إيجابيّةٌ تَصِلُنَا بمُقْتَضَياتِ المُسْتَقْبَل)[٢].

وهكـذا تَبْـرُزُ مُهِمّةُ «توجيه الثّقافـة» كقضيّـةٍ ذات أولويّةٍ رئيسةٍ فـي «المُجْتمعات العربيّـة» فكمـا يقولُ مالك بن نبـيّ: (ليس يَكْفِـي مُطْلَقـاً أنْ نُنْتِجَ الأفْكار، بَـلْ يجب أنْ نُوَجِّهَهَا طِبْقـاً لمُهِمّتِهَا الاجْتماعيّةِ المُحَدَّدَةِ التي نُريـدُ تَحْقيقها)[٢٨]؛ وهذا يَعْنِي توفير تُرْبَـةٍ خِصْبَةٍ تُسَانِدُ نُمـوّ الأفْكارِ والمُمَارَسَاتِ والقِيَم القَـادِرَة على توظيفِ الاسْتِعْدادات الفِطْريّة، وإطْلاقِ الطّاقات الكَامِنَة، ومُعالَجَةِ المُشْكلات، والنُّهُوضِ بـ«الحركة التّنْمَويّة»،

والتَّناغُم مع «مُقْتَضَياتِ العَصْر» ومُسْتَجِدَّاتِه؛ وبهذا يَتَحَقَّقُ «التَّوافُقُ المَنْطقيُّ» بين الوسيلة والغاية. فكما يقولُ قسطنطين زريق: (في سبيل ثقافةٍ عربيّةٍ أَفْضل لا بُدَّ أنْ نَرْسُمَ الخُطُوط الكُبْرى للمُجْتمع العربيّ الأَفْضل الذي نُريدُه) [١٨].

٢-٧-١) «ثقافة التّغْيير» و«تَغْيير الثّقافة»:

كنتُ قد عَلَّقْتُ [٤٥] على المؤتمر الثّالث لـ«مُؤسَّسة الفِكْر العربيّ» الذي انْعقد في مدينة «مراكش» - في عام ٢٠٠٤م - تحت عنوان «العرب بين ثقافة التَّغْيير وتَغْيير الثّقافة»، وتَساءَلْتُ ساعتها: (هل نَقَعُ مَرّةً أُخْرى في شِباكِ الثُّنائيّاتِ المُبْهَمَةِ التي هَيْمَنَتْ على ثقافتنا ورُدود أفْعالنا؟، وهل يُمْكِنُ لـ«ثقافةٍ» أنْ تعيش دون تَغْيير؟، وهل يُمْكِنُ أنْ يكون «التَّغْيير» نِتاجاً محليّاً بَحْتاً بمَنْأىً عن تَأْثيرِ الآخَرين، وهَيْمَنَةِ تيّاراتِ «العَوْلَمة»، وتفاعُلاتِ «الزّمان» و«المكان»؟). بما أنّ «الثّقافة» كائنٌ حَيٌّ يَنْمُو ويَضْمُر، ويَشْقَى ويَسْعَد، ويَقْوَى ويَضْعُف، وفْق أحْوالِ أهْلِه ومُمَارَساتِهم وقِيَمِهم ونُفُوذِهم، فإنّ «التّغْيير» أَمْرٌ حَتْميٌّ لا مناص عنه، وهو لن يكون - بالضّرورة - نحو الأَصْلح بخاصّةٍ إذا ما خلا من إرادةٍ وَاضِحَةِ المَلامِح، وإسْتراتيجيّةٍ ثَابِتَةِ القِوام، تُوَجِّهان ذلك «التَّغْيير»، وتتفاعلان مع عناصِره، وتُحَدِّدان أهْدافه. في ضوء ذلك لن يكون السُّؤالُ المُهِمُّ - إذاً - هو: (هل نَجَمَ «التّغْييرُ» عن «ثقافة التَّغْيير» أو عن «تَغْيير الثّقافة»؟)، ولكن السُّؤالَ الحيويَّ هو: (هل جاء «التّغْييرُ» عَفْويّاً وعَشْوائيّاً، أَمْ نَتَجَ عن قَصْدٍ وتَوجُّهٍ ورُؤْيةٍ؟)، والإجابةُ عن هذا السُّؤالِ تقودُنا حَتْماً إلى مُصْطلح «توجيه الثّقافة».

نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّه إذا حدث «التّغْيير» بطريقةٍ عَشْوائيّةٍ، فإنّه سيَحْمِلُ حَتْماً سَلْبيّاتٍ مَحليّةٍ، وقُشُوراً مُسْتَورَدَةٍ، وهَيْمَنَةَ «الغَالِب» التّلْقائيّة، غير آبِهٍ برِضَاءِ هذا أو انْزِعَاجِ ذاك؛ فسُنَنُ الحياة وقوانينُ الكَوْن لا تَتَغَيَّر لرِضَاء إنْسان أو غضبه مهْما بلغ من الورع والتّقوى. لقد أَجْمَعَ المؤتمرون في «مراكش» على رَفْضِ عمليّة «تَغْيير الثّقافة» وفَرْضِهَا من قبل قُوىً خَارِجيّة، ولكن فات على المؤتمرين حقيقة أنّ عمليّة «تَغْيير الثّقافة» تَحْدُثُ دون اسْتِئْذانٍ من أحدٍ، وهي تَحْدُثُ لأكْثر من سببٍ؛ فليس - بالضّرورة - أنْ

يَتَحقّقَ ذلك نتيجةً لإمْلاءاتٍ خَارجيّةٍ وتدخُّلاتٍ عَسْكريّةٍ، ولكن إذا بَلَغَتْ أيُّ ثقافةٍ مَبْلَغاً من الهُزَالِ والشَّيخُوخة، فإنّها تُصْبحُ جَاهِزَةً للتّآكُلِ الدّاخِليّ، والصَّدأ الفِكْريّ، والهزيمةِ الحضاريّة؛ فيَنْخُرُ فيها السُّوس، وتُعاني من هَشَاشَةِ العِظَام، وتؤولُ - بالضّرورة - إلى حالةٍ مَرَضِيّةٍ مُزْمِنَة. نَسْتطيعُ أنْ نقول - أيضاً - إنّه حتّى لو افْتَرَضْنَا جَدَلاً إمْكانيّة بَلْوَرَةِ «ثقافة التّغْيير» دَاخِليّاً دون التّأثُّر بالخَارِج، فإنّه يَلْزَمُ أنْ تكون «الثّقافة»، العَازِمَةُ على إجْراء «التّغْيير»، مُمْتَلِكَةً للأدواتِ والمُقوّمَاتِ الكفيلة بتَحْقيقِ «التّغْيير» المَنْشُود، فكما يقول مالك بن نبيّ: (إذا ما مضينا لمُواجَهَةِ «مُشْكلة الثّقافة»، وجدنا أنفُسنا نُواجِهُ ضِمْناً مُشْكلة أُسْلوب الحياة ومُشْكلة السُّلُوك الذي يَنْسَجِمُ معها)[٢٨].

من المُهِمّ - إذاً - أنْ نَتَلَمَّسَ الطُّرُق والوسائِل المُناسِبة نحو «تَأْهيل المُثقّف تَنْمَويّاً» ليكون صَاحِبَ «مَشْرُوعٍ تَنْمَويٍّ» ورُؤْيَةٍ عمليّةٍ قَادِراً على الإسْهَامِ في دَفْعِ حركة مُجْتمعه وتَغْيير ثقافته في اتّجاه «سَهْمِ الزّمن»، ومُؤثّراً في الأحْداث بإيجابيّة وكفاءَةٍ، ولتَنْتَقِلَ تلك الرُّؤى التّنْمَويّةُ والاهْتِمَامَاتُ الحيويّةُ عبْر أمْوَاجِ التّواصُلِ والتّفاعُلِ إلى «المُواطِن» أيّاً كان مَوْقِعُهُ ودَوْرُه. ولأنّ الهدف من مُهِمّةِ «توجيه الثّقافة» هو تَحْقيقُ أعْلى «فَاعِليّةٍ اجْتماعيّةٍ» لها، فإنّ من المُهِمّ إنْ تكون «نُقْطَةُ الانْطِلاق» نحو «إسْتراتيجيّةٍ ثقافيّةٍ حيويّةٍ هي الاعْتِراف بأنّ «الثّقافة العربيّة» تُعَانِي من خَلَلٍ مُشِينٍ في مَنْظُومتها السُّلُوكيّة والقِيميّة والمَعْرفيّة، وأنّ عليها أنْ تَتَعرَّفَ على أبْرز معالِم «الحياة المُعَاصِرَة»، وأنْ تَتَفَهَّمَ طبيعة أنْمَاطِ «المَعْرِفَةِ» الأكْبر تَأْثيراً في عَالَم اليوم وحيوات البشر؛ وهذه القضيّة - في الوَاقِع - هي الطّريقةُ الثّانيةُ التي وَصَفَهَا مالك بن نبيّ بأنّها: (إيجابيّةٌ تَصِلُنَا بمُقْتَضَيَاتِ المُسْتقْبَل)[٢]، ويُحَدِّدُ ابن نبيّ تلك «الطَّريقة الإيجابيّة» بأنّها «المَنْهَجُ التَّجْريبيُّ» الذي هو: (في الوَاقِعِ السَّبَبُ المُبَاشِرُ لتقدُّمِ المَدَنيّة الحديثة وتقدُّمِها المادّيّ)[٢].

وهكذا نجدُ أنّ مَنْطِقَ الأحْداثِ العَالَميّة وفَلْسَفَةَ التّطوّراتِ البشريّة يضعانا وَجْهاً لوَجْه أمام العَصَبِ الأساسِ لـ«الحياة المُعَاصِرَة»، ألا وهو «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» التي تَمَكَّنَتْ - في فتْرةٍ وجيزةٍ من تاريخ البشريّة الطويل - من أنْ تُغَيِّرَ أنْمَاطَ الحياة، وتُبَدِّلَ وسائِل الإنْتاج، وتَعْصِفَ بالرُّؤى الاجْتماعيّة، وتَقْلِبَ المفاهيم الاقْتصاديّة،

وتُزَعْـزِعَ المُعالَجات الفِكْريّة. إنّ المُجْتمع المُعَاصِـر المَعْرُوف بـ«مُجْتمع المَعْرِفَة» أَصْبَحَ مُرْتَبِطـاً - بشَكْلٍ غيـر قَابِلٍ للانْفِصَــام - بالاكْتشافات العِلْميّة والقفـزات التّقنيّة؛ ولذا فإنّــه من الضّروري أنْ يكون لـ«الحركة العِلْميّة - التّقنيّــة» دَوْرٌ حَاسِمٌ في تَشْكيلِ «المُنَاخِ الفِكْـريّ» عبْر توطيــن عمليّةٍ فَاعِلَــةٍ لـ«تَجَانُسٍ ثقافيٍّ» بينها وبيــن التّفاعُلات المُجْتمعيّة المُخْتلفــة، ممّــا يَسْبرُ الأبْعَــادَ المُهِمّــةَ للسُّؤال الاسْتِنْــكاريّ الذي طَرَحَــهُ روبرت هيزن (Robert Hazen): (كيــف يُمْكِــنُ لأيِّ إنْسانٍ أنْ يَتَطَلَّعَ إلى اسْتِحْسَــانِ الخُيُوطِ العميقةِ الكَامِنَةِ للحياة الفِكْريّة في زمنه دون أنْ يَفْهَمَ العِلْمَ الذي يُصَاحِبُهَا؟)(٤٦).

بإيجازٍ؛ لقد احْتَلَّتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّة - التّقنيّة» مَوْقِعَ القيادة في إسْتراتيجيّات الدُّول وتفاعُــلات المُجْتمعــات، وأَصْبَحَتْ تُحَــدِّدُ مدى التّقــدُّم والقُدْرة على تَحْقيــق مُتطلَّبات الازْدهــار والاسْتقــلال والقُــوّة؛ ولكن الأَمْــرَ يَتَطَلَّبُ رُؤيــةً أعْمق، وتَحْليــلاً أشْمل، ونحن نَسْتَقْصِــي مَوْقِــعَ «الثّقافة» فــي هذا الخِضَمّ المُتَلاطِــم من تلاقُحــاتِ «المَعْرِفَة» و«ثَوْرَة المَعْلومــات» وسياقــات الاعْتماد المُتزايد - في مُخْتلف مناحــي الحياة - على مُنْطَلَقَاتِ «المَنْهَجِ العِلْميّ» والحُلُولِ العمليّةِ والمُنْتَجَاتِ التّقنيّة.

٢-٨) إشْكَاليّة الثّقافتَيْن:

مــن الطّبيعيّ أنْ تكون لـ«الحركــة العِلْميّة - التّقنيّة» تفاعُــلاتٌ جَدَلِيّةٌ - تَبَادُليّةٌ مع المُجْتمعــات التي تَنْتَظِــمُ بدَاخِلِهَا؛ فهي نشاطٌ بشــريٌّ يُؤثِّرُ، ويَتَأثَّــرُ، بـ«الحالة الثّقافيّة» السّائِدَة في المُجْتمع، و«التَّجْربة الأوروبيّة» خير بُرْهَانٍ على ذلك؛ فـ«الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» التي نَبَتَتْ في القَرْن السّابع عشر الميلاديّ في أحْضَانِ «المُجْتمع الأوروبيّ» لم تُحَقِّقْ نجاحاتها وإنْجازاتهــا بسهولةٍ؛ وذلك لأنّها اصْطَدَمَتْ بـ«المَنْظُومَــةِ الثقافيّةِ» السّائِدَةِ، حيث كانَتْ هنــاك مَواقِــفُ عَدَائيّةٌ، وأُخْرى حَــذِرَةٌ، وثالثةٌ ترى فيها شَــرّاً لا بُدَّ منه، ورابعــةٌ تَحْتَقِرُ العمــل اليدويّ المِهْنِيّ، وكان قَدْرٌ كبيرٌ من جُهُود العُلماء والباحِثين والمُفكّرين يَصُبُّ في محاولاتٍ جَادّةٍ لتكييف «الثّقافة السّائِدَة» مع مُقْتضيات «الفِكْر الجديد» وضَوابِطه.

إنّ ما تَعَرَّضَتْ له «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» من خُصُومات وعَقَبَات في تاريخ أوروبا أَمْرٌ لافِتٌ للانْتِباه؛ فقد كان من المُتَوقَّع أنْ يكون التّكيُّفُ معها أكْثر يُسْراً ومُرُونةً، فهي نِتَاجُ تلك المُجْتمعات وتَرَعْرَعَتْ ببُطْءٍ في ساحاتها المَدَنيّة ومعاقِلها العِلْميّة، وكان التّدَرُّجُ في مُعْطياتها هو السِّمَة الغَالِبة، حيث لم تَتَعَرَّضْ «المُجْتمعات الغَرْبيّة» لما تَعَرَّضَتْ له «المُجْتمعات العربيّة» من هَجْمَةٍ شَرِسَةٍ على شَكْلِ مَوْجَاتٍ عَارِمَةٍ ومُتتاليةٍ من العلوم والابْتكارات، ولم تُحَاصِرْهَا أَحْدث التّقْنيات والصّناعات على شَكْل طُوفانٍ هَائِجٍ تَخْدِمُهُ مُخْتلف وسائِل الإعْلام والاتّصالات بفَاعِليّةٍ تَزْدادُ نُمُوّاً وامْتِداداً يوماً بعد يوم، ومن المُهِمّ أنْ نُؤَكِّدَ هنا أهميّة هذه الحقيقة، فهي جديرةٌ بالتّأمُّل والتّدْقيق ونحن نَتَحَرَّى القضايا والمفاهيم العامّة المُرْتَبِطَة بـ«إشْكَاليّة التّنْمية» ومِحْوَرِيّة «الثّقافة العِلْميّة».

لقد كان للظُّرُوفِ السّياسيّة والدِّينيّة والاجْتماعيّة دَوْرٌ مَلْمُوسٌ في إعاقة «الحركة العِلْميّة» في أوروبا، إلاّ أنّه لا يُمْكِنُ إهْمَالُ الدَّوْرِ النَّاجِم عن طبيعة «الفِكْر الجديد»؛ فـ«الفِعْلُ التّراكُميُّ»، و«المُكَوِّنَاتُ التَّجْريبيّةُ والرِّياضيّةُ» لـ«الثَّوْرَةِ العِلْميّةِ»، أَدَّتْ بها إلى أنْ تَشُقّ طريقاً خاصّاً ومُخْتلفاً يَبْتَعِدُ - تَدْريجيّاً - عن «الثّقافة التّقْليديّة» السّائِدَة، وتَسْتَعْصِي مُتَابَعَتُهَا وفَهْمُهَا على «النُّخَبِ الفِكْريّة» في مجالات «الآداب» و«العلوم الإنْسانيّة»، ناهيك عن عامَّةِ النَّاس. لقد كانتْ المُصْطلحات الدّقيقة والرُّمُوز الرِّياضيّة والنَّظريّات المُنْضَبِطَة والشُّرُوط التَّجْريبيّة، إضافةً إلى التّوسُّعِ الهَائِلِ والتَّرَاكُمِ المُتسارِعِ في مُعْطيات «الثَّوْرَة العِلْميّة»، تُضيفُ أَعْبَاءً مُتزايدةً على عمليّة التّواصُلِ مع «النُّخَبِ الفِكْريّة» و«الجُمْهُور» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة».

بإيجاز؛ أَحْدَثَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّة» - في العَالَم الغَرْبيّ - شَرْخاً في الانْسِجَام الفِكْريّ في «الثّقافة التّقْليديّة» المُسْتَنِدَة - أساساً - إلى الآداب والفَلْسفة والدِّراسات الإنْسانيّة، ولقد أَدْرَكَ بعض عُلماء الطَّبيعة الرُّوّاد - منذ البِدايات - حقيقةً مُهِمّةً، وهي أنّ «الحركة العِلْميّة» لا تَفْصِلُ فقط بين أَرْبابِها من «المُجْتمعات المُتقدِّمة»، وبين تلك «المُجْتمعات المُتَخَلِّفَة» عن الرَّكْبِ والقَابِعَةِ على هَامِشِ الأَحْداث، ولكنّها أيضاً - بطبيعتها الجادّة ومَنْهَجِهَا الصّارِمِ وتَرَاكُمَاتِهَا المُتَلاحِقَةِ - تُفْرِزُ فَواصِلَ دَاخِلَ المُجْتمع الوَاحِد تَتَجَلَّى في فَجْوَةٍ يُعَانِي منْها «الجُمْهُور» الذي

يَجْنِي ثِمَارَ المُعْطيات التِّقنيّة، ويَتَمَتَّعُ بإنْجازاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ»، إلاّ أنّه لا يتجانسُ - في التَّعامُلِ المَعْرِفيّ والتَّعَاطُفِ النّفسيّ والتَّنَاغُمِ الثّقافيّ - مع تلك الحركة الرّائِدَة.

لقــد اسْتَشْعَــرَ رُوَّادُ «الحركة العِلْميّة» في الغَــرْب خطر هذا «الانْفِصَــام الثّقافيّ»؛ فاهْتَمّ عَدَدٌ كبيرٌ منْهم بالتّفاعُلِ مع النُّخَبِ الفِكْريّةِ والقيادات السّياسيّة، ومع «الجُمْهُورِ» بشَــكْلٍ عــامٍّ، فــي مُحــاولاتٍ دَائِبَةٍ لتَبْسيــطِ المفاهيــم والأفْــكار، وتوضيــحِ المُعْطيات، وإزالــةِ اللّبْس، وإبْــرازِ المضامين والمعاني والدَّلالات والآثــار المُرْتَبِطَة بالجُهُود العِلْميّة والنّتائِــج التِّقنيّــة. ومــن أبْرز أولئك – في بدايــة القَرْن التّاسع عشــر الميلاديّ – مايكل فــاراداي (Michael Faraday) الــذي حَرَصَ علــى إلْقاء المُحاضــرات العامّة وتَبْسيط أعْمالــه العِلْميّة، واشْتَهَرَ بمهارته في الحِــوار والتّشْويق والإيضاح، وبذلك أَصْبَحَ فاراداي المُتَحَــدِّث باسْم «الحركة العِلْميّة» في عَصْرِه والمُرَوِّجَ لها؛ ولذا عَمَدَتْ «الجَمْعِيّة المَلَكِيّة البريطانيّــة» إلــى تَأْسيسِ «جَائِزة فــاراداي» لتُمْنَحَ لأولئك الذيــن يُسْهِمُون بشَــكْلٍ بَارِزٍ فــي مجــال «التّوعية العِلْميّة». ولقد ســرى هذا التّقْليد – بشَكْلٍ عامٍّ – فــي الغَرْبِ، فتبنَّاهُ عَــدَدٌ غير قليلٍ من الرُّوّاد وأصْحاب الاخْتصاصات العِلْميّــة، واهْتَمّوا بعمليّة التّواصُلِ مع «الجُمْهُور» عبْر تَأْليف الكُتُب والنّشرات المُبَسّطة، وإلْقاء المُحاضرات العامّة، والمُشارَكة في الجمعيّات والهيئــات المُهْتَمَّة بهذا الجَانِب؛ والقائِمَةُ طويلةٌ ومُتناميةٌ، وتَشْمَلُ: ألبرت آينشتايــن وتوماس هكسلي وإرويــن شرودنجر وريتشارد فاينمان وجليــن سيبورج وليون لدرمان وكارل ساجان وإسحاق عظيموف وستيفن هوكنج وغيرهم كُثُر.

وأمّــا القَــرْنُ التّاســع عشر الميلاديّ فــي أوروبا فقد شَهِدَ مــا يُمْكِــنُ أنْ يُوصَفَ بأنّه تَوتُّــرٌ فِكْريٌّ وقَلَقٌ مُجْتمعيٌّ بشَــأْن الحَواجِز بين «العِلْم الطَّبيعيّ» مــن ناحيةٍ، وبين «الآداب والدِّراســات الإنْسانيّــة» و«الثّقافــة التَّقليديّــة» للمُجْتمــع مــن ناحيــةٍ أُخْــرى؛ وأمّــا نِهاية الخمسينــات من القرْن الماضي فقد كانتْ سنوات السَّبْقِ الرُّوسيّ عندما أَطْلَقَ الرُّوس أوّل قَمَــرٍ اصْطناعيٍّ (سبوتنيك ١ـ) في عام ١٩٥٧م، ثم تلاه خلال أقلّ من شَهْرٍ «سبوتنيك ٢» مــع الكلبــة «لايكا»، ممّا أثار أشدّ القَلَــقِ في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» علــى أوضاعها العِلْميّة وقُدْراتها التِّقنيّة[٤٤].

فـي ضـوء تلـك الـظُّـرُوف الـقَـلِـقَـة بـرز مُـصْـطـلـح «إشْـكَـالِـيّـة الـثّـقـافَـتَـيْـن» (The Two Cultures Controversy) في أدبيَّات «الفِكْر الغَرْبيّ المُعاصِر»، ويعود الفَضْلُ في طَرْحِ هذا المُصْطلح، وتَشْخيصِ هذه الإشْكَاليّة - بشَكْلٍ جريءٍ وعميقٍ - إلى تشارلز سنو، وذلك في مُحاضرته التي أَلْقاها في «جامعة كامبردج» ببريطانيا - في عام ١٩٥٩م - بعنوان «الثّقافَتَان والثَّوْرَةُ العِلْمِيّة»[٣٢]. لقد أَفْلَحَ تشارلز سنو في هذه المُحاضرة في تَحْقيقِ ثلاثة أُمُورٍ على أقلِّ تَقْدير:

١) صاغ مُصْطلحاً جديداً ومَفْهُوماً مُهِمّاً.

٢) طـرح مَجْمُوعةً من الأسْئلة التي يَنْبَغِي لكُلِّ مُهْتَـمٍّ بأوضاع المُجْتمعات الحديثة أنْ يَتَصَدَّى لها.

٣) بـدأ جَدَلاً واسِع النِّطاق في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» تَمَيَّـزَ في أبْعـادِه وآثارِه وشِدَّةِ الانْفعـالات المُرْتَبِطَةِ به، ممّا تَرَتَّبَتْ عليـه سياساتٌ جديدةٌ واهْتِمامات مُتَنَوِّعَةٌ ومَنَاشِط مُتَعَدِّدَة.

٢-٨-١) أُطْرُوحة تشارلز سنو:

تَتَلَخَّـصُ أُطْرُوحَـةُ تشارلز سنـو[٣٢] في أنّ «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» تُعَانِـي من شَرْخٍ بين «ثقافَتَيْن»: «ثقافـةُ الآداب والعلوم الإنْسانيّة» من جِهةٍ، و«ثقافةُ العلوم الطَّبيعيّة» من جِهـةٍ أُخْرى، بحيث أَصْبَحَتْ «المُجْتمعاتُ الغَرْبيّة»، ونِظامُها التّعْليميّ، وحياتُها الفِكْريّة، مُسْتَقْطَبَةً على المُسْتوى الفِكْريّ بين هاتَيْن «الثّقافَتَيْن» ممّا نَجَمَ عنه حَاجِزٌ من الشُّكُوك المُتَبَادَلَـة بين المُنْتَمِين إلى كُلٍّ منهما تصـل أَحْياناً إلى درجة التَّنَافُرِ والعَدَاء، ولدى كُلِّ طَـرَفٍ صُورةٌ مُشَوَّهَةٌ عن الآخر، وتوجُّهـات الطَّرَفَيْن مُتباينةٌ تماماً؛ وحتّى على المُسْتوى العاطِفيّ ليس لهما أَرْضيّةٌ مُشْتَرَكَةٌ كافية، ويرى تشارلز سنو أنّ أسْبَابَ «الفَجْوَة» مُتَعَدِّدَةٌ وعميقـةٌ ومُعَقَّدَةٌ إلاّ أنّـه يَعْتَقِدُ أنّ من أبْرز العَوامِل التي أَدَّتْ إلـى تَفَاقُم «الإشْكَالِيّة» هي «التّعمُّق التّخصُّصيّ» في التّعْليم، وازْدياد أعْداد العَامِلين في المجالات العِلْميّة والتِّقنيّة.

وبالرّغم من أنّ تَشْخيص تشارلز سنو كان تَشْخيصاً محلّيّاً في ضوء وَاقِع بريطانيٍّ بَحْتٍ إلاّ أنّ طَرْحَهُ وجد «رُدود فِعْلٍ» كبيرةً على مُسْتوى العَالَم الغَرْبيّ لأنّه كان يُشَخِّصُ حالةً مَلْمُوسةً – بدرجاتٍ مُتفاوِتَةٍ وبأشْكالٍ مُخْتلفةٍ – تَحْمِلُ في ثنايا ها مُشْكلة «انْفِصَام العِلْمِ عن المُجْتمع». ويرى ميشيل سير (Michel Seres)[٤٧] أنّ «الحَرْب العَالَميّة الثّانية» و«كَارِثة هيروشيما» حَدَّدَتا بداية تَفَوُّقِ «العلوم الطَّبيعيّة» على «الدِّراسات الإنْسانيّة»، وأَبْرزتا ضرورة التّواصُلِ بين «العلوم الطَّبيعيّة» و«الدِّراسات الإنْسانيّة»، ممّا دَفَعَ المُفكّرين إلى الاهتمام بساحات التّفاعُل بين اهْتِمامات «الدِّراسات الإنْسانيّة» ومُعْطيات «العلوم الحديثة».

ويُوضِّحُ تشارلز سنو[٣٢] – في مُحاضرةٍ لاحِقةٍ – أنّ ذلك الصّدَى العَالَميّ مع أُطْرُوحته أكَّدَ له نُقْطَتَيْن:

١) أنّ «إشْكَاليّة الثّقافَتَيْن» لمستْ وتراً حسّاساً في الحال لدى المُثقَّفين في دُوَلٍ مُخْتلفةٍ في العَالَم بشَكْلٍ يكاد يكون آنيّاً، وهذا يَعْنِي بالنِّسْبَةِ له أنّ الفِكْرَةَ التي أَنْتَجتْ هذه الاسْتِجَابَةَ فِكْرَةٌ لا يُمْكِنُ لها أنْ تكون أصيلةً، فالأفْكَارُ الأصيلةُ لا تَنْتَقِلُ بهذه السُّرْعة. وهكذا بدا من الوَاضِح له أنّ كثيراً من النّاس كانوا يُفَكِّرُون حول مَلامِح هذا الموضوع وأبْعاده، فالفِكْرَةُ – وفْقَ تَعْبيره –: (كانتْ مُعَلَّقَةً في الهواء وتَحْتَاجُ فقط إلى من يَصُوغُهَا في كلمات)[٣٢].

٢) أنّ ذلك التَّجاوب الواسِع والمُتنامي دَلالةٌ على أنّ هناك قِيمةً مُعَيَّنَةً لهذا الطَّرْح، وهذا – في رأْيه – لا يَعْنِي بالضّرورة أنْ يكون الطَّرْحُ صحيحاً، أو أنّه ليس بالإمْكان طَرْح هذه الأفْكار بصِيغٍ أُخْرى، ولكن يَعْنِي أنّ الطَّرْحَ حَمَلَ بدَاخِله شيئاً ما رأى النّاسُ على مُسْتوى العَالَم أنّ له عَلاقَةً بالأوضاع السّائِدة.

لقد رأى تشارلز سنو أنّ في ذلك الاسْتِقْطَابِ القَائِم بين «الثّقافَتَيْن» خسارةً كبيرةً للمُجْتمع بأَسْرِه، وفي الوَقْتِ نفْسه هو خسارةٌ فِكْريّةٌ وإبْداعيّةٌ بسبب هَدْرِ الاحْتِمالاتِ الكبيرةِ الإيجابيّةِ المُتَرَتِّبَةِ على التّفاعُلِ والتّواصُلِ بينهما. من نتائج تلك «الإشْكَاليّة»

- فـي رأي تشارلـز سنو - أنّها تُمَثِّلُ خطراً كبيراً يُهَدِّدُ رفاهيّة «المُجْتمع الغَرْبيّ» فيقول: (إنّــه من الخطر أنْ يكون لدينــا ثقافَتَان لا يُمْكِنُهُمَا التّواصُلُ فيمــا بينهما في الوَقْتِ الذي تُقَـرِّرُ فيه العلومُ الجُزْءَ الأكْبَرَ مـن مصيرِنا) (٣٢)؛ وهكذا يرى سنو أنّ إغْلاقَ «الفَجْوَةِ» بين «الثّقافَتَيْن» ضرورةٌ في بُعْدِهَا الفِكْريّ المُجَرَّد، كما هي ضرورةٌ في بُعْدِهَا العمليّ المُباشِر.

٢-٨-٢) مَوْقِعُ «الثّقافة العربيّة» في «إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن»:

أمّــا «الثّقافــةُ العربيّةُ» فهــي - في المقام الأوّل - ثقافــةٌ أدبيّةٌ؛ فيَنْشَــأُ الطِّفْلُ فينا مُسْتَسْلِمَــاً لأُسْلُــوبِ الحِفْــظِ والرّواية، ويُغَذِّي خيالــه بصُورٍ عاطِفيّــةٍ وحماسيّةٍ وجماليّةٍ سِلاحُهَــا الكلمــاتُ الرَّنانــةُ والإنْشائيّاتُ البليغة، فيَشُــبُّ على سَجيّةٍ أدبيّــةٍ خَالِصَةٍ فإذا اصْطَـدَمَ بضروراتِ «الفِكْر العِلْميّ» من مُعْطياتٍ عِلْميّةٍ مُنْضَبِطَةٍ، ودِقَّةٍ تَجْريبيّةٍ صَارِمَةٍ، كان الحماسُ ضعيفاً، والتَّحَدِّي صَعْباً، والاسْتِمْرَارُ مُعْضِلَة.

وتَتَجَلَّــى هذه «الإشْكَاليّــةُ الثّقافيّةُ» فيما وَصَفَهُ زكي نجيب محمــود بأنّه «ازْدواجيّةٌ مُخيفــةٌ»، مُوَضِّحــاً أبْعادها في قَوله: (ولهــذه الازْدواجيّة في حياتنــا الثّقافيّة بين العِلْم والــلا عِلْـم، نتيجةٌ تُثِيرُ الغيظَ عند المُثَقّفِ الذي يَحُسُّ خطـورة رِسالته؛ وهي أنّ كثيرين من رِجــال الثّقافة منّا يَسْتَخْدِمُــون للأفْكار طريقة بروقسطيس فــي الأُسْطُورَةِ اليونانيّة القديمــة، التي يُقَالُ فيها إنّ بروقسطيس قد أقام على طريق المُسَافِرين نُزُلاً يَسْتَريحُون فيــه، لكنّه جعل الأَسِــرَّة كُلَّهَا ذات طُولٍ مُعَيَّنٍ، فإذا كان النَّــازِلُ عنْده أقْصر من السَّرير وَضَعَــهُ فــي آلــةٍ أعدَّهَا لتَمُطَّ الجَسَــدَ حتى يُطابِقَ طُـول السَّريـر، وإذا كان النَّازِلُ عنده أطْـول من السَّرير، جَذَّ سَاقَيْهِ ليَقْصُرَا إلى الحَدِّ المَطْلوب، فلا يَنْجُو من شَرِّهِ إلاّ مُسَافِرٌ شاءتْ له المُصادَفةُ المُواتِيةُ أنْ يكون في طُولِهِ مُطابِقاً للطُّولِ المَطْلُوب) (٣٨). وأمّا راشد المبارك، فيَلْجَأُ إلى تَصْويرٍ عِلْميٍّ يُوَضِّحُ «أبْعَادَ المَأْزِق» الذي وَقَعَتْ فيه «الثّقافة العربيّة» بحُكْـم الهَيْمَنَةِ اللفْظيّةِ على «المِزَاج العربيّ» فيقــول: (لقد تَحَوَّلَ فَنُّ صِنَاعَةِ الكلامِ إلى حَقْلٍ مغْناطيسيٍّ هَائِلٍ جَذَبَ إليه الفِكْرَ والوِجْدان، ورأى النّاسُ فيه أبْعَدَ ما يتطلّعون إليه مِــن آفــاقٍ تُوَجِّهُ لإجادته والتّفوُّقِ فيــه مُعْظَمُ طاقاتِ العَقْل ووظائِفــه، وأَصْبَحَ هو الوثيقة

التـي يُجْتَازُ بها كُلّ الحُدُودِ والمَواقِعِ والحُصُـون، إلى صُدُورِ المَجَالِس وعطاءِ السَّلاطين وكراسـي الوزارة، ونَتَجَ عن ذلك أنْ كُتِبَ في هذا الجَانِبِ أثْقَلَ ما تَنُوءُ به المَكْتبة العربيّة مـن أَحْمَالٍ، وأنْ يكون أضْخم الكُتُبِ التي عرفها تاريـخ التّأْليف كِتاب «صُبْحُ الأعْشَى في فَنِّ صِنَاعَةِ الإنْشَا») [٢٥].

ذلـك «المَـأْزِقُ الفِكْرِيُّ» الذي تعيشُـهُ «الثّقافةُ العربيّةُ» في حَاجَةٍ إلـى وَقْفَةٍ أَطْول، وتَشْخيصٍ أَعْمـق، وفَهْمٍ أَدَقّ، لأنّه «المَـأْزِقُ» الذي يُعِيقُ حركتَها، ويُثَبِّـطُ هِمَّتَهَا، ويَخْنُقُ تفاعُلاتِها في عمليّات التّواصُلِ مع زمنِها والتّعامُلِ مع عَصْرِهَا، ونَسْعَى في الفَصْل التّالي إلى الغَوْصِ في أَعْمَاقِ هذا «المَأْزِقِ»، وتِبْيَانِ بعض تفاصِيلِه، والوُقُوفِ على أبْرَزِ مَلامِحِه.

«الثَّقَافَةُ العَرَبِيَّة»: مَصْدَرُ الأَزْمَة

٣-١) مَدْخَل:

إنّ الفَشَلَ المُتَكَرِّرَ لجُهُودِ «النَّهْضَة» وبرامِج «التّنْمية» على مدى قَرْنَيْنِ يُوجِبُ ضرورة مُرَاجَعَـةِ «الحالة الثّقافيّة»؛ فبُلُوغُ أيِّ ثقافـةٍ لحالةٍ من العَجْزِ كالحالة التي بَلَغَتْهَا «الثّقافة العربيّـة» دَفَعَ زُمَراً مُتَنَوِّعَةً من المُثقَّفين العرب إلى المُطالَبَةِ بمُرَاجَعَةِ «مُقَوِّمَاتِ الثّقافة» وتَشْخيصِ مكامِن الدَّاء، ومن بينهم إبراهيم البليهـي إذْ يقول: (تَشْتَدُّ حاجة العرب إلى إعادة تَكْويـن وبِناء ثقافتهم لاسْتبعاد عناصِر الإعاقة الحضاريّة التي تُكَبِّلُ الفِكْرَ والفِعْل؛ فهذه الثّقافة بما تراكم فيها خلال القُرُون من قُيودٍ وأقْفَالٍ وبطبيعة تَكْوينها منذ البِدايات الأولى للعَصْر الجاهليّ تَحْتَاجُ إلى مُرَاجَعَةٍ عميقةٍ وشَامِلَةٍ ودقيقة)[٤٨]. ولا نَحْتَاجُ إلى كبير جُهْـدٍ لنُدْرِكَ أنّ «الثّقافـة العربيّة» اليوم هي ثقافةٌ قَاصِرَةٌ عن فَهْـمِ «رُوح العَصْر»؛ فهي تَتَرَنَّـحُ تحت تَأْثِيـر «فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ» خطيرةٍ يَعْتَبِرُهَا زكي نجيـب محمود أبْرز أوجه «أَزْمَةِ المُثقّـف العربيّ» حيث يقول: (إنّني لا أرى – بين المُعْضِلات التي تتحدَّى المُثقَّفَ العربيّ فـي زماننا – ما هو أشدُّ تَعْقيداً وأَعْسَرُ حَلاً، مـن مُحاولته أنْ يَجْمَعَ بين طَرَفَيْن، يكادان يكونـان مُتَضَادَّيْـن، في صِيغةٍ حياتيّةٍ وَاحِـدة، ألا وهما المُحَافَظَةُ علـى هُويّتِه التّاريخيّة مـن جِهَةٍ، والحِرْصُ – في الوَقْتِ نفْسه – على أنْ يُعاصِرَ دُنْيَاهُ التي تَعُجُّ بمخابيرِ المعامِل وعَجَلاتِ المصانِع)[٣٨]. إنّ ذلك «التَّحدِّي المَعْرفيّ» يُمَثِّلُ – دون شَكٍّ – «التَّحَدِّي الأَكْبر» للمُجْتمعـات النّامية، ويَفْرِضُ عليها أنْ تَتَصَدَّى له بكُلِّ القُوى المُؤَثِّرة لتَعْمَلَ على تَأْسيسِ «تَكْويـنٍ ثقافيٍّ» يَحْمِلُ رُؤىً تَسْتَشْرِفُ المُسْتَقْبَل، وتُدْرِكُ مُقْتضياته، وتَهْتَمُّ بتوليدِ الآليّاتِ

والمُعْطيـاتِ القَادِرَةِ على تَأْسيسِ «الخصائِص الإيجابيّة» وعلى رأْسِهَا الحِرْص على جَعْلِ «ثقافة العلوم والتّقْنية» عُنْصُراً مُؤثِّراً في التّفاعُلات الفِكْريّة السّائِدَة.

وبمُراجَعَـةٍ مُتَأنِّيَةٍ لطُرُوحَاتِ «النّهْضَويّيــن»، وعبْر تَحْليلٍ دقيقٍ لاهْتماماتِ المُثقَّفين عبْـر القَرْنَيْــن الماضِيَيْــن نَلْمَسُ - بشَـكْلٍ مَأساويٍّ - إغْفَـالَ «البُعْدِ الثّقافـيّ» في تَحْفيزِ الابْتكارات ودَعْمِهَا، وتأْصيلِ «القِيَم العِلْميّة» وتَطْويعِهَا، وتَهْيئَةِ «البِيئَةِ الخِصْبَة» لتَنْميةٍ تَمُدُّ جُذُورَهَا إلى دَاخِل تُرْبَةِ المُجْتمع، وتتفاعلُ مع مُكَوِّناته لتَأْسيسِ «العَقْل العِلْميّ» القَادِرِ على الاسْتِجَابَـةِ الفَاعِلَةِ لتحدّياتِ عَصْرِه. إنّ المُتأمِّلَ لمـا سُمِّي «إشْكَاليّة التّنْمية»، والمُـرَاقِبَ لظُـرُوفِ تَطَـوُّرِ «الحركة العِلْميّة» ونجاحِها في دُول «العَالَم الأوَّل» لا يَسْتطيعُ إلاّ أنْ يَخْلُصَ إلــى نتيجةٍ وَاحِدَة؛ وهي الحقيقةُ البدهيّـةُ التي أَدْرَكَهَا الفلاّحون والمُزارِعون منذ عُصُورٍ سحيقــةٍ، وأَهْمَلَتْهَا «الدُّول النّامية» بشَكْلٍ وَاضِحٍ ومُثيــرٍ للاسْتِغْرَاب؛ وهي أنّك لا تَسْتطيعُ أنْ تَجْنِيَ ثِمَارَ غَرْسَةٍ حُرِمَتْ من عناصِرِها الحيويّة ومُناخِها المُلائِم وبِيئَتِها المُناسِبة.

إنّ «النّشاط العِلْمـيّ والتّقنيّ» نشاطٌ بشريٌّ يَحْتَاجُ إلى بِيئَةٍ تَحْتضنه، ومُناخٍ يَرْعاه، ودعائِـم تَحْمله، ووسائِط تَنْقله؛ وكُلُّ هذا يَتَطَلَّـبُ مُجْتمعاً مُتَفَهِّماً لطبيعةِ العلوم، مُدْرِكاً لشُرُوطِهَـا، مُتَحَمِّسَــاً لقضاياها، مُتَفَاعِــلاً مع تَطَوُّرِهَا. لقد كان الخطــأ الذي وَقَعَتْ فيه «الـدُّول النّامية»، وما زالت تُصِرُّ عليه، أنّها تَصَوَّرَتْ أنّ «العلوم والتّقْنية» مُجَرَّدُ صناديق مُغْلَقَةٍ ومصانِعِ مُنْعَزِلَةٍ وأجْهِزَةٍ مُتَطَوِّرَةٍ ومبانٍ مُشَيَّدَةٍ، وظَنّتْ أنّ مُجَرَّدَ الشِّراء والاسْتيراد سيحلّ الإشْكال، واعْتَقَدَتْ أنّ الاكْتفاء بالتّعْليم والتّدْريب والبُحُوث في «المجالات العِلْميّة والتّقنيّة» سيَفْتَحُ أمامها الأبْـواب المُغْلَقَة، ويُدْخِلُهَا في مَرْحلة الإنْتاج والتّطْوير، ويُحْدِثُ «النّقْلَةَ المَطْلُوبة» إلى مَصَـافِّ «الدُّول المُتَقَدِّمَة».

إنّــه من الغريب أنْ يَقَعَ تشارلــز سنو[٣٢]، وهو المُنَظِّرُ لـ«ثقافــة العلوم»، في الخطأ نفْســه إذْ أنّه تَصَوَّرَ أنّ مُهِمّةَ تَحْديثِ المُجْتمع، ونَقْلَهُ إلى مُجْتمعٍ صِناعِيٍّ، يَحْتاجان فقط إلى عَدَدٍ كَافٍ من العُلماء والمُهندسين والتّقنيّين. لقد تجاهل تشارلز سنو في رُؤيته هذه دَوْرَ «ثقافــة المُجْتمع» في تَفْعيــلِ «التَّنْمية» وتَنْشيطِ «الحركة العِلميّــة - التقنيّة»، فنَجِدُهُ

يقــول: (إنّ العادات والخَلْفيّــة التِّقنيّة يقومان بدَوْرٍ ضئيلٍ يَدْعُــو إلى الاسْتِغْرَاب)، ويرى سنــو: (أنّ الثَّــوْرَةَ العِلْميّةَ على مُسْتــوى العَالَمِ تَحْتاجُ كأولويّةٍ قُصْــوَى إلى رَأْسِ المال في مُخْتلـف أشْكاله، بما في ذلك رَأْس المال الــلازم للتّجْهيزات الميكانيكيّة). وأمّا تجارِبُ «الــدُّول النَّاميــة»، على مدى مــا يَرْبُو على نِصْــفِ قَرْنٍ بعد «الحَــرْبِ العالَميّــة الثّانية»، فإنّهــا تُثْبِــتُ أنّ للعَوامِلِ الثقافيّــة والسّياسيّة والاجْتماعيّــة دَوْراً أكْبر بكثيــرٍ ممّا اعْتَقَدَهُ تشارلــز سنــو، وهي فــي الوَاقِعِ الاعْتبارات التــي تُمَثِّلُ أبْــرز عناصِر «إشْكَاليّــة التّنْمية»، وتَشْــرَحُ أسْبَابَ إخْفَاقِ برامِجِ «التّنْمية» وخُطَطِهَا في تَحْقيقِ مُعْظَم أهْدافِها. إنّ التّجارِب المُعَاصِرة لقضايا «التّنْميــة» تُبْرِز أهميّة «المُشارَكَة الجماهيريّة» في «العمليّة التّنْمويّة»؛ فكُلّمَا ازْدَادَتْ أنْمَاطُ تلك المُشَارَكَةِ ومِساحتُها، اكْتَسَبَتْ «الحركة التّنْمَويّة» عُمْقاً وفَاعِليّةً وتَأَلُّقاً؛ ولذا يُصْبِحُ لـ«الثّقافة» القَادِرَةِ على التّأْثيرِ على «الجُمْهُور» الدَّوْرُ الأبْرَزُ في تَحْديدِ خصائِص «التّنْمية البشريّة» وتطوُّرِهــا؛ فـ«التّنْمية البشريّة» هي أهمّ «مُحَدِّداتِ التّنْمية» علــى الإطْــلاق، وتُبَيِّنُ تجارِبُ «الــدُّول المُتَقدِّمَة» الدَّوْرَ الرّياديّ لـ«المَــوارِدِ البشريّة» في عمليّةِ النُّهُوضِ والتّطوُّرِ والتّقدُّم.

من الجَليّ أنّ أسْبَابَ التَّخَلُّفِ والضَّعْفِ وحالة «العَجْزِ العربيّ» تَكْمُنُ في مجْموعةٍ من جوانِب الخَلَل؛ فهناك خَلَلٌ في «المَنْظُومَةِ التّعْليميّة»، وخَلَلٌ في «المَنْظُومَةِ البَحْثيّة»، وخَلَلٌ في «المَنْظُومَةِ الإداريّة»، وخَلَلٌ في غير ذلك من مَنْظُومَاتٍ سياسيّةٍ وإعْلاميّةٍ واقْتصاديّةٍ واجْتماعيّــةٍ؛ وأمّــا الخَلَلُ الرَّئيسُ، الذي نَزْعُمُ في هذا الكِتــاب أنّه المَسْؤولُ الأوَّلُ عن كُلِّ أنْواعِ الخَلَلِ الأُخْرى، فهو الخَلَلُ القَائِمُ في «المَنْظُومَةِ الثّقافيّة» في «المُجْتمعات العربيّة».

٣-٢) «الإشْكَاليّة الكُبْرى» في «الثّقافة العربيّة»:

لكي لا تَجْرُفَنَا دَوَّامَاتِ «العَجْز العربيّ» إلى متاهاتٍ كلاميّةٍ وحماسيّةٍ، فإنّ علينا أنْ نَضْبِطَ إيقاعَ عَواطِفنا لنتعرَّف على أهمّ بصمات هذا «العَجْزِ» لنجد أنّنا جميعاً مَسْؤولون عنــه، وكُلُّنا – أيضاً – مَعْــذُورون؛ فـ«الإشْكَاليّة الكُبْرى» تَكْمُنُ في ثقافةٍ سائِدَةٍ تعيشُ على «الشَّكْليّــات» بكُلِّ أنْماطِهــا، وتَقْتَاتُ على «الاسْتِهْلاكِ» بكُلِّ أبْعــادِه بما في ذلك اسْتِهْلاك

الكلمـات، وغزارة المُترادِفـات، والانْحِباس في بوتقة «التّنْظير» التـي لا تَسْتطيعُ أنّ تَلْتَحِمَ مـع ساحة «الفِعْل»؛ فلقد هَيْمَنَ الجَدَلُ الأدبيّ والسّياسيّ والتّاريخيّ والفِقْهيّ على تفاعُلاتِ «الثّقافة العربيّة» وتَشْكيلِها، ولا يَنْبَغِي لنا أنْ نَسْتَغْرِبَ - إنْ استمرّ الحال على ما هو عليه - أنْ يَبْقَى وَاقِعُ الأُمّة على حاله من العَجْزِ والرّكُودِ والتَّخَلُّف.

إنّ «الإشْكَالِيّة الكُبْرى» هي في ثقافةٍ تَمَكَّنَتْ - عبْر قُرُونٍ - من الاسْتِحْواذِ على «العَقْلِ العربـيّ» ليَبْقَى «الإنْسان العربـيّ» أسيراً للأشْـكالِ التّقْليديّة المَعْهُـودة، والفِكْرِ النّمَطيّ السّائِد، وضُرُوب الشِّعْر، ودِراسـاتِ النَّثْرِ والسَّجْعِ والبُكَاءِ على الأطْلال؛ فبَقِيَتْ «الثّقافة» وأصْحابُها يُراوحون مكانهم؛ لأنّهم يَسْتَخْدِمُون أدواتِ زمنٍ مضى وانْقضى، وراحوا - بكُلِّ صُنُـوفِ التّفاخُرِ والهِجَاءِ والمديـح - يَرْقُبُون أحْداث زمانهم ومُنْجزاته فهي لا تَعْنيهم إلاّ في «الجَانِبِ الاسْتِهْلاكيّ»، ولا تتقاطعُ مع اهْتماماتهم إلاّ في «الجَانِبِ الشَّكْليّ».

ليـس غريباً - إذاً - أنْ يكون حالُ «العَقْلِ العربيّ» كحـال «الشِّعْرِ» الذي اشْتَهَرَ بأنّه «دِيـوانُ العرب»[٤٩]؛ ففيه «عُلُومُهم وأَخْبَارُهم وحِكَمُهم»، ولذا فمن المُهمّ أنْ نَتَعَرَّفَ على طبيعة هذا «الدِّيوان» لنعرف خصائِص « العَقْلِ العربيّ»؛ فـ«الشِّعْرُ»، وفْق النَّاقِدِ الأنْدلسيّ حـازم القرطاجني،: (لا يُقَاسُ بمِعْيارِ الصِّدْقِ أو الكَـذِبِ وإنّما هو لإحْداثِ انْفِعَال)[٥٠]؛ ولأنّ (أَعْـذَبَ الشِّعْـرِ أَكْذَبه)[٥١] فقـد اخْتَلَطَتْ المَقَاصِدُ في «صِنَاعَـةِ الكلام» التي برع فيهـا العرب، وضَحَلَـتْ المعاني، وضَاعَتْ الألْـوانُ بين الكلماتِ، لتَصْطَبِـغَ بلونٍ بَاهِتٍ لا يَشُـدُّكَ إليه إلاّ ما يُذَكِّرُكَ بـ«مَرْحلة المُراهَقَـة» عندما كنتَ تَسْعَى جَاهِداً لرَصِّ الكلماتِ وحَشْدِهَا؛ ليُدْرِكَ أستاذُ «مَادّة التّعْبير» حَجْمَ رصيدِك اللُّغويّ، وغزارةَ اطِّلاعِك الأدبيّ.

فـي ذلك الخِضَـمّ الكلاميّ العَارِمِ تَغْرَقُ الأَفْكَارُ الحَيّةُ القَـادِرَةُ على تَحْريكِ الوَاقِعِ الرّاكد، ومُعَالَجَـةِ المُشْكلاتِ المُتفاقِمَة، وتَأْسيسِ «العَقْلانيّـة» اللازمة، وتَأْصيلِ «الفِعْلِ النّاجِـز». ويَرْتَـدُّ «العَقْلُ العربيُّ» علـى ذاته ليَنْغَمِسَ فـي عَواصِفِه العَاطِفيّـة وصِراعاته الأزليّـة ونماذجِه الماضويّة وأوهامِه الجَانِحَة، مُتَباكِياً تارةً، ومُسْتَعْلِياً تارةً أُخْرى، ولكنّه - فـي كُلّ الحـالات - يَتَمَتَّـعُ بحصانةٍ عاليةٍ ضـدّ الاسْتفادةِ من التّجـارِب، ويتماهى مع

«قُصُورٍ ذاتيٍّ» عَالٍ يَحْجُبُ عنه الاسْتِشْرَافَاتِ والإشْرَاقَاتِ والتَّحَدِّيَاتِ، فهو يعيشُ دوماً تحت الوَهْمِ القَابِعِ في مَقُولة: (لنا الصَّدْرُ دون العَالَمِينَ أو القَبْرُ). وفي هذا الإطار نَسْتَحْضِرُ مَقُولة عبد الله الغذّامي: (ولنا أنْ نَتَصَوَّرَ ما جَلَبَهُ علينا إلْغاء السُّؤال الأخْلاقيّ وسُؤال المَعْقوليّة في أهمّ المُكَوِّنات الثقافيّة للإنْسان العربيّ الذي صار دِيوانه غير مَعْنِيٍّ بهذه الأسْئلة، واكْتَفَى بالجَمَالِيّةِ وما فيها من دَغْدَغَةٍ للخيال عبْر خِطَابٍ مَجَازِيٍّ مُزَيَّفٍ ومُشَوَّهٍ، غير عمليٍّ ولا إنْسانيّ)[٤٩].

قالوا لنا إنّ (المَعْنَى في بَطْنِ الشّاعِر)، أو في جُعْبَةِ الأديب اللّوذَعِيّ، أو في فَمِ الخطيب المُفَوَّه؛ ومن ذلك الخيال الجَامِح، والبُنَى اللّغويّة المُؤَثِّرة، عانى «العَقْلُ العربيُّ» ليس فقط من قُدْرَتِهِ الفَذّةِ على التّعَامُلِ مع (المُمْكِنَاتِ الذِّهْنِيّةِ كمُعْطَيَاتٍ وَاقِعيّة)[١]، وفْق طَرْحِ محمد عابد الجابريّ، ولكن «العَقْلَ العربيَّ» ذهب - أيضاً - إلى أبْعد من ذلك فجعل - في رأْيي[٥٢] - (المُسْتحيلات المَادِّيّة حَقَائِق مَلْمُوسَة) عبْر ازْدِرَاءِ المَنْطِق، وجُمُوحِ العَاطِفَة، واللجوءِ إلى «ما ورائيَّاتٍ» تَنْتَظِرُ حُدُوثَ «المُعْجِزَات»، وتَنْأى عن «الأَخْذِ بالأَسْبَاب».

٣-٢-١) بين الأمانيّ والحقائق:

لقد اسْتَقَرَّ في خَلَدِ «الإنْسان العربيّ» - منذ زمَنٍ بعيدٍ - أنّ مُجَرَّدَ التّمنّي يُحَقِّقُ الغاية، وإنّ الإسْهَابَ الوَصْفيّ في التّطلُّعات، أو المُبَالَغَةَ الكَمِّيّة في الحِسابات، تَنْقُلان الأهْداف إلى عَالَمِ الوَاقِع، وأنّه إذا نَطَقَ بالكلمة واتَّخَذَ القرار فإنّ الإنْجازَ هو تَحْصيلُ حَاصِلٍ وسيَسْعَى - تِلْقائيّاً - ليُجَسِّدَ المَطْلَب، ويُحَقِّقَ الغاية، ويُبَدِّلَ الوَاقِع. إنّ هذا النّوْعَ من «التَّفْكير العَبَثِيّ» المُعْتَمِد على الأمانيّ هو ما نَتَجَ عنه - بالضّرورة - ضَعْفُ إنْجازاتِ الخُطَطِ التّنْمَويّة، وضَآلَةُ مَرْدودِ البرامِجِ التّطْويريّة، وتَفَاقُمُ إشْكالاتِ الحياة في مُجْتمعاتٍ عربيّةٍ مُعَاصِرَةٍ تَزْدَادُ تَعْقيداً في تفاعُلاتِها ومُتطلَّباتِها ومُشْكلاتِها.

لقد اخْتَلَطَ الأَمْرُ على «العَقْلِ العربيّ»؛ فقضيّةُ (كُنْ فيكون) هي ممّا اخْتَصَّ به الخَالِقُ عَزَّ وجَلَّ، وأمّا سُنَنُهُ الكَوْنيّةُ فهي لا تُحَابِي أحداً ولو كان أكْثَر النّاس وَرَعاً،

وأَقْدرهـم علـى الوَعْظ، وأَمْضاهم فـي ساحات البلاغة. وفي هذا الخَلْـطِ المُرَوِّع تَجلّتْ - فـي الخُطَطِ والإسْتراتيجيّاتِ العربيّة - نمـاذِجَ الوَصْفِ المُسْهَبِ والإنْشائيّاتِ البَرّاقَةِ، تَدْعُمُهَـا دائِماً كلمة (سوف) التي تَحَوَّلَتْ مع الأيام إلى مَادَّةٍ للتّنَدُّر، ولكنّها بَقِيَتْ مُعَبِّرَةً عـن العَجْزِ في الاهْتمـام بالتَّفاصيلِ الصَّغيرة، والآليَّاتِ المُحَـدَّدَة، والمُتَابَعَةِ الصَّارِمَة، والرَّقَابَةِ النَّزيهة.

إنّ السّاحة العربيّة تَضِجُّ بالإسْتراتيجيّات الكُبْرى، ولكنّها تَفْتَقِرُ إلى الآليّاتِ الوَاضِحَةِ والقَـادِرَةِ - عبْر تراكُماتِها ومعاييرِها وتفاصِيلِها - علـى تَحْويلِ تلك الإسْتراتيجيّات إلى حقائِق مَلْمُوسةٍ ووقائِع مَحْسُوسةٍ، فالبَوْنُ شَاسِعٌ بين «ثقافةٍ نَظَريّةٍ - لَفْظيّةٍ» وبين «ثقافة عِلْميّةٍ - عمليّة»؛ فالأولى تَنْتَعِشُ بنسيمِ الكلمة، وتَسْبَحُ في بُحُورِها، وتَطْرَبُ بما تُنْجِزُهُ في «البِنَاءِ اللّفْظِيّ»، وهي تَأْتِي طَيِّعَةً لَيِّنَةً لـ«العَقْلِ العربيّ». وأمّا «الثقافة العلميّة - العمليّة»، فلها مُصْطلحاتٌ دقيقةٌ، ومعايير مُحايدةٌ، ومُؤَشِّراتٌ مُنْضَبِطَةٌ، ومقاييس تَجْريبيّةٌ، وهي تَمْتَنِـعُ على «العَقْلِ العربيّ»؛ لأنّ خصائِصَ «الفِكْرِ العِلْميّ» الصّارِمَةِ لا تُناسِبُ «مُحَدِّداتِ العَقْلِ العربيّ» التي تَدْفَعُ به لأنْ يكون مُنْفَلِتاً في رِحَابِ الخيال ودُنْيا الكلام.

عندما نقول إنّ «أَزْمَةَ العَقْلِ العربيّ» هي «أَزْمَةٌ ثقافيّةٌ» بامْتِيازٍ، فإنّ حقائِق الماضي ووقائِـع الحَاضِـر وتحدّيات المُسْتَقْبَـل تُؤَكِّدُ تلك الحقيقـة المَرَّة تِلْوَ المَـرَّة؛ فقد انْشَغَلَ «العَقْـلُ العربـيُّ» بـ«القضايا الكُبْـرى» في كُلِّ مكانٍ، ولكنّـه أَهْمَلَ «التّفاصيـل الصَّغيرة» فـي مُجْتمعِهِ وبَلْدَتِهِ وحَيِّـه، وغَابَتْ عنه الآليّـاتُ المَحْكُومَةُ بعناصِر المُسَاءَلَـةِ والمُتَابَعَةِ والتّقْييـم، ليُصْبِـحَ النّاتِجُ هو تَكْريس «حالة التَّخلُّف» وذلك علـى الرّغْم من انْتشار كلمة «إسْتراتيجيّـة» التـي غَـزَتْ كُلَّ مِضْمارٍ ومَحْفَـلٍ ومُؤَسَّسةٍ في العَالَم العربـيّ. ولا شَكّ أنّ الإسْتراتيجيّـات - برُؤاهـا العامّة وطُمُوحاتِهـا الشّامِلة وأَهْدافِها المُحَـدَّدَة - ضرورةٌ لا مناص عنها، ولكنّها تَتَحَوَّلُ إلـى مَصْدَرِ إحْباطٍ عندما تُخْفِقُ فـي تَحْقيقِ غاياتِها؛ وهنا تَكْمُـنُ أهميّةُ «التّفاصيل الصَّغيرة» التي يَجْرِي إهْمَالُهَـا - عادةً - في «الثّقافة العربيّة»، فمِيـاهُ السّدِّ تُصْبحُ شُؤماً على البلادِ والعِبَـادِ إذا انْعَدَمَتْ قنواتُ التّصْريفِ القَادِرَةِ على تَوجيهِها وتَرْشيدِها وتوزيعِها ليَعُمّ خَيْرُهَا، وتَتَحَقّق فَائِدَتُهَا.

فـي «العَالَم المُتقدِّم» تَوَفَّرَتْ تلك القنوات والآليّـات عبْر «أَنْظِمَةٍ مُؤسَّسِيّةٍ» و«ثقافةٍ عِلْميّـةٍ» تراكمتْ فيهـا الخِبْراتُ والمُمارَسات، وتطوَّرتْ فيها معاييـرُ المُرَاجَعَةِ والتّقْييم، وتحقّقـتْ لها آليّـاتُ التّصْحيح والنُّموّ؛ وأمّا في «العَالَم العربيّ» حيـث تَنْعَدِمُ المُؤسَّسَاتُ الفَاعِلَة، وتغيبُ «الثّقافةُ العِلْميّةُ»، فإنّ الأداء يَبْقَى رهينةً للاجْتهاداتِ الفَرْديّة، والمُبَادَرَاتِ العَشْوائيّة، والقـراراتِ المزاجيّة. ولذا فإنّ مُهِمّةَ المَسْؤول، في أيِّ قطاعٍ كان في «العَالَم المُتَقَـدِّم»، هي أهْون كثيراً من مُهِمّةِ نظيره فـي «العَالَمِ العربيّ»، فصَاحِبُنَا الأوَّل يَحْظَى ببِنْيةٍ تحْتيّةٍ قَادِرةٍ على الإسْهَام في تَشْكيلِ «الإسْتراتيجيّة» واسْتيعابِها، وتَصْويبِ مسيرتِها، وتوظيفِ آليّاتِهـا، بينما صَاحِبُنَا الثّاني يَتَحَمَّلُ - بالضّرورة - عِبْءَ وَضْعِ «الإسْتراتيجية» وتَهْيئـةِ «الثّقافة المُنَاسِبة» من ناحيـةٍ، وعِبْءَ صِناعةِ «الآليّات» ومُرَاقَبَةِ عملِها من ناحيةٍ أُخْرى، وذلك إذا افْتَرَضْنَا تَوَفُّرَ حُسْنِ النِّيّة ونزاهةِ المَقْصَدِ ونظافةِ اليد وكفاءَةِ الأداء. وبتأمُّـلِ طبيعة هذه «المَسْؤوليّـة المُزْدَوجَة» التي يَتَحمّلُهَا المَسْـؤولُ في «العَالَمِ العربيّ»، نَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَـمَ سبب فَشَلِ تلك الوعود الزّمنيّة التـي يَقْطَعُهَا المَسْؤولُ على نفْسه عند تسلُّمِـه زِمَام مهامّه؛ فمنْها الثُّلاثـيّ من السّنين ومنْها الخُماسيّ مـن الأعْوام، وكُلُّهَا قد تَنْطَلِـقُ من نَوايا حسنةٍ وعزيمـةٍ صَادِقةٍ وغاياتٍ وجيهةٍ، ولكن الأمْـرَ الذي يغيبُ - عادةً - عـن اهْتمامِه، أو كفاءتِه، هو «التّفاصِيلُ الصَّغيرةُ» المَدْعُومَةُ بـ«المعايير العِلْميّة»؛ ممّا يقـودُ إلى اسْتمرارِ المُشْـكلات أو اسْتفحالِها وصُعُوبةِ التّغلُّب عليها، وكُلُّ ذلك يَغْتَالُ تلك الوعـود، ويَئِدُ تلك الآمال، ويُحَوِّلُهَا إلى مُجَـرَّدِ دُعَابَةٍ أو طُرْفةٍ يتناقلُها النّاس وهم يبثُّون هُمُومهم اليوميّة.

وأمّـا إذا سألنا: (هل يُمَثِّلُ هذا الطَّرْحُ شيئاً جديـداً على السّاحة العربيّة؟)، فإنّنا نجـدُ أنّ الإجابة تَأْتي جَازِمَةً بالنَّفي، فلقـد طَرَحَ مالك بن نبيّ - قبل ما يَرْبُو على نِصْفِ قَـرْنٍ - مِثْل هـذه التّصوُّرات، عندما أشار إلـى «المَنْطِقِ العمليّ» فقـال: (نحن أَحْوجُ ما نكـون إلى هذا المَنْطِقِ لأنّ «العَقْلَ المُجَرَّدَ» مُتوفِّرٌ في بلادنـا، غير أنّ «العَقْلَ التّطْبيقِيّ» الـذي يتكوَّنُ في جوهره من الإرادة والانْتباه شيءٌ يكاد يكون مَعْدُوماً)[٢٨]. وأَكْثر من هذا وأَعْمق هو ما قاله مالك بن نبيّ في السِّياق نفْسه: (إنّنا نرى في حياتنا اليوم جَانِباً كبيراً

من «اللافَاعِليّة» في أعْمالِنا، إذْ يَذْهَبُ جُزْءٌ كبيرٌ منْها في العَبَثِ وفي المُحاولاتِ الهَازِلَة. وإذا مــا أردنا حَصْراً لهذه القضيّة فإنّنا نرى سببهــا الأصيل في افْتِقَادِنَا الضَّابِطَ الذي يَرْبِطُ بين الأَشْياء ووسائِلِها، وبين الأَشْياء وأَهْدافِها، فسياستُنا تَجْهَلُ وَسَائِلَهَا، وثقافتُنا لا تَعْـرِفُ مُثُلَهَا العُلْيــا، وفِكْرتُنَا لا تَعْرِفُ التّحْقيق، وإنّ ذلك كُلَّهُ ليتكرَّر في كُلِّ عملٍ نَعْمَلُهُ وفي كُلِّ خُطْوةٍ نَخْطُوها)[٢٨].

٣-٢-٢) مَأْزِق «الخِطاب العربيّ»:

ليستْ المُشْكلة - في نظري - أنّ «الثّقافة العربيّة» اهْتَمّتْ بالجَوانِب الأدبيّة التّقْليديّة والمُسْتَحْدَثَــة، أو أنّهــا حَرَصَتْ على الاسْتِطْـرادات النّظريّة، فكُلُّ ذلــك أَمْرٌ مَطْلُوبٌ في حيــاة أيِّ أُمّةٍ مع أهميّة التّطْوير والمُراجَعَةِ والنّقْد؛ ولكن المُشْكلة تَكْمُنُ في اقْتِصَارِ هذه «الثّقافة» وتفاعُلاتِها على ذلك الجَانِب بينما «رُوح العَصْر» تَنْبِضُ بحركةٍ عِلْميّةٍ كَاسِحَةٍ، ونشاطٍ تِقنيٍّ مُهَيْمِن. لقد وَقَعَ «الخِطَابُ الثّقافيُّ العربيُّ» في مَأْزِقٍ مع عَصْرِه؛ ففي الوَقْتِ الــذي لا يَمْلِكُ فيــه أيَّ خياراتٍ تُذْكَــر، ولا يَمْتَلِكُ مفاتيــح التّأْثير على وَاقِعِــهِ ومُشْكلاتِهِ وتحدّياتِــهِ العالَميّة، فإنّــه يُكَابِرُ في عدم الانْصياع لقَواعِد «اللّعبــة المُعَاصِرَة» والالْتزام بضَوابِطِهَــا وتَأْمين المُتطلَّباتِ الدُّنْيــا لتَحْقيقِ «النّقْلَةِ النّوْعيّــة» المَنْشُودَة، ويَنْصَرِفُ - كالعــادة - نحــو ما يُتْقِنُ ويُجِيــدُ في الشَّكْوى والوَلْوَلَــةِ والتّمنّي والتّنْظيــرِ والانْغِمَاسِ في تَجَلِّيَاتِ «نظريّة المُؤامَرَة».

إنّ «الإشكَاليّــة الكُبْــرى» هــي فيما تُعانيه «الثّقافــة العربيّة» من انْفِصَــام بين وَاقِعِ حالِهــا وطبيعةِ عَصْرِهــا؛ إذْ وَضَعَتْ بينها وبين «الفِكْرِ العِلْميّ» حَاجِــزاً سميكاً، وصَنَعَتْ - بسبــب الرّهْبَــة أو الاسْتِعْلاء - فَجْوَةً بين تفاعُلاتِها وبيــن انْطلاقاتِ «الحركة العِلْميّة» ومُعْطياتِها، وهذا هــو «البُعْدُ الغَائِبُ» في «الثّقافة العربيّة». لقد خَرَجَ «العَقْلُ العربيُّ» من رَحِــم «القبيلة»، وبَقِيَ مُتَمَسِّــكاً بقِيَمِهَا وأنْسَاقِهَا بالرّغم ممّا نجدُه على السّاحة اليوم من «حَداثَةٍ» يَدَّعِيهَا، أو «تَديُّنٍ» يَزْعُمُه؛ وكما كَتَبْتُ في أكْثر من مقامٍ ومقالٍ[٥٢] إنّ «التّعصُّبَ» يَبْــرُزُ - فــي كُلِّ الأحْــوال - كخصيصــةٍ أساسٍ في تَكْويــن «العَقْــل العربــيّ»؛ فالتَّزَمُّتُ

الدِّينيّ، والتَّعَصُّبُ القوميّ، والتَّطَـرُّفُ المَذْهَبِيّ، والإقْصَاءُ الفِكْرِيّ، والتَّشَنُّجُ السِّياسيّ، والصَّرْعَـاتُ الحَدَاثِيّة، والانْفِلاتُ اللِّيبراليّ؛ كُلُّ ذلك ليس إلاّ امْتِدَاداتٌ لأَبْعَادِ «العصبيّة القَبَلِيّة» في مُحاولاتٍ بَائِسَةٍ للتَّأَقْلُمِ مع التّفاعُلاتِ الحياتيّة المُسْتَجِدَّة.

وهكـذا نجدُ أنّنا عندما نَتَحَدَّثُ عـن «العَقْلِ» ومُحَدِّدَاتِه فإنّنا - بالضّرورة - نَتَحَدَّثُ عن «الثّقافة»؛ فـ«البيئةُ الثّقافيّةُ» هي التي تُشَكِّلُ «العقْل»، وتُغَذِّي مُكَوِّناتِه، وتُوَطِّدُ دعائِمَه، وتُبَـرِّرُ أحْكَامَه، وتَصْنَعُ مُحَفِّزاته؛ وعند رُكُودِ «الثّقافـة»، أو انْعِدَام فَاعِليّتِهَا الاجْتماعيّة، فـإنّ «العَقْـلَ» يَرْكُدُ في المَنْطِقَـةِ ذاتها، ويَبْقَى حبيس مِساحاتِهـا وزواياها. تلك الحقيقة البدهيّـة، التي أَهْمَلَتْهَـا مُحاولاتُ «النّهْضَة» بشَتّى أشْكالِهـا ومدارِسِها، تُؤَكِّدُ أنْ لا مَخْرَجَ لهـذا «العَقْلِ» من أزْمَتِـه، ولا مَنْفَذَ من «العَجْزِ العربيّ» إلى رِحَـابِ العُنْفوانِ والإنْجاز، إلاّ عبْر تَأْسيس «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» مُشبعةً بنبْضِ العَصْر، ومُتفاعِلةً مع طيفِه الفِكْريّ المُهَيْمِنِ من علومٍ وتقْنيةٍ، ومُسْتَوعِبَةً لأبْعَادِ «الزَّمان» و«المكان» والقِيَمِ الجوهريّةِ الثّابِتَةِ لهذه الأُمّة.

ستَبْقَى «الثّقافةُ العربيّةُ» ثقافةً عَرْجَاءً، بَلْ مَشْلُولَةً لا تَقْوَى على الحَرَاك، ولا تَسْتطيعُ الدُّخُـولَ فـي حَلَبَةِ سِبَـاقِ «العَوْلَمَة» إذا لـم تَسْتَوعِبْ «الفِكْـرَ العِلميّ» وثقافتَـه؛ وستَبْقَى «الثّقافـةُ العربيّةُ» - في غِيَـابِ «الفِكْرِ العِلْمـيّ» وثقافتِه - أشْبه بالمَرْكَبَـةِ الفَاخِرَةِ التي نَفَـدَ وَقُودُهَا وتعطَّلتْ مُحَرِّكَاتُهَـا، وسنُطِلُّ على كُلِّ إنْجازاتِ الآخَرين بمُفْـرَدَاتٍ إنْشائيّةٍ تَطْـرَبُ لها الأَسْمَـاع، وببياناتٍ بلاغيّةٍ يتنافسُ فيها المُتَنافِسُـون، ولكنّها - على صعيد الفِعْلِ وأرْضيّةِ الوَاقِع - تُمَثِّلُ رصيداً مُتراكِماً من «العَجْزِ العربيّ».

٣-٣) حالة «الانْفصام» في «عمليّة التَّنْمية»:

إنّ المُواطِـنَ في «المُجْتمعـات العربيّة» يعيشُ على هَامِش تفاعُـلاتِ «التّنْمية» دون حماسٍ لتَحْقيـقِ أهْدافِها، والمُشارَكَـةِ في صِناعتِهـا، والوَعْي بخصائِصِهـا، ممّا يُؤَدِّي إلـى «حالة انْفِصَام» بينـه وبين «ديناميكيّـة التّنْمية»؛ فجُلُّ اسْتفادته منْهـا هي خِدَمَاتٌ وتَجْهيزاتٌ يتمّ تَأْمينُها عبْر اسْتيرادِ الآلات والمُعِدّات، واسْتِقْدام الخِبْراتِ والمهاراتِ من

وراء البِحَار، وما يَتَرَتَّبُ على ذلك من نَهَم مُتزايدٍ لاسْتِهْلاكِ مُعْطياتِ «الحياة العَصْريّة» دون تَأْسيسِ «البِنْية الإنْتاجيّة»، وتكونُ المُحَصِّلَةُ النّهائيّةُ هي تَفاقُم «الوَجْهِ الاسْتِهْلاكيّ» لـ«التّنْمية» واسْتِفْحَاله، بينما يَضْمَحِلُّ «الوَجْهُ الإنْتاجيّ» ويَتَوَارَى.

لقد احْتَلَّتْ «التّنْمية الاقْتصاديّة» مكان الصَّدارَةِ في طُرُوحَاتِ «المُجْتمعات النّامية» وخُططهم التّنْمَويّة وذلك على حِسَابِ جَوانِب «التّنْمية» الأُخْرى الاجْتماعيّة والسّياسيّة والثقافيّة، ويُمَثِّلُ ذلك أحد الأسْباب الجوهريّة في تَفَاقُم «إشْكَاليّة التّنْمية» واسْتِفْحَالِ أعْرَاضِهَا؛ ولذا فإنّ اهْتمامنا الرّئيس في هذا الكِتاب هو بَلْوَرَةُ القناعة التي تَعْتَبِرُ أنّ انْفِصَامَ «التّفاعُلات الثّقافيّة» عن «الشُّرُوطِ التّنْمَويّة» هو أبْرز أسْبَاب هذه «الإشْكَاليّة»، والمُعَوِّقُ الرّئيسُ لكُلِّ طُرُوحَاتِ «التّنْمية» وبرامِجِها بأوجهِها المُتَعَدِّدَةِ على الأصْعِدَةِ الاقْتصاديّة والسّياسيّة والاجْتماعيّة والتّعْليميّة والإعْلاميّة وغيرها.

إنّ «التّنْمية» حركةٌ فَاعِلَةٌ تَدِبُّ على الأرْض، وتَسْعَى إلى تَغْيِيرِ أنْمَاطِ الحياة، وتَهْتَمُّ بتَطْويرِ قُدْرات الإنْسان وتَأْمين احْتياجاته وتوفيرِ سُبُلِ الرّفاهية للمُجْتمع؛ ولذا فإنّها لا تَسْتطيعُ إلاّ أنْ تكون مُتفاعِلَةً مع الإنْسان، ومُتلاحِمَةً مع وعيه وإمْكاناته، فكما يقول أسامة عبد الرحمن: (لا يَكْفِي أنْ يكون «مَفْهُوم التّنْمية» وَاضِحاً في أذْهانِ صَانِعي القرارات، وإنّما يجب أنْ يكون «مَفْهُوم التّنْمية» وَاضِحاً في أذْهان مُنَفِّذِي القرارات وفي أذْهان القطاع الأكْبر من المُجْتمع. ولا يُغْنِي مُجَرَّدُ الوضوح وإنّما يجب أنْ يَصْحَبَ ذلك اقْتِنَاعٌ فِعْليٌّ والْتِزَامٌ أكيدٌ بـ«التّنْمية»، وسَعْيٌ دَؤُوبٌ لتَحْقيق مراميها وأهْدافِها)[١٢].

لا خِلاف بين المُهْتَمّين بدراسات «التّنْمية» في أنّ «العُنْصُرَ البشريّ» هو الأساس فيها، فكما ورد في «تَقْرير التّنْمية الإنْسانيّة العربيّة لعام ٢٠٠٢م»[١٥] فإنّ: (التّنْمية الإنْسانيّة هي تَنْمية النّاس، ومن أجل النّاس، ومن قِبَل النّاس، وإذا كان يَتَعَيَّنُ أنْ يكون النّاس هم مِحْوَرُ «التّنْمية» فلا بدَّ أنْ يكون لمُشارَكَةِ النّاس دَوْرٌ رئيسيٌّ في تطوُّرِها). من ذلك المُنْطلق فإنّ «التّنْمية البشريّة» تَتَطَلَّبُ تَكْوين قُدْراتٍ ومهاراتٍ، وتَحْفيزَ مُبادراتٍ وابْتكاراتٍ، وتَأْسيسَ قِيَمٍ إنْتاجيّةٍ وأخْلاقيّات عملٍ، وتوظيفَ كُلِّ ذلك توظيفاً فَاعِلاً بحيث

تَتَحَقَّـقُ مصـالِحُ المُجْتمع، وتَتَقَلَّصُ إشْكَالاتُه، وتَعُـمُّ المنـافِعُ على مُخْتلف الأصْعِدَة. ولأنّ الإنْسان يتحرَّكُ دَاخِلَ بيئَةٍ ثقافيّةٍ، ويتفاعلُ مع عنـاصِرها سَلْباً وإيجاباً؛ فتتحدَّدُ معاييرُه وقِيَمُه ومُمارَساتُه وأعْرافُه، فإنّ «مَفْهُوم توجيه الثّقافة»[٢٨]، الذي تَطَرَّقْنَا إليه في الفَصْل الثّانـي من هذا الكِتاب، يُصْبِحُ ذا أولويّةٍ مُهمّةٍ في اعْتباراتِ «التّنْمية» وتَأْصيلِ شُرُوطِهَا؛ فمن الوَاضِحِ أنّه إذا فقَدَتْ «الثّقافة» قُدْرَتَهَا على التّفاعُلِ مع عَصْرِها، وتَلْبيةِ احْتياجاتِ بيئتها، وصَوْغِ الرُّؤى لمُسْتَقْبَلٍ أفْضل لأجْيالِها، فإنّها تكون قد سَقَطَتْ في قَبْضَةِ التَّخَلُّف، وخَذَلَتْ مُجْتمعَها.

وهكـذا تُصْبِحُ قضيّةُ «الثّقافة» قضيّةً «جماهيريّةً»، وتَتَخَلَّصُ من قَدْرٍ كبيرٍ من تلك «الرُّؤيـة النُّخْبويّة» التـي اهْتَمَّتْ بحَصْرِ «الثّقافة» فـي ما أَسْمَتْهُ «الثّقافـة الرّفيعة» التي تُمارِسُهَا الأقليّةُ في فُنُونٍ جميلةٍ، وآدابٍ إنْسانيّةٍ، وأنْشطةٍ فِكْريّة تأمُّليّةٍ، وهنا تُصْبِحُ رُؤيةُ تومـاس إليوت مُهِمّةً عندما يقول: (بحسـب نَظْرتي لـ«الثّقافة» فإنّ على جميع السُّكان أنْ يَلْعَبُـوا دَوْراً فَاعِلاً في النّشاطات الثّقافيّـة، دون أنْ تَتَرَكَّزَ أدْوارُهم جميعاً في النّشاطات ذاتها أو على المُسْتوى ذاته)[٢٧].

إنّ الأساس الجوهريّ لبِنَاءِ «القُدْرَةِ التِّقنيّة»، وتَشْييدِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّة»، يَتَطَلَّبُ - في المقام الأوّل - عناصِرَ بشريّةً مُتَوائِمَةً مع هذه المُتطلَّبات، ومُتَكَيِّفَةً مع احْتياجاتها بحيث تتوافرُ لديها المهاراتُ والخِبْراتُ والمعارِفُ اللازِمة للبَحْثِ والتّطْويرِ والتّصْميمِ والتّصْنيعِ والإنْتـاج. وهـذه «العناصِرُ البشريّـةُ» هي جُمْلَةُ القُـوى العَامِلَةِ ذات الكفـاءاتِ والقُدْراتِ الإنْتاجيّة التي تَشْمَلُ الباحِثَ والعامِلَ والمُهندسَ والفنّيّ والعَالِمَ والمُديرَ والمُوظَّف، وهذا يَسْتَدْعِـي بيئَـةً دَاعِمَةً، وتَحْفيـزاً مُسْتمرّاً، ووَسَطاً فعّـالاً، لتكون «التّنْميـة» مَنْهَجاً يَنْطَلِقُ - دون انْفِصَـامٍ أو عَوائِـق - لتَعْتَنِقَـهُ كُلُّ شرائِح المُجْتمع، وتتفاعلَ معـه بحيويّةٍ، فتَنْتَشِرَ أصْـداؤه ومُعْطياتُـه لتَشْمَلَ كُلَّ المَنْظُومَـاتِ الاجْتماعيّة والثقافيّـة والإعْلاميّة والتّنْفيذيّة والتّخْطيطيّـة والتّشْريعيّة والتّعْليميّة وغيرها؛ وهذا يَتَطَلَّبُ توفير «الثّقافة المُلائِمَة» لتكون «الوَسَطَ» الـلازِمَ لتَحْريكِ «التّقْنية»، ونَقْلِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّـة»، وتَمْكينِ الآليّاتِ المطْلُوبة، وتَعْميقِ فِعْلِهَا، وتَطْويرِ عطائِها في مُجابَهَةٍ عمليّةٍ لـ«إشْكَاليّة التّنْمية».

٣-٣-١) قانون «التَّحدِّي والاسْتِجَابَة»:

لقد قام أرنولد توينبـي[٢٩] (Arnold Toynbee) بدراسة إحدى وعشرين حضارةً دِراسَــةً شَامِلَــةً ليَخْلُصَ إلى أنّ حركـة التّاريخ لا تَعْتَمِـدُ على البِيئـةِ الجُغْرافيّةِ ولا على الأعْـرَاق، وإنّمـا هـي نتيجةٌ لمَوْقِـفِ المُجْتمع إزاء مـا يُقابِلُهُ من تحدّيـاتٍ، وبذلك صاغ أرنولـد توينبي قانـون « التَّحـدِّي والاسْتِجَابَة» ليُقَـرِّرَ أنّ: (الاسْتِجَابَـة للتّحَدِّي هي التي تَصْنَعُ الحضارة)، وذلك على أساس أنّ نُموّ أيِّ حضارةٍ هو نتيجةٌ لاقْتِدَارِهَا على مُواجَهةِ «التَّحـدّي» الذي يَعْتَرِضُهَـا مُوَاجَهَةً إيجابيّةً فَاصِلَةً؛ وبالتّالي فـإنّ «الاسْتِجَابَة الإيجابيّة» للتَّحدّيَـاتِ التّنْمَويّـةِ القَائِمَةِ فـي العَالَمِ العربـيّ تُصْبِحُ ضرورةً لا مناص عنها لتَحْقيقِ الإنْجازاتِ التّنْمويّةِ والحضاريّة.

لقد ضَاعَتْ مثل تلك «الاسْتِجَابَة الإيجابيّة» في العَالَم العربيّ وسط الجَلَبَةِ الفِكْريّة، والاضْطِـرَابِ السّياسيّ، والبَذَخِ الكلامـيّ، والانْبِهَارِ المُتخاذِل، والاجْتِـرَارِ المُمِلّ، ولعلّ هـذا ما يَعْرِضُ إليـه بوضوحٍ محمد عابد الجابـريّ[١] حين يقول: (إذا كُنّـا نُعاني اليوم مـن كثيرٍ من مظاهِر الاسْتِلابِ إزاء الغَرْبِ فلأنّنـا نَأْخُذُ منه النّتائج والثّمرات، ونُعْرِضُ عـن المبادئ والأُسُـس: نَسْتَوْرِدُ منه لنَسْتَهْلِـك، وليس لنَغْرِسَ ونَسْتَنْبِـت. ومن دون شَكٍّ فـإنّ النَّجاحَ في عمليّةِ الغَرْسِ والاسْتِنْبَاتِ يَتَوَقَّفُ على إعْدادِ التُّرْبَـةِ الصّالِحَة، والتُّرْبَةُ الصّالِحَـةُ لا تُسْتَوْرَد. ولذلك قُلْنَـا، ونُكَرِّرُ القول، بإعادة كِتابةِ تاريخنـا الثّقافيّ بصُورةٍ عَقْلانيّـةٍ وبـرُوحٍ نَقْديّةٍ، لأنّـه من خلال مُمَارَسَـةِ العَقْلانيّـة النقْديّة في تُراثِنَـا نَكْتَسِبُ عَقْلانيّـةً أصيلةً وجديدةً، عَقْلانيّةٌ ستكـون هـي التُّرْبَة الصّالِحَة الغنيّـة والخِصْبَة، التي تَسْتطيعُ حَمْلَ مبادئ وأُسُسِ «العِلْم المُعَاصِر». وبطبيعة الحال فالتّعامُلُ النّقديّ العَقْلانيّ مع تُراثِنَا يَتَوَقَّفُ على مدى ما نُوَظِّفُهُ بنجاحٍ من المفاهيم والمناهِجِ العِلْميّةِ المُعَاصِرَة). وفي وَقْفَةٍ حَازِمَةٍ يَصِفُ محمد عابد الجابريّ طبيعة تلك «الاسْتِجَابَة الإيجابيّة» المَطْلُوبة للتَّصدّي للتّحَدّي القائِمِ فيقول: (ولذلك كان من الضّروري لنا، سَواءً من أجل حَلِّ مشاكِلِ ماضينـا في وَعْينا أو من أجل بِنَـاءِ مُسْتقبلنا الثّقافيّ، العملُ على نَشْـرِ «الثّقافة العِلْميّة

والفَلْسفيّـةِ» وتَكْريسِ أساليبِ «البَحْـثِ العِلْميّ» ومناهِجِه، نظريّـاً ومُمَارَسَةً، في ساحتِنا الثقافيّـة الرّاهِنة. إنّــه الشَّرْطُ الضّروريّ لتَدْشينِ عَصْر تَدْوينٍ جديـدٍ يُؤَسِّسُ المُسْتَقْبَل بما يَسْتَجيبُ لمُتطلَّباتِه ويَفي بحاجاتِه).

تقودُنا هذه المضامينُ إلى تلك «الثَّوْرَةِ الفِكْريّة» التي أشار إليها زكي نجيب محمود فـي أكْثـر من مقامٍ ومقالٍ، وهي الثّوْرَةُ القادِرَةُ على تَأْميـنِ «المُنَاخِ الفِكْريّ العامّ»، حيث خَلَصَ - مـن وَاقِعِ قِرَاءَتِـهِ للتّاريخِ والوَاقِعِ - إلـى القول: (وعقيدتي هي أنّ ثـوْرَةً فِكْرية كهـذه لم تَحْدُثْ لنا خلال هذا القـرْنِ كلّه، برغْم التّغيُّراتِ الكثيـرة والهامّة التي طَرَأَتْ علـى صُورةِ الحياة، وذلك لأنّ النّمَـطَ الفِكْريَّ القديمَ باقٍ كما كان دائماً، والعجيبُ الذي يُلْفِتُ النَّظَرَ هو أنّ الفَجْوَةَ الكَائِنَةَ بين ذلك النّمَطِ الفِكْريّ من جِهَةٍ، وتَفْصيلاتِ الحياةِ الجديدةِ من جِهَةٍ أُخْرى، لا تُحْدِثُ فينا شيئاً من القَلَقِ أو التَّوتُّر، الذي لو حَدَثَ، لحَفَّزَنَا إلـى سَدِّ الفَجْـوَةِ بالمُلاءَمَةِ بين المبـادئ العامّة وتَفْصيلاتِ الحيـاة العمليّة)[٢٧]. ولعلّ الحقيقـة الرّابِضَـة على وَاقِعِ «الثّقافـة العربيّة» فـي «الألْفيّة الثّالثة» تَدْعُـو إلى العجب؛ فهـي ذات الحقيقة التي عَبَّرَ عنها زكي نجيب محمود في مُنْتَصَفِ القَرْنِ الماضي، لنجدَ أنّ «الفَجْـوَةَ المَعْرفيّـة» المُسْتَفْحِلَةَ و«الهُـوّةَ الحضاريّة» المُتَفَاقِمَةَ بيننـا وبين الآخرين فَشِلَتَـا مَرَّةً أُخْرى في اسْتِفْزَازِ «القَلَـقِ» و«التَّوتُّرِ» اللذين أشار إليهما كمُحَفِّزاتٍ لسَدِّ تلك «الفَجْـوَةِ» وتَقْليصِ تلك «الهُـوّة»؛ وبالتّالي لم تكنْ «الاسْتِجَابَةُ» بحَجْـمِ «التَّحَدِّي»؛ أيْ أنّ «تَرْكيبة الثّقافة العربيّة» لم تَخْضَعْ لقانون «التَّحَدِّي والاستِجَابَة».

يقودُنـا هذا الأَمْرُ - مَرّةً أُخْـرَى - إلى «مَفْهُوم توجيه الثّقافـة»[٢٨] (انْظر: الفَصْل الثّانـي) الذي يَهْتَمُّ بإعادة تَرْكيبِ «عناصِر الثّقافة»، ومُراجَعَةِ مُقَوِّمَاتِها، ووَضْعِ الخُطَطِ المُلائِمَـةِ لتَطْويرِهـا وتَصْحيـحِ مساراتِهـا، لتتحقَّـقَ «الفَاعِليّـةُ الاجْتماعيّـةُ» التي هي الوظيفةُ المَطْلُوبَةُ لـ«الثّقافة» بحيث تَسْتطيعُ أنْ تُواكِبَ المُسْتَجِدَّاتِ والمُتَغيِّرات، وتَلْتَصِقَ باحْتياجـاتِ المُجْتمع، وتُوَجِّهَ الفَرْدَ والجماعة نحو الحُلُولِ الشّافِية. وتَحْتَلُّ قضيّةُ «توجيه الثّقافـة» مَوْقِعاً مُهِمّاً في رُؤْيةِ محمد عابد الجابريّ لحَـلِّ «إشْكَاليّة الأصَالَة والمُعَاصَرَة» حيـث يـرى: (إنّ المَسْأَلَةَ هنـا ليستْ مَسْأَلَةَ إحْـلالِ الماضي محلّ الحاضِـر، أو القديم

محلّ الجديد، بَلْ هي إعادةُ بِنْيَةِ الوَعْي بالماضي والحاضِر والعَلاقَة بينهما، وهي عمليّةٌ تَتَطَلَّبُ التّخْطيطَ في آنٍ واحِدٍ لثقافة الماضي وثقافة المُسْتَقْبَل: «التّخْطيطُ لثقافةِ الماضي» مَعْنَاهُ إعادة كِتابةِ تاريخِها، وبالتّالي إعادة تَأْسيسِها في وعينا وإعادة بِنائِها كتُرَاثٍ لنا نَحْتويه بدل أنْ يَحْتوينا. أمّا «التَّخْطيطُ لثقافة المُسْتَقْبَل» فمَعْنَاهُ توفير شُرُوطِ المُواكَبَةِ والمُشَارَكَة: مُواكَبَةُ الفِكْرِ المُعَاصِرِ والمُشَارَكَةُ في إغْنائِه وتوجيهِه، وذلك هو مَعْنَى «المُعَاصَرَة»)[1].

يقودُنا هذا التّحْليل الذي يَسْتَنِدُ إلى خصائِص المَرْحلة ووَاقِع المُجْتمع، ويَنْطَلِقُ من اعْتبار عُنْصُرَيْن، هما: «المَنْطِق العمليّ» و«الصِّناعة»، اللذين جعلهما مالك بن نبيّ[28] عُنْصُرَيْن جَوْهَرِيَّيْن في «التَّرْكيب العَامّ للثّقافة» (انْظر: الفَصْل الثّاني)؛ أقول: يقودُنا هذا التّحْليلُ - بالضّرورة - إلى مَفْهُوم «الثّقافة التّنْمَويّة» وتَأْصيله وتَفْعيله. وقبل أنْ نَتَعَرَّفَ على أهَمِّ سِمَاتِ هذه «الثّقافة التّنْمَويّة»، فإنّه من المُهِمّ أنْ نُحَدِّدَ أبْرز أسْبَابِ قُصُورِ «الثّقافة العربيّة» السّائِدَة، وعَجْزِهَا عن تَحْقيقِ «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة» المُعَاصِرَة، وبالتّالي إخْفَاق «المُثقّف العربيّ» في الإسْهَامِ في «عمليّة التّنْمية» بمفاهِيمِها المُعَاصِرَةِ ومَلامِحِهَا المَعْرِفيّة.

٣-٤) «الثّقافة العربيّة»: مَلامِحُ الأزْمَة:

إنّ أبْرز سِمَاتِ «الثّقافة العربيّة» أنّها ثقافةٌ أدبيّةٌ ذات نَزْعَةٍ خَطَابيّةٍ تَمْتَدُّ جُذُورها عبْر قُرُونٍ من التَّمَيُّز البلاغيّ والتَّفَاخُر اللّغويّ، حيث تُهَيْمِنُ الزّخَارِفُ اللفْظيّة والطُّرُوحاتُ الإنْشائيّة والتَّفاعُلاتُ الوِجْدانيّة، وتَتَقَلَّصُ مِساحةُ الفِكْرِ والتَّمْحيص العَقْلانيّ، وتَنْحَسِرُ - أو تَنْعَدِمُ - آليّاتُ العملِ والتّدْقيقِ والتّقْييم والمُتابعة، لتُصْبِحَ «الذّاتُ العربيّةُ» كما وَصَفَهَا عبد الله الغذّامي: (كَائِناً شِعْرِيّاً تَسْكُنُ الشِّعْر، ولا تَتَحَرَّكُ إلاّ حسب المَعْنَى الشِّعْرِيّ الذي تَطْرَبُ له غير عَابِئَةٍ بالحقيقة)[49].

وهكذا يَنْشَأُ الصّبيّ فينا مُسْتَسْلِماً لأُسْلُوبِ الحِفْظِ والرّواية، ويَتَغَذّى خيالُه على صُوَرٍ عَاطِفيّةٍ وحماسيّةٍ وجماليّةٍ سِلاحُها الكلمـاتُ الرّنّانة، والإنْشائيّاتُ البليغة، والطُّرُوحاتُ الفَضْفَاضَـة، والمُحَسِّنَاتُ اللفظيّة من طِبَاقٍ واسْتِعَارَةٍ وجِنَاسٍ وتَوْرِيَةٍ؛ فيَنْمُو على سَجيّةٍ أدبيّةٍ خَالِصَةٍ، فإذا اصْطَدَمَ بضروراتِ «الفِكْر العِلْميّ» من مُعْطياتٍ عِلْميّةٍ مُنْضَبِطَةٍ ودِقّةٍ تَجْريبيّـةٍ صَارِمَةٍ، كان الحماسُ ضعيفاً، والتّحَدّي صَعْباً، والاسْتِمْـرَارُ مُعْضِلَةً. ولا نُبَالِغُ إذا قُلْنَـا إنّ في دَاخِلِ كُلِّ عربـيٍّ طِفْلاً أديباً يَتُوقُ إلى النُّموّ والبُـرُوز، ويَطْمَحُ إلى التّعْبير عـن ذاته؛ ولذا كان بيننا المُهندسُ الصّحفيّ، والطّبيـبُ الشّاعِر، والجيولوجيُّ الرّوائي، والكيميائـيُّ الأديب، ممّا يُوَضِّحُ أنّ نسيج «الفِكْر الأدبيّ» يُغَلِّفُ حياة كُلٍّ منّا من قِمّةِ رَأْسِهِ إلـى أخْمَصِ قَدَمَيْـه. وإذا كان «الأدبُ» هو القِوام الذي تَمَثَّلَتْ فيه «الثّقافة العربيّة»، فإنّ السّياسـة وصِراعـات السُّلْطَةِ كانتْ وراء توظيف ذلك القِـوام، وتَكْثيف نسيجه الدّاخِليّ؛ وبالتّالي وَقَعَتْ «الثّقافةُ العربيّةُ» في أَزْمَةٍ مُسْتديمةٍ يرى فيها محمد عابد الجابريّ «أَزْمَةَ الفِكْـرِ العربيّ المُعَاصِـر» ويَصِفُهَا بقوله: (إنّهـا أَزْمَةُ ثقافةٍ ارْتَبَطَتْ منـذ بِداية تَشَكُّلِهَا بالسِّياسـة، فكانـتْ السِّياسةُ فيهـا، لا العِلْم، هـي العُنْصُـر المُحَرِّك ممّا جعلهـا تَخْضَعُ باسْتمرارٍ لتقلُّباتِ السِّياسة، وتتأثَّرُ بنجاحِها وإخْفاقِها، وتَنْحَطُّ بانْحِطَاطِهَا) [1].

وأمّـا في العُقُـود الأخيرة من القَرْنِ الماضي، فقد بَـرَزَتْ أُطْروحاتٌ نَقْدِيّةٌ تَفْحَصُ مُنْطلقاتِ «الثّقافة العربيّة»، وتُمَحِّصُ مَرْجِعِيّاتِهَا، وتَتَلَمَّسُ آثارَها، ولنتوقَّفْ - على سبيل المِثـال - أمام وَقْفَةِ حسن صعب حيـن يقول: (نَدْعُو العَقْلَ العربـيّ للتَّحَوُّلِ من «صِنَاعَةِ الكلمـات» إلى «صِنَاعَـةِ الأشْياء»، ومـن اجْتِرَارِ المَنْظُومَـاتِ والأراجيزِ إلـى نَظْمِ الفِكْرِ والحياة، بَلْ نَظْمِ الكَوْنِ نَظْماً إبْداعيّاً جديداً) [52]. ويُكَرِّسُ عبد الله الغذّامي هذه الحقيقة فيقول: (الشَّخْصيّةُ الشِّعْرِيّةُ نَسَقٌ ثقافيٌّ مُتَرَسِّخٌ ومُتَعَزِّزٌ فينا، ونحن نُعيدُ تَرْسيخه وتَعْزيزه عبْر تَمَثُّلِهِ في الخِطَابِ وفي السُّلُوك، وهو ما يَصْبِغُ ويُمَيِّزُ نَسَقَنَا المُهَيْمِن، ويُؤَثِّرُ على كُلِّ مجالاتِنـا العَاطِفيّة أوّلاً ثـم العَقْليّة خُضُوعاً لذلك واسْتِسْلاماً لـه) [49]. أمّا عبد الحميد أبـو سليمان [26] فيقول: (لقد ضَيَّعَ المُسْلِمون وضَيَّعَ العَقْلُ المُسْلِمُ الكثير من طاقاته عبْر التّاريخ، حين سُمِحَ لهذا العَقْل بأنْ يخوض في الغيبيّات والإلهيّات والسّفْسطات الفلْسفيّة

التـي تَتَعَلَّقُ بالكُلِّيـاتِ الرَّبّانِيّة على غير ما تَقْضِي به الرُّؤيـةُ الإسْلاميّةُ وإطارُها الفِكْرِيّ والمَنْهَجـيّ). أمّا تلك «الرُّؤية الإسْلاميّة» التي فَقَدَهَـا المُسْلِمون منذ زمنٍ بعيدٍ، وتَرَتَّبَ عليهـا هذا الوَاقِعُ المُزْرِي، فإنّ أبا سليمان يُبَيِّنُهَا بقَوله: (الرُّؤية الإسْلاميّة القويمة التي يتكاملُ فيها الوحي والعَقْل والكَوْن، ويُصْرَفُ فيها العَقْلُ المُسْلِمُ إلى النَّظَرِ والتَّدَبُّرِ والعملِ في عَالَـمِ الشّهادة وشُؤونه كما يُوَجِّهُهُ الوحي، هي الرُّؤيةُ التي مَكَّنَتْ للسَّلَفِ الأوّل ناصية الإبْـداع، وفتحتْ أمام العَقْلِ المُسْلِـمِ أبْواب التَّجْريبِ والنَّظَـرِ والتّنْقيبِ في سُنَنِ الحياةِ والكائِنـات، وفتحتْ للإنْسانيّة آفاقاً جديدة في مجال الحضارة، كانتْ هي الأساس الذي أقامتْ الحضـارة الحديثة عليه مَنْهَجَهَا العِلْميّ التّجْريبيّ، وإنْجازاتها المادِّيّة التّجْريبيّة التي لم تَعْرِفْ لها الإنْسانيّة من قبل سبيلاً ولا مثيلاً). وتَتَأَكَّدُ مُقَوِّمَاتُ «الثّقافة العربيّة»، وتَتَوَطَّـدُ عناصِرُهـا الأبْرز، فـي النّصيحة التـي أَسْدَاهَا عبد الحميد الكاتـب في القَرْنِ الثّانـي الهجْريّ إلـى جَمْهَرَةِ الكُتَّاب حيث قـال: (فتنافَسُوا يا مَعْشَـرَ الكُتَّابِ في صُنُوفِ الآداب، وتَفَقَّهُـوا فـي الدِّين، وابْدؤوا بعِلْم كِتاب الله والفرائِض، ثـمّ العربيّة فإنّها ثِقَافُ ألْسنتكـم، ثمّ أجيدُوا الخطّ فإنّه حِلْيَةُ كُتُبِكُـم، وارووا الأشْعَارَ واعْرِفُوا غريبَها ومعانيها، وأيامَ العربِ وأحاديثَها وسِيَرَهَا، فإنّ ذلك مُعِينٌ لكم على ما تَسْمُو إليه هِمَمُكُم)[١٨]؛ وأمّا الاهْتِمَامُ بـ«العِلْم الطّبيعيّ» و«التَّفَكُّرُ في سُنَنِ الكَوْن» فلم يَحْظيا في تلك «الرُّؤية الثّقافيّة» بمكانٍ مهما صَغُرَ شَأْنُه!.

٣-٤-١) «الثّقافة العَوْراء» تحت الحِصَار:

أمـــام انْدِفَاعِ «الكلمة العربيّة»، وهي تتهـادى ببلاغتِها وفصاحتِها، وتَحْمِلُ مجازَها وبديعَهـا، وتَتَأَلَّـقُ بمُحَسِّنَاتِهَا اللّفْظيّـة وجزالتِها النّثْريّة، وتُحَلِّقُ مـع موسيقاها الشِّعْريّة وخيالِهـا الخِصْب؛ أقول: أمام ذلك الانْدِفَاعِ الجَامِـحِ فَقَدَتْ «الكلمةُ» معانيها، وأَصْبَحَتْ تَعْنِـي أيَّ شـيءٍ وكُلَّ شيءٍ، وخَضَعَتْ لأغْراضِ أصْحابِها الضّيّقـة وحِساباتِهم المَحْدُودة، وراحَـتْ تَرْتَـعُ في رِحَابِ الفَخْـرِ والنَّرْجسيّةِ دون ضَابِطٍ، وتَنْتَقِلُ بيـن المديح الذي يُكالُ كَيـلاً دون حِسَابٍ، وبيـن الهِجَاءِ الذي تَعَـدَّدَتْ فُنُونُهُ وصُنُوفُه، وفـي أغْلب الحالات كان

أصْحابُها يَنْأون عن النّقْد الموضوعيّ، والاعْتدال العَقْلانيّ، والتّحْليل النّزيه. وهكذا نَجِدُ أنّنــا نتصــدّى لخَلَلٍ ثقافيٍّ بُنْيويٍّ، ولقــد سَبَقَ أنْ عَبَّرْتُ(٥٤) عن هذا الخَلَـلِ البَيِّنِ بوَصْفِ «الثّقافــة العربيّــة» الرّاهِنَــةِ بأنّها «ثقافةٌ عَــوْرَاءُ» تُبْصِــرُ بعَيْنٍ وَاحِدَةٍ فقــط، هي «عَيْنُ الأدب والإنْشائيّــات والخَطَابَة»، وأمّا ذلك الشّيء الذي مَلأ الدُّنيا، وشَغَلَ النّاس، وأَحْدَثَ الانْقلاباتِ الكُبْرى في حياةِ البشر وتطوُّرِها وفِكْرِها، وهو «العِلْمُ الطَّبيعيُّ»، فإنّه «القضيّةُ الغَائِبَةُ» في اهْتِماماتِ ثقافتنا، ومُدَاوَلاتِ مُفكِّرينا، وتفاعُلاتِ مُجْتمعنا.

وقبــل أنْ نَدْلِفَ إلى التّفاصيــل، فإنّه من المُهِمّ أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ الخصائِص البليغة في «لُغَــةِ القُــرْآن» تَحْمِلُ - بالضّرورة - أبْعــاداً إيجابيّة يَنْتَشِرُ عَبَقُهَا علــى مُخْتلف المُسْتويات الفِكْريّــة والعِلْميّــة والنّفسيّة والوِجْدانيّة والإدْراكيّــة، فهي تُضْفي على الفِكْــرِ عُمْقاً، وعلى النُّطْــقِ بهاءً، وعلى العطاءِ سُمُوّاً، وعلى العِلْــم رَحَابَةً، أو هكذا كان يَنْبَغِي أنْ يكون الحال!. وأمّا حالُ «الإنْسان العربيّ» إزاء لُغَتِه الفريدة، فهو كحاله إزاء كُلِّ ما أَنْعَمَ الله به عليه من مَــوارِد فِكْريــةٍ ومادِّيّةٍ ووِجْدانيّة؛ فقد أَفْلَحَ «الإنْسان العربــيّ» - عبْر أزْمنةٍ رديئةٍ مُتواليةٍ - فــي أنْ يَجْعَــلَ من إيجابيّاتِ لُغَتِه سَلْبيّــاتٍ، ويُشَوِّهَ الأدواتِ لتحيد عــن مقاصِدِها، ويُطَوِّعَ المعانــي لنظــراتٍ أنانيّةٍ قَاصِرَةٍ، ويَطْرَحَ فِكْــراً ضَحْلاً في جِلْبَابٍ وَاسِــعٍ يَضِجُّ بالكلماتِ الرّنّانــة والأساليــبِ المُنَمَّقَــة، وأَصْبَحَ الحالُ كمــا يقول عبد الله الغذّامــي: (جرى فِعْلاً تَجْريــد اللغة من دَوْرِهَا في الفِعْلِ والعمل، وكأن قد صارتْ لُغَةً غير فَاعِلَةٍ ولا تَدْفَعُ للعمل، لُغَــةً غير وظيفيّةٍ وغيــر فِعْليّةٍ، بعد أنْ تَشَبَّعَتْ بالشِّعْريّــةِ المُفْرِطَةِ والبلاغيّةِ غير العمليّة وغير المُلْتزِمَةِ بشُرُوطِ المَعْقوليّةِ والوَاقِعِ مذْ كان الشِّعْرُ غير مَعْنيٍّ بهما)(٤٩).

لقد وَقَعَتْ «الكلمة العربيّة» - في رأْيي(٥٥) - تحت حِصَارِ «ثقافتَيْن»؛ إحْداهما ثقافةُ (أَعْطِــهِ أَلْف دينارٍ يا غُــلام)؛ وهــي ثقافةٌ نَمَــتْ وتَرَعْرَعَتْ عبْر قُرُونٍ مــن المُمَارَسَاتِ السُّلْطَويّة والاسْتِبْدَاد، ومَنْهَجِ زَرْعِ الولاء عبْر الأُعْطيات والمِنَح، فتدافع الشُّعَراء والخُطباء والمُفَوَّهــون وأصْحاب الحاجات من شَتّى الفِئات والفُنُون أمام أبْواب السُّلْطَة، ولَحِقَ بهم الإعْلاميّــون والمُثقّفون - من شَتّــى الأطْياف - في عَصْرِ الوسائِــل الإعْلاميّة الحديثة. وأمّا ثاني «الثّقافَتَيْن» فهي ثقافةُ (أرى رؤوساً قد أَيْنَعَتْ وحان قِطَافُهَا)، وهي ثقافةٌ نَمَتْ

في ظُرُوفِ الاسْتِبْدَادِ ذاتها ومَنْهَجِ الغَلَبَةِ نفسه فأخذتْ - بعد الخِلافَة الرّاشِدَة - تتَغَلْغَلُ فـي نسيج «المُجْتمعات العربيّة»، وتتداخلُ مع تفاعُلاتهـا، وتَسْتَرْجِعُ «حَميَّتَهَا الجَاهِليّة»، وتَقْمَعُ «الكلمة الحُرَّة» و«الإبْداع الأصيل» بحَواجِز الرَّهْبَة والخَوْف.

أمّـا عـن «ثقافة الفَخْـر»، فحَـدِّثْ ولا حَـرَج[56]، وكأنّ «الإنْسان العربـيّ» أَدْرَكَ أنّ طريقتـه الوحيدة لتَعْويض ما لَحِقَ به من «الدَّمَارِ النَّفْسيّ» بسبب «ثقافة الاسْتِجْدَاء» من ناحيـةٍ، و«ثقافـة القَمْع» مـن ناحيةٍ أُخْرى، هـو أنْ يَرْتَمِي في أحْضان تيـاراتٍ عَارِمَةٍ من «النَّرْجسيّـة المُتَوَرِّمَة»؛ فكلماتُه طَغَتْ على أبْـرع أدوات الطِّبّ، فهي التي جعلتْ (الأعْمى يَنْظُـرُ إلى أدبه)، وهي ذاتها التي (أَسْمَعَتْ من به صَمَـمُ)، ورضيعُه يَتَفَوَّقُ ويُهَيْمِنُ حتّى (تَخِـرُّ له الجَبَابِـرُ سَاجِدِينا)، وهو يَتَنَعَّمُ بـكُلِّ الخيرات وغيره يَشْـرَبُ (كَدَراً وطِينا)، وهـو مَرْكَزُ الكَـوْنِ، فإذا مات ظَمْآناً (فلا نَزَلَ القَطْرُ)!. ولعـلّ تلك «النَّرْجسيّة» هي التي جَعَلَتْـهُ - عبْـر حِقَبٍ طويلةٍ - يـرى في الاسْتِبْـدَادِ ضرورةً، وفـي غِيَابِ المُسْتَبِـدّ أَزْمَةً، فرسخـتْ على تضاريســه ازْدواجيّاتٌ بغيضـةٌ[52]؛ منْها أنّـه يَلْعَنُ الظَّـلامَ والاسْتِبْدَادَ، بينمـا لا يَتَرَدَّدُ في البُكَاءِ عليهما وتَمْجيدِهما إذا تَمَلَّكَتْهُ العَاطِفَةُ، وكأنّه يرى في المُسْتَبِدّ انْعكاســاً لذاته وتَكْريساً لوجـوده؛ ومنْها أنّه لم يُفْلِحْ في أنْ يَجْعَـلَ للفَرْد قِيمةً أساساً في «التّرْكيبـة الاجْتماعيّـة» إلاّ أنّه لا يَتَرَدَّدُ في لحْظة انْفعالٍ أنْ يَجْعَـلَ «الفَرْد المُسْتَبِدّ» فوق الوطن ويَصْرُخَ مع الصَّارِخين: (بالرُّوح، بالدَّم، نَفْدِيك يا زعيم)!. لقد انْصَرَفَ «العَقْلُ العربـيُّ» في «زمن الجاهليّـة الأولى» إلى صِنَاعَـةِ الأصْنام وعبادتِهـا، ومنْها ما كان من التَّمْـرِ فإذا جاعوا أكلوها، ولكنّه في رُمُوزِهِ المُعَاصِـرَةِ لا يرى غَضَاضَةً في أنْ تَلْتَهِمَ تلك الرُّمُوزُ عافيته ومُقَدَّرَاته ومُسْتقبل أجْياله، وهو يَقِفُ مُصَفِّقاً ومُنْشِداً وحَادِياً لحماقاتِها، ومُتَباكِياً عليها عند سُقُوطِهَا.

٣-٤-٢) دِيوان العرب: «حالةُ انْفِعَالِيّة»:

إنّ «الشِّعْـر» هو «دِيوانُ العرب»[49]، فوجد الوَاقِـعُ العربيّ في «الكلمة» سِلاحَه، وفي «الخيـال» ساحتَه، ليكون «الوجود الثّقافيّ» المُهَيْمِنُ عِبارَةً عـن «حالةٍ انْفِعَالِيّةٍ» تَسْتَوْعِبُ

كُلَّ المُتناقِضــات، وتُحَقِّقُ كُلَّ المُتطلَّبــات؛ فهَيْمَنَتْ الرّغْبَةُ الجَارِفَــةُ في تَحْقيقِ الأحْلام بمُجَــرَّدِ التّمنّي، وتَشْييدِ صُرُوحِ الإنْجازِ على انْفِعَالات اللّحْظة، والانْطِلاقِ نحو المُسْتَقْبَل بخيــالٍ خِصْبٍ، وجِدالٍ مُحْتَدِمٍ، وأمانيّ عِرَاضٍ، في اعْتِقَادٍ وَاهِمٍ بأنّ ذلك يُغْنِي عن آلامِ التّخْطيــط، ومَخَاضِ التّمْحيص، وضُرُوبِ المُسَاءَلَة، وأَرَقِ المُتَابَعَة. وأمّا الأَسْوأُ من ذلك كُلِّــه فهو أنّ «الفِكْر» ذاته أَصْبَحَ خَالياً من المعاييــر المُنْضَبِطَة؛ لأنّ «الشِّعْرَ» هو النَّمُوذَجُ الأَسَاسُ الذي تُقَاسُ عليه الأَشْياء، وكما يقول عبد الله الغذّامي: (ومن دَاخِلِ هذا الفَرَاغ، الــذي أهمّ سِمَاتِــه اللافَاعِليّة واللاعَقْلانيّــة، يَتَسَلَّلُ للثّقافة سَادَةٌ مــن الأَشْبَاحِ الثّقافيّة يَحْتَلّون الفضاء الخياليّ والمجازيّ للأُمّة ويَصْنعون نماذجنا العُلْيا، دون أنْ نُدْرِكَ زيفها واهْتراءهــا)[٤٩]. وهكذا أَصْبَحَتْ «صِنَاعَةُ الكلام» هي المَطْلــب والمُبْتغى، وهي المُنْجِد والمُنْقِــذ، وهــي المَانِحَة للوَجَاهَة والثَّرَاء، وهي الطّريق إلى قُلُــوب أَصْحَابِ القرار، وهي المَنْفَذ إلى وِجْدان العامّة، وليأتِ بعد ذلك الطُّوفان!.

ولأنّ «اللّغة» ليستْ فقط وسيلة تَخَاطُبٍ وتَوَاصُلٍ بين النّاس، ولكنّهــا- أيضاً - «وِعَاءُ الفِكْر»، وهي النّظامُ الأساسُ الذي يَسْتخدمه الإنْسان في التّنْظير والتّحْليل والاسْتنباط، فــإنّ ابْتعاد «المَلَكَة اللّغويّة» عن ضَوابِطِ «المَلَكَــة العَقْليّة»، وتَمرُّدِ «الكلمة» على الشُّرُوطِ العمليّــة والمُتطلَّبات الوَاقِعيّة، أَدَّيَا - بالضّرورة - إلى سُوءِ تَقْديرٍ في «المُقَدِّمَات»، وخَلَلٍ فَادِحٍ في «الاسْتِعْدَادَات»، وكَوارِث فــي «النَّتَائِج» على مُخْتلف الأَصْعِدَة[٥٦]. كُلُّ طُرُوحَاتِنَا عن «الثّقافة» وهُمُومِهَا وغاياتِها لا تتجاوزُ تلك الاهْتمامات التّقْليديّة في مجالات السِّياسة ومُنَاوَرَاتها، والأدب وصُنُوفه، والفَنّ وتفرُّعاته، وتَنْحَصِرُ فــي إنْشائيّاتٍ ومُدَاوَلاتٍ تَلْتَفُّ حــول ذاتها، وإنْ حــاول بعْضُها أنْ يَتَدَثَّــرَ بمُصْطلحاتٍ حديثةٍ، ولكن شيئاً مــا لم يَتَغَيَّرْ؛ فـ«الثّقافــة العربيّــة» - في مَضْمُونِهَــا العامّ وأُطُرِهَــا السّائِدَة - بَقِيَــتْ مُحَاصَرَةً تُرَاوِحُ مكانهــا بشَكْلِهَا «الاجْتِــراريّ» بمَنْأىً عن مُشْكلاتِ «المُجْتمع الحديــث» وقضاياه التّنْمَويّة وتحدّياتِــه المَعْرفيّــة. وأمّا المتاهات التــي دَلَفَتْ إليهــا «الثّقافة العربيّة» فقــد أَصْبَحَتْ كـ«متاهــة الفئــران» حيث تَلُــفُّ وتَدُورُ حول نفْسهــا لتعود - بعد جُهْدٍ جهيــدٍ - إلى «نُقْطَةِ البِدايــة». تلك الحقيقة الشّاخِصَة للعِيــان يُؤَكِّدُهَا محمد عابد الجابريّ فيقول: (التّاريخ

الثّقافيّ العربيّ السّائِد الآن هو في مُجْمَلِه مُجَرَّد اجْتِرارٍ وتَكْرارٍ وإعادة إنْتاج، بشَكْلٍ رديءٍ، للتّاريخ الثّقافيّ نفْسه الذي كتبه أجدادنا تحت ضَغْطِ صِراعات العُصُور التي عاشوا فيها وفي حُدُودِ الإمْكانات العِلْميّة والمَنْهَجيّة التي كانتْ مُتَوافِرَةً عندهم)[1].

وهكذا بوَقْفَةٍ صريحةٍ مع الذّات، ونحن نُحَلِّلُ أوضاعَ تَعْليمنا وإعْلامنا وفِكْرنا وثقافتنا، نَجِدُ أنّنا في حَاجَةٍ إلى جُهُودٍ جبّارةٍ تَتَواءَمُ مع زمنِها، وتَسْتَوْعِبُ تحدّياتِه، لتَصْبِغَ «الكلمة العربيّة» بلَونٍ حيويٍّ مُؤثِّرٍ يَحْمِلُ نَبْضَ عَصْرِه، ويُواجِهُ إشْكالاتِه، ويَتَعَلَّمُ مُفْرَدَاتِه، ويتفاعَلُ مع مُصْطلحاتِه. ومن الوَاضِح أنّنا لم نَصِلْ بعْد إلى تلك «النُّقْطَة الحَرِجَة» التي تُؤَهِّلُنَا لاسْتيعابِ حقيقة «الأَلْفيّة الثّالثة» وتحدّياتها، ولم نَقْتَنِعْ بعْد بأنّ الاحْتِفَاءَ بـ«الأدب» ليس هو الاحْتِفَاء بـ«الثّقافة»، ولكنّه احْتِفَاءٌ بجُزْءٍ من «الثّقافة المُعَاصِرَة»، وهو - دون شَكٍّ - ليس الجُزْءَ الأهَمَّ في عَصْرِ «انْفِجَار المَعْلُومَات».

٣-٤-٣) طبيعة «الأَزْمَةِ الثّقافيّة»:

تَتَجَلّى طبيعةُ «الأَزْمَةِ الثّقافيّة» - في المُجْتمعات العربيّة - في أنّها لا زالتْ تعيشُ هَاجِسَ الماضي المُهَيْمِن بشِعْرِه ونَثْرِه وسَجْعِه ومُسَامَرَاتِه، ولم تُدْرِكْ بعد أنّه قد آن الأوان لفَهْمِ ما يدورُ حولها من تحوُّلاتٍ كُبْرى، وتَشْخيصِ ما يُؤَثِّرُ في مُجْتمعاتِها من قُوىً مُعَاصِرَةٍ، واسْتيعابِ ما يتصدّى لأجْيالِها من تحدّياتٍ مَعْرِفيّة؛ ومن ثَمّ يَنْبَغي عليها أنْ تَسْعى - بجِدّيّةٍ - إلى إعادةِ صِياغَةِ الأولويّات، ومُرَاجَعَةِ الطُّرُوحات، وتَحْليلِ الأنْساق؛ لتتمكَّنَ من بَلْوَرَةِ «الآليّات» القادِرَةِ على «تَغْيير الثّقافة»، والدَّفْع بها إلى فضاءاتٍ حيويّةٍ تَتَكَيَّفُ مع «مُقْتضيات العَصْر»، وتَتَوَاءَمُ مع «شُرُوطِ مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتَسْتَوعِبُ «هُمُومَ التّنْمية». وأمّا زكي نجيب محمود[38]، فإنّه يَذْهَبُ إلى أبْعد من ذلك حيث يَصِفُ «الحياة الثّقافيّة العربيّة» بأنّ: (لها ظَاهِرٌ يُخْفي وراءه ضَحَالَةً فِكْريّةً، وكِدْتُ أقول إنّه يُخْفي وراءه جَهَالَةً فَاضِحَة)، ويُبَلْوِرُ زكي نجيب محمود تلك الرُّؤية فيُضيف: (جَهَالَةٌ بماذا؟ قد تَسْألني، فأُجيبك بأنّها جَهَالَةٌ بمُعْظَم مُقَوِّمَاتِ «المُثقَّف الصَّحيح»، فهي حياةٌ تُوشِكُ أنْ تَخْلُوَ من الإلْمَامِ بأهمّ القضايا الفِكْريّة التي يَطْرَحُهَا عَصْرُنَا على أبنائه، كما تُوشِكُ

أنْ تَخْلُـوَ تمامـاً من مَعْرِفَـةِ الأرْكان الأساسيّة التي يَتَكَـوَّنُ منْها تُراثُنا، ابْتـداءً من الّلغةِ ومُفْرداتِهـا وطرائِـق تَرْكيبِها، وصُعُوداً إلـى الاتّجاهاتِ الفِكْريـة الرّئيسيّة التي شغل بها أسْلافُنـا، فـإذا كان «المُثقّفُ» اليوم، لا هو يُشارِكُ عَصْرَه، ولا هـو يُلِمُّ بتاريخِه الفِكْريّ، فماذا يكون عنده بعد ذلك؟).

إنّ مُجَـرَّدَ طَـرْحِ فِكْرة «المُواءَمَة» بين «الثّقافة العربيّة» التـي يُهَيْمِنُ عليها «التَّوجُّهُ الأدبـيّ»، وبين مُتطلَّبات العَصْر وتحدّيات «الألْفيّة الثّالثـة»، يَدْفَعُ بنا إلى فضاءاتٍ رَحْبَةٍ ذات امْتداداتٍ شاسِعَةٍ، ويَتَعَدَّى جُزْئيّاتٍ هنا أو هناك، ليتطلَّبَ الغَوْصَ في تفاصيل عديدةٍ تَشْمَـلُ عناصِر اجْتماعيّةً ووِجْدانيّـةً وفِكْريّةً وسُلُوكيّةً وتُراثيّة، وليَدْفَـعَ نحو نَظْرَةٍ شَامِلَةٍ تُحَرِّضُ علـى تَأْسيسِ «التّجَانُسِ الثّقافيّ» بين «المُجْتمـع» بمُخْتلف فِئاته، وبين «العَصْرِ» بأنْمَاطِهِ الجديدة وثَوْرَاتِهِ العِلْميّة، وليَضَعَ كُلَّ ذلك على مِحَكّ وَاقِعِ الأُمّة في ظِلِّ تحدّياتِ عَصْرِهَـا، ومُوَاصَفَـاتِ زمانِها، وتَـرَدّي حالِها. ولا يَكْفِي في هذا الإطـار أنْ نَرْضَى فقط بتَحْليـلِ زكي نجيب محمود لوَاقِعِ «الثّقافة العربيّة» الذي يَحْمِلُ الكثير من الحقيقة، حيث يـرى أنّ الفَشَلَ في حَلِّ المُشْكلات يَرْجِـعُ إلى انْعِدام التّجَاوُبِ وغِيَاب التّكَامُلِ بين جَانِبَيّ الحيـاة الثّقافيّة: (جَانِب الأدب، وجَانِب الفِكْر)، ويُؤَكّـدُ أنّ التّوازُنَ بين الكفّتَيْن مَعْدُوم: (فبينمـا الأدب عندنـا قد اضْطَلَعَ بكثيـرٍ جِدّاً ممّا يُرادُ لـلأدب أنْ يُؤَدِّيه، نرى الفِكْرَ في حالـةٍ من القُصُـور تُشْبِهُ العَجْزَ لا يُقَدِّمُ لنا إلاّ قليلاً ممّـا يُعِينُنَا على مُواجَهَةِ المُشْكلات التي أثارها الأدب)(٢٠).

لقد تَسَاءَلْتُ(٥٦) - في مُحاولةٍ للإمْسَاكِ بنُقْطَةِ البدْء - عن المَسْؤول عن «مُسَلْسَلِ التَّـرَدّي» في تفاعُـلات «الكلمة العربيّـة»، وانْتَصَبَتْ أمامـي عِدّةُ أسْئلـةٍ منْها: (هل هي مُمَارَسَـاتُ السُّلْطَةِ الطّاغية على مدى قُـرُونٍ التي فَرَضَتْ على «العَقْلِ العربيّ» أنْ يَحْتَمِيَ وراء كلماتٍ فَضْفَاضَةٍ لا تَحْمِلُ عُمْقاً فِكْريّاً أو دَلالَةً عِلْميّة؟). ومنْها: (تُرى هل كان فُقْدَانُ «الإنْسـان العربيّ» لحُقُوقِهِ في ظِلِّ أشْكالِ الاسْتِبْدَادِ وعُصُورِ التَّخَلُّفِ سبباً طبيعيّاً لضياعِ «حُقُـوقِ الكلمة» ففَقَدَتْ معناها عندما تَبَعْثَرَتْ «حُقُـوقُ الإنْسان العربيّ» لأنّ «الكلمة» هي «فِكْـرُ الإنْسـان»؛ ولذا فإنْ فُقْـدان احْترامه لنفْسه جعلـه يَفْقِدُ بالتّالـي احْترامه لفِكْره،

وكانـتْ الضَّحيّةُ هي «الكلمة» التي نَضَعُ عليهــا اليوم كُلّ الأوزار؟). ومنْها: (هل المَسْؤولُ هــو الخيالُ الجَامِحُ الذي تَتَمَيَّزُ به «العَاطِفَةُ العربيّةُ» الجَيّاشَةُ وهي تَنْطلقُ برُعُونَةِ الرّياحِ وهَوجَائيّةِ الرِّمالِ في آفاقٍ وَاسِعَةٍ كاتِّسَاعِ الصَّحْرَاءِ وصَفَاءِ السَّمَاءِ؟، أمْ هل هو الانْغِمَاسُ فــي «ثقافة اللفْظ»، التي أَصْبَحَتْ مُمَيِّزَةً لــكُلِّ شيءٍ، وأثيرةً في كُلِّ مقامٍ، ليَنْتُجَ عن ذلك ابْتعــادٌ عن «ثقافة الفِعْل» التي تَحْتَاجُ إلى جُهْدٍ وصَبْــرٍ ومُثابَرة؟). ومنْها: (هل المَسْؤولُ هــو «الثّقافــةُ العربيّةُ» نفْسها التــي أَلِفَتْ «الانْفِصَــامَ»، وتناغمتْ مع «التّنَاقُضِ»، وقَبِلَتْ «الازْدواجِيّة»، فأَصْبَحَــتْ قِيَمُهَا ومفاهيمُها ومعاييرُها على نقيضٍ وَاضِحٍ مع مُمَارَسَاتِهَا وسُلُوكيّاتِهَــا وتَأْويلاتِهَــا وأنْمَــاطِ حياتِها؟). ومنْها: (هــل تداعياتُ «الغُرْبَــةِ الزَّمنيّة» - التــي تعيشُهــا المُجْتمعات العربيّة - هي التي طَوَّرَتْ لديها المهــارة الفريدة في أنْ تعيشَ دَاخِــلَ الزّمن وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِدٍ؛ فهي تعيشُــ دَاخِلَهُ اسْتِهْلاكاً وقُشُوراً، وتعيشُ خَارِجَهُ قِيَمــاً وإنْتاجاً ومَعْرفةً؟). كُلُّ تلك أَسْئلةٌ جديــرةٌ بالتّمْحيص عندما نتحدَّثُ عن «الكلمة» وآثارِها على «فِكْرِ العرب» وحياتِهم، وهذا يقودُنا بالتّالي إلى التّمَعُّنِ في أوضاع أصْحابِها والمُتعامِلين معها - في «الأَلْفيّة الثّالثة» - من بني يَعْرُب.

أمّا الجَانِبُ الآخَرُ من مَأْزِقِ «الثّقافة العربيّة» فيتمثّلُ في أَزْمَةٍ مع الوَاقِعِ الذي هَيْمَنَتْ عليــه «العلــوم الحديثة»، وتَوَلَّتْ الزِّمَامَ فــي تَشْكيلِ حياة النّاســ والتّأْثيرِ في تفاعُلاتِهم؛ فـ«ثقافــة البــدويّ البسيط» الذي انْطَلَقَ، بنَثْـرِهِ وشِعْرِهِ وسَجْعِه، يُعالِــجُ هُمُوماً بدائيّة في صَحْراء شَاسِعَةٍ، ضئيلة المَوارِد وشحيحة العطاء، لا يجوزُ أنْ تكون مُتطابِقَةً ومُتَماثِلَةً مع «ثقافة العربيّ المُعَاصِر» الــذي تتجاذبه حياةٌ مُعقّدَة التّرْكيب، وهُمُومٌ مُتَعَدِّدَة الجَوانِب، وطُوفَانٌ غَامِرٌ من هُجُومِ «العَوْلَمَة» و«ثَوْرَةِ المَعْلومات» وتسارُعِ مُتَغَيِّراتِ «مُجْتمع المَعْرِفَة».

المُشْكلــةُ هــي أنّ قِوام «الثّقافــة العربيّــة» كان عَصِيّاً - وما زال - علــى «التَّغْيير»؛ فحتّــى عندما تَطَوَّرَتْ الحضــارة العربيّة الإسلاميّة، وتفاعلتْ مــع غيرها من حضاراتٍ، فــإنّ «الثّقافة العربيّة» حَرَصَتْ على الحِفَاظِ علــى أشْكالِها الخَطَابيّة ومُنْطلقاتِها الأدبيّة وأُطُرِهَــا اللّفْظيّة، ووجدتْ فــي بعض الثّقافات السّابقة لها ما يَدْعَمُ تلك النّزْعَةَ النّظريّةَ

والمَيْـلَ التِّلْقائيّ نحو التَّرَفُّعِ عـن «التّجْريب» والاحْتِكَام إليه، ويُؤَكِّدُ عبد الإله بلقزيز هذه الرُّؤيـة فيقـول: (لم يَفْعَـلْ الوَعْي العربـيّ - الإسلاميّ الوسيـط أكْثر من تَـرْدَادِ الفِكْرَةِ الإغريقيّة القديمة عن المَعْرفة، والتي قامتْ على تَبْجيلِ النّظَر التّجْريديّ والتّأمُّل، وعَدِّهِ الشّـكْل الوحيد لتَحْصيلِ الحقيقة وإدْرَاكِ الجوهر، في مُقابِل الحَطِّ من الحِسّ والتّجْربة وما يَحْصُلُ عنهما من «معارِف»)[١٨]. ولعلّه من المُناسِب ونحن نَقِفُ أمام طبيعة «الثّقافة العربيّة»، ونَرْصُدُ إدْمَانَهَا الكلاميّ، أنْ نتأمَّلَ ما قاله زكي نجيب محمود منْذ عُقُودٍ: (إذا كان لا بُـدَّ من كلام، فليكنْ كلاماً من الضَّـرْبِ الذي يُضِيء طريق العمل، فكُلُّ كلام يَبْدَأُ باللّفْـظِ ويَنْتَهِـي باللَفْـظِ ثم لا شـيء بعْد ذلك، هو هُرَاءٌ، بَـلْ شَرٌّ من الهُـرَاء لأنّ الهُرَاءَ الصّريـحَ يَصُمُّ النّاس دونـه آذانهم فلا يَضُرّ، أمّا هذا الهُرَاءُ المُتَسَتِّرُ وراء طِلاءٍ خَادِعٍ، فهو الذي قد نَفْتَحُ له آذاننا في غير جَدْوى)[٢٠].

يَنْبَغِـي - إذاً - لـ «أَهْل الثّقافة» أنْ يُواجِهُوا هذه الحقيقة المُرَّة فقد يَرْصُدُ بعضهم في دِراساتٍ تَنْمَويّةٍ - هنا وهناك - تغيُّراتٍ ثقافيّةً واجْتماعيّةً، ولكن التّأمُّل الأعْمق سيجدُ أنّ «الثّقافـة العربيّة» لـم تتغيَّرْ في جوهرها؛ فهي في إطارها العـامّ «ثقافةٌ اسْتِهْلاكِيّةٌ»، وفـي الماضي القريـب والبعيد كانتْ المُتطلَّبـات مَحْدُودَةً والاحْتياجـات قليلة، فاقْتَصَرَ الاسْتِهْـلاكُ من مُنْتَجَاتِ الآخَرين على الجَانِبِ المـادّي في حُدُودِ ما تَسْمَحُ به الإمْكاناتُ مـن اسْتيـرادٍ، وتَمَحْوَرَ الاسْتِهْلاكُ الفِكْـريُّ على اجْتِرَارِ عطاءاتِ الأسْـلاف. وأمّا اليوم في ظِـلِّ «الانْفِجَارِ المَعْلُوماتيّ» و«ثَـوْرَةِ الاتّصَال» فقد تَنَوَّعَ الاسْتِهْـلاكُ وتَشَعَّبَ ليُلامِسَ مُخْتلف الجَوانِب علـى امْتِدادِ الكُرَةِ الأرْضيّة، فأَصْبَحَـتْ «المُجْتمعات العربيّة» لا تَكْتَفِي فقـط باسْتيرادِ «المُنْتَجَـاتِ المادّيّة» بأنْواعِها من علومٍ وتقْنيـةٍ وصِناعةٍ وأدواتٍ، ولكنّها راحـتْ أيضاً تَسْتَوْرِدُ «المُنْتَجَاتِ الفِكْريّة» بأشْكالِهـا من مُصْطلحاتٍ ومفاهيم وفلْسفات حيـاةٍ، وهي في المُقابِل لا تُنْتِجُ شيئـاً يُذْكَرُ في كُلِّ تلك الأصْعِدَة الحيويّة؛ وهكذا خَضَعَتْ هذه المُجْتمعاتُ لقانون «الفيزياء» الذي يُحَتِّمُ هُبُوبَ الزَّوابِع والرِّياح من مناطِق «الضَّغْطِ العَالِي» إلى مناطِق «الضَّغْطِ المُنْخَفِض».

٣-٥) مَدْخَلٌ إلى «البُعْد الزَّمْكانيّ»:

لا غرابة – في ضوء ما سَبَقَ – أنْ تَعْتَوِرَ «الثّقافة العربيّة» – في رأْيي[٥٧] – حالاتٌ من التَّوتُّرِ والتَّنَاقُضَاتِ في الحيــاة المُعاصِرَة تحْت وَطْأَةِ «البُعْدِ الزَّمْكانيّ» المُرْتَبِطِ بتداخُلِ «الزّمان» و«المكان» وتأْثيراتِهما المُتبادَلة؛ فتَهْتَزُّ المعاييرُ بفِعْلِ المُتَغَيِّرَاتِ المُتسارِعة في فتراتٍ من «الزَّمان» مُتلاحِقَة، وتَضْطَرِبُ السُّلُوكيّاتُ تحْت تَأْثير عَامِل «المكان» واخْتِزَالِ المسافات بين مُخْتلف المُجْتمعات الإنْسانيّة، فإذا العَالَمُ قريَةٌ صغيرةٌ تَمُوجُ بالتّفاعُلاتِ والتّدافُعات.

أقــول: حَدِّثوني عن «الثّقافة» التي تُريدون، وعن أنْمَاطِهَا التي عليها تَشْتَغِلُون، وعن رُؤاها التــي إليها تَطْمَحُون، أُحَدِّثْكُم عن «المُسْتقبَلِ» الذي إليــه ستؤولون؛ فإذا اسْتَقَرّتْ الأعْيُــنُ على نُقْطَةٍ فــي «الزّمان» ثَابِتَةٍ، وتَعَلَّقَــتْ مُعْطياتُ الحياة بحــالات التّمنّي وتِبْيان إنْجازات الأجْداد، وأَصْبَحَ «المكانُ» أسير زمانٍ مضى وانْقضى، فإنّه – بالضّرورة – سيكون مَــلاذاً للأوهام، ومَرْتَعاً للإحْباطات، ومُنْطَلَقاً لتَكْـرَارِ الفشل. وأمّا إذا أَهْمَلَتْ «الثّقافةُ» شُجُــونَ «المكان» وأبْعَادَ ساحاتِه وثَوابِتَ تضاريسه، وهُرِعَتْ تَسْتَجْدِي من كُلِّ مكانٍ قِيَماً، وتَسْتَعِيــرُ من كُلّ رُكْــنٍ مُصْطلحاتٍ، وتَنْكَبُّ على كُلِّ جُغْرافيّــةٍ بعيدةٍ عنها لتتسوَّلَ عنْدها مُقوِّمَاتِ الفِكْرِ وضَوابِط الحياة، فإنّها تكون بذلك قد أضاعتْ دَلالَةَ «المكان»، ودخلتْ في متاهــة «الزَّمان». وذلك هو حال بعض المَحْسُوبين علــى الثّقافة والفِكْر في «المُجْتمعات العربيّــة»؛ فهُمْ لم يُدْرِكُوا أهْميّــة تفاعُلِ «الزَّمان» و«المكان»، ولكنّهم انْطلقوا في متاهات «الزَّمــان» في عَالَم «العَوْلَمَة»، يَسْتَعِيرُون من الآخَرين تجارِبَهم، ويُكَرِّسُون مُصْطلحاتِهم التــي تَكَثَّفَتْ عند أَهْلِهَا على مدى حِقَبٍ طويلةٍ من المُعَانَاةِ والمُكابَدَةِ والخطأ والصَّواب؛ وهُــمْ – أيضــاً – نســوا أنّ لـ«الجُغْرافيا» ضَوابِطَهَا، وهــي بدَوْرِهَا تَحْكُــمُ طبيعة ما يُمْكِنُ غَرْسُهُ في البِيئة، وتُحَدِّدُ ما يكون ضَارّاً وسَامّاً ومُهْلِكاً لأسْباب الحياة في تُرْبَتِهَا[٥٨].

ولا بُــدّ أنْ نَتَوَقَّفَ هنا لنَسْأَلَ بــكُلِّ تجرُّدٍ وموضوعيّة: (ما «رَدُّ الفِعْلِ الموضوعيّ» إذا تَعَرَّضَ الإنْسانُ لهَزّاتٍ مُتتاليةٍ من «نَقْلاتٍ نَوْعيّةٍ» كُبْرى في حياة البشر على مُسْتوىً غير

مَسْبُـوقٍ من قبْل فـي التّاريخ، وأَصْبَحَ خَاضِعـاً لمُتَغَيِّراتٍ مُتلاحِقةٍ وقفـزاتٍ مُتتاليةٍ على الأَصْعِدَةِ الحياتيّة والمعيشيّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة؟. ألا يُوجِبُ مثل ذلك التّغيُّر الجِذْريّ وقفـاتٍ جَادّةً ونظراتٍ صَارِمَةً أمام طبيعة «الثّقافة» السّائِدَة، ومدى مُلاءَمَتِهَا للتّغيُّرات، وتجاوبِهـا لمُقْتضياتِ العَصْر، وقُدْرَتِهَا على «الاسْتِجَابَـة» لطبيعة «التَّحَدِّيات» المُتفاقِمَة نَوْعَاً وكَمَّاً؟).

إنّ الهَـمّ الرّئيسـ لهذا الكِتاب هـو مُحاولةُ سَبْر طبيعة ما يَنْبَغِـي أنْ يكون عليه «رَدّ الفِعْل الموضوعيّ» ومُقَوِّماته اللازمة إزاء التّحوُّلات الكُبْرى التي تَشْهَدُهَا الحياة البشريّة فـي «الأَلْفيّة الثّالثـة»، آخِذاً في الاعْتبار جُمْلَـةً من العناصِر، مِثْل: تجـارِب «المُجْتمعات العربيّة» على مدى قَرْنَيْنِ من مُحاولاتِ تَأْسيسِ «النَّهْضَة»، وطبيعة التّحدّيات المُعاصِرَة، ونَهْـجِ «الأُمم المُتقَدِّمَة» وتجارِبها، ومُؤشِّرَاتِ «المُسْتقبَل» وضُغُوطِه، وضرورةِ السَّعي إلى النَّفَـاذِ من المَـأْزِقِ الذي أَسَرَ «الثّقافـة العربيّة» وحاصرها وكَبَّـلَ حركتها. وعلى الرّغْم مـن كُلِّ المُتَغَيِّـرات والتّحدّيـات، فإنّنا، وفْق وَصْـفِ زكي نجيب محمود،: (مـا نزال إلى يومنـا هذا نَنْسِجُ حياتنا على المِنْوَالِ القديم نفْسه؛ فصُدُورٌ تَضْطَرِمُ بمشَاعِر الغَضَبِ أو الرِّضَـا، وألْسِنَةٌ تَنْطَلِقُ بالتّعْبير عمّا في الصُّدُور، تَعْبيراً بالشّعْرِ حيناً وبالنَّثْرِ أحْياناً، ثم لا شيء بعد ذلك، فمحطّةُ الوصولِ عنْدنا هي أنْ يكون مَكْنُونُ الفُؤاد قد أُفْرِغَ في عِباراتٍ لُغَويّـةٍ، وذلك لأنّنا نظنّ فيما يَبْدُو - جَرْيـاً مع نموذج الشّاعِرِ القديم - أنّه ما دام القَلْبُ قد انْفَعَلَ واللّسَانُ قد نَطَق، فقد أَدَّيْنَا كُلَّ ما يُمْكِنُ أنْ يُؤَدَّى)[٢٠].

٣-٥-١) «البُعْدُ الزَّمْكَانيّ» و«إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن» في الوَاقِع العربيّ:

إنّ تداخُـلاتِ «البُعْـدِ الزّمْكَانـيّ» المُتباينة ومُقَوِّمَاتِـه المُتَشَابِكَةِ قـادتْ «التَّكْوين الثّقافـيّ العربيّ» إلـى «أَزْمَةٍ فِكْريّـةٍ» تَنْعَكِسُ على الأدبيّـاتِ السّائِدَةِ فـي «الفِكْرِ العربيّ المُعاصِـر» فـي مُصْطلحاتٍ مُتَنَوِّعَـةٍ مِثْل «الغَزْو الثّقافـيّ»، و«ثُنَائِيّة التُّـرَاث والحَداثَة»، و«أَزْمَـة العَقْل العربيّ»، ممّا يَجْعَلُ التّحـدّي القَائِمَ هو تَأْسيسُ «تَكْوينٍ ثقافيٍّ» يُحَدِّدُ مَوْقِعَ «المُجْتمعـات العربيّـة» على خريطة الكَوْنِ فـي «زمانٍ» مُعَيَّنٍ و«مـكانٍ» مُحَدَّد. ولكن لعلّه

مـن المُحَيِّر أنْ نجد أنّ «الثّقافة العربيّة» - بعد قَرْنَيْـنِ من الإخْفاقات الفِكْريّة والهزائم التّنْمَويّـة - تُواصِـلُ انْسياقَهَا في الجَدَليّاتِ المُبْهَمَةِ والعُمُوميّـاتِ الغَائِمَةِ ولا تَشْغَلُهَا تلك القضايـا الكُبْرى مثـل «قضيّة التّنْمية» وشُرُوطهـا، و«العَوْلَمَة» وتحدّياتهـا، و«المُسْتَقْبَل» ومُتطلَّباتـه؛ ولا تُمْعِـنُ النَّظَرَ في وسائِل التّفاعُلِ والتّجَاوُبِ مـع «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية» التـي هي مِحْـوَرُ حياة العَصْـرِ وإنْجازاتـه؛ ولا تَفْقَهُ أنّ لتلـك «المَنْظُومَـةِ» أَوْجُهاً أُخْرى عـدا «الوَجْـهِ الاسْتِهْلاكيّ» الذي أبْلَتْ فيه الأُمّة أحْسن البـلاء، وأهْمَلَتْ الأبْعَادَ الإنْتاجيّة والثّقافيّة والتّنْمَوية لهذه «المَنْظُومَةِ الحيويّة».

وهكـذا تُهَيْمِنُ على الوَاقِعِ الثّقافـيّ العربيّ «إشْكَاليّةُ الثّقافتَيْـن» بشَكْلٍ حَادٍّ، وليس ذلـك بمُسْتَغْـرَبٍ، فقـد رأينا فـي الفَصْل الثّاني من هـذا الكِتاب كيـف شَخَّصَ تشارلز سنو[٣٢] تلـك «الإشْكَاليّة» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة»؛ وهي مُجْتمعـاتٌ نَبَتَتْ فيها «الحركةُ العِلْميّة» بشَكْلٍ طبيعيٍّ، وانْبَثَقَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّة» عن عُقُولِ رِجَالِهَا وجُهُودِهِم؛ فهي مُتَّصِلَةٌ بحَاضِرِهـم وماضيهم اتّصالاً وثيقاً وطبيعيّاً. ولكن على الرّغْم من طبيعة النُّموّ المُتَدَرِّج لـ«الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» في نسيج «الفِكْر الغَرْبيّ» وأنْمَاطِ حياةِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة» إلاّ أنّ تشارلز سنو تَعَرَّفَ على مُشْكِلَةِ «هَيْمَنَةِ الثّقافة التّقْليديّة» التي هي - في الأسـاس - «ثقافـةٌ أدبيّةٌ»، ووجد أنّ الفَجْوَةَ بين «الثّقافتَيْن» كانتْ بَارِزَةً، وأنّها تَحْتَاجُ إلى اسْتقصاءٍ فِكْـريٍّ، ومُعالَجَةٍ مَنْهَجيّةٍ، وإجْراءاتٍ عمليّة. لقد وَصَفَ تشارلز سنو[٣٢] - في خمسينات القَـرْن الماضي - حـال «الثقافة الأدبيّة» التّقْليديّة السّائِـدَة - آنذاك - في «المُجْتمعات الغَرْبيّـة» بقَولـه: (مـا زال أهْلُهَا يُحِبُّون التّظَاهُـرَ بأنّها كُلُّ «الثّقافة» كما لـو أنّ «النِّظَام الطَّبيعـيّ» غير موجودٍ، وكما لو أنّ تَحَرِّي نِظَام الطّبيعـة ليس له أهميّة في قِيمته الذّاتيّة أو في نتائِجه، وكما لو أنّ البِنَاءَ العِلْميّ للعَالَم الطّبيعيّ لا يُمَثِّلُ في عُمْقه الفِكْريّ وتَعْقيدِه وصِياغتِه أجْمل وأشدّ الأعْمال الجماعيّة للعَقْلِ البشريّ إبْهَاراً) ، وفي السِّياق نفسه يَصِفُ تشارلـز سنو الأوضـاعَ السّائِدَةَ بين المُثقّفين في «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» فيقول: (وهكذا يتسامـقُ بِنَـاءُ الفيزيـاء الحديثة، ولكن الرُّؤية التـي يَمْلِكُهَا مُعْظَمُ أشـدّ النّاس ذكاءً في العَالَـمِ الغَرْبيّ حوله مُمَاثِلَةٌ تماماً للرُّؤية التـي كان يَمْلِكُهَا أسْلافُهُم في العَصْرِ الحَجَرِيّ

الحديث). ولو أنّنا أردنا وَصْفَ حال «الثّقافة العربيّة» اليوم لما وَجَدْنَا أفْضل من تلك الجُمَلِ التي وَصَفَ بها تشارلز سنو «المُجْتمعات الغَرْبيّة» في خمسينات القَرْن الماضي. وأمّا زكي نجيب محمود فإنّه يَصِفُ ذلك «التَّغيُّرَ الجِذْرِيّ» الذي طرأ على «الفِكْرِ البشريّ» في القُرُون الثّلاثة الأخيرة بقوله: (كانتْ «الكلمةُ» مَدَارَ الحياة فيما مضى، فأَصْبَحَتْ «الآلةُ» هي المَدَار، وبعِبارةٍ يَسْهُلُ على القُرَّاء حِفْظُهَا نقول: «إنّ النَّقْلَةَ الحضاريّة هي من مَرْحَلَةِ الكلامولوجيا إلى مَرْحَلَةِ التّكنولوجيا»؛ و«الكلامولوجيا» هي الكلامُ بكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ به من قَواعِد ومقاييس، و«التِّكنولوجيا» هي أجْهِزَةُ الصُّنْع بكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بها من علوم، وبالطّبع لم يَخْلُ عَصْرٌ من أجْهِزَةٍ وآلاتٍ، ولا يَخْلُو عَصْرُنَا من جَانِب الكلام، غير أنّ طابع العَصْر مُسْتَمَدٌّ من العُنْصُرِ المُوَجِّهِ لتيّار الحياة، ولقد كان هذا المُوَجِّهُ هو الكلمات في شَتّى صُورِهَا، وأَصْبَحَ مُوَجِّهُنَا اليوم هو الآلات وعلومها)[٢٠].

تلك هي حقيقةُ «التَّحَدِّي» الذي تتصدّى له مُخْتلف الثّقافات الإنْسانيّة في «الأَلْفيّة الثّالثة»، وتلك هي «مُعَادَلَةُ الحضارة المُعَاصِرَة» التي تَسْعَى مُخْتلف الأُمم إلى ضَبْطِهَا، ولا شَكّ أنّ الخَلَلَ البَيِّنَ في تلك التّرْكيبةِ المُعَقّدَةِ لـ«مُعَادَلَةِ الحضارة» يَشْرَحُ - تِلقائيّاً - الوَاقِعَ الأليمَ الذي يَجْثِمُ على صَدْرِ «الثّقافة العربيّة» ليَحُولَ بينها وبين التّفاعُل مع مُقْتضياتِ «الزّمان»، وشُرُوطِ «المكان»، وتحدّياتِ «الحاضِر»، ومُواصَفَاتِ «المُسْتَقْبَل»؛ وبالتّالي يَمْنَعُ أيَّ جُهُودٍ لتَغْييرِ ذلك الوَاقِع، أو تَعْديلِه؛ ليكون مُتَجَاوِباً مع احْتياجاتِ «المُجْتمعات العربيّة»، ومُتَنَاغِماً مع قضاياها التي تَزْدَادُ اسْتفحالاً واسْتشكالاً وتأزُّماً، بينما تَزْدَادُ مُمَانَعَةُ ثقافتها لأيِّ مُحاولاتٍ تَهْتَمُّ باكْتِسَابِ خصائِص «عَصْر العَوْلَمَة»، ومُنْطلقات «مُجْتمع المَعْرِفَة».

إنّه من الوَاضِح - أيضاً - أنّ حال «مُثقَّفي العَالَم العربيّ» لا يَشُطُّ كثيراً عن ذلك الوَاقِع الذي وَصَفَهُ تشارلز سنو في الخمسينات من القَرْن العشرين في أوروبا، بَلْ هو - في رأيي - أشدّ تَعْقيداً وأَسْوأ حالاً كما سنرى في سِياق هذا الكِتاب؛ ولكن الوَضْعَ في العَالَمِ العربيّ يَخْتَلِفُ - نَوْعاً ما - عن ما وَصَفَهُ تشارلز سنو فيما يَتَعَلَّقُ بعَدَاءِ «النُّخْبَةِ الأدبيّة» لـ«الحركة العِلْميّة»؛ فالمُثقَّفون العرب - بشَكْلٍ عامٍّ - لا يُنَاصِبُون «التّقْنية»

العَدَاء، ولا يُحَارِبُون «الحركة العِلْميّة»، بَلْ أَغْلبهم يَتَغَنَّى بها في كُلِّ مَحْفَلٍ، ويُنادي بها في كُلِّ مُناسَبـةٍ، ولو كان ذلك من باب «إبْـرَاءِ الذِّمّة» ومُجارَاةِ «رُوح العَصْر» إلاّ أنّ ما تُعانيه «ثقافـة المُجْتمعات العربيّة» من «أُمِّيّـةٍ عِلْميّةٍ» يَجْعَلُهُم يَتَّخِـذُون - في أحْسن الأحوال - مَوقِفاً سَلْبيّاً عَاجِزاً عن دَفْعِ الأُمُور في اتِّجَاهِ تفاعُلٍ حيويٍّ مع قضايا العَصْرِ وهُمُومه.

لقـد بَقِيَـتْ «الثّقافةُ العربيّـةُ» أسيرةَ إرْثِهَا الأدبـيّ، واللّغويّ، والفِقْهـيّ، والوَعْظيّ، والسِّياسـيّ؛ حتّى تلك الطُّرُوحات التي حاولتْ استخدام مُصْطلحاتٍ حديثةٍ كانت تضطرُّ إلـى الانْخِرَاطِ مـن جديدٍ في «البَوْتَقَـةِ الاجْترَاريّة» ذاتهـا لانْعِـدَام «الأدوات المَعْرفيّة» القَادِرَةِ على التّعامُلِ مع «العَصْر» والتّفاعُلِ بحيويّة مع «التّحدّيات»؛ وبذلك ارْتَدَى القديمُ ثوبـاً جديداً، فبـدا المَظْهَرُ مُخْتلفاً، وأمّـا المَضْمُونُ فقد بَقِيَ علـى حاله الكسيح؛ عديمَ الفَاعِليّةِ ومُنْقَطِعَ الأنْفَاس. وهكذا برز على «السَّاحة الثَقافيّة العربيّة» من أَسْمَاهُمْ محمد عابد الجابريّ[٥٩] بـ«المُتثَقّفين اللّقَطَاء»، وهم من يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيهم «تُجَّار المُصْطلحات» الذيـن تباروا في اسْتيـراد مُصْطلحاتٍ من بيئـاتٍ ذات تجارب مُخْتلفـةٍ، وتنافسوا على تَمْجيدِها وتَقْديسِها، إمّا طمعاً في مَكْسَبٍ سريعٍ، أو تَوَقُّعاً لصِيتٍ هَشٍّ، أو جَهْلاً بأُصُولِهَا ومُسْتَنْبَتَاتِهَـا، وحسبوا إنّ بإمْكانهم زِراعتها في تُرْبـةٍ لا تَدْعَمُ خصائِصَهَا، وفي مُناخٍ لا يُوافِـقُ مُكَوِّنَاتِهَا، وتَوقَّعُوا أنّها ستُنْبِتُ زُهُوراً وثِماراً، ولكن - بطبيعة السُّنَنِ الكَوْنيّة - فإنّ ذلك لن يُحَقِّقَ أكْثر من حصاد الرّيح الذي لا يُنْتِجُ إلاّ فَوْضَى، ولا يُخَلِّفُ إلاّ خَسَارا.

وعلـى مدى القَرْنَيْنِ الأخيرَيْن ممّا يُسَمَّى «عَصْـر النَّهْضَة» في العَالَم العربيّ كانتْ هنـاك جُهُودٌ مُتَعَدِّدَةٌ لتَجْديدِ «الثّقافة العربيّة»، وتَنْويعِ رَوافِدِهَا، وإضْفَاءِ مَلامِح عَصْريّةٍ عليهـا، ولكن الوَاقِع المُشَاهَد يُؤكِّدُ أنّها جُهُودٌ بَاءَتْ بالفشل، وذلك بالرّغْم من إسْهاماتٍ قَيِّمَةٍ لقَامَاتٍ فِكْريّةٍ، من أبْرزها مالك بن نبيّ وزكي نجيب محمود ومحمد عابد الجابريّ، تفاعلـتْ - بعُمْـقٍ وجِدِّيَّـةٍ وأصَالَةٍ - مع «الهَـمِّ الثّقافيّ» فـي النِّصْفِ الأخير مـن القَرْنِ العشريـن في مُحاولاتٍ لفَحْـصِ «خريطة العَالَم الجديد»، وإجْـرَاء عمليّات «نَقْدٍ ثقافيٍّ» تَهْتَـمُّ بتَحْليـلِ جَوانِب الوَهَن، وأسْبـابِ فَشَلِ «الثّقافـة العربيّة» في تَحْقيـقِ «الاسْتِجَابَةِ الفَاعِلَةِ لـ«التَّحَدّي» الذي يُجَابِهُ مُجْتمعاتِها.

٣-٦) دون كيخوته و«الثّقافة العربيّة»:

لعلّـه مـن المُناسِب أنْ نَتوَقَّفَ هنا مـع زكي نجيب محمود في مُحاولاتِـه لسَبْرِ أغْوَارِ «المُعْضِلَـة الثّقافيّـة» التي تَنْتَصِبُ أمام الأُمّة كعَائِقٍ رئيسٍ فـي طريق «التّحوُّلاتِ النَّوْعيّة» اللّازِمَـةِ للّحَاقِ برَكْبِ العَصْر، ويرى زكي نجيب محمود[٢٠] في قِصَّةِ «دون كيخوته» (دون كيشـوت) تَعْبيراً عن الحَدِّ الفَاصِلِ بين عَصْرَيْن في أوروبا؛ «العُصُور الوسْطى» و«العَصْر الحديـث»، ويَتَلَمَّسُ فيهـا تَرْميزاً لجوهر «المُعْضِلَةِ الثّقافيّـة» القَائِمَةِ في «الفِكْرِ العربيّ». وقبـل أنْ نَنْطَلِـقَ إلى اسْتنتاجـات زكي نجيب محمود لا بُدَّ أنْ نَتَوَقَّـفَ – أوّلاً – أمام وَصْفِهِ لِشَخْصِيّـة «دون كيخوته» حيث يقول: (هذا الفارِس الأُسْطوريّ الذي مَلأتْهُ الأوهام، حتى لقـد امْتَشَقَ سيفـه، وأَدْرَعَ بدروعِه، وراح يُقاتِـلُ طواحين الهواء، ويُهاجِـمُ قُطْعَانَ الغَنَم، حَاسِبـاً إيّاها قِلاعـاً وجيوشاً). يَتَأَمَّلُ زكي نجيب محمود حـال دون كيخوته في مُحاولاته للمُلاءَمَـةِ بين ثقافتِه وبيـن وَاقِعِه فيقـول: (دون كيخوته قرأ قِـراءةً مُسْتَفيضَةً عن حياة الفُرْسـان كما كانتْ فـي العُصُور الوسْطى، وتَشَبَّعَ بما قرأ حتى اعْتَزَمَ أنْ يحْيا فَارِساً على مِنْهَاجِهِم، فلو كان دون كيخوته يعيشُ في قَلْبِ العُصُور الوسْطى مع سَائِرِ الفُرْسان عندئذٍ، وسلك كما سلكوا، لما كانتْ هناك مُفارَقةٌ تُلْفِتُ النَّظَر، لكن تلك العُصُور كانتْ قد جاوزتْ نَهَارَهَـا وانْحدرتْ إلى غُرُوبِهَا، فإذا ما أراد إنْسانٌ ساعة الغُرُوبِ أنّ يَرُدَّ الزّمن إلى ساعة الظَّهيرة التي انْقَضَتْ وانْقَضَى أوانُها، كان ذلك هو العَبَثُ بعينه لأنّه يُحاولُ المُسْتحيل).

تَتَّضِـحُ أبْعَـادُ «الإشْكاليّة الثّقافيّـة» في «الفِكْـرِ العربيّ» في الصُّـورةِ الهزليّةِ التي يَصِفُهَـا زكـي نجيب محمود بقولـه: (كان دون كيخوته في سَعيه الوَاهِـم تَجْسيداً لتُرَاثٍ مَكْتُوبٍ، فأخذ يَلْتَمِسُ له في حياة الوَاقِع شبيهاً يُؤَيِّدُهُ ويَحْميه، ولأَمْرٍ وَاضِحِ المَرْمى، جعله المُؤَلِّـفُ رجلاً نحيلاً ضعيفاً، أَثْقَلَ جَسَدَهُ بدروعٍ لم تُخْلَقْ إلاّ لأجْسَادٍ قويّةٍ سليمةٍ، فازْدَادَ هُزَالُـهُ هُـزالاً وهو تحْت دروعِه الثِّقَـال، ولأَمْرٍ وَاضِحٍ كذلك، جعلـه المُؤَلِّفُ يَرْكَبُ حماراً عليـلاً، ويَحْسَـبُ أنّه يَعْتَلِي جواداً كجياد أسْلافِه من الفُرْسـان، فكانت كُلُّها رُمُوزاً مُكَثَّفَةً تَصْـرُخُ بالدّلالـةِ على أنّ أوان الفروسيّة قد فات ومات، ومن أراد إحْياءَهُ في غير عَصْرِه، كان كمن أراد أنْ يُخْرِجَ من المَاءِ شُعْلَةَ نار).

إنّ دَلالات تلك الصُّورة الهزليّة تتجلَّى في «الوَاقِع الثَّقافيّ العربيّ»، ونحن نتعاملُ مع «العَصْر» بغير أدواته، ونَنْطَلِقُ في آفاقه بغير وسائله، ونُكَرِّسُ «المُحاولات البَهْلوانيّة» التي تَسْعَى إلى إبْقَاءِ «الثّقافة العربيّة» دَاخِلَ الزّمن وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِدٍ. ولذا فإنّ «إشْكَاليّة الثّقافتَيْـن» هي أشدُّ عُمْقاً وتغلْغلاً وتَعْقيداً فـي «النَّسيج الفِكْريّ العربيّ» منها في «الفِكْر الغَرْبـيّ»، وبالتّالي فإنّهـا تَحْتَاجُ إلى جُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ للتّقْليلِ مـن حِدَّتِهَا، وإلى برامِجَ وَاسِعَةِ النِّطَاقِ للتّخْفيفِ من وَطْأتِهَا. بطبيعة الحال هناك دائماً العِبارات الفَضْفَاضَة عن أهميّة «العلـوم» و«توطيـن التّقْنية» فـي مُخْتلف مُنْتدياتنـا ومؤتمراتنا، إلاّ أنّنا نَمُـرُّ عليها مُرُورَ الكِرَامِ لنَنْصَرِفَ إلى ما أَلِفْنَاهُ من الكلام، ولنَحْتَضِنَ قضايانا «التّقْليديّة» و«الاجْتِرَاريّة» و«الانْبِهَارِيّـة» فـي سِياقاتِنا الثّقافيّـة، وكأنّ الأمْرَ بِرُمَّتِـهِ لا يتجاوزُ فقط مَرْحلـة «إزَالَةِ العَتَبِ» و«إبْرَاءِ الذِّمَّة»!.

مـن مُنْطَلَقِ النّزاهـة الفكْريّة يَنْبَغِـي أنْ نَعْتَرِفَ بـأنّ هذا الحال ليسـ بِمُسْتَغْرَبٍ على «ثقافـةٍ» تَأَسَّسَـتْ على «الفِكْرِ الأدبـيّ»، وتراكمتْ عليها - عبْـر قُرُونٍ - مُعْطياتُـه وأنْسَاقُه، وطَغَـتْ تفاعُلاتُه في أجْـواءٍ هَيْمَنَتْ عليها السِّياسـةُ وصِرَاعَاتُ السُّلْطَة؛ ولـذا فإنّه إذا كان طَـرْحُ تشارلـز سنـو لـ«إشْكَاليّة الثّقافتَيْـن» في «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» صحيحـاً بالرّغْم من أنّهـا صَانِعَـةُ «العلوم الحديثـة» والمُمْسِكَةُ بزِمَـامِ «التّقْنية المُعاصِرَة»، فإنّـه - بالضّرورة - «حالـةٌ ثقافيّـةٌ» مُسْتَفْحِلَـةٌ في وَاقِـعِ «الثّقافة العربيّة». أمّـا الفَرْقُ بيننـا وبينهم فهو في جُرْأَتِهِم علـى تَشْخيصِ «الإشْكَاليّة»، وإدْرَاكِهِم لآثارها السّلْبيّـة، وحِرْصِهِم على تَجْسيرِ «الفَجْـوَةِ» و«الجَفْوَةِ» بين «الثّقافتَيْن»، وسَعْيِهِم لتَأْمينِ «التّجَانُسِ الثّقافيّ» بين مُجْتمعهم وخصائِص عَصْره؛ وأمّا نحن فقد اسْتَبْعَدْنَا «ثقافة العلوم»، ونظرنا إلى «العلوم والتّقْنية» علـى أنّها مُجَـرَّدُ أدواتٍ وآلاتٍ ومَوادٍّ اسْتِهْلاكيّةٍ ممّا يُمَثِّلُ «ظُلْمَاً ثقافيّاً» للعلوم نَدْفَعُ ثمنه غَاليـاً لفشلنا في التّعامُلِ مع الجوهرِ الحقيقيّ لـ«الحركة العِلْميّة»، وآثارِها المُهَيْمِنَةِ على حَيواتِ البشر وأشْكَالِ الحجر.

٣-٧) الدَّوائِرُ المُنْغَلِقَة في «الحركة الثّقافيّة العربيّة»:

إنّ الإحْبَاطَ، أو ما وَصَفَهُ برهان غليون[١٨] بـ«المِحْنَة»، الذي أصاب المُثقَّفين العرب بمُخْتلف مدارِسهم الفِكْريّة وتوجُّهاتهم السِّياسيّة جعل أحد أبْرز نتائِجها ما وَصَفَهُ غليون بقوله: (الانْكِفاء على الذَّات وعلى العمل الثّقافيّ والإبْداعيّ والبَحْث العِلْميّ المُتَجَرِّد عن أيِّ الْتِزام اجْتماعيٍّ أو سياسيٍّ بالمَعْنَى الوَاسِع للكلمة، مع السَّعي إلى تَحْريرِ «الثّقافة» من «السِّياسـة» أو تَأْكيدِ انْفصالِها عنها. والمَقْصودُ هنا وَضْعُ «السُّلْطَة الثّقافيّة» في مُوَاجَهَةِ «السُّلْطَة السِّياسيّة» وكخَصْم لها أو بديلٍ منها)[١٨]. إنّ هذا الرّأْي، الذي يَطْرَحُهُ غليون، يعـودُ بنا إلـى طُرُوحَاتِ الغَالِبيّـةِ الكَاسِحَةِ مـن المُثقَّفين العرب لنعود دومـاً إلى «نُقْطَةِ البـدْء» من حيث نَدْرِي ولا نَـدْرِي؛ فـ«إشْكَاليّةُ التّنْمية» لا تَكْمُنُ فـي العَلاقَةِ بين «الثّقافة والسِّياسـة» أو «المُثقَّفُـون والسُّلْطَة»، ولكنّها تَكْمُـنُ في انْفِصَام «الثّقافـة» عن «التّنْمية» بمعانيهـا الرّحْبَـةِ وآفاقِهَا الحقيقيّـة وآليّاتِهَا الفَاعِلَـة؛ فانْصَرَفَ المُثقَّفـون العرب إلى أفْلاكِهِم الخَاصّةِ يَجْتَرُّون إبْداعاتِهم التّقْليديّة أو الحَداثيّة، ومنْهم من وجد في الأنْشِطَةِ العِلْميّـة والتِّقنيّـة المُجَرَّدَةِ مَلْجـأً يَحْسَبُ أنّ فيه المَخْرَجَ من الأزْمَـة، ولكن بَقِيَ كُلُّ ذلك بمَنْـأىً عن حقيقة «التَّحَدِّي»، وبعيـداً عن «بَوْتَقَةِ التّنْمية» بضروراتِهـا الفِكْريّة والثّقافيّة والاجْتماعيّـة. إنّ «الخِطَـابَ الوَصْفـيّ - السَّرْديّ - التّنْظيريّ»، الـذي تَزْخَرُ به «الثّقافةُ العربيّةُ» وتَفْخَرُ، حَافَظَ على جوهرِه وأصالتِه وإنْ تَغَيَّرَتْ الأشْكَالُ والقَوالِبُ بتغيُّر الظُّرُوفِ والأشْخَاصِ والمُشْكلات، وهذا ما يُؤكِّدُهُ برهـان غليون عندما يقول: (وهكذا حَلَّتْ محلّ الأدبيّـات العقائِديّة القديمة، التي كانتْ تُسَيْطِرُ على إنْتَاجِ المُثقَّفين، المقالات التّحْليليّة الاسْتراتيجيّـة والسّياسيّة والاجْتماعيّة)[١٨]. وهكذا تَحُومُ «الثّقافةُ العربيّةُ» - في أزْمَتِهَا المُتَفَاقِمَةِ - حول الحِمَى دون أنْ تَقَعَ فيه، وتَسْتَمِرُّ في مُواصَلَةِ نَدْبِهَا على وَاقِعِهَا، وتُواصِلُ رِحْلَتَهَـا فـي دَوائِر مُنْغَلِقَةٍ على نفْسها، ولا شَكّ أنّ هذا نِتَاجٌ طبيعيٌّ لـ«ثقافةٍ» تُهَيْمِنُ عليها «ثقافـةُ اللّفظ» و«زَخْرَفَـةُ الكلام»، وتَأْسِرُهَـا المُفْرَدَاتُ والجماليّـاتُ الإنْشائيّة حتى ولو كانـتْ علـى نَسَقِ صَاحِبِنَا الـذي اعْتَقَدَ أنّه أتـى بجديدٍ عندما وَصَفَ حالـه وحال رِفاقِه فأنْشَدَ يقول: (**كأنّنا والمَاءُ من حولِنا ... قَوْمٌ جُلُوسٌ حولهم مَاءُ**)!.

وفي السّعي نحو تَشْخيص «وَاقِعِ الثّقافة العربيّة» وهَشَاشَةِ أحْوالِهَا، يقولُ شاكر مصطفى: (الفِكْرُ العربيّ الـذي قَدَّمَهُ المُثقَّفون سَواءً فـي ما بين الحَرْبَيْنِ أو بعْـد الحَرْب الثّانية حتى أوائِـل السّبعينــات، وسَواءً كان قومياً أمْ غير قوميٍّ، أمْ ثقافيّـاً، كان يَعِدُ النّاس بأعْظَم الآمال وبنتائِـج وَاسِعَةِ الطُّمُـوح وأبْعَادٍ من السّعادة مُزَيَّنَةً بالنّجوم. لم يكنْ يَدْرِي حتّى المُثقَّفون ذوو البصائِـر أنّـه كان يعيشُ في أرْضِ الأحْلام، وأنّ الوَاقِعَ الـذي ظَنّهُ مَكيناً ثابتـاً إنّما اخْتَرَعَهُ بنفْسـه لنفْسـه ليُؤمِنَ به، وقِوامُهُ آمالٌ رومانسيّةٌ وفِكْرٌ ضَحْـلٌ مُتَهَافِتٌ أو مَنْقُولٌ بالحَرْفِ عن وَاقِـعٍ غَرْبيٍّ مُغَايـر) [١٨]. بطبيعة الحال لم يَتَغَيَّرْ شيءٌ في «البِنْيَـةِ الثّقافيّة العربيّة»، وما زال «التّكْويـن الثّقافيّ العربيّ» يُحَافِظُ علـى مَلامِحِهِ الأساس، ولم تُؤثّرْ فيـه الفَواجِعُ المُتلاحِقَةُ فـي التّاريخ العربيّ الحديـث، ولم يُبَدِّلْ من تَرْكيبتِه تَفَاقُمُ الأحْـوالِ الاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والإنْتاجيّـة والمَعْرفيّة؛ وما زال «الفِكْرُ الأدبيّ»، بتَنْظيرِه المُجَـرَّد وبلاغتِه الآسِرَةِ وعُمُوميّاته الهَشّـة، يُهَيْمِنُ علـى صُنْعِ القرار في «المُجْتمعـات العربيّة»، ولذا فإنّ وَاقِعَهَـا أشدّ وَطْأَةً من وَصْـفِ تشارلز سنو لحال «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» عندما قال إنّ النُّخَـبَ الأدبيّة: (لا يَصْنَعُون القرار، ولكن كلماتهم تَنْسَابُ بسهولةٍ إلى آذان صَانِعي القرار) [٣٢].

من المُهِمّ – أيضاً – أنْ نُؤكّدَ هنا أنّنا نَظْلِمُ «المُثقّف العربيّ» عندما نَتَوَقَّعُ منه أنْ يُحْدِثَ «نَقْلاتٍ نَوْعيّةً» كُبْرى في حياة مُجْتمعاته؛ فانْصِرَافُهُ عن الدّراسة الموضوعيّة لـ«إشْكَالات التّنْميّـة» مُتَوَقَّـعٌ وهو الذي وُلِدَ ورَضَعَ وتَرَعْرَعَ في «ثقافـةٍ» لا تَحْمِلُ مُقَوِّمَاتِ عَصْرِهَا، فهو مُغَيَّـبٌ تماماً عـن طبيعة «مُقْتضيات التّنْمية» وآليّاتِها وفِكْرِهَـا «العِلْميّ – التّقنيّ»، وقديماً وحديثـاً قالوا: (فَاقِدُ الشّيء لا يُعْطيـه). إنّ هذا «المُنَاخَ الفِكْريّ الاجْتِـرَارِيّ» الرَّاكِدَ هو المَسْؤول الأوّل عن وَأْدِ الجُهُودِ السَّاعِيةِ إلى «التَّفاعُلِ التّنْمَويّ» بكُلِّ أبْعَادِه، وهذا ما وَصَفَهُ مالك بن نبيّ – بِدِقّةٍ – عندما أعْلَنَ: (إنّ جَوْهَرَ المَسْألَةِ هو مُشْكِلَتُنَا العَقْليّة، ونحن لا زلنا نسيرُ ورؤوسنا في الأرْض، وأرْجُلُنَا في الهواء، وهـذا القَلْبُ للأوضاعِ هو المَظْهَرُ الجديدُ لمُشْكِلَةِ نَهْضَتِنَا) [٢]. أمّا أبْرَزُ مَعَالِمِ الوَهَنِ والعَجْزِ في «الثّقافة العربيّة» فيتمثّلُ في الأزْمَةِ المُحْتَدِمَةِ في ما يُعْرَفُ بـ«جَدَليّة الأصَالَةِ والمُعَاصَرَة»، أو «ثُنَائيَّة التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، وهي إشْكَاليّةٌ تَقَعُ في صميمِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، وسَنُفْرِدُ لها الفَصْلَ التّالي.

إشْكَالِيَّةُ التُّرَاثِ والحَدَاثَة

٤-١) مَدْخَل:

طَـوَالَ قَرْنَيْنِ من الزّمن كانتْ القضيّةُ الكُبْرى في «المُجْتمعات العربيّة» هي «قضيّة النَّهْضَـة»، وكانت الأسْئلَـةُ الكُبْرى هي «أَسْئلَـة النَّهْضَة»، ولكـن كُلّ مَشْرُوعات «الحَدَاثَة والتَّحْديـث» - بأشْكالِهـا الأدبيّـة والفِكْريّـة والسّياسيّـة والمادّيّة - فَشِلَتْ فـي أنْ تُحقِّقَ للأمّة العربيّة «مَشْرُوعَ النَّهْضَة» و«مَكَاسِبَ التَّنمية». لقد تَمَخَّضَ عن كُلِّ تلك «المُحاولات النَّهْضَويّـة» مدارِس فِكْريّـة وقُوى شَـدٍّ وجَذْبٍ سياسـيٍّ واجْتماعيٍّ وثقافـيّ، وهـي - في أساسِهـا ومَرْجِعِيّاتِهَـا - تَنْبَثِـقُ عن تلـك «الإشْكَاليّة الكُبْـرى» التي انْتَصَبَـتْ في أعْماقِ الوِجْدَانِ والعَقْلِ العربيّ، وعُرِفَتْ باسْم «إشْكَالِيّة التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، أو «إشْكَالِيّة الأصَالَة والمُعَاصَـرَة»، فقد وَصَفَهَا محمـد عابد الجابريّ بأنّها: (الإشْكَالِيّـة المِحْوَرِيّة في الفِكْر العربـيّ)[١]، وأمّا زكي نجيب محمود فقد وَصَفَهَـا بأنها: (أُمُّ المُشْكلات)[٢٠]؛ وهي تُمَثِّلُ ذلـك التَّشَابُكَ المُعَقَّدَ بين تداعياتٍ وِجْدانيّةٍ، وتداخُلاتٍ تُراثيّةٍ، وقضيّةِ الهُويّة، والدِّفَاع عنهـا ضِدّ «الفِكْرِ الغَازِي» القَـادِمِ من الغَرْب، ويَحْدُثُ ذلك في الوَقْـت نفْسه الذي تُمَثِّلُ فيـه مُعْطياتُ ذلك الغَرْبِ وإنْتاجِه - علـى مُخْتلف الأصْعِدَة - مِثالاً مَطْلُوباً في «التّنْمية»، ونَمُوذَجاً مَرْغُوباً في «النّهْضَة».

ذلـك مـا يُؤَكِّدُهُ محمد عابد الجابريّ وهو يُؤَطِّرُ لهـذه «الإشْكَالِيّة» فيقول: (غير أنّ هـذا الحُضُورَ الأيديولوجـيّ للتُّرَاثِ في الوَعْـي العربيّ المُعَاصِر، وبمَعْنـىً آخر اسْتمرار الدّعـوة إلى الأَخْذِ به كسِــلاحٍ أيديولوجيٍّ ضِدّ التّهْديد الخارجيّ ليس إلاّ وَجْهاً وَاحِداً من العُمْلَة. أمّا الوَجْهُ الآخَرُ، وهو الأكْثر وَقْعاً وثقلاً على الوَعْي واللاوَعي العربيّيْن في العَصْرِ

الحاضِـر، فهو ذلـك الشُّعُورُ الدّرامي بعُمْـقِ الهُوّة التـي تَفْصِلُ بين التُّـرَاثِ ومضامينه المَعْرفيّـة والأيديولوجيّـة والمِعْياريّة، وبين الفِكْـرِ العَالَميّ المُعَاصِـرِ ومُنْجزاته العِلْميّة والتِّقنيّة ومعاييره العَقْليّة والأخْلاقيّة)[1].

لقد ذكرنا، في الفَصْل الأوّل من هذا الكِتاب، أنّ هذه التّدافُعات والتّيارات والمُحاولات تَمَخَّضَتْ - منْذ مَطْلعِ القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ - عن ثلاث مدارِس رئيسة:

١) «**المَدْرَسَـةُ التُّرَاثيّـة**»: وهي اتِّجَاهٌ رَافِضٌ لكُلِّ ما هو جديدٌ، ومُتَقيِّدٌ بـ«التُّرَاث»، ويرى في كلِّ جديدٍ وَافِدٍ من الغَرْبِ تَهْديداً للهُويّة والدِّين والأخْلاق.

٢) «**المَدْرَسَةُ الحَدَاثيّة**»: وهي اتِّجَاهٌ رَافِضٌ لـ«التُّرَاث» إذْ يراه عقبةً تُعِيقُ اللّحاق بالرَّكْبِ الحضاريّ المُنْطَلِق بخُطُواتِ «العِلْم» المُتسارِعة، وتحدّياتِ «العَصْرِ» المُتفاقِمة.

٣) «**المَدْرَسَةُ التَّوفيقيّة**»: وهي اتِّجَاهٌ يرى ضرورة الجَمْعِ بين «الحُسْنَيَيْن»؛ فيَحْرِصُ على الحِفَاظِ على «الهُويّة الإسْلاميّة» وقِيَمِهَا وتُرَاثِهَا، وفي الوَقْتِ نفْسه يَسْعَى إلى الاسْتِفَادَةِ من المُعْطياتِ العِلْميّة والإنْجازات التِّقنيّة في «النَّمُوذَجِ الغَرْبيّ».

لقـد تصارعتْ هـذه المدارِسُ علـى مـدى قَرْنَيْنِ من الزّمـن، ولكنّهـا -كُلُّهَا دون اسْتِثْنَـاءٍ- فَشِلَتْ فـي تَحْقيقِ أيِّ إنْجازٍ يُذْكَـرُ على طريق «النّهْضَـة» بالرّغْمِ من التّقدُّمِ المُذْهِلِ في أنْمَاطِ حياةِ «المُجْتمعات العربيّة» وأشْكَالِ تَعْليمِهَا وتفاعُلاتِ بشرِها، إلاّ أنّها بَقِيَـتْ رهينةً لعطـاءاتِ الآخرين، وحبيسةً لأنْمَـاطٍ اسْتِهْلاكيّةٍ علـى المُسْتويات الفِكْريّة والماديّة والاجْتماعيّة والإعْلاميّـة وغيرها، وراحتْ تُراوِحُ مكانها حول خِلافاتِها الأزليّة، وصِراعاتِها الجَدَليّة، وتناقُضاتِها الحياتيّة.

٤-٢) مُصْطلحاتُ «الإشْكَالِيّة» ومَآزِقها:

بدايـةً يَنْبَغِي - في رأيـي[١٠٩،٦٠] - أنْ نَضْبِـطَ مُصْطلحاتنا لنتمكَّنَ مـن فَهْمِ أبْعَادِ «الإشْكَالِيّـة» المَطْرُوحَـةِ التـي أَطْلَقَ عليهـا بعْضهم اسْـم «إشْكَاليّة التُّـرَاثِ والحَدَاثة»،

وأَطْلَقَ عليها آخرون مُصطلح «إشْكَاليّة الأصَالَةِ والمُعَاصَرَة»، ولي بعض التَّحَفُّظَاتِ على المُصْطلح الأخير ستتَّضِحُ مُبَرِّرَاتُهَا في سِياق هذا المَبْحَث. وأمّا المُصْطلحاتُ المَطْلُوبُ ضَبْطِهَا وتَحْرِيرِها فهي:

١) **الأصَالَة**: هي: (الْتِزَامُ الثّقافة والفِكْر والمُجْتمع بأُصُول تَشْكيلِ بِنْيتِهَا الدّاخِلية الهيكليّة، ويَلْتَفُّ حولها ويَرْتَكِزُ إليها الجِسْمُ الثّقافيّ العامّ، وتتعيَّنُ هذه الأُصُولُ بجُمْلَةٍ من المفاهيم المِحْوريّة والقِيَم الأساسيّة التي تُمَيِّزُ ثقافةً ما عن غيرها من الثّقافات. و«الأصَالَةُ» بهذا المَعْنَى تُناقِضُ الاغْتِرَابَ الثّقافيّ والاسْتِلابَ الفِكْريّ)[١٦]. وهذا يَعْنِي أنّ «الأصَالَةَ» في «المُجْتمعات العربيّة» تَنْطَلِقُ - بالضّرورة - من قِيَمِ الإسْلام الكُلِّيّة وتصوُّراته وضَوابِطِه.

٢) **المُعَاصَرَة**: تَعْنِي «التّزَامُن»، وبالتّالي فهي تَحْديدٌ شَكْليٌّ لا يَقْتَرِنُ - بالضّرورة - بتفاعُلاتٍ جوهريّةٍ بين الأطْرافِ المُتَزامِنَة.

٣) **التُّرَاث**: هو: (ذلك الطَّيْفُ الوَاسِعُ والمُتَنَوِّعُ من المَورُوثَاتِ التي تَلَقَّفَهَا «الخَلَفُ» عن «السَّلَف»، وهي تُغَطِّي مِساحاتٍ رَحْبَةً ومُتَشَعِّبَةً من القضايا والعادات والأفْكار والمُمارَسات وغيرها؛ فهي تَشْمَلُ «التُّرَاثَ المادِّيّ» مثل المَواقِع الأثريّة والمُدُن التّاريخيّة والمتاحِف والتُّرَاث المِعْمَاريّ، كما تَشْمَلُ «التُّرَاثَ الفِكْري» في المجالات الأدبيّة والثَقافيّة والفِقْهيّة والاجْتماعيّة (العادات والتّقاليد والأزْياء والمَطْبَخ والأعْرَاس) والشّعْبيّة والعِلْميّة والفلْسفيّة وغير ذلك من الأنْشطة البشريّة الحياتيّة. وبذا نجدُ أنّ «التُّرَاث» ليس كُتْلَةً وَاحِدَةً مُتماسِكَةً يُنْظَرُ إليه نَظْرةَ الرَّفْضِ الكُلّيّ، أو القَبُولِ الشّامِل، ولكن تَبْقَى المُشْكِلَةُ في ما نَضَعُهُ من «معايير» للرَّفْضِ والقَبُول، وهي جُزْءٌ من طبيعة «الإشْكَاليّة» القَائِمَة.

٤) **الحَدَاثَة**: هي حركةُ المُراجَعَةِ والتَّجْديدِ والنّقْدِ والتّحْليلِ وإعْمَالِ «العَقْلِ» في الحياةِ والفِكْرِ والعقائِدِ والكَوْن، وهي حركةٌ انْطَلَقَتْ في أوروبا مع بروز «عَصْرِ النَّهْضَة» في القَرْن الخامس عشر الميلاديّ، ولها إنْجازاتُها وإشْكالاتُها

وتداعياتُها وخُصُوصيّاتُهـا وصِراعاتُها، ويَنْضَوِي تحت عباءتها – في مَفْهُومِهَا العـامّ – مُخْتلـف أشْـكَالِ «الحَدَاثَـة» بأنْمَاطِهَا الأدبيّـة والفِكْريّـة والسّياسيّة والاجتماعيّـة. وأمّـا «الحَدَاثَةُ»التـي شَغَلَـتْ «العَقْـلَ العربيّ» فقـد كانتْ – وما زالـتْ – مَسْؤولةً عـن تَرَاجُـعِ «المُجْتمعات العربيّـة» في التَّعامُلِ مـع مُعْطياتِ «الحيـاة الحديثة» – كما سيتَّضِحُ في هذا الفَصْـل –؛ وذلك لانْضِواءِ «الحَدَاثَةِ العربيّـة» تحت الإطار الكلاميّ نفْسـه الذي وجدنا أنّه يُمَيِّـزُ «الثّقافة العربيّة» ويَعُـوقُ حركتهـا؛ فاهْتَمَّ «العَقْـلُ العربـيّ» بـ«الحَدَاثَة الأدبيّة والفنيّـة واللغويّة» التـي انْطَلَقَتْ في أوروبا في أواخِرِ القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ، وبَلَغَتْ ذُرْوَتَهَا فـي الرُّبْعِ الأوّل من القَـرْن العشرين، وتَضُمُّ مذاهِبَ مُخْتلفـةً في الفنّ والأدب كالمُسْتَقْبَلِيّة والتَّصْويريّة والانْطِباعيّة والسِّرْياليّة والرَّمْزيّة والوَاقِعيّة وغيرها. وأمّـا ما أَصْبَـحَ يُهَيْمِنُ على «السّاحَةِ الحَدَاثيّة» في مَطْلَـعِ «الأَلفيّة الثالثة» فهي «الحَدَاثَة السِّياسيّة» بتوجُّهاتِها الليبراليّة والعَلْمَانيّة والدِّيموقراطيّة.

وبالتّأمُّـلِ الموضوعـيّ لمَسَـارِ الخِطَابَيْـن «التُّرَاثـيّ» و«الحَدَاثيّ» فـي تفاعُلاتِهما مـع مُشْـكلاتِ «المُجْتمعات العربيّة» نجـد أنّهما وَقَعَا في مَـآزِق فِكْريّةٍ صَعَّـدَتْ من حِدَّةِ الخِطَابَيْن، وعَمَّقَتْ من تَنَافُرِهِمَا إلى درجة الصِّرَاعِ والمُنَازَلَة، ممّا كان له دَوْرٌ رئيسٌ في إعاقةِ «التَّفاعُلات النَّهْضَويّة» وإجْهَاضِ «الرُّؤى التَّنْمَويّة».

٤-٢-١) مَآزِق «الخِطَاب التُّرَاثيّ»:

من أبْرز مَآزِقِ «الخِطَابِ التُّرَاثيّ» – في رأْيي[١٠٩،٦٠] – ما يلي:

١) الخَلْـطُ بين «التُّرَاثيّ» و«الأصيل»؛ فليس كُلُّ شَأْنٍ «تُرَاثيٍّ» أصيلاً، وليس كُلُّ أَمْرٍ «تُرَاثـيٍّ» مُقَدَّسَاً وجديراً بالمُحَافَظَةِ عليه والدِّفَاعِ عنـه والاسْتِمَاتَةِ في سبيله، وهذه إحْدى نقـاط تَحَفُّظي على إطْلاقِ مُسَمَّى «إشْكَالِيّة الأصَالَةِ والمُعَاصَرَة»؛ فـ«المُعَاصَـرَةُ» هـي التَّزَامُنُ الذي لا يَفْرِضُ – بالضّـرورة – تفاعُلاتٍ قويّةً بين

الأَطْـرَافِ المُتَزَامِنَـة، كمـا أنّ «الإِشْكَالِيّـة» سـوف تَنْتَفِي - بالضّـرورة - إذا اسْتطعنـا التّمْييز بيـن «الأصيل» في المقاصِدِ والثّوابِـت، وبين تلك التّراكُمَاتِ التّاريخيّة والاجْتماعيّة التي كانتْ بِنْتَ ظُرُوفِهَا وحَصِيلةَ زمانِها، ولكنّها تَشبَّثتْ بعَرَبَـةِ التّاريـخ لتُغَبِّشَ الرُّؤية، والْتَصقَـتْ بعَجَلاتِهَا لتُعيـقَ الحركة. وفي هذا السِّيـاق يَطْرَحُ برنارد لويس رؤيتـه فيقول: (كثيراً ما تَتِمُّ الإشـارة إلى السُّؤال عمّـا إذا كان الإسْلامُ عقبةً أمـام الحُريّة، والعِلْم، والتّنْمية الاقْتصاديّة، وكيف كان بإمْـكان المُجْتمع المُسْلِم في الماضي أنْ يكون رائِداً في كُلِّ هذه المجالات الثّلاثـة، وحَـدَثَ هـذا في الوَقْـت الـذي كان المُسْلِمـون أقْرب فيـه بكثيرٍ إلى مصادرِ وإلْهَام عقيدتهم عن الوَقْتِ الرّاهِن؟. ولقد طَرَحَ بعضهم السُّؤالَ بشَكْلٍ مُخْتلفٍ: (فليس السُّؤالُ هو «ماذا فَعَلَ الإسْلامُ بالمُسْلمين؟»، ولكن «ماذا فَعَلَ المُسْلِمون بالإسْلام؟»)[٣].

إنّ مُعْظَـمَ مُكَوِّنَاتِ«التُّـرَاث» الذي يدورُ حوله كثيرٌ مـن الجَدَل، ويَسْتَنْزِفُ الطّاقـات والجُهُود، هـو تراكُمَاتٌ تاريخيّـةٌ لاجْتهاداتٍ بشريّـةٍ وتفاعُلاتٍ عبْر «الفِعْـلِ» و«رَدّ الفِعْـل» في حِقَبٍ مُخْتلفـةٍ من «الزَّمان»، وجُغْرافيّـاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ في «المكان». ومَرَّةً أُخْرَى يَتَجلَّى هنا دَوْرُ «البُعْدِ الزَّمْكَانيّ» في تَكْريسِ «أَزْمَةِ الثّقافة العربيّـة»؛ فليستْ كُلُّ التّجارِبِ والاجْتهاداتِ الإسْلاميّـة - عبْر القُرُون - مُؤَهَّلَةً لأنْ تكـون ذات فَاعِليّةٍ في هذا «الزَّمان» وهذا «المكان»، وليستْ كُلُّ الصِّراعاتِ السِّياسيّـة، وحُرُوبِ السُّلْطَة، وآراءِ العُلمـاء، نماذجَ مُناسِبَةً لوَقْتنا الحَاضِر في فِكْرِها ومفاهيمِها ومُعالَجاتِها.

٢) «النَّزْعَـةُ التَّبْسيطيّـة» التي تُهَيْمِـنُ على تَفْكيرِ «الخِطَابِ التُّرَاثـيّ» عبْر تَبْسيطِ التّحدّياتِ المُعَقَّدَةِ والتّداخُلاتِ المُتَشَعِّبَةِ التي تُواجِهُ العَالَم عامّةً، والمُجْتمعات العربيّـة خاصَّةً، وهذه النَّزْعَـةُ جَعَلَتْهُ خِطاباً هَائِماً، عَائِمـاً، غَائِماً؛ فهناك - مثـلاً - طَـرْحُ شِعاراتٍ مِثْـل «الإسْلامُ هو الحَـلّ»، أو «العَوْدَةُ إلـى ما كان عليه السَّلَـف»، أو «الإسْـلامُ صَالِـحٌ لـكُلِّ زمـانٍ ومـكانٍ»، أو اخْتِزالُهَـا فـي عناوين

عامّـةٍ كالصِّـرَاعِ بيـن «الحَـقِّ والبَاطِـل»، وبيـن «الإيمـان والكُفْـر»، أو «نظريّة الفُسْطَاطَيْـن». وهكـذا تَضْمَحِلُّ، أو تتلاشى، في هذه العناويـن البَرّاقة الأبْعَادُ الثّقافيّة والجَوانِبُ الحضاريّة والاعْتبارات الزّمانيّة والبرامجُ العمليّة التّنْفيذيّة، وتَخْتَفِي أوْجُهُ القُصُورِ الحقيقيّةِ المُتَمَثِّلَةِ في التَّخَلُّفِ الإنْتاجيّ، والقُصُورِ العِلْميّ، والضَّعْفِ التِّقنيّ، والمُشْـكلاتِ التّنْظيميّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة، وغير ذلك مـن تَعْقيداتِ «الحيـاة المُعاصِرَة» وتشعُّباتِهَا، وكما يقولُ محمـد الميلي: (فِكْرَةُ الحِفَـاظِ على «الأصَالَةِ» لم تَتَحَـوَّلْ إلى مَشْرُوعِ تَأْصيلٍ يَتَـلاءَمُ مع الانْغِرَاسِ في العَصْر، واسْتِنْبَاتِ مُحيطٍ مُلائِمٍ للاسْتِفَادَةِ القُصْوى من التّعاطِي مع الغَيْر) (٨).

٣) الانْفِصَامُ المُـرَوِّعُ بين التّنْظيرِ والمَواعِظِ والقِيَم، وبيـن المُمَارَسَاتِ الحياتيّة والتّفاعُـلاتِ اليوميّة، ممّا يُؤَدّي إلى فُقْدَانِ قَدْرٍ كبيـرٍ من المِصْدَاقيّةِ والقُدْرَةِ على التّأْثير، وذلك نتيجةً لغِيَابِ القُدْوَة؛ فبَقِيَتْ عناصِرُ التّنْظيرِ - في مُعْظَمِهَا - مَحْصُورةً فـي الوِجْدَانِ، ومُخْتَزَنَةً في الذّاكِرَة، ويَتِـمُّ اسْتدعاؤها كُلّما دَعَتْ إليهـا الحاجـة أو المُنَاسَبَة؛ وأمّا في أيـامِ المِحَنِ والأزمـات، فإنّها - غالباً - ما تكون مَصْحُوبَةً بعُنْفٍ شديـدٍ، واضْطِرَامٍ للمشَاعِر، واضْطِرَابٍ في التّفْكير، وهَوَجَائيَّةٍ في «رُدودِ الفِعْل».

٤) «التَّوَجُّـهُ الأَحَادِيّ» الـذي يتعاملُ مع مُخْتلـف أوْجُهِ الحياة وكأنّـه يَحْتَكِرُ الحَقَّ الأبديّ والحقيقة المُطْلَقَة، ولقد كان لهذا التَّوجُّهِ الكثير من «رُدودِ الفِعْل» النَّشَازِ والنّتائـجِ السَّلْبيّة التـي تَجَلّتْ على طَرَفَيْ نقيض: طَـرَفُ «التَّطَرُّف والإرْهاب»، وطَـرَفُ «التّفْريط والتَّمَرُّد علـى القِيَم». وللأمانة والموضوعيّـة يجب أنْ نقول إنّ هـذا «التَّوَجُّه الأَحَادِيّ» لم يُصْبِحْ حِكْراً فقط على «الخِطَابِ التُّرَاثيّ»، ولكن أَثْبَتَـتْ التّجارِبُ أنّـه - أيضا» - من خصائِص «الخِطَـابِ الحَدَاثيّ» ليَتَّضِحَ أنّ المُشْكِلَةَ في الأساس هي «مُشْكِلَةُ ثقافة».

٤-٢-٢) مَآزِق «الخِطَاب الحَدَاثيّ»:

يُعَانِـي مُصْطَلَـحُ «الحَدَاثَـة» مِـن مُعْضِلَـةٍ فِـي الماهيّـة، والتّاريخيّـة، والوظيفيّة؛ فـ«الحَدَاثةُ» ليستْ كما تَعَرَّفَ عليها «العَقْلُ العربيّ» مُخْتَصَّةً فقط بالنّقْدِ والأدبِ والفُنُونِ ونُظُـمِ السِّياسة ومُشَاكَسَةِ القِيَـم السّائِدَةِ في المُجْتمع، وهي لا يُمْكِـنُ اخْتِزَالُهَا في تلك المُصْطلحات المَطَّاطَةِ التي تَضْطَرِمُ على السّاحة مثل «الليبراليّة» أو «العَلْمَانيّة»، ولكنّها - في أَصْلِهَا الغَرْبيّ - تُشِيرُ إلى صِيغٍ عديدةٍ دَالَّةٍ على الحضارة والتّقدُّم والتّغْيير.

لقد عَشِـقَ «العَقْلُ العربيّ» بِعُنْفوانٍ، أو كَرِهَ باحْتِـدام، ذلك المُحْتوى الأدبيّ والفنيّ والنّقْـديّ والسّياسـيّ لِمَفْهُوم «الحَدَاثَة»، ولقـد حَصَلَ إرْباكٌ كبيرٌ حـول هذا المُصْطلح بسبـب تَعْريـب مُصْطَلَحَـيّ «modernity» و«modernism»؛ إذْ اعْتَقَـدَ بعضهـم أنّهمـا مُصْطَلَحٌ وَاحِدٌ فتمّ تَعْريبهما بكلمةٍ وَاحِدةٍ وهي: «الحَدَاثَة»، ومَيَّزَ آخرون بين «الحَدَاثَة»: «modernity»»، وبيـن «الحَدَاثوِيّة» أو «الحَدَاثَانيّـة»: «modernism»[٦١]؛ فالأوّلُ، لا يَتَقَيَّدُ باشْتِراطـاتٍ مَذْهَبِيّةٍ، أو مَفْهُومِيّةٍ، أو أدب أُمّةٍ مُعَيَّنَةٍ، ولكنّه يتعاملُ مع الأدوات والوسائِل لتَغْييـر أنْمَاطِ الحيـاة والتّفْكير والتّفاعُل البشريّ وتَطْويرها؛ وأمّـا الثّاني، فإنّه يَدُلُّ على حركةٍ أدبيّةٍ ونَقْديّةٍ لها سِياقاتُها التّاريخيّة والمَعْرفيّة، ومعاييرُها الفنيّة والنّقْديّة.

إنّ الصّراعـاتِ الطّويلة والتّغيُّراتِ الدّراميّة والجِذْريّة في الغَرْب - منْذ نُشُوء «عَصْر النّهْضَة» في أوروبا - جعلتْ من «الحَدَاثَة» أداة تصادم مع النِّظام الفِكْريّ والقِيميّ والسُّلْطَويّ والسّياسـيّ، ووسيلة هُجُوم علـى كُلِّ ما هو تَقْليديٌّ وتُراثيٌّ. ولقد حافظ «الحَدَاثيّون العرب» علـى هذه «الخِصَال الغَرْبيّة» عند إسْقَاطِ «الحَدَاثَـة» على الوَاقِع العربيّ واعْتبروها الجُزْءَ الأهـمَّ من «طبيعة الحَدَاثَـة»؛ فـ«الحَدَاثةُ» عنْد أدونيس هي التي: (تُمَارِسُ تَهْديماً شَامِلاً للنِّظَام السّائِدِ وعَلاقَاته، أَيْ نِظَامُ الأفْكار)[٦٢]. ويقول: (لا تَنْشَأُ الحَدَاثَةُ مُصَالَحَةً، وإنّما تَنْشَأُ هُجُوماً، تَنْشَأُ - إذاً - خَرْقاً ثقافيّاً جِذْريّاً وشَامِلاً لما هو سَائِد)[٦٣].

نَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَـمَ كُلَّ هـذا الارْتِبـاك حـول ماهيّة مُصْطلـح «الحَدَاثَـة» وتاريخه ووظيفتـه فـي إطار الحقيقة الكَامِنَةِ فـي «البُعْدِ التّاريخيّ» لمَفْهُـوم «الحَدَاثَة»، لأنّه ليس

بالإمكان فَصْلُ «الحَداثَةِ» عن تاريخها الأوروبيّ حيث انْطَلَقَتْ - تاريخيّاً - مع «الثَّوْرَةِ الفرنْسيّة» في عام ١٧٨٩م، واعْتَمَدَتْ تَغْيير النِّظام السّياسيّ، وتَبَنَّتْ مبادئ «الليبراليّة» و«العَلْمانيّة». لقد كانتْ «الحَداثَةُ» تَتْويجاً لمَراحِل مُتَدَرِّجَةٍ مَرَّتْ بها «المُجْتمعات الغَرْبيّة» منذ «عَصْرِ النَّهْضَة» في القَرْنَيْنِ الخامس عشر والسّادس عشر الميلاديّ، ثمّ عصور «الثَّوْرَةِ العِلْميّة»، و«التَّنْوير»، و«الثَّوْرَةِ الصِّناعيّة»، حيث يُمْكِنُ أنْ يُطْلَقَ على هذه المراحِل التّاريخيّة اسْم «عَصْر التَّحْديث»، وهو المُتَمَثِّلُ - في المقام الأوّل - بتَغْييرِ أدوات الإنْتاج الماديّة في المُجْتمع ونُظُمِه وآليّاتِه وعَلاقَاتِه، وتَحَوُّلِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة» من مُجْتمعاتٍ زراعيّةٍ إقْطاعيّةٍ إلى مُجْتمعاتٍ تِجَاريّةٍ، ومن ثمّ إلى مُجْتمعاتٍ صِنَاعيّةٍ، مَعْرفيّةٍ، رَأْسماليّةٍ، وإمْبرياليّة.

أمّا تاريخُ «الحَداثَةِ العربيّة»، فيُوجَزُ بأنّه مُرْتَبِطٌ بالهزائم السّياسيّة والفِكْريّة والنَّهْضَويّة التي تَرَعْرَعَتْ في ظِلِّهَا صِراعاتُ «الحَداثَةِ»، حيث دَخَلَ فريقٌ على «الحَداثَةِ» من زاوية الفَنّ والشِّعْر والأدب والنَّقْد والرّواية مُتَوَهِّمَاً أنّ في ذلك المَدْخَلِ أسْلوباً فاعِلاً للتّأثيرِ على «البِنْيَةِ الثقافيّة» وإدْخَالِ العَالَم العربيّ في رُوح «الحركة النَّهْضَويّة العالَميّة»، وآخَرون دَخَلُوا إلى «الحَداثَةِ» من مُنْطَلَقِ الحُرّيّات والمُساواة والدِّيموقراطيّة، وكان من الطّبيعي أنْ يَنْتُجَ «رَدّ فِعْلٍ» مُضَادٌّ لهذه «الحَداثَة الدَّخيلَة»، واعْتبارها تَهْديداً للقِيَم والهُوِيّة؛ ولذا تَصَدَّى «التّيارُ المُحَافِظُ»، الذي يُمَثِّلُ قطاعاتٍ وَاسِعَةً من «المُجْتمعات العربيّة»، لما حَسِبَهُ تَهْديداً لكيانه وتطلُّعاتِه.

إنّ أبْرز نِقاط الضَّعْفِ في «المَشْهَدِ الحَداثيّ العربيّ» هو أنّه - انْطلاقاً من «الطّبيعة الكلاميّة» لـ«الثّقافة العربيّة» - حَصَرَ «الحَداثَةَ» في مَفْهُوم ضَيّق، وهو المَفْهُومُ الفَنّيّ والنَّقْديّ والأدبيّ، والجِدَالُ اللفْظيّ التَّنْظيريّ والصِّراعُ السِّياسيّ، فراح «أَهْلُ الحَداثَةِ» يتمثّلون حَداثَةً فنيّةً وأدبيّةً نَقْديّةً عربيّةً، وبذلك وقعوا في أرْبعة مَزالِق[٦٠]:

١) لقد كانتْ «الحَداثَةُ الفَنيّة والأدبيّة» و«الحَداثَةُ السِّياسيّة» وغيرهما من أشْكَالِ «الحَداثَةِ» في أوروبا نِتَاجاً، وليستْ سبباً؛ فهي نِتَاجُ تفاعُلاتٍ طويلة الأمد

لهـا جُذُورٌ تاريخيّةٌ ودِينيّـةٌ وفِكْريّةٌ وسياسيّةٌ وعِلْميّةٌ فـي التّفاعُلاتِ الأوروبيّة منْـذ القَـرْنِ الخامس عشـر الميلاديّ، وهي وليـدةُ تطوُّراتٍ عميقـةٍ وتحوُّلاتٍ مُضْنيـةٍ من تجـارِبِ التّقدُّمِ الصّناعـيّ والجُهْدِ العِلْمـيّ والمُعَالَجَاتِ الفِكْريّة والمَخَاضِ السّياسيّ، وهي بذلك تُعَبِّرُ عن أوْجُـهِ التَّحَوُّلِ الجِذْريّ الذي حدث في وَاقِـعِ «العَالَمِ الغَرْبيّ» وسِياقاتِه التّاريخيّـة، وانْعَكَسَ كُلُّ ذلك – فيما بعْد– علـى مسـاراتِ «العَالَمِ الغَرْبيّ» فـي الأدب والسّياسـة والفِكْـرِ والثّقافة. ولذا فـإنّ «التَّحَوُّلات النّهْضَويّـة الكُبْرى» في أوروبا لم تكنْ نِتَـاجَ «الحَدَاثَةِ الأدبيّة» وغيرهـا من حَدَاثَةٍ فِكْريّةٍ أو سياسيّـة، ولكنّها كانتْ نِتَاجاً لِحَدَاثَةٍ أشْمل وأعَمّ وأعْمق ضَرَبَتْ في جُذُورِ المُجْتمع، ليتمخَّضَ عنها في النّهاية – بعد عناءٍ طويلٍ وصِراعـاتٍ مريرةٍ وتَضْحياتٍ جَمَّةٍ – الوَاقِعُ الغَرْبيُّ الرّاهِنُ بإنجازاته ونَهْضتِه وحيويّتِه وحَدَاثَاته المُتنوِّعة.

وهكـذا أغْفَلَ «الحَداثيّون العـرب» أثر «التَّسَلْسُلِ التّاريخـيّ»، وخُصُوصيّة «التّجْربـة الأوروبيّة»، وهَيْمَنَـةَ «الفِكْر العِلْميّ»، وطبيعـة «التَّفاعُلِ الاجْتماعيّ» لـ«الحَدَاثَـة»، وخلطـوا بيـن «الزَّمان» و«المـكان»؛ فقبْـل أنْ تَمُـرَّ مُجْتمعاتُهم بثَوْرَاتِهَـا العِلْميّـة والتِّقنيّة والصِّناعيّة، وما يَرْتَبِطُ بها مـن تَحَوُّلاتٍ اجْتماعيّةٍ وسياسيّـةٍ واقْتصاديّةٍ، انْغَمَسُوا فـي «الحَدَاثَةِ الأدبيّـة» و«الحَدَاثَةِ السِّياسيّة» بأشْكَالِهِمَـا المُشَاكِسَةِ وأنْمَاطِهِمَا المُنَاكِفَـة. والأَدْهَى من ذلك عدم إدْراكهم بأنّ «النّهْضَـةَ الغَرْبيّة»، بكُلِّ أشْكَالِهَـا الإنْتاجيّة والعِلْميّـة والتّقنيّة والتّنْمَويّة، لـم تَسْتَنِدْ فـي الماضي، ولا تَسْتَنِـدُ الآن، إلى ذلك النَّوْعِ مـن «الحَدَاثَةِ» الذي يُدَنْدِنُون حوله، ويُنَافِحُون عنه، ويَدْعُون إليه.

٢) لقـد كان في إسْقَـاطِ «النَّمُـوذَجِ الغَرْبيّ» علـى «المُجْتمعات العربيّـة» سَذَاجَةٌ وَاضِحَـةٌ؛ فتلك تَجْربـةٌ لها بِيئتُها الفِكْريّـة، وأُصُولُهَا العَقَديّـة، وخُصُوصيّتُهَا التاريخيّـة، وظُرُوفُهَـا الاجْتماعيّـة، ولا يُمْكِـنُ بحـالٍ أنْ يكون الـدَّواءُ وَاحِداً لأمْرَاضٍ مُخْتلفة.

٣) إنّ «الحَدَاثَــةَ» عند الغَرْبِ ليستْ مُجَرَّدَ «اسْتِخْـدَامِ العَقْلِ والعِلْمِ والتِّقْنِية»، بَلْ هي «اسْتِخْدامُ العَقْـلِ والعِلْمِ والتِّقْنيةِ المُنْفَصِلُ عَـنِ القِيَم (value-free)»، وهذا البُعْدُ هو بُعْدٌ جوهـريٌّ لـ«مَنْظُومَةِ الحَدَاثَة الغَرْبِيّة»، ولكن السُّؤال الأهمّ هـو: (كيف يُمْكِنُ تَنْزِيلُ هذا البُعْدِ على مَنْظُومَةٍ فِكْرِيّةٍ في مُجْتمعاتٍ إسْلاميةٍ لها مُنْطلقاتُها القِيميّة المُمَيِّزَة؟).

٤) إنّ مِـن أبْـرز نقــاط الضَّعْفِ الجوهريّــة في «الخِطَــابِ الحَدَاثــيّ العربيّ» هو الخَلْطُ الوَاضِحُ بين طبيعة «الحَدَاثَةِ الفِكْرِيّة والنَّقْدِيّة» كما فهمها «الحَدَاثيّون العرب»، وبيــن «مُقوِّمَاتِ التَّنْمية» و«شُرُوطِ النَّهْضَــة»؛ فأبْرز ما يُمَيِّزُ توجُّهات «الحَدَاثيّيــن العرب» أنّهم اعْتبـروا أنّ «الحَدَاثَةَ» هي «تَفْجيــرُ اللّغة»، وتَفْكيكُ البيان، ومُعالَجَةُ الأنْسَاقِ الأدبيّة والثّقافيّة والفنيّة، والخُرُوجُ على المَأْلُوفِ في الأُطُرِ الأدبيّــة والجَدَليّة والفِكْرِيّة والاجْتماعيّة والعَقَدِيّــة، ولم تكنْ «الحَدَاثَةُ» عندهــم تَفْجيراً للطّاقاتِ الإنْتاجيّة، أو تَفْكيــكاً لمظاهِر «العَجْزِ العِلْميّ» الذي تُعَانِــي منــه «المُجْتمعات العربيّــة»، أو مُعالَجَةً موضوعيّةً لحَواجِــز الوُلُوجِ إلى «عَصْرِ العلوم والتِّقْنية». وبطبيعة الحال كان ذلك المَوقِفُ - وما يزال - مُتَّسِقاً مــع طبيعة «الثّقافة العربيّة» التــي تَهْتَمُّ باللّفْظِ وزُخْرُفِ القَــوْلِ وبلاغةِ البيان وجزالــةِ الأسْلوب، وتَنْأى عــن التّفاعُلِ التّطْبيقيّ والإجْرائــي والتّحْليليّ. وهذه الحقيقــة يُبْرِزُها عبد الله الغذّامي[٤٩] عندما يتســاءَل: (هل الحَدَاثَةُ العربيّةُ حَدَاثَــةٌ رَجْعِيّة؟)، ويَعْرِضُ لبعض مَثَالِبِ هــذه «الحَدَاثَةِ» المُرْتَدَّةِ إلى الأنْسَاقِ الثّقافيّــة العربيّة وشُرُوطِهَا الذّهْنيّــة المُهَيْمِنَةِ على مدى قُرُونٍ، فنجده - على سبيــل المِثــال - يتحدَّثُ عــن أدونيس قائلاً: (يَحْمِــلُ كِتَابُ أدونيســ المُعَنْوَن بـ«زمــن الشِّعْــر» دَلالته النَّسقيّة، مــن حيث توصيفه للزّمن بهــذا الصِّفَة، فهو ليســ زمن العَقْلِ ولا الفِكْر، وما هو بزمن الفِعْــلِ والسّياسة. إنّه «زمن الشِّعْر»، حتى أنْ لا حَدَاثَة في العَالَم العربيّ إلاّ في الشِّعْر، كما يقول أدونيس. ولا وجود لحَدَاثَةٍ في الفِكْر، أو الاقْتصاد، أو السّياسة والمُجْتمع).

٤-٣) الحَدَاثَة العربيّة: مُنْتَجٌ هَجِينٌ بين «الاغْتِراب» و«الانْفِصام»:

لقـد راحتْ «الحَداثَةُ العربيّةُ» - في مُعْظَمِ أشْكَالِهَـا الأدبيّة والفِكْريّة والسياسيّة - تَطْـرَحُ مَقُولاتٍ وأفْـكاراً اسْتفزازيّةً أدَّتْ إلى التّصادُم مـع مُجْتمعاتِها التّقْليديّة، والتّمَرُّدِ علـى المَنْظُومَةِ الفِكْريّة والقِيميّة السّائِدة، وبذلك اسْتَعْدَتْ قطاعاتٍ وَاسِعَةً ومُتنامِيةً في مُجْتمعاتِها. وبطبيعة الحال ليس من المُتوَقَّعِ أنْ يُنْتِجَ مثل ذلك التَّوجُّه الاسْتِفْزازيّ تَوَافُقاً مُجْتمعيّاً، أو ازْدِهَاراً فِكْريّاً، يُسْهِمَان في تَطْوير المَوارِدِ البشريّة والطّبيعيّة، ويُنَمِّيان البُنَى التّحْتيّـة والهياكِل التّنْظيميّة، ويَصْنعان القُـوّةَ الاقْتصاديّة والعَسْكريّة لأيِّ مُجْتمع. ويرى محمـد عابد الجابريّ[٥٩] أنّ هـذه «الحَدَاثَة» الخَاضِعَةَ لمَفْهُـوم «الاغْتِرَاب» هـي: (ثقافةٌ تَنْطَلِـقُ من الفَرَاغ، أيْ مـن اللاهُويّة، وبالتّالي فهي لا تَسْتطيـعُ أنْ تَبْنِيَ هُويّةً ولا كياناً)، وهـو بهذا يرى أنّ بعضَ «الحَداثيّين العرب»: (لا يَعْرفون من الثّقافة الأوروبيّة إلاّ الفُتَات والقُشُـور، ويَتَّخِذُون من الجَهْلِ بالتُّرَاثِ العربيّ الإسْلاميّ ثقافةً لهم، فهم لا جُذُور لهم لا في هذه ولا في تلك. إنّ «المُثقَّفين اللّقَطَاء» لا يُمْكِنُ أنْ يُشارِكُوا الأُمّةَ في هُمُومِهَا، وذلك كان مـن الوَاجِبِ وَضْعُهُم خَـارِجَ الهَمّ والاهْتِمام). وتَتَأكَّدُ هـذه الرُّؤية، فيما يَتَعَلَّقُ بهذا المُصْطلح الظَّريف: «المُثقَّفون اللّقَطَاء»، عندما نجد أنّ «مَفْهُومَ الحَداثَة» بَلَغَ إلى درجة الهَذَيَـانِ حيـث نَقِفُ - على سبيل المِثـال - عند أدونيس وهو يقـول: (تَقْتَضِي «الحَداثَةُ» قَطْعاً مع التَّأسْلُفِ والتَّمَغْرُب)[٦٤]، وهذا يَعْنِي أنّ الرّجُلَ يُريدُ أنْ يَبْدَأَ من «لا شيء»؛ وأمّا المَنْظُورُ العِلْميُّ لحقائِق الحياة وقوانين الطّبيعة فإنّه يُؤَكِّدُ أنّ: («لا شيء» يُوَلِّدُ «لا شيء» ليُوَلِّدَ «لا شيء»)، لتكون المُحَصِّلَةُ النّهائيّةُ «صِفْراً كبيراً».

وهكذا نجد أنّ «الحَداثَة» عنْد العرب تُعَانِي من «أزْمَة انْفِصَام» حقيقيٍّ مع «مَراحِل التّطَـوُّر» من ناحيةٍ، ومع «السِّياقات التّاريخيّة» من ناحيةٍ أُخْرى، ومع «مَنْظُومَةِ الأولويّات المُجْتمعيّـة» مـن ناحيـةٍ ثالثة؛ وهي تَـرْزَحُ تحْت وَطْـأةِ الخَلْـطِ الوَاضِح بيـن «الحَداثَة» كمُنْطلقـاتٍ فِكْريّةٍ ضَارِبَةٍ في تاريخ الغَرْبِ وقِيَمِهِ وثقافته، وبين «التّنْمية» بصفتها تطوُّراً بشريّـاً يَسْتعيـنُ بالوسائِل، ويتلاقـحُ مع الأفْـكار، ويُحافِظُ على «الأصَالَـة»، ويتفاعلُ مع «ثقافـة المُجْتمع» وهُويّتـه. وأمّا أبْرز نقاط ضَعْـفِ «الحَداثَة» فهي أنّهـا حَداثَةُ مجْمُوعةٍ

مـن المُثقَّفيـن، أو «الانتليجينسيـا» بالمَفْهُوم الغَرْبـيّ؛ أيْ أنّها «ثقافةُ نُخْبَـةٍ» يتحاورون ويتناقشون بعيداً عن الوَاقِع العربيّ، بمَعْنَى أنّهم لا يُعَبِّرُون عنه، ولا يتعاملون مع مُكَوِّناتِه، ولا يتصـدَّون لإشْكَالاتِـه التّنْمَويّة. أمّا طه عبد الرحمن[٦٥] فيـرى أنّ «رُوح الحَدَاثَة» هي: (رُوحٌ رَاشِـدَةٌ ونَاقِدَةٌ وشَامِلَة)، وأنّ من نتائـج ذلك هو: (تَعَدُّدُ تَطْبيقاتِ «رُوح الحَدَاثَة»، بحيث يُمْكِنُ لها التَّجَلِّي في أَكْثر من مَظْهَر). ولذا فإنّ «المَشْهَد الحَدَاثيّ العربيّ» – عبْر اخْتِزَالِـهِ لـ«الحَدَاثَـةِ» في مَظْهَرِهَا الفَنّـيّ والأدبيّ والاسْتِفْزازيّ – قـد أَعْلَنَ بذلك فشله وعـدم قُدْرَتِـهِ على تَمَثُّلِ «رُوح الحَدَاثَة» الحقيقيّة؛ لتكـون النّتيجة كما عَبَّر عنها عبد الله الغذّامـي[٤٩] بقوله: (ولا عجب هنا أنْ تكون «الحَدَاثَةُ» على هَامِش الوجود العربيّ، وتظلُّ خَارِجَ إطَـارِ الفِعْلِ والتّفاعُلِ الحَـيّ والتّغْيير الجِذْريّ)، ويقولُ أيضـاً: (والنَّصُّ الحَدَاثيّ نَصٌّ سَدِيميّ، حسب وَصْفِ أدونيس له، وهو عَبَثِيّ، ومُنَافٍ للمَنْطقيّ، يقوم على انْفِصَامٍ بين أدواتِ التّعْبير وما يُرَادُ التّعْبير عنه، وهو ذَاتِيٌّ لُغَتُهُ انْفعاليّةٌ غير عَقْليّةٍ ولا عِلْميّة).

وهكـذا نَسْتطيـعُ أنْ نَخْلُصَ، ونحن فـي «الأَلْفيّة الثّالثة»، إلى أنّـه لم يَنْتُجْ عن ذلك «المَشْهَدِ الحَدَاثيّ العربيّ» ومراحِلِه المُخْتلفة –على مدى عُقُودٍ من المُحاولات الحَدَاثيّة– تَطْويـرٌ يُذْكَرُ، أو تَنْمِيةٌ تُثْمِّنُ، أو أَثَرٌ حضاريٌّ، أو مُحَصِّلَـةٌ فِكْريّةٌ مَلْمُوسةٌ، أو تَغَيُّرٌ ثقافيٌّ إيجابـيٌّ يَتْرُكُ انْعكاساتٍ مُضيئةً في «الحَرَاكِ المُجْتمعيّ»؛ بَـلْ هناك من «أَهْلِ الحَدَاثَةِ» من أَعْلَنَ توبته، ومنْهم من ذَكَرَ أنّنا تجاوزنا «الحَدَاثَةَ» إلى «ما بَعْد الحَدَاثَة»، وهذا يَعْني – بالضّـرورة – اضْمِحْلالَ «الحَدَاثَةِ» وتَأْثيراتِها. إنّ «التَّجْرِبَةَ العربيّة» – في رأْيي[٦٠،١٠٩] – أَفْلَحَتْ – عبْر قَرْنَيْنِ من الزّمان – في المُحَافَظَةِ على «إشْكَاليّة النّهْضَة»، حيث راحتْ «المُجْتمعات العربيّة» تُرَاوحُ مكانها، ولم يَتَغَيَّرْ شيءٌ، ونحن نَدْلِفُ إلى «الأَلْفيّة الثّالثة»، وما زالـتْ أدبيّاتُنا اليوم تُكَرِّرُ أدبيّات القَـرْنِ التّاسع عشر وبداياتِ القَرْنِ العشرين الميلاديّ فيما يَخُصُّ الهُويّة والنَّهْضَة والقِيَم ودَعَوات التَّغْريب ورُدود الفِعْل الغَاضِبَة، وبقي السُّؤالُ القديـمُ – الجديد: (لماذا تَأَخَّرْنَا، وتَقَدَّمَ غيرُنا؟)؛ أَيْ أنّ «الإشْكَاليّة» باقيةٌ كما هي، إنْ لـم تَزْدَدْ عُمْقاً مع تراكُمَاتٍ ومُسْتَجِـدّاتٍ ومُتَغَيِّراتٍ تَفْرِضُ – بالضّرورة – ثِقْلَهَا وأَسْئِلَتَهَا وحَيْرَتَهَا وضَبَابيّتَهَا.

٤-٤) أبْعادُ «الإشْكَالِيّة»:

إنّ «إشْكَالِيّـةَ الوَاقِـع العربـيّ المُعَاصِـر» ليس في أنّه تَـرَكَ «التُّـرَاث» وانْهَمَكَ في «الحَدَاثَـة»، وليسـ لأنّه طَلَّقَ «الحَدَاثَـة» وانْغَلَقَ على «التُّرَاث»، ولـو أراد أيَّ المَنْحَيَيْن لما اسْتطـاع؛ ولكـن جَانِباً رئيساً مـن إشْكَالِيّتِه تَكْمُنُ فـي أنّ «الخِطَابَ العربـيّ التُّرَاثيّ» ما زال بِرُمَّتِـهِ مُعَاصِراً لنـا سَواءً ما كُتِبَ قبْلَ ألْف عام، أو ما يُكْتَـبُ اليوم؛ فـ«الإشْكَالِيّة» ما زالـتْ كما هي لم تَتَغَيَّرْ، وما زالـتْ أسيرةً لفَقْدِ القُدْرَةِ على تَمْييـز «البُعْدِ الزَّمَكَانيّ» في تَشْخيصِهَـا وتصوُّراتِهَا وتَأْويلاتِهَا. إنّ «الخِطَابَ التُّرَاثيّ» لم يَتَغَيَّرْ على الرّغْم من تراكُمِ الخِبْـرات، وطفراتِ المَعْرفَـة، وإنْجازاتِ الفِكْر الإنْسانيّ؛ وهكذا نجـدُ أنّ الدِّراسات في هـذا الشّأْن كما يقول أحمد موصللـي: (تَتَمَحْوَرُ الدِّراساتُ حـول الماضي، المُنْقَطِع عن الحَاضِر، أو الحَاضِر المُنْقَطِع عن الماضي؛ فهناك ثُنَائيّاتُ الماضي والحَاضِر، والتُّرَاثِ والعِلْم، والحَدَاثَةِ والتّقْليد، والاسْتِبْدَادِ والحُرّية، وهـي مُسَيْطِرَةٌ على عُقُولِ المُثقَّفين. أمّا «العِلْـمُ الحديثُ» فنحن لا نَصْنَعُه، بالرّغْم من تَعَدُّدِ الجامعات ومراكِز الأبْحاث والنّشر. وهكـذا لا يَصْنَـعُ المُثقَّفـون والعُلماء العـرب العِلْـم، ولا يُسَاهِمُون حتّى فـي تَطْويرِه في عَالَمِهِـم العربـيّ. أمّا الحُرّيّةُ في العمل على التُّرَاثِ من فِقْـهٍ وعِلْم كلامٍ وفَلْسفةٍ وغيرها فهي مَفْصُولةٌ عن علوم الدُّنْيا)[١٦].

وفـي هـذا السِّياق نَتَّفِقُ مع محمد عابـد الجابريّ عندما يَصِـفُ «إشْكَالِيّة الأصَالَةِ والمُعَاصَـرَة» بأنّهـا: (إشْكَالِيّةٌ فِكْرِيّةٌ ثقافيّـةٌ مَحْضٌ، بمَعْنَى أنّها تجـدُ أُسُسَهَا ومُبَرِّراتِ وجودِها في الوَضْعِ الثّقافـيّ والفِكْريّ، العربيّ الرّاهِن، في مُكَوِّنَاتِهِ وتناقُضَاتِه)[١]؛ ومن أبْـرز هـذه التّناقُضات تلك «الازْدواجيّة» التـي وَصَفَهَا الجابريّ بأنّهـا: (تَتَمَثَّلُ في وجود قِطَاعَيْـن، أو نَمَطَيْـن من الحيـاة الفِكْريّة والماديّة، أحدهمـا، «عَصْـريٌّ» مُسْتَنْسَخٌ من «النَّمُـوذَج الغَرْبيّ» ومُرْتَبِطٌ به ارْتِباط تَبَعِيّة، وثانيهما، «تَقْليديٌّ»، أو «أَصْليٌّ»، أو «أصيلٌ»، هو اسْتِمرارٌ لـ«النَّمُوذَجِ التُّرَاثـيّ» في صُورتِه المُتأخِّرَةِ المُتَحَجِّرَةِ المُتقوقِعَة، والقِطَاعَان معـاً مُنْفَصِـلان، أو مُتَوازِيَان، أو مُتَداخِـلان بعْض التَّداخُل، يتنافسـان ويتصادمان في

حياتنــا اليوميّة، على صعيد وَاقِعِنــا الاقْتصاديّ والاجْتماعــيّ والسّياسيّ كما على صعيد وعينا وفضاء تَفْكيرنا)[٥٩]. وهنا أيضاً نَتَّفِقُ ونَخْتَلِفُ مع محمد عابد الجابريّ؛ فنَتَّفِقُ معه عندما اقْتَرَحَ ضرورة التّوَجُّهَ لضَبْطِ مُصْطلح «الأصَالَة» عندما جعل: (إعادة كِتابة تاريخنا الثّقافــيّ برُوحٍ نَقْديّةٍ ورُؤيةٍ عَقْلانيّةٍ تاريخانيّةٍ ضرورةً مُلِحَّةً، ليس فقط من أجل امْتِلاكِ تُرَاثِنَــا والتَّحَرُّرِ من ثِقَــلِ حُضُورِه، بَلْ أيضاً مــن أجل إعْدَادِ التُّرْبَــةِ الصّــالِحَةِ الضّروريّةِ لاسْتِنْبَاتِ أُسُسِ التّقدُّم والتّطوُّر في فِكْرِنَا وثقافتِنا المُعَاصِرَة، الشَّرْطُ الضّروريُّ لتَأْصيلِ «المُعَاصَرة» فينا، أَعْنــي تَحْويلها من مُعَاصَرةٍ قَائِمَةٍ على التَّبَعِيَّةِ والنَّقْلِ والاسْتِنْسَاخِ إلى مُعَاصَرةٍ قَائِمَةٍ على المُوَاكَبَةِ والمُسَاهَمَةِ إنْتاجاً وإبْداعاً)[١].

أقــول: نَتَّفِقُ مع الجابريّ في أهميّةِ نَقْدِ «التُّرَاث»، والمُرَاجَعَاتِ العَقْلانيّة، وعمليّاتِ الغَرْبَلَــةِ والتّحْقيق، وهذا يُمَثِّلُ الشِّقَّ الأوّلَ مــن «الإشْكَاليّة» القَائِمة، وهو يقع في إطَارِ ما أَسْمَــاهُ «التَّخْطيط لثقافة الماضــي»[١]؛ ولكنّنا نَخْتَلِفُ معه – أيضاً – لأنّ الشِّقَّ الثّاني من «الإشْكَاليّة» القَائِمَةِ يقع – بالضّرورة – في إطَارِ ما أَسْمَاهُ «التَّخْطيط لثقافة المُسْتَقْبَل»[١]، وهذا النَّوْعُ من «التَّخْطيط» يَحْتَاجُ إلى تفاصيل تتجاوز الإشاراتِ العامّة والوَصْفَ السَّرْديّ، وهــو «تَخْطيطٌ» مُغَيَّبٌ تماماً في وَاقِــعِ «الثّقافة العربيّة» باسْتِثْنَاء مُحــاولاتٍ فَرْديّةٍ – هنا وهنــاك –، وكثيــرٌ منها مُرْتَجَلٌ وتَغِيبُ عنــه التّفاصيلُ الإجْرائيّةُ والسِّمَــاتُ العمليّة. ولذا فــإنّ «نَقْدَ التُّرَاث» وَحْدَهُ لا يَكْفِي، ومن الضّروريّ أنْ يَحْتوي «التَّخْطيط لثقافة المُسْتَقْبَل» على عناصر حَيّةٍ وبصماتٍ مُؤثِّرةٍ للحركة العَارِمَةِ التي تُشَكِّلُ الحَاضِرَ وتَصْنَعُ المُسْتَقْبَل، وهذه الحركة هي «الحركةُ العِلْميّةُ – التِّقنيّة» بتداعياتِها المَعْرفيّة، ومُقْتضياتِها الثّقافيّة، وآفاقِها الفِكْريّة.

مــن المُهِمّ – إذاً – أنْ نُحَدِّدَ حقيقــةَ «الحَدَاثَة»، ونَفْحَصَ مُحْتواها وقِوامَهَا، ونَسْبُرَ مُقَوِّمَاتِهَــا وعناصِرَهَــا، ولن نجد الأَمْر عسيــراً؛ لأنّها وَاقِعٌ يَتَحَرَّكُ أمامنــا، ويَتَحَكَّمُ في مصيرنــا – شِئنــا أم أبينــا –، وأمّــا ما يَبْــدُو لبعْض النَّاظِرين بــأنّ: (الثّقافــة العَلْمَانيّة مُصَاحِبَــةٌ للحَدَاثَة)[١٦]، فهــو لا يَعْدُو كَوْنَهُ أَحَد أبْعَادِ تَأْثير «ثقافــة الغَالِب»؛ فـ«الحَدَاثَةُ» بمُحْتواهــا الفَاعِلِ وتَأْثيرِهَا الجوهريّ – في نهاية المطــاف – تَتَمَثّلُ في «الحركة العِلْميّة

- التِّقنيّــة»، وآثارِها الماديّة والفِكْريّة والفَلْسفيّــة، ومُقْتضياتِها الاقْتِصاديّة والاجْتماعيّة والسّياسيّــة القَابِلَةِ للنّقْدِ والتّطْويرِ والقَوْلَبَةِ والتّكْييفِ حــال امْتِلاكِ القُدْرَةِ على التّعامُلِ مع أسْبَابِهَا العِلْميّة ومُعْطياتها التِّقنيّة.

٤-٤-١) هل «الأَصَالَة» مَفْهُومٌ «نِسْبِيٌّ»؟:

يَحْتَــلُّ مَفْهُومُ «النِّسْبَوِيِّــة» (Relativism) - في الفِكْرِ الغَرْبِــيّ - مَرْكزَ الصَّدارة، ويشيــعُ عبْــر مُخْتلــف مدارســه ومَنْظُوماتِه الفِكْريّــة والعَقَديّــة والاجْتماعيّــة والسُّلوكيّة والسّياسيّة، حيث يتبنَّى دُعاة «الفِكْرِ النِّسْبَوِيّ» مَقُولة: (كُلُّ حقيقةٍ نِسْبِيَّة)؛ وبذا لا تُوجَدُ عندهم حقيقةٌ مُطْلَقَةٌ، أو مَرْجِعِيّةٌ ثَابِتَةٌ، أو وِجْهةُ نَظَرٍ ذات صلاحيّةٍ دَائِمَةٍ وغيرُ مُتغيِّرَةٍ - زمانــاً ومكانــاً -؛ وهذا يَعْنِــي أنّه لا تُوجَدُ مقاييــس للتّمييزِ بين الصَّــوابِ والخطأ، ولا يُصْبِــحُ للأَحْكَامِ الاجتماعيّــة أو العقائديّة مَعْنَىً؛ فما هو مَقْبُولٌ ومُعْتَمَــدٌ اليوم يُمْكِنُ أنْ يكون مَنْبُوذاً ومُحَارَباً غداً، والعَكْسُ صحيح. في «المَفْهُومِ النِّسْبَوِيّ» لا تَحْظَى المُعْتقداتُ والقِيَــمُ والأَخْــلاقُ والمُمَارَسَــاتُ بمَرْجِعِيّــةٍ مُطْلَقَــة، ولكنّها قضايــا «ذَاتِيّــةُ المَرْجِعِيَّة» (subjectivity)؛ فهــي تَتَغيَّرُ زماناً ومكاناً، وتَتَبَــدَّلُ وفْق المُجْتمعات والظُّرُوف والبِيئات والثّقافات؛ ولِكُلٍّ مُبَرِّراتها ومُسَبِّباتها.

بطبيعــة الحــال، كان لا بُــدَّ لـ«الثّقافــة الغَالِبَة» في زمننــا أنْ تَطْبَــعَ بصماتِها على تفاعُــلاتِ «الثّقافات المَغْلُوبَة»، وأنْ تَكْتَسِحَ السّاحاتِ الضَّعيفة والمُتهيِّبَة، ممّا يُجيزُ لنا - فــي إطار الحديث عن «الأَصَالَة والمُعَاصَرة» - أنْ نَسْــأل: (هل «الأَصَــالَةُ» مَفْهُومٌ «نِسْبِيٌّ» يَتَغَيّرُ بتغيُّر «الزّمان» و«المكان»؟). إنّ مِثْل هذا السُّؤال يَجْعَلُنَا نعود إلى قَضِيَّتَيْن:

١) الفَــرْقُ بين «الأَصَالَة» و«التُّــرَاث»، ولقد حَرَصْنَا - في ما سَبَقَ من هذا الفَصْل - علــى التَّمْييز بيــن مُصْطلحَيْ «الأَصَالَة» و«التُّرَاث»؛ فــالأوّلُ هو مَجْمُوعةٌ من «الثَّوابِــت» أو «الحقائِــق المُطْلَقَــة» التــي يَنْبَغِــي أنْ لا تتأثَّر بالزّمــان والمكان والثّقافــات، وأمّــا المُصْطلح الثّانــي، فهو التَّراكُمَــاتُ البشريّــة والاجْتِهَادَاتُ

المُتَنَوِّعَـة، وهـي - بالضَّـرورة - تتأثَّـرُ بالزَّمـان والمـكان والبيئـة والثَقافـة وخصائِص المُجْتمع.

٢) ضـرورة التَّصَدِّي للسُّـؤال: (هلْ هذه المَجْمُوعـة من «الثَّوابـت» المُنْتَمِيَة لما أَسمينـاه «الأَصَالَـة» هي في حَـدِّ ذاتها قَابِلَـةٌ للخُضُـوعِ لـ«مَفْهُـومِ النِّسْبَوِيَّة» واسْتيعابِه في تفاعُلاتِها؟).

ليس من أهْداف هذا الكِتاب الوُلُوجُ في البُنى الفَلْسفيّة والنّقاشات الجَدَليّة، بَلْ لعلّه - كمـا هو وَاضِحٌ من «الرُّؤية المِحْوَرِيّة» للمُؤلِّفِ والمَطْرُوحَةِ باستِفاضةٍ بين دَفَّتَيِ الكِتاب - يُكرِّسُ انتقادها وتِبْيَان أضْرارها، ويَحُثُّ على تَقْليصِ كَمِّهَـا، وتَحْجيمِ نَوْعِهَا، لتَنْطَلِقَ قَافِلَـةُ «المُجْتمعات العربيّة» على أساسٍ تَوَافُقـيٍّ يَسْتَخْدِمُ «المِجْهَرَ التَّنْمَويّ» ويتفاعلُ مع «المَرْجِعِيَّـة العِلْميّة». ولكن للإجابة عن السُّؤال المَطْرُوح في هذا المَبْحث، فإنّ علينا أنْ نُعـرِّجَ على أهمّ حُجَـجِ «النِّسْبَوِيَّة»، فهنـاك جَدَلٌ وَاسِعٌ، بيـن الفلاسفة والأنثروبولوجيّين وعُلمـاء الاجْتمـاع وأساطين الفِكْـر السّياسيّ واللّيبراليين الذين انضمُّوا إلـى المَعْمَعَة تحـت اسْم «الحُرِّيّة الفَرْديّة»، حيث نَلْمَسُ تَنَوُّعاً في درجات «النِّسْبَوِيَّة» - رَواجاً وانْتِشاراً وتَأْصيـلاً - في تلك الأُطُـرِ المُتعدِّدَةِ للتّفاعُلات البشريّة. ولكـن بالرّغم من كلّ ذلك إلاّ أنّـه لا يغيـبُ عن أيٍّ منها أهميّة دَعْـمِ «الرُّؤية النِّسْبَوِيَّة» بالسِّـلاح الأقْوى في عَالَمِ اليوم وهـو «سِلاح العِلْم»؛ فكُلّما جاءتْ حُججهم مَدْعُومَةً بقرائِن عِلْميّةٍ ونظريّاتٍ فيزيائيّةٍ كان ذلـك أدْعَى لقَبُولِ دَعْواهم، واكْتِسَابِ أرضٍ عِلْميّةٍ صُلْبَةٍ، ودَحْضِ مَقُولات المُناوئين. لذا ليـس من المُسْتَغْرَبِ أنْ يَعْمَدَ «دُعَـاةُ النِّسْبَوِيَّة» إلى «العِلْمِ الطَّبيعيّ» ليُسَارِعُوا إلى تَجْنيد أيّ نظريّـةٍ فيزيائيّةٍ توهَّمُوا أنهـا تُؤكِّدُ «نِسْبَوِيَّتَهُم»؛ فهم تارةً يَحْتَجّون بـ«مَبْدأ الرِّيبة» في الفيزياء (The Heisenberg Uncertainty Principle)، وتارةً أُخْرى بـ«ميكانيكا الكَمّ» (Quantum Mechanics)؛ وكُلُّ هـذه المَزَاعِـم تتهاوى - عنـد التّمحيص والتّبيين -، وهـي مَزَاعِمُ قَابلَـةٌ للدَّحْضِ العِلْميّ. وأمّا «العمـود الفِقْريّ العِلْميّ» لدعـاوى «النِّسْبَوِيَّة» فهـو «النّظريّةُ النِّسْبِيَّـةُ» (The Theory of Relativity) لألبرت آينشتاين حيث نجد أنّ أصْحـاب «النِّسْبَوِيَّة»، ودُعاة «ذَاتِيَّةِ المَرْجِعِيَّـة»، يتوسَّلُون دَعْماً عِلْميّاً من آثارِها الفِكْرِيّة

وتداعياتِهـا الفَلْسفيّة؛ ولذا فإنّنـا سنَبْحَثُ - بإيجازٍ - في مُنْطلقـات «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» ونتائِجِها، ونتحرَّى مدى تماسُكِ «المَزَاعِمِ النِّسْبَوِيَّة» حولها.

٤-٤-١- أ) «النّظريّة النِّسْبِيَّة» تَنْسِفُ «النِّسْبَوِيَّة الفلْسفيَّة»:

لكـي نَتَعرّفَ على حقيقة «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» في الفيزياء - مُنْطلقاً وتداعياتٍ - فإنّ مـن الضّروري أنْ نَتَوَقَّفَ أمام مفاهيمهـا الرّئيسة[١١٠] لنجـد أنّ «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» هي فـي الوَاقِعِ نظريّتان؛ الأولى، تُعْرَفُ باسْم «النَّظريّـة النِّسْبِيَّة الخَاصَّة»؛ لأنّها تَخْتَصُّ بما يَحْـدُثُ في «الأَنْظِمَةِ القُصُوريّة» فقط، وهـي الأَنْظِمَةُ التي تَتَحَرَّكُ بسُرْعةٍ مُنْتَظِمَةٍ؛ لأنّها لا تَخْضَـعُ لتَأْثير قُوىً خَارِجيّةٍ، ولقد نَشَـرَ آينشتاين هذه الورقة العِلْميّة في عام ١٩٠٥م. وأمّـا النّظرية الثّانية، التي نَشَرَهَا آينشتاين في عام ١٩١٥م، ليُعَمِّمَ فيها فرضيّاته، فهي تتعاملُ مع الأَنْظِمَةِ التي تَخْضَعُ لتغيُّراتٍ في السُّرْعة، وتتأثّر بقُوّة «الجَاذِبيّة»، ولذا عُرِفَتْ باسْم «النّظريّة النِّسْبِيَّة العَامّة».

لقد اعْتَمَدَتْ «النَّظريّةُ النِّسْبِيَّةُ»، بشِقَّيها، على مَفْهومَيْن أساسَيْن، وهما:

١) إنّ «سُرْعة الضّوء» مِقْدارٌ ثابتٌ مُطْلَقٌ لا يَتَغَيّرُ بتغيُّر سُرْعة المَصْدَرِ أو الرّاصِد.

٢) إنّ «صلاحيّـة قوانيـن الفيزيـاء» سَاريـة المَفْعُول فـي كُلّ الأَنْظِمَـة؛ وبذا فإنّ «قوانين الفيزياء» لا تَتَغَيَّرُ بتغيُّر «الزَّمان» أو «المكان».

لقـد تَرَتَّـبَ على تلكمـا «الحقيقَتَيْـن المُطْلَقتَيْـن» نتائِج «نِسْبِيَّـةٍ» مُذْهِلَـةٍ، وأَصْبَحَ «المكان» و«الزَّمان» و«الطَّاقة» و«المادّة» في حالة الْتِحام حميمةٍ بحيث يُؤَثِّرُ كُلٌّ منهم في الآخَر لتَتِمَّ إعادة صِياغةٍ كاملةٍ لتصوّراتِنا عن الكَوْن، واسْتَنْتَجَ آينشتاين من «المَفْهومَيْن المُطْلَقيْن» «الحقائق النِّسْبِيَّة» التّالية:

١) إنّ «الكَميّـات الفيزيائيّـة»، مِثْـل: «السُّرْعَـة» و«الكُتْلَة و«الطُّول»، هـي «كَمِّيّات نِسْبِيَّة» تَعْتَمِدُ على «سُرْعة الرَّاصِد».

٢) إنّ «الزَّمان» و«المكان» مَفْهُومان مُتداخِلان يُؤثِّرُ أحدهما في الآخَر، وأُطْلِقَ على هذا التّداخُل مُصْطلح «الزَّمْكان»؛ وبذا أَصْبَحَ «الزَّمان» و«المكان» «مَفْهُومَيْن نِسْبِيَّيْن» بحيث تَعْتَمِدُ مقاديرهما على «سُرْعَةِ النِّظَامِ بالنِّسْبَةِ إلى الرَّاصِد».

وهكذا أَلْغَتْ «النَّظريّةُ النِّسْبِيَّةُ» ما كان سَائِداً في «الفيزياء التَّقْليديّة» من اعتقاد أنّ «الزّمان» و«المكان» مَفْهُومان «مُطْلَقَان»، وأَكّدَتْ في الوَقْت نفْسه أنّ «سُرْعَةَ الضّوء» مُطْلَقَة، وهو الأَمْرُ الذي لم يَخْطُرْ على بال بشرٍ من قبْل. وهكذا نجدُ أنّ «النّظريّة النِّسْبِيَّة» نفْسها تَحْتوي على «ثَابِتٍ أصيلٍ»، وذلكم هو «سُرْعة الضّوء» ذو «القِيمة المُطْلَقَة» التي لا تَتَغَيّرُ بتغيُّر «الزّمان» و«المكان»، ويُعْتَبَرُ هذا «المَفْهومُ المُطْلَقُ» الفرضيّةَ الأَسَاسَ لـ«النَّظريّة النِّسْبِيَّة» فهي تَسْقُطُ وتَنْهَارُ بدونها. وأمّا «المَفْهُومُ المُطْلَق» الآخَر الذي تَسْتَنِدُ إليه «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» فهو «صلاحيّةُ قوانين الفيزياء» في كُلّ الأَنْظِمَةِ والأُطُر؛ فلـ«قوانين الفيزياء» الهَيئة نفْسها لجميع الرَّاصِدين في مُخْتلف النُّظُمِ بغَضِّ النَّظَرِ عن «ذَاتِيَّةِ الرَّاصِد» أو مَوْقِعِهِ في «الزَّمان» و«المكان».

وأمّا «الأدبيّاتُ العِلْميّة»[111] فتُؤكِّدُ أنّ آينشتاين أَطْلَقَ على نظريّته اسْم «نظريّة الثَّبَات» (Theory of Invariance) لأنّها تَعْتَمِدُ - أساساً - على «الثَّبَات» وليس «النِّسْبِيَّة»، ولم يَظْهَرْ اسْم «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» إلاّ بعد فَتْرَةٍ من نَشْرِهِ لورقته العِلْميّة في عام ١٩٠٥م، ولقد حَدَثَ ذلك عندما سَكّ الفيزيائيّ ماكس بلانك (Max Planck) ذلك المُسمَّى الذي قاومه آينشتاين لعِدّة سنواتٍ قبل أنْ يَنْحَني لضَغْطِ «المُجْتمع العِلْميّ» بسبب رَوَاج ذلك المُسمَّى. ولقد ازداد امْتِعاضُ آينشتاين من مُسمَّى «النِّسْبِيَّة» مع ما شاهده من تَحْريفٍ لنظريّته والاسْتِشهاد بها من قِبَل «دُعَاة النِّسْبَوِيَّة» في مجالات الأَخْلاق والقِيَم والمُمارَسات والعقائِد وغيرها، فكأنّهم زعموا أنّ نظريّة آينشتاين تقول إنّ «كُلّ حقيقةٍ نِسْبِيَّة»، بينما الحقيقة العِلْميّة تُؤكِّدُ أنّ «الثَّبَات» و«عدم التَّغَيُّر» هما عِمَادُ «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» وأساسُها.

أمّــا ما هو أَدْعَى لشَجْبِ مَقُولات «دُعَــاة النِّسْبَوِيَّة»، الذين يَزْعُمُون وَصْلاً بليلى، هو أنّ «قوانيــن الفيزياء» تَسْتَنِدُ إلى ما يُعْرَفُ بـ«الثَّوابِـتِ الكَوْنيّة» التي لا تَتَغَيَّرُ في «الزَّمان» و«المــكان»، فهــي «ثَوابِتٌ مُطْلَقَةٌ». بَلْ لعلّ ما هو أَدْهَى مــن ذلك وأَمَرّ - بالنِّسْبة لمَزاعِم «النِّسْبَوِيَّــة» - هــو أنّ «العِلْمَ» كُلَّه - بمُحْتواه الفيزيائــيّ والكيمائيّ والرّياضيّ والبيولوجيّ والجيولوجيّ - يَسْتَنِدُ إلى قوانين لا تَتَغَيَّرُ في «الزَّمان» و«المكان»، وهي تَصِفُ ذلك القَدْرَ اليسير من «المَعْرِفَةِ» الذي اسْتطاع الإنْسان - بعَقْله وجُهْده وأدواته - أنْ يَدْرُسَهُ ويَعْرِفَهُ عن الكَوْن، وهذه القوانين هي جُزْءٌ مُشَاهَدٌ ومُجَرَّبٌ من سُنَن الله في الآفاق.

نَخْلُصُ - ممّا سَبَقَ - إلى أنّ «نِسْبِيَّةَ الزَّمان والمكان» في «النّظريّة النِّسْبِيَّة» تَنْبَثِقُ عــن «ثَوابِت»، وهــي «ثَبَاتُ سُرْعَــةِ الضّوء» و«صلاحيّــةُ قوانين الفيزياء» فــي كُلّ الأَزْمنة والأَمْكنــة. وهــذه الحقيقة تقودُنا إلى أنّ «المَفْهُومَ النِّسْبَوِيّ» فــي أحْوال البشر ومُتغيِّرات المُجْتمعــات - زمانــاً ومكانــاً - يَنْبَغِي أنْ يَسْتَنِــدَ إلى «ثَوابِت» وإلاّ عَصَفَــتْ بالمُجْتمعات الفوضــى، وانْعَدَمَتْ القُــدْرَةُ على التّمْييزِ في أحْــكام المَسْؤوليّات والحُقُــوق والوَاجِبات، وتَــرَدَّتْ تلــك المُجْتمعات فــي أَتُونِ الفِتَن؛ وهذا يعــودُ بنا إلى ما أَكَّدْنَاهُ فــي هذا الفَصْلِ مــن ضرورة التَّمييز بين مَفْهُومَيّ «الأَصَالَة» و«التُّرَاث» في «الفِكْر الإسْلاميّ»؛ فالأوّلُ يُمَثِّلُ «الثّوابِــتَ» و«المَقَاصِدَ» التــي تَلْتَزِمُ بها المُجْتمعات الإسْلاميّة، وهــي مُرْتَبِطَةٌ جِذْريّاً بما ورد في «الكِتاب والسُّنّة»، وهي - بالضّرورة - أُسُسٌ «مُطْلَقَةٌ» و«غير نِسْبِيّةٍ». وأمّا المَفْهُومُ الثّانــي، وهو «التُّــرَاث»، فيُمَثِّلُ مَجْمُوعةً مُتَراكِمَةً - زماناً ومكانــاً - من اجْتهاداتِ البشر وعاداتِهم ومُمَارَسَاتِهِم وظُرُوفِهِم، وهي - بالضّرورة - تَخْضَعُ لـ«المَفْهُوم النِّسْبَوِيّ».

٤-٤-١- ب) «النِّسْبَوِيَّة»: بين «المَنْطِق» و«نِهاية التّاريخ»:

لعلّ من المُناسِبِ أنْ نُورِدَ هنا طَرْحاً مَبْنيّاً على «المَنْطِقِ» الذي يَرْكَنُ إليه الفلاسفة ويَسْتَشْهِــدُون به، وهذا الطَّرْحُ المَنْطِقــيّ[١١١] يَدْحَضُ العِبَارَةَ الزّاعِمَــةَ بأنّ: (كُلّ حقيقةٍ نِسْبِيَّــةٌ)؛ فوفْق هذا الطَّرْح فــإنّ هذه العِبَارَة تُناقِضُ نفْسها لُغَويّــاً، وتُعَارِضُ مَدْلُولاتها مَنْطقيّــاً؛ فهي إمّا أنّها «عِبارَةٌ مُطْلَقَةٌ» ممّا يَعْنِي أنّها تُؤَكِّدُ في حَدِّ ذاتها «وجود المُطْلَق»،

وإمّا أنّها «عِبَارَةٌ نِسْبِيَّةٌ» ممّا يَجْعَلُهَا غير قَادِرَةٍ على نَفْي «المُطْلَقَات»!. وأمّا ما يُثِيرُ الانْتِبَاهُ ويَدْفَعُ إلى التّعجُّبِ فهو أنّ «الثّقافة الغَالِبَة»، وهي «ثقافة الفِكْرِ الغَرْبيّ»، تُرَوِّجُ - بنشاطٍ وحماسٍ - لـ«مَفْهُوم النِّسْبَوِيَّة»، وتُؤكِّدُ على «النِّسْبَوِيَّة الثّقافيّة»، حيث تَزْعُمُ أنّ القِيَمَ والمبادئ والمُثُلَ تَتَغَيَّرُ بتغيُّرِ البِيئات والثّقافات والمُجْتمعات، إلاّ أنّها في الوَقْت نفْسه تُؤكِّدُ أنّ ثقافتها «ثقافةٌ مُطْلَقَةٌ»، سَاعِيةً بكُلِّ ما أُوتيتْ من قُوّةٍ - عبْر أدواتها العَوْلَميّة وهَيْمَنَتِهَا الإعْلاميّة ومُنظّماتها العَالَميّة - إلى فَرْضِ نَهْجِ «الثّقافة الغَرْبيّة» وقِيَمِهَا ومفاهيمها على الآخَرين في مُخْتلف الأصْعِدَة، وزَاعِمَةً أنّ ثقافات الآخَرين هي ثقافاتٌ لم تَنْضَجْ بعْد لتَكْتَسِبَ «المعاني المُطْلَقَة» و«القِيَم الأصيلة» التي يَتَمَيَّزُ بها «الفِكْرُ الغَرْبيّ».

إنّ الأمْثلة على ذلك كثيرةٌ؛ فليس ببعيدٍ عنّا زَعْمُ فرانسيس فوكاياما[١١٢،١١٣] بما أَسْمَاهُ «التّاريخ ذو الاتِّجَاه» (Directional history)؛ وفي رأْي فوكاياما فإنّ ذلك «الاتِّجاه الحَتْميّ» هو نحو «الدِّيموقراطيّة الليبراليّة» حيث يرى أنّ: (البشريّة ستتوقّفُ عن أيّ تَقَدُّمٍ إضافيٍّ في مَنْظُومَاتِهَا ومبادِئها الأساس؛ لأنّ الأسْئلة الكُبْرى للبشريّة تكون قد اسْتَقَرَّتْ، وأنّ شَكْلَ المُجْتمع أَصْبَحَ مُتَوَافِقاً مع أعْمق رغبات وطُمُوحات الإنْسان)[١١٢]. وهكذا يَقْفِزُ فوكوياما إلى حتميّة التّاريخيّة، فيرى أنّ «الدِّيموقراطيّة الليبراليّة» ستكون: (نُقْطة النّهاية في التّطوُّر العقائِديّ للبشر)، وتُصْبِحُ (الشّكلَ النّهائيّ للحكومة البشريّة)؛ وبعِبَارةٍ أُخْرى، «الحالةُ المُطْلَقَةُ» التي تَنْشُدُهَا وتَسْتَقِرُّ عندها المُجْتمعات البشريّة!. أمّا ما تُدَنْدِنُ حوله «المُجْتمعات الغَرْبيّة» عن مَفْهُوم «حُرِّيّة التّعْبير» واعْتباره «مَفْهُوماً مُطْلَقاً» لا يَقْبَلُ مُساومةً ولا تنازُلاً ولا مُراجَعَةً فأَمْرٌ بارزٌ للعيان، حيث تُسارِعُ مُنظّماتهم السّياسيّة ومَنْظوماتهم الإعْلاميّة وهيئاتهم الحُقُوقيّة إلى الدِّفاع - بشراسةٍ - عن «حُرِّيّة التّعْبير» حتى ولو كانتْ على حِساب الاعْتِداء على مُقدّسات الآخَرين، وما الرُّسُومُ الكاريكاتيريّة المُسِيئة للرسول - صلّى الله عليه وسلّم - وغير ذلك من اعتِداءاتٍ على «الذّات الإلهيّة» ورُمُوزِ المُجْتمعات الأُخْرى وأنْماطها الحياتيّة إلاّ مِثالاً حَيّاً على تَقْديسِهم لـ«مَفْهُوم حُرِّيّة التّعْبير» ليُصْبِحَ «مَعْبُوداً» في ثقافةٍ تَتَبَنَّى «النِّسْبَوِيّة» والتّحَرُّر من «المُطْلَقِ الثّقافي». وتُناقِضُ هذه «الثّقافة النِّسْبَوِيّة» نفْسها - أيضاً - إزاء الحَدَثِ التّاريخيّ المَعْرُوف

بـ«المَحْرَقَـةِ اليهوديّـة» (The Holocaust) فنجـد أنّه لا يَخْضَـعُ لـ«نِسْبويِّتِهم» أو «حُرِّيّة التَّعْبيـر» عندهم، فهو «حقيقةٌ مُطْلَقَةٌ» لا يجوزُ إنْكَارُهَا أو التَّشْكيكُ في وقائِعها، أو إعادةُ النَّظَـرِ في عدد ضحاياها، ويُعْتَبَرُ التَّطرُّقُ إلى ذلك مَدْعَاةً للتَّجْريم والمُحَاكَمَةِ والتَّسْفيه فـي عَدَدٍ من الدُّول الغَرْبيّة، وهـو عندهم أمْرٌ يَنْضَوِي تحت «التُّهْمَـةِ المُطْلَقَة» المَعْرُوفة لديهم باسم «مُعادَاة السَّامِيّة» (Anti – Semitism)!.

٤-٤-٢) «إشْكَالِيّة الثّقافَتَين» على الصّعيد العربيّ:

إنّ «الخاصيّـة الثّقافيّـة» لـ«إشْكَالِيّـة التّنْمية» تَفْرِضُ علينا مُقارَنَـةَ ما يَحْدُثُ على الصّعيد العربيّ بذلك المُنْعَطَفِ المُهِمّ في «الثّقافة الغَرْبيّة» الذي طَرَحَهُ تشارلز سنو(٣٢) في عـام ١٩٥٩م تحت اسْم «إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن»، ولقـد تطرَّقنا إليه ببعْض التّفْصيل في الفَصْل الثّاني، حيث وجدنا أنّه بعد أنْ حَسَمَتْ «المُجْتمعاتُ الغَرْبيّةُ» مَوْقِفَهَا من السُّلْطَةِ الدِّينيّـة والقُيُودِ التُّرَاثيّة، وانْطَلَقَتْ في رِحاب «الحَدَاثَة» بأنْواعها، وتَبَنَّتْ «المَنْهَجَ العِلْميّ التّجْريبـيّ»، اكْتَشَفَتْ تلك المُجْتمعات أنّها في حاجةٍ مُلِحَّةٍ إلى «ثقافةٍ جديدةٍ» تَتَوَاءَمُ مع «رُوحِ العَصْر»، وتتجانسُ مع حركته العِلْميّة والتّقنيّة وآفاقه التّنْمويّة، وأدْرَكَتْ أنّه لم يكنْ كافيـاً أنْ تَتَحقّقَ فيها «الحَدَاثَـةُ» بأشْكالِها الأدبيّة والفنيّة والسّياسيّة، بَلْ وَجَدَتْ أنّ ذلك يكون – أحياناً – مُعيقاً للحركة التّنْمويّة، ومُعَرْقِلاً للحيويّة العِلْميّة.

فـي «إشْكَالِيّـة الثّقافَتَيْن» – عنـد تشارلز سنو – تَمَحْوَرَتْ القضيّـةُ حول صِراعٍ بين طَـرَفٍ «تُرَاثـيٍّ» اخْتَزَلَـهُ تشارلز سنو في «الأدب»، وطَـرَفٍ «حَدَاثيٍّ» يَتَمَثَّـلُ في «الحركة العِلْميّة»؛ وأمّا في «إشْكَالِيّة التُّرَاث والحَدَاثَة» في «المُجْتمعات العربيّة» فإنّ القضيّة تَأْخُذُ أغْواراً أعْمق وتَتَّسِمُ بخصائِص مُرَكَّبَةٍ فنجد أنّ «النَّمُوذَجَ التُّرَاثيّ» – بمُكَوِّناته التّاريخيّة واللغويّـة والأدبيّة والفِقْهيّة والوِجْدانيّة – يُمَثِّلُ طَرَفاً في ذلك التّشَابُك، وتُمَثِّلُ «الحضارةُ الغَرْبيّـةُ» المُعَاصِرَةُ – بتقدُّمِهَا وتفوُّقِهـا ومُعْطياتِها الفِكْريّة والمَعْرفيّة والتّنْمويّة – طَرَفاً يَشُدّ في الاتّجاه الآخَر. بالنِّسْبَةِ لـ«إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» كان وُضُوحُ الطَّرَفِ الثّاني وتَشْخيصُهُ في «ثقافة العِلْم» سبباً للنّجاح في تَحْديد العِلاج، وكان العِلاجُ

هو ضرورة تَغَلْغُلِ تلك «الثَّقافة الجديدة» في «الفِكْر السَّائِد»، وأهميّة تفاعُلها مع «الثَّقافة الجماهيريّة»؛ وهكذا اخْتَزَلَ تشارلز سنو أحد طَرَفَيّ «الإشْكَالِيّة» في «الأدب» بينما بَرَزَتْ «ثقافــة العِلْم» على الطَّـرَفِ النَّقيض. وأمّا «إشْكَالِيّةُ التُّـرَاث والحَدَاثَة» في «المُجْتمعات العربيّــة» فيُمْكِـنُ أنْ نَفْهَمَهَا في إطارِ «إشْكَالِيّة الثَّقافَتَيْن»، ولكـن بلَبُوسٍ عربيٍّ، ومَلامِحَ شرْقيّةٍ، وخصائِص تُرَاثيّةٍ؛ فأمام «العَقْلِ العربيّ» تَتَّضِحُ مَلامِحُ الطَّرَف الأوّل (التُّرَاث) في «ثقافة التُّرَاث وأدبه وفِقْهه ولُغته وتراكُماته التّاريخيّة والسّياسيّة والاجْتماعيّة»، بينما يَبْقَى الطَّرَفُ الثّاني (الحَدَاثَة) مُبْهَماً وغَائِماً.

إنّــه من المُحْــزِن أنْ نَعْرِفَ أنّ «الثَّقافة العربيّة» ما زالتْ بعيدةً عن ذلك «المُنْعَطَفِ الثَّقافــيّ» المُهِــمّ الذي يُحَدِّدُ - بدِقَّــةٍ - مَلامِحَ طَرَفَيّ «الإشْكَالِيّــة»؛ فهي ما زالتْ تغوصُ فــي «إشْكَالِيّــة التُّرَاث والحَدَاثَة» فــي صِراعٍ يُحيطُ بــه الغُمُوضُ والتّعْميــم، وتُهَيْمِنُ على أدْعيــاء الجَبْهتَيْــن الأساليبُ البلاغيّة والحماسُ الوِجْدانيّ والانْفعــالاتُ الآنيّة، وكُلُّها من خصائِص «الثَّقافة العربية»، حتّى فَقَدَتْ الألفاظُ مَدْلولاتِها، والأفْكارُ وضوحَها، والمعاني مضامينَهــا؛ وهذا - بطبيعة الحــال - يَجْعَلُ العِلاجَ صَعْباً - إنْ لم يكن مُسْتحيلاً - ما لم تَخْضَــعْ تلك العناصِــر لقَدْرٍ كبيرٍ من التّمْحيص والتّجْريد والعَقْلانيّــة؛ لكي تَبْرُزَ الأُسُسُ الجوهريّةُ لمُكَوِّنَاتِ كُلِّ طَرَفٍ، وتَتَجلّى الحقائِقُ الكَامِنَةُ في جَوْفِ كُلٍّ منْهما.

وبتأمُّــلٍ أعْمق نجدُ أنّ «الطَّرَفَ الثّاني» المُهِمّ والقادِر علــى «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» في «إشْكَالِيّــة التُّــرَاث والحَدَاثــة» هو في الوَاقِع الطَّــرَفُ نفْسه الذي حَــدَّدَهُ تشارلز سنو في «إشْكَالِيّة الثَّقافَتَيْن»، وهو «الثَّقافة العِلْميّة»؛ وبما أنّ «الإشْكَالِيّة»، كما أَوْضَحَ محمد عابد الجابــريّ، هي: (إشْكَالِيّةٌ ثقافيّةٌ مَحْض)[1]، فإنّ أُسْلوبَ مُعالَجتها يَنْبَغِي أنْ يَتَّخِذَ «بُعْداً ثقافيّــاً» مِحْوريّــاً لتُصْبِحَ «ثقافة العِلْم» هــي البَلْسَم المَطْلوب والشَّــرْط الأساس لتَحْقيقِ «التّــوازُن الفِكْريّ» و«التَّجانُس الثَّقافيّ» و«التَّطوُّر المُجْتمعيّ»، وللتغلُّب على عناصِر «الشَّدِّ والجَــذْب» ومناطِق الصِّراعِ بيــن «نَمُوذَجٍ تُرَاثيٍّ» يَحْتَــاجُ إلى كثيرٍ من النّقْــدِ والمُرَاجَعَةِ والبَلْوَرَة، وبين «نَمُوذَجٍ مُعَاصِرٍ» تُشَكِّلُهُ وتَصْنَعُهُ «الحركة العِلْميّة - التِّقنيّة» بكُلِّ امْتِداداتِها وإنْجازاتِها ومُتَغَيِّراتِها.

٤-٤-٣) «المُؤشِّرُ الحَداثيّ»: مُؤشِّرٌ يَبْحَث عن تَأْسيس:

للحقيقــة يَنْبَغِـي ألاّ نَغْمِطَ محمد عابـد الجابريّ حَقَّهُ فـي الإشارة إلـى «العُنْصُرِ الفَاعِـل» فـي «المُعَاصَـرَة» حيث نجده يقول: (ولذلـك كان من الضّروري لنـا، سواءً من أجـل حَـلِّ مشـاكِل ماضينا في وَعْينا مـن أجل بِنَـاءِ مُسْتقبلنا الثّقافيّ، العمـل على نَشْرِ الثّقافة العِلْميّــة والفلْسفيّة وتَكْرِيسِ أساليب البَحْث العِلْمــيّ ومناهِجه، نظريّاً ومُمارَسةً، فـي ساحتنا الثّقافيّة الرّاهِنة. إنّــه الشَّرْطُ الضّروريُّ لتَدْشين عَصْر تَدْوينٍ جديدٍ يُؤسِّسُ المُسْتَقْبَـل بما يَسْتَجِيبُ لمُتطلَّباتِه ويَفِي باحْتياجاتِه)[1]. بطبيعة الحال تلك الإشارة إلى «الثَّقافــة العِلْميّــة» هي إشــارةٌ عَابِرةٌ كما هو الحــال في كثيرٍ من الطُّرُوحــات المُعَاصِرة لمُثقَّفيــن ومُفكِّرين وسياسيّين عرب، حيث تَبْقَى في إطارٍ ضَيّــقٍ، وفي حُدُودِ المُناسَبات المَعْنِيَّــة، دون مُحــاولاتٍ جَادّةٍ لاسْتيعاب أبْعــاد تلك الضّرورة فــي «المَنْظُومَةِ الثَّقافيّة»، والتّلاقُــح معها في الأُطُرِ الفِكْريّــة، وتَأْسيسها في «المَنْظُومَــةِ المَعْرفيّة»، وتَفْعيل آلياتِها فــي الإسْتراتيجيّــات المَطْرُوحة؛ ممّا جَعَلَ مــن «الثَّقافة العِلْميّة» «القضيّــة الغَائِبَة» التي لم تَجِــدْ تَأْصيلاً ولا تَأْسيساً ولا جُهُوداً جَادّةً للتّعامُلِ مــع مُقْتضياتِها وأبْعادِها وشُرُوطِها المُتَعَدِّدَةِ على الأَصْعِــدَةِ الفِكْريّة والسّياسيّة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والاجْتماعيّة وغيرها. وبالرّغْــم من أنّ إشارة الجابريّ إشارةٌ عَابِــرةٌ، إلاّ أنّها تُبَيِّنُ الحاجة الماسَّة إلى تَأْسيسِ «المُؤشِّــر الحَدَاثيّ» الأهمّ والضّروري في تفاعُلاتِ المُجْتمعــات المُعاصِرة والمُتَمثِّلِ في «الثَّقافــة العِلْميّة» ومدى انْخِرَاطِهَــا - بحيويّةٍ - في «المَسَــارِ المُسْتَقْبَلِيّ» اللازم اتِّخاذه وتبنِّيه لمُعالَجَةِ الإشْكالِيّات القَائِمَة في العَقْلِ والوِجْدَانِ والوَاقِعِ العربيّ.

ومــن أبْرز أسْباب تحفُّظــي[١٠٩،٦٠] على مُصْطلح «المُعَاصَرَة» فــي مُصْطلح «ثُنَائِيَّة الأَصَالَــة والمُعَاصَــرَة» هو أنّ الحديــث والنّماذج والأفْكار تَرِدُ دائماً مــن «العَالَمِ الغَرْبيّ» بحُكْــمِ قُــوّةِ التّفاعُلات معه، ولكــن لا يُمْكِنُ أنْ نَعْتَبِرَ ذلــك «النَّمُوذَجَ الغَرْبــيّ» «النَّمُوذَجَ المُعَاصِرَ الوحيــد»، أو «الرُّؤية الحَداثيّة الفريدة»؛ فـ«المُعَاصَرَةُ الحقيقيّةُ» يجب أنْ تَعْنِي كُلَّ جَوانِــب «المُعَاصَــرَة» والتّزامُن، ومن هذا المُنْطلق فهـل يجوزُ - مثلاً - إغْفَالُ نماذج

مُعَاصِـرةٍ وحَيّةٍ، مِثْـل: «النّمُوذَج اليابانـيّ»، أو «الهِنْديّ»، أو «الصِّينـيّ»، أو «الماليزيّ»، وتجارِبهم المُخْتلفة؟.

إنّ السُّؤال هو: (لماذا لم يَتَوَقَّفْ «الحَداثيّون العرب» كثيراً أمام «النّمُوذَج اليابانيّ» الـذي – كما يقول مسعود ضاهر[٨] –: «رَفَضَ فيه مُصْلحوهم وَضْعَ الأَصَالَةِ في مُواجَهَةِ الحَداثَة، أو التّصَـدّي للغَرْبِ بأُسْلوب المُمَانَعةِ فقط وبالشّعارات القوميّة العَاطِفيّة»؟)، والسُّـؤال – أيضاً – هـو: (لماذا لم يَتَوَقَّـفْ «التُّراثيون العرب» أمام الحقيقـة التي يُؤَكِّدُ مسعـود ضاهر[٨] بأنّـه: «يكاد يُجْمِعُ البَاحِثـون عليها في تَجْرِبَةِ التَّحْديـث اليابانيّة على أنّ الثّقافـة العَصْريّة هي الأساس في نَهْضَـةِ اليابان الجديدة، وهي ثقافةٌ تَحْمِي الجَانِبَ الإيجابـيّ في التُّـرَاث فتُدْخِلُهُ في عُمْقِ الوِجْدَانِ الشّعْبيّ، ولا تَضَعُهُ في مَوقِعِ التَّعَارُضِ مع الثّقافة العَصْريّة التي لا يُمْكِنُ أنْ تكون ثقافةً تُراثيّةً وحيدة الجَانِب»؟).

لقـد وجدنـا – أيضـاً – أنّ من مُشْـكلات «الحَداثيّيـن العرب» هي تبنّيهـم لمَوْقِفِ «الصِّـرَاع» مع ما هـو «تُرَاثيّ»، وإنْ كان هذا جُـزْءاً مِحْوريّاً من تطـوُّرِ «الحَداثَةِ الغَرْبيّة» وظُرُوفِهَـا التّاريخيّـة، فإنّه ليـس هناك من سببٍ وجيـهٍ يَقْتَضِي اسْتدعـاءه وإنْزاله على المُجْتمعات العربيّة والإسْلاميّة؛ وبالتّالي فإنّ من الضّروري، كجُزْءٍ من حَلِّ «الإشْكَاليّة»، إلْغـاء، أو تَقْليص، مَفْهُـوم «الصِّرَاع» فـي التّفاعُـلات الاجْتماعيّة والفِكْريّـة والثقافيّة والسياسيّة عنْد التّعامُلِ مع «إشْكَاليّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّة». أمّا «التُّرَاثيُّون»، فقـد غَابَتْ عن كثيرٍ منهم حقيقة أنّ «المُعَاصَرَة» شَرْطٌ أساسٌ لتوافر القُوّةِ القَادِرَةِ على حِمايـةِ «التُّرَاث»، وهي الحقيقـة التي يصوغها مسعود ضاهر بقولـه: (إنّ من يَعْجِزُ عن الانْخِرَاطِ في عمليّة التّجْديد والمُعَاصَرَة سيكون عَاجِزاً – بالضّرورة – عن حِماية مَورُوثِهِ الثّقافيّ الأصيل الذي هو مِلْكٌ للإنْسانيّة جَمْعاً)[٨].

مـن الوَاضِـح – إذاً – أنّ «الرُّؤية التّنْمويّة – العِلْميّـة – التِّقنيّة» غَائِبَةٌ في «الخِطَابِ العربـيّ المُعَاصِـر» بشِقَّيْهِ «التُّرَاثـيّ» و«الحَداثيّ»؛ فهي غَائِبَةٌ في طُرُوحَـاتِ «الحَداثيّين العـرب» الذيـن شَغَلَتْهُمْ معارِكهـم المُتَنَوِّعَـة، وهي غَائِبَـةٌ – أيضاً – لـدى «التُّرَاثيّين»،

فأُطْرُوحَاتُهُـم – في مُعْظَمِهَا – كلامٌ مَكْـرُورٌ، ومَوَاعِظ جَامِدَةٌ، ورُدودٌ حَادّةٌ، ومَحْفُوظاتٌ نَسَقيّـةٌ، وتَشَنُّجَاتٌ انْفعاليّةٌ على اسْتِفزازات مُنَاوئيهـم، أو في مُعالَجَةِ الأزمات التي تَمُرُّ بها مُجْتمعاتُهم.

٤-٥) الإشْكَالِيّة هي «إشْكَالِيّة حول العَدَم»:

يـرى محمد عابد الجابريّ أنّ طبيعة هذه الثُنَائِيّـةِ القَلِقَةِ بين «التُّرَاث» و«الحَدَاثَة» قـادتْ: (إلى وجود نَوْعٍ من التَّوَتُّـرِ والقَلَقِ والالْتِبَاسِ في العَلاقَةِ بين الماضي والمُسْتَقْبَل، بين التُّرَاثِ والفِكْرِ المُعَاصِر، بين الأنا والآخَر...الخ ممّا جعلها تَبْقَى عَلاقَةً، لا تقومُ على الاتِّصَالِ ولا على الانْفِصَالِ، وإنّما على التَّنَافُرِ والتَّدَافُعِ، والنّتيجةُ تَشْويشُ الحُلْم النّهْضَويّ في وَعْينا وتَعْتيم الرُّؤية في فِكْرِنَا)[1]. وأمّا وَاقِعُ «المُجْتمعات العربيّة» فيُؤَكِّدُ أنّ الصِّرَاعَ الـذي تَمَخَّضَ عن هذه «الإشْكَالِيّة» هـو وَاقِعٌ أَدْهَى وأَمَرّ من ذلـك «التَّشْويش» و«التَّعْتيم» اللذيـن أشار إليهما الجابريّ؛ فالتَّبِعَاتُ الاجْتماعيّـة والفِكْريّة والتّنْمَويّة والسّياسيّة لهذا الصِّرَاعِ كانتْ – في مُجْمَلِهَا – كَوَارِث مُتتاليةً على «المُجْتمعات العربيّة»، وهذا هو المُتَوَقَّعُ مـن صِرَاعٍ هو في وَاقِعِه – فـي رأيي[١٠٩،٦٠] – «صِرَاعٌ حول العَدَم»؛ فلا «النَّمُوذَجُ التُّرَاثيّ» موجودٌ على الأرض المُتَنازَع عليها، ولا «النَّمُوذَجُ المُعَاصِرُ» مُتَوَافِرٌ بشُرُوطِهِ ومُقْتضياتِه؛ ولـذا انْزَلَقَ «الخِطَابُ العربيُّ المُعَاصِـرُ»، كما هو مُتَوَقَّعٌ من تَرْكيبته الخَطَابيّة المَعْهُودة، إلى الإنْشائيّات والتّنْظيرات والصِّراعات السّياسيّة والاجْتماعيّة والكلاميّة حول «أَصَالَةٍ» تَخَلَّيْنَا عن مُقَوِّمَاتِهَا، و«مُعَاصَرَةٍ» لا نَمْتَلِكُ معاييرَها.

إذاً نَسْتطيـع أنْ نقـول إنّها – فـي الوَاقِع – «إشْكَالِيّـةٌ حول العَـدَم»؛ فـ«التُّرَاثُ» في جَانِبِهِ الأصيل – نتيجةً للانْفِصَـام بين التّنْظيرِ والمُمَارَسَةِ وبسبب التّراكُمَاتِ التّاريخيّة المُتَنَوِّعَة – غَائِبٌ – إلى حَدٍّ كبيرٍ – عن الحياة المُعَاصِرة، ولذلك أسْبابٌ عِدّةٌ ليس أقلُّها أنّنا نعيشُ ظُرُوفاً وتغيُّراتٍ ومُسْتَجِدَّاتٍ لم تكنْ في حِساباتِ الأوّلين واجْتِهاداتِهم، ونُضيفُ إلى هذا أنّ ذلك «التُّرَاثَ» امْتَزَجَ – بالضّرورة – باجْتِهاداتِ البشر ورُدودِ فِعْلهم وعاداتِهم وتقاليدِهـم ومُشْكلاتِهم في أزْمِنَةٍ وأماكِن مُخْتلفةٍ، وبعْضها تَمَكَّنَ وتَحَصَّنَ واسْتَقَرَّ حتى

دَخَلَ في إطار «المُقَدَّس»؛ وكُلُّ ذلك يَسْتَدْعِي كثيراً من الفَرْزِ والتَّمْحِيصِ والنَّقْدِ والانْتِقَاء. وهكذا نجدُ أنّ «خِطَابَ التُّرَاثيّين»، في كثيرٍ منه، هو: إمّا «خِطَابُ خيالات الماضي» الذي غَابَتْ كثيرٌ من حقائِقه ووقائِعه ليُصْبِحَ مَرْتعَاً للأوهام، ومُتَنفَّسَاً للإحْباطات، وإسْقَاطاً للتّمنّيات؛ وإمّا «نماذجُ مثاليّةٌ» نصوغُها - عبْر مَواعِظنا وخِطَاباتِنا المُتَباكِيةِ على الماضي التّليد - بعيداً عن التّفاعُلات اليوميّة، والمقاصِد الحيويّة، والمُمارَسات الحياتيّة، والضُّغُوط الحقيقيّة، والتّحدّيات المُسْتَفْحِلَة. إنّ «خِطَابَ التُّرَاثيّين» يَفْتَقِدُ ما هو إيجابيٌّ في «التُّرَاثِ» من أَخْلاقٍ وعَدْلٍ وإيثارٍ وزُهْدٍ وعملٍ وإتْقانٍ، ولا عِبْرة فيما يُطْرَحُ من مِثَالِيّاتٍ وخُصُوصيّاتٍ، وكلام يَزِنُ الجِبَالَ ويُغَطّي عَيْنَ الشَّمْسِ؛ فالعِبْرَةُ هي في الحقائِق فقط، حيث نجدُ أنّ كثيراً من تلك القِيَم، التي يَدْعُو إليها «الخِطَابُ التُّرَاثيُّ»، بعيدةٌ عن المُمَارَسَاتِ والحياة، بينما نجدها حَيّةً في الوَاقِع الغَرْبيّ، حيث يكون الإنْسان الغَرْبيّ - على سبيل المِثال - أكْثر اهْتِماماً بالجَوْهَرِ منه بالمَظْهَر، وأقلّ بَذَخَاً، وأكْثر اعْتِدالاً في الاسْتِهْلاكِ والتّباهي بالمُمْتلكات عن نظيره العربيّ المُسْلِم. أمّا أثرياؤهم فيوميّاً تَنْقُلُ إلينا أخْبارهم التّبرُّعات الضّخْمة ببلايين الدّولارات التي يُخَصِّصُونهَا للأعْمال الخيريّة وميادين التّعْليم ومعاقِل البَحْث؛ وأمّا شبابهم فهم الأكْثر حِرْصاً على «الأنْشطة التّطوعيّة» في مُجْتمعاتِهم وأحْيائهم وبيئاتِهم.

وأمّا «الحَدَاثَةُ» فهي - أيضاً - بشُرُوطِهَا المَعْرفيّة، وضَوابِطِهَا الإنْتاجيّة، وقِيَمِهَا الفِكْريّة، ومُمَارَسَاتِهَا المُنْضَبِطَة، لا تكاد تَبِين إذا اسْتثنينا الجَانِبَ الشَّكْليّ، والصِّرَاعَ اللفْظيّ المُحْتَدِم، و«التّنْمية الاسْتِهْلاكيّة» في حياتنا وسُلُوكيّاتنا؛ ولذا فرُمُوزُهَا في «المُجْتمعات العربيّة» - بأشْكَالِهَا المُسْتَوْرَدة: اصْطلاحاً واسْتِهْلاكاً وتَقْليداً - يَفْتَقِدُون الجَوانِبَ الإيجابيّة من «الحَدَاثَة» في المُشَارَكَةِ الفَاعِلَةِ في صِنَاعَةِ «الحركة العِلْميّة التّنْمويّة»، وبَلْوَرَةِ مُقوِّمَاتِهَا، وطَبْعِ آثارِها الحقيقيّة على الفِكْرِ والمُمارَسةِ والمُجْتمع. أمّا الطَّرِيفُ في الأَمْرِ فإنّ بعض «دُعَاة الحَدَاثَة» راحوا يَزِفُّون إلينا دُخُول عَصْر «ما بَعْدَ الحَدَاثَة»، في حين أنّ حَدَاثتهم المَزْعُومة لم تؤتِ أُكُلَهَا بعْد في عَصْرِهَا المُتَوهَّم، إلاّ إذا كان المَقْصُود بـ«البَعْديّة» هنا وَصْف لؤي صافي بأنّها تَحْمِلُ (ظِلال التَّفكُّكِ والتّآكُلِ

والتَّرَاجُع) (١٦)، ولعلّ وَصْف حسن الهويمل يَحْمِلُ بعْض جَوانِبِ الحقيقة عندما قال: (لُعْبَةُ البَعْدِيَّـات هي لُغَةُ المُرْتَبِكِين) (٦٦). وأمّا حـال «المُجْتمعات العربيّة» في «إشْكَالِيّة التُّراث والحَدَاثَة» فهو حال «السَّاقِطِ نحو الأرْض» فَاقِداً تَوازُنه في الهواء؛ فلا هو يَقِفُ على أرْضِ «التُّـرَاثِ» الصُّلْبَةِ بقِيَمِهَا وأصالتِها وثباتِها، ولا هو يُحَلِّقُ فـي الأَجْوَاءِ بقُوّةِ دَفْعِ «الحَدَاثَةِ المَعْرفيّة» وعُنْفوان «الحياة المُعَاصِرَة».

وهكـذا تُصْبِـحُ هذه الإشْكَالِيّــة «صِرَاعاً حول العَـدَم»؛ فالحَاضِرُ مَبْتُـورٌ عن سِياقِ الماضــي، سَـواءً في تَمَثُّلِ قِيَمِهِ وتَطْبيــقِ مُوَاصَفَاتِه، أو في انْسِجَــام اجْتِهادات السّابقين مـع حيوات اللّاحقين؛ وفـي الوَقْت نفْسه نجدُ أنّ هــذا الحَاضِرَ مَعْزُولٌ عــن فِكْرِ عَصْرِهِ ومُقْتَضيــاتِ زمانِه، ويَصِفُ زكي نجيــب محمود هذا الحال بقوله: (إنّ طريقنا في النَّظَرِ لــم تَزَلْ - كما كانتْ منْذ قُرُونٍ - هي البَحْثُ في المَوْرُوثِ عن الشَّوَاهِدِ التي تُبَرِّرُ الجديد أو لا تُبَـرِّرُه، فكأنّنــا نُمْسِكُ بين أيدينــا قَالَباً من حديدٍ، لِنُرْغِمَ الحيــاةَ المُتَدَفِّقَةَ الفَوَّارَةَ على الخُلُودِ فيه إلى سكينة النّائم، تَتَغَيَّرُ حياتُنا وذلك الإطار الحديديّ لا يُرِيدُ أنْ يَتَغَيَّر، وما لم تَحْدُثْ في مُنَاخِنا الفِكْريّ تَحَوُّلاتٌ تُوائِمُ بينه وبين صُوَرِ الحياة الجديدة، فسيظلُّ التَّنَافُـرُ قائماً بيــن الرَّأْسِ والقَدَمَيْن) (٢٠). وأمّــا أبْرز أبْعاد هــذه «الإشْكالِيّة» فهو غِيَابُ الإبْـدَاعِ والإنْجازِ مــن كِلا الفريقَيْن اللذين يَصِفُهُمَا طه عبد الرحمــن بـ«المُقَلِّدَة» حيث يقــول: (ظَاهِــرٌ أنّ كِلا النَّوْعَيْن مــن المُقَلِّدَةِ لا إبْـدَاع عنْدهما؛ إذْ «مُقَلِّـدَةُ المُتَقَدِّمِين» يَتَّبِعُـون مــا أَبْدَعَهُ السَّلَفُ مــن غير تَحْصيل الأسْبــاب التي جعلتْهم يُبْدِعُون مــا أبْدَعُوه؛ و«مُقَلِّـدَةُ المُتَأَخِّريــن» يَتَّبِعُون ما أَبْدَعَــهُ الغَرْبُ من غير تَحْصيــل الأسْباب التي جعلتْهم يُبْدِعُون ما أَبْدَعُوه) (٦٥).

تَنْضَوِي هذه «الإشْكَالِيَّةُ» على ما أَسْمَاهُ محمد عابد الجابريّ «سُلْطَة النَّمُوذَج» التي: (جعلتْ فريقاً منّا يرى «الأَصَالَةَ» في التُّرَاث، في العَوْدَةِ إليه وإليه وَحْدَه، وهي التي تَمْنَعُهُ بالتّالي من أنْ يَخْطُرَ بباله أنّ «الأَصَالَةَ الحقيقيّةَ» بالنِّسْبَةِ لنا نحن الذين يَغْمُرُنَا التُّرَاثُ من كُلِّ جَانِبٍ هي تلك التي يجب أنْ نُحَقِّقَهَا في تعامُلِنَا مع «الفِكْرِ العَالَميّ المُعَاصِر» ومن خــلال التّعامُل معه، وهــي - أيْ «سُلْطَةُ النَّمُــوذَج»- هي التي جعلتْ فريقــاً آخر منّا يرى

«المُعَاصَـرَةَ» في الفِكْرِ الأوروبيّ وَحْـدَه، فحالتْ دونه ودون أنْ يَخْطُرَ بباله أنّ «المُعَاصَرَةَ الحقيقيّـةَ» بالنِّسْبَةِ لنا نحن الذين تتقاذفنا، يميناً ويساراً، «مُرَكَّبَاتٌ ذِهْنِيّةٌ» وَافِدَةٌ إلينا مـن أوروبا، هي تلك التي يجب أنْ نُحَقِّقَهَا في تعامُلِنَا مـع التُّرَاث، تُراثُنا نحن أوّلاً)[٦٧].

لقـد أصاب محمد عابد الجابريّ عندما وَصَـفَ طبيعة النَّمُوذَجَيْن «السَّلَفِيّ» (التُّرَاثيّ)، و«الليبرالـيّ العربـيّ» (الحَدَاثِـيّ)، بأنّهمـا يَلْتَقِيان علـى صعيدٍ وَاحِـدٍ: (فكلاهما يرى «النَّهْضَـةَ» في القَفْزِ على التّاريخ لا في صُنْعِـه. الأوّلُ يراها في «العَوْدَةِ إلى طريقة سَلَفِ الأُمّـة قبل ظُهُور الخِلاف»، والثّاني يراها في العَوْدَةِ إلى «المبادئ الأوروبيّة»)[٦٧]؛ ويُبَلْوِرُ محمد عابد الجابري[٦٧] هـذه الرُّؤية بأنّ «السَّلَفِيّ» خاض المعارك بـ«عَقْلِ الأَمْسِ»، وأمّا «الليبراليّ العربيّ» فقد خاض معاركه لا بـ«عَقْلٍ» يَتِمُّ بِناؤه من خلال المعْركة وبواسِطتها وعلى ساحتها، بلْ باسْم «عَقْلٍ جَاهِزٍ» يَتَحَدَّثُ عن «المبادئ الأوروبيّة».

وأمّا «الخِطَـابُ التَّوفيقيّ»، أو «التَّلْفيقيّ»، الذي اعْتَقَدَ أنّـه يَجْمَعُ بين «الحُسْنَيَيْن»، فإنّه يُضِيفُ إلى «الإشْكَاليّة» إشْكَاليّةً أُخْرى؛ فأصْحَابُ هذه الرُّؤية يُريدون أنْ يَأْخذوا من التُّـرَاثِ «أحْسن ما فيه»، ومن الحَدَاثَةِ «أحْسن ما فيهـا»، أو بصِيغة السُّؤال الذي طَرَحَهُ لـؤي صافـي: (كيف يُمْكِنُ للمُثَقّـفِ أنْ يَقِفَ من مُشْكلاته مَوقِفاً أصيـلاً ويُقَدِّمَ لها حُلُولاً عمليّة مُناسِبة؟)[١٦]، وأَصْبَحَ الحالُ كما يقول شاكر مصطفى: (نَوْعاً من الجَدَلِ النّظريّ المَكْـرُور: «ماذا نَأْخُذُ؟ ومـاذا نَدَعُ؟»)[١٨]؛ وذلك في الوَقْت نفْسه الذي يتردّى فيه الوَاقِعُ تحْـت وَطْأَةِ مفاهيم مُلْتَبِسَةٍ وتَأْويلاتٍ مُضْطَرِبَةٍ حـول «التُّرَاثِ»، تُدْخِلُهُمْ في لَغَطٍ وجَدَلٍ لا يَنْتهيان، ويَرْزَحُ فيه الحَاضِرُ تحت وَطْأَةِ ضُغُوطٍ وتحدّياتٍ مُتسارِعةٍ في دُنْيا «الحَدَاثَةِ» التي ليس لأدْعيائها فيها نصيبٌ، وهم فيها لغيرهم تَبَعٌ؛ وهذا المَوْقِفُ في أحْسن أحْواله لا يتجـاوز وَصْفَ شاكر مصطفى له بقوله: (بَقِيَتْ وتَجَذَّرَتْ الأفْكَارُ التّوفيقيّة بين التُّراثِ والتّقَـدُّمِ الغَرْبيّ كنظريّةٍ مَقْبُولةٍ، ولكن من دون حَلٍّ عمليّ)[١٨]. وأمّا «النّتيجة»، فهي كما قَرَّرَهَا محمد عابد الجابريّ بقوله: (اسْتِمْرَارُ القديم لا في جَوْفِ الجديد يُغْنيه ويُؤَصِّلُه، بَـلْ اسْتِمْـرَارُهُ إلى جَانِبِـه: يُضَايقُهُ ويُنَافِسُـه)[٦٧]، وأمّا السُّؤالُ الـذي يَهْتَمُّ هذا الكِتاب

بمُعَالَجَةِ أحد أبْرز جَوانِبه وتَأْصيلِ أهمّ مُتطلَّباتِه، فهو: (كيف يُمْكِنُ تَغْيير الحال ليُصْبِحَ القديمُ أداةً فَاعِلَةً في تَحْفيزِ الجديد، وعُنْصُراً جوهريّاً في تَأْصيلِه وتَطْويرِه وتَفْعيلِه؟).

٤-٦) مُحَاوَلَةٌ لـ«فَكِّ الاشْتِبَاك»:

نَسْتطيعُ أنْ نقول - من وَاقِع التّجرِبة الحَيّة والنّماذج المَاثِلة للعِيان - إنّ «الخِطَاب العربيّ المُعَاصِر»، بشِقَّيْهِ «التُّرَاثيّ» و«الحَدَاثيّ»، فَشِلَ في إحْداث «النَّهْضَة» المَنْشُودة؛ لأنّه اسْتَبَقَ النّتائِج، وقَفَزَ فوق التّاريخ، وحَكَمَ على المُسْتَقْبَل من رُؤىً تَنْظيريّةٍ لم تُغادِرْ مَواقِعَهَا لتتفاعلَ على الأرْض، ولتَدْفَعَ عَجلَة الحياة وفْق «مَنْظُومةٍ تَنْمَويّةٍ» تَحْتَكِمُ إلى «لُغَةِ العَصْر».

لقد حدث هذا الإخْفَاقُ بالرّغْم من أنّ «المَنْظُومة التّنْمَويّة» لا تُنَاقِضُ تُرَاثَ الأُمّة الذي يتَمَثَّلُ في مَقُولة رسول هذه الأُمّة صلّى الله عليه وسلَّم: «**أنْتُم أعْلَمُ بأمْرِ دُنْيَاكُم**»[٦٨]؛ وهي في تَوَاؤُم مع «رُوح التّنْمية» عندما نَسْتَحْضِرُ الدّلالات والمعاني والقِيَم المُرْتَبِطَة بِقَوْلِ الحقِّ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرّعد: الآية ١٧]، وبِقَوْلِ المُصْطفى - صلّى الله عليه وسلّم -: «**إذا قَامَتْ القِيامَةُ وفي يَدِ أحدكم فَسِيلَةٌ فليَغْرِسْهَا**»[٦٩]؛ وهي لا تتصارعُ مع التّغيُّرات المُتسارِعة؛ لأنّ «الأَصْل في الأُمُور الإباحة»، وباسْتِثْنَاءِ ثَوابِت قَطْعيّةٍ مَحْدودَةٍ، فإنّ المِساحة وَاسِعَةٌ لامتِصَاصِ إيقَاع «الحياة المُعَاصِرة»، والتّأقْلُم مع مُقْتَضياتِها، واسْتيعابِ حقيقة أنّ «الحَاضِرَ» قَابِلٌ للتّكَيُّفِ مع مُتطلَّبات «المُسْتَقْبَل».

إنّ «إشْكَاليّةَ التُّرَاثِ والحَدَاثَة» إشْكَاليّةٌ «زَمْكَانِيَّةٌ» - في المقام الأوّل - حيث نَفْرِضُ على «الزَّمان» شُرُوطاً لا تُوافِقُ خصائِصَه، ونَفْرِضُ على «المكان» مُعْطياتٍ لا تُوافِقُ تَجْرِبَته؛ ولذا فمن الضّروري تَطْوير نماذِج تَفْصيليّةٍ عمليّةٍ تُراعِي خصائِصَ «الزَّمان»، وشُرُوطَ «المكان»، وتحدِّياتِ «المُسْتَقْبَل»، وخصائِصَ «الحَاضِر». إنّ «إشْكَاليّةَ التُّرَاثِ والحَدَاثَة» في العَالَمِ العربيّ ليستْ «إشْكَاليّةً دِينيّةً» كما كان الحال في أوروبا في الصِّرَاعِ

بين «السُّلْطَـةِ البَابَوِيّة» و«رِجال العِلْم والعَقْل»، ولكنّها في عَالَمِنَا العربيّ «إشْكَاليّةٌ نَفْسِيّةٌ - اجْتماعيّـةٌ - ثقافيّةٌ»؛ فالصَّدْمَةُ الحضاريّةُ التي أصابـتْ العَالَمَ العربيّ أَدّتْ إلى حالةٍ مِـن حالَتَيْن: إمّا «أَزْمَةُ هُويّـة» نَتَجَتْ عن «الانْبِهَارِ» بالآخر، وإمّـا «الانْكِفَاءُ على الذّات»، وتَمْجِيـدُ الماضي لحِمايةِ «الهُويّة» دون تَمْييزٍ بيـن عناصِره ومُقوِّماتِه ومُلابَساتِه. وهكذا يُصْبِـحُ السَّبَبُ الرّئيسُ لتَعَثُّرِ جُهُودِ «الإصْلاح والتّنْمِيـة» في العَالَمَيْن العربيّ والإسْلاميّ هـو إصْـرار شَرائح كبيرةٍ مـن المُثقَّفين وأصْحاب القـرار - تُرَاثيّيـن وحَداثيّين - على اسْتِعَـارَةِ «نماذِج نَاجِزَةٍ» من ماضٍ إسْلاميٍّ، أو حَاضِـرٍ غَرْبيّ، وهو ما أَطْلَقَ عليه محمد عابد الجابريّ(٦٧) مُصْطلح «سُلْطَةُ النَّمُوذَج».

وأمّا نُقْطَةُ الضَّعْفِ الأبْرز التي يَشْتَرِكُ فيها «التُّرَاثيّون» و«الحَداثيّون» و«التّوفِيقيّون» فهـي أنّهم جميعاً يُريدون أنْ تكون أُطْرُوحاتِهم «حقائِق يقينيّةً» لا تَقْبَلُ النّقاش أو الشّك، ويَعْتقـدون أنّ الكمـال في أعمالهم التـي لا يُقَارِبُهَا الخطـأ، والصّـلاح لأفْعالِهم التي لا تُدَنِّسُهَـا الخطيئة، وهذا مُخَالِفٌ لما يَطْرَحُـهُ «الفِكْرُ التّجْريبيّ» الذي يُمَثِّلُ جَوْهَرَ «العمل التّنْمَـويّ»، ويَعْكِسُ «الوَاقِعَ الإنْسانيّ»، حيـث إنّ الخطأ وَارِدٌ في كُلِّ الأحْوال، والمُراجَعات هي الأَصْلُ في كُلِّ الأُمُور، والتّقْييم المُسْتمرّ هو الأسَاسُ لكُلِّ الأعْمال.

أمّا «مَفْهُومُ الحَداثَة» في حَدِّ ذاته فهو مَفْهُومٌ وَاسِعٌ وشَامِلٌ، طَغَتْ فيه عند «الحَداثيّين العرب» جَوانِب تَقْدِيسٍ وانْبِهَارٍ وعَجْزٍ، وأَصْبَحَ دَوْرُ كثيرٍ منهم لا يَعْدُو دَوْرَ «حَامِلِ بِضَاعَةٍ» يَنْقُلُهَـا بعُجَرِهَـا وبُجَرِهَا من مـكانٍ إلى مكانٍ، وهـو لا يَدْري طبيعة مـا يَحْمِلُهُ، وظُرُوفَ زَرْعِـه، وشُـرُوطَ حصـادِه، وهو - أيضاً - أجْهَـلُ ما يكون فيما يَخُـصُّ طبيعة احْتياجات بيئته، والأَنْكى من ذلك أنّه لم يتفاعلْ مع عمليّة «الزَّرْعِ والحَرْثِ والحصاد» المُضْنِيَة؛ لأنّه يُريـدُ أنْ يَحْصُدَ قبل أنْ يَزْرَعَ، وأنْ يَجْنِيَ الثِّمَارَ قبل أنْ يُهَيِّئَ التُّرْبَة. وانْطلاقاً من هَيْمَنَةِ «ثقافة الغَالِب»، فإنّ الغَالِبيّة من الحَداثيّين - بانتماءاتِهم المُخْتلفة - وجدوا في مفاهيم «الحَداثَة» ومُصْطلحاتها تَزَلُّفاً لـ«الحضارة الغَرْبيّة»، وتَظَاهُـراً بفَهْمِهَا والتّفاعُلِ معها، وتَعْويضـاً عن مَشَاعِرِ العَجْزِ والنَّقْصِ، فكان حالهم مثل حال السيّدة القَرَوِيّة التي أرادتْ

أنْ تُبْـرِزَ مُعَاصَرَتَهَـا وحَدَاثَتَهَـا ومُجَارَاتَهَا لـ«الموضة» عندما سألوهـا: (من أين تَشْتَرِي أَحْذِيَتِك؟)، فأجابتْ بكُلِّ فَخْرٍ وثِقَةٍ واعْتزازٍ: (أَشْتري أَحْذِيَتِي من «ماكدونالدز»).

إنّ الحقيقـة التي يُؤَكِّدُهَا طه عبد الرحمن هـي أنّ: («الحَدَاثَة» عِبَارَةٌ عن إمْكاناتٍ مُتَعَـدِّدَةٍ، وليست كما رَسَخَ في الأذْهان، إمْكاناً وَاحِـداً؛ ويَنْهَضُ دليلاً على ذلك المَشْهَدُ الحَدَاثـيّ الغَرْبـيّ ليس بالتَّجَانُسِ المَظْنُـون، بَلْ فيه من التَّنَوُّعِ ما يجـوزُ معه الكلام عن حَدَاثَـاتٍ كثيـرةٍ، لا حَدَاثَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فهنــاك، باعْتِبَارِ الأقْطار: «حَدَاثَـةٌ فرنْسيّةٌ» و«حَدَاثَةٌ ألْمانيّـةٌ» و«حَدَاثَـةٌ إنْجليزيّـةٌ» و«حَدَاثَةٌ أمْريكيّـةٌ» وغيرها)[٦٥]. ما هو أهـمُّ من ذلك أنّ «الحَدَاثَـة» ليستْ فقط رهينةً في أشْكَالِهَا للخُصُوصِيّات القوميّة، ولكنّها تَخْضَعُ - بشَكْلٍ وَاضِـحٍ - لما أَسْمَاهُ طه عبـد الرحمن «اعْتِبارات المَجَالات» فهنــاك: («حَدَاثَةٌ سياسيّةٌ» و«حَدَاثَـةٌ اقْتصاديّةٌ» و«حَدَاثَةٌ اجْتماعيّةٌ» وسواها؛ كمـا أنّ لـ«الحَدَاثَةِ» في القُطْرِ الوَاحِدِ مَرَاتِـب عِدَّةً؛ فهناك أقْطَارٌ حَظُّهَا من «الحَدَاثَةِ» في هذا المجال أو ذاك أكْبر من حَظِّهَا منْهـا فيما عـداه كأنْ تكـون حَدَاثَتُهَا الصّناعيّـة أقْوى مـن حَدَاثَتِهَا القانونيّـة، أو تكون حَدَاثَتُهَا الاقْتصاديّة أقْوى من حَدَاثَتِهَا السّياسيّة، وهكذا)[٦٥]. وفي إطار تلك الإمْكانات المُتَعَـدِّدَة لـ«الحَدَاثَـة»، فإنّ طبيعة الوَاقِـع العربيّ، تَفْرِضُ - في رأْيـي[٦٠، ١٩٠] - أنْ يكون المُنْطَلَقُ عبْر «حَرَاكٍ تَنْمَـويٍّ» شَامِلٍ يَتْرُكُ بَصَمَاتِهِ على الأرْض، ويُشَكِّلُ «الواقِعَ العربيّ» - بتفاعُلاتِـه وتراكُماتِـه - عبْر غَرْسِ «ثقافةٍ» تُؤَجِّلُ صِرَاعاتِهـا الكلاميّة واسْتِعْراضاتِها اللفْظيّـة وسِجَالاتِها الإنْشائيّة، وتُنَمِّي عَلاقَاتِهَا التَّنْمَويّة ومَشْرُوعاتِها الحياتيّة، وتَنْخَرِطُ فـي برامِجَ عمليّـةٍ وإجْرائيّةٍ تُعِيـدُ - بطبيعتِها وتطوُّرِهــا وتراكُماتِها - صِياغَـةَ الأسْئلة، ونَوْعِيّةَ الطّرْح، وبَلْوَرَةَ الخلافات، وتَحْديدَ الإجابات.

قـد نتَّفِقُ أو نَخْتَلِفُ مع محمد عابد الجابريّ الذي يرى أنّ المُهِمّةَ الأولى والأساسيّة المَطْرُوحَـةَ على السّاحة العربيّة الرّاهِنَة هي تَحْقيـقُ («الاسْتِقْلال التّاريخيّ التّامّ»)[٦٧] للذّاتِ العربيّة الذي فَقَدَتْهُ بسبب التّجَاذُبِ بين «التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، ولكن تَبْقَى كُلُّ الحُلُول تَنْظيريّـةً، مـا لم يكنْ المُنْطَلَـقُ الأسَاسُ هو تَحْقيـق «الاسْتِقْلال التّنْمَـويّ» الذي يَحْتَاجُ، أوّل مـا يَحْتاج، إلـى «رُؤىً تَنْمَوِيّةٍ» تجدُ مَوَاقِعَهَا على «خريطَـة الوَاقِعِ»؛ وهذا ما يَسْتَدْعِي

الحاجـة الماسّة إلى طَرْحِ نَمُوذَجِ «التَّوَافُقِ التّنْمَويّ» كأحـد أهمّ تلك الإمْكانات المُتَعَدِّدَة لـ«الحَدَاثَـة»، بَلْ لعلّه هو القَاطِرَةُ القَادِرَةُ على تَحْرِيـك «الحَدَاثَة» في مجالاتِها المُتَنَوِّعَةِ وأُطُرِهَا المُخْتلفة في «المُجْتمعات العربيَة».

٤-٦-١) نَمُوذج «التَّوافُق التّنْمَويّ»:

يَسْتَفْحِـلُ وَاقِـعُ «إشْكَاليّة التّنْميـة» في «المُجْتمعات العربيّة» في ظِـلِّ صِرَاعِ «ثُنَائِيَّة التُّـرَاث والحَدَاثَـة» ممّـا يُبْـرِزُ ضـرورة مُراجَعَـةِ «البِنْيَـةِ الثّقافيّة»، ويـرى محمد عابد الجابـريّ(٦٧) أنّ شَرْطَـيِ «النَّهْضَـة» همـا: «التّحَـرُّرُ من الغَـرْب»؛ بمَعْنَـى: (الدُّخُولُ مع ثقافته، التي تَزْدادُ عَالَميّةً، في حِوارٍ نَقْديٍّ، وذلك بقِراءتِها في تاريخيِّتِها وفَهْمِ مَقُولاتِها ومفاهيمِهـا فـي نِسْبِيَّتِهَـا، وأيضاً التّعـرُّف على أُسُسِ تقدُّمه والعمل علـى غَرْسِهَا أو ما يُمَاثِلُهَا في ثقافتِنا وفِكْرِنَا). وأمّا الشَّرْطُ الثّاني فهو «التّحَرُّرُ من التُّرَاث» وهو: (لا يَعْنِي الإلْقَـاءَ به في المتاحِـف أو في سَلَّةِ المُهْمَلات، كَلاّ إنّ ذلك غيـر مُمْكِن. إنّ «التّحَرُّرَ من التُّرَاث» مَعْناه امْتلاكُه، ومن ثمّ تَحْقيقُهُ وتجاوزُه، وهذا ما لا يتأتّى لنا إلاّ إذا قُمْنَا بإعادة بِنائِـه بإعادة تَرْتيب العَلاقَةِ بين أجْزائِه من جِهَـةٍ، وبينه وبيننا من جِهَةٍ أُخْرى، بالشّكْلِ الذي يَرُدُّ إليه في وَعْينا تاريخيِّتَهُ ويُبْرِزُ نِسْبِيَّةَ مفاهيمِه ومَقُولاتِه).

ومـن صُلْبِ «التَّحْليل الجابريّ» لـ«الخِطَابِ العربيّ المُعَاصِر» واتِّهامِهِ له بأنّه يتعاملُ مع (المُمْكِنَـات الذِّهْنيّة وكأنّها مُعْطَيَاتٌ وَاقِعيّة)(٦٧)، فـإنّ الشَّرْطَيْن لن يتحقَّقَا إلاّ عبْر «حَـرَاكٍ تَنْمَـويٍّ» شَامِلٍ؛ وأمّا المَخْرَجُ مـن هذه «الإشْكَاليّة»، فلن يتحقّـقَ إلاّ بالجَمْع بين «التُّـرَاثِ» و«الحَدَاثَـةِ» في تَـوَازُنٍ وتَوَافُقٍ وتَنَاغُـم، ولن يكون ذلك عبْر محـاولات الجَمْع بينهمـا تَلْفيقيّـاً، ولكـن الجَمْع بينهمـا تَنْمَويّـاً؛ وذلك بالتّفاعُـلِ الحيويّ بيـن «الأَصَالَةِ» بثَوابِتِهَـا المُعْتَمَدَةِ وضَوابِطِهَا الاجْتهاديّـةِ واسْتيعابِها لضُغُوطِ الوَاقِعِ ومُتطلّبَاتِ المرْحلة مـن ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخْـرى باقْتِحَام «الحَداثَـةِ» بأبْعَادِهَا التِّقْنيّـة والعِلْميّة التي تُمَثِّلُ «البِنْيَـةَ الأَسَاسَ» لكُلِّ أبْعَادِ «الفِكْرِ المُعَاصِر» لتَطْويـر «مَنْظُومَةٍ مَعْرفيّةٍ شَامِلَةٍ» تَصْطَفُّ فيهـا الإيجابيّاتُ من «التُّرَاثِ» و«الحَداثَةِ» معاً لتُحَـرِّكَ «قَاطِرَةَ النّهْضَة»، وتَضْمَحِلُّ فيها

السَّلْبيّـاتُ من «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَةِ» التي تُفْرِزُ عَوامِـلَ الإعاقة، ومنابِع العَرْقَلَة، وجراثيم النِّـزاع. إنّ إحْـدى الآليّات المُهمّة فـي التّصدّي لهذه «الإشْكَالِيّة» هـي فَحْصُ «الحَدَاثَةِ» بحُمُولَتِهَـا التّاريخيّـة ومُكَوِّنَاتِهَا العمليّـة وعناصِرها الفِكْريّة، وفَحْـصُ «التُّرَاثِ» وإعادة قِراءتِـه برُؤيـةٍ نَقْديّةٍ موضوعيّـةٍ وأدواتٍ مَعْرفيّةٍ تُناسِبُ «الزَّمـان» و«المكان»، ولن يكون ذلـك الفَحْصُ لطَرَفَـيْ «الإشْكَالِيّة» مُجْدِياً ما لـم يَتِمّ عبْر «مِجْهَرٍ تَنْمَـوِيٍّ» يَحْرِصُ على التّلاقُـحِ والتّرَاكُمِ والبِناء، ويُقلِّصُ مِساحاتِ الاسْتِفْزَازِ والتّوَتُّرِ والاحْتِقَان، ويَهْتَمُّ بتَقْييمِ «المَكَاسِب والخَسَائِر»، أو بلُغَةِ الفُقهاء، «المَفَاسِد والمَصَالِح».

إذاً لا مَخْرَجَ من هذه «الإشْكَالِيّة» إلاّ بحركةٍ تَدِبُّ على الأرْض، مُتَّجِهَةً نحو المُسْتَقْبَل، قَابِلَةً أخطاءها، ومُتسامِحَةً مع تيّاراتِها، ومُصَحِّحَةً مسارها، ومُعَمِّقَةً للتّفاعُلِ الذي يَنْفَعُ النّاس ليَمْكُثَ في الأرْض، ومُحَقِّقَةً لأغْراض «الاسْتِخْلاف فـي الأرْض». أقول: لا مَخْرَجَ مـن هـذه «الإشْكَالِيّة» - في رأيـي(١٠٩،٦٠) - إلاّ عبْر إدْراك طبيعة «العَلاقَـة الجَدَلِيّة» بين «التُّـرَاث» و«الحَدَاثَة»؛ وذلك ليس وفْق التّعْريف الماركسيّ المُسْتَنِـدِ إلى مَفْهُوم «صِرَاع الأضْداد» وأنّ «كُلّ شيءٍ يُوَلِّدُ نقيضه»، ولكن «العَلاقَة الجَدَلِيّة» التي تَحْرِصُ على «التَّكامُلِ البُنْيويّ» بين عناصِرِ الهُويّة ومُقوِّمات الأُمّة ومقاصِد الشّريعة من ناحية، وبين «الحَدَاثَة» بعناصِرها التّنْمويّة وأُطُرِهَا الاجْتماعيّة وأُسُسِهَا المُعَاصِرَة من ناحيةٍ أُخْرى. إنّها عَلاقَةٌ تَتَبَلْـوَرُ وتَتَشَـكَّلُ عبْر برامِـج عمليّةٍ وآلياتٍ تَنْمَويّـةٍ تَدْفَعُ بالمُجْتمعات إلـى الانْخِرَاطِ في نِظَـام الحياة المُعَاصِـرَة وإنْتاجيّته وديناميكيّته، فيُثْرِي بعْضُها بعْضـاً؛ فيَنْهَضُ «الدِّينُ» بأصْحابـه تَحْفيزاً علـى القُوّة وتَمْكيناً فـي الأرْض، ويَتَشَـكَّلُ «العَقْلُ» وفْق «فِكْـرٍ عِلْميٍّ»، ويَتَبَلْوَرُ «الوِجْدَانُ» وفْق «أَصَالَةٍ تاريخيّة»، ويَتَطَوَّرُ «الوَاقِعُ» وفْق «حركةٍ تَنْمَويّة».

تَتَرَسَّخُ هذه «العَلاقَةُ الجَدَلِيّةُ» أكْثر عبْر الرُّؤية التي يَطْرَحُهَا محمد عابد الجابريّ بقولـه إنّ: (نجاح أيِّ بلدٍ من البلدان، النّاميـة منْها التي هي في «طريق» النُّموّ، نجاحها في الحِفَاظِ على الهُويّةِ والدِّفَاع عن الخُصُوصّية، مَشْرُوطٌ أكْثر من أيِّ وَقْتٍ مضى بمدى عُمْـقِ عمليّة التّحْديث الجَارِية في هذا البلد، عمليّة الانْخِرَاطِ الواعي، النّامي والمُتَجَذِّر، فـي عَصْرِ العِلْمِ والتِّقانـة)(٥٩)، وتَتّفِقُ هذه الرُّؤية مع طَرْحِ محمـد الميلي الذي يرى أنّ:

(فِكْـرة الحِفَاظ علـى «الأَصَالَةِ» لم تَتَحَوَّلْ إلـى مَشْرُوعٍ تَأْصِيلٍ يتـلاءَمُ مع الانْغِراسِ في العَصْر، واسْتِنْبَاتِ مُحِيطٍ مُلائِمٍ للاسْتِفادة القُصْوى من التَّعاطي مع الغَير)[٨].

وهكذا نَخْلُصُ إلى حقيقةٍ تُؤكِّدُ أنّ نجاح أيِّ «مَشْروعٍ نَهْضَويٍّ» مَرْهُونٌ بثلاثة عناصِر:

١) مدى قُدْرته على تَحْريك قُـوى المُجْتمع وتَحْفيزها؛ وفي «المُجْتمعات العربيّة» فإنّ الغَالبيّة تَدينُ بالإسْلام، وتَميلُ إلى المُحَافَظَة.

٢) توجيـهُ مَوارِد المُجْتمع وإمْكاناته، وتَفْعيـلُ طاقاته لامْتِلاكِ مُقَوِّمَاتِ «النَّهْضَة» الحقيقيّة.

٣) السَّيْرُ الحكيم - عبْر التّخْطيط والمُرونة والتّقْييم والمُحَاسَبَةِ والمُتَابَعَةِ - نحو أهْدافٍ مُحَدَّدَة، وغاياتٍ مُشْتَرَكَة.

وأمّا في «الأَلْفيّة الثّالثة»، فمن البدهيّ أنّه لا يُمْكِنُ لأيِّ «مَشْروعٍ نَهْضَويٍّ» أنْ يَنْهَضَ إلاّ عبْـر آليّاتٍ حديثـةٍ مُتَوَافِقَةٍ مـع «الزَّمان» ومُتَنَاغِمَـةٍ مع «المكان»، وعبْـر فَهْمٍ حَاذِقٍ لطبيعـة العَصْر ومُقَوِّماته ممّا يَسْتَوْجِبُ «التَّفاعُل الإيجابـيّ» مع العَالَم وتجارِبه التّنْمَويّة والتّنْظيميّة والحياتيّة؛ وهكذا نجدُ أنّ الحاجة ماسّةٌ إلى «مِسْطَرَةٍ تَنْمَوِيّةٍ - عِلْميّةٍ» تَقِيسُ المسـارات، وتَضْبِـطُ التّفاعُلات، وتُحَدِّدُ الأهْـداف، لتَفْكيكِ «الإشْكَاليّـة» وتَقْليلِ حِدَّتِها وتَقْليصِ مِساحاتِها.

٤-٦-١- أ) نَحْوَ «قانونٍ صِفْريّ»:

بتأمُّـلٍ دقيقٍ نجـدُ أنّ «الخِطَابَ العربـيّ المُعَاصِر»، بشِقَّيْهِ «التُّراثـيّ» و«الحَداثيّ»، يَحْتـوي على تورُّماتٍ نظريّةٍ وإنْشائيّةٍ هَائِلَةٍ، أَنْتَجَتْ «إشْكَالِيّةَ التُّراثِ والحَداثَة»، ممّا وَلَّدَ - بالضّـرورة - درجاتٍ عاليةً من الاحْتِقان والتّوَتُّرِ وعـدم الفَاعِليّة الحياتيّة والمُجْتمعيّة والتّنْمَويّـة، وفي الوَقْت نفْسه تَبْدُو «حياة المُجْتمعـات العربيّة» وكأنّها نَمَطٌ مُعَاصِرٌ يعيشُ زمانه عبْر «ثقافـة التّكْديس» و«الْتِقاط المفاهيم» و«حُمَّى الاسْتِهْلاك»، ولكنّها في الوَاقِعِ خَاوِيَـةُ الوِفَاضِ عبْر افْتِقَارِهَـا لـ«أدوات التّنْمية» و«ثقافـة العمل» و«عناصِـر الإنْتاج».

وهكذا نجـدُ أنّ السّاحة الفِكْريّة تَكْتَظُّ بالنّظريّات والأيديولوجيّات والسِّجَالات وصَرْعَاتِ «الحَداثَـة» المُخْتلفة، ولكنّها تَفْتَقِرُ إلى «التَّخْطيط المَنْهَجِـيّ» والخِبْرَةِ العمليّة والتّفاعُلِ الحقيقيّ على أرْض الحياة والوَاقِع والمُعَايَشَة، وهو - بطبيعته - تفاعُلٌ تلاقُحيٌّ وتراكُميٌّ وتكامُلـيّ. ومـن الوَاضِح أنّ لهذا الصِّـرَاعِ آثاراً سَلْبيّةً عميقةً فـي «المُجْتمعات العربيّة»، وهــو من أبْرز الأسْباب المُؤدِّية إلى تَفَاقُم «إشْكَاليّة التّنْمية»؛ ولذا فمن الضّروري تَحْقيقُ «التَّوَازُن» عبْر إيجاد أرْضيّةٍ مُشْتَرَكَةٍ تَهْتَمُّ بتأْمين المصالِح المُشْتَرَكَة، وخِدْمَةِ المصْلحة العامّة، وتَعْميقِ قنوات الحِوار والجِوار بين أطْرافِها.

إنّ المَدْخَلَ إلى «فَكّ الاشْتباك» هو عبْر إيجاد ما يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيه «القانون الصِّفْريّ» للعَلاقَـةِ بين «التُّـرَاثِ» و«الحَدَاثَة»؛ ففي «فيزيـاء الدِّيناميكا الحراريّـة» يُوجَدُ مِثْل هذا القانـون الذي يَسْبِقُ «القوانين الثّلاثة للدَّينامِيـكا الحراريّة»، ونُعِتَ بـ«القانون الصِّفْريّ» لأنّه يُؤسِّسُ لها، ويُمَثِّلُ اللَّبِنَةَ الأسَاسَ لتَحْديدِ مُوَاصَفَاتِهَا، وبِناء نِظَامِهَا النّظريّ والعمليّ. وبهـذا يكونُ «القانـونُ الصَّفْريُّ» - في «جَدَلِيّةِ التُّرَاثِ والحَدَاثَـة» - القَاعِدَةَ التي تَسْتَنِدُ إليها التّصـوُّراتُ والتّوقُّعاتُ والاسْتِشْرافاتُ والبرامِج، وتتوافـقُ حولها الأطْرَافُ لتَحْقيقِ المَقَاصِـد التّنْمَويّة والاسْتِقْـرار المُجْتمعيّ. من هذا المُنْطلق فإنّنا نَحْتَاجُ - في «إشْكَاليّة التُّـرَاث والحَدَاثَـة»- إلى «قانونٍ صِفْـريٍّ»، وبدهيّةٍ أُولى، وأَرْضيّةٍ مُشْتَرَكَـة، يَنْطَلِقُ منْها «العمـل العربـيّ الثَّقافـيّ»، ويَسْتَنِدُ إليها في تطـوُّرِه الفِكْريّ، وآليّاتِـه العمليّة، ومساقاتِه الثَّقافيّة، وطُموحاتِه التّنْمَويّة.

إنّ هــذا «القانــون الصِّفْــريّ»، الــذي نَعْتَبِــرُهُ المَدْخَـلَ إلى حَـلّ «إشْكَاليّـةِ التُّرَاثِ والحَدَاثَـة»، لا يُمْكِـنُ له أنْ يَتَجَلّى - في الأَلْفيّة الثّالثـة - إلاّ عبْر نَمُوذَجٍ حَيٍّ لما يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيه «نَمُوذَج التَّوَافُقِ التّنْمَـوِيّ»، فتكون «المعاييرُ التّنْمَويّةُ» بأُسُسِهَا العِلْميّة المُنْضَبِطَة هي «الحَكَمُ» في هذا الصِّرَاعِ المُحْتَدِم، فلعلّ «التّنْمية» تَصْنَعُ ما عَجِزَتْ عنه الصِّرَاعَاتُ اللّفْظيّـة، والمُعَلَّقَاتُ الكلاميّـة، والسِّجَالاتُ الإعْلاميّة، والتَّقَلُّبَـاتُ الفِكْريّة، والسّياساتُ المُتَعَـدِّدَةُ المَشَارِب، ليتحقَّقَ ما أشار إليه مالك بن نبيّ بقوله: (إنّ الذي يَنْقُصُ المُسْلِمَ ليس مَنْطِـق الفِكْرة، ولكن مَنْطِـق العمل والحركة، وهـو لا يُفَكِّرُ ليعمل بَـلْ ليقول كلاماً

مُجَـرَّداً، بَلْ إنّه أكْثر من ذلك يُبْغِضُ أولئك الذيـن يُفَكِّرُون تَفْكيراً مُؤثِّراً، ويقولون كلاماً مَنْطِقِيّاً من شأنه أنْ يتحوَّلَ في الحال إلى عملٍ ونشاط) [٢٨].

مـن المُهِمّ - إذاً - أنْ يتحقَّقَ الالْتِقَاءُ بين «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَةِ» على «صعيدٍ تَنْمَوِيٍّ» يَحْرِصُ على تَرْسيخِ «القِيَم التَّنْمَوِيّة»؛ فيَهْتَمُّ «الحَداثيّون» بالمعاني الحقيقيّة لـ«الحَداثَة»، ويَلْجَـأُ «التُّرَاثيّون» إلى اسْتِدْعَاءِ الجوانِبِ العَقْلانيّـة، والقِيَم العمليّة، والتَّسَامُحِ الفِكْرِيّ، وتَغْليبِ المصالِح، واخْتيارِ «أَخَفّ الضَّرَرَيْن»، لتوظيفِها في أُطُرٍ حديثةٍ ومُعْطياتٍ عَصْرِيّةٍ وإنْجـازاتٍ حياتيّـةٍ واجْتماعيّةٍ واقْتصاديّـةٍ للتّصدّي للتّحدّيات القَائِمَـة، ولتَخْفيفِ حِدّةِ الصِّـرَاعِ بين «التُّرَاثِ» و«الحَداثَـةِ» التي يَقْبَعُ مُعْظمُهَا في مناطِـق كلاميّةٍ، واسْتِفْزازاتٍ مُتَبَادَلَـةٍ، ومحـاولاتٍ للهَيْمَنَـةِ الأَحَاديّة، دون أنْ يَنْتُـجَ عن ذلك أيُّ مَـرْدودٍ إيجابيٍّ على الصَّعيـدِ الإنْتاجـي والمُجْتمعـيّ والتّنْمَويّ والفِكْـريّ. إنّ ميزة «نَمُـوذَج التَّوافُقِ التَّنْمَـوِيّ» أنّنا نتحـدَّثُ عن آليّاتٍ تتحـرَّكُ على الأَرْضِ قَابِلَةً للتَّقْويـم والمُرَاجَعَةِ والتَّمْحيص، لتُضِيفَ إلى المُجْتمـع إنْجازاتٍ مَلْمُوسَةٍ - على الأَصْعِدَةِ السّياسيّـة والاقْتصاديّة والتّعْليميّة والاجْتماعيّة - عبْـر موازين دقيقةٍ تَسْتَهْجِنُ التّشنُّـجَ والتَّطَرُّفَ والانْكِفَاءَ والانْغِـلاقَ والتّغْريبَ والانْبِهَارَ والاسْتِفْزازَ والإثَارَةَ المُفْتَعَلَة.

٤-٦-١- ب) مُقَارَبَةٌ علْميّةٌ لـ«نموذج التَّوافُق التّنْمَوِيّ»:

نظـراً لأنّ التّوجُّـهَ الرّئيسَ لهـذا الكِتَاب هو التّأْسيسُ للمَوْقِعِ الصّحيـح لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في قَلْبِ «الثَّقافة المُعَاصِرة»، وتَأْصيلُها في القَوالِبِ الفِكْريّة والمُجْتمعيّة، والتّأْكيدُ علـى أهميّة مَنْحِهَا أولويَّتهـا المَفْقُودة في «الثَّقافة العربيّة»، وإبْـرازُ دَوْرِهَا المِحْوَرِيّ في تَفْعيـلِ «الحركـة التَّنْمَويّة»، فلعلّ من المُنَاسِـب أنْ نضع «إشْكَاليّةَ التُّـرَاثِ والحَداثَة» في مُقَارَبَةٍ تَتَوَسَّلُ «الفِكْرَ العِلْميّ»، وتتماهى مع إنْجازاته.

إنّ القَفْـزَةَ الفِكْريّـة والعِلْميّة الكُبْـرى، التي أَحْدَثَهَا ألبـرت آينشتاين في «النَّظريّة النِّسْبِيّة العَامّة» في وَرَقَتِهِ العِلميّة التي نَشَرَهَا في عام ١٩١٥م وتَتَعَلَّقُ بـ«ظَاهِرَةِ الجَاذِبِيّة»،

هــي أنّه نَقَلَ«ظَاهِــرَةَ الجَاذِبِيّة» من حالها عنْد إسحاق نيوتن كقُــوّةِ تَجَاذُبٍ تُؤثّرُ عن بُعْدٍ بين كُلِّ الأَجْسَامِ الماديّة، إلى خاصِيّةٍ هَنْدَسِيّةٍ في «الفضاء الزَّمْكَانيّ» ذي الأَرْبعة أبْعاد: (ثلاثةُ أبْعَادٍ مَكَانِيّةٌ، وبُعْدٌ زَمَنِيٌّ وَاحِد)، حيث اعْتَبَرَ آينشتاين أنّ وجود جِسْم ماديٍّ يُؤدِّي إلــى حُدُوثِ تغيُّراتٍ في «الزَّمان» و«المكان»؛ أيْ يُؤدِّي إلى انْحِنَاءٍ في «الفضاء الزَّمْكَانيّ» المُحِيــطِ بالجِسْم؛ فتَنْزَلِقُ الأَجْسَامُ الماديّةُ المُجَاوِرَةُ لهذا الجِسْم مُتَّجِهَةً نحوه، وتَعْتَمِدُ شِدَّةُ هذا الانْحِنَاءِ وعُمْقُهُ على كُتْلَةِ الجِسْم؛ فكُلّما زَادَتْ الكُتْلَةُ زَادَتْ شِدَّةُ الانْحِنَاءِ، ممّا يَأْسِرُ حركة الأَجْسَام المُجَاوِرَةِ لتَنْزَلِقَ على المَسَارِ الأَسْهَلِ الذي تَقْتَضِيه طبيعةُ التَّحَدُّبِ أو الانْحِنَاء، وهذا التّأْثِيرُ هو الذي نُطْلِقُ عليه اسْم «الجَاذِبِيّة».

ووفْــق هــذه النّظريّــة فــإنّ «الزَّمان» و«المــكان» لا وجود لهمــا في غِيَــابِ الأَجْسَامِ الماديّة؛ وهكذا يُمْكِنُ أنْ نقول إنّه كما يقومُ «الجِسْمُ المَادِّيُّ» بتَشْكِيلِ «الفضاء الزَّمْكَانيّ» حولــه، ويُحَرِّضُ الأَجْسَامَ الأُخْرى على الانْزِلاقِ نحوه علــى المَسَارِ الأَسْهل، فإنّ «التّنْمية الحقيقيّة» هي التي تُشَكِّلُ الفضاءات الاجْتماعيّة والثّقافيّة والاقْتصاديّة وغيرها، وتَفْرِضُ مُعْطياتِهــا وحقائِقهــا، وتُكَرِّسُ شُرُوطَهَا العَقْلانيّــة والعِلْميّة والإنْتاجيّــة، لَتَنْزَلِقَ نحوها الأَطْــرَافُ المُخْتلفــةُ والمُعْطياتُ المُتَنَوِّعَــة، وتَتَأَثَّرُ بها الطُّرُوحَــاتُ المُتَداوَلَةُ والمفاهيمُ السّائِدَة. إنّ هذه «المُقَارَبَةَ الفيزيائيّة» لخصائِص «نَمُوذَجِ التَّوافُقِ التّنْمَوِيّ» تَعْنِي أنّه كما يَخْتَفِــي «الزَّمان» و«المكان» في غِيَابِ «الجِسْمِ المَــادِّيّ»، فإنّه دون وجود «تَنْميةٍ حقيقيّةٍ» فَاعِلَةٍ على الأَرْض تَلْتَفُّ حولها الفضاءاتُ الفِكْريّة والمُجْتمعيّة المُخْتلفة، لا يُصْبِحُ هناك مَعْنَىً «تَنْمَوِيّاً»، أو «نَهْضَوِيّاً»، للطُّرُوحَاتِ «التُّراثيّة» و«الحَداثيّة»، ولا يُوجَدُ أيُّ دَلالاتٍ على فَاعِلِيّتِهَا في «الحَرَاكِ التّنْمَوِيّ»، وهي لن تَسْتطيع التّأْثير - إيجابيّاً - في الوَاقِع، وبالتّالي يُصْبِحُ الصِّرَاعُ الدَّائِرُ في السّاحة هو، كما قُلْنَا، «صِرَاعٌ حول العَدَم».

٤-٦-١- ج) من «التَّوافُق التَّنْمَوِيّ» إلى «الثّقافة التَّنْمَوِيّة»:

إذا كان محمــد عابــد الجابــريّ يــرى أنّ المُهِمّةَ الأولــى المَطْرُوحَةَ علــى السّاحة العربيّــة الرّاهِنَــةِ هــي تَحْقيــقُ (الاسْتِقْلال التّاريخــيّ التّــام)[٦٧] للــذّاتِ العربيّة الذي

فَقَدَتْـهُ بسبب «الصِّرَاعِ بين التُّرَاثِ والحَدَاثَـةِ»، فإنّ كُلَّ الحُلُولِ تَبْقَى تَنْظيريّةً ما لم يكنْ المُنْطَلَـقُ الأسَاسُ هو تَحْقيق «الاسْتِقْـلال التّنْمَويّ» الذي يَحْتَـاجُ - أوّل ما يَحْتاج - إلى «ثقافـةٍ تَنْمَويّة». وهكـذا تَنْتَصِبُ أمامنا حالـةٌ وَاضِحَةٌ لـ«الثّقافة» بعناصِرهـا «السَّلْبيّة» و«الإيجابيّة» (انْظر: الفَصْل الثّاني)، وما دامتْ «قَاطِرَة النَّهْضَة» لم تتحرَّكْ بفَاعِليّةٍ على صعيـد «المُجْتمعات العربيّة»، فإنّ هذا دَلالَةٌ بَيِّنَةٌ على غَلَبَـةِ «العناصِر السَّلْبيّة»، وتَفَاقُم تَأْثيرِ «البُعْد الزَّمَكَانيّ» الذي تطرَّقنا إليه في الفَصْل الثّالث؛ ومن هنا كان يَنْبَغي أنْ تَهْتَمَّ «الإسْتراتيجيّاتُ التَّنْمَويّةُ» بتَأْصيلِ «العناصِر الإيجابيّة» وتَقْليصِ آثار «العناصِر السَّلْبيّة» - قَـدْر الإمْكان -. وبينما يَعْكِـفُ المُثقَّفون والمُجْتهدون والمُفكِّـرون على عمليّات تَحْليل «التُّـرَاث» وتَنْقيتـه ومُراجَعَته، ويَعْكِـفُ آخَرون علـى اسْتِدْعَاءِ مفاهيـم «الحَدَاثَة»، وكِلا العَمَلَيْـن مَطْلُوبان وضروريّان في التّلاقُحَاتِ الفِكْريّة المُعَاصِـرة، إلاّ أنّ المُهِمّ أنْ نَسْعَى إلـى اسْتِيعابِ ذلـك «العُنْصُرِ الرِّيادي المُحَرِّك» لهذا العُصْـرِ وإنْجازاتِه، وهو «العُنْصُرُ الغَائِـبُ» في فِكْرِنَا وحياتِنـا وثقافتِنا، ألا وهو «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة»؛ بَلْ أَذْهَبُ إلى أبْعَـد من ذلك، فأقولُ إنّ دَمْجَ هذا «العُنْصُـرِ الغَائِبِ» في تَحْليلنا، هو الذي سيجعلُ لهذه التّحْليلات والدِّراسات في عَالَمِ «التُّرَاثِ» أو «الحَدَاثَة» أيَّ مَعْنًى تَنْمَويٍّ، أو دَلالَةٍ نَهْضَويّةٍ، في «الأَلْفيّة الثّالثة».

ذلـك «العُنْصُـرُ الغَائِبُ» هو ما يُشيرُ إليـه محمد عابد الجابـريّ بقوله: (ما زالتْ ثقافتنـا مِثْلها فـي ذلك مِثْل جميع مَرَافِـقِ حياتنا الاقْتصاديّة والاجْتماعيّـة والسّياسيّة، لـم تَسْتَوْعِبْ بعْد اسْتِيعاباً فَاعِلاً أُسُسَ الحضـارة المُعَاصِرة، أُسُسها العِلْميّة والتِّقَنيّة، لا علـى مُسْتوى الفِكْر والتّفْكير ولا علـى مُسْتوى العِلْم والتّغْيير، إنّنا في هذا المُسْتوى وذاك مـا زلْنا نعيش «صَدْمَةَ الحَدَاثَة» علـى مُسْتوى الفِعْلِ وردّ الفِعْلِ اللذيـن يُحَرِّكُهُمَا التّنَافُرُ والتّنَاقُضُ وليسـ التَّفَاعُلُ والتَّكامُل. إنّ هـذا يَعْني أنّ ثقافتنا ما تـزالُ مَحْكُومَةً إلى حَدٍّ بعيـدٍ ببُنَاها التّقْليديّـة الجَامِدَةِ وأنّ هذه الأخيرة لم تَتْرُكْ بعْد مكانها لبُنًى حديثةٍ قَادِرَةٍ على أداء وظيفة البُنَى القديمة على مُسْتوى الحِفَاظِ على الهُويّة والخُصُوصِيّة، وقَادِرَةٍ في

الوَقْت نفْسه كذلك على اسْتيعابِ الجديد، كُلّ جديدٍ، على مُسْتوى العِلْمِ والتِّقانةِ اسْتيعاباً إيجابيّاً فاعِلاً) [٥٩].

وأمّـا المَخْرَجُ من هـذه «الإشْكاليّة» فلن يكون إلاّ بالجَمْعِ بيـن «التُّراثِ» و«الحَداثَةِ» فـي تَوازُنٍ وتَوافُـقٍ، ونَلْمَسُ الخُيُـوطَ العامّةَ لهـذه الرُّؤية في ما طَرَحَهُ لـؤي صافي بأنّ: («الأَصالَـة» و«التّجْديـد» ليسـا مَفْهُومَيْن مُتَقابلَيْـن كما يَظُنُّ البعْض، بَـلْ هما مَفْهُومان مُتَكامِلان، فلا تَجْديدٌ حقيقيٌّ دون أَصَالَةٍ تَرْبِطُ الحَاضِرَ بالماضي، وتَبْنِي المُسْتَقْبَلَ على إنْجـازاتِ السَّلَف) [٦٠]. الرُّؤيـةُ نفْسُها تَتَكرَّرُ لدى برهان غليون، وهـو يُفَنِّدُ «رُدود الفِعْل» إزاء «الضَّغْـطِ العَوْلَميّ» علـى «الهُويّة العربيّة» فيقول: (الدِّفَاعُ عـن هُويّتنا لا يتحقّقُ من خلال الحِفَاظِ عليها كما هِيَ، ولكن من خلال إعادة بِنائها من أُفُقِ المُسْتَقْبَل، وفي إطار العَوْلَمَةِ أو الثَّوْرَةِ العِلْميّة التِّقَنيّة، أيْ بِناء العَالَميّة فيها) [٦١].

إذاً لا مَخْـرَجَ مـن هـذه «الإشْكاليّـة» إلاّ بحركـةٍ تَـدِبّ علـى الأَرْض، مُتَّجِهَةً نحو «المُسْتَقْبَـل»، ومُدْرِكَةً لطبيعة «العَلاقَةِ الجَدَليّة» بين «التُّراثِ» بقِيَمِه وأَخْلاقِه ومفاهيمِه، و«الحَداثَةِ» بعناصِرهـا التّنْمَويّة ومُقَوِّماتِها الاجْتماعيّة وأُسُسِهَا المُعَاصِرة؛ فتتشكَّلُ هذه «العَلاقَـةُ العُضْويّـة» وتَتَبَلْوَرُ عبْـر برامِج عمليّةٍ، وآليّـاتٍ تَنْمَويّةٍ، تَدْفَـعُ بالمُجْتمعات إلى الانْخِرَاطِ في نِظَـامِ «الحياة المُعَاصِرَة» وإنْتاجيّته وديناميكيّته، ووَضْعِ مَشْروعاتٍ فِكْريّةٍ نَشِطَةٍ، وفَعّاليّاتٍ ثقافيّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، تُرْسِي دعائِم التّلاقُحِ بين «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَة».

إذاً الحاجـةُ ماسّةٌ إلى «مَنْظُـورٍ تَنْمَوِيٍّ» ذي معايير صَارِمَةٍ لهـا مُقَوِّماتها العِلْميّة، وضَوابِطهـا التّنْظيميّة، ومُنْطلقاتهـا التّنافُسيّة، ليَنْأَى بـ«الإشْكاليّة» عـن الجَدَلِ العَبَثِيّ، والصِّرَاعـاتِ الكلاميّة، ورُكُـوبِ المَوْجَـاتِ الاسْتِفْزَازيّة، وليُكَرِّسَ جُهُـودَهُ في مضامين تَنْمَويّـةٍ بَحْتَةٍ، وآليّات عمليّةٍ دقيقـةٍ، وحِسابات إنْتاجيّةٍ مُنْضَبِطَةٍ، تَجِـدُ تَعْبيرها الفَاعِلَ علـى الأَرْض؛ وفي الوَقْت ذاته يتفاعلُ هـذا «المَنْظُور التّنْمَوِيّ» مع بِيئته سَواءً على صعيد الاحْتياجـات العِلْميّة، أو المَوارِد المُتاحَـة، أو المُشْكلات التِّقَنيّة، أو التّكامُل الوظيفيّ، أو التّجارب المُتَبادَلَة، أو القِيَم الحياتيّة التي تَصْطَبِغُ بها البِيئة، ويَتَحَلّى بها المُجْتمع.

بطبيعـة الحال فإنّ «المَنْظور التّنْمَـويّ» مَنْظورٌ يَنْقُدُ نَفْسَهُ قبـل أنْ يَنْقُدَهُ الآخَرون؛ لأنّـه أحْرص من غيره على نجاحِ التّجْربة، وتَطْويرِ مُعْطياتها، وإرْسَاءِ قَواعِدِهَا، وتَصْحيحِ مساراتِها؛ وهو - من مُنْطَلَقِ أُسُسِهِ العِلْميّة - مَنْظورٌ لا يُزْعِجُهُ النّقْد - أيّاً كان مصْدره -؛ لأنّـه يُدْرِكُ أنّه لا تُوجَدُ تَجْربـةٌ بشريّةٌ بَلَغَتْ الكمال لتكون عَصِيّةً على النَّقْد، وهو لا يَدْخُلُ فـي صِرَاعاتٍ لَفْظيّةٍ، ومُمَاحَكاتٍ كلاميّةٍ، ومُصَادمَـاتٍ مُجْتمعيّةٍ؛ لأنّه يَعْلَمُ أنّ أحْكامه - في نهاية المطاف - تَخْضَعُ لتلك المعايير الدّقيقة التي تُمَيِّزُ «العمل التّنْمَويّ» الصّادق عن غيره من أشْكالٍ لا تَصْمُدُ كثيراً أمام حقائِق «الحياة» وتحدّيات «الوَاقِع» وشُرُوط «التّنْمية».

يقودُنـا ذلك - بالضّـرورة - إلى مَفْهُوم «الثّقافـة التّنْمَويّة» اللازمَـة لتَحْقيقِ ذلك «التّجَانُسِ الثّقافـيّ» بين المُجْتمع وعَصْرِه لتوليـد عناصِر دَاخِليّـةٍ مُتَوَافِقَةٍ مع التّرْكيبة الوِجْدانيّة والإيمانيّة والفِكْريّة والعمليّة بحيث يُثْري بعْضُها بعْضاً، ويتحقّقُ «التّوَازُن» بين مُرَكّبَـاتِ «الثّقافة» ومُكَوِّنَاتِهَا ليكون مِفْتَاحاً قَادِراً علـى تَحْقيقِ «الاسْتِجَابَة» الفَاعِلَةِ أمام «التّحَدّيـات» التـي تَعْتَرِضُ مسيرة مُجْتمعاتهـا، ومَدْخَلاً إلى العَتَـادِ والذّخيرةِ اللّازِمَيْن للتّـواؤمِ مـع مُتطلّبات مراحـل «التّنْمية»، وتَحْقيقِ تطلّعـات الإنْسان بأبْعادِهـا الوِجْدانيّة والعَقْليّـة والمعيشيّـة والرّوحيّـة والنّفسيّة؛ فكُلّمـا تَنَوَّعَـتْ مُقَوِّمَاتُ «الثّقافـة» وتفاعلتْ عناصِرُهـا، كان ذلك مُؤَشِّراً على قُـدْرَةِ تلك «الثّقافة» على الاسْتِمْـرَارِ والنُّمُوِّ والفَاعِليّةِ لتُحَافِـظَ على أنْمَـاطِ الحياة، وتُطَـوِّرَ إمْكاناتِهـا، وتُجَدِّدَ خلاياهـا، وتَدْعَـمَ المُقَوِّمَاتِ المُتَعَدِّدَةِ والمُعْتَمَدَةِ للمُجْتمعِ الحديث.

٤-٧) «التّنْمية الحقيقيّة» لا تَسْتَعْدي أحداً:

إنّ «أَسْبـاب التّنْمية» بطبيعتِها مُحايدةٌ فهـي لا تَنْحَازُ لطَرَفٍ دون آخَر، وهي ليستْ حِكْـراً على أحدٍ، ومن أَخَذَ بهـا حَقَّقَ نتائِجَهَا، ومن أَخْفَقَ فلا يلومَـنَّ إلاّ نَفْسَه؛ فاحْتِرامُ العمـل وإتْقانُـه، والتَّخْطيطُ الجـادُّ، والتّنْفيذُ الأميـن، وتَقْديرُ الوَقْت وإدارتُـه، ومُحارَبةُ الفســاد بأشْكاله، وطَلَبُ العِلْم النّافِـع بأنْواعه، وتَأْصيلُ مكانةِ الإنْسان وكرامته، وتَكْريسُ مَصْلَحَةِ المُجْتمـع، والتّفاعُلُ الإيجابيّ مع أعْرَافِه؛ كُلُّها قِيَمٌ تَنْمَويّةٌ أساسٌ، وكُلُّها أسْبابٌ

يَتَعَـرَّفُ عليهـا «العَقْلُ السَّويُّ» قبـل أنْ يُؤَكِّدَهَا ويَدْفَعَ بها قُدُماً «العَقْـلُ التَّجْريبيّ»، وكُلُّها مُقَوِّماتٌ تَجْتَمِعُ في غَرْسَةٍ طيِّبةٍ يَحْرِصُ عليها المُسْلِمُ قبل غيره؛ امْتِثالاً لِقَوْلِ المُصْطفى - صلَّى الله عليه وسلَّم -: «**إذا قَامَتْ القِيامَةُ وفي يَدِ أحدكم فَسِيلَةٌ فليَغْرِسْهَا**»[٦٩].

إذا تأكَّدَ لنا أنّ «قِيَمَ التّنْمية» لا تُحَابِي أحداً، فإنّ ذلك - بالضّرورة - يُبَيِّنُ أنّ «قِيَمَ التّنْمية» أيضاً لا تَسْتَعْدِي أحداً؛ فأوّلُ «شُرُوطِ التّنْمية» أنْ تَتَحَرَّكَ في مَنْظُومَةٍ مُتَجَانِسَةٍ، وتَنْدَفِـعَ بإرادةٍ جماعيّـةٍ، وتَتَقَوْلَبَ في مَنْظُورٍ شَامِلٍ يُوَفِّقُ بيـن الجُزْئيّاتِ والكُليّات. وأمّا أولئـك، الذيـن ملؤوا الدُّنْيـا صُراخاً حول «حَدَاثَـةٍ» يرون أنّـه يَنْبَغِي لهـا أنْ تَنْسِفَ قِيَمَ المُجْتمـع، وصَالُوا وجَالُوا مُتَسَلِّحِيـن - بانْبِهَارٍ مُنْبَطِحٍ - لمُصْطلحاتٍ برَّاقَةٍ اسْتَوْرَدُوهَا، ومفاهيـم غائِمَةٍ اسْتَجْدُوهَا، وراحـوا يَتَأَبَّطُونَهَا في كُلِّ مَحْفَلٍ، فإنّهـم قد أخذوا القُشُورَ مـن تجارِبِ الغَـرْب، وانْصَاعُـوا لشُرُوطِ تلـك المُجْتمعـات وظُرُوفِهَا، ورَبَطُـوا مُسْتَقْبَلَ مُجْتمعاتِهـم بتاريخ غيرهم وإرْثِه، واسْتَفَـزّوا بيئاتِهم، واسْتَعْدَوا النّاس؛ وكُلُّ ذلك - دون شَكٍّ - هو العدوُّ الأوّلُ لـ«التّنْمية».

ويتأكَّـدُ «الإطارُ الثّقافي للتّنْمية» لدى عبـد الخالق عبد الله[٩] بقوله: (لقد أَظْهَرَتْ التّجـارِبُ العمليّـةُ أنّ أيَّ إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَويّةٍ تُسْقِطُ من حِساباتِهـا «البُعْدَ الثّقافيّ» تكون عُرْضَـةً لتوليـد الاغْتِـرَابِ الحضـاريّ والشِّقَـاقِ الاجْتماعـيّ واللّامبالاة وحتّـى العَدَاءِ لمَجْهُودَاتِ التّنْمية)؛ وبهذا يَخْلُصُ عبد الخالق عبد الله إلى نتيجةٍ مُهمّةٍ وهي أنّ: (تعثُّر البرامِجِ التّنْمَويّة السّابقة يعودُ إلى تَجَاهُلِهَا «البُعْدَ الثّقافيّ»). إنّ «التّنْميةَ» التي لا تَسْتطيعُ أنْ تَنْطَلِـقَ من أحْشَاءِ مُجْتمعِها، وتَتَمَثَّلَ خَصَائِصَهُ وقِيَمَهُ ومُنْطَلَقَاتُهُ، هـي - بالضّرورة - تَنْميـةٌ هَشّـةٌ، سرْعان ما تَذْرُوهَا الرّيـاح وتَفْقِدُ بريقها؛ وبطبيعة الحـال ليستْ «التّنْمية» هـي الإجْماع علـى رُؤيةٍ وَاحِدَةٍ، فليس ذلك من سُنَنِ الله فـي خَلْقِه، ولكنّها الحِرْصُ على التَّمْييزِ بين تلك المُتطلَّبات الجَوْهَريّة لـ«التّنْمية» بمعاييرها العِلْميّة وحقائقها التّجْريبيّة وثوابِتهـا الثّقافيّة، وبين تلـك الآراء التي هي - في أحْسن أحْوالها - مُجَرَّد آراءٍ شَخْصيّةٍ وانْطِباعـاتٍ آنيّةٍ، وفي أسْـوأ أحوالها هي انْسِيـاقٌ وراء هوى النّفْس، ورَغْبَـةٌ في مُخالَفَةِ

المَألُـوفِ والمَقْبُـولِ بدعْوى «إبْدَاعٍ مُزَيَّـفٍ» بَحْثاً عن شُهْرةٍ كاذِبَـةٍ، أو انْسِياقاً وراء بُرُوزٍ إعْلاميٍّ خَادِع.

ومـن هنا يَنْبَغِي التّأسيسُ لـ«ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَأْخُذُ في الحِسْبـان اعْتِباراتِ «التّنْمية» وضَـروراتِ «العَصْر» ومُقْتَضياتِ «الواقِع»؛ فتكونُ ثقافةً مُتآلِفَةً مع المُتَغيِّرات، ومُتَجَانِسَةً مـع العَصْر، ومُسْتَوْعِبَةً لمُعْطيـاتِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» وشُرُوطِهَـا، ومُؤَصِّلَةً لقِيَمِ الأُمّـةِ وهُويّتِهَـا، ومُواكِبَـةً لتطلُّعاتِ المُجْتمـع وطُمُوحاته. ولا شكّ فـي أنّ تَحْديدَ الأُسُسِ والخَلْفيَّاتِ والمُنْطَلَقَاتِ المُرْتَبِطَةِ بأيِّ قضيّةٍ هو أَمْرٌ لازِمٌ لبَلْوَرَةِ الإسْتراتيجيّات، وتَحْديدِ الآليّاتِ اللاّزِمَةِ للتّعامُلِ معها، ومُعَالَجَةِ إشْكَالاتِها، وتَطْويرِ إيجابيّاتِها؛ ولذا فإنّ مُصْطلح «الثّقافة التّنْمَويّة» يَحْتَاجُ منّا إلى وَقْفَةٍ مُتَأنِّيّةٍ تُقَيِّمُ ماهيّتَه، وتُحَدِّدُ مُقَوِّمَاته، وتَتَعَرَّفُ على طبيعتِه، وتُؤَسِّسُ أَرْضِيَّتَه، وهذا ما سَنَسْعَى إليه في الفَصْلِ التّالي.

«العَقْلُ العَربيُّ» و«الثَّقَافَةُ التَّنْمَوِيَّة»

٥-١) مَدْخَل:

لقد وَقفْنَا - فيما سَبَقَ من فُصُولٍ - على بعْض طُرُوحاتِ «النَّهْضويّين» واسْتِشْرَافَاتِ «التَّنْمَويّين» لنجد أنّ هَاجِساً قويّاً يَتَجَذَّرُ في كُلِّ تلك التَّنْظيرات، وأنّ مُعاناةً فِكْريّةً تَتَغَلْغَلُ في أحْشَاءِ تلك الاسْتِشْرَافَاتِ وما يُرافِقُهَا من عُمُوميّاتٍ تَضْرِبُ الحَيْرَةُ في أطْنَابِهَا لتُبَيِّنَ أبْعَادَ «أزْمَةٍ ثقافيّةٍ» بامْتيازٍ، ويَحْدُثُ ذلك في ظِلِّ وَاقِعٍ عربيٍّ يَتَدَحْرَجُ إلى القاع بينما تَنْطَلِقُ «الحركة العَالَميّة» إلى المجَرَّات؛ وكُلُّ هذه الأبْعَادِ - دون اسْتِثْنَاءٍ - تتوقَّفُ أمام حقيقةٍ بدهيّةٍ لا مناص عنها تماهى معها كثيرون من المُثقَّفين العرب، ويُوجِزُهَا محمد محفوظ فيقول: (إنّنا في هذا العَصْرِ الزّاخِرِ بالمَعْلُومات وتقْنياته المُتَعَدِّدَة، لا يُمْكِنُنَا أنْ نَخْتَارَ هل نَدْخُلُ هذا العَصْرَ أمْ نُغْلِقُ وَاقِعَنَا عنه، وإنّما من الأهميّة توفير كُلِّ الشُّرُوطِ الضّرورية لاسْتِيعابِ تطوُّراتِ هذا العَصْرِ وتقْنياتِه حتى يَتَسَنَّى لنا المُشارَكة الطّبيعيّة في عَصْرٍ لا محلّ فيه إلاّ للمُجْتمعات الحَيّة، الزّاخِرَة بالكفاءات والطّاقات الخَلّاقة)[٤٣]. ويُؤَكِّدُ لؤي صافي أهميّة «الشَّرْطِ الثَّقافيّ» لـ«الرُّؤية التَّنْمَوِيّة» بقوله: (يَلْزَمُ الأَخْذُ بعَيْنِ الاعْتِبار، عند تَطْوير مَشْرُوع تَنْميةٍ فَعّالٍ، العَلاقَة الحميمة بين ثلاثة جَوانِب من الحياة الاجْتماعيّة: النّفْسيّ، والثّقافيّ، والإنْتاجيّ. بمَعْنَى أنّ «حركة التّنْمية» تتوقَّفُ على توفُّر مَجْموعَةٍ من الشُّرُوطِ الثّقافيّة والاجْتماعيّة)[١٦].

أمّا فيما يَتَعَلّقُ بتلك «الشُّرُوطِ الثّقافيّة والاجْتماعيّة» فلا بُدَّ لها أنْ تَصُبّ في ما وَصَفَهُ غازي القصيبي[١٠] بأنّه: («شيءٌ ما» لا بُدَّ منه لنجاح العمليّة التّنْمَويّة)، وهو:

(ذِهْنيّةٌ مُعَيَّنَةٌ يُمْكِنُنَا إذا ضَمِنَّا وجودها أنْ نَتْرُكَ لها حُرِيّةَ التّعامُلِ مع التّفاصيل وَاثِقين من قُدْرَتِهَا على الوصُولِ إلى حُلُولٍ، ويَسْتَحِيلُ في غيابها أنْ نَنْجَحَ في حَلّ المُعْضلات التي تُشَكِّلُ جُـزْءاً لا يتجزّأ من كُلِّ تَحَـوُّلٍ تَنْمَويّ). وأمّا محمد أزهـر السمّاك، فيرى أنّ أحد المبـادئ التي يجب أنْ تَحْكُمَ الهدف نحو تَحْقيقِ «إسْتراتيجيّة العمل الاقْتصاديّ العربيّ» هـو: (الارْتِقاء بالمُسْتوى الثقافيّ والعِلْميّ للفَرْدِ العربيّ إلـى مُسْتوى مُعايَشَةِ العَصْرِ بما يُؤهِّلُهُ للإسْهَامِ الجَادِّ في الإنْتاج، وزَرْعِ الثِّقةِ بالنّفْسِ في الاسْتِهْلاك)[٩].

لقـد رأينا – أيضاً –، في سِيـاق الفُصُولِ السّابقة، أنّ أبْرز الشُّرُوط الضّرورية للتّفاعُلِ الجَادّ مع مُعْطيات «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» والامْتِصَاصِ الوَاعِدِ لها، يَتَمَثَّلُ في ثقافةٍ حيويّةٍ نَشِطَةٍ قَادِرَةٍ على اكْتِسَابِ «الفَاعليّة الاجْتماعيّة» التي تَنْقُلُهَا من حالات السَّمَرِ وليالي الأُنْسِ وثقافـة اللّفْظِ إلى فِعْـلٍ يتحرَّكُ على الأرْضِ، ليُغَيِّـرَ مَعَالِمَ الحياة وأنْمَـاطَ التّفاعُل؛ وبذلك تكـون «الثَّقافةُ» هي «الوَسَـط الفعَّال» اللازِم لتَحْقيقِ «النَّهْضَة» وتَحْريـكِ «التّنْمية» والتّفاعُلِ الإيجابـيّ مع ظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة»، وهذا ما أَدْرَكَهُ أحمد زويل وهو يتأمَّلُ مُحاولات «النّهْضَة» في تاريـخ «العَقْلِ العربيّ» ليُطالِـبَ بإصْلاح ثقافيٍّ شَامِلٍ بقوله: (فعلى صعيـد «الثَّقافة» تَتَطَلَّبُ «النّهْضَـة» إصْلاحـاً ثقافيّـاً وَاسِعاً، وأَعْنِـي هنا بالإصْـلاح الثّقافيّ... إصْلاح حالـة النّفْسِ والعَقْل، أيْ تَرْميمُ «الضَّميرِ العربيّ» مع تَرْميمِ «العَقْلِ العربي» سَواءً بسَواء)[٧٠].

أمّـا عمليّةُ «تَرْميم الضّمير العربـيّ» فلدينا الكثير من القِيَمِ والمفاهيمِ والعِبَرِ التي يَزْخَـرُ بهـا تُرَاثُنَا وتَضِجُّ بهـا أدبيّاتُنَا، وأمّا عمليّةُ «تَرْميم العَقْـلِ العربيّ» فهي في حاجةٍ مُلِحَّـةٍ إلى وَقْفَةٍ مُتأنِّيـةٍ؛ فعمليّةُ «تَرْميم العَقْـل العربيّ» تَسْتَدْعِي توفيـرَ أدْواتٍ وعناصِر وخامـاتٍ ذات خصائِص مُعَيَّنَةٍ لكـي تتفاعل عمليّتا «تَرْميم الضّمير» و«تَرْميم العَقْل» في «تَرْكيبةٍ جَدَليّةٍ»، بحيث يُغَذّي كُلٌّ منْهما الآخَر لتَصْحيح المسار، وتَطْويرِ العطاء، وتَفْعيلِ الطّاقـات، وشَحْذِ الهِمَم؛ فتتفاعل قِيَمُ الدِّين، وعطـاءاتُ الفِكْر، وكَوابِحُ التّجْربة، وآفاقُ العلـوم، ونَشْوَةُ الابْتـكار؛ لتَنْصَهِرَ كُلُّهَا في بَوْتَقَـةٍ وَاحِدَةٍ مِعْطَاءَةٍ قَـادِرَةٍ ليس فقط على «تَرْميـمِ العَقْلِ العربيّ»، بل وأهمّ من ذلك وأعْمق، إعادةُ تَشْكيلِـه وصَوْغُ مُكَوِّناتِه ليتواءَمَ مع خصائِص «الاسْتِجَابَةِ» اللّازِمة لمُجابَهَةِ «التَّحدِّي».

٥-٢) «العَقْلُ العربيّ»: تَرْميمٌ أمْ إعادةُ بِنَاءٍ؟:

فــي ضوء ما رأيناه في الفُصُول السّابقة مــن الخصائِص المُمَيِّزَةِ لـ«العَقْلِ العربيّ» ومُمَانَعَتِـهِ الشّديدةِ لـ«شُـرُوطِ العَصْر»، فإنّ الحاجةَ ماسّةٌ إلى عمليّـةِ «إعادة بِنَاءٍ» لهذا «العَقْلِ» تَبْدَأُ بتَقْويضِ مفاهيم مَغْلُوطَةٍ وتداعياتٍ مَشْرُوخَةٍ وانْفعالاتٍ مُهَيمِنَةٍ، وتَشْرَعُ في تَأْسيسِ قَواعِد صَلْدَةٍ من الرُّؤى المنْهجيّة، والتّفاعُلات المنْطقيّة، والمعايير المُنْضَبِطَة، والتَّوجُّهـات الحيويّـة؛ لتَدْفَعَ - في النّهاية - إلى بَلْـوَرَةِ مفاهيم «ثقافـةٍ تَنْمَوِيّة» وتَأْصيلِ قِيَمِهَا وأفْكارِها.

وتَبْــرُزُ أَحَد أَلْغَــازِ «العَقْلِ العربــيِّ» في حقيقةٍ مُحَيِّــرَةٍ فبينما يُفْتَرَضُ أنْ يكون ما يُعايشُهُ هذا «العَقْلُ» من تُرَاثٍ أصيلٍ مُتَمَثِّلٍ في «المَنْهَجِ الرّبانيّ» مُنْطَلَقَاً لإنْجازاتٍ غزيرةٍ فــي الكَمِّ وفريدةٍ في النَّوْعِ علــى مُخْتلف الأصْعِدَة، إلاّ أنّ «العَقْلَ العربــيّ» أَخْفَقَ بامْتيازٍ؛ والغريــب أنّ أُمماً أُخْرى لا تَمْلِكُ مثل ذلك «التُّرَاثِ» العظيــم اسْتطاعتْ أنْ تَشُقَّ طريقها بمَنْهَجيّــةٍ وعَقْلانيّةٍ وإنْتاجيّةٍ. وليس ذلك بمُسْتَغْــربٍ؛ فسُنَنُ الله لا تُحَابِي أحداً؛ فعنْدما شَخَّصَتْ تلك المُجْتمعاتُ أمْرَاضَهَــا، وتَعَالَتْ على انْفِعالاتِها، وكَبَحَتْ حماقاتِها، وتَمَثَّلَتْ ثقافةَ عَصْرِهَا، انْدَفَعَتْ - في عُنْفوانٍ - لتَصْنَعَ حَاضِرَهَا الزّاهِرَ ومُسْتَقْبَلَهَا الوَاعِد، وكما يقــولُ زين العابدين الرّكابــي: (إذا أَرَدْنَا نَهْضَةً حقيقيّةً وعظيمــةً فليس أمامنا إلاّ إتْقان التّعامُلِ مع السُّنَنِ الكونيّة والاجْتماعيّة، وإذا كان الشّمْسُ والقَمَرُ لا يَنْكسِفَانِ لمَوْتِ أحدٍ، ولــو كان ابن نبيٍّ، فإنّ قوانيــن الفضاء والبِحَارِ والصِّناعة والزِّراعَــةِ والإدارة والعمل لن تتعطّــل، ولن تُغَيِّرَ خَصَائِصَهَا من أجــل المُسْلمين مهما كان عَدَدُهُمْ، ومهما كانت درجة صلاحِهــم، وخُلاصَةُ هذه النُّقطة أنّ الرُّسُوخَ في «العِلْم بالسُّنَنِ الكَونيّة والاجْتماعيّة» هو من الأُسُسِ العُظْمَى لـ«الثَّقافة العِلْميّة» ومن صميمِها)(١٤).

أمّا «العَقْلُ العربيُّ» فقد غَرِقَ في لُجَّةِ إشْكَاليّةٍ كُبْرى عبْر تاريخه؛ فقد كانتْ «الكلمةُ» هي أداته وسِلاحه وغايته ومُنْتَهَى تطلُّعاتِه؛ فصنعتْ له - بخصائِصها المُمَيِّزَةِ وعُنْفوانِهَا

الكَامِـنِ - أبْطَالاً من دُخَانٍ، وعَمَالِقَةً مِـن وَرَقٍ، ورُوَّاداً من فُقّاعَاتٍ، وساعدها على ذلك خيالٌ خِصْبٌ، وعَاطِفَةٌ مُتأجِّجَةٌ، وشُحٌّ فَادِحٌ في الأبْطَالِ والعَمالِقَةِ والرُّوّاد الحقيقيّين[٥٢].

٥-٢-١) من مُحَدِّدات «العَقْل العربيّ»:

إنّ «العَقْـلَ» - بطبيعـة تَكْوينـه - لا يتعامـلُ مـع مُحيطِه مُبَاشَـرَةً، بَلْ عبْـر أدواتٍ ومُحَـدِّداتٍ هي المفاهيم والقِيَم والتّعْريفات والمُصْطلحات والمَعْلُومات؛ فإذا كانتْ هذه المفاهيـمُ والقِيَمُ والمَعْلُومـاتُ قَادِرَةً على التّعامُلِ مع أزمـات المُجْتمع وتحدّيات الوَاقِع، اسْتطـاع «العَقْلُ» أنْ يُنْتِجَ «الاسْتِجَابَة» الوَاعِيَةَ المُحَقِّقَـةَ للأغْرَاضِ المَنْشُودة. ولذا فمن المُهِـمّ - في هـذا المِضْمَارِ - أنْ نُؤكِّدَ ضـرورة إجْرَاءِ دِراسـاتٍ مُسْتفيضةٍ في الجَوانِبِ النّفسيّـة والتّاريخيّـة والاجْتماعيّـة والثّقافيّـة التي تُحِيـطُ بـ«العَقْلِ العربـيّ» وتَرْفِدُهُ في مسيرتِـه وتَحْليلِـه وتَعْليلِه وأفْعالِه ورُدود أفْعالِـه، ولا بُدّ أنْ تتوافَرَ لهـذه الدّراسات أمانةٌ ونزاهـةٌ وجُـرْأةٌ وشجاعـةٌ تَسْمَـحُ بالغَوْصِ في تلـك الأعْمَـاقِ المَشْحُونَـةِ بالانْفِعَالِ التي يُفَجِّرُهَا «العَقْلُ العربيُّ» في كُلِّ مَأزِقٍ وفِتْنَةٍ وأزْمَةٍ ومِحْنَة. لا يَنْبَغِي - في هذا الإطار - أنْ نهـاب تلك الصَّيحاتِ التي تَطْلُـعُ علينا مُحَذِّرَةً من «جَلْدِ الذّات»؛ فالخَوْفُ ليس من «جَلْدِ الذّات»، ولكنّه من فُقْدَانِهَا وذَوَبَانِهَا وضَيَاعِهَا وتَشَرْذُمِهَا، فلا يَخْتَلِفُ عَاقِلان على أنّ من الأفْضـل أنْ تَقْسُو على من تُحِبّ، بَدَلاً من أنْ تَتْرُكَهُ نَهْباً لآفاتِ الزّمان. ذلك عن القَسْوَة، وأمّا إنْ كان الأمْرُ هو مُجَرَّد إقْرارِ حقائِق تَتَجَلّى عند كُلِّ مُنْعَطَفٍ، فإنّ الأمْرَ يُصْبِحُ أشدّ إلْحاحاً. وهكذا نجدُ أنّ من أبْرز ما يُمَيِّزُ «العَقْلَ العربيّ» هو قُدْرَتُهُ الفذّةُ على الجَمْعِ بين المُتناقضـات؛ فهو - علـى سبيل المِثال - يُمْعِنُ في جِرَاحٍ غَائِـرَةٍ في أعْمَاقِ الزّمن، وهو لا يَفْتَـأُ يَتَلَـذّذُ بنَكْئِهَا فـي كُلِّ مُنْعَطَفٍ، غير آبِهٍ بالتّغيُّرات التي حَدَثَـتْ على مُسْتوىً كَوْنيٍّ فبَدَّلَتْ خصائِصَ المُجْتمعات، وحَوَّرَتْ معاييرَ التّفاعُلات.

إنّ «العَقْـلَ العربـيَّ» يَتَمَتّعُ بذاكِرَةٍ فريـدةٍ من نَوْعِهَا تُؤلِّفُ بيـن نَقِيضَيْن؛ فهي من ناحيـةٍ قَادِرَةٌ علـى أنْ تُصْبِحَ «طويلة المدى» لتَسْتَدْعِي كُلَّ فِتَـنِ التّاريخ ومَثَالبه الماضية فـي لحْظة انْفِعَـالٍ لتُوَظِّفَهَـا للاسْتِعْدَاءِ والفِتْنَـةِ والمزيد من الاشْتِعَـال، وهي في الوَقْت

نفْسه قَادِرَةٌ على أنْ تُصْبِحَ «قصيرة المدى» لتَعْفُو عمّا سَلَفَ بالأمْسِ القريبِ من كَوارِث ونكباتٍ دون مُحَاسَبَةٍ أو مُساءَلةٍ أو كَشْفِ حِسَابٍ، وهكذا تَتَكَرَّرُ في كلتا الحالَتَيْن المآسي والأخْطاء، ويَعُمُّ البلاء، ويَصْدُقُ القول المَشْهُور: (ما أكْثر العِبَر وما أقلّ الاعْتبار).

إنّه «عَقْلٌ» قَادِرٌ على أنْ يَخْتَزِلَ كُلَّ التّاريخ والتّجارِب والمُعاناة في لحْظَةِ انْفِعَالٍ هَوْجَاءٍ، طَامِساً حَوَاسّهُ؛ لكي لا تَسْتَشْعِرَ الخطر الذي يُحِيقُ بها، فيَنْدَفِعُ ليُكَرِّرَ أخْطاءه على مدى قُرُونٍ، ويَدْفَعُ الثّمن من جديدٍ دون نَدَمٍ أو اتّعَاظٍ أو تَأَسٍّ؛ فالهزيمةُ هي العلامةُ الكُبْرى في هذا «العَقْل»، ولذا فهو يَهْرُبُ من انْفِعَالٍ إلى انْفِعَالٍ، وهو يتوقّعُ المُسْتحيل فيرى إمْكَانيَّةَ تحقيق «شُرُوطَ الوَعْي» من «مُنْطَلَقَاتِ اللّاوَعْي». إنّه «عَقْلٌ» يلومُ الآخرين على حِرْصِهِمْ على مصالِحهم، ولا يلومُ نَفْسَهُ لتَضْييعِه مصالِحه، ويتباكى على الماضي التّليد، ولا يَسْعَى لتَطْويرِ الحَاضِرِ وتَهْيئةِ المُسْتَقْبَل، ويَدْعُو إلى «الوَحْدَةِ» وما تُمَثِّلُهُ من قُوّةٍ ومَنَعَةٍ، إلاّ أنّه سُرْعَانَ ما يَنْزَلِقُ إلى خِلافاتِه الضّيِّقَةِ وصِرَاعَاتِهِ المَذْهَبِيَّةِ ونَعَرَاتِهِ القَبَلِيّة، وكأنّ تَعْريفَ «الوَحْدَةِ» عند «العَقْلِ العربيّ» هو الأَحَاديّةُ في الرّأي، والاسْتبْدَادُ في القرار!.

٥-٢-٢) في رُبُوعِ «الشَّعْوَذَة»:

لا بُدَّ أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ «العَقْلَ العربيّ» يعيش «حالة شَعْوَذَةٍ»، وإنْ حَسِبَهَا «حالة تفاؤل»؛ فعنْدما تكون جُرْعَاتُ «التّفاؤل» أكْبر من قُدْرَةِ اسْتِيعابِ «العَقْلِ» لها في مُسْتوياته المَنْطقيّة، فإنّها تَتَحَوَّلُ إلى ضَرْبٍ من ضُرُوبِ «الشَّعْوَذَةِ» التي لا يَضْبِطُهَا ضَابِطٌ عَقْليٌّ، ولا يَقْبَلُهَا وَاقِعٌ حياتيٌّ، ولا يُفَسِّرُهَا تَعْليلٌ مَنْطقيٌّ، ولكنّها تَدْخُلُ في إطار التّخيُّلات والتّوهُّمات والأمْراض النّفْسيّة؛ فعنْدما يَجْنَحُ «التّفاؤل» بحيث يَشُطّ عن مُعْطياتِ «الوَاقِعِ» ويتجاوزُ حُدُودَ «المَعْقُول»، فإنّه لا محالة يُصْبِحُ «حالة هَلْوَسَةٍ» جَانِحَةً في آفاقِ الخيال، ومُفْرِطَةً في توقُّعاتِها وحِسَاباتِها، بحيث تَحْتَاجُ إلى طبيبٍ مُخْتَصٍّ، أو تَسْتَدْعِي اللجوء إلى مَصَحَّةٍ نَفْسيّة!.

يقولـون إنّ الخَطَّ الفَاصِلَ بين «العَبْقَرِيّةِ» و «الجُنُـونِ» هو خيطٌ رفيعٌ، ولعلّه الخيطُ الرّفيـعُ نفْسه الذي يَفْصِلُ بين «التَّفـاؤلِ» و«الشَّعْوَذَة»؛ ففي الحالة الأولى يَسْتَمِدُّ الإنْسانُ مـن تفاؤلِـه عزيمةً صَادِقـةً للعمل السّديد، وقُـدْرةً مَنْطقيـةً للقِراءة الصّحيحـة للوَاقِعِ المعيشـ، واسْتِيعاباً دقيقاً للتَّخْطيطِ الحكيم، وتَنْفيذاً حريصاً للآليّاتِ الفَاعِلَة. وأمّا في حالة «الشَّعْوَذَةِ» فإنّ الإنْسان يَلْهَثُ وراء توقُّعاتٍ لا سَنَدَ لها في الوَاقِعِ، ويَنْتَظِرُ تَحَقُّقَ آمالٍ لا أساس لها على الأرْض، ويَتوقَّعُ أنْ تَتَبَدَّلَ الأحْوال، ويؤول إليه المآل دون جُهْدٍ أو عملٍ أو مُثابَـرةٍ، ودون مُراعاةٍ لحُدُودِ «المُمْكِنِ» و«المَعْقُولِ»، وضَوابِطِ الوَاقِعِ والمَلْمُوس، وظُرُوفِ «الزَّمان» و«المكان».

لقد تَغَلْغَلَـتْ خصائِصُ «الثَّقافة العربيّة» التّقْليديّة في نسيـج «العَقْلِ العربيّ» فراح يَحْسَـبُ أنّ «البلاغـة الإنْشائيّة» و«الجمـال الوَصْفيّ» و«التّأجيج الانْفعالـيّ» أدواتٌ كافيةٌ لتَغْييـرِ الوَاقِعِ وتَبْديلِ الحالِ وبُلُـوغِ المرام، وهذا الحالُ هو قِمّةُ «الشَّعْـوَذَةِ» حيث تُهَيْمِنُ القناعـةُ بأنّ كلماتٍ تَمْتَلِكُ المُحَسِّنَـاتِ اللفْظيّة، وخُطَباً تَحْمِلُ الصُّـرَاخَ والجَلَبَة، قَادِرَةٌ علـى تَحْريـكِ الوَاقِـعِ دون جُهْدٍ مَدْروسٍ، ومُثابَرةٍ دَؤوبـةٍ، وفَهْمٍ للحقائِـق على الأرْض، واسْتِيعابٍ لطبيعة التّحَدّيات.

إنّ «العَقْـلَ الجَمْعِـيَّ العربيَّ» يُريدُ صِياغـة الكَوْنِ وفْق «تفاؤله»، ولـذا فإنّ أهْله في مُخْتلـف حالاتهم النّفْسيّة – صُعُـوداً وهُبُوطاً – يَعْجَبُون ويَغْضَبُـون إذا لم تُسَايِرْ «السُّنَنُ الكَوْنيّـة» أمْزِجَتَهُمْ، ولم تُحَابِ عَواطِفَهُمْ، ولم تَتَمَلَّقْ انْفعالاتِهم، ولا شكّ أنّ هذا التَّصَوُّرَ العجيـب نَوْعٌ مُشِينٌ من أنْـواع «الشَّعْوَذَةِ الفِكْريّة» التي يَنْبَغِي التَّصَدّي لها بحَزْمٍ وبأدواتٍ مَعْرفيّةٍ كفؤة.

ليـت الذين يَهْتَمُّون بدِرَاسَةِ مـا أَسْموه «أَزْمَةَ العَقْلِ العربـيّ» يُولُون هذا الجَانِبَ من الأَزْمَـةِ اهْتِمامـاً مُكَثَّفَاً، ويَسْعـون – بخِبْراتهم وجُهُودهم – ليس فقـط لدِراسة أبْعاد هذه «الأَزْمَةِ الفِكْرِيّة» عبْر «الإنْشائيّات» و«الكلاميّات» التي أَبْدَعَ فيها العربُ – قديماً وحديثاً –، وتُعْتَبَرُ – في حَدِّ ذاتِها – جُزْءاً من «الإشْكَالِيّة»، ولكن – أيضاً – عبْر طَرْحِ «برنامجٍ عمليٍّ»

يُفْلِحُ في تَقْلِيصِ حَجْمِ هـذه الظَّاهِرَةِ المَأْساويّة عبْرَ آليّاتٍ «ثقافيّـةٍ – تَرْبويّةٍ – إعْلاميّةٍ – عِلْميّـةٍ» تَنْمُـو بشَكْلٍ تراكُمـيٍّ لتُحَرِّرَ «العَقْلَ العربـيَّ» من مُعْتَقَلاتِ «الشَّعْـوَذَة» وحِصَارِ «المُحَسِّنَاتِ اللفْظِيّة»، وتُطْلِقَهُ في رِحَابِ «التَّفاؤلِ العَقْلانيّ» وعَوالِمِ «الإنْتاجِ الحيويّ».

قـد يَعْتَقِـدُ بعضُ المُتأمِّليـن أنّ ما يَنْتَـابُ الأُمّة – من فَتْـرةٍ إلى فَتْـرةٍ – من لَطْمٍ للخُدُود، وشَقٍّ للجُيُوب، ونَدْبٍ للوَاقِع، وبُكَاءٍ على الأطْلال، هو نَوْعٌ من «عَوْدَةِ الوَعْي»، ولكن هـذا اسْتِنْتَاجٌ لا يَدْعَمُهُ وَاقِـعٌ ولا تَسْنُدُهُ حقيقةٌ، فبضاعتُنا من «الشَّعْوَذَةِ» في كُلِّ الحالات وَاحِـدَةٌ؛ فعويلُنَـا واحْتجاجُنا لا يتعاملُ مـع أسْبَابِ فشلنا الذّاتيّ فـي مُوَاجَهَةِ التّحدّيات، ولكنّـه يَنْصَبُّ على شَتْمِ الأعْداء ولَوْمِهِـمْ؛ لأنّهم لم يُعْطُونا حَقَّنَا من التّقْدير والاحْترام، ولم يتسابقوا إلى مَنْحِنَا ما نحن أهْلٌ له من عَدَالةٍ وتَكْريم!.

«الشَّعْـوَذَةُ» هي نَفْسُهَـا في كُلِّ الحالات؛ فنحن نُريدُ أنْ نَهْزِمَ الأعْداء بخيالٍ جَامِحٍ، وحماقَـاتٍ رَعْنَـاء، وقصائِد رَنّانَةٍ، وكُلّما الْتقينا في الميدان كانـتْ بضاعتُنا خَاسِرَةً، إلاّ أنّنـا نَعْتَقِدُ أنّ «السُّنَنَ الكَوْنيّة» ستتغيَّرُ في الجَوْلَـةِ القادِمَةِ عندما نُعيدُ الكَرَّة مَرَّةً أُخْرى بـ«المُقَدِّمَاتِ» نفسها، وتُصيبُنا الدَّهْشَةَ وتَهُزُّنَا الصَّدْمَةَ عنْدما نَحْصِدُ «النَّتَائِجَ» ذاتها!. إنّهـا «الشَّعْـوَذَةُ» بعَيْنِهَا فـي كُلِّ المقاماتِ والأحْـوال، وعلينا أنْ نَسْتَدْعـي هنا مِثال دون كيخوتـه الذي أوردناه في الفَصْـلِ الثّاني؛ فـ«المُجْتمعاتُ العربيّةُ» تعيشُ حالة «انْفِصَامٍ فِكْـريٍّ ونَفْسيٍّ»، وتراكُماتِ حِقَـبٍ من الاسْتِبْدَادِ والتَّخلُّفِ والاتّكاليّـةِ والعَجْز؛ ولذا نَتَوَقَّعُ أنْ يكـون فصيحُ بياننـا، وإنْجازاتُ ماضينا، وبلاغةُ خِطَابِنَا، وجُنُـوحُ خيالنا، قَادِراً على قَطْعِ المسافات، وإنْجَازِ المُعْجِزَات، وتَحْقيقِ الرَّغبات!. وهكذا نجدُ أنّ «الشَّعْوَذَة» تَضْرِبُ أطْنَابَهَـا في كُلِّ حالٍ ومقامٍ ومقالٍ؛ فـ«العَقْلُ العربيّ» يُريدُ أنْ يَفْرِضَ شُرُوطَهُ على العَالَمِ بينمـا هو يَقِفُ على أبْـوابِ حضارتِهم يَسْتَجْدي مُعْطياتِهـا، ويَسْتَهْلِكُ بضاعتَها، ويتبارى فـي اقْتِنَاءِ مظاهِرها، ولو انْقَطَعَ عن أصْحاب «العَقْلِ العربيّ» صُنْبُورُ مَاءٍ، أو تَعَطَّلَ جِهَازُ كَهْرباءٍ، لتَوَقَّفَتْ حركة حياتهم، ولما وجدوا بديلاً عن شِرَاءِ أو اسْتِجْداءِ ما يَحْتاجون إليه من تقْنياتٍ ومُنْتَجَاتٍ وقِطَعِ غِيَار.

خُلاصَـةُ القـول إنّ «العَقْلَ العربـيّ» يَحْتَاجُ إلـى «نَقْلَـةٍ نَوْعِيّةٍ» كُبْرى تَخْـرُجُ به من جِلْبَـابِ «الكلاميّات»، وأَسْرِ «الوِجْدَانيّات»، وهَيْمَنَةِ «الشَّعْوَذَة»، إلى دُنْيا «عَقْلَنَةِ التّفْكير»، ومَنْطقيّةِ التّحْليل، ووَاقِعيّةِ «التَّفاؤل» المُنْسَجِم مع سُنَنِ الخَالِقِ وإمْكَانَاتِ الخَلْق. بطبيعة الحال لا يُمْكِنُ الزَّعْمُ بأنّ السّاحة خَاليةٌ من الجُهُودِ لسَبْرِ أَغْوَارِ «العَقْلِ العربيّ»، وفَحْصِ «مَاهيّتِـه»، وإجْـرَاءِ «قِـراءاتٍ تَشْخيصيّةٍ» تَهْتَـمُّ بالتّعرُّفِ على «علامـاتِ العَقْلِ العربيّ» ومُحَدِّدَاتِهِ عبْرَ نَقْدِ خِطَابه وفَحْصِ عُيُوبِه؛ فهنـاك – على سبيل المِثال – المُحاولةُ الجَادّةُ التي أخذها محمد عابد الجابريّ على عَاتِقِهِ ليُضِيفَ إلى أدبيّات «الفِكْرِ العربيّ» مَشْرُوعاً مُتَعَلِّقَـاً بـ«العَقْـلِ العربيّ» – تَكْوينـاً وبِنْيَةً ونَقْداً –؛ فهو يرى – مُحِقّـاً – أنّه عبْرَ مُحاولات «النّهْضَة» المُتَعَدِّدَةِ المَشَارِب والمُتَنَوِّعَةِ الوسائل، فإنّ: (ميدانٌ واحِدٌ لم تَتَّجِهْ إليه أصَابِعُ الاتّهـام بعْـد، وبشَكْلٍ جِدّيٍّ وصَـارِم، هو تلك القُـوَّةُ أو المَلَكَةُ أو الإرادةُ التـي بها «يَقْرَأُ» العربيّ، و«يرى» و«يَحْلُمُ» و«يُفكِّرُ» و«يُحَاكِمُ»...إنّه «العَقْلُ العربيُّ» ذاته)[٦٧]. ولا يُمْكِنُ أنْ نَنْسَـى – في هذا السِّياق – جُهُـوداً جَمّةً بذلها – منذ مُنْتَصف القَرْن الماضي – مُفَكِّرُون بقَامَـةِ زكي نجيـب محمود، ومالك بـن نبيّ؛ لتَلَمُّـسِ مَكْمَنِ الـدَّاء عبْرَ تَفْكيـكِ «الحالة الثَّقافيّـة» وفَهْمِ مُقَوِّمَاتِهَا، كمـا أنّ هناك تلك «الأنْسَاق الثَّقافيّـة» التي طَرَحَهَا عبد الله الغذّامـي[٤٩] في مُحاولةٍ لتَشْخيصِ التّأْثيرات والمُؤَثِّرات في تفاعُـلاتِ «العَقْلِ العربيّ». وأمّـا يوسف أبا الخيـل فإنّه يَخْلُصُ، مُسْتَشْهِداً بمحمد عابـد الجابريّ في تَشْخيصه في كِتَابه «تَكْوينُ العَقْلِ العربيّ»، إلى أنّ «العَقْلَ العربيّ» هو: (ذلك العَقْلُ «المُكَوَّنُ» من خلال المُحَـدِّدَاتِ التُّراثيّـة العربيّـة، سَواءً كانتْ لُغَويّـةً أو فِقْهيّةً أو كلاميّـةً أو تَفْسيريّةً، والتي طَبَعَـتْ «العَقْلَ العربـيّ» بطابعها الذي جعله يُنْتِج، فيها ومن خلالهـا، عَقْلانيّته الخَاصّة التـي تَتَمَحْوَرُ، كما سنرى، حول القِيَمِ الأخلاقيّـة دون أنْ تَمْتَدّ، أَعْني تلك العَقْلانيّة، إلى مُحاولـةِ اسْتِكْشَافِ «ذَوَاتِ» الأشْياء، سَـواءً كانتْ طبيعيّةً أو اجْتماعيّةً، باكْتِشَافِ العَلاقَةِ بين ظواهِرِها وقوانينِها التي تَحْكُمُ صيرورة عملها)[٧١].

ولكـن، علـى الرّغْـم مـن كُلِّ الجُهُودِ الجَـادّةِ لفَحْـصِ مُحَـدِّدَات «العَقْـلِ العربيّ» وتَشْخيصِ مَاهيّته، فإنّه – فـي رأيي[٧٢] – بَقِيَ عَصِيّاً على التّقويـم، وعنيداً في التّعامُلِ

مـع صَرَامَةِ عَصْـرِه وضَخَامَةِ تحدّياته، ومُنْسَاقَاً أبداً إلى طبيعتـه الانْفِعَاليّة النّرْجسيّة، ومُتَخَنْدِقَـاً في أنْمَاطِهِ الخَطَابيّة المَكْرُورَة، ومُتَتَرِّسَـاً بآليّاتِه التّائِهَةِ في بُطُونِ الماضي، ومُغَيِّبَـاً لشُرُوطِ المُسْتَقْبَل، ومُسْتَهْلِكاً - بشراهـةٍ - لمُنْتَجَاتِ العَصْر؛ وهكذا أفْلَحَ في أنْ يعيشَ دَاخِلَ «الزَّمـن» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِـدٍ؛ ممّا يَجْعَلُ تصوُّراتـه وتفاعُلاته أقْرب إلى «البَهْلَوَانيّة» منْها إلى الجِدِّيَّة والحِكْمَة.

٥-٢-٣) «العَقْلُ العربيّ» من مَنْظورٍ فيزيائيّ:

إنّ «العَقْـلَ العربـيَّ» - فـي رأيـي[٧٢] - لـم يَحْتَـجْ إلى بَذْل جُهْـدٍ كبيـرٍ ليَضُمَّ إلى مَخْزُونِـهِ مُصْطلحاتٍ حديثةً؛ لأنّه ليسَ في ذلك إشْكَالٌ أو تَعَارُضٌ مـع مُحَدِّدَاتِ «العَقْلِ العربـيّ»؛ فـ«صِنَاعَةُ الكلام» هي ما يتباهى به هذا «العَقْلُ» ويَفْخَر، ولذا اسْتطاع أنْ يلوك «مُصْطلحات العَصْر» فدخلتْ فـي قاموسِه مُصْطلحاتُ «مُجْتمعُ المَعْرِفَة» و«اقْتصاديّاتُ المَعْرِفَة» و«نَقْلُ التّقْنية» و«التّنْمية المُسْتَدَامَة» و«ثَوْرَةُ المَعْلُومات» وغير ذلك كثيرٌ، ولكنّها كُلّهـا بَقِيَتْ فـي إطارِها الكلاميّ، حيـث فَشِلَ «العَقْـلُ العربيُّ» في تَرْجَمَتِهَـا إلى تجارِب مُتراكِمَةٍ وآليّاتٍ مَلْمُوسَةٍ وإسْتراتيجيّاتٍ مَدْرُوسَةٍ، وراح - بعْد ذلك وقبْله - يُسارِعُ الخُطَى إلــى كُهُوفِهِ التــي تَسْكُنُهَا الأشْبَاح، وتَرْتَعُ فيها الأوهام، وتَحْكُمُهَـا الانْفِعَالات. وهكذا وَقَعَ «العَقْـلُ العربيُّ» فـي مَأْزِقٍ مع عَصْرِه؛ ففـي الوَقْت الذي لا يَمْلِكُ فيـه أيَّ خياراتٍ تُذْكَر، ولا يُمْسِـكُ بمفاتيح التّأْثير على وَاقِعِـهِ ومُشْكلاتِهِ وتحدّياتِهِ العَالَميّة، فإنّه يُكَابِرُ في عدم الانْصِيـاع لقَواعِـدِ «اللُّعْبَةِ المُعَاصِرَة»، والالْتِـزَام بضَوابِطِهَا، وتَأْميـنِ المُتطلَّبات الدُّنْيا لتَحْقيق «النَّقْلَة النَّوْعِيّة» اللازمة، ويَنْصَرِفُ - كالعادة - نـحو ما يُتْقِنُ ويُجِيدُ في الشَّكْوى والوَلْوَلَة والتَّمنّي والتّنْظيرِ والانْغِمَاسِ في تَجَلِّيَاتِ «نظريّات المُؤامرة».

لقـد اسْتطـاع ألبرت آينشتايـن أنْ يَدْمُجَ «الزَّمان» مـع «الأبْعَـادِ المَكَانيّة» الثّلاثة، فأَصْبَـحَ «المكان» و«الزَّمان» في الفيزياء وَحْدَةً مُتفاعِلَةً يُؤَثّرُ أحدهما في الآخَر في أبْعَادٍ «زَمْكَانِيَّـةٍ» أرْبعةٍ. وأمّا «العَقْلُ العربيُّ» فقد أَخْرَجَ «الزَّمان» من حِسَابَاتِه، فهو يَتَحَرَّكُ في فضَـاء «الأبْعَادِ المَكَانيّة» تَارِكاً «الزَّمان» خَارِجَ الاعْتبار، أو هو يغوصُ في «البُعْدِ الزَّمَنِيّ»

مُتجاهِـلاً تَأْثيراتِ «الأبْعَادِ المَكَانيّة». وبينما يَسْتَفيدُ أَصْحـاب هذا «العَقْل» من مُنْتَجَاتِ العَصْـرِ ويَسْتَهْلِكُون مُعْطياتِه ويتشدَّقُون بمُصْطلحاتِه؛ إلاّ أنّهم لا يُنْتِجُون شيئاً يُذْكَر، ولا يَسْبِـرُون أغْوَارَ ما يلوكونه مـن مُصْطلحاتٍ هَبَطَتْ عليهم كما هَبَطَـتْ عليهم المُنْتَجَاتُ التِّقَنيّـةُ حيـث ليس لهم في صِناعتِهـا يَدٌ، وليس لهم فـي صِياغتِها تَأْثيـر. وأمّا عمليّاتُ الإنْتَـاجِ والاكْتِشَافِ والبَلْوَرَةِ والتَّطَوُّرِ فهي - بطبيعتها - عمليّاتٌ تراكُميّةٌ ومُعاناةٌ حقيقيّةٌ وتَجْرِبةٌ عمليّةٌ؛ وكُلُّ تلك العناصِر الجوهريّة، من تَأْسيسٍ وتَطْويرٍ وإنْتَاجٍ، تَخْرُجُ من رَحِمِ «الزَّمان» الذي جعله «العَقْلُ العربيّ» خَارِجَ الحِسَابَات.

مـا زالـتْ أفْـكَارُ امرؤ القيـس تَعْبَقُ في المـكان، وبُطـولاتُ عنترة بن شـدّاد تَأْسِرُ الوِجْـدان، وحَـرْبُ «دَاحِس والغَبْـرَاء» تُهَيْمِنُ على الأذْهَـان، وعطاءاتُ المُتنبّـي تُسَيْطِرُ علـى السِّجَالات، وهُمُومُ أبي فِرَاس الحمدانيّ تَكْتَظُّ فـي ساحة الانْفِعَالات، وليس لنا من مُعْطيـات «العَصْر الحديـث» إلاّ اسْتِهْلاك بضاعتِـه حتى تَفَوَّقْنَا علـى مُنْتِجيها في أوجه الاسْتِهْـلاك، وهو الأَمْـرُ الذي أصابهم بالإحْبَاطِ لعـدم قُدْرَتِهِمْ علـى مُجَارَاتِنَا في شَرَهِ الاسْتِهْلاكِ والتَّكَالُبِ على المظاهِر!.

إنّي أرى(٧٣) أنّ تداخُلاتِ «الأبْعَادِ المَكَانيّة» وغِيَابَ «البُعْدِ الزَّمَنِيّ» أوجد المُتَناقِضات والمُفارَقـات التي قادتْ «التَّكْوين الثَّقافـيّ العربيّ» إلى أَزْمَةٍ فِكْريّـةٍ واحْتقاناتٍ شديدةٍ، تَنْعَكِـسُ في الأدبيّات السّائِدة، والسِّجَـالات التي تُكَرِّرُ ذاتها عبْر الأزْمِنَة، وهي تَتَجَلّى في مُصْطلحاتٍ، مِثْل: «الغَزْو الثقافيّ»، و«إشْكَاليّةُ التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، و«أَزْمَةُ العَقْلِ العربيّ»، و«العَوْلَمَـةُ والخُصُوصِيّـة»؛ وكُلُّ ذلـك يَجْعَلُ التّحـدّي الأبْرز هو تَأْسيـس «تَكْوينٍ ثقافيٍّ» يُحَدِّدُ مَوْقِعَ «المُجْتمعات العربيّة» على «خريطة الكَوْن» عبْر تفاعُلاتِ «الزَّمان» و«المكان» ليَكْتَمِـلَ «الوَصْـفُ الفيزيائيُّ الحقيقيُّ» لوَاقِـعِ الأُمّة، كما هو الحال فـي وَصْفِ آينشتاين الدّقيق لفيزياء الكَوْنِ وسُنَنِه.

ويبْـدو لي من تَحْليلِ مُعْظَمِ الطُّرُوحات الفِكْريّة علـى السّاحة العربيّة، ورُدودِ الفِعْل علـى مُخْتلف المُسْتويات، أنّ بعْضنا يُريدُ أنْ يعيش دَاخِلَ «الزَّمان» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِدٍ،

وبعْضنا الآخر يُريدُ أنْ يعيش دَاخِلَ «المكان» وخَارِجَهُ في الوَقْت ذاته؛ وكِلْتا الحالَتَيْن في «عِلْم الفيزياء» من القضايا المُسْتحيلة، ولكن الغريب أنّ «العَقْلَ العربيَّ» أتْقَنَ هذه اللُّعْبَةَ الخَطِرَةَ – على مدى قُرُونٍ – ممّا أدَّى إلى الفَشَلِ الثّقافيّ والإخْفَاقِ المَعْرفيّ اللذين تَتَعَثَّرُ فيهما الأُمّـة، كما تَمَخَّضَتْ عن ذلك نتائجُ وخيمةٌ على الأصْعِـدَة السّياسيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والعَسْكريّة وغيرها. وهكذا نجدُ أنّ تَغْيِيب «الزَّمن» في «العَقْلِ العربيِّ» نَاجِمٌ عـن عدم اسْتِيعابه لعمليَّتَيْ «تَرَاكُـمُ الفِكْر» و«نُضْجُ التَّجْربة»، وهمـا بطبيعتهما من نِتَاجِ «البُعْـدِ الزَّمَنِـيّ» في حياة الإنْسـان؛ فتَمْضِي «الحياة العربيّة» – على مـدى قُرُونٍ – تُكَرِّرُ أخْطاءهـا، وتُكَرِّسُ نَرْجسيِّتها، غير آبِهَةٍ بمـا يَتَمَخَّضُ عن ذلك مـن نتائج وبيلةٍ، وغير عَابِئَةٍ بطبيعة «السُّنَـنِ الكَوْنيّة»، وغير مُدْرِكَةٍ لعمليّة «تَحَكُّم المُقَدِّمَات في النَّتَائِج»؛ فهي تتوقَّـعُ أنْ تَخْتَلِفَ «النَّتَائِجُ» وإنْ تَكَرَّرَتْ «المُقَدِّمَـاتُ» ذاتها، وهي تَحْسَبُ أنّ «سُنَنَ الكَوْنِ» ستُحابيهـا لسببٍ لـم يُدْرِكْهُ أحدٌ من البشر، ولكن يُعَزِّزُهَا دائماً ذلـك الشُّعُورُ النَّرْجَسِيُّ اللّاواعي الكَامِنُ في أعْمَاقِ «الوِجْدَانِ العربيّ».

٥-٢-٤) غُرْبَةُ «العَقْل العربيّ» في العَصْر الحديث:

إنّ المُحَـدِّدَاتِ لكينونـة «العَقْلِ العربيّ» تَجْعَلُ العرب غُرَبَاءَ عـن العَصْر، طالما أنّ ثقافتهم تجوبُ عَوالِمَ «ألْف ليلةٍ وليلة»، وتأْنَسُ إلى حكايات «أبو زيد الهلاليّ»؛ فإذا أذْهَلَهَا فِعْـلُ «الزَّمان» فـي أقْوامٍ انْخَرَطُوا فـي ديناميكيّتـه، وبَهَرَتْهَا مُعْطياتُ التّقْنيـة وتَجَلِّيَاتُ «الفِكْرِ العِلْميّ»، فإنّها سُرْعَانَ ما تُهَرْوِلُ، لتَنْدَسَّ بين جلابيبِ الشِّعْر، وتتوارى خلْف ظِلالِ الماضي، وتلـومُ العَالَمَ بأسْرِهِ على إخْفاقاتِها وفَشَلِهَـا، مُحَقِّقَةً بذلك مَقُولة علي الورديّ بـأنّ: (العَقْل البشريّ هو في الوَاقِع كالنَّبْتَة التي تَأْخُـذُ من موادّ التُّرْبَة ما يُلائِمُ مِزَاجَهَا وتَرْفُضُ الباقي)[٧٤]. سيظلُّ العـربُ غُرَبَاءَ عن العَصْرِ، طالما أنّهـم حَسِبُوا أنّ التّعامل معـه يَنْحَصِرُ فـي تَبَنّي مُصْطلحاتٍ لا يُدْرِكُـون شُرُوطَهَا، ولا يَسْتَوْعِبُـون خلفيّاتِهَا، وهم لـم يُعاشِـرُوا تَرَاكُمَاتِهَا، ولم يُعايشُوا مَخَاضَاتِهَا، ولكنّهـم يتوقَّعُون أنْ يكون حالها كحال

التّقْنيـات التــي اسْتوردوها، والأجْهزة التي ابْتاعوها، فتقع فــي حِجْرِهِمْ جَاهِزةً للتّطْبيق والاسْتِخْدام والإبْداع.

إذا كان آينشتاين – في حالة تفتُّقٍ عَبْقريٍّ – قد اسْتطاع أنْ يُفَكِّكَ التّفاعُلات الكَوْنيّة عبْـر التّداخُلات «الزَّمانيّة – المكانيّة» في «النّظريــة النِّسْبيّة»، فإنّ المُهِمّةَ أكْثر شراسةً وأصْعب تَنْظيراً في حالة مُحاولــةِ تَفْكيكِ الاضْطِرَابِ بين «الزَّمان» و«المكان» في «العَقْلِ العربيّ». وأمّا السُّؤالُ الذي يَنْتَصِبُ بكُلِّ عُنْفوانٍ فهو: (هل ما زِلْنا – بعْد كُلّ هذا الإخْفَاقِ والفَشَـلِ على طريق «النَّهْضَــة الشّامِلَة» – نقولُ إنّ ثقافتنا، التي تُشَــكِّلُ عُقُولَنَا، هي على خيـر حالٍ، وكُلُّ ما تَحْتَاجُهُ هو فقط مَسْحَةٌ هنا ولَمْسَــةٌ هناك؟؛ ألا يَفْرِضُ علينا«المَنْهَجُ العِلْمــيُّ» مُراجَعَةً جِذْريّةً تُحاولُ الانْفــكَاكَ من أَسْرِ «ثقافةٍ لَفْظيّــةٍ» مَشْحُونةٍ بالانْفعالات إلــى رِحــابِ «بيئةٍ عِلْميّةٍ» تَصْنَــعُ «العَقْلَ العِلْمــيّ» القَادرَ على اسْتِيعــاب مُعْطيات العَصْرِ وشُرُوطِــهِ فتَحْكُمُهُ معاييرُ الإنْجَــاز، وحقائِقُ الإنْتَاج، وأَخْلاقيّــاتُ العمل، وعِبَرُ الماضي، واسْتِشْرَافُ المُسْتَقْبَل؟).

فــي ضوء الحقائِق المُحْزِنَة لوَاقِعِ «المُجْتمعــات العربيّة» نجدُ أنّنا في أمسِّ الحاجة إلــى المُقَوِّمَــاتِ القَادِرَةِ علــى انْتِشَالِ «العَقْــلِ العربيّ» من غُرْبَتِهِ عــن عَصْرِه، ومن ذلك المُنْطلــق نرى – بجلاءٍ – أنّ عمليّة «تَرْميم العَقْلِ العربيّ»، التي يَقْتَرِحُهَا أحمد زويل[٧٠]، لــن تكــون كافيةً؛ ومن الواضِــحِ أنّ الحاجة مَاسَّــةٌ إلى عمليّــة «إعادة بِنَــاءٍ» تَسْمَحُ بضَخِّ أمْــواجٍ ديناميكيّةٍ قَادِرَةٍ على تَحْريــكِ الحالة الرَّاكِدَة، والانْطــلاقِ بفاعِليّةٍ على الصّعيد الاجْتماعيّ والتّنْمَويّ والثّقافيّ وغير ذلك من مَنَاخٍ حياتيّةٍ مُتشابِكَة.

٥-٢-٥) البَحْث عن «تَوازُنٍ جديد»:

إنّ المُتَأَمِّــلَ لأوضــاعِ «المُجْتمعــات العربيّــة» يــرى أنّ الوَضْــعَ لم يَتَغَيَّــرْ مع تنامي «الهَجْمَــةِ العَوْلَميّة»، بَلْ لعلّه ازْداد تفاقُماً، وذلك منْذ أنْ كتب مالك بن نبيّ يَصِفُ الحال فــي خمسينات القــرْن الماضي بقوله: (ولو أنّنــا حَلّلْنَا حياة مُجْتمعنا لوجدنــا فيه ألْواناً

جديــدةً تَدُلُّ في جُمْلَتِهــا على نزعاتٍ مُتباينــةٍ، واسْتِعْداداتٍ فَرْديّةٍ مُتباينــةٍ، في مُجْتمعٍ فَقَدَ تَوازُنَهُ القديم، ويَبْحَثُ الآن عن تَوازُنٍ جديد)(٢). وهكذا يُصْبِحُ البَحْثُ عن «التَّوازُن الجديــد» قضيّــةً مصيريّة، وهو تَــوازُنٌ لن تَتَحَقّــقَ شُرُوطُهُ إلاّ عبْر إعــادة تَشْكيل «العَقْلِ العربــيّ» في إطارٍ يَسْمَــحُ له بالتَّخلُّصِ من حُكْــمِ «العَقْلِ العربيّ» علــى الأشْياء التي يرى يوســف أبا الخيل[١٧] أنّــه: (حُكْمٌ ذاتيٌّ بَحْتٌ، بمعْنَى أنّ ذلك «العَقْلَ» يُضْفِي حُكْمَ الثّقافة والمُجْتمع اللذين يَحْتضنانه على الأشْياء من حوله، ليُمَيِّزَ الإنْسانُ العربيُّ «العَاقِلُ» طريق الخير من طريق الشّر. لكن ليس من مُهِمّاتِه، أَعْنِي العَقْل «المُكَوَّن» بالمُحَدِّداتِ الثّقافيّة العربيّة، فَحْصُ ذوات أو جَوَاهِر تلك الأشْياء التي يُضْفِي عليها أحْكَامَهُ القِيميّة)؛ وأمّا في حالــة المُقارَنَةِ بين «العَقْلِ العربــيّ» و«العَقْلِ الغَرْبيّ» فإنّ يوسف أبا الخيل يرى أنّ «العَقْلَ العربــيّ»: (يَجْعَلُ الهدف من النَّظَرِ في مُكَوِّنَاتِ الطّبيعــة مَحْصُوراً في اسْتِحْضَارِ العِظَة والعِبْــرَة، لا اسْتِكْشَــافِ آليّةِ عملها مــن خلال قوانينها وأسْبابها التــي تَتَّصِفُ بالضّرورة والشُّمُــول، وهــي النَّظْرَةُ التي يتَّصِفُ بها «العَقْلُ الغَرْبيُّ» في تعامُله مع الأشْياء من حوله، طبيعيّةً كانتْ أو اجْتماعيّة).

ولكــن «العَقْلَ العربيَّ» ليس جِينَاتٍ مُخْتلفةً عن جِينَــاتِ عُقُولِ بقيّة البشر، وإنّما هو نِتَــاجُ «ثقافةٍ» يَسْبَــحُ في أمْواجِها، ويَقْــرَأُ بلُغَتِهَا، ويَحْلُمُ بأحاسيسِهــا، ويُفَكِّرُ بمُعْطياتِها، ويَحْتَكِــمُ إلى قِيَمِهَا، وهذا يَجْعَلُنَا نَطْرَحُ السُّؤال: (هل يُمْكِنُ إعادة تَشْكيلِ «العَقْلِ العربيّ» وتَرْميــمِ خلاياه، دون إعادة صِياغَةٍ كَامِلَــةٍ لـ«الثَّقافة العربيّة»؟). من ذلك المُنْطلق نجد أنّــه من الضّروري - على طريق تَحْقيق ذلــك «التَّوازُن الجديد» - التّأسيس لـ«بِنْيَةٍ فِكْريّةٍ جديــدةٍ» ومُنْطلقــاتٍ ثقافيّةٍ فَاعِلَةٍ، وهــذا يَعْنِي ضَرُورَةَ تجاوز مُحَــدِّدَاتِ «العَقْلِ العربيّ» التّقليديّــة، وفَرْضَ مُحَدِّدَاتٍ جديدةٍ تَأْخُذُ في حِسَابِهَــا الأهْداف المُتَوخَّاة، والمُوَاصَفَات المطْلوبــة، والتَّحدِّيــات المُنْتَصِبَة. إنّ غِيَابَ التّأسيس لهــذه «البِنْيَة الفِكْريّة الجديدة» - فــي تفاعُلات «الثَّقافة العربيّــة» - هو المَسْؤول الأوّل عن إخْفَــاقِ كُلِّ محاولات «النّهْضَة» ومَشْرُوعات «التّنْمية» في العَالَمِ العربيّ؛ لأنّها - بكُلِّ بساطة - وفْق رأي عبد الإله بلقزيز:

(اكْتَفَتْ بالتَّبشيـر بمبادئ «النَّهْضَة» دون أنْ تُقَدِّمَ مَنْظُومَـةً فِكْرِيّةً حقيقيّةً حولها وحول سُبُلِ تَحْقيقِها)[١٩].

وأمّـا عنْدما نَطْرَحُ ذلك السُّؤالَ الحَاسِمَ عـن «خصائِص الثَّقافة التي نُريد»، فإنّنا - عادةً - ما نجدُ أنفُسنا بين «مِطْرَقَةِ» تلك الثَّقافة الغَارِقَةِ في الماضويّة والمُنْغَمِسَةِ في أوهامِها وتخيُّلاتِها ونَرْجسيَّتِها، وبيـن «سِنْدَانِ» تلك الثَّقافة الأُخْرى المُغَايِرَةِ والمُرْتَمِيَةِ فـي أحْضَانِ حَدَاثةٍ غريبة المَنْشأ والهُويّة لا تَعْتَـرِفُ بقِيَمِ «المُجْتمعات العربيّة»، ولا تَأْبَهُ بثَوابِتها، ولا تَسْتَوْعِبُ تفاعُلاتِها. نَسْتطيعُ - بطبيعة الحال - أنْ نجد أعْذاراً عديدةً لهذا الحـال المُتَرَدِّي، ولكن البَحْثَ عن الأعْذار ليس من أهْـداف هذا الكِتاب، فهَمُّنا الرّئيس هنـا هو تَأْصيلُ رُؤيةٍ حيويّةٍ فَاعِلَـةٍ لـ«الثَّقافة» تُصْبِحُ بمثابة اتِّجَاهِ «البَوْصَلَةِ» الذي يَضْبِطُ «الحَرَاكَ الثَّقافيّ» نحو «الفَاعِليّـة الاجْتماعيّة» في «المُجْتمعات العربيّة». ومن هنا تَنْبَثِقُ أهميّـة مُصْطلح «الثَّقافـة التّنْمَويّة»، المُسْتَنِـد إلى عمليّة «التَّحَـدِّي والاسْتِجَابَة»، وذلك بصفتها رُؤيةً لازمةً لتَحْريـكِ المُجْتمعات، واسْتِنْفَارِ جُهُودها، وتَعْظيم مَوارِدها؛ لتَحْقيق ذلـك «التَّـوازُن الجديـد»، ولتتفاعل مـع النَّسَـقِ الحياتيّ في جُهْـدٍ دَؤوبٍ وفِعْـلٍ تراكُميٍّ يَنْحتان في قِوَامِ الوطن؛ لتَحْفيزِ القُدرات، وتَصْحيحِ المُمارَسات، وتَطْوير الأداء، وتَعْميقِ الانْتمـاء. ولذا فـإنّ «إشْكَالِيّـةَ التّنْمية»، التي لم نَحْسِـمْ بعْد مُقْتَضياتِهـا وأولويّاتِها، في أشـدِّ الحاجة إلى مَنْظُورٍ ثقافـيٍّ ورُؤىً فِكْرِيّةٍ ذات إسْتراتيجيّةٍ طويلة الأمد، تَهْتَمّ بتَأْمين التّفاعُـل الصّحيح مع مُتَطلَّبَاتِ «التّنْميـة»، وتَحْرِصُ على تَهْيئة التُّرْبَةِ الخِصْبَةِ لاسْتقبال مُعْطياتِها والمُحَافَظَةِ عليها وتَطْويرها.

أقـول: هنا تَبْرُزُ الحاجة إلى بَلْـوَرَةِ خصائِص «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَهْتَمُّ بتوفير «الفَاعِليّة الاجْتماعيّـة»، وتَحْرِصُ على اسْتيعاب الحقيقـة الجوهريّة القائلة بـأنّ «مَنْظُومَةَ العلوم والتّقْنيـة» ليستْ مُجَرَّد آلاتٍ وتَجْهيزاتٍ ووسائِل ماديّـةٍ، ولكنّها - في المقام الأوّل - كما يقـول فلاح سعيد جبر: (ظاهِرَةٌ اجْتماعيّةٌ وجماعيّـةٌ تُوَلِّدُهَا ظُرُوف مُجْتمعٍ مُعَيَّنٍ تَتَوَفَّرُ لديه كافّة سُبُل العطاء العِلْميّ والتّكْنولوجيّ، وتتعاملُ معه سَلْباً وإيجاباً العديد من العَوامِل والمُعْطيـات)[٧٥]. وأمّا علـي أومليل[٣٧] فيرى أنّ من «مُسَلَّمَـاتِ الفِكْرِ الإصْلاحيّ» هو أنّ

(«العِلْـمَ» هو الذي أَطْلَقَ النَّهْضَة الأوروبيّـة) ، وبالتّالي: (فإنّ «النَّهْضَة العربيّة» لن يُمْكِن أنْ تكـون إلاّ كذلك، أيْ باقْتِبَاسِ العلوم التي أَمْكَنَـتْ أوروبا من نَهْضَتِهَا، وبالذّات العلوم بمَعْناهــا الدّقيق، تلك التي يَتَحَكَّمُ بها الإنْسان في الطّبيعــة، ويُسَخِّرُهَا لإنْتاج الخيرات، ويُنَظِّـمُ بها مُجْتمعه). وهكـذا نجد أنّ الإجْمَاعَ بين النُّخَبِ الثّقافيّـة مُنْعَقِدٌ على ضرورة «الإصْـلاح الثَّقافيّ» فـي «المُجْتمعات العربيّة»؛ فعلى سبيل المِثــال يَعْزُو لؤي صافي بُطْءَ النُّموّ في البلدان الإسْلاميّـة، جُزْئيّاً على الأقلّ، إلى (فشل القيادات الفِكْريّة والسّياسيّة في إدْرَاكِ الطّبيعة الجَدَليّة بين «الإصْلاح الثَّقافيّ» و«التّنْمية البُنْيويّة الاجْتماعيّة»)[٢٦]، ولكـن في خِضَمّ كُلِّ تلك التّنْظيرات، ومُحاولات سَبْـرِ طبيعة المَأْزِق، وضَرورة «الإصْلاح الثَّقافـيّ»، تَبْقَـى مَعَالِمُ ذلك «الإصْلاح» وأولويّاته هَائِمَةً غَائِمَـةً في ظِلِّ «صِنَاعَةِ الكلام» التي تُتْقِنُهَا «الثَّقافة العربيّة» أيَّمَا إتْقَان!.

٥-٣) «ثقافة المُسْتقبَل» و«مُسْتقبَل الثقافة»:

إنّ عمليّة «إعادة تَشْكيل العَقْلِ العربيّ» تَدْفَعُ - بالضّرورة - إلى مُرَاجَعَةٍ دقيقةٍ لوَاقِعِ «الثَّقافة العربيّة» وخصائِصها ومُحَدِّدَاتِهَا، ممّا يُحَتِّمُ «عمليّة التَّغْيير» التي لن تكون عمليّةً اخْتياريّـةً؛ فهَجْمَةُ «العَوْلَمَة» وآثارُها، وخصائِصُ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» وهَيْمَنَتُهَا، ومُتطلّبَـاتُ «الحركة التّنْمَويّة» ومُقْتَضياتُها؛ كُلُّ ذلك يَسْتَلْـزِمُ إعادة النَّظَرِ في «التَّرْكيبة الثَّقافيّـة» وخِطَابِهَا السّائِـد، ومُرَاجَعَةِ عناصرِها المُهَيْمِنَـةِ بسَلْبيّاتِها وإيجابيّاتها، وهنا نَتَوَقَّفُ أمام السُّؤال الذي يَطْرَحُهُ علي أومليل وهو يقول: (و«مُجْتمع المَعْرِفَة» - مُسْتَقْبَلُنَا - مَرْهُونٌ، ضمْـن شُرُوطٍ أُخرى، بما ستكون عليه ثقافتنا، خاصّةً قِيَمِها الحَافِزَة، ابْتداءً من القِيمة التي تُعْطَى للمَعْرفة، لكن أيّة مَعْرفة؟)[٢٧].

ويَبْرُزُ هنا مُصْطلَـحُ «المُسْتَقْبَل»، وانْطلاقاً من وَلَعِ «الثقافة العربيّة» بـ«الثُّنَائيَّات»، فإنّ الوَاقِعَ الجديدَ يَفْرِضُ علينا «ثُنَائِيَّةً» جديدةً، وأَزْعُمُ أنّها الأهمّ، وهـي: ثُنَائِيَّةُ («ثقافةُ المُسْتَقْبَلُ» و«مُسْتَقْبَلُ الثَّقافة»)؛ فـ«ثقافةُ المُسْتَقْبَلِ» تُحَدِّدُهَا شُرُوطُ «الزَّمان» و«المكان»، وآثَـارُ «العَوْلَمَةِ» الكَاسِحَة، و«الطّبيعةُ الاقْتحاميّةُ للعلوم والتّقْنية» التي تَفْرِضُ نفْسها على

المُجْتمعـات، سَـواءً كانت رَاغِبَةً فيهـا أو مُتَحَفِّظَةً عليها، وأمّا «مُسْتَقْبَـلُ الثَّقافة» فهو ما يَنْتُجُ عـن جُهُودِنَـا ومُمَارَسَاتِنَا واهْتماماتِنـا وقِيَمِنَا وتفاعُلاتِنَا مـع «الزَّمان» و«المكان» - سَلْبـاً وإيجابـاً -. أمّـا أبْرز مظاهِـر «الأزْمَةِ الثَّقافيّـة» فهو اكْتِظَاظُ السّاحـة الثّقافيّة العربيّـة بالنّقْدِ والمُرَاجَعَةِ والتّنْظيرِ والدَّعْوَةِ إلـى «الإصْلاح الثَّقافيّ» الذي يَتّفِقُ الجميع علـى أهميّتـه وريادته في عمليّة النُّهوض بالأُمّة ودَفْعِها علـى مُرْتقيات الازْدهار والمَنَعَة؛ فـ«الثقافـة» كما يقول علي علي حبيش: (ليستْ تَعْبيـراً عن الوَاقِعِ فحسب بَلْ أيضاً وسيلةً فَعّالـةً لتَغْييـره، فـ«الثّقافة» ليستْ مُجَرَّد مَجْمُوعَةٍ من المعـارِف والقِيَمِ وإنّما هـي تَرْجَمَةٌ لهـذه القِيَمِ والمعـارِف إلى سُلُوكٍ مُعَيَّن) [٣٩]، ولكن كُلُّ ذلـك «الضَّجيج التّنْظيريّ» يَبْقَى - فـي المُجْتمعات العربيّة - فَارِغاً على «الصَّعيد الإجْرائيّ»، وخَاوِياً على مُسْتوى الآليّات والفَعّاليّات العمليّة.

عندمـا نَتَحَدَّثُ عـن «المُسْتَقْبَل»، فإنّ الحديـث يَنْبَغِي أنْ يَسْتَنِدَ إلـى أُسُسٍ مُعَيَّنَةٍ، ومُقَوِّمـاتٍ مُحَـدَّدَةٍ، ومُقَدِّمَـاتٍ وَاضِحَـةٍ لهـذا «المُسْتَقْبَل» الـذي نُشِيرُ إليـه ونَهْفُو إلى تَحْقيقِـه، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ محمد عابد الجابريّ بقولـه: («المُسْتَقْبَلُ» الذي نَقْصِدُهُ ونَرومُ اسْتكشافـه ليس «المُسْتَقْبَل» بإطْلاقٍ، بَلْ «المُسْتَقْبَل» المَشْرُوط بالمُعْطيات الرّاهِنَة) [١]، وهـذا - في رأيـي - يَجْعَلُ السُّؤالَين الأكْثـر إشْكَالِيّةً في الوَاقِعِ العربـيّ، هما: (هل يُمْكِنُ أنْ نَتَحَـدَّثَ عـن «مُسْتَقْبَـلِ الثَّقافة» بمَعْـزِلٍ عن عَصْرِهَـا وطبيعةِ القُـوى المُهَيْمِنَةِ عليه والمُحَرِّكَـةِ لمساراته؟، وألا يُجْبِرُنَا ذلك على التَّعامُلِ بجِدِّيّـةٍ مع «ثقافة العلوم والتّقْنية» وهي الحَاضِرَةُ الغَائِبَةُ - كالعادة - في كُلِّ طُرُوحاتِنَا وإنْ كنّا لا نَنْسَى أبداً أنْ نُشِيرَ إليها على اسْتِحْيَاءٍ ودون تَمَعُّن؟).

٥-٣-١) «اسْتراتيجيّة الثّقافة» و«الفَجْوَة المَعْرفيّة»:

عندما نتعاملُ مع قضيّةٍ كُبْرى كقضيّة «النَّهْضَة» فإنّنا لا نَسْتَغْرِبُ من كَثْرَةِ الأسْئلة، ولا نَنْزَعِجُ من تَعَدُّدِهَا، ولكنّنـا سنَفْرَحُ عنْدما نَعْلَمُ أنّها - في نهاية المطاف - تَطْرَحُ قضيّةً وَاحِـدَةً يُؤَكِّدُهَا محمد عابد الجابـريّ بقوله: (أسْئلةٌ مُتَعَدِّدَةٌ ولكنّها تَطْرَحُ قضيّةً وَاحِدَةً،

قضيّـة «إعـادة بِنَاء الذّات العربيّـة» بالشّكْلِ الـذي يَجْعَلُهَا قَادِرَةً علـى مُجابَهَةِ تحدّياتِ العَصْـر والاسْتِجَابَةِ لمُتطلّباته)[1]. ولكن لن تدومَ فَرْحتُنا تلك باخْتِزَالِ «أسْئلة النَّهْضَة» - كما يرى الجابريّ - إلى قضيّةٍ وَاحِدَةٍ؛ لأنّ الطّريق إلى «إعادة بِنَاءِ الذّات» هو الإشْكَالُ الأساس؛ فهـو الطّريقُ الذي تَعَـدَّدَتْ حوله الاجْتهـادات والإخْفاقات والمُـداوَلات، وأمّا تفاصيـلُ تلك المُهِمّة فقد بَقِيَـتْ مُبْهَمَةً غَامِضَةً في بَطْنِ الشّاعِر، أو المُثقّف، أو المُفكِّر، بينمـا تَحْفَـلُ الدُّنْيا بـ«حركـةٍ عِلْميّةٍ» تُغَيِّرُ مَعَالِـمَ الأرْض إلاّ أنّنا لم نَفْقَـهْ بعْد أبْجديّاتِهَا ومُوَاصَفَاتِهَـا وضريبتِها. إذاً يجـب أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ «الثّقافة العربيّة» تُعانِي من خَلَلٍ مُشِينٍ في مَنْظُومَتِهَا السُّلُوكيّة والقِيميّة، وهي تَتَرَنَّحُ تحت تَأْثير فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ خطيرةٍ، وذلك هو لُبُّ «التّحَدِّي» الذي يجب أنْ تَتَصَدّى له كُلُّ القُوى المُؤثِّرة في «المُجْتمعات العربيّة»، ومن المُهِـمّ أنْ لا يكُـون حال «مُسْتَقْبَلِ الثّقافة العربيّة» كحال أبـي حيّان التّوحيدي الذي قال: (أمّا حالي فسيئةٌ كيفما قَلَّبْتُهَا؛ لأنّ الدُّنْيا لم تُؤاتني لأكون من الخَائِضين فيها، والآخِرة لم تَغْلُبْ عليَّ لأكون من العَامِلين لها).

إنّ الحِـوارَ الجَـادَّ عن «مُسْتَقْبَـلِ الثّقافة» لا يكون عن «التّغْييـر»، فهو آتٍ لا محالة، ولكن يَنْبَغِي أنْ يَنْصَبَّ على شُرُوطِ «المُسْتَقْبَل»، وكيفيّةِ تَأَقْلُم ثقافتنا وتَكَيُّفِهَا واسْتيعابِها لتلـك الشُّرُوطِ لكي يكون «التّغْييرُ» إيجابيّاً ومُتناغماً مع طُمُوحات «الإصْلاح» ومَشْرُوعات «التّنْميـة»، ويجـب أنْ يَحْمِلَ هـذا «التّغْيير» في طيّاتِـه الإجاباتِ النّاجِعَةَ علـى تساؤلاتٍ يَطْرَحُهَـا جَمْعٌ غفيرٌ من المُثقّفين العرب، مـن أمْثال علي أومليل عنْدما تساءَل: (ما هي رُؤيتنا لبِنَاء اقْتصادٍ اجْتماعيٍّ ومُنَافِسٍ معاً، وكيف نَبْنِي مَنْظُومَةَ قِيَم تُحَفِّزُ إلى المُبَادَرَةِ والابْتِـكَار، والإقْبَالِ على العمل المُنْتِـج وأخْلاقيّاته، وضَبْطِ الوَقْتِ كنِظامٍ للحياة والإنْتاج وتَخْطيط المُسْتَقْبَل؟)[37].

إنّ «الخِطَـابَ الثّقافـيّ» السّائِـدَ فـي العَالَـم العربيّ يعيشُ اضْطرابـاً مُرَوِّعَاً في مَنْهَجيّتِـه، وتخبُّطاً شنيعاً في مَرْجِعيّاته، فهو يُريـدُ أنْ يعيش دَاخِلَ «الزّمن» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِـدٍ، وهـو يصـوغُ رُؤاه وفَهْمَهُ لزمنِه في صِياغـاتٍ غَامِضَةٍ أبْرز مـا فيها اسْتِهْلاكُ عطـاء الآخَرين من فِكْرٍ وعلومٍ وتقْنيةٍ، وهذا - دون شَكٍّ - وَصْفَةٌ نَاجِعَةٌ لتَحْقيق الإخْفاق

المَعْرفِـيّ والفشـل الحضاريّ. ولا شكّ فـي أنّ الخَلَلَ يتفاقمُ بفِعْـلِ «عَـامِل الزَّمـن» الذي يَرْكُضُ بالقضايا والتّحدّيات و«المُسْتَقْبَل»، بينما تَقْبَـعُ طُرُوحاتُنَا وحُلُولُنَا أسيرةَ أُطُرِهَا الكلاميّة وقَوالِبِهَا التّقْليديّة وشُرُوحَاتِهَا الماضويّة وانْفِعَالاتِهَا الآنيّة، وهـي تُحاولُ عبثاً أنْ تـذود عن حِياضٍ تتقلّصُ مِساحاتُها يوماً بعد يـوم بفِعْلِ الدَّفْعِ التِّلْقائيّ لمُحَرِّكاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وعَواصِفِ «العَوْلَمَةِ» وانْقِضَاضِ «ثَوْرَةِ الاتِّصالات».

فـي ذلك الخِضَمّ كُلِّـه يَنْبَغِي لـ«الثَّقافـة العربيّـة»، إنْ أرادتْ لها فَاعِليّـةً وحُضُوراً فـي «الأَلْفيّة الثّالثة»، أنْ تَعِـيَ تماماً طبيعة القَرْنِ ومُوَاصَفَاتِـهِ، وإلاّ فإنّها ستَبْقَى مَعْزُولَةً عن عَصْرِهَا لتَجْتَـرَّ «آليّاتِ الماضي» عَاجِزةً عن اسْتِيعـابِ «تَغَيُّرَاتِ الحَاضِر» و«شُرُوطِ المُسْتقبَـل»، فكما يقولُ محيي الدين صابـر: («التّنْمية» هي قبْلَ أنْ تكون أدواتٍ ومظاهِرَ ماديّةً، هي تَفْكيرٌ جديدٌ نحو الحياة، وفي الاتِّجاهات والسُّلُوكيّات)[١٨]. إنّه من المُسْتحيل أنْ نَتوَقَّـعَ أنْ نُبْحِـرَ بأمانٍ في مُحيطـاتِ «العَوْلَمَـةِ»، وأنْ نَتحَرَّكَ بفَاعِليّـةٍ عبْر تضاريسِ «التّقْنية»، باسْتخدام أدوات «العَالَمِ القديم» التي مهما كانت جَدْواها في زمانها فإنّها لن تَسْتطيع أنْ تَرْصُدَ مُعْطيات «الخريطة الحديثة» التي تَحْمِلُ ملامِحَ جديدةً، وآفاقاً رَحْبةً، وتفاصيلَ دقيقة.

وبالرُّجُـوعِ إلى «أدبيّـات التّنْمية» تَبْرُزُ دَوَاعِي «التَّبَعِيَّـةِ التِّكنولوجيّة» التي تَتَمَحْوَرُ – عادةً – حول مُؤشِّراتٍ ثلاثة[٩]:

١) نِسْبَةُ الإنْفاق من النّاتج المحلّيّ الإجْماليّ على «البَحْثِ العِلْميّ».

٢) نِسْبَةُ العُلماء والمُهندسين إلى إجْمالي السُّكان.

٣) نِسْبَةُ مُسَاهَمَةِ «البَحْثِ العِلْميّ» في تَكْوين رأْس المال المحلّيّ الثّابت.

أمّا تلك المُؤشِّراتُ فمن الوَاضِحِ أنّها -كُلُّها- تَصُبُّ في «الإنْسان» القَادِرِ على صُنْعِ القـرار المُناسِب، وصِياغة الخُطّةِ الكفؤة، وتَنْفيذ الآليّاتِ الفعّالة، وتَطْوير البيئةِ القَادِرَةِ على احْتِضَانِ «البَحْثِ العِلْميّ» وزَرْعِ الحماس في فضاءاته وتَطْويعِ مُعْطياته، ودَفْعِ «عَجَلَةِ

التَّعْليـم» في اتِّجاه «العلوم والتِّقْنية»، وتَحْفيزِ المُجْتمع على الولوج إلى هذا المِضْمَارِ على مُخْتلف الأَصْعِدَة؛ وكُلُّ ذلك لا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ دون «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تُشيعُ «الوَعْي العِلْميّ»، وتَبُثُّ الرُّؤى العَقْلانيّة.

وهكـذا يَتَأَكَّـدُ الشَّرْطُ الضّـروريُّ لـ«عمليّة التّنْمية»، فكما يُوضِّـحُ علي علي حبيش: (إنّ العقبـة الحقيقة التي تَخْنُقُ «التّنْميـة» وتُوقِفُ انْطلاقَهَا ليست أبداً في نُدْرَةِ المَوارِد، ولا نَقْصٍ في التّمْويل. إنّما العقبة الحقيقة تَكْمُنُ في غَيْبَةِ «إنْسان التّنْمية»..فهو العُنْصُرُ الأهـمّ والأَخْطر مـن بين عناصِر البِنَـاء والارْتقـاء)[٣٩]، وأمّا عمر الخطيـب فيرى أنّ: («التّنْميـة» بمعْناهـا الوَاسِـع لا تَعْنِي «النُّموّ» فقـط، بَلْ تَعْنِـي أيضاً التّعْديـل التّدريجيّ للسُّلُوك على مُسْتوى الأفْراد والجماعات، بحيث يَسْتطيعُ جميع أفْراد المُجْتمع الاسْتفادة من «عمليّة التّنْمية» والتَّكَيُّفِ معها)[٧٦].

من الوَاضِحِ – إذاً – أنّ أكْبر هُمُومنا اليوم هو تَلَمُّسُ طريقنا – بحِكْمةٍ – نحو «ثقافة المُسْتَقْبَـل» في عَالَـمٍ يموجُ بالتّحدّيـات والمُفَارَقات، وتَخْتَلِطُ فيـه الأوراق من كُلِّ حَدَبٍ وصَـوْبٍ؛ ولـذا فإنّنا نَحْتَـاجُ إلى تَأْسيس «تَكْوينٍ ثقافـيٍّ – تَنْمَويٍّ» يَحْمِـلُ رُؤىً تَسْتَشْرِفُ «المُسْتَقْبَـل» وتُـدْرِكُ تحدّياته؛ فيَحْتَضِـنُ الثّوابِتَ والقِيَمَ الرّاسِخَـة، ويُراهِنُ على جَعْلِ «ثقافـة العلوم والتّقْنية» عُنْصُراً مُؤَثِّراً في التّفاعُـلات الفِكْريّة السّائِدة، فكما يقولُ علي أومليل: (إنّ الثَّقافة العربيّة أمام مصيرَيْن: إمّا أنْ تكون قِيَمُهَا مُحَرِّكَةً لمُجْتمعاتٍ عربيّةٍ مُنْتِجَةٍ ومُنَافِسَةٍ في عَالَم اليوم، أو أنْ تَبْقَى على هَامِشِه)[٣٧].

وعَـودٌ إلى ثُنَائِيَّة («ثقافـة المُسْتَقْبَـل» و«مُسْتَقْبَل الثَّقافة»)، فإنّنـا نجدُ أنّ «ثقافة المُسْتَقْبَل» تُحَدِّدُهَا تفاعُلاتِ «الزَّمان» و«المكان»، وليس لنا من تَأْثيرٍ فيها إلاّ إذا بلغنا من النُّفُـوذِ ما يَسْمَحُ لنا بفَرْضِ مُعْطياتنا، وأمّا «مُسْتَقْبَـلُ الثقافة» في «المُجْتمعات العربيّة» فهو الذي نَصْنَعُهُ بأيدينا وعُقُولِنَا وطاقاتِنا، إمّا بشَكْلٍ عَشْوائيٍّ مُرْتَجَلٍ يَتَخَبَّطُ تحت أَسْرِ الكلمـات و«ثقافة اللفْـظ»، وإمّا بشَكْلٍ واعٍ مُـدْرِكٍ لطبيعة التّحدّيات و«شُـرُوطِ العَصْر». إنّـه من البدهيّ أنّه إذا لـم يَتَوَافَقْ «مُسْتَقْبَلُ الثقافة» مع «ثقافـة المُسْتَقْبَل»، ولم تَتَطَابَقْ

مُعْطياتُهمــا، ولــم تَنْسَجِمْ حركتاهُما، فإنّنا سنَبْقَى غير بعيــدٍ عن شاعِرنا الذي وَقَفَ أمام الأطْلال يَبْكي عليها نَادِباً حَظَّه العَاثِر؛ وأمّا تجاوزُ هذا الحال فهو الأَمْرُ الذي صَنَّفَهُ محيي الدين صابر بأنّـه: (قَلْب التّحدّي الحقيقيّ الذي يَعْرِضُ على الدُّول النّامية)[١٨].

٥-٣-٢) «ثقافة المُسْتَقبَل» و«مَنْظومة العلوم والتّقنية»:

لــن نَحْتَاجَ إلى كبير جُهْدٍ للخُلوصِ إلى النّتيجة التي حَرَصْنَا علــى تَأْصيلِ دَلالاتِها وآفاقِهــا وشُرُوطِها في هذا الكِتــاب، ويُؤَكِّدُهَا محمد عابد الجابريّ فــي قوله: (إنّ عَالَمَ الغَــدِ مَحْكُــومٌ فِعْــلاً بالعِلْم والتّقانــة، عنْدنا وعنْد غيرنــا، ولكن مع هذا الفَــارِق وهو أنّ هنــاك من يُنْتِجُ العِلْمَ والتّقانة، ويُصَدِّرُهُمَــا ويُسَخِّرُهُمَا للسَّيطرةِ وبَسْطِ النُّفُوذ، وهناك مــن يَسْتَهْلِكُ شيئاً منْهما مُسْتَورِداً إيّاهما ولا يقــومُ بالمُساهَمَةِ في إنْتاجهما فيجد نفْسه بالتّالــي موضوعاً لنُفُوذهِمــا وهَيْمَنَتِهِمَا)[١]. تلك الإشْكَاليّــةُ الكُبْرى - في الوَاقِع العربيّ - فــي كيفيّــةِ تَأَقْلُم «العِلْم والتّقْنية» مع التّفاعُلاتِ المُجْتمعيّــةِ جَعَلَتْ كثيراً من المُثقَّفين والمُفكِّرين يتنادون إلى ضَرورةِ «غَرْسِ العِلْم والتّقْنية» في «المُجْتمعات العربيّة»، وقادتْ تلــك الضّــرورة بعْضهم إلى الخُلُوصِ إلــى النّتيجة نفْسها التي خَلَصَ إليها الجابريّ في قولــه: (إنّ غرْسَ العِلْم والتّقانة فــي وطننا العربيّ يَتَوَقَّفُ على وجــود تُرْبَةٍ مُلائِمةٍ ومُنَاخٍ منُاسِبٍ، أَيْ على إحْداثِ تغْييراتٍ في عَالَمِنَا الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ والفِكْريّ)[١].

ويهمُّنــا هنا أنْ نَتَوَقَّفَ أمام هذه النَّتيجة التي حَفَلَتْ بتَأْكيدِها المؤتمرات والنّدوات ووسائِل الإعْلام في العَالَم العربيّ، وحَرَصَ على تَرْديدِها وتَسْجيلِها المُثقَّفون والمُفكِّرون العــرب، ولكنّهــا - فــي نهاية المطــاف - بَقِيَــتْ مُجَــرَّدَ كلمــاتٍ علــى ورقٍ يَسْتَشْهِدُ بها المُسْتَشْهِدون عندما يَحْتاجون إليها لإبْرازِ مَعْرفتهم بعَصْرِهِمْ، واستمرَّتْ مُجَرَّدَ مَقُولاتٍ مُعْتَبَــرَةً عنْــد التّنْظير، ومَفْقُودَةً علــى ساحاتِ التّأْسيس والتّفْعيــل، وغَائِبَةً عن مضامين الإسْتراتيجيّات والآليّات. أمّا تَجْربةُ «النَّهْضَة الأوروبيّة» فيَسْتَخْلِصُ منْها إسماعيل صبري عبــد الله[١١] مُنْطَلَقاً مِحْوريّاً حيث وجــد أنّ: (التّنْمية الشّامِلة عمليّةٌ تَضْرِبُ جُذُورَهَا في كُلِّ جَوانِبِ الحياة وتُفْضِي إلى مَولِدِ حضارةٍ جديدةٍ، أو مرْحلةٍ جديدةٍ من مراحِل التّطوُّر

الحضــاريّ)، وهذا يَعْنِي أنّ: (للتّنْمية أساسٌ ماديٌّ وآخر فِكْريّ)، وبهذا تكون («التّنْمية» ثمرة التّفاعُل المُسْتمرّ بينهما بحيث يُغَذِّي كُلٌّ منْهما الآخر ويُقَوِّي حركته).

فــي ضوء تلك المُعْطيــات يَتَوَجَّبُ علــى «الثَّقافة العربيّــة» أنْ تُحَــدِّدَ مَوقِفَهَا بشَكْلٍ حَاسِـمٍ من حضارة العَصْــرِ وثقافتِه وتحوُّلاتِه، ممّا يعود بنا - بالضّــرورة - إلى «مَفْهُومِ توجيــه الثقافة»[٢٨] في «المُجْتمعات العربيّــة» (انْظر: الفصل الثّاني)، وبالتّالي يقودُ إلى أهميّــة حَشْدِ الجُهُودِ وبِنَاءِ الإسْتراتيجيّات لتَأْسيسِ «ثقافــةٍ تَنْمَويّةٍ» قَادِرَةٍ على اسْتيعاب التّحــوُّلات العَارِمَةِ والمُتسارِعَةِ عَالَمِيّاً فــي إطار مُتغيِّراتٍ مَعْرفيّةٍ وحضاريّةٍ وتقنيّة. ولأنّ «الثَّقافــة» هي «حَاضِنَةُ المُسْتَقْبَل»، فإنّ عليها أنْ تتفاعل مع «شُرُوطِ المُسْتَقْبَل»، وتَتَوَاءَمَ مــع مُقْتضيــاتِ «الزّمان» و«المــكان»، وتَسْتَخْــدِمَ مفاتيحــه - بفَاعِليّةٍ - وهــي تَتَّجِهُ نحو «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وهذا بالضّرورة يَسْتَدْعِي «خُطّةَ عملٍ» و«مَنْهَجاً إجْرائيّاً»؛ فلكي يَخْرُجَ «حــالُ الثَّقافة العربيّة» من مَأْزِقِ التّنْظير العَائِم والمُدَاوَلات اللفْظيّة، فإنّنا لا بُدّ أنْ نَتَّفِقَ مــع مالك بــن نبيّ[٢٨] في قوله: (إذا أردنــا أنْ نَفْهَمَ «الثَّقافة» في هــذا العَصْر، وجب أنْ نَفْهَمَهَــا بوَصْفِهَــا «مِنْهَاجاً» قبْل أنْ تكون «نتيجةً»)، وهذا يَقْتَضِــي وفْق قوله: (أنْ نُعَرِّفَهَا طِبْقــاً لمِقْياسٍ عمليٍّ، وذلك بأنْ تكون صَالِحةً لشيءٍ ما، وأنْ تكون على عِلْمٍ بهذا الشّيء؛ أيْ أنْ تَتَحَدَّدَ طِبْقاً لما يجب أنْ تقوم به من عمل).

إنّ نُقْطــة الانْطلاق نحــو أيِّ «إسْتراتيجيّةٍ ثقافيّةٍ» حيويّةٍ يَنْبَغِــي أنْ تَبْدَأَ بالاعْتراف بـ«وَاقِــعِ الثَّقافة العربيّة» الذي يَتَعَثَّــرُ تحْت تَأْثير «فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ» مُتفاقِمَةٍ، وتَكْمُنُ جسامة التّحــدّي فــي ضعْــف قُدْرتِهَا علــى اسْتيعــابِ فِكْــرِ «مَنْظُومَةِ العلــوم الحديثــة والتّقْنية» ومُمَارَسَاتِهَــا ومُقْتضياتِهــا. لذا لا يَنْبَغِــي أنْ تكون قضيّةُ «الثَّقافة» قضيّــةً «نُخْبويّةً» تَمَسُّ فِئَاتٍ أو شرائح مُعَيَّنَةً فقط في المُجْتمع، ولكنّها قضيّةُ كُلِّ مُواطِنٍ يعيش عَصْرَه، ويتفاعلُ مع زمنــه، ويُدْرِكُ أنّ «الثَّقافة» هي «بَوْتَقَــةُ تفاعُليّةٌ» واسِعَةُ النِّطَــاقِ والأطْيافِ والأشْكَالِ تُؤَثِّرُ في مجْموعِها - سَلْباً وإيجاباً - على الجميع.

من الوَاضِحِ أنّ أدبيّاتنـا الثقافيّة تَزْخَرُ بتَجَلِّيَاتِ الإحْبَاطِ والعَجْزِ والشَّكوى والتّذَمُّرِ مـن وَاقِـعٍ تَسْتَفْحِلُ فيه المُشْـكلاتُ الحياتيّة والاقْتصاديّـة والاجْتماعيّـة، وتَسْتَشْرِي فيه «معاني الاتّكاليّة» و«قِيَمُ الاسْتِهْلاك» و«نظريَّاتُ المُؤامرة»، ويَبْدُو أنّ هذا ليس جديداً على مُجْمَـلِ الحـال العربيّ، فقد لمس ذلـك زكي نجيب محمود وهو يَسْعَـى إلى تَشْخيص هذا الحـال بقوله: (والذي أنـا زَاعِمُهُ هنا، هو أنّ حياتنا الثَّقافيّة الجديدة قد شَهِدَتْ أدباً أثار فينا أسْئلةً عن حياتنا الوَاقِعَةِ أكْثر جِدّاً ممّا شَهِدَتْ فِكْراً يُحاولُ الإجابة عليها)[٢٠]. لا شَكّ عنـدي في أنّ زكي نجيب محمود سيَنْـزَعِجُ لو عَلِمَ أنّنا دخلنا بعْده ألْفيّةً جديدةً تضاعفتْ فيهـا التَّحدّيات لتفوق ما عهده فـي زمنه في مُنْتَصَفِ القَرْن الماضي، وسيَنْـزَعِجُ أكثر لو عَلِمَ أنّ وَصْفَهُ لـ«الوَاقِعِ الثَّقافيّ العربيّ» ما زال على حاله، وأنّ «المَشْهَدَ الثَّقافيّ العربيّ» لـم يَتَغَيّـرْ؛ فما زالـتْ مُعَلَّقَاتُنَا الشِّعْريّـة، وتوصياتُنـا الكلاميّة، وتشنُّجاتُنـا الانْفعاليّة، ونَرْجسيّتُنـا الغريزيّة، ومُيُولُنَا الاسْتِهْلاكيّة، هي كُلُّ ما تُقَدِّمُهُ ثقافتُنا لمُعالَجَةِ وَاقِعٍ مُتَرَدٍّ ومُشْكلاتٍ مُسْتَفْحِلَة.

٥-٣-٣) «إسْتراتيجيّة الثّقافة» و«قضيّة المُسْتَقبَل»:

في ضوء تَفَاقُـمِ التّحدّيات المُعاصِرَةِ واسْتِفْحَالِ «الأزْمَةِ الثَّقافيّة»، فإنّ التّعامُلَ مع ظَواهِرِهَا ومَظَاهِرِهَا وأسْبَابِهَا يُصْبِحُ «قضيّة المُسْتَقْبَل» التي يَنْبَغِي أنْ تَتَحَوّلَ إلى هَاجِسٍ مُقيـمٍ يُحَرِّكُ العزائم، ويُهَيْمِنُ على كُلِّ القضايا والطُّرُوحات، وهـي «القضيّةُ الغَائِبَةُ» عن اهْتمامـاتِ «الثَّقافة العربيّة» بالرّغْم من كُلِّ تلك الطُّرُوحات والقصائد والمؤتمرات التي تَتَغَنَّى بها وتَحْلُمُ بارْتياد آفاقها إلاّ أنّها – في نهاية المطاف – تَبْقَى مُجَرَّدَ حِبْرٍ على وَرَق.

إنّ «قضيّة المُسْتَقْبَل» تَحْتَاجُ إلى أنْ تَنْتَقِلَ إلى كُلِّ دارٍ وساحةِ عملٍ ومَصْنَعٍ وجامعةٍ، وكمـا يقـولُ مسعود ضاهر فإنّ: (سيرورة النَّهْضَة تَحْتَاجُ إلـى تَرَاكُمٍ كَمِّيٍّ من الإنْجازات الإيجابيّة المُتَحَقِّقَة على أرْضِ الوَاقِع)[٨]، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ مهاتير محمد – صَانِعُ «المُعْجِزَةِ الماليزيّـة» – عندمـا سأله أحمد زويل عن سِرِّ تلك «المُعْجِـزَةِ» فأجاب قائلاً: (أنْ تَجْعَلَ الشَّعْبَ كُلَّه يُفَكِّرُ في المُسْتَقْبَل)[٧٠]، ولا شَكّ أنّ هذه الرُّؤية تَلْتَقِي مع مَقُولة فيكتور هوجو

(Victor Hugo): (إنّ الحكومة الجيّدة تتأسَّسُ على مَعْرِفَةِ القَدْرِ المُناسِبِ من مُكَوِّنات «المُسْتَقْبَل» اللّازم إدْخاله في «الحَاضِر»)[٤٤].

تأْسيساً على ما سَبَقَ يَبْدُو من اللّازم أنْ نَطْرَحَ من جديدٍ - وبإلْحاحٍ - أسْئلةً وَصَفْنَاهَا بأنّهــا الأكْثر إشْكَاليّةً في الوَاقِــع العربيّ، ويَنْبَغِي أنْ نَسْعَى إلــى الإجابة عنها بموضوعيّةٍ وتجرُّدٍ: (هل يُمْكِنُ الحديثُ عــن «مُسْتَقْبَل الثّقافة العربيّة» بمَعْزِلٍ عن عَصْرِهَا وطبيعتِه العِلْميّــة - التّقنيّــة؟ هل يُمْكِنُ تَصَــوُّرُ ثقافةٍ فَاعِلَةٍ فــي مُجْتمعها دون تَحَوُّلِهَــا إلى ثقافةٍ مُنْتِجَــةٍ وخَلاّقةٍ ومُتَفَاعِلَةٍ مع «شُــرُوطِ العَصْرِ» ومُوَاصَفَاتِه؟ أليس من العجب العُجاب أنْ يُراد لآليّاتِ «العلوم والتّقنية» والتّطوُّرات المُعاصِرَة أنْ تَعْمَلَ في فَرَاغٍ؟).

ومَــرَّةً أُخْرَى، نجدُ أنّنا - على طريق الإجابة عن هذه الأسْئلة - نَصْطَدِمُ بـ«مَفْهُوم توجيــه الثّقافة»[٢٨] (انْظر: الفصــل الثّاني) الذي يَفْرِضُ صِياغَةَ مفاهيــم تَنْمَويّةٍ وأُطُرٍ عَصْريّةٍ لها لتَسْتطيع أنْ تَسْتَجِيبَ - بفَاعِليّة - لـ«التَّحَدِّي التّنْمَويّ» القَائِم في «المُجْتمعات العربيّة» لتتمكَّنَ من وَضْعِ الحُلُولِ العمليّة والأُطُرِ الفِكْريّة التي تَنْسَجِمُ مع أهْدافِها، وتتكيَّفُ مــع مُقْتضياتِ عَصْرِهَا. أمّا عن تَجْرِبة الــدُّول التي نجحتْ في تخطِّي كثيرٍ من الحَواجِز والعقبــات، والْتَحَمَــتْ - بفَاعِليّةٍ - مع عَصْرِهَــا وتَغَيُّرَاتِه، فإنّ مهاتيــر محمد - صَاحِبَ «التَّجْربــة الماليزيــةّ» -، وأحمد زويل - صَاحِــبَ «التَّجْربة العِلْميّــة» -، يَذْهَبَانِ إلى رُؤيةٍ مُشْتَرَكَةٍ تُؤكِّدُ على أنّ: (الطَّريق هو خَلْقُ ثقافةٍ عِلْميّةٍ تُقَدِّرُ أهْميّة الدّين والتَّفْكير العِلْميّ معــاً)[٧٠]. أمّا عمليّةُ «توجيه الثّقافة»، فيجب أنْ تَخْضَــعَ لعِدَّةِ معاييرٍ، من أهمِّها تَكْريس عمليّــات «عَقْلَنَــةِ الثّقافة» وآليّاتِها، ليس فقط لأنّ: (الحضــارة المُعَاصِرَة تقومُ كُلُّهَا على التّنْظيم العَقْلانيّ لكُلِّ مَرَافِقِ الحياة)[١]، ولكن أيضاً إذا أردنا فِعْلاً تَأْسيس «ثقافةٍ حَيَّةٍ» تَسْتَشْرِفُ «المُسْتَقْبَلَ» وتتفاعلُ مع مُكَوِّنَاتِه، فإنّنا يَنْبَغِي أنْ نَأْخُذَ في الاعْتبار تلك الحقيقة الثّابِتَــة التــي يُوجِزُهَا محمد عابد الجابريّ بقوله: (إنّ عَصْرَنَــا الرّاهِنَ هو، كما يُوصَفُ بحَــقٍّ، عَصْرُ العِلْــم والتّقانة)[١]، ويُؤكِّدُهَــا بالتّركيز على «التَّخْطيط لثقافــة المُسْتَقْبَل» التــي تَعْنِي: (توفير شُــرُوطِ المُوَاكَبَةِ والمُشَارَكَة: مُوَاكَبَةُ الفِكْــرِ المُعَاصِر والمُشَارَكَةُ في إغْنَائِهِ وتوجيهِهِ)[٥٩]، ولا يَعْنِي هذا - بطبيعة الحال - أنْ نَكْتَفِيَ بأنْ تَتَصَدَّرَ هذه المَقُولَةُ

مؤتمراتنــا وندواتنا وطُرُوحاتنا التّنْمَويّة والفِكْريّة، فالمُهِمّ أنْ تجد تلك «الرُّؤيةُ» طريقها إلى «ثقافة المُسْتَقْبَل» عبْر التَّخْطيط والتّفْعيل والتَّوجيه والمُتَابَعَة.

إنّ «ثقافــة المُسْتَقْبَــل» هي تلك التــي تَهْتَمُّ بفَهْــمِ عناصِر «المُسْتَقْبَــلِ» ومُحَدِّداته، وتتعاملُ مع شُرُوطِهِ ومُقْتضياته، ووفْق تَعْبير زكي نجيب محمود: (إذا أردنا أنْ نُغَيِّرَ وَجْهَ الحياة التي نحياها، فلن يكون ذلك بأنْ نَفْتَحَ كُتُبَ السّالفين لنروي عنهم ما قالوه، ونَنْقُلَ عنهــم مــا صنعوه، وإنّما السّبيــل القويمة - بَلْ السّبيل الوحيدة - هــي أنْ نَسْأَلَ عمّا يُرادُ تَحْقيقــه في «المُسْتَقْبَــل»، فالماضي لا بُدَّ منه، لا لنَجْعَلَ منــه نَمُوذَجاً نَحْتذيه، بلْ ليكون مَصْدَراً للإلهام فيما يَنْبَغِي أنْ نَصْنعه. إنّ ولاءنا لآبائنا يجب أنْ يكون في مُحاكاتِهم في وَقْفَتِهِمْ تجاه الحياة، لا في إعادة ما صنعوه حَرْفاً بحَرْف)[٢٠].

إذاً «ثقافة المُسْتَقْبَل» هي تلك «الثَّقافة» التي تُدْرِكُ أبْعَادَ الدَّوْرِ الذي يُؤدّيه الإنْسان الــذي هو - في نهايــة المطاف - مِحْوَرُ «العمليَّة التّنْمويّــة» ووسيلتُها وغايتُها، فكما يقولُ علــي علي حبيشــ: (إنّ التَّقدُّمَ الذي يَحْكُمُهُ الإنْمَاءُ المَعْرفــيّ يَحْتَاجُ إلى مُواطِنٍ عَصْرِيٍّ إيجابــيٍّ وفعّالٍ ومُشَارِكٍ في حيــاةٍ اقْتصاديّةٍ - إنْتاجيّةٍ - خِدْميّةٍ، بَلْ حياةٍ عامّةٍ ومُجْتمعٍ يَتَّسِــمُ كُلّــه بهذه الصِّفَــات)[٣٩]. ولذا لا بُدّ من وَقْفَــةٍ جَادّةٍ تُمَحِّصُ الأَهْــداف، وتَرْبُطُهَا بالوسائِــل، لنتغلَّبَ على حالة «اللّافَاعِليّة» التــي أَرْجَعَ مالك بن نبيّ «سببها الأصيل» إلى: (افْتقادنا الضَّابِط الذي يَرْبُطُ بين الأشْياء ووسائلِها، وبين الأشْياء وأهْدافِها، فسياسَتُنَا تَجْهَلُ وَسَائِلَهَا، وثقافتُنا لا تَعْرِفُ مُثُلَهَا العُلْيا، وفِكْرَتُنَا لا تَعْرِفُ التَّحْقيق، وإنّ ذلك ليتكرَّر في كُلِّ عملٍ نَعْمله، وفي كُلِّ خُطْوةٍ نَخْطُوهَا)[٢٨].

٤-٥) خصائِصُ «الثّقافة التّنمويّة»:

إذا اتَّفقنــا مــع علي أومليل بــأنّ «قِيمة الثَّقافــة» هي: (في مدى تَكْوينِهــا للرّأسمال البشــريّ؛ صَانِــع التّنْمية)[٣٧]، فإنّنــا بنَظْرَةٍ فَاحِصَــةٍ لمُعْظَم الجُهُودِ الفِكْريّــةِ السّائِدَةِ والمَشْرُوعــاتِ الثَّقافيّــةِ المَطْرُوحَةِ في العَالَم العربيّ في سِياق مــا يُعْرَفُ بـ«اسْتراتيجيّة الثَّقافــة»، نجد أنّ هــذه الجُهُودَ تَبْــدُو وكأنّها تُعــدُّ اسْتراتيجيّةً لدخــولِ «القَرْن الخامس

الهِجْـريّ»!. الغريب أنّ ذلك يَحْدُثُ فـي الوَقْت الذي تَبْرُزُ فيه طبقةٌ جديدةٌ من المُثقّفين والمهنيّين، وتَتّسِعُ شرائحُ أصْحاب التّخصُّصات العِلْميّة المُتَنَوِّعَة؛ وكُلُّهَا تَحْتَاجُ إلى «بيئةٍ ثقافيّـةٍ» مُناسِبةٍ، ولها عَلاقَةٌ حميمةٌ بقضايـا «الألْفيّة الثّالثة». ولذا فإنّ «الثّقافة» التي لا تَسْتطيـع أنْ تَتَعَـرَّفَ على تلك الحقيقـة الشّاخِصَة للعِيان، وتُصِرّ علـى مُواصَلة جُهُودها الحثيثـة في تَكْريسِ توجُّهاتٍ مَكْـرُورةٍ تَقْليديّةٍ، فإنّها تَحْرِمُ مُجْتمعها مـن تَكْوينِ «البِنْيَةِ الثَّقافيّـة» القَادِرَةِ على اسْتيعاب تغيُّراتِ العَصْـر ومُعْطياته، وتَمْنَعُ الشّبابَ من الانْطلاقِ إلــى آفاقٍ رَحْبَةٍ من التَّفْكير العِلْمــيّ والتَّطْوير الذَّاتيّ والتَّأْهيـل التّنْمَويّ. بطبيعة الحال، يُصْبِحُ الأمْرُ أكْثر كارثيّةً، وأشدّ حساسيّةً، عندما نتعاملُ مع مُجْتمعاتٍ عربيّةٍ تتجاوزُ فيه نِسْبَةُ الشَّبـاب سِتّين في المائة، وتَبْرُزُ فيه يومياً شرائحُ اجْتماعيّةٌ ومهنيّةٌ وعِلْميّةٌ وتِقنيّةٌ جديـدةٌ لها مُعْطياتُهَا وقِيَمُهَا وفِكْرُهَا، وكُلُّها تَحْتَـاجُ إلى «ثقافةٍ عَصْريّةٍ تَنْمَويّةٍ» تَسْتطيع أنْ تَحْتضِنَ هُمُومَهَا، وتتلاقح مع تطلُّعاتِها، وتتفاعل مع مُتطلَّباتِها.

وفـي هذا الإطار يَتَّضِحُ لنا جَلِيّاً أنّ «دَوْرَ المُثقّـف»، بصفته مُبْدِعاً ومُنْتِجاً للمَعْرفة ومُهَذِّبـاً للوَعْي الإنسانيّ، يتصـدَّعُ ويتهالكُ، حيث يعيش «المُثقَّـف العربيّ» في عُزْلَةٍ عن فِكْرِ زمانه، وغُرْبَةٍ عن آليّاتِ عَصْرِه، ليواصل رِحْلته الأزليّة إمّا في اجْتِرَارِ الذّات والبُكاء على الأطْلال، وإمّا في الانْغِمَاسِ في افْتِعَالِ صِرَاعَاتِ «العَوْلَمَةِ» وجَدَلِ «الحَدَاثَةِ» ومزاعِم «التَّحرُّر»، وبالتّالي يُصْبِحُ دَوْرُهُ التّنْمَويّ مَعْدُوماً إنْ لم يكنْ سَلْبِيّ التّأْثير، وهذا ما يَدْعُونَا إلــى أنْ نَتّفِقَ مع برهان غليون على (ضرورة إعادة النَّظَـرِ في رُؤية المُثقّف لنفْسه ودَوْرِه الفِكْـريّ)[١٨]. أمّا أبْعَادُ هذا الـدَّوْر، والحَلْقَةُ المَفْقُودَةُ في «النِّضَالِ التّنْمَويّ»، والمعاييرُ التــي يجب أنْ نضعها للتّقويم، فسنَخْتَلِـفُ بشأنها مع كثيرٍ من طُرُوحات المُثقّفين العرب التــي مالــتْ – وما زالــتْ – نحو التّعْميـم والتّنْظيـر المُفْـرِطِ واسْتِخْـدَام المُصْطلحاتِ الفَضْفَاضَــةِ التي يُمْكِنُ لها أنْ تَحْمِلَ قِيَمـاً مُتناقِضَةً ومُمَارَسَاتٍ مُتضارِبَةً، كما يُمْكِنُ لها أنْ تَعْنِـي أيَّ شيءٍ وكُلَّ شيءٍ؛ ولـذا فإنّها مُؤَهَّلَةٌ لِزَرْعِ بُذُورِ الشِّقَـاقِ والاخْتِلافِ والجِدَالِ أكْثـر من قُدْرَتِهَـا على صِناعة «التَّمَاسُـك» و«التَّرَاكُم» القَادِرَيْنِ علـى التّصدّي للأوجاعِ التّنْمَويّةِ في وَاقِعِ «المُجْتمعات العربيّة».

٥-٤-١) نَحْوَ ضَبْطِ المُصْطلح:

إذا كان المَطْلَـبُ هو تَحْقيق ذلك الخِضَمِّ المُتلاقِحِ من المفاهيمِ والقِيَمِ والمداركِ والعَلاقَاتِ والتّفاعُلاتِ القَادِرَةِ على دَفْعِ المُجْتمع نحو الأفْضل وتوليد «الاسْتِجَابَةِ» القَادِرَةِ على احْتِواءِ طبيعة «التّحَدِّي» والتّغلُّبِ عليه، فإنّ من المُهِمّ أنْ نَفْحَصَ مُصْطلحاتِنا بدِقّةٍ؛ لكي نتمكَّنَ من التّعامُلِ مع مُقْتضياتِها بجِدّيّةٍ، ونُوظِّفَ مُقوِّمَاتِهَا في الاتّجاهِ الأكْثر فَاعِليّةً وجَـدْوى. ولنَأْخُـذْ - على سبيل المِثال - ذلك المُصْطلح الـذي غزا الكثير من مؤتمرات العرب ومحافِلِهم، وهو مُصْطلحُ «ثقافة التّنْمية»، لنجد أنّه مُصْطلحٌ يُعْلِنُ دُخُولَ «التّنْمية» علـى اسْتِحياءٍ إلـى «الوَاقِعِ الثّقافـيّ»، ويُؤكِّدُ أنّها «جُـزْءٌ» من «كُلٍّ»، ويَبْنِـي حَاجِزاً أمام «التّنْميـة» يضعها فـي مَسَارٍ وَحْـدَه بمَعْزِلٍ عن التّفاعُـلات الأعَمّ والأشْمَـل التي هـي من خصائِصِـ «التّنْميـة» ومُقْتضياتِها. إنّـه لا يجوزُ بحالٍ أنْ تكون لـ«التّنْميـة» ثقافةٌ مَعْزُولَةٌ - فـي سِياقاتِهـا ومُحَدِّدَاتِهَا - عن ذلك الحَشْدِ الحَاشِدِ من القضايا التي تُؤثِّرُ في نَهْضَةِ المُجْتمـع وسيره نحو «المُسْتَقْبَل»؛ فحالُ «التّنْمية» ليس كحال «ثقافة المُرُور»، أو «ثقافة العُنْف»، أو «ثقافة حُقُوق الإنْسان»، أو غير ذلك من «الثّقافات الفَرْعيّة» المُرْتَبِطَةِ ببعض أَوْجُهِ التّعامُلِ والتّفْكير، والمُحَدَّدَةِ بحالٍ مُعَيَّنٍ وظَرْفٍ خاصّ.

ولأنّ التَّحـدّي الأكْبـر أمـام العَالَمِ العربيّ هو «تَحَـدِّي التّنْمية»، فإنّ مـن المُهِمّ أنْ تكون له «الأولويّـةُ المُطْلَقَةُ» في مُجْمَلِ «الحَرَاكِ المُجْتمعيّ» ممّا يتطلَّبُ ثقافةً قَادِرَةً على التّعامُـلِ مع «خصائِصِـ التّنْمية» على أصْعِدَتِها الفِكْريّـة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والبَحْثيّة والاقْتصاديّة وغير ذلك من مناحي الحياة التي تَصْنَعُ - في مُجْمَلِهَا وتَرَاكُمَاتِهَا - الفَرْقَ بيـن «الدُّول المُتَقَدِّمَة»، وبين تلك التي ما زالـتْ تَتَوَسَّلُ سُبُلَ التَّقَدُّم، وتَسْتَجْدِي مُعْطياتِ الآخَريـن، وتَتَخَبَّطُ في متاهاتِ البَحْثِ عن «طريق التّنْمية». ومن ذلك المُنْطَلَق، فإنّ من المُهِمّ أنْ تَتَبَلْوَرَ لدينا رُؤيةٌ جَامِعَةٌ لمُصْطلحٍ قَادِرٍ على أنْ يَحْتوي ذلك «الحَرَاكَ التّنْمويَّ» الشّامِـلَ فنتحدَّثُ - بالضّرورة - عن «الثّقافـة التّنْمَويّة»، لنجد - على سبيل المِثال - أنّ كُلَّ تلك «الثّقافات الفَرْعيّة» التي أشرنا إليها مثل «ثقافة المُرُور» و«ثقافة حُقُوق الإنْسان» تَقَـعُ ضِمْنَ إطـار هذا المُصْطلح الحيويّ الكبيـر. ومن المُهِمّ - أيضـاً - أنْ نَتَوَقَّفَ أمام

ذلك المُصْطلـح الآخَر الذي يشيعُ بين حَامِلي «الهَمّ الثَّقافيّ»، ويَكْثُرُ تَرْدِيدُهُ بين صَانِعي «القـرار الثَّقافيّ»، وهو مُصْطلحُ «تَنْمية الثَّقافة»؛ فهذا المُصْطلحُ يَقِفُ هَائِماً حَائِراً؛ لأنّه لا يُجِيبُ على أسْئلةٍ عديدةٍ، من أهمِّها: (ما «العناصِرُ الثَّقافيّةُ» التي نَحْتَاجُ إلى تَنْميتِها؟، ومـا «التَّوَجُّهَاتُ الاجْتماعيّةُ» التي نُريـدُ غَرْسَهَا لتَنْمُو وتَزْدَهِر؟، ومـا «المعاني الفِكْرِيّة» التي نُريدُ لثقافتِنا أنْ تَرْقَى بها؟، وهل «الثَّقافةُ» التي نُريدُ تَنْميتَها هي الأشْكَالُ المَعْهُودَةِ بعُجَرِهَـا وبُجَرِهَا؟، أمْ هل لدينا مَجَاهِرُ تَفْصِلُ الغَثَّ عـن السّمين، ولدينا شُرُوطٌ تُحَدِّدُ ماهيّـة ذلك الذي نُريدُ تَنْميتَه، وذلك الذي ستكونُ في تَنْميتِـهِ نتائِجُ وسَلبيّاتٌ لا تَنْسَجِمُ مع مُقْتضياتِ «التّنْمية» وشُرُوطِهَا؟).

مـن الوَاضِـح – إذاً – أنّه لكي تُصْبِـحَ «التّنْمية» في «عَصْرِ العَوْلَمَـةِ»، ووفْق شُرُوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، قَادِرةً على التّغلْغُلِ في نسيج المُجْتمع والتَّكَيُّفِ مع مُقَوِّمَاتِه، فإنّنا نَحْتَاجُ إلـى «ثقافةٍ تَنْمَوِيّةٍ» في شُمُولٍ وعُمُوميّةٍ؛ فـ«التّنْميـةُ» تَبْدَأُ من الإنْسان وتَنْتَهي عنده؛ ولذا كان مـن الضّـروري أنْ تكون في صُلْبِ ثقافتِه، وفي عُمْقِ تَفْكيـرِه، وأنْ تكون وَقُوداً مُحَرِّكاً لـكُلِّ تفاعُلاتِـه، ومُوَجِّهَةً لكُلِّ اهْتماماتِـه، ودون هذه الحقيقة تَفْقِـدُ «التّنْميةُ» مضامينَها وتَتَخَبَّطُ وَسَائِلَهَا. ومن الغريب أنْ يتعاقب المُتَحدِّثون في المؤتمرات، ويتسابق المَسْؤولون فـي المؤسّسـات التّعْليميّة والثّقافيّة والإعْلاميّة إلى الإشادة بالـدَّوْرِ المِحْوَرِيّ لـ«التّنْمية» في حياة الأُمّة ومُسْتقْبَلِ أجْيالِها، ثمّ تتسابقُ الخُطى، مُنْحَرِفَةً بعيداً عن تَأْصيلِ «العَلاقَةِ العُضْويّة» بين «التّنْمية» و«الثَّقافة» في آفاقِها الفِكْريّة والعِلْميّة والاجْتماعيّة، وقُدْرَتِهَا على تَعْميقِ الانْتِمَاء، وتَحْفيزِ القُدْرات، وشَحْذِ العُقُول، وبَلْوَرَةِ الخِيارات.

قد يَسْتَنْجِدُ بعْضهم بمَقُولَةِ (لا مُشَاحَّة في المُصْطلح)، ولكن هذه المَقُولَةَ السّائِدَةَ فـي «الفِكْـرِ العربيّ» وثقافتِه، وربّمـا الأصَحّ أنْ نقول طريقة تَأْويلِهَـا وتَطْبيقِهَا، هي أحدُ أسْبَـابِ وَهَنِ هذا «الفِكْرِ» وضبابيّةِ ثقافتِـه؛ فالحقيقةُ هي أنّ «المُصْطلح» هو الذي يُبْرِزُ المعانـي، ويُؤصِّلُ الشُّـرُوط، ويُحَـدّدُ الأُطُر؛ ولذا كان أهـمّ أُسُس «الحركـة العِلْميّة» هو اهْتمامُهَا الرّئيسُ بتَحْريرِ المُصْطلحاتِ وضَبْطِهَا بصرامةٍ، وتَحْديدِ التّعْريفاتِ إجْرائيّاً، ممّا جعل إنْجازاتُها تُعانِقُ السَّمَاء. هذه «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ الشَّامِلَةُ» هي ما يُطْلَقُ عليه لؤي

صافـي[١٦] اسْم «الثَّقافة النّاهِضَة» ويَصِفُهَا بأنّها: (مُحَفِّزَةً للهِمَم، مُنيرةً للعُقُول)، وهي في رأْيه: (تتَمَيَّزُ بخصيصَتَيْن رئيسَتَيْن:

١) القُـدْرَةُ علـى توليدِ تضامُنٍ داخِلـيٍّ يَتَمَثَّلُ بتعـاون أَفْرادِ المُجْتمـع النَّاهِضِ وتلاحُمِهِمْ وتَكَامُلِ جُهُودِهِمْ.

٢) القُـدْرَةُ علـى تَحْريرِ الطّاقـةِ الخَلّاقَةِ المُبْدِعَـةِ للفَرْدِ والجماعـة، وبالتّالي تَمْكينهم من تَطْويرِ أدواتِهم وزيادةِ فَاعِليّتِهم).

من المُهِـمّ - إذاً - أنْ نَضْبِطَ مُصْطلحنا «الثّقافيّ - التّنْمَويّ» بحيث يكون لمُصْطلح «الثَّقافـة النّاهِضَــة»، أو مـا نُطْلِقُ عليه هنـا اسْم «الثّقافـة التّنْمَويّة»، مكانـه المَرْمُوق في إسْتراتيجيّاتنــا؛ فعبْر هذا «المُصْطلحِ» الشّامِلِ تُهَيْمِنُ «شُرُوطُ التّنْمية» على طبيعة «الفِعْلِ الثَّقافيّ» بأنْواعِه وأشْكالِه، وتُغَذّي مُنْطلقاتُها «الوَسَطَ المُجْتمعيّ» - فِكْريّاً ومَعْرفيّاً ووِجْدانيّاً - في سَعْيٍ دؤوبٍ لإيجاد «التَّوَازُن» في النَّهْجِ الحياتيّ للإنْسان عبْر تَطْويرِ تفاعُلاتِه، وتَكْثيفِ الاهْتمامِ بطبيعة العَصْرِ وتحدّياتِه، وتَرْسيخِ «ثَوابِتِ الأُمّة» وقِيَمِهَا في صِياغةٍ واعيةٍ تتفاعلُ مع «الزَّمان» و«المكان»، وتَحْترِمُ عَقْلَ المُواطِن، وتَرْعَى مَصَالِحَ الوطن.

٥-٤-٢) «الشَّرْط الثّقافيّ» و«التّنْمية المُسْتَدامَة»:

لقد اهْتَمّتْ «أدبيّاتُ التّنْمية» بـ«تَطْويرِ المَوارِد البشريّة»، ووضعتْ الخُطَطُ الخمْسيّة والعشْريّــة والعشرينيّة هذا «المُصْطلحَ» على رَأْسِ قائِمةِ أولويّاتِها وبرامِجِها، ولكن يَبْقَى هذا «المُصْطلحُ» مُجَرَّداً من دَلالاتِه ومُفَرَّغاً من أبْعَادِهِ إذا أَهْملنا «المَسْأَلَةَ الثَّقافيّة» التي تُشَكِّلُ فِكْرَ الفَرْدِ وقناعاتِه وتوجُّهاتِه ومُمَارَسَاتِه.

إنّ قضيّةَ «نَقْلِ التّقْنية» تُمَثّلُ أبْرز أشْكال الخَلَلِ النّاتِج عن غِيَابِ «الشَّرْطِ الثّقافيّ»؛ فقضيّــةُ «نَقْلِ التّقنية» تُراوِحُ مكانها في العَالَم العربيّ؛ لأنّهــا تَوَقّفَتْ عند شَكْلٍ وَاحِدٍ من أشْكَالِهَا وهو «عمليّة الاسْتِيراد»، ولم تَسْتَوْعِبْ «التَّجْرِبةُ العربيّةُ» طبيعة هذه القضيّة التي يـرى أرغيري إيمانويل (Arghiri Emmanuel) أنّهــا عمليّةٌ ذات ثلاث مراحِل: «مَرْحلة

الاسْتِيراد»، و«مَرْحلة الاسْتِيعاب»، ومن ثمّ «مَرْحلة خَلْقِ التّكْنولوجيا» وهي مَرْحلةٌ لا يُمْكِنُ أنْ تكون إلاّ (مَرْحلةً مَشْرُوطةً بتقدُّمٍ مُسْبَقٍ على الصّعيدين الاجْتماعيّ والثّقافيّ يكون من الأهميّة بحيث يُشَكِّلُ في الوَاقِعِ قَفْزَةً نَوْعيّةً بالنِّسْبَةِ للمَرْحلة الثّانية.. أيْ مَرْحلة الاسْتِيعاب)[٢٢].

أمّا «مَفْهُومُ التّنْمية المُسْتَدامَة»، فهو من أكْثر المفاهيم تداولاً في «أدبيّات التّنْمية» في العُقُودِ الأخيرة[٩]، ولذا فمن المُهِمّ أنْ نَتَوَقَّفَ أمام دَلالاتِهِ الثّقافيّة والاجْتماعيّة وما تَحْمِلُهُ من آثارٍ على تَفْعيلِ المَفْهُوم وتوجيهه وتوظيفه. وبالتَّأَمُّلِ المُتأنِّي سنجدُ أنّنا نَصْطَدِمُ بـ«حَاجِزٍ ثقافيٍّ واجْتماعيٍّ» يُقَيِّدُ الوَاقِعَ العربيّ، ويُحَدِّدُ مدى النَّجاح في التّعامُلِ مع برامج «التّنْمية المُسْتَدامَة» سواءً تَبَنَّيْنَا – على سبيل المِثال – ذلك التّعْريفَ المُبَسَّطَ الذي يَنُصُّ على أنّ: («التّنْميةُ المُسْتَدامَةُ» هي التّنْميةُ المُتَجَدِّدَةُ والقَابِلَةُ للاسْتِمْرَار)[٩]، أو اهْتَمَمْنَا بالعناصر التي قادتْ إلى بُرُوزِهِ في المقام الأوّل وهي «الاعْتبارَاتُ البيئيّةُ» حيث يُهَيْمِنُ الحِرْصُ على تَرْشيدِ اسْتخدامِ «المَوارِد الطّبيعيّة» لضمان بقائِها واسْتِمْرَارِهَا لأجيالٍ مُتتاليةٍ عبْر ما يَصِفُهُ عبد الخالق عبد الله بـ(السّعي الدّائم لتَطْوير نَوعيّة الحياة الإنْسانيّة مع الأخْذِ بالاعْتبار «قُدْرات النِّظام البِيئيّ» الذي يَحْتَضِنُ الحياة وإمْكاناتِها)[٩].

إنّ هذا «الحَاجِزُ الثّقافيّ والاجْتماعيّ» ليس وَقْفاً فقط على «المُجْتمعات النّامية»، ولكنّه – أيضاً – حقيقةٌ مَلْمُوسَةٌ في «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» وإنْ كانتْ له خصائص أُخْرى وطبيعةٌ مُخْتلفة؛ فعندهم برز هذا «الحَاجِزُ» نتيجةً لقُدْرَاتٍ مُتناميةٍ في اسْتِغْلالِ «المَوارِد الطّبيعيّة»، وتَمَدُّدِ رُقَعِهِمْ الصّناعيّة، وتَطَوُّرِ إنْجَازَاتِهِمْ التّقنيّة، وتَنَامِي «الرَّغْبَة الاسْتِهْلاكيّة» التي أَسْقَطَتْ من حِساباتِها «قُدْرَاتِ البيئة» على تَحَمُّلِ ذلك الإنْتاج الغزير والاسْتِهْلاك المُتعاظِم حيث كانتْ النَّظْرَةُ المُهَيْمِنَةُ هي أنّ البيئة «مُجَرَّدُ وسيلةٍ لتَحْقيقِ التّنْمية»[٩] دون مُراعاةٍ لأيِّ ضَرَرٍ بيئيّ.

وأمّا «الحَاجِزُ الثّقافيُّ والاجْتماعيُّ» الذي يتصدّى لمَفْهُوم «التّنْمية المُسْتَدامَة» في «المُجْتمعات العربيّة» فيَنْبَثِقُ عن سُؤَالٍ ثقافيٍّ مَحْضٍ يَفْرِضُ نفسه إزاء «التّعْريف

التّنْمَـويّ» الـذي يَهْتَمُّ بقُـدْرَاتِ «النِّظَامِ البيئيّ» علـى احْتِضَانِ الحيـاة وإمْكاناتِها ليكون السُّـؤالُ على النَّحو التَّالي: (ومـاذا عن «قُدْرَاتِ الإنْسان» الذي يُعْتَبَرُ الوسيلة والغاية فهو الـذي يَحْتَضِنُ «التّنْمية» بأسْرِهَا، ويَصْنَعُ مُقوِّمَاتِها، ويُوَجِّـهُ آليَّاتِهَا، ويَقْطِفُ ثِمَارَهَا؟)؛ فـإذا كنّـا نَسْتطيع، من تَعْريفـات «التّنْمية المُسْتَدَامَـة»[٩،١١]، أنْ نَصِـفَ «النِّظَامَ البيئيّ المُسْتَـدَامَ» بأنّه: (النِّظَامُ الـذي تتعايشُ كُلُّ عناصِرِهِ في تَوَازُنٍ قَـادِرَةً على إنْتاج ذَوَاتِهَا ومُقَوِّمَاتِهَـا وتفاعُلاتِهـا)، فإنّـه - إزاء الـدَّوْرِ الجوهريّ للإنْسـان في تَحْقيـقِ «التّنْمية المُسْتَدَامَة» وتَمْكينِها - يَبْرز عُنْصُران لا مناص منهما:

١) قُـدْرَةُ الإنْسان على التَّجاوبِ مع «المَنْظُومَةِ التّنْمَويّـة»، والتّفاعُلِ مع مُقَوِّمَاتِهَا في تَـوَازُنٍ، والانْسِجَام مـع مُقْتضياتِها الفِكْريّة والحياتيّـة والثّقافيّة والبيئيّة، والتَّكَيُّـفِ مع شُرُوطِهَـا العِلْميّة والعمليّـة، وتَحْقيقِ الكفاءَة فـي تَطْويرِ أدواتِها وتوظيفِ مُعْطياتِها على الصَّعيدِ المحلّي المُباشِر.

٢) انْسِجَـامُ «المَنْظُومَـةِ التّنْمَويّة» ذاتِها مع قِيَمِ المُجْتمـع ومُعْتقداتِه ومُمَارَسَاتِه لتجِـد لها على أرْضِ الوَاقِعِ الحياتيّ سَنَـداً ودَعْماً ومُنْطَلَقـاً لتَعْزيزِ مكانتِها، وتَعْظيمِ دَوْرِهَا، وتَفْعيلِ آليّاتِها.

مـن المُهمّ أنْ نُدْرِكَ، عنْد التّعامُـلِ مع «العُنْصُرِ البشريّ»، أنّ القضيّةَ ليست قضيّة تَعْليـمٍ وتَدْريبٍ وتَأْهيلٍ فقط، بَلْ هي أَعْمق من ذلـك بكثيرٍ؛ فقد تتساوى معاييرُ الدِّراسة الأكاديميّـة، وتتوافقُ عناصِرُ التّأْهيـل، وتَتَّحِدُ مُكَوِّنَاتُ التّدْريـب، ولكن الأداء في «الدُّول المُتَقدِّمَـة» يَبْقَـى أعْلى بكثيرٍ من الأداء في «الدُّول النّامية» كمـا أَثْبتَتْ التّجاربُ وحقائِقُ الوَاقِـع؛ ولـذا تَسْتَمِرُّ الفَجْوَةُ قَائِمَـةً - إنْ لم تَزِدْ اتِّساعاً - بالرّغْم مـن اسْتِمْرَارِ تَحْديثِ البرامِـج والتّجْهيـزات في «الدُّول النّاميـة»، ممّا يَجْعَلُنَـا نَقِفُ أمام وَجْهٍ بَـارِزٍ من أَوْجُهِ «إشْكَاليّة التّنْمية» المُسْتَفْحِلَة على مدى عُقُودٍ في العَالَمِ العربيّ.

هـذه الحقائِـقُ تعودُ بنا من جديدٍ إلى تلـك «القضيّة الغَائِبَة» وهـي قضيّةُ «الثقافة التَّنْمَويّـة» التـي تُصْبِحُ فيها «التّنْمية» قِيمَـةً ثقافيّةً وفِكْريّةً ومَسْلكيّـةً واجْتماعيّةً لتتحقَّقَ

شُرُوطُ «البيئة الصّالِحَة»، ولتَصْنَعَ «الوَسَطَ الفعّالَ» لتَنْمية طاقاتٍ وقُدْراتٍ بشريّةٍ تَحْتَرِمُ مهنها، وتُطوِّرُ مهاراتها، وتَهْتَمُّ بالإتْقان، وتَتَحَلّى بأخْلاقيّاتِ العمل، وتَحْرِصُ على الإنْجاز، وتُوَظِّفُ - بكفاءَةٍ - الإمْكانات والمَوارِد. ولأنّ «الثّقافة» فِكْرٌ ووَعْيٌ وتفاعُلٌ وسُلُوكٌ يَطْبَعُ عَقْلَ الإنْسان، ويُحَدِّدُ خياراته، ويَشْحَذُ وِجْدانَه؛ فإنّ المَطْلوب هو «ثقافةٌ تَنْمويّةٌ» تَنْتَشِرُ عبْرَ نسيجِ الوطن، وتَتَغَلْغَلُ في خلايا المُجْتمع لتَرْقى بالمدارك، وتَرْفَعَ من القُدْرات، وتَرْبُطَ المُواطِنَ بقضاياه، وتَدْفَعَ بمُخْتلف الشّرائح والطّبقات إلى مساراتٍ فاعِلَةٍ من التّجانُسِ والحِوار، وإنْ تباينتْ وِجْهاتُ النَّظَر، وتعدَّدَتْ وسائلُ الأداء. ومن الضّروريّ أنْ تَتَمَتَّعَ «الثّقافةُ التّنْمَويّةُ» بديناميكيّةٍ تَجْعَلُ منها تفاعُلاً نَشِطاً على امْتداد ساحة الوطن، وفي كُلِّ مَواقِعِه، لتَخْرُجَ من لازمَةِ «المُثقّف النُّخْبَويّ»، وتُحَرِّكَ البُنى التّنْمويّة والمَوارِد البشريّة لتَحْسينِ المُسْتويات المعيشيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والتّعْليميّة، فتُقَاسُ كفاءَةُ «المُثقّف» وعطاؤه بقُدْرَتِه على الالْتِحَام بوَاقِعِ الجُمْهور، والتّعامُلِ مع تحدِّياتِ المَرْحلة.

إذاً لكي تَتَحَقَّقَ أهمّ شُرُوطِ «التّنْميةِ المُسْتَدامَة» من النّاحيةِ البشريّة والفِكْريّة والمُجْتمعيّة، فإنّ على «الثّقافة» أنْ تَحْتَضِنَ النّاسَ في منازِلِهم ونواديهم ومدارِسِهم وجامعاتِهم وأعْمالِهم، وأنْ تكون غايتُها الالْتِحَامَ مع حيواتِهم ومُشْكلاتِهم وهُمُومِهم، والرُّقيّ بوَعْيِهِم وعطائِهم؛ ليتناغم كُلُّ ذلك مع ظُرُوفِ زمانِهم وتحدِّياتِ عَصْرِهم، فتَتَحَوَّلُ بذلك «الثّقافةُ» إلى جُهُودٍ مُلازِمَةٍ لمُخْتلف مُتطلّبات الحياة، ونشاطٍ دؤوبٍ يَنْحَتُ في قِوَامِ الوطن لتَشْكيلِ الرُّؤى، وتَحْفيزِ القُدْرات، وتَطْويرِ السُّلُوكيّات، وتَعْميقِ الانْتِماء.

وأمّا العُنْصُرُ الثّاني من شُرُوطِ «التّنْمية المُسْتَدامَة»، المُتَمَثِّلُ في تَحْقيقِ «التَّجانُسِ الثّقافيّ» بين المُجْتمع وعَصْرِه، فيَكْمُنُ في رُؤىً وتوجُّهاتٍ قَادِرَةٍ على رَبْطِ المُواطِن بقضاياه عبْر التَّواؤم والحِوار وتَفْعيلِ نَمُوذَجِ «التَّوَافُقِ التّنْمَويّ»، الذي طرحناه في الفَصْلِ الرّابع، فقد اتّضَحَ أنّ أبْرز مَثالِب «الحَداثَة العربيّة» أنّها تَمَثَّلَتْ حَداثَتَهَا في إعْلان الحَرْب على الأُطُرِ الضّابِطَةِ في مُجْتمعها، واسْتِفْزازِ شَرَائِحِهِ المُحافِظَة، والتّمَرُّدِ على «المَنْظُومَةِ الفِكْريّة والقِيميّة»، وبذلك اسْتَعْدَتْ قطاعاتٍ وَاسِعَةً ومُتناميةً في مُجْتمعاتِها؛ وبطبيعة الحال، ليس من المُتَوَقَّعِ أن يُنْتِجَ مثْل ذلك التَّوجُّه الاسْتِفْزازيّ اسْتِقْراراً مُجْتمعيّاً

يُسْهِـمُ في تَطْويرِ المَوارِد البشريّة والطّبيعيّـة، ويُنَمّي البُنى التّحتيّة والهياكِل التّنْظيميّة، ويُؤَسِّسُ لفِكْرٍ نَاضِجٍ في التّعامُلِ مع قضيّة «التّنْمية المُسْتَدامَة».

٥-٤-٣) مَأْزِقُ المُصْطلح و«الإنسانُ الجديد»:

لقـد وَقَعَتْ المؤتمرات والنّدوات والدِّراسات - في العَالَم العربيّ - في مَأْزِقِ تَعْريف مُصْطلـح «الثّقافـة»، ولا ضَيْرَ مـن تلك المُحـاولات، لو أنّهـا خَلَصَتْ إلى تَعْريـفٍ يَدْفَعُ بقضيّة «الثّقافة» إلى فضاءٍ حيويٍّ يتفاعلُ مع مُشْكلات المُجْتمع، ويُحَقِّقُ شُرُوطَ «التّنْمية المُسْتَدامَـة»، ويَتعـرَّفُ على «رُوحِ العَصْـر»، ويَسْتَوْعِبُ حَقَائِقَهُ ومُقَوِّمَاتِـه؛ ولكن يَبْدُو أنّ «مُشْكلـة المُصْطلـح» ما زالتْ تَتَرَنَّحُ فـي قَوالِبِهَا التّقْليديّة الاجْتِراريّـة لتُصْبِحَ «الثّقافةُ» مُجَرَّدَ تَـرَفٍ تُمَارِسُهُ «المُجْتمعات العربيّة»، وتَتَسَلّى به في سُويعاتِ الأُنْسِ وليالي السَّمَر، ولتتبنَّى ذلك الوَاقِعَ الذي أَحْسَنَ زكي نجيب محمود في وَصْفِهِ عندما قال: (كَمْ من كَاتِبٍ يَكْتُـبُ ليُسَلّي وكأنّه النَّديم في مجال الطَّرَب، وكَمْ من مُتَحَدِّثٍ يَتَحَدَّثُ تَجْميداً للحركة لا تَحْريـكاً للسُّكُون؟)[٢٠]. وأمّا عندما يرى لؤي صافي[١٦] أنّ: («حركة التّنْمية» تَتَوَقَّفُ على توفُّـرِ مَجْمُوعَةٍ من الشُّرُوطِ الثّقافيّة والاجْتماعيّـة)؛ منْها: (تَوَجُّهُ سُلُوكِ أفْرادِ المُجْتمع نحو الإنْتاج بنَوْعَيْهِ الفِكْريّ والمادّيّ)، ومنْها: (ظُهُورُ حركةٍ فِكْريّةٍ وعِلْميّةٍ نَاشِطة)، فإنّنا نَقْتَرِبُ هنا - بشَكْلٍ عَامٍّ - من مَفْهُومٍ لـ«الثّقافة» ذي «فَاعِليّةٍ اجْتماعيّةٍ» ودَوْرٍ حيويّ.

مـن هنا نَسْتطيـع أنْ نَفْهَمَ الدّلالاتِ العميقة الكَامِنَةِ فـي المَفْهُوم الذي أَسْمَاهُ زكي نجيـب محمود «الإنْسان الجديد» حيث كتب يقـول: (قضيّةُ بِنَاءِ «الإنْسان الجديد» قضيّةٌ من قضايا «التَّحْويل» التي تَتَطَلَّبُ «سياسةً» لا تجيء من رِجَالِ السِّياسة بالمَعْنَى المَعْروف لهـذه التّسْمية، لأنّ مِثْـلَ هذا «التّحْويل» في بِنَـاءِ الإنْسان لا يكـون إلاّ إذا تَغَيَّرتْ وِجْهَاتُ النَّظَـرِ واتِّجاهاتُ السَّيْرِ والأَهْداف)[٢٠]. وأمّا مـا يُطَالِبُ به حَشْدٌ من الكُتّاب والمُثقّفين حـول ما اشْتَهَرَ باسْـم «المُنَاخ العِلْمـيّ»، فإنّ من أبْـرز مُتطلّباته شُرُوطـاً يَصِفُهَا زهير الكرمـي بقوله: (وحتّى يكون هناك «مُنَاخٌ عِلْمـيٌّ» في مُجْتمعاتِنا يَتَحَتَّمُ أنْ تكون لـ«العِلْم» مكانَتُـهُ المَرْمُوقَـةُ في نُفُوسِ النّاس، ويجـب أنْ يَحُسَّ كُلُّ فَرْدٍ فـي المُجْتمع، وعلى جميع

درجـات المَسْؤولية، بأهميّة «العِلْم» وخطَره، وأنْ يكون هناك اسْتِعْدَادٌ نَفْسيٌّ وفِعْليٌّ لتقبُّلِ نِتَاجِ «البَحْثِ العِلْميّ» وتَأْثيراته في حياة النّاس من جميع وجوهِها) [٧٧].

خُلاصَــةُ القول، إنّه إذا كان (مِعْيارُ «التّنْميــة» الحقيقيّ هو الكفاءَةُ والفَعَّاليّة) [١٢]، فإنّنــا حَتْماً سنَحْتَاجُ إلى «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» قَادِرَةٍ على توفيرِ الدَّوافِعِ والحَوافِزِ والاهْتماماتِ والتّوجُّهـاتِ والمُمَارَسَاتِ التــي تَسْتطيع أنْ تُحوِّلَ المُجْتمع إلى خَليّــةٍ نَشِطَةٍ وبَوْتَقَةٍ فَاعِلَةٍ عبْــر إحْدَاثِ تلك التّراكُمات التّدْريجيّة فــي التّجارِب والقناعات والتّفاعُلات، فكما يقولُ زكــي نجيب محمود [٢٠]: (لا تَحْدُثُ الثّــوْرَةُ الفِكْريّةُ - بمعْنَى إحْلال مَجْمُوعَةٍ من المبادئ النّظريّــة محلّ مَجْمُوعَةٍ أُخْرى - دُفْعَةً وَاحِــدَةً، أو على الأقلّ إنّ مِثْل هذا التّغيُّر المُفاجئ لطريقــة التّفْكير لم يَحْــدُثْ خلال التّاريخ، وإنّمــا تَتِمُّ الثَّوْرَةُ الفِكْريّةُ بتحــوُّلاتٍ تدْريجيّةٍ تَنْقُــلُ النّاس شيئــاً فشيئاً من نَمَطٍ فِكْريٍّ قديــمٍ إلى نَمَطٍ آخَر جديــد)، ويُواصِلُ ليقول: (وعقيدتــي هي أنّ ثَوْرَةً فِكْريّةً كهــذه لم تَحْدُثْ لنا خلال هذا القَرْن كلّه، برغم التّغيُّرات الكثيــرة والمُهمّة، التــي طَرَأَتْ على صُورة الحياة، وذلك لأنّ النّمَــطَ الفِكْريَّ القديمَ باقٍ كما كان دائماً، والعجيب الذي يُلْفِتُ النَّظَرَ هو أنّ الفَجْوَةَ الكَائِنَةَ بين ذلك النَّمَطِ الفِكْري مِــن جِهَةٍ، وتَفْصيلاتِ الحياة الجديدة من جِهَةٍ أُخْــرى، لا تُحْدِثُ فينا شيْئاً من القَلَقِ أو التَّوَتُّر، الذي لو حدث، لحَفَّزَنَا إلى سَدِّ الفَجْوَةِ بالمُلاءَمَةِ بين المبادئ العامّة وتَفْصيلات الحيــاة العمليّة). وأمّا عندما يــرى محمد عابد الجابري بأنّ: (الخِطَابُ العربيّ الحديث والمُعَاصِرُ كان في جُمْلَتِه، ولا يزال، «خِطَابَ وِجْدَانٍ» وليس «خِطَابَ عَقْل») [٦٧]، فإنّ ذلك يَعْنِــي أنّ الحاجــة مَاسّةٌ إلى إحْدَاثِ «نَقْلَةٍ نَوْعيّةٍ» في «الخِطَــاب العربيّ» تُغَيِّرُ خصائِصَه مِــن «خِطَــابِ وِجْدَانٍ» إلى «خِطَابِ عَقْــلٍ»؛ ففي نهاية المطاف هذه «النَّقْلَــةُ النَّوْعيّةُ» هي الأهمّ في حيــاة الأُمّة، وهي الضّروريّة لحَلِّ إشْكالاتِها المُتَفاقِمَة؛ لأنّ ذلك التَّحَوُّلَ يَعْنِي، وِفْق المَقُولَةِ الشّكسبيريّة المَشْهُورَة،: (أنْ نكون أو لا نكون).

كُلّ هــذه الحقائِق تَفْرِضُ على «المُجْتمعات العربيّــة» تَلَمُّسَ طريقها - بحِكْمةٍ - في عَالَــمٍ يموجُ بالتّحدّيات والمُفَارَقــات، وتَخْتَلِطُ فيه الأوراق من كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، وتتداخَلُ فيــه الأَطْيافُ الفِكْريّة من كُلِّ لــونٍ وصِنْفٍ، ونَتَّفِقُ بالضّرورة هنا مع عبد الله عبد الدّائم

وهــو يَخْلُصُ إلى نتيجةٍ مُهِمّةٍ وهي أنّ: (أيّ حديثٍ عن دَوْرِ المُثقّفين في المُجْتمع العربيّ حديـثٌ لا مَعْنَــى لــه ولا طائِل وراءه إنْ لــم يَعْنِ تَعْبئَــة الطّاقة الثّقافيّة مــن أجل القضاء علــى التّخلُّفِ ومن أجـل بِنَاءِ مُجْتمعٍ عربيٍّ جديـد) [١٨]. ولذا فإنّ من المُهِــمّ أنْ نَحْرِصَ على «توجيــه الثّقافة» نحو أغْرَاضٍ تَنْمَويّةٍ فَاعِلَة، وإشْرَاقَــاتٍ فِكْريّةٍ مُضيئةٍ، ومُمَارَسَاتٍ إنْتاجيّةٍ مَلْمُوسَةٍ، وتَوَجُّهَاتٍ عَقْلانيّةٍ هَادِفَةٍ، وتأسيس ذلك «الإنْسان الجديد» القَادِرِ على اسْتيعــاب تحدِّيات زمنه؛ وبذلك تَتَحَرَّكُ «القَافِلَــةُ الثّقافيّةُ» في اتِّجَاه «سَهْمِ الزَّمن» عبْر «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» نَشِطَــةٍ، ويَتَقلَّصُ تأثيرُ ما وَصَفْنَاهُ بمُحاولاتٍ بَهْلوانيّةٍ تَسْعَى إلى أنْ تعيش «الثّقافة العربيّة» دَاخِلَ «الزَّمن» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِد.

٥-٤-٤) «الثّقافة التّنْمَويّة» والمعارِف الإنْسانيّة:

مــن الخصائِصــ الأساس لـ«الثّقافــة التّنْمَويّة» أنّهــا تَحْتَضِنُ كُلَّ أنْمَــاطِ المعارِف الإنْسانيّــة، والأبْعَــادِ الوِجْدانيّــة، والإبْداعــاتِ الفنيّــة، والاهْتماماتِ الثّقافيّــة؛ فتتفاعل جميعها - في حيويّةٍ - مع ضَروراتِ «التّنْمية» وتحدِّيات «العَصْر» عبْر جَعْلِ «ثقافة العلوم والتّقْنيــة» مُكَوِّناً عُضويّاً من مُكَوِّنَاتِ «الثقافة»، فتكون «الحركةُ التّنْمَويّةُ»، بكُلِّ مُعْطياتِها وضَوابِطِهَــا ومُقْتضياتِها، هَاجِســاً مُقيماً يَحْتَــلُّ مِساحتَه وأولويّتَه في الجُهُــودِ الثّقافيّة، والاهْتماماتِ الفِكْريّة، والإبْداعاتِ الإنْسانيّة.

يُخْطِــئُ من يَعْتقد أنّ احْتِضَــانَ «الحركة العِلْميّة - التّقنيــة» بصفتها أولويّةً في حياة المُجْتمعات، والحِرْصَ على اسْتِنْبَاتِ «الثّقافة العِلْميّة» في تُرْبَةِ «الثّقافة العربيّة» المُعَاصِرَة، يَحْملان تَهْميشاً أو انْتقاصاً من قَدْرِ «الآداب والعلوم الإنْسانيّة»؛ فهذه العلوم جُزْءٌ جوهريٌّ مــن «الفِكْرِ البشــريّ» وتفاعُلاتِه ومُتطلَّباتــه، وإيقاعُ الحيــاة المُعَاصِرَةِ يَفْرِضُ الاهْتمام بمُخْتلــف أنْواع العلوم والآداب والفنون واحْتِضَانِ الشِّقَّيْــن الرّئيسَيْن في النّشاط البشريّ: «العِلْمــيّ» و«الإنْسانيّ»، وما يَنْجُمُ عنهما مــن تفاعُلاتٍ ومُزاوَجَاتٍ وتلاقُحات. أمّا الحقيقةُ البدهيّــةُ فهــي أنّ «الآداب والعلوم الإنسانيّة» في حاجةٍ إلى بِيئةٍ مُزْدَهِرَةٍ تَتَّسِعُ فيها الآفاق، وتَتَهَيّــأ الوسائِــل، وتَتَعَدَّدُ الفُرَص، وتَتَنَوَّعُ المُعْطيات، وتَتَوَفَّــرُ الإمْكانات؛ وكُلُّ هذا حَتْماً لن

يَتَحَقَّقَ إلاّ بـ«حركةٍ عِلْميّةٍ – تقنيّةٍ» تَدْفَعُ نحو الإنْتاجيّة، وتَسْتَكْشِفُ الفُرَص، وتَصْنَعُ أدواتِ «التّنْمية»، وتُنَوِّعُ مصادرَ الدَّخْل، وتَفْتَحُ آفاق الاسْتثمار، وتُطَوِّرُ أحْوال المُجْتمع.

إنّ اعْتمـاد «العلوم الإنْسانيّة» على مُعْطياتِ «العلـوم الطَّبيعيّة» أمْرٌ لا مَفرّ منه؛ لأنّ «البِنْيَـةَ التّحْتيّة» لـ«مُجْتمـع المَعْرفَة» هي «بِنْيَـةٌ عِلْميّةٌ – تقنيّـةٌ»[٧٨]؛ فالعَصْرُ هو عَصْرُ «العلـوم والتّقْنيــة»، والهَيْمَنَةُ الفِكْريّة والاقْتصاديّة والثّقافيّـة والعَسْكريّة والإعْلاميّة هي لمــن يُنْتجُ أدواتـه، ويُطَوِّرُ مُعْطياته، ويُوَظِّفُ مَـوارِدَه؛ فـ«العِلْمُ والتّقنيــةُ» – شِئْنا أمْ أبينا – يُشَـكِّلان المُجْتمعات الحديثة، ويُعْتَبَران «النّواةَ الحقيقيّــة» للتّغْيير والتّطْوير والإنْتاج، ويُشَيِّـدَان «البِنْيَةَ التّحْتيّةَ» لبيئةٍ مُنْتِجَةٍ تَزْدَهِرُ في أرْوِقَتِهَا «الآداب والمعارِف الإنْسانيّة»، وتُطَـوِّرُ فــي رِحَابِهَا إبْداعاتِها المُتَنَوِّعَة. لا شَكّ في أنّه دون تلـك «البِنْيَةِ التَّحْتيّة» العِلْميّة والتّقنيّــة، ودون ذلــك التّأْسيس المَعْرفـيّ المُعَاصِـر، فـإنّ كُلَّ المُنَظِّريـن والفلاسفـة وأصْحـاب «التّخصُّصات الإنْسانيّة» سيسيرون علــى خُطَى شَاعِرِنَا الذي وجد أنّ رَضِيعَهُ إذا بَلَغَ الفِطَامَ (خَرَّتْ له الجبابِرُ سَاجِدِينَا)، وهم سيُعانِقُون «الوَهْمَ» الذي جعل صاحِبَنا يَعْتقـد أنّ غيرنــا (يَشْرَبُ كَدَراً وطِينَا). وأمّا ما هو أكْثر مــن ذلك فإنّ العَارِفين بحقائق العَصْـر يُدْرِكُـون أن مُصْطلحات «العلوم الطّبيعيّة» وأدواتِها قد غَـزَتْ كُلَّ جَوانِبِ «الفِكْرِ الإنْسانــيّ» لتُعِيـدَ قَوْلَبَـةَ أفْكارِه وصِياغَـةَ تصوُّراتِــه وأساليبه في النّقْـدِ والتّحْليلِ بحيث أَصْبَحَــتْ «المعارِفُ الإنْسانيّةُ» تَعْتَبِرُ نَفْسَهَا «عِلْميّــةً» بقَدْرِ ما تَقْتَرِبُ من «المَنْهَجِ العِلْميّ – التَّجْريبيّ»، وبقَدْرِ ما تُوَظِّفُ مُصْطلحاتِه وأدواتِه في نِطَاقِ ما تَسْمَحُ به خصائِصُ تلك المعارِف وظُرُوفُهَا ومُتَغيِّراتُهَا ورَكَائِزُهَا.

مــن هذه المُنْطَلقــات الوَاقعيّة والعمليّــة والفِكْريّة والمَنْهَجيّة كانــتْ الدَّعْوَةُ لأولويّة «العلوم والتّقْنية» تَأْتي – غَالباً – من أصْحاب «التّخصُّصات الإنْسانيّة» أنفسهم؛ لإدْرَاكِهِمْ أنّ ازْدهــار مُجْتمعاتِهم ومَصَالِحِهِمْ المُبَاشِرَةِ تَكْمُنُ في «بِيئةٍ نَشِطَةٍ» ذات إنْتاجيّةٍ فَاعِلَةٍ قَـادِرَةٍ على تَأْميــنِ مُتطلّباتِ الرّفاهية والحياة الرّغيدة، وتوليـدِ مجالاتٍ فسيحةٍ وفُرَصٍ مُتَنَوِّعَةٍ في فِعْلٍ تراكُميٍّ مُتلاقِحٍ تَنْمُو مُتطلَّباتُه، وتَتَّسِعُ احْتياجاتُه، وتَنْتَشِرُ عناصِرُه، ليجد أصْحابُ «التّخصُّصات الإنْسانيّة» في دَاخِلِهِ فُرَصَهَمْ الوظيفيّة والتّطْويريّة والإبْداعيّة.

أمّـا الوَجْهُ الآخَرُ للعُمْلَةِ الحياتيّةِ، فهو ضَـرورةُ «التَّكامُلِ المَعْرفيّ - الإبْداعيّ» بين «العلوم الطَّبيعيّة» و«العلوم الإنْسانيّة»؛ فأبْعَادُ الحياة المُتَنوِّعة وتَعْقيداتُ العَصْرِ المُتنامية تَفْرِضُ - بالضّرورة - أهميّة التّفاعُلِ الإيجابيّ والتَّضافُرِ المَعْرفيّ بين «العلوم الطَّبيعيّة» و«المعـارِف الإنْسانيّـة» في رُؤىً مُعَاصِـرَةٍ تَفْهَمُ خصائِصَ «الزَّمن» بحصافَـةٍ، وتُعالِجُ إشْكاليّاتِه بحيويّةٍ، وتتصدَّى لتحدّياتِه بعُنْفوانٍ؛ ولذا تَكْتَظُّ «المُجْتمعاتُ المُتَقدِّمَةُ» بجُهُودِ البَاحِثيـن والعَامِلين - في مجـالات العلوم الاجْتماعيّة والدِّراسـات اللغويّة وتخصُّصات التّربيـة والاقْتصـاد والإدارة والسّياسـة - وهم يسعون حثيثـاً لِدِرَاسَةِ الطُّـرُقِ المُخْتلفةِ والمُلائِمَـةِ لإيجاد مَشْرُوعاتٍ وبَرَامِـجٍ وتخصُّصاتٍ تَدْمُجُ العلـوم الطّبيعيّة والتّطْبيقات التّقنيّـة والمفاهيـم الحياتيّـة المُعَاصِرَةَ ضمْـن تفاعُلاتِهـم الأكاديميّـة، واهْتماماتِهم البَحْثيّة، وفعّاليّاتِهم المُجْتمعيّة.

مـن نَافِلَةِ القـول إنّ العَلاقَةَ الحميمةَ بين «العلوم الطَّبيعيّـة» و«المعارِف الإنْسانيّة» تَنْبَثِـقُ - تِلْقائيّاً - مـن مُقوِّمَاتِ الإنْسان العَقْليّة والوِجْدانيّة والحياتيّة، ولذا فإنّ المُجْتمع المُزْدَهِـرَ هو ذلـك الذي يَسْتطيـع أن يُحَلِّقَ - فـي تَـوازُنٍ وتَنَاسُقٍ - بجَنَاحَيْـهِ، «العلوم الطَّبيعيّـة» و«المعارِف الإنْسانيّة»، اللذيـن يتشكَّلان من كُلِّ صُنُوفِ العلوم وأنْواعِ المَعْرفة واجْتهاداتِ البشر، ولن يَسْتطيع الجَنَاحَان أنْ يُحَلِّقَا في أجْوَاءِ الإبْداعِ والإنْجازِ إلاّ بتَوَافُرِ «مَصْدَرِ الطَّاقة» الذي يُحَرِّكُهُمَا ويَدْفَعُهُمَا، وهو - بالضّرورة - يَكْمُنُ في «العلوم الطَّبيعيّة» وتَطْبيقاتِها، وبدونه لن يَسْتطيع الجَنَاحَان أنْ يَخْفِقَا، وسيَبْقيَان عِبْئاً على «جَسَدٍ له خُوارٌ» مُتَهَالِكٍ لا يَسْتطيعُ دَفْعَاً ولا صَدّاً.

مـن نَافِلَةِ القول - أيضاً - أنْ لا بُدَّ لـ«الثَّقافـة التَّنْمَويّة» أنْ تَنْتَمِيَ إلى ذلك الصِّنْفِ مـن «الثَّقافة» الـذي وَصَفَهُ عبـد الله عبد الدائـم[18] بأنّه: (ثقافـةٌ جَادّةٌ تُقَـدِّمُ لأبْناء المُجْتمع على مُخْتلف مُسْتوياتهم أجْوبةً وَاقِعيّةً عن مُشْكلاتِ حياتهم وأمْرَاضِ مُجْتمعهم ومَطَالِـبِ مُسْتَقْبَلِهِم)، وفـي الوَقْت نفْسه فإنّ هذه «الثّقافـةَ المُلْتَزِمَةَ بهُمُومِ المُجْتمع» لا يُمْكِـنُ لهـا - بطبيعتِها وغاياتِها - أنْ تُهْمِلَ الجماليّـاتِ والمَشَاعِرَ والوِجْدان، وهي بذلك تَنْسَجِمُ مع ما طالب به عبد الله عبد الدائم بضَرورة أنْ لا يُهْمِل المُثقَّفون: (ألْوان الثَّقافة

المُتَنَوِّعَة التي تُغَذِّي الإحْسَاسَ بالجمال وتُغْنِي المَشَاعِرَ الإنْسانيّة على اخْتلاف أنْواعِها، وتُفَتِّقُ الخيالَ الذي هو شَرْطٌ من شُرُوطِ الإبْدَاع). وأمّا في نهاية المطاف، كما يُؤَكِّدُ عبد الله عبد الدائم[١٨]، فإنّ: (في وَسْعِ «الثَّقافة الرَّفيعة»، أيّاً كان الموضوع الذي تُعَالِجُهُ أنْ تُقَدِّمَ زاداً فِكْريّاً وعَاطِفيّاً وجماليّاً هو بحقٍّ من أهمّ مَواقِد التَّغْيير الاجْتماعيّ، ومن أبْرز وسائِل الرَّبْطِ بين تَفْتيحِ الإنْسان وتَفْتيحِ المُجْتمع). وأمّا الحقيقةُ التي لا مِرَاءَ فيها فهي أنّه عندما تَنْصَهِرُ المعارِفُ الإنْسانيّةُ والدِّراساتُ الأدبيّةُ والاهْتماماتُ الفنيّةُ والرُّؤى المُجْتمعيّةُ في بَوْتَقَةِ «الثَّقافة التَّنْمَويّة»، فإنّها تَدْخُلُ عَصْرَهَا، وتُغَادِرُ أطْلالَهَا، وتقومُ بدَوْرِهَا الحيويّ في تَشْكيلِ الوِجْدَانِ وتَجْييشِ العَاطِفَةِ وتَقْويم الفِكْرِ للتّعامُلِ الفَعَّالِ مع قضايا المُجْتمع وتحدِّياته في تفاعُلاتٍ وإبْداعاتٍ تتلاقحُ مع التَّغَيُّرَاتِ المُتَسَارِعَة، وتُحَفِّزُ على «العمل الجماعيّ» في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزّمن التَّنْمَويّ» فتَحْمِلُ – في حَرَاكِهَا – رَائِحَةَ زَمَنِهَا، وضَوْضَاءَ حضارتِها، وعَرَقَ عَصْرِهَا.

لا شكّ في أنّ أبْرز ما يُمَيِّزُ «الثَّقافة التَّنْمَويّة» هو ما وَصَفَهُ زكي نجيب محمود بـ«الفيروس العَقْليّ» الذي يَتَجَلّى في تلك: (الرَّغْبَة الحَارِقَة عند الإنْسان في أنْ يَعْمل، وأنْ يظلَّ عملُه يَزْدَادُ، فتَزْدَادُ ثِمَارُهُ كَثْرَةً في الكَمِّ وتَجْويداً في الكَيْف: هي شَرْطُ التَّقَدُّم الحضاريّ عند الفَرْدِ وعند الجماعة)[٢٠]؛ وبهذا تَتَمَكَّنُ «الثَّقافةُ التَّنْمَويّةُ» من «الاسْتِجَابَةِ» الفَاعِلَةِ للتحدّياتِ المُعَاصِرَةِ في «المُجْتمعات العربيّة»، وتكونُ قَادِرَةً على اسْتِفْزَازِ ذلك القَلَقِ المُتَجَدِّدِ والتَّوَتُّرِ الحيويّ الدَّافِعَيْن نحو تَغْييرِ الوَاقِع، وتَطْويرِ الإمْكانات، والقَضَاءِ على عناصِرِ التَّخَلُّفِ ومَكَامِنِ الضَّعْف.

وهكذا نجدُ أنّ «الثَّقافة التَّنْمويّة» لا تُعْنَى فقط بالماديّات والتّقْنيات والعلوم الحديثة والتَّأْصيل العَقْلانيّ، وهي لا تَعْني بحالٍ رؤيةً مُنْتَقِصَةً لـ«المعارِف الإنْسانيّة»، ولا تُكَرِّسُ ازْدِرَاءً للآداب والأنْشطة الفنيّة، وهي لا تُلْغِي الحِسَّ الجماليّ والعُنْفوانَ الوِجْدَانيّ؛ فكُلُّ ذاك أمْرٌ مُسْتحيلٌ ومُنَاقِضٌ للفِطْرَةِ البشريّة؛ فالأدبُ والاهْتماماتُ الإنْسانيّةُ والحماسُ العَاطِفيُّ والانْطلاقاتُ الوِجْدَانيّةُ بأشْكَالِهَا المُتنوِّعةِ وامْتداداتِها الخِصْبَة؛ كُلُّها جُزْءٌ جوهريٌّ من تَجْرِبَةِ الإنْسان أينما كان، وهي في «العَقْلِ العربيِّ» أشَدُّ الْتِصَاقاً وأقْوى مَكَانَةً.

إنّ «الثّقافة التّنَمَويّة» هي تلك الثّقافةُ القَادِرَةُ على أنْ تَخرُجَ من «المَأزِقِ القديم - الجديد» بمُعَادَلَةٍ عَادِلَةٍ لـ«الثّقافة العربيّة» تَجمَعُ - في تَنَاسُقٍ وتَكامُلٍ - بين «جَنَاحَيّ المَعْرِفَة» في أُطُرِهَا الإنْسانيّة والعِلْميّة، وتُعْطِي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، وتَفْسَحُ المجال لـ«الحركة العِلْميّة» لكي تَتَغَلْغَلَ في «نسيج المُجْتمع»، وتُوَطِّدَ دَعَائِمَهَا في «الفِكْرِ العربيّ المُعَاصِر»، وتُصْبِحَ غِذاءً فِكْريّاً ورُوحيّاً ومَعْرفيّاً ومَعْلُوماتيّاً يَسْعَى لإيجاد «التَّوَازُن» في النَّهجِ الحياتيّ للمُواطِن، ويَهْتَمُّ بتَطْويرِ تفاعُلاته المُتَنَوِّعَة، ويُكَثِّفُ الاهْتمامَ بطبيعة العَصْرِ وتحدّياته، ويُرَسِّخُ ثَوَابِتَ الأُمّة وقِيَمَهَا عبْر صِياغَةٍ وَاعِيةٍ تتفاعلُ مع «الزَّمان» و«المكان» وعُقُولِ النّاسِ وهُمُومِهِمْ.

وأمّا حين نَتَّفِقُ مع مالك بن نبيّ بأنّ: («الثَّقافة» في صُورتِهَا الحَيّة هي وَحْدَةٌ ذات أجْزاءٍ مُتَمَاسِكَةٍ ومُتَرَابِطَةٍ بروابط دَاخليّةٍ تُحَدِّدُهَا عَبْقريّةُ الشّعْبِ الذي وضعها مُطَابقَةً لأخْلاقه وأذْواقه وتاريخه)[٢]، فإنّ هذا يَجْعَلُ مُصْطَلَحَ «الثّقافة التّنْمَويّة» مُصْطَلَحاً مُتَعَدِّدَ المُكَوِّنَاتِ ومُتَدَاخِلَ السِّمَاتِ في تَنَاغُمٍ وانْسِجَام، لتكون «الثّقافة التّنْمَويّة» - بالضّرورة - ثقافةً مُتَوَازِنَةً في مُحْتواها، وقَادِرَةً على توظيفِ مُكَوِّنَاتِهَا في تَحْرِيكِ الوَاقِعِ الاجْتماعيّ، وتَطْويرِ الرُّؤى العامّة للارْتِقَاءِ بالمَسْؤولية والفِكْرِ والتّفاعُلِ إلى مُسْتوى الإنْتاج والإبْداع والتَّوافُقِ مع «رُوحِ العَصْر» وتحدّياته، وتأسيسِ الذِّهْنيّة القَادِرَةِ على التّقصّي الموضوعيّ للوَاقِعِ والمُشْكلات، والسّعي الحثيث لإيجادِ الصِّيغِ العِلْميّة والمُوَاصَفَاتِ المُنْضَبِطَةِ والإجْراءاتِ العمليّة للتّعامُلِ معها.

لقد آن الأوان لكي يكون «الفِكْرُ الأدبيُّ» فَاعِلاً على السّاحة في تَنْمية العُقُولِ والمدارك، وذلك ابْتِدَاءً من تَطْويرِ أدب «الخيال العِلْميّ» وتأْصيله في «بِنْيَةِ الثَّقافة العربيّة»، وهو «الأدبُ» الذي يتفاعلُ مع مُعْطيات العلوم، ويَسْتَشْرِفُ المُسْتَقْبَل، ويَسْتَقْطِبُ خيال النَّاشِئَةِ ويُوَظِّفُ حماسهم؛ وانْتِهاءً باسْتِنْهَاضِ الهِمَمِ لتَحْليلِ المُشْكلاتِ المُعَاصِرَةِ بطُرُقٍ عَقْلانيّةٍ وتَفْكيرٍ عِلْميٍّ، ولفَرْزِ عناصر «الثّقافة» فَرْزاً دقيقاً يَسْتَشْعِرُ حقائقَ «الزّمان» وتَبِعَاتِ «المكان»، ويَحْتَرِمُ القِيَمَ الحقيقيّةَ الثّابِتَةَ للأُمّة وما تَحْمِلُهُ من أمانةٍ

ورِسالةٍ وتطلُّعاتٍ، فيَتَّجِهُ «الأدب»، وفْق مقولة زكي نجيب محمود،: (نحو الحَقْلِ والمَصْنَعِ والشَّارِعِ، إنّه أدبٌ فيه رَائِحَةُ العَرَقِ وضَوْضَاءُ العمل)(٢٠).

٥-٤-٤- أ) نحو إرادةٍ مُجْتمعيّة:

نَخْلُصُ ممّا سَبَقَ إلى أنّ «الثّقافة التّنْمَويّة» هي تلك «الثّقافةُ» القَادِرَةُ على توفير «البَوْتَقَةِ الحيويّة» التي تتفاعلُ فيها مُخْتلف الأنْشطة الإنْسانيّة والمَعْرفيّة، وتتواصلُ شَتّى عناصِر الآداب والعلوم والتّقْنيات - في تَعَاضُدٍ وتَكَامُلٍ وتَوَازُنٍ - لإنْشَاءِ حياةٍ ثقافيّةٍ مُفْعَمَةٍ بالحيويّة والدّيناميكيّة لخِدْمَةِ الإنْسان في مُخْتلف مَنَاشِطِه الفِكْريّة ومُتطلّباته الحياتيّة ودَوَافِعِهِ الرُّوحيّة ونَوَازِعِهِ الوِجْدانيّة، ولا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّقَ ذلك دون توليد «إرادةٍ مُجْتمعيّةٍ» تَهْتَمُّ بالإعْمار، وتتفاعلُ مع «مُعْطيات العَصْر» بإيجابيّةٍ، فكما يقولُ زكي نجيب محمود فإنّ: (التَّغْيير الطّبيعيّ الوحيد هو ذلك الذي يَصْدُرُ عن اقْتناعٍ أو إيمانٍ حقيقيٍّ عند المُتَغيِّر، أو بعبارةٍ أُخْرى، هو ذلك الذي يجيء عن «إرادة» الشّخْصِ أو الشّعْبِ الذي يَتَغَيَّر)(٢٠).

وهكذا نجدُ أنّ المُتَطلَّبَ الرّئيسَ للتّغلُّبِ على «إشْكَاليّة التّنْمية»، هو تَأْمينُ تلك «الإرادة المُجْتمعيّة» التي تَسْعَى جَاهِدَةً نحو الأفْضل لتُحَقِّقَ «عمليّة التَّحْديث» التي وَصَفَهَا عمر الخطيب بأنّها: (العمليّة التي يَسْتطيعُ الإنْسان من خلالها السَّيْطَرَةَ المُتزايدة على بيئته)(٧٦). وفي ذلك السِّياق تُفْلِحُ «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» في توظيفِ القُدُرَاتِ والمَوَارِدِ والمَهَارَاتِ على مُخْتلف الأصْعِدَة، مُسْتَنْهِضَةً جُهُود كُلِّ الشّرائح الاجْتماعيّة، للتّعامُلِ مع المُشْكلاتِ والقضايا المُعَاصِرَة بجدِّيّةٍ عمليّةٍ ونزاهةٍ عِلْميّةٍ، فتَتَحَوَّلُ كُلُّ تلك الدِّراسات التي تَتَرَاكمُ في أرشيفات المؤتمرات والنّدوات، والتّوصيات التي تَتَمَخَّضُ عن كُلِّ تلك اللجان والاجْتماعات، من مُجَرَّدِ تَنْظيرٍ وحالات تأمُّلٍ، إلى وَاقِعٍ يَتَحَرَّكُ على الأرْض، ويُغَيِّرُ مَعَالِمَ الحياة، ويُطَوِّرُ حياة الأفْراد، ويَتَّجِهُ نحو المُسْتَقْبَلِ بتفاؤلٍ وثِقَة.

من أهمّ مَعَالِمِ الطّريق إلى «التّنْمية»، أو «النَّهْضَة» - سَمِّهَا ما شِئْتَ -، هو الإدْرَاكُ العميقُ بالمعايير المُرْتَبِطَةِ بـ«التّنْمية الشّامِلة» التي وَصَفَهَا علي خليفة الكواري بأنّها:

(تَبْدَأُ عندما تَتَبَلْـوَرُ «إرادةٌ مُجْتمعيّةٌ للتّنْمية»، وتَتَمَثّلُ هذه «الإرادة المُجْتمعيّة» في وجود «إرادةٍ اجْتماعيّةٍ» قَادِرَةٍ على تَعْبِئَةِ طَلَبٍ مُجْتمعيٍّ فعّالٍ يُؤدِّي إلى إيجاد «الإرادة السِّياسيّة» المُلْتَزِمَةِ بـ«عمليّة التّنْمية»)[١١]. أمّا أبْرز ما يَنْبَغي التَّنَبُّهُ له - عند الحديث عن «الثّقافة التّنْمويّة» - فهو الإدْرَاكُ بأنّ الأمور لا تَتَحقّقُ بمُجَرَّدِ النَّوَايا، ولا تَأْتي جُمْلَةً وَاحِدَةً، ولكنّها «عمليَّـاتٌ تَرَاكُميّـةٌ» يتلاقحُ بعْضُهـا مع بعْضٍ، وهي تَنْمُـو في أحْشَـاءِ التَّخْطيط العِلْميّ والتّقْويـم السّليم والآليّات العمليّة، فوفْق طَرْحِ زكي نجيب محمود: (المُسْتَقْبَلُ الذي نُريدُ أنْ نُبْدِعَـهُ خَلْقاً جديداً، بتَفْكيرٍ عِلْميٍّ سليم، ليسـ شيئاً يَأْتي بـ«الجُمْلَة» ولكنّه تَفْصيلاتٌ تَتَحقَّـقُ بـ«القَطَّاعِي»، برَغْمِ أنّ هذه الأجْزَاءَ المُتَفرِّقَةَ تَتَكامَلُ آخِرَ الأَمْرِ بعْضُها مع بعْضٍ في كِيانٍ عُضْويٍّ وَاحِد)[٢٠].

إذاً «الثّقافةُ التّنْمَويّةُ» هي تلك التي تَسْتطيعُ أنْ تَدْفَعَ بالأفْرَادِ نحْو مفاهيم الإنْتاجيّة والمُشَارَكَة، وتُعَالِجُ - بحِكْمَةٍ وعزيمةٍ - ذلك الوَهَنَ الكَامِنَ في أعْمَاقِ مؤسَّسات المُجْتمع الـذي جعلها غير قَادِرَةٍ على التّصدِّي للمُشْـكلات الحياتيّة واليوميّة؛ و«الثّقافةُ التّنْمَويّةُ» هي تلك التي تَقْضِي على نَزْعَاتِ الاتّكاليّةِ والاسْتِهْلاك ولَوْم الآخرين ونظريّاتِ المُؤامرةِ ونَرْجسيّـةِ التّفْكيـرِ التي أصْبَحَـتْ مَعَالِـمَ مُمَيِّزَةً لـ«الثّقافـة السَّائِدَة» فـي «المُجْتمعات العربيّة»؛ و«الثّقافةُ التّنْمَويّةُ» - أيضاً - هي تلك التي تُصَحِّحُ عمليّاتِ التّفاعُلِ ومُنْطلقاتِ التّعامُـلِ مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، فلا تكـون كُلُّ مُعْطياتِ هذه الحركة مُجَرَّدَ آلاتٍ وأجْهِـزَةٍ وأدواتٍ ووسائِـل، بَلْ هي - كما أَكَّدْنَـا في أكْثر من مقام - فِكْـرٌ وثقافةٌ وانْتِمَاءٌ ومُمَارَسَـاتٌ تُقَلِّصُ من سَلْبيّاتِ مـا وَصَفَهَا محمد عابد الجابـريّ[٥٩] بأنّها: («الظّاهِرة العَامَّة» التي تُلَخِّصُ مُعْطياتِ التّخَلُّفِ في البلدان «النَّامية»)، وهي: (انْفِصَالُ «العِلْمِ» عن «الثّقافة»: عَدَمَ انْدِمَاجِهِ في حياة المُجْتمع الماديّة والفِكْريّة والرُّوحيّة).

٥-٤-٤- ب) نحو رُؤْيةٍ عمليّة:

إذاً قضيّـةُ الأُمّـة اليوم هي قضيّـةُ «ثقافـةٍ» ذات رُؤىً تَسْتَشْـرِفُ المُسْتَقْبَلَ وتُدْرِكُ تحدِّياتِـه، وتَتَوازَنُ مُكَوِّنَاتُهَـا لتَحْتَضِنَ الثّوابِتَ والقِيَمَ الرّاسِخَة، وتَرْعَـى التّأَلُّقَ والإبْدَاعَ

في المجالات الإنسانيّة والأدبيّة، وتُراهِنَ على جَعْلِ «ثقافة العلوم والتّقنية» عُنْصُراً مُؤثِّراً وريادياً في التّفاعُلاتِ الفِكْريّة السّائِدَة، وكما يقولُ أنيس صايغ: (تَبْقَى الرِّسَالَةُ الثَّقافيّةُ عَرْجَاءَ إذا لم يَتَحَلّ دُعَاتُهَا بالأخْلاقيّات إلى جَانِبِ مضامين المَعْرِفَة)[١٨].

ما سَبَقَ - من تَحْليلٍ مَنْهَجيٍّ - يقودُ - بالضّرورة - إلى مُصْطلح «الثَّقافة التّنْمويّة» التي يُمْكِنُ تَعْريفُهَا بأنّها: (ثقافةٌ تَحْمِلُ «المُسْتَقْبَلَ» في عِظَامِهَا ونُخَاعِهَا وخلاياها وأنْسِجَتِهَا، فهي ثقافةٌ مُشَبَّعَةٌ بنَبْضِ العَصْر، ومُتَوَازِنَةٌ في مُحْتواها، ومُتَكَامِلَةٌ في مُقَوِّمَاتِهَا، ومُتَفَاعِلَةٌ مع الأَطْيافِ الفِكْريّة المُهَيْمِنَة، ومُتَنَاغِمَةٌ مع طبيعةِ التَّحَدّيات، لتُصْبِحَ «الوَسَطَ» المُناسِبَ القَادِرَ على مُوَاجَهَةِ «إشْكَاليّةِ التّنْمية»، وإحْدَاث «النَّقْلَةِ النَّوْعيّة» اللّازِمَةِ في تَفْكيرِ الأفْرَادِ وتفاعُلاتِ الجماعات).

ولكن يُمْكِنُنَا السَّيْرُ على الطَّريق الإنْشائيّ - السَّرْديّ ذاته الذي تَسْلُكُهُ «الثَّقافة العربيّة» لتَبْقَى الكلماتُ حِبْراً على وَرَقٍ، وتَبْقَى الصُّورةُ عامّةً وهُلاميّةً وفَضْفَاضَةً بمَنْأًى عن التَّفْصيلِ والتّخْطيطِ والتَّوجيه، وهذا هو ما اسْتَنْكَرَهُ زكي نجيب محمود وهو يَعْرِضُ للظّاهِرَةِ الوَصْفِيَّةِ في عُموميَّاتِهَا، والهَيْمَنَةِ اللفْظيّةِ في تَجَلِّيَاتِهَا، فيقول: (لو اسْتطعنا إبْراز الفَوارِقِ المُمَيِّزَةِ للطُّفُولَةِ الحَقّ من الرُّجُولَةِ الحَقّ لكان لنا بذلك نفْسه مقْياسٌ نُفَرِّقُ به بين الرُّؤيةِ السَّاذَجَةِ بفِطْرَتِهَا، والرُّؤيةِ النَّاضِجَةِ بعد تَحَضُّرٍ وتَهْذيبٍ، فما هي أوضح تلك الفَوَارِق ظُهُوراً؟. أوضحُها - في ظَنّي - هو القُدْرَةُ على رُؤيةِ الشّيء أو المَوَاقِف بعد تَحَضُّرٍ وتَهْذيبٍ بتفْصيلاتِها التي يتشابكُ بعْضُها مع بعْضٍ كأنّها الخُيُوطُ في رُقْعَةٍ من النّسيج، فرُؤيةُ الشّيء أو المَوقِف بتَفْصيلاته هي الخُطْوَةُ الضّرورية الأولى التي يُمْكِنُ أنْ تَتْبعَهَا خُطْوَةُ القِياسات الكَميّة والضَّبْط العَدَديّ، وهذه بدَوْرِهَا هي طريقُنا الوحيدُ إلى صِياغَةِ مَعْرفتِنا بذلك الشّيء أو المَوْقِف صِياغَةً عِلْميّةً. أمّا الرُّؤيةُ التي تَقِفُ من الأشْياء عند أسْطُحِهَا، لتُدْرِكَهَا في جُمْلَتِهَا لا بتَفْصيلاتِها الدّاخِلَةِ في تَقْويم كيانِها، فهي كالشَّارِعِ المَسْدُودِ من أحد طَرَفَيْهِ فلا يَنْفُذُ منه السَّائِرُ إلى بعيدٍ، ولا بُدَّ له أنْ يَرْتَدَّ إلى نفْسه حيث كان)[٢٠]. وهكذا نجدُ - بكُلّ حَيْرَةٍ وأسىً - أنّ طَرْحَ زكي نجيب محمود في زمنه قبل أكْثر من نِصْفِ قَرْنٍ ما زال قَائِماً في زمننا، ويَبْقَى السُّؤال: (ما المَخْرَجُ من

نَفَـقِ «الرُّؤيةِ السَّاذَجَةِ» - بعُمُومِيّاتِهَا وسَطْحِيّتِهَـا وإنْشَائيّاتِهَا - إلى «رُؤيةٍ نَاضِجَةٍ» تَدِبُّ على الأرْض دبيباً لتُشَخِّصَ نِقَاطَ الضَّعْف، وتُعَالِجَ مَكَامِنَ الخَلَل؟).

٥-٤-٥) على طريق «إسْتراتيجيّة الثّقافة التَّنْمَويّة»:

ممّـا سَبَقَ يَتَّضِـحُ أنّ الحاجة مُتنامية لِوَضْـعِ أُسُس «إسْتراتيجيّـةٍ ثقافيّةٍ - تَنْمَويّةٍ» تَحْمِـلُ «الرُّؤية التّفْصيليّة النّاضِجَة» لحركة «الفِكْرِ البشريّ المُعَاصِر»، وتَسْتَوْعِبُ حقيقة التّطوُّراتِ المُذْهِلَةِ في «الألْفيّة الثّالثة»؛ وكُلُّ هذا يَفْرِضُ - ابْتِدَاءً - «عموداً فِقْريّاً» تتَمَحْوَرُ حوله «الثّقافةُ التّنْمَويّةُ» لكي تَنْتَفِضَ - بحيويّةٍ - مُحْدِثةً تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّة» على مُخْتلف الأصْعِـدَة، ودَافِعَةً للتّغيُّراتِ الجِذْريّةِ في القُـدْرَاتِ والمهاراتِ والمَوارِد، ولن يطول بَحْثُنَا بمُوجِـبِ طُرُوحَاتِنَا في هذا الكِتاب - في سِيَـاقِ «الثّقافة» و«التّنْمية» و«شُرُوطِ المُسْتَقْبَل» و«رُوحِ العَصْر» - لنَكْتَشِفَ أنّ ذلك «العمود الفِقْريّ» هو «مَنْظُومَةُ العلوم والتّقنية».

وهكـذا نجدُ أنّنا نَحْتَاجُ إلى «لُغَةٍ» تتفاعلُ مع ثقافتِنا لتُرَسِّخَ مفاهيمَ «الفِكْرِ العِلْميّ» وشُـرُوطَ «الحركـة التّقنيّة» ومُقْتضيـاتِ «التّنْمية الحديثـة»، وأزْعُمُ هنا أنّ هـذه «اللّغَة» الحَاسِمَـةَ هي «الثّقافةُ العِلْميّـةُ» ولا شيء سِواها؛ فهي - بمُحْتواهـا ومُقوِّمَاتِهَا ووسائِلِهَا - القَادِرَةُ على توجيه طاقـات الأفْرَاد، وصِياغَةِ توجُّهاتِهم، وزَرْعِ الحماس والإنْتاجيّة في مُمَارَسَاتِهِـم، وعَقْلَنَةِ تَفْكيرِهـم، وترْسيخِ «الإرادة المُجْتمعيّة»، ووَضْـعِ «الرُّؤية العمليّة»، والتّعامُـلِ مع العَصْـرِ بمُسْتَجِدَّاتِهِ وتحدّياتِـهِ وضَوابِطِه؛ وهي الكفيلةُ بتَحْقيـقِ مَجْمُوعَةٍ مـن المُقوِّمَـاتِ يَطْرَحُهَا علي علي حبيش ومنْها: (أنْ يكون للعِلْـمِ والتِّكْنولوجيا مَكَانَةٌ في المُجْتمع وتأْييدٌ شَعْبيٌّ من الجماهير)[٣٩].

وممّـا يَدْعَمُ تلك الرُّؤيـة أنّ أهمّ أهْـداف «الثّقافة التّنْمَويّة» هـو التَّخلُّصُ من تلك المُنَاكفَـاتِ الفِكْريّـة، والزّوائـدِ الثّقافيّة، والشُّحُـوم اللفْظيّة، التي كانـتْ - وما زالتْ - تُهَيْمِـنُ على «المَشْهَدِ الثّقافيّ العربـيّ»، وأدّتْ بطبيعتِها إلى إبْعَادِ «العِلْم» عن التّفاعُلات الفِكْريّة والثّقافيّة، وإهْمَالِ دَوْرِهِ في بِنَاءِ العَقْلِ وترْقيةِ المُمَارَسَات، وهذا ما يُؤكِّدُهُ محمد

عابـد الجابـريّ[١] عندما يقولُ إنّ «العِلْمَ» لم يكـنْ له: (دَوْرٌ يُذْكَرُ فـي المعارك الفِكْريّة والأيديولوجيّة وبالتّالي لم يُساهِمْ في تَغْذِيَةِ «العَقْلِ العربيّ» ولا في تَجْديدِ قَوَالِبِهِ وفَحْصِ قَبْليَّاتِـهِ ومُسْبَقَاتِـه، فبَقِيَ «الزَّمَانُ الثَّقافيُّ العربيُّ» هُوَ هُوَ، بَقِـيَ مُمْتَدّاً على بِسَاطٍ وَاحِدٍ مـن نهاية عَصْرِ التَّدْوين إلـى بداية عَصْرِ ما بعْد ابن خلدون إلى قِيَـامِ النَّهْضَةِ العربيّة الحديثة...إلـى أيامِنا هـذه). إنّها - كما يراها محمد عابد الجابـريّ[١] - (أَزْمَةُ الفِكْرِ العربـيّ المُعَاصِـر)، وهـي (أَزْمَـةٌ بُنْيويّـةٌ: أَزْمَةُ عَقْـل)، ويَصْفُهَـا بأنّها: (أَزْمَـةُ ثقافةٍ ارْتَبَطَـتْ منذ بدايـة تَشَكُّلِهَا بالسِّياسة، فكانتْ «السِّياسةُ» فيهـا، لا «العِلْمُ»، هي العُنْصُرُ المُحَـرِّكُ ممّا جعلهـا تَخْضَعُ باسْتِمْـرَارٍ لتَقَلُّبَاتِ «السِّياسـة» وتَتَأَثَّرُ بنجاحِهـا وإخْفاقِها وتَنْحَطُّ بانْحطاطِها).

خُلاصَـةُ القَول، إنّ أيَّ «اسْتراتيجيّةٍ للثَّقافة» تَطْمَحُ إلى تَغْييرِ الوَاقِعِ العربيّ، وإثْرَاءِ مُعْطياتِـه، وتَطْويرِ فِكْرِه، تَحْتَاجُ - أوّل ما تَحْتاج - إلى مُعْطياتِ «الحركة العِلْميّة التقنيّة» بثقافتِهـا وفِكْرِهَا وفلْسفتِها وقِيَمِهَـا ومُقْتضياتِها السُّلُوكيّة وضَوابِطِهَـا المَعْرفيّة، ويُؤَكِّدُ محمـد عابد الجابريّ[٥٩] هـذا الحال بقوله: (إنّ أبْلَـغَ تَعْريفٍ لـ«التّنْميـة» قَرَأْتُهُ وشَدَّنِي إليـه هو ذلك الذي يُعَرِّفُهَا بأنّهـا «العِلْمُ حين يُصْبِحُ ثقافة»)، ويُواصِلُ ليقول: (إذا كانتْ «التّنْميةُ» هي «العِلْمُ حين يُصْبِحُ ثقافة»، فإنّ «التَّخَلُّفَ» سيكون هو «العِلْمُ حين يَنْفَصِلُ عن الثَّقافة» أو هو «الثَّقافةُ حين لا يُؤَسِّسُهَا العِلْم»)، ويَخْلُصُ الجابريّ إلى القول: (إنّه ما لم نَعْمَلْ على دَمْجِ «العِلْم» في ثقافتِنا ورَبْطِ ثقافتِنا بـ«العِلْم» فإنّنا لن نَخْطُوَ الخُطْوَةَ الحقيقيّةَ الأولى نحو «التّنْمية»). وهكذا يَتَجَلّى الدَّوْرُ الرِّياديُّ لـ «الثَّقافة العِلْميّة»، وضَرورَةُ أنْ تكون هـذه «الثَّقافة»، بكُلِّ مضامينِها ومُحَدِّدَاتِهَـا، مِحْوراً رئيسـاً في تَرْكيبةِ «الثَّقافة التّنْمَويّة»، ورُكْنـاً أساساً لإسْتراتيجيّتِها. ومَرّةً أُخْرَى تَبْرُزُ، عند الحديث عن «إسْتراتيجيّة الثَّقافة»، أهميّـةُ «مَفْهُوم توجيه الثَّقافة»، الذي تَطَرَّقْنَا إليه في الفَصْلِ الثّاني، ممّا يَفْرِضُ ضرورة تَحْديدِ سُلَّمِ الأولويّات، وتَشْخيصِ نَوْعِ «الاسْتِجَابَةِ» لطبيعة «التَّحَدِّيات» المُعَاصِرَة.

٥-٤-٦) البَحْثُ عن «المُثقّف التّنْمَويّ»:

تَدْفَعُ الأحْـداثُ المُعَاصِرَةُ والتّطَوُّرَاتُ العَوْلَميّةُ - بشِدَّةٍ - في اتّجَاهِ تَصْنيفٍ جديدٍ لـ«المُثقَّـف» أَطْلَقنَا عليه اسْم «المُثقّف التَّنْمَويّ» (انْظر: الفَصْل الثّاني)، وكما هو الحال مـع «الثَّقافـة العربيّة» التي تَبْحَثُ دوماً عن رُمُوزٍ رياديّـةٍ، وأدْوارٍ مِثاليّةٍ، وقِيادات مُلْهَمَةٍ، فإنّ البَحْثَ جَارٍ عن «المُثقّفِ» الذي يُؤدّي دَوْراً طليعيّاً في دَفْعِ المُجْتمع على طريق تَحْقيقِ كُلِّ التّطلُّعات السّياسيّة والفِكْريّة والإبْداعيّة والنّهْضَويّة. وفي ضوء ذلك «الهَوَسِ العربيّ» بالزّعَامَـاتِ المُلْهَمَـةِ والقِياداتِ التّاريخيّـةِ التي جَرَّتْ الأُمّةَ إلى كَـوَارث، فإنّ التّأمُّلَ في خصائِصِ «المُثقَّفِ» الـلازِمِ لإحْدَاثِ «النَّقْلَـة النَّوْعيّة» أَمْرٌ جديـرٌ بالاهْتمام، ولكنّنا لا نَتَحَدَّثُ هنا عن «المُثقّفِ الأوْحَد» أو «المُفكِّرِ الذي لا يُشَقُّ له غُبَار»، بَلْ عن «ثقافةٍ» تَشِيعُ فـي المُجْتمع لتُحَفِّـزَ الطّاقات، وتُوَجِّهَ الإرادات، وتَسْتَوْعِـبَ التّحدّيات، لتتحوّلَ إلى «فِكْرٍ مُجْتمعـيٍّ» يتفاعلُ بإيجابيّـةٍ مع عَصْرِه، ويَصْنَعُ بثقةٍ مُسْتَقْبَـلَ أجْياله، ويَرْفُضُ - أوّل ما يَرْفُض - ذلك «العَبَثَ التّاريخيّ» في حياة الأُمّة وهي تَتَنَفَّسُ أوهام «ثقافة الفَرْدِ الأوْحَد»!.

إنّ «الإشْكَاليّةَ» تَكْمُنُ في أنّ «المُثقَّفَ العربيّ» فَشِلَ عبْر مراحِل مُتَعَدِّدَةٍ، وعلى مدى قَرْنَيْـن، أنْ يُحَقِّـقَ شيئاً يُذْكَرُ على طريـق «التّطلُّعات النّهْضَويّة»؛ وأمّـا طبيعة «التَّحَدِّي» وجوهـر «الأَزْمَـةِ» فيَكْمُنـان - دون جِدَالٍ - في ذلـك الحُلْمِ الـذي أَسْمَـاهُ مُثقّفو القَرْن التّاسـع عشر «النّهْضَة»، وأَطْلَقَ عليه المُثقَّفون المُعاصِـرون اسْم «التّنْمية»، وعند التّأمُّلِ الدّقيق لتجارِب أولئك وهؤلاء نَسْتطيعُ أنْ نُشَخِّصَ سبب «الكُسَاحِ الثّقافيّ» في الحَالَتَيْن؛ فـ«الثّقافة» بَقِيَـتْ بِمَنْأَىً عن «بَوْتَقَةِ التّنْمية» بضَرورَاتِهَـا الفِكْريّة والثّقافيّة والاجْتماعيّة والإجْرائيّـة، وأمّا خِطَابُ «المُثقَّفِ العربيّ» فقد كان - وما يزال - خِطاباً مَهْوُوساً بذاتِه، ومُغْرِقـاً فـي نَرْجسيّتِه، ومُهْتَرِئـاً في تَكْوينِـه، ومُسْتَنْسِخَـاً لمُعْطياتِه، ومُنْبهِـراً بالآخَر، أو مُنْغَلِقـاً علـى ذاتِه، ممّا حدا بمحمـد عابد الجابريّ إلى أنْ يُقَـرِّر: (إنّ وَاقِعَنَا الثّقافيّ الرّاهِنَ لا يُبَشِّرُ بأيِّ مَشْرُوعٍ مُسْتَقْبَلِيّ)[١].

وهكـذا فـي خِضَـمّ الجَلَبَةِ حـول تَصْنيفـات «المُثقّف العربـيّ»، ومنهـا مُصْطَلَحَا «المُثقّـفُ التّنْويـريُّ» و«المُثقّـفُ الحَداثـيُّ» بدَلالاتِهِمَـا المَغْمُوسَـةِ في «الفِكْـرِ الغَرْبيّ» وتجاربـه، تَـمَّ إغْفَالُ التّصْنيف الأهمّ، وهو «المُثقَّفُ التّنْمَويُّ»، ممّـا يُوجِبُ ضَرورَةَ بَلْوَرَةِ «دَوْرٍ تَنْمَـويٍّ» لـ«المُثقَّفِ» يَنْأَى به عـن التّنْظيرِ الغَائم، والشّعَـاراتِ الهَائِمَة، والانْفِعالاتِ المُلْتَهِبَة، والجَدَلِ العَبَثيّ، والتّقوقُعِ تارةً في أُطُرٍ فِكْريّةٍ تَقْليديّةٍ، وتارةً أُخْرَى في الإصْرَارِ علـى اسْتِمَاتَةٍ سَاذَجَةٍ لفَرْضِ «حَدَاثَةٍ كلاميّةٍ»، أو «ليبراليّةٍ مَأْزُومَـةٍ»، لا يَفْقَهُ أيٌّ منْهما أبْجديّاتِ «التَّنْمية»، ويتصادمُ مع قِيَمِ المُجْتمع وتفاعُلاتِه.

إنّ هـذا «التَّصْنيـفَ الثّقافـيَّ» الحَاسِـمَ لـ«الحَـرَاكِ التّنْمَويّ»، المُتَمَثِّـلَ بمُصْطلح «المُثقّفِ التّنْمَويّ» يَفْرِضُ ضرورةَ «تَأْهيلِ المُثقّفِ تَنْمَويّاً» ليكون صَاحِبَ «مَشْرُوعٍ تَنْمَويٍّ»، ورُؤيةٍ عمليّةٍ، قَادِراً على الإسْهَامِ في دَفْعِ حركة مُجْتمعِه في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، ومُؤثِّراً في الأحْـدَاثِ بإيجابيّـةٍ وكفـاءَةٍ، ومُسْتَوْعِباً لثَوابِـتِ مُجْتمعِه، ومُـدْرِكاً لحقائِقِ عَصْرِه، وحريصـاً علـى تَمَاسُكِ وطنِه، ولتَنْتَقِلَ مثل تلـك «الرُّؤى التَّنْمَويّة» الحيويّـة، عبْرَ أمْوَاجِ التّواصُلِ والتّفاعُل، إلى المُواطِن - أيّاً كان مَوْقِعُهُ ودَوْرُه -.

يُـرْوَى عن ألبرت آينشتاين قولـه: (إنّ أحد تَعْريفات «الجُنُون» أنْ تُكَرِّرَ عمل الشّيء نفْسـه مَرَّةً تِلْـوَ الأُخْرى مُتَوقِّعاً أنْ تَحْصُلَ علـى نتائِجَ مُخْتلفة)، وبالتَّأمُّـلِ الدّقيق للوَاقِعِ العربيّ الذي تَمْتَلِئُ أجْواءه بأعاصِيرِ الإحْباط، وتَفْتِكُ بمُعْطياتِه جراثيمُ العَجْز، وتَسْتَقْطِبُ شبابـه ومُثقّفيه حالاتُ «الانْبِهَـارِ» و«الانْكِفَاءِ» و«الاجْتِرَارِ» و«التَّهَـوُّرِ» و«النَّرْجَسِيّة»، فإنّه لا بُـدَّ لنـا عن البَحْثِ عن «مُثقَّـفٍ» يَخْرُجُ عن كُلِّ تلك «التَّصْنيفات» التـي جَرَّبْنَاهَا مِرَاراً وتَكْرَاراً، وما زَادَتْنَا إلاّ خَسَاراً. إنّ التَّحدِّي الحقيقيّ لـ«الثَّقافة العربيّة» هو ما وَصَفَهُ عبد الله عبـد الدائم بقوله: (التَّحدِّي الأكْبر الذي يُواجِـهُ المُثقّفين العرب أنْ يكونوا مُثقَّفين حَقّـاً أو لا يكونـوا شيئاً. أنْ يكونوا مع مُجْتمعِهم ومن أجْل مُجْتمعِهم)[٧٨]. ومن هنا يَنْبَغِي - فـي رأيي[٧٩] - أنْ يَبْـرُزَ تَصْنيفٌ جديدٌ لـ«المُثقّفِ» وهو «المُثقّـفُ التّنْمَويُّ»، وتكون له الأولويّـةُ على غيره مـن التّصْنيفات؛ فالمطلوبُ «فِكْرٌ تَنْمَـويٌّ» يَسْتَثْمِرُ الغضَبَ والإحْبَاطَ والتَّذَمُّـرَ لـدى المُجْتمـع، ويَسْتَقْطِبُ حماسَ الجُمْهـور، ويَسْتَنْهِضُ هِمَمَهُـمْ وطاقاتِهم،

ويَتَوَجَّـهُ - في رُؤيةٍ فَاحِصَةٍ وخُطَطٍ مُنْضَبِطَـةٍ ومعايير موضوعيّةٍ - نحو العِمْرَانِ والبِنَاءِ والإنْتاجيّة؛ فذلك «المَنْظُورُ التَّنْمَويُّ» هو وَحْدُهُ - بعد الله عزّ وجلَّ - الكفيلُ بإنْقَاذِ الأُمّة مـن هـذا النَّفَقِ المُظْلِمِ الطّويل الذي لا نكادُ نرى له نِهايةً؛ فسُنَنُ الله لا تُحَابِي أحداً، ولا تَنْسَاقُ لعَوَاطِفِ العَنْتَرِيِّين والمُتَكَلِّمين ومُثقَّفِي «الجَدَلِ العَبَثِيّ» و«الدَّجَلِ التَّلْفيقيّ».

ليسـ المَطْلُـوبُ أنْ يكون «المُثقَّـفُ التَّنْمَويُّ» شَمْعَـةً تَحْرِقُ نفْسَهـا لتُضِيءَ الطّريق للآخَرين، وليس عليه أنْ يَرْكَبَ المَرْكَبَ الصّعْبَ لتأْسيسِ دَوْرٍ بُطُوليٍّ يَجْعَلُهُ حديث الأوَّلِين والآخِريـن، أو أنْ يُسَجِّـلَ مَوَاقِفَ تاريخيّةً عبْر تَضْحياتٍ لا يَقْـدِرُ عليها إلاّ أولو العَزْمِ من الرِّجـال، أو أنْ يَتَبَنَّى مَوَاقِفَ شَاذّةً من باب «خَالِـفْ تُعْرَفْ»؛ ولكنّه - بكُلِّ بساطةٍ - ذلك «المُثقّفُ» الذي يُدْرِكُ أنّ هناك طريقَتَيْنِ لنَشْرِ الضَّوْءِ؛ فإنْ لم يكنْ شَمْعَةً تَحْتَرِقُ لتُضِيءَ الطّريـق، فعليه أنْ يكون مِرآةً تَعْكِسُ الضَّوْءَ وتَنْشُـرُهُ في الآفاق، أو - على أقلّ تقْديرٍ - لا يكـون حَاجِزاً مُعْتِماً يَمْنَعُ انْعِكَاسَ الضَّوْءِ أو نَفَاذَه، وذلـك أضْعَفُ الإيمان. وأمّا «الضَّوْءُ» الـذي تَحْتَاجُهُ الأُمّـة، فهو بالتّأكيد ليس ذلك الإسْفاف الذي يَجْثِـمُ على «الوَاقِعِ الثقافيّ العربـيّ» عبْر اسْتِفْـزَازِ المُجْتمع، وإثَارَةِ الغرائـز، وتَهْييجِ الانْفِعـالات، وتَرْسيخِ «الجَدَلِ الأَرْعَنِ» حول قضايا لا تَنْفَعُ المُواطِنَ في بَحْثِهِ عن حياةٍ كريمةٍ تَسْتَقْطِبُ قُدْرَاتِهِ الفَاعِلَة، وتَحْتَضِنُهُ في «مَسِيرَةٍ تَنْمَوِيّةٍ» تَمُرُّ به على ينابيع تُرْوِي عَطَشَ الظَّمآن في بِيئاتِ «الجَفَافِ المَعْرِفيّ» و«العَجْزِ العِلْميّ» والإحْبَاطِ المُتَفاقِم.

وأمّا المُحْزِنُ في الأَمْرِ أنْ ليس في هذه السِّياقات من جديدٍ فقد طَرَحَهَا زكي نجيب محمود - قبْل ما يَرْبُو على نِصْف قَرْنٍ - وهو يَتَأَمَّلُ حال «المُثقّفين العرب» فيقول: (لقد قُلْـتُ لأحدهـم ذات يـوم، وكُنْتُ على صِلَةٍ بـه تُجيزُ هذا القَـوْل، قُلْتُ له: تُرَى لـو جَمَعْنَا كلامـك كُلّه الذي ظللتَ تُمْسِي به وتُصْبِحُ عاماً بعد عامٍ فكَمْ رغيفاً من الخبْزِ يَخْرُجُ منه للجائعيـن؟، كَـمْ ثوباً نَنْسِجُهُ منه لمن يَنْقُصُهُمُ الكِسَاء؟، كَـمْ متْراً من الطّريق نَرْصُفُهُ، وكَـمْ جِداراً نَبْنيـه؟. أليستْ هي يا صاحبـي طَواحين تَمْلأُ أوعيتُها هَـواءً فيَخْرُجُ لنا من عيونِهـا هَواءٌ، ويظـلُّ الجَائِعُ في حاجةٍ إلى الرَّغيف، ويظلُّ العـاري في حاجةٍ إلى الثَّوْب، ويظلُّ الطّريقُ المُتَهَدِّمُ يَنْتَظِرُ من يَرْصُفُهُ، والجِدَارُ من يَبْنيه؟) [٢٠].

٥-٥) نحْو المُصالَحَةِ مع العلوم والتّقنية:

إنّ غِيَـابَ «البُعْـدِ العِلْميّ» عن «بِنْيَـةِ الثَّقافة العربيّة» المُعَاصِـرَةِ جعلها غريبةً عن عَصْرِهَـا، وبعيدةً عـن تفاعُـلاتِ وَاقِعِهَا ومُتطلّبـاتِ مُسْتَقْبَلِهَـا؛ فالاتِّصَـالُ بينها وبين «العلوم» هو اتِّصَالٌ سَطْحِيٌّ هزيلٌ يَعْتَمِدُ على الشَّكْليات وحُبِّ الاقْتِنَاءِ والاسْتِهْلاك، ولهذا فَقَدَ «الفِكْرُ التّنْمَويّ» - في المُجْتمعات العربيّة - الصِّلَةَ المُباشِرَةَ بـ«الوَسَطِ الاجْتماعيّ»، وأَصْبَحَ تَأْثيرُه مَحْدوداً وهَامِشيّاً في حركة الحياة وديناميِّتها، ويَذْهَبُ مالك بن نبيّ[٢٨] في وَصْفِ وَاقِعِ «الحال الثَّقافيّ» إلى الاسْتِشْهَادِ بالوَصْفِ النَّبويّ الوَارِد في قَوْلِ المُصْطَفَى - صلَّى الله عليه وسلَّم -: «**مَثَلُ ما بعثني الله عزَّ وجلَّ به من العِلْم والهُدَى كمَثَلِ الغَيْثِ الكثيـرِ أصـاب أَرْضاً فكانتْ منها بُقْعَةٌ قَبِلَتْ المَاءَ فأَنْبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكثير، وكانتْ منهـا بُقْعَـةٌ أمْسَكَـتْ المَـاءَ فنَفَعَ اللهُ عـزَّ وجلَّ به النّاسَ فشربوا منها وسقـوا وزرعوا، وكانـتْ منهـا طائفةٌ قِيعَـانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِـتُ كَلأً**». ويرى مالك بن نبيّ أنّ: (هذا النَّصّ تَدَرَّجَ من أعْلى للأدْنى في تَصْوير «عَلاقَةِ الفَرْدِ والمُجْتمع» بـ«العِلْم»، أَيْ بالأفْكَارِ والأشْياء. وكأنّ النَّبيّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - أراد من هذا التّدرُّجِ ذي الدَّرَجَاتِ الثَّلاث أنْ يَرْمُزَ إلى عُصُورٍ ثلاثةٍ يَمُرُّ بها المُجْتمع، يَبْدَأُ تاريخه بمَرْحلةٍ يَحْدُثُ فيها تَقبُّلُ الأفْكَارِ وإبْداعُهَـا وتَمَثُّلُهَا، تليها مَرْحلةٌ تَبْلُغُ فيها الأفْكَارُ إلـى مُجْتمعاتٍ أُخْرى، ثم تَعْقُبُ مَرْحلةٌ يَتَجَمّدُ فيها عَالَمُ الأفْكَارِ فيُصْبِحُ ليستْ لديه أدْنى فَاعِليّةٍ اجْتماعيّة).

فـي ضوء ذلك التَّدرُّجِ في طبيعة العَلاقَةِ بيـن «العِلْمِ والمُجْتمع» نَسْتطيعُ أنْ نَتَعَرَّفَ علـى وَاقِعِ «الثَّقافة العربيّـة» اليوم، لنجد أنّه حالٌ يُشْبِهُ المَرْحلة الثّالثة من ذلك الوَصْفِ النَّبويّ فهي في الوَاقِعِ «لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كلأً» فيما يَخُصُّ مُعْطيات «العلوم الحديثة» و«حركـة التّقْنية المُعَاصِرَة»؛ وهكـذا تَنْتَصِبُ «إشْكَاليّةُ التّنْميـة» كوَاقِعٍ شَاهِدٍ على حالة غِيَابِ «الثَّقافة التّنْمَويّـة»، وكمُؤَشِّرٍ إلى هَشَاشَةِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّة الثَّقافيّة» التي لا تَسْتطيعُ أنْ تَسْنُدَ «الحركة العِلْميّة»، وتَمْتَصَّ عطاءاتِها، وتُنْبِتَ ثِمَارَهَا.

أمّـا بدهيّاتُ العَصْرِ فإنّها تُؤكِّدُ بأنّ المَدْخَلَ إلى تَحْقيـقِ «التَّنْمية» وبَعْثِ «النَّهْضَة» يَتَمَحْـوَرُ حول «المِفْتَـاحِ الرّئيس»، وهو «مِفْتَاحُ العلوم والتّقْنية»، فهو - بكُلِّ بساطةٍ - يَفْتَحُ بـاب الآفـاق المُمْتَدَّةِ إلى عَوالِمِ القُـوّةِ والرَّفَاهِ والإنْجاز، ويقودُ إلى رِحَـابِ تَعْظيمِ مَوارِدِ الأوطـان وتَفْعيلِ قُدْرَاتِهَا وتَنْشيطِ طاقاتِها. ولذا فإنّ مِثْلَ هذه القضيّة جديرةٌ بأنْ تُصْبِحَ هَاجِسـاً يوميّـاً في تفاعُـلاتِ الأُمّة لأنّهـا - دون مُبَالَغَـةٍ - هي «القضيَّـةُ الأَهَمُّ»، فهي - بحَـقٍّ - «الطَّريقُ إلى النَّهْضَة»، و«المَدْخَلُ إلـى التَّنْمية»، ممّا يُوجِبُ السُّؤال التّالي: (أين طُرُوحَاتُنَا وإعْلامُنَا وتَعْليمُنَا وخِطَابُنَا الدَّعَويّ والدِّينيّ وإستراتيجيّاتُنا الثّقافيّة وجُهُودُنَا الفِكْريّـة من حالة «الاسْتِنْفَارِ العَامّ» اللازِمَـةِ لتأْصيلِ هذه «القضيّة المصيريّة» وتَفْعيلِها في الفِكْرِ والحياة والمُجْتمع؟).

إنّنـي لا أَزْعُـمُ فقط بأنّ كُلَّ ذلك فـي وادٍ و«مَنْظُومَة العلوم والتّقْنيـة» في وادٍ آخر، ولكنّـي أُضيفُ لأقول إنّ هنـاك تَوجُّساً وجَفَاءً وانْتِقاصاً مـن قَدْرِ هذه «المَنْظُومَة»، وذلك بالرّغْـم ممّا نَلْمَسُهُ من إجْماعٍ مُنْعَقِدٍ بين سياسيّـي ومُفكّري ومُثقَّفي الدُّول النّامية على أنّ «طريـق النّجاة» مـن «حالة التَّخَلُّفِ والضَّعْف» يَكْمُنُ في «الأُفُـقِ العِلْميّ - التّقنيّ». إنّي أَزْعُـمُ أنّ ثقافتنا وقِيَمَنَا السّائِدَةَ وتعامُلاتِنَا الفِكْريّـة والاجْتماعيّة والإعْلاميّة تُعَاني من ظِلالٍ كثيفةٍ من التَّوَجُّسِ والجَفَـاءِ والرِّيبة، وأحياناً الانْتِقَاصِ والتَّحَامُلِ والاحْتِقَار، لقِيَمِ «مَنْظُومَـةِ العلـوم والتّقْنية» وشُرُوطِهَا؛ وإنّي أَزْعُمُ - أيضاً - أنّ هناك دَوْراً غَائِباً أو مُغَيَّباً - في تفاعُلاتنا الحياتيّة - لـ«الثّقافة التّنْمَويّة» التي تَحْتَلُّ فيها «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» المَرْكَـزَ القياديّ ممّا يُعَمِّقُ من «الجَفْوَةِ» و«الفَجْـوَةِ» المُنْتَصِبَتَيْن في حياتنا اليوميّة بين مُتطلَّبـات الحيـاة المُعَاصِـرَةِ وتحدّياتِها من ناحيةٍ، وبيـن «الخِطَابِ الثَّقافـيّ» بمُخْتلف تَجَلّياتِـهِ وإسْهَامَاتِـهِ ورُمُوزِهِ من ناحيةٍ أُخْرى. ولذا فإنّ التَّحَـرُّكات المَدْروسَة، والخُطَطَ الوَاضِحَـة، والتَّعْبِئَةَ الصّادِقَة، نحو «المُصَالَحَةِ مع العلوم والتّقنية» تُصْبِحُ ضرورةً مَاسَّةً لاسْتِيعـابِ عَنَاصِرِ «مَنْظُومَةِ العلـوم والتّقْنية»، والتّفاعُلِ الإيجابيّ مـع مُقَوِّمَاتِهَا مَعْرفيّاً وثقافيّاً ومُجْتمعيّاً وسياسيّاً وإنْتاجيّاً وإعْلاميّاً.

٥-٥-١) العَدَاءُ الخَفِيّ:

إنّ اسْتِيعـاب مُقوِّمَاتِ «مَنْظُومَـةِ العلوم والتّقْنية» تَتَطَلّبُ - بدايـةً - التّغَلُّبَ على ما أُسَمِّيـه[٨٠] «العَـدَاء الخَفِيّ» للمَنْظُومةِ الذي يَتَجَلّى في عِـدَّةِ مظاهِر، منْها: تلك «الجَفْوَة الفِكْريّـة والثّقافيّـة والنَّفْسِيّة» المَلْمُوسَـة على مُسْتويات عِدّةٍ وفي سِياقـاتٍ مُخْتلفة، ممّا يَجْعَلُنَـا فـي أشدِّ الحاجة - أوّلاً - إلى بَذْلِ جُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ نحـو إجْراء «مُصَالَحَةٍ مع العلوم والتّقنيـة»؛ فمـن المُحْـزِنِ أنْ نَصْطَدِمَ يومياً بعَيِّنَـاتٍ من مَوَاقِف عديـدةٍ مُتَكَرِّرَةٍ - على الأصْعِدَةِ التّعْليميّة والتّربويّة والثّقافيّة والإعْلاميّة والمُجْتمعيّة -التي تَحْمِلُ في مضامينِها تَوجُّسـاً أو انْتِقَاصـاً أو اسْتِعْلاءً أو جَفَاءً أو سُوءَ فَهْمٍ لهـذه «المَنْظُومَة». إنّ الأمْثِلَةَ كثيرةٌ علـى هـذا، وليس المقـام - هنا - مقام حَصْـرٍ بقَدْرِ ما هـو مُحاولةٌ للتّعـرُّفِ على نُظُمِ «التَّفْكيـر المُهَيْمِنَـة»، وعناصِـر «الثّقافـة السَّائِـدَة»، التي تعـوقُ مسيرة «حركـة العلوم والتّقْنيـة» في «المُجْتمعـات العربيّة»، والحالُ هنا شبيهٌ بالحال الـذي تَطَرَّقَ إليه تشارلز سنو عندمـا وَصَفَ حالة «عدم فَهْم العلوم» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» في الخمسينات من القَرْن الماضي بأنّها: (تَمْنَحُ - بشَكْلٍ أعْمق ممّا نتوقّع - نَكْهَةً غير عِلْميّةٍ للثّقافة التّقْليديّة برُمَّتِهَا، وتلك النَّكْهَةُ غير العِلْميّة تَتَحَوَّلُ غالِباً - وبشَكْلٍ أكْبر ممّا نَعْتَرِفُ به - إلى مَوْقِفٍ مُضَادٍّ للعلوم)[٣٢].

إنّ مِثْـل هذا الحال يُفْقِـدُ المُجْتمع ما يَحْتَاجُهُ من طاقةٍ وتَعْبِئَـةٍ واسْتِنْفَارٍ لمُواجَهَةِ تحدّيات عَصْرِه، وما علينا إلاّ أنْ نَتَذَكَّرَ هذه الرُّؤى عندما نَقِفُ أمام طُرُوحاتٍ وقضايا تَعُجُّ بهـا - بين الحيـن والآخر - وسائِلُنا الإعْـلاميّة حيث تُعَاوِدُ في كُلِّ مَرَّةٍ اجْتِرَارَ السِّجَالاتِ نفْسها، والـرِّيبةِ ذاتها، والمُمَانَعَةِ بعينها، بينما تَنْطَلِقُ مسيرةُ «العلوم والتّقْنية» في «عَالَمِ الكِبَـار» من إنْجازٍ إلـى إنْجازٍ ليَجْمَعُوا المَجْـدَ من أطْرَافه. وأمّا الطَّريـفُ في الأمْرِ فهو أنّ «المُمَانَعَـة» عندنا هي فيمـا يَتَعَلَّقُ باسْتِخْدام «المَنْهَج العِلْمـيّ» والتّجارِب والسُّنَنِ في تَفْكِيرِنـا وتَحْليلِنـا وتَعْليلِنا، و«المُقَاوَمَة» عنْدنا هي ضِدَّ التَّهْيِئَـةِ الجَادّةِ لمُتطلَّباتِ العلوم فـي إسْتراتيجيّاتِنـا وبرامِجِنـا؛ ولكنّنـا لا نُعانِي أيَّ مُمَانَعَـةٍ أو مُقَاوَمَـةٍ أو تَوَجُّسٍ عندما

يَتَعَلَّـقُ الأَمْرُ بـ«الجَانِبِ الاسْتِهْلاكـيّ»، ففي ذلك تَفَوَّقْنَا حتّى على أَرْبَابِ «العلوم والتّقْنية» ومُنْتِجِيّ أدواتِها وفِكْرِها!.

يَبْرُزُ أحد أَوْجُهِ هذا «العَدَاء الخَفِيّ» في مَقُولَةٍ يُدَنْدِنُ حولها بعض المُثقّفين العرب - بيـن الفَيْنـة والفَينة - في نَعْتِهِمْ «العلوم والتّقْنية» بأنّها مُجَرَّدُ إِنْتاج تَطْبيقيّ، ومهاراتٍ تَجْريبيّـةٍ، ووسائِـل عمليّةٍ، لا يُمْكِـنُ اعْتبارُها أساسـاً حيويّاً لفِكْرِ الأُمّة؛ ففـي رأيهم أنّ «العلوم الإنْسانيّة» هي الأساس والأصْل، وهي المَدْخَلُ الحقيقيُّ للرُّقيّ الفِكْريّ. لقد غاب عنهـم أنّهم بتلك المَقُولَةِ السّطْحيّة لا يَغْمِطُون فقط الحقيقة البَارِزَةَ للعِيان لدَوْرِ «الفِكْر العِلْميّ» الرّياديّ في حياة الأُمم وتأْثيراته العميقة في تَشْكيلِ أَنْمَاطِ «الفِكْرِ المُعَاصِر»، ولا يُبْرِزُون مدى جَهْلِهِمْ بإيقاعـاتِ «الحياة المُعَاصِرَة» وطبيعةِ تحدّياتِها، ولكنّهم - أيضاً - يُعَمِّقُون الهُوّةَ مع هذا الفِكْرِ الحيويّ المَسْؤول عن أكْبر «النّقْلات النَّوْعيّة» في حياة البشر، ويَجْنُـون على مُسْتَقْبَلِ الأُمّـة، ويُثْبِتُون - من جديدٍ - أنّ ثقافتنا هي «ثقافةٌ أدبيّةٌ» مَحْضَةٌ تعيشُ على الانْفِعالاتِ والوِجْدانيّاتِ والانْطِباعاتِ لتَتَمَحْوَرَ حول خِطَابٍ مُحَنَّطٍ لا يَتَغَيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ، ولتَجْتَرَّ مُعْطياتِهَا في رِحْلةٍ دَاخِليّةٍ مَعْزُولَةٍ تَتَضَخَّمُ فيها رُؤىً ذاتيّةٌ عبْر الانْعِكاساتِ المُتَكَـرِّرَةِ على مرايا الأوهام النَّرْجسيّة والإنْشائيّات البلاغيّة والمُحَسِّنَاتِ اللّفْظيّة. ولذا فـإنّ ما نَشْهَدُهُ - بين الفَيْنَةِ والأُخْرَى - من دَعواتٍ مُنَادِيَةٍ بأولويّةِ «الدِّراسات الإنْسانيّة» تُمَثِّلُ مَظْهَراً من مَظَاهِرِ «العَدَاءِ الخَفِيّ» لـ«مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية»؛ فالتَّعَلُّقُ هنا بـ«العلوم الإنْسانيّة» ليس «تَعَلُّقَ حَاجَةٍ» ولكنّه «تَعَلُّقُ وِجْدانٍ» لثقافةٍ انْغَرَسَتْ عبْر تاريخها في «ثقافة اللّفْـظ»، واخْتَارَتْ الطَّريـق الأسْهل في التّعامُلِ مع قضاياها، ولذا فـإنّ هذه «الإشْكَاليّة» تجدُ جُذُورَهَا في أعْمَاقِ «العَقْلِ العربيّ» الذي ما زال أسير انْفِعالاته وأوهامه وتخيُّلاته.

وأمّا عندمـا يَنْدَفِعُ «الخِطَابُ الدَّعَويُّ» في مَظَاهِرِهِ المُخْتلفة إلى «الشَّحْنِ النّفْسيّ» للشّبـاب وتوجيه فِكْرِهِمْ وطاقاتِهِم، فإنّه الأكْثر إهْمـالاً لطُرُوحاتِ «التّنْمية» ومُوَاصَفَاتِهَا المُعَاصِـرَةِ حيـث يَنْفَعِـلُ بالأحْـداثِ والابْتِـلاءاتِ دون تَعَمُّقٍ عملـيٍّ في أسْبَـابِ البلاء، ويَتَحَصَّنُ بقَدْرٍ كبيرٍ من الارْتياب والمُمَانَعَةِ أمام المُعْطيات العِلْميّة والإنْجازات التّقْنيّة، ويُكَرِّسُ أساليب الحِفْظِ والرِّواية والإيقاعات اللّغويّة، ويتجاوزُ طبيعة الاحْتياجات النّفْسيّة

والمَعْنويّــة والفِكْريّــة اللازمة لـ«الحركة العِلْميّة والتّقنيّــة»، ويَتَدَثَّرُ - في أغْلب الأحْوال - بــرِدَاءِ المَواعِظِ المَكْــرُورةِ والقَوَالِبِ التّقْليديّةِ والشَّحْنِ العَاطِفــيّ والعُمُوميّاتِ التي تَفْقِدُ تَأْثيرهــا - في الغالِب - حــال اصْطِدَامِ سامعيهــا بوَاقِعٍ يَنْتَصِبُ أمامهم بــكُلِّ تحدّياته، ويَعْكِسُ كُلَّ عَجْزِهِمْ في التّعامُلِ معه. وهكذا تغيبُ عن طُرُوحاتِ «الخِطَابِ الدَّعَويّ» - إلى حَــدٍّ كبيــرٍ - عَنَاصِرُ «التَّحْفيز» نحو «التّنْمية والبِنَاء» عبْر تَبَنِّــي «الفِكْر العِلْميّ»، والتَّوجُّه إلــى «ميادِيــن التّقْنية»، ومَنْــحِ «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنيــة» الأولويّة القُصْــوى عبْر الدَّعْمِ والتّنْويهِ بأبْعَادِ المَثُوبَةِ النّاتِجَةِ - دُنْيويّاً وأُخْرويّاً - عن ذلك النّوْعِ من المُثَابَرَةِ والجُهْد.

ومِــن المُهــمّ أنْ نُسَجِّلَ هنا أنّ ظَاهِــرَةَ «التَّصَادُم مع الحقائِــق العِلْميّة» وتَسْفيهِهَا، ورَفْضَ التّعامُــلِ مــع مُعْطياتِها المُسْتَقِــرّة ونتائِجِهَــا الثّابتَة، هي - في الوَاقِــع - تَرْسيخٌ لذلــك «العَدَاءِ الخَفِيّ» الكَامِــنِ في «الوِجْدَانِ العربيّ» لهذه «المَنْظُومَةِ» التي لم نُسْهِمْ في صِناعتِهــا وتَطْويرِهــا، ولكنّها تَأْبَــى إلاّ أنْ تَقْتَحِمَ حياتنا ومَأْكَلَنَــا واتّصالاتِنا واقْتصادَنا وتفاعُلاتِنــا الاجْتماعيّــة والفِكْريّة، ويكــونُ مَلاذُنَا الوهميّ - عادةً - هــو ذلك «المَوْقِف الانْتقائــيّ» الذي يُعَطِّلُ «عَجَلَةَ التَّطْوير» فــي حياتنا، وإنْ كنّا - في نهاية المطاف - نُقَدِّمُ «التّنَــازُلاتِ الاسْتِهْلاكيّة» تحْت وَطْــأةِ الحاجة ومُقْتضياتِ الحياة وعِشْــق الرّفاهية، ولنا عِبَــرٌ فــي أمْثلةٍ تَبْدَأُ مــن «اللاّسلكي» والسَّيّــارة، وتصلُ إلى «كاميرا الجَــوَّال» وتَطْبيقات «الآيفون» وفضاءات «الإنترنت»، ويَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُون. ولا يَتَمَثَّلُ ذلك «العَدَاءُ الخَفِيُّ» فقط فــي غِيَابِ الطّرْحِ القــويّ والأصيل لـ«المُقَوِّمَاتِ الثّقافيّة» لـ«الحركــة العِلْميّة والتّقنيّة» في مَواعِظِنَا وإعْلامِنا وتَعْليمِنا وحَرَاكِنَا المُجْتمعيّ، ولكنّه - أيضاً - يَتَمَثَّلُ في غِيَابِ «الإرادة السِّياسيّــة» و«القُوّة الإجْرائيّة» القَادِرَتَيْن على نَقْلِ تلــك «المُقَوِّمَاتِ الثَّقافيّة» ومُتطلَّباتِها العمليّة من عــالَم الــورق والمؤتمرات والبَهْرَجَةِ الإعْلاميّة إلى وَاقِعٍ يَتَحَرَّكُ على الأرْض، ويَتْرُكُ بَصَمَاتِهِ على حيوات الأفْراد وحركة المُجْتمع.

أَدْري أنّ (النَّاســ أَعْدَاء ما جَهِلُوا)، ولكن «العلوم والتّقْنية» أَصْبَحَتْ ضَرورةً حتميّةً لا مناصــ عنها، ممّا يُوجِــبُ تَقْليصَ مِساحة ذلك «العَدَاءِ الخَفِــيّ»، واسْتيعابِ «الخِطَابِ

الدَّعَـويّ» لعناصِـرِ «الفِكْـرِ التَّنْمَويّ»، وتوليـدِ «التَّفاعُـلِ الإيجابيّ» مـع «مَنْظُومَةِ العلوم والتِّقْنية» التي أَصْبَحَتْ قضيّة «حياةٍ أو موتٍ» للأُمّة بحيث يكون «الخِطَابُ الدَّعَويّ» قادِراً على مُوَازَنَـةِ «المَصَالِح والمَفَاسِد» على أرْضِ الوَاقِع، ولكي يكون في مَوْقِعٍ رياديٍّ مُعَاصِرٍ تَتَجَلَّى فيه صُوَرُ الاهْتمام العَصْريّ بما يَنْفَعُ الإنْسان، ويُعَمِّرُ الأوطان.

وأمّـا أهميّـةُ دَوْرِ «الخِطَابِ الدَّعَويّ» فإنّهـا لا تَخْفَى على أحـدٍ؛ فللدُّعاة مُرِيدوهم ومُحِبُّوهـم، وبالتّالـي يَتَمَتَّعُـون بقُدْرةٍ علـى التّأْثير كبيرةٍ ممّـا يَجْعَلُ دَوْرَهُمْ فـي تَشْكيلِ «الرُّؤيـة التَّنْمَويّـة»، وتَحْفيـزِ «الحماسِ العمليّ»، مَطْلُوباً فـي «التّفاعُـلات المُجْتمعيّة»؛ ولأنّ «التَّغْييـر الثَّقافـيّ» هـو أصْعب أنْـواع التَّغْيير، فإنّ تَكَاتُـفَ جُهُودِ مُخْتلـف الشّرائِح والاهْتمامـات ضَروريٌّ لإحْـدَاثِ تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّـة» المَطْلُوبة في فِكْـرِ الأُمّة وثقافتِها وإسْهاماتِهـا. بطبيعـة الحال لا يَنْبَغِي – في هذا السِّيـاق – أنْ نَغْمِطَ حَقّ عَدَدٍ مُتزايدٍ من المُثقَّفيـن والمُفكِّريـن والدُّعَاة فـي «السّاحَة الثّقافيّـة العربيّة» وهم يَبْذُلُـون جُهُوداً في مجـالات «التَّوعية العِلْميّة» في مُحاولاتٍ فَرْديّةٍ لـ«المُصَالَحَةِ مع العلوم والتِّقْنية»، وحِرْصٍ على «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» معها، ومَنْحِهَا الأولوّية التي هي أَهْلٌ لها، ولكن تَغِيبُ عن الميدان – في مُعْظَمِ الأحْوال – «الإرادةُ السِّياسيّةُ» الفَاعِلَة، والحركةُ المؤسَّسيّةُ النَّشِطَة، والرُّؤيةُ الإسْتراتيجيّةُ الحصيفة، والإجْراءاتُ العمليّـةُ المُؤثِّرَة، لإحْدَاثِ التّأْثير العميق المَنْشُود على مُخْتلف الأصْعدة الثّقافيّة والتّعْليميّة والبَحْثيّة والإعْلاميّة والاجْتماعية وغيرها.

وتَبْقَـى قضيّةُ «المُصَالَحَةِ مع العلـوم والتّقْنية» هَاجِساً مُقِيماً، وهـي في تَرَاكُمَاتِها تُؤَكِّدُ الحاجة إلى تلك «الثَّقافة التَّنْمَويّة» التي تُصَادِقُ «العلوم والتّقنية»، وتُصَافِحُ أبْعَادَهَا، وتتصالَـحُ مع فِكْرِهَـا، وتُسَاعِدُ علـى نَشْرِهَا؛ وهي فـي تداعياتِها تَسْتَوْجِـبُ الدَّعْوَةَ إلى «إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَويّةٍ» شَامِلَةٍ تَهْتَمُّ بتأْصيلِ «تفاعُلات إيجابيّة» تُمَثِّلُ «الاسْتِجَابَةَ المُلائِمَةَ» في حياة «الإنْسان المُسْلِم» لـ«تحدِّيات» عَصْرِه، وتَحْرِصُ على تَعْزِيزِها وتَطْويرِها، وتتمكَّنُ من توليدِ «الدَّفْعِ الذّاتيّ» للتّصدّي – بحيويّةٍ وفَاعِليّة – للمُشْكلاتِ المُعَاصِرَة.

٥-٥-٢) المُنْطَلقاتُ الدِّينيّةُ و«الفِكْرُ التَّنْمَويّ»:

عندمـا نجدُ أنّنـا نَتَحَصَّنُ بقَـدْرٍ كبيرٍ مـن الارْتِيـابِ والمُمَانَعَةِ أمـام «اليقينيَّات العِلْميّـة» مـن قوانيـن وسُنَنٍ اسْتَقَـرَّتْ فـي «المَعْرِفَةِ الإنْسانيّـة» على الصّعيـدِ النّظريّ والبُرْهَـانِ التّجْريبـيّ، فإنّ علينا أنْ نُراجِعَ مَنْظُومَتَنَا الفِكْريّـة والثّقافيّة التي فَشِلَتْ ليس فقـط في التّصَالُحِ مع «العلوم الحديثة» والتّآلُفِ مع «شُـرُوطِ التّقْنية المُعَاصِرَة»، ولكنّها أيضاً فَشِلَتْ - ابْتداءً - في أنْ تَنْصَاعَ لمُقْتضياتِ «الخِطَابِ الإسْلاميّ» الصّحيح الدَّاعِي إلـى التّدَبُّرِ في آياتِ الكَـوْن، والتَّفَكُّرِ في السُّنَنِ الإلهيّة التي لا تَتَحَـوَّلُ ولا تَتَبَدَّلُ، والأَخْذِ بأسْبَـابِ القُـوّةِ التي تَحْمِي قِيَـمَ الأُمّة وحَقَّهَا في الحياة الكريمـة. إنّ مِثْلَ ذلك «المَوْقِف الاسْتِعْلائـيّ» على مُعْطيـاتِ «العلوم والتّقْنيـة» وأدبيّاتها وفِكْرِهَا، الـذي يُمَيِّزُ الكثير من الطُّرُوحَـاتِ الدَّعَويّـة، تَجْعَلُنَا نتساءَل عن مُؤشِّرَاتِ خِطَابِنَـا الدَّعَويّ، وهل اسْتطاع فِعْلاً أنْ يتناغـم مع طبيعة «تحدِّيات العَصْر» و«مَسْؤوليّـات المُسْتَقْبَل»، أَمْ أنّه أَبْقَى على شَكْلِهِ التُّرَاثـيّ الوَعْظـيّ ليُنْتِجَ مزيداً من «الدُّعَاة»؟، ولكن من حَقِّنَـا أنْ نَسْأَلَ في زمن «الإنْتاج والتّنْمية»: (وماذا عن «البُنَاة»؟).

إنّ مـن أخْطـر ما يُمْكِنُ أنْ يَحْـدُثَ للأُمّة، هو «النَّظْرَةُ الدُّونِيّـةُ» للعلوم والتّقْنية التي تَنْتَقِصُ مـن شَأْنِهَا، وتَدْفَعُ بها إلـى مَواقِعَ في أدْنَى قَائِمَةِ الأولويّـات؛ ممّا يقودُ إلى هَيْمَنَةِ اهْتِماماتٍ أُخْرى قد يجدُ كثيرٌ من الشَّباب في ثناياها مَزَالِقَ تَصْرِفُهُمْ عن الانْخِرَاطِ الجَادِّ فـي مَعْمَعَةِ «العلوم والتّقْنية» وبِنَـاءِ الوطن، وتَدْفَعُ بهم إلى الانْغِمَاسِ فـي متاهاتٍ إنْشائيّةٍ عقيمةٍ، والتَّخَبُّطِ في مداراتِ تَدْميرٍ ذاتيٍّ من الإحْبَاطِ القَاتِل، والحماسِ الأَهْوج، والانْغِلاقِ المُرَوِّع، والاجْتِرَارِ المُشِين، والانْكِفَاءِ على الذّات، وتَعْميقِ حالة الضَّعْفِ السّائِدَة.

مـن المُهِـمّ - إذاً - أنْ يكون الدُّعَاةُ والمُثقّفون ورجالُ الفِكْـرِ والإعْلام سَنَداً متيناً لـ«الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» عبْر الدَّعْوَةِ إلـى احْتِرَام مَنْهَجِهَا، وتَأْصيلِ ثقافتِها، وتَفْعيلِ مُقْتضياتِهـا، واسْتِقْطَابِ القُدْرَاتِ والمهاراتِ لها. ويقـعُ «الخِطَابُ الدَّعَويّ» في قَلْبِ تلك العمليّـة فهو مُطَالَـبٌ بأنْ يَتَحَرَّكَ في اتِّجَـاهِ «التّنْمية»، ويَسْتَجيبَ لمُتطلَّباتِهـا، ويَسْتَأْنِسَ بتفاعُلاتِها، ويَخْرُجَ من ساحة «التّنْظيرِ والكلام» إلى ساحة «الفِعْلِ والالْتِحَام» مع «الفِكْرِ

التَّنْمَـويّ» ليتناغم بذلك مـع «رُوح العَصْر». إنّه مـن المُهِمّ، لِمُسْتَقْبَـل الأجْيال وازْدهار الأحْوال، أنْ نُحْدِثَ «نَقْلَةً نَوْعيّةً» في تَفْكيرِنَا وتفاعُلاتِنا من حالةِ «الحياةُ كَلِمَةٌ» إلى حالةِ «الحياةُ فِعْلٌ» لتَتَحَرَّكَ الإنْجازاتُ على الأرْض، وتتدافعَ مُعْطياتُ العمل المُتْقَنِ في مُخْتلف أوْجُهِـهِ المُعَاصِرَة، وتَزْدَهِـرَ العطاءاتُ الوطنيّة في مجالات «العلـوم والتّقْنية» في حركةٍ مُجْتمعيّةٍ نَشِطَةٍ يتفاعلُ معها «الخِطَابُ الدَّعَوِيّ» بإيجابيّةٍ، ويُسْهِمُ في صِياغتِها وتَشْكيلِها والارْتِقَاءِ بها - فِكْراً وعملاً وإنْجازاً -.

إنّ مـن أهـمّ مُقَوِّمَاتِ «الثَّقافة التَّنْمَويّـة» قُدْرَتَهَا على تَأْصيـلِ الإنْتاجيّة والعمل في تلاقُـحٍ وتَوَازُنٍ بين وِجْدَانِ الأُمّة وفِكْرِهَا من ناحيةٍ، وبين شُرُوطِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وضُغُوطِ «التّقْنية» من ناحيةٍ أُخْرَى، لتجد «العلوم والتّقْنية» تُرْبَتَهَا الخِصْبَةَ المُسْتَنِدَةَ إلى توظيفِ واسْتِدْعَـاءِ تلك المُنْطَلقَـاتِ الأصيلةِ في «الفِكْـرِ الإسْلاميّ» المُؤَسَّسَةِ علـى طَلَبِ «العِلْم النَّافِـعِ» و«عِمَارَةِ الأرْضِ» و«العملِ الصّالِـحِ» و«الإحْسَانِ» الذي من أبْرز معانيه «الإتْقَان»؛ وأمّا ذلك «التَّزاوُجُ النَّهْضَويّ» فقد عَبَّرَ عنه زكي نجيب محمود عندما تَكَلَّمَ عن «النُّهُوض»، وأشار إلى أنّه: (لن يَتَحَقَّقَ إلاّ إذا جاءَتْ الحَوافِزُ من الدِّين والوسائِلُ من العِلْم)[٢٠].

وأمّـا الدُّعَـاةُ فمَسْؤوليتُهم في هـذا المجال كبيـرةٌ؛ لأنّه من باب «الأَخْـذِ بأَسْبَابِ القُوَّة» في «الأَلْفيّة الثّالثة»، وهو أمْرٌ يُصْبِحُ في حالات الضّرورة المُلِحَّة «فَرْضَ عَيْنٍ» على الأُمَّـة بأَسْرِهَا، ويرى زين العابديـن الرّكابي - ضمْن شُرُوطِ توفير بِيئةٍ مُوَاتِيةٍ لـ«الثَّقافة العِلْميّـة» - أنّ أحـد هذه الشُّـرُوط: (اسْتِصْحَـابُ مَنْطِقِ القرآن في التّحْريضِ المُكَثَّفِ المُتَلاحِقِ علـى التَّعَامُلِ الذّكيّ البصير مع سُنَنِ الكَوْنِ ومظاهـرِه وحركتِه، واسْتِصْحَابُ مَنْطِقِ القرآن في الدَّفْعِ على التَّعَرُّفِ على «الكَيْفيّات»:

أ) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]؛

ب) ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩]؛

ج) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان:٤٥]؛

إنّ هذا النَّصّ القرآنيّ المُحَرِّض على التَّفْكير، وعلى التَّعرُّفِ على الكَيْفِيّات، والدَّاعِي إلى تَسْخيرِ ما في الكَوْن...هذا النَّصُّ القرآنيُّ لم يُخَاطَبْ به - فحسبْ - جاليليو وبيكون ونيوتــن وآينشتاين وجيمس وات وستيفن جراي وكارل لينــس وكلارك ماكسويل وكونراد رونتجــن، بَلْ خُوطِبَ بذلك النَّصّ: عبد الله وأحمد وخالد ومحمود ومحمد وعلي وفيصل وعبد الرحمن وعمر، وسَائِر العرب والمُسْلِمين)[١٤].

هــذه الرُّؤيةُ التي ترى في «الالْتِحَامِ العُضْــوِيّ» بين «الدِّين» و«العِلْم» ضَرورةً حياتيّةً وتَنْمَويّــةً لا مناصــ عنها تتأكَّدُ لدى عبد الغني عبود بقولــه: (ومن ثمّ يكون خطأ ما أُشِيعَ بيننا، خَاصّةً في عَالَمِنَا العربيّ، من ضَرورة عَزْلِ الدِّين في رُكْنٍ ضَيِّقٍ من أرْكان الحياة، هــو رُكْنُ العِبَادات أو «الشَّعَائِر»، إذا أُرِيدَ لنا أنْ نَتَقدَّمَ، وأُرِيدَ لخُطَطِنَا التَّنْمَويّة أنْ تُحَقِّقَ النّجــاح، إذْ ليســ من شَــأْن الدِّين - أيٍّ ديــنٍ - أنْ يعيش حبيس الضَّميــر والوِجْدَان، بَلْ مــن شأنــه أنْ «يُوَجِّهَ» - مــن خلال هذا الضَّمير والوِجْــدان - «كِيان» الإنْســان كُلّه وِجْهَةً مُعَيَّنَــةً في الحياة)[٢٢]. وتَتَعَمَّــقُ هذه الرُّؤيةُ لدى عبد الله بن بَيَّه عندما يَصِفُ حال الأُمّة الإسْلاميّــة فيقول إنّهــا: (تعيشُ أزْمَةً حضاريّــةً وفِكْريّةً جَعَلَتْهَا فــي خُصُومَةٍ مع التّاريخ ومــع العَصْرِ على حِسَابِ التّنْمية الرُّوحيّة والنَّفْسيّــة والإنْسَانيّة والاقْتصاديّة؛ ما أَفْقَدَهَا الانْسِجَــامَ الضّروريّ بيــن الضَّميرِ الدِّينيّ والأخْلاقــيّ والوَاقِعِ الإنْسانــيّ المُعَاصِر، فلم تَسْتَطِعْ المُواءَمَةَ بين كُلِّي الزَّمَان وكُلِّي الشَّرَائِع والإيمان)[٨١].

إنّ قضيّة «العلوم والتّقْنيــة»، ومُسْتلزماتِها الثّقافيّة والمُجْتمعيّة، جديرةٌ بأنْ تُصْبِحَ هَاجِســاً يوميّــاً في تفاعُلاتِ الأُمّة لأنّها - دون مُبَالَغَة - هي «القضيَّةُ الأَهَمّ»، فهي - بحَقٍّ وحَقِيــقٍ - «الطَّريقُ إلــى المُسْتَقْبَل الواعِد»، وهي «قضيَّة جِهَادٍ» كما وَصَفَهَا محمد صلاح الدّيــن بقولــه: (يَتَوَجَّبُ علينا أنْ نقول لشبابنــا إنّ «الجِهَاد الحَقّ» ليســ بحَمْلِ رَشّاشٍ أو قُنْبلــةٍ والذّهَابِ إلى أفغانســتــان أو العراق أو فلسطين، فلكُلّ بلدٍ أَهْلُــهُ القَائِمون بشُؤونه، ومــن الأولى ألاّ يكــون الجِهَادُ بالفَسَادِ في الأَرْضِ، وسَفْكِ الدَّمِ الحَــرَام، وتَرْويعِ الأَمْنِ، وتَفْجيرِ المُنْشَآتِ، فكُلُّ ذلك جُرْمٌ عظيمٌ، إنّما «الجِهَادَ الحَقّ» والاسْتِقْلالَ والسِّيادة ببِنَاءِ

الوطـن، وتَعْزيـزِ الاقْتصاد، والتّفـوُّقِ في الصِّنَاعَـة، وسَبْقِ الآخَرين فـي الإنْتاج والعلوم والمُخْترعات)[٨٢].

وأمّـا الحقيقـةُ الجَليّةُ، فهـي أنّه لا تُوجَدُ قضيّـةٌ تُحَدِّدُ مُسْتَقْبَل مـا يَرْبُو على مليار مُسْلِـمٍ مِثْلَ قضيّة «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» التـي يَصْطَدِمُون بها في مُخْتلف أقْطارِهم وأقاليمِهـم لتَعْزِلَهُـمْ عن مُتطلَّبـاتِ عَصْرِهم، وتَصْنَـعَ حَائِلاً كثيفاً بينهـم وبين شُرُوطِ زمنِهم؛ ولا تُوجَدُ قضيّةٌ قَادِرَةٌ على إحْدَاثِ «النَّقْلة النَّوعيّة» اللازِمة في حياة ذلك الحَشْدِ البشـريّ المُتَلاطِم بأفْـكَارِه، والمُتَصَارِعِ بخِلافاته، والمُبَدِّدِ لطاقاتـه، إلاّ قضيّة القُدْرَةِ على خَوْضِ غِمَارِ «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» بفَاعِليّةٍ وحيويّةٍ، وهذه القُدْرَةُ - عند توافُرِها - هـي الكفيلـةُ - بإذْنِ الله - بأنْ تَنْتَشِلَ الأُمّة من وَاقِعٍ أَصْبَحَـتْ فيه مَغْلُوبَةً على أمْرِهَا، وغريبةً على زمنِها.

إذا كانـتْ هذه القضيّة بتلـك الأهميّة القُصْوى، فحريٌّ بأنْ يَتَحَوَّلَ الاهْتِمَامُ بها إلى «تَعْبِئَـةٍ عَامَّةٍ» للطّاقـات، و«اسْتِنْفَارٍ دَائِم» للهِمَـم، لتُصْبِحَ بالفِعْلِ «قضيَّـةَ جِهَاد»؛ فهي قضيّـةُ «حياةٍ أو مَوْتٍ» للأُمّة، وهنا تَتَحَوَّلُ «فُرُوضُ الكِفَايَة» إلى «فُرُوضِ عَيْنٍ»، وتُصْبِحُ «القضيَّـةُ الأَهَمُّ» في حيـاة الأُمّة هي تَأْمين تلك «القَاعِدَةِ العِلْميّـة العريضة» التي تَتَغَلْغَلُ في «نسيج المُجْتمع»، وتَمْنَحُهُ قُوّةَ الدَّفْعِ الفعّالَة، وتُسْبِغُ عليه ذلك التَّرَاكُمَ الخِصْبَ الذي تَصْنَعُـهُ آليّـاتٌ حَاذِقَةٌ على مساراتِ «الإنْجـاز العِلْميّ - التّقنيّ» الكفيلـة بتَحْقيقِ مَفْهُومِ «الاسْتِخْلاف في الأرْض».

٥-٧) المَدْخَلُ إلى «الثّقافة العِلْميّة»:

إنّ اعْتِبَـارَ قضيّـة «التّحـدِّي العِلْميّ - التّقنـيّ» «قضيَّة جِهَادٍ»، كمـا وَصَفَهَا محمد صـلاح الدّين[٨٣]، هو دَعْـوَةٌ في محلِّها، وهو التّوجُّهُ الجَادّ الذي يتفاعلُ مع قضيّة «العلوم والتّقْنيـة» بكُلِّ صِـدْقٍ وحيويّةٍ وفْق أولويّتِها وريادتِها في هـذه المَرْحلةِ الحَرِجَةِ من تاريخ الأُمّـة. من الجَلِيِّ أنّه لن تَتَحَقّقَ تلك «النَّقْلَـةُ النَّوْعيّةُ» - في «المُجْتمعات العربيّة» - على

مُخْتلـف الأصْعِـدَةِ إلاّ إذا اسْتَقرَّتْ «مَنْظُومَةُ العلوم والتّقْنيــة» كـ« عمودٍ فِقْريٍّ» لتفاعُلاته واهتماماته ومُنَافسَاته، دَافِعَةً بذلك إلى تّغيُّراتٍ جِذْريّةٍ في القُدْرَاتِ والمهاراتِ والمَوارِد؛ ولكي تَنْعَكِسَ تلك الرُّؤية على كُلِّ طُرُوحاتِنا وإسْتراتيجيّاتِنا، فإنّه يَنْبَغي حَشْدُ الجُهُودِ نحو «القضيّــة الأَهَمّ» في مُسْتَقْبَلِ الأُمّة. وفي هذا السِّياق يَحِقُّ لنا أنْ نَسْأل: (أين ذلك النَّهْجُ من خِطَابِنَا الدَّعَوِيّ، وخُطَطِنَا العمليّة، ومُمَارَسَاتِنَا اليوميّة، وثقافتِنا الجماهيريّة؟، وأين هــي تلك «الاسْتراتيجيّةُ الشَّامِلَةُ» اللاّزِمَة لبَلْوَرَةِ تلك الرُّؤى المصيريّة وتَفْعيلِ مُقْتضياتِ «الثَّقافة التّنْمَويّة» في تَعْليمِنا وإعْلامِنا وتفاعُلاتِنا المُجْتمعيّة على طريق «المُسْتَقْبَل» بكُلِّ شُرُوطِـهِ وتحدّياتِهِ ومعاييره؟، ومــا «شُرُوطُ الثَّقافة» التي يَنْبَغِــي أن تُمَثِّلَ «عموداً فِقْريّاً» تَتَمَحْوَرُ حوله «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» لتتمكَّنَ من إحْدَاثِ «التَّحَوُّلات الكَيْفيّة» اللازمة في أنْمَاطِ التّفْكير، و«التَّغَيُّرَات السُّلُوكيّة» المَطْلُوبة في تفاعُلاتِ الحياة، و«القِيَم العمليّة» المُتناغِمَة مع «المُسْتَجِدَّاتِ الاجْتماعيّة» و«التَّحَدِّياتِ المُعَاصِرَة»؟).

إنّ النَّظْـرَةَ الفَاحِصَةَ لأحْوال «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَــة»، وتَطَوُّرِ مَنْظُومَتِهَا الحياتيّة، تُؤَكِّـدُ أنّـه كُلّما اتَّسَعَتْ «القَاعِـدَةُ العِلْميّــة – التّقنيّة»، زاد النّشاط الفِكْـريّ والاجْتماعيّ والثقافــيّ والإنْتاجــيّ، وتَوَطَّدَتْ صِلاتُ المُجْتمــع مع عَصْرِه، واكْتَسَبَ الثِّقَــةَ في قُدْرَاته، وانْخَرَطَ في التّفاعُلاتِ الحيويّة المُجْدية، وتَعَزَّزَتْ في سُلُوكيّاتِ أفْراده معاني الانْضِبَاطِ والعمـل والإبْداع، وتَحَــرَّرَ مَنْسُوبوه من نَوَازِعِ «الإحْبَاطِ» وهَوَاجِسِ «الغُرْبَةِ الفِكْريّة» التي تَدْفَـعُ إلـى حماقـاتٍ لا تُحْمَدُ عُقْبَاهَــا، وتُشْغِـلُ أَهْلَهَا بتأويـلاتٍ فَاسِـدَةٍ، ورُؤىً أحَادِيّةٍ، ومفاهيــم سقيمةٍ؛ فالحقيقةُ التي لا مِرَاءَ فيها أنّ ابْتِعَادَ المُجْتمع عن المَنْهَجِ القَادِرِ على تَأْصيــلِ «المَنْظُورِ التّنْمَويّ» وتوطيدِ دعَائِمِه، يَدْفَعُ به إلــى التّوَغُّلِ في إشْكَالاتٍ تَنْظيريّة، وجَـدَلٍ عقيم، وصِرَاعَاتٍ عَبَثِيّةٍ، وأوهام بَاليــةٍ، ليَسْقُطَ في فَخِّ «الفَرَاغ الحياتيّ» – فِكْريّاً ومَعْرفيّاً وسياسيّاً وإنْتاجيّاً واجْتماعيّاً –.

وأمّــا ذلك «المَنْهَــجُ» النّاجِعُ لعِــلاج أدْوائِنَا التَّنْمَويّــة وإشْكَالاتِنَــا النّهْضَويّة، فإنّه يَتَمَحْــوَرُ حول «ثقافــةٍ عِلْميّةٍ» وَاسِعَةِ النِّطَــاق والتّأْثير هي – في الوَاقِــع – هَمٌّ وطنيٌّ لدى الأُمَــمِ المُتَطَلِّعَــةِ إلى بِنَاءِ قَاعِدَةٍ عِلْميــةٍ رَاسِخَةٍ وتَأْسيسِ صَرْحٍ تقنــيٍّ مكين. ولا شَكَّ أنّ

عمليّـة «نَقْل التَّقْنية»، وقضيّة «التّنْمية المُسْتَدامَة»، ومُشْكلات «إدارة المَعْرفَة»، هي أُمُورٌ خَاسِـرَةٌ - بامْتيـازٍ - إذا لـم تَتَدَثَّرْ بدِثَـارِ «الثَّقافة العِلْميّة»، ولم تتضامـنْ مع مُنْطلقاتِ «الوَعْـي العِلْمـيّ»، ولم تَنْطَلِقْ من النّجاح في القضاء على ظَاهِـرَةِ «الأُمِّيّة العِلْميّة». ومن ذلـك المُنْطَلَقِ فإنّه يَنْبَغي أنْ لا نَسْتَغْـرِبْ من المَوْقِعِ الخَجُولِ الذي تَحْتَلُّهُ «الأُمّةُ العربيّةُ» علـى خريطة «التّنْمية والمَعْرِفَةِ والعلـوم والتّقْنية»، فهو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لإهْمَالٍ طويلٍ لقضيّةِ «الثّقافـة العِلْميّـة» وتَأْصيلِهـا فـي «البِنْيَةِ الثّقافيّـة» حيث أَمْضَـتْ مؤسَّسَاتُنَـا التّعليميّة والثّقافيّـة والإعْلاميّة عُقُوداً من الزَّمن تتباكى عليها، وتَتَغَنَّى بها في كُلّ مُناسبةٍ ومَحْفَلٍ، وتَخْطُـبُ وِدَّهَا في كُلِّ مقامٍ ومقـالٍ، ولكن العطاء بَقِيَ هزيلاً ومُشَتَّتـاً في جامعاتِنا ودُوَرِ نَشْرِنَـا وفعّاليّاتِنـا الثّقافيّة واهْتماماتِنا الفِكْريّة؛ ليَعْكِـسَ كُلّ ذلك حالاً مُزْرِياً من البُؤْسِ الفِكْريّ، والعَجْزِ المَعْرفيّ، والتِّيهِ التّنْمَويّ.

مـا سَبَقَ مـن اعْتِبَارَاتٍ تَجْعَلُ مـن «الثّقافة العِلْميّـة» «قَاطِرَةَ الثّقافـة المُعَاصِرَة»، والرَّافِعَـةَ اللّازِمةَ لقيام «الثّقافة» بدَوْرِهَـا التّنْمَويّ؛ ممّا يَجْعَلُ «الثّقافـة العِلْميّة» محْوَراً مُهَيْمِناً من مَحَاوِرِ «الثّقافة التّنْمويّة»، ومَدْخلاً ضروريّاً لتَفْكيك «إشْكاليّة التّنْمية»، وركيزةً صَلْدَةً لبرامجِ التّوعية والتّطْوير والمُشَارَكَة، ومُكَوِّنَاً حيويّاً من مُكَوِّنَاتِ التّفاعُلات الفِكْريّة المُعَاصِرَة. وهكذا نجدُ أنّ السُّؤال الأبْرز في إطار «هُمُوم التّنْمية» هو: (ما «الفِكْرُ» الذي يجـبُ أنْ يَرْتَعَ في «ساحات الفِكْر العربيّ» ليكون مَعْلَمَاً أساسـاً للنَّهْجِ المَطْلُوب، والخُطّةِ المَنْشُـودَة، والمُمَارَسَاتِ اللّازِمَة، والثّقافةِ السَّائِـدَة، والإسْتراتيجيّةِ الشّامِلَة؟). يَتَّضِحُ - عبْـر كُلّ مـا طَرَحْنَـاهُ - أنّ الإجابة عن ذلـك السُّؤال تعودُ بنا - بالضّـرورة - إلى تلك «القضيَّـة الغَائِبَة»، وهـي قضيّةُ «الثّقافة العِلْميّـة»، وضَرورة أنْ تَحْتَـلَّ «المَوْقِعَ الرِّياديّ» فـي «مَنْظُومَـةِ الثّقافـة التّنْمَويّة»؛ ولـذا فإنّ الحديـث عن «الثّقافـة العِلْميّة» هـو محْوَرُ الفُصُولِ التّالية.

«الثَّقَافَةُ العِلْمِيَّةُ»: وَقُودُ «الثَّقَافَة التَّنْمَوِيَّة»

٦-١) مَدْخَل:

لقـد خَلَصْنَا – فيمـا سَبَقَ – إلى أنّ «الثَّقافة» كَائِنٌ حَيٌّ يَتَطَوَّرُ ويَتَغَيَّرُ؛ فهي في حالةٍ ديناميكيّـةٍ مُسْتمـرّةٍ ممّا يَجْعَلُ الوَضْعَ عسيـراً، ومُتَعَدِّدَ العناصِر، عنـد التّأمُّل والتّحْليل والتّشْخيص فـي ضَوْءِ هُمُـوم «الثَّقافـة» وضُغُوطِهَـا المُتنامية. ولـذا لا يُمْكِـنُ اخْتِزَالُ «الثَّقافة» في فَعّاليّاتٍ فِكْريّةٍ أو فنيّةٍ أو أدبيّةٍ لا تكادُ تَتَغَيَّرُ مَعَالِمُهَا من جيلٍ إلى آخَر؛ فما تُحْدِثُـهُ المُتَغيِّراتُ المُتسارِعةُ والتّأْثيراتُ القويّةُ عبْر وَسَائِلِ الاتّصالاتِ الفائِقَةِ والتّرابُطِ العُضْـويّ مع تفاعُلاتِ «الثَّوْرَةِ العَوْلَميّة» تَفْرِضُ على «المُجْتمعات العربيّة» تحدِّياتٍ جَمّةٍ، وتَفْتَحُ آفاقاً جديدةً لا تَسْتطيعُ هذه المُجْتمعات أنْ تُهْمِلَهَا، ولا يجوزُ لـ«الثَّقافة» أنْ تُغْفِلَهَا؛ ومـن أبْرز هذه التحدّيـات وأكْثرها عُنْفواناً وتَأْثيـراً هو «التَّحَدّي العِلْمـيّ – التّقنيّ» بكُلِّ قفزاتِه المَعْرفيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والفِكْريّة.

لقد رأينـا في الفَصْل الثّاني كيف كانتْ أُطْرُوحَةُ «إشْكَاليّـة الثَّقافَتَيْن»، كما بَلْوَرَهَا تشارلـز سنو[٣٢]، مُنْطَلَقـاً لتَحَوُّلٍ جِذْريٍّ فـي «مَفْهُوم الثَّقافة» وتداعياتِـه وتفاعُلاتِه في «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، ولم تَزِدْ تطوُّراتُ النِّصْفِ الثّاني من القَرْنِ العشرين تلك الحقيقة إلاّ وضوحـاً وتَرْسيخاً؛ فقد جَعَلَـتْ «ثَوْرَةُ المَعْلُومات» من «الثَّقافـة العِلْميّة» مِحْوراً رئيساً للتّفاعُـلاتِ الفِكْريّـة والتّنْمَويّة والمُجْتمعيّة على طريقِ «العَوْلَمَـةِ» وثقافتِها. وأمّا «الأَلْفيّةُ الثّالثةُ» فإنّها تَجْعَلُ من التّحدّي التّنْمَويّ والتّلاقُحِ العِلْميّ والسِّبَاقِ التّقنيّ حقائِق وبدهيّاتٍ لا مناص من التّعامُـلِ معها وفْق لُغَتِهَا ومُتَطلَّباتِهَا وشُرُوطِهَـا؛ وهنا تَنْتَصِبُ مقولة رينيه

ماهيـو (Rene Maheu) – المدير العـامّ الأسْبق لليونسكو–: (إنّ تنْمية أيِّ أُمّةٍ لا يُمْكِنُ أنْ تَتَحَقَّـقَ إذا لـم تَنْتَقِلْ العلوم والتّقْنيّة مـن كَونها سِحْراً مُسْتَوْرَداً إلـى أنْ تُصْبِحَ عَادَةً لدى مُواطِنيها)[٤٤]، وأمّا «التَّقْريرُ العَالَميّ لِمُنَظَّمَة اليونسكو لعام ٢٠٠٥م»[٨٣] فيُقَرِّرُ أنّ: (رَدْم الشَّـرْخِ الرّقْميّ وإقامة نِظَامٍ للابْتكار مُلائِمٍ للبلـدان النّامية يجب أنْ يُضَافَ إليه اسْتيعابٌ حقيقيٌّ للعِلْمِ ضمْن «ثقافة التّنْمية»).

وأمّـا «الثَّقافةُ العربيّةُ» فقد أَهْمَلَتْ تداعياتِ تلـك الحقائِق الصّارِخة ومُقْتضياتِها، وراحـتْ تُكَرِّرُ «سُؤال النّهْضَة» – مَـرَّةً تِلْوَ الأُخْرَى – دَاخِلَ دَوائِـر مُنْغَلِقَةٍ تَجْتَرُّ مساراتِها وتُعِيـدُ أخطاءَهـا، ويَطْرَحُ زكي نجيب محمـود ذلك السُّؤالَ القديـمَ – المُتَجَدِّدَ في سَعيٍ لبَلْـوَرَةِ الإجابـة فيقـول: (سُؤالُنَا «لمـاذا تَقَدَّمَـتْ أوروبا بعْـد تَخَلُّفٍ وتَخَلَّفْنَـا نحن بعْد تَقَـدُّم؟». إنّنا نَسْـأَلُ سُؤالَنا هذا، وكأنّ الجواب خَافٍ عن الأبْصَـار، يَحْتَاجُ من البَاحِثين دَرْساً وتَنْقيباً، مع أنّ الجواب يَخْرِقُ العَيْن، وهو: لقد حاولتْ أوروبا منْذ نَهْضتِها في القَرْنِ السّادس عشر أنْ تَقِـفَ الوَقْفَةَ العَقْليّة العِلْميّة التي تَبْتَكِرُ بهـا في كُلِّ يومٍ حقيقةً جديدةً عن دُنْيانا هذه التي نعيشُ على أرْضِهَا ونَتَنَفَّسُ هواءها، بينما اتَّجَهْنَا خلال الفتْرة نفْسها نحـو الماضي، نُبْدِي فـي نُصُوصِـهِ المَكْتُوبَةِ ونُعِيـد)[٢٠]. وأمّا عبـد الله النّديم فيتأمَّلُ إمْكانـات «النَّهْضَـة» في القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ مُقَارِناً بيـن وَاقِعٍ يعيشُه، ومُسْتَقْبَلٍ يَرْنُو إليه، فيقول: (إنّ سُكّانَ الشّرْقِ عبيدٌ: إنّهم يَزْرَعُون ويَحْصِدُون ويُبْدِعُون لكي يُغَذُّوا التّجارة الأوروبيّة، ويزيدوا ثَرَاءَ أوروبّا... كما لو كانوا قد خُلِقُوا لِخِدْمَتِهَا. ما دام الشَّعْبُ خَاضِعـاً للجَهْلِ ويعـوزه الاسْتِعْدَاد للنّضَال، فإنّه لن يتمكّنَ مـن التَّوَصُّلِ إلى أيِّ شيء. إنَّ الانْتفاضـة لن تَجْلِبَ النّجاح، إذا لـم يَحُزْ الشَّعْبُ على المعارِف، وإذا ما انْصَرَفَ النّاسُ عن المَشْرُوعات الصّناعيّة، وإذا لم يَعْرِفُوا كيف يَسْتَعْمِلُون التّقْنية)[٦].

وهكـذا تَتَكَرَّرُ الأسْئلـة إيّاها عبْر الحِقَـبِ المُتتالية، بينما تَبْقَى طبيعـةُ اهْتماماتِ «الثّقافـة العربيّـة» ومُحَدِّدَاتِهَا ثَابِتَـةً عبْر القُـرُونِ دون تَغْيِيرٍ جوهريٍّ. وهكـذا تَتَجَلَّى – عبْـر الطُّرُوحَاتِ المُخْتلفة – ماهيَّـةُ «العُنْصُرِ الغَائِبِ» في تَرْكِيبتِهـا، وهو العُنْصُرُ الذي صَنَـعَ فُرُوقاً جَمّـةً عبْر القُرُون الثّلاثة الأخيـرة في حياة البشريّة، ووَضَـعَ الحَواجِزَ بين

«الـدُّول المُتَقَدِّمَـة» المُزْدَهِـرَةِ التي تُمْسِـكُ بصِناعة القـرار على مُسْتَوىً كَوْنيٍّ، وبين «الـدُّول المُتَخَلِّفَـة» التي تُعَانِي من مُشْكلاتِ الوَهَنِ الفِكْـريّ، والفَقْرِ المَعْرفيّ، والإحْبَاطِ المُجْتمعـيّ، والتَّخَبُّـطِ التَّنْمَويّ. ذلك «العُنْصُرُ الغَائِـبُ» هو ما يصوغُ زكي نجيب محمود طبيعتَه وتَأْثيرَه على النّحْو التّالي: (لنَسْتَخْرِجَ العُنْصُرَ الذي غاب عنْدنا فكان الانْحِدَارُ... ووُجِـدَ عنْدهم فكان الصُّعُودُ، وأَحْسَبُ أنّ الحقيقة عندئـذٍ ستَصْرُخُ في وجوهنا صُراخاً يَسْمَعُـهُ حتّـى الأصَمّ، بأنّهم هناك قد أخـذوا يَقْرؤون كِتَابَ الطَّبيعـة المَفْتُوح، ويَقْرؤونه علـى ضَـوْءِ «المَنْهَجِ العِلْميّ» المُؤدِّي حَتْماً إلى نتائج عمليّةٍ فـي حياة النّاس، بينما أَخَذْنَا نحـن نَقْرأُ صَحَائِـفَ الأقْدَمين لنَحْفَظَهَا حِفْظاً، ونَشْرَحَهَا ونَشْـرَحَ شُرُوحَهَا ونَكْتُبَ عنْها الهَوامِـش، ثـمّ نَشْرَحُ هذه الهَوامِشَ فـي هَوامِش، إلى آخر هذا الجُهْـدِ الشّاقِّ الذي يَبْدَأُ بالـورق ويَنْتَهِـي بالورق)[٢٠]. وأمّا حسن صعـب، فقد أَطْلَقَ الصَّرْخَـةَ منذ السّتينات في القَـرْن الماضي، مُـدْرِكاً مَكْمَنَ الضَّعْفِ في «العَقْـلِ العربيّ»، ودَاعِياً إلـى مَنْبَعِ القُوّةِ في وَاقِـعِ الحياة المُعَاصِرَة، فيقول: (نَدْعُو «العَقْلَ العربيّ» للتَّحَوُّلِ من «صِنَاعَةِ الكلمات» إلى «صِنَاعَـةِ الأشْياء»، ومن اجْتِرَارِ المَنْظُومَاتِ والأراجيـزِ إلى نَظْمِ الفِكْرِ والحياة، بَلْ نَظْمِ الكَوْنِ نَظْماً إبْداعيّاً جديداً)[٨٤].

أمّـا محمد عابد الجابريّ[١] فإنّه يَتَوَقَّـفُ أمام «المَعْرِفَة العِلْميّة» ليُصَنِّفَهَا كمُرَافِقٍ أساسٍ لشُرُوطِ تجاوز «أَزْمَةِ العَقْلِ العربيّ والثّقافة العربيّة»، فبينما يُحَدِّدُ الجابريّ هذه الشُّـرُوطَ بالتّغلُّبِ على «الأُمِّيّـة» التي تَعْنِي لديه إجَادَةَ اللّغات، والعمـل على إعادة قِرَاءَةِ «التُّرَاثِ» قِرَاءَةً نَقْديّة، والانْكِبَابَ المُتواصلَ على تَحْليلِ وَاقِعِنَا، فإنّه يُضِيفُ قائلاً: (على أنّ العمـل في هذه الوَاجهات الثّـلاث سيكونُ غير مُنْتِج، ما لم يكنْ مُرَفقَـاً بحَمْلَةٍ وَاسِعَةٍ من أجْلِ نَشْرِ «المَعْرِفَة العِلْميّة» على أوسع نِطَاق. ولسنا نَقْصِدُ هنا «نتائجَ العِلْم»، كُشُوفَهُ ومُنْجَزَاتِـه، بَـلْ نَقْصِدُ بصُورةٍ خاصّـةٍ «فَلْسفة العِلْم»، أَعْني المفاهيـم وطرائق التّفْكير المُؤَسِّسَـة لكُلِّ «مَعْرِفَةٍ عِلْميّـة». إنّنا نَسْتَهْلِكُ «العِلْمَ» كمُنْجَـزاتٍ ماديّةٍ أو نظريّة، ولكنّنا لا نُنْتِجُـهُ، والسَّبَبُ واضِـحٌ، إنّنا لم نَتَمَكَّنْ بعْد من إعْدَادِ التُّرْبَةِ الصّالِحَةِ لغَرْسِ شجرته، وليسـت هذه التُّرْبَةُ إلاّ الفَلْسفـة، فَلْسفة العِلْمِ بكَيفيّةٍ خاصّة). بطبيعة الحال لا نَتّفِقُ هنا

مع الجابريّ في أنّ تلك «المَعْرِفَة العِلميّة» هي فقط «شَرْطٌ مُرَافِقٌ»، أو أنّ التُّرْبَةَ اللّازِمَةَ هــي فقط «فَلْسَفَةُ العِلْم»؛ فالقضيّةُ أَعْمق من ذلك وأَشْمل، ولكن على الأقلّ هذه إرْهَاصَةٌ مُهِمّــةٌ من ضمْــن تلك الإرْهَاصَاتِ التــي تَضِجّ بها «أدبيَّــاتُ الثَّقافة العربيّــة» المُعَاصِرَةُ بصفتهــا أعْراضاً لأزْمَةٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، ولا شَكّ أنّنا فــي أمسِّ الحاجة إلى الغَوْصِ في أعْمَاقِ هذه «الأَعْرَاضِ» لتَشْخيصِ «المَرَضِ» ووَصْفِ «العِلاج».

بطبيعــة الحال، لا يَكْفِي إيمــاءٌ هنا وتَنْويهٌ هناك للخُرُوجِ من «مَــأْزِق التّنْمية» الذي وَقَعَــتْ فيــه «الثَّقافةُ العربيّةُ»؛ فالأَمْرُ فــي أمسِّ الحاجة إلى تَفْصيــلٍ وتَأْصيلٍ من ناحيةٍ، وإلى «خريطة طريقٍ» من ناحيةٍ أُخْرى، ويَبْقَى السُّؤالان الأكْثر إشْكَاليّةً في وَاقِعِنَا العربيّ، وهمــا: (هل يُمْكِنُ أنْ نَتَحَــدَّثَ عن «مُسْتقبَلِ الثَّقافة» بمَعْزِلٍ عــن عَصْرِهَا وطبيعةِ القُوى المُهَيْمِنَةِ عليه والمُحَرِّكَةِ لمساراته؟، وألا يَجُرُّنَا هذا الهَمّ إلى الحديث عن «ثقافة العلوم والتّقْنية»، وهي الحَاضِرَةُ الغَائِبَةُ - كالعادة - في كُلّ أُطْرُوحاتنا، وإنْ كُنّا لا نَنْسَى أبداً أنْ نُشيرَ إليها على اسْتِحْياءٍ ودون تَمَعُّنٍ؟).

وفــي سَعينــا لتَأْصيلِ ذلــك «العُنْصُرِ الحيــويّ» المَفْقُــودِ في «الثَّقافــة العربيّة» قد نجــدُ إجابةً شَافِيةً عــن السُّؤال الــذي أَرَّقَ الكثيرين من المُفكّريــن والمُثقَّفين والعُلماء، وهــو السُّؤالُ الــذي صَاغَهُ أنطونيوس كرم على النّحو التّالــي: (لماذا عَجِزَتْ الحضاراتُ الشّرقيّةُ العظيمةُ من تَحْويــلِ إنْجازاتها العِلْميّة والتّكنولوجيّة الضّخْمَة إلى ثَوْرةٍ صِناعيّةٍ دَائِمَــةٍ قَــادِرَةٍ على خَلْقِ الشُّــرُوطِ الضّروريّةِ لاسْتِمْــرَارِ تَطَوُّرٍ حضاريٍّ وفِكْــريٍّ وسِياسيٍّ مُتواصِــلٍ؟)[٨٥]. وفي بَحْثنا لتَأْصيلِ هذا «العُنْصُرِ الحيــويّ» المَفْقُودِ في «بَوْتَقَةِ النّهْضَة» حــريٌّ بنا أنْ نَقِفَ - أيضــاً - أمام السُّؤال الآخر الذي يَطْرَحُــهُ راشد المبارك[٢٥]: (هل يُمْكِــنُ أنْ يكون العَالَمُ الإسْلاميّ - دُولاً وشُعُوباً - على ما هو عليه في الوقْت الحَاضِرِ من تَخَلُّفٍ وجدبٍ؛ في الجَوانِبِ الاقْتصاديّة والعِلْميّة والتّقنيّة والعَسْكريّة، لو أنّ هذه البِدايات التي ظهر أوّلها منْذ أكْثر من اثني عشر قَرْناً على يد جابر بن حيّان والكِنْديّ وابن الهيثم وابــن سينا وابن النّفيس وأمْثالهــم وَافَتْ تُرْبَةً صَالِحَةً من إقْبَالِ المُجْتمع واهْتِمَامِ الدّولة وإدْرَاكِ مــا تَنْطَــوِي عليه هــذه البِدايات من أبْعــادٍ؟). ولا شَكّ في أنّ هــذا السُّؤال، في

مضامينــه وتداعياتــه واستشْكالاته، سُؤالٌ كبيرٌ بحَجْم مُعاناة الأُمّــة في بَحْثِهَا القديم - المُتَجَــدِّد عن سُبُل «النَّهْضَة»، وهــو يُشِيرُ بقوّةٍ إلى ضرورة توفيــر «الوَسَطِ» الذي يَصِفُهُ راشد المبارك بأنّه: (وَسَطٌ من طبيعته مُرُونَةُ الحركة والامْتِدَاد).

٦-٢) تَأثيرات العلوم والتِّقْنية على المُجْتمعات:

مــن أبْرز القضايــا المَطْرُوحة - بشَكْلٍ كبيرٍ - في «الفِكْرِ المُعاصِرِ» هي السُّؤالُ عن المِفْتَــاحِ لفَهْمِ المُشْــكلاتِ الإنْسانيّة ومَنْهَجِ الخُلُوصِ إلى الحُلُــولِ الضّرورية، وهل تَحْمِلُ «الثَّقافــةُ» بأدبِها وفُنُونِهَــا وفَلْسفتِها هذا المِفْتَــاحَ أمْ أنّ «العلوم والتِّقْنيــة» هي المُمْسِكَةُ بزِمَامِ الخَلاصــ؟. وعبْر التّاريخ خضعتْ المُجْتمعاتُ البشريّةُ لعمليّاتٍ مُضْنيةٍ ومُسْتمرّةٍ على طريق النُّضْجِ والنُّموِّ والتَّطوُّر الثّقافيّ، وفي إطار تلك العمليّات يُثْبِتُ التّاريخُ أنّه كان - وما يزال - لـ«العلوم والتِّقْنية» الدَّوْرُ الأبْرَزُ والأكْثَرُ فَاعِليّةً في إحْدَاثِ القفزاتِ الحياتيّة والتّغْييــراتِ الاجْتماعيّــة والتّطويرِ الاقْتصــاديّ؛ فاكْتشافُ أيِّ جماعــةٍ، أو اسْتِعَارَتُهَا، أو اسْتِخْدَامُهَــا لمبــادئ عِلْميّة، أو تَطْبيقُهَا لتقْنياتٍ حديثةٍ - مِثْــل: مَصْدَرٍ جديدٍ للطّاقة أو تَطْوير في اسْتِخْدَامِ مَصْدَرٍ قديم -، كان يقودُ مُباشَرَةً إلى آثارٍ عميقةٍ وتَغْييراتٍ مُتَتاليةٍ تَطْــرَأُ في العَلاقَــاتِ بين النّاس بعْضهم ببعْضــ، وبين مُجْتمعهــم والمُجْتمعات الأُخْرى؛ وبالتّالي كانتْ تلك المُجْرَيَــاتُ العِلْميّةُ والتّقنيّةُ تَتْرُكُ بَصَمَاتُهَا الوَاضِحَةُ على «الثَّقافة». بطبيعــة الحــال، ليس آخِرُ هذه التّأْثيرات ما أَحْدَثَهُ «عَالَــم الإنْترنت» ودُنْيا «الفيس بوك» و«اليوتيــوب» و«التّويتــر» وغيــر ذلك من عَوالِــم «الإعْلام الجديــد» من انْتشــارٍ للتّواصُلِ الاجْتماعــيّ ونَشْرٍ للتّفاعُلاتِ بين الجماعات والأَفْراد علــى مُسْتوىً وَاسِعِ النِّطَاقِ؛ ممّا له تداعيــاتٌ ضَخْمَــةٌ - سَلْباً وإيجاباً - نَشْهَدُهَــا ونَعيشُهَا ثانيةً بثانيةٍ فــي مُخْتلف الأصْقَاعِ والبِقَــاعِ علــى المُسْتوى الحركيّ والسّياســيّ والثّقافيّ والمُجْتمعــيّ والاقْتصاديّ والبَحْثيّ وغير ذلك من مجالاتٍ حياتيّة.

إذا كانــتْ «الحضــارة»، كمــا يــرى أوزوالــد سبنجلــر (Oswald Spengler) هي: (ثمــرةٌ لعبقريّــةٍ تَسِمُ عَصْراً مُعَيَّنَاً بمَيسَــمِ ابْتِدَاعٍ أساسيّ)[٢]، فــإنّ «الحركة العِلْميّة -

التّقنيّـة» هـي المَيْسَمُ المُهَيْمِـنُ والعَبْقريّةُ المُمَيِّـزَةُ للحضارة المُعَاصِـرَةِ التي بَدَأَتْ في التّشـكُّلِ مع بُزُوغِ «الثَّـوْرَةِ العِلْميّة» في القَرْنِ السّابع عشر الميـلاديّ. لقد اهْتَمّ كثيرٌ من المُفكّريـن والعُلمـاء بالتّأْثيـرات العميقة التي تَصْنَعُهَـا «الحركة العِلْميّـة – التّقنيّة» في المُجْتمعات[٨٩،٨٨،٨٧،٨٦،٤٧،٤٤،٣٢،٢٠]؛ وهذا هو محمد عابد الجابريّ يُؤَكِّدُ ذلك الدَّوْرَ الحَاسِمَ لـ«العِلْم» في تَشْكيلِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، وتَفْعيلِ أَنْشطتِها العَقْليّة والذِّهْنيّة، فيقول: (كُلُّ مـن لـه إلْمامٌ بتاريخ هذا الفِكْـر «أيْ الفِكْر الأوروبيّ» يَعْرِفُ أنّ الثَّـوْرَاتِ الحَاسِمَةِ دَاخِلَهُ كانتْ ثَوْراتٍ عِلْميّةً من كوبرنيكس إلى غاليليو إلى نيوتن إلى آينشتاين وماكس بلانك إلى «الفِـرَقِ» العِلْميّة المُعَاصِرَة. ولا نَقْصِدُ هنـا تَطْبيقاتِ العِلْم من أَجْهِزَةٍ وآلاتٍ وصِناعاتٍ، بَلْ نَقْصِدُ أساساً آثَارَهُ العميقة، بَلْ تَأْثيرَهُ الحَاسِمَ في مُسْتوى مُرَاجَعَةِ المفاهيم وتَجْديدِ الرُّؤى، وبالتّالي في إعادة بَنْيَنَة العَقْلِ وتَنْشيطِ فعّاليّاته بصُورةٍ مُسْتمرّة)[١].

وأمّـا أَبْرز «تَأْثيـرات العلوم والتّقْنية في المُجْتمعات» فيُمْكِـنُ إيجازُها في الجَوانِبِ التّالية:

١) التّأْثيـراتُ الثّقافيّـةُ المُبَاشِـرَةُ التـي تَنْعَكِسُ على تَعْديـلِ الأفْـكَارِ والأَعْرَافِ والمفاهيـمِ والسُّلُوكيّاتِ التّقليديّـة أو تَصْحيحِ أو إلْغاءِ الكثيـر منها، كما أنّها تَدْفَعُ إلى اكْتِسَابِ مُمَارَسَاتٍ وأفْكَارٍ وتصوُّراتٍ يَفْرِضُهَا نجاحُ «الحركة العِلْميّة والتّقنيّة» وتراكُماتُها المُتلاحِقَة.

٢) التّأْثيـراتُ التّقنيّة والأدواتُ التّطْبيقيّة التي غَيَّـرَتْ أَنْمَاطَ الحياة على مُخْتلفِ الأَصْعِـدَة، ومَيَّـزَتْ «المُجْتمعـات المُتَقَدِّمَـة» عن غيرهـا صِناعيّـاً وعَسْكريّاً واجْتماعيّـاً واقْتصاديّـاً؛ فـ«التّقنيـةُ» ذات «طبيعـةٍ اقْتِحَاميّةٍ»[٩٠] لهـا القُدْرَةُ الذّاتيّـةُ على غَزْوِ المُجْتمعات بمـا تُوَفِّرُهُ من سِلَعٍ وخِدْمَـاتٍ وابْتِكَاراتٍ، سَواءً كانتْ تلك المُجْتمعات رَافِضَةً لها، أو حَذِرَةً من آثارِها.

٣) التّأْثيراتُ البِيئيّةُ والاجْتماعيّةُ والسّياسيّةُ؛ فقد أَصْبَحَ «المُجْتمع الحديث» أَكْثَر عُضْويّةً في التَّرَابُطِ والتَّكَامُلِ بين أَجْزائِه، بحيث يتنامى الاعْتِمَادُ بين مُكَوِّنَاتِهِ

المُتَعَـدِّدَة. إنّ نُموّ أوْجُهِ التّعـدُّديّة، وزيـادة درجة التّشَابُكِ بين تفرُّعاتِ الحياة المُخْتلفة، يُؤدِّيـان إلى بُرُوزِ مؤسَّسَاتٍ مَدَنِيّـةٍ ذات اهْتماماتٍ مُتَنَوِّعَةٍ لتتعامل مـع الآثار والتّفاعُلات المُخْتلفة لـ«الحركة العِلْميّة – التّقنيّة»، وهذا – بدَوْرِهِ – يَفْرِضُ تغيُّراتٍ سياسيّةً في إطَارِ التّرْكيبة الدّاخِلية للدّولة أو في عَلاقَاتِهَا مع غيرها من دُول العَالَم.

٤) الآثـارُ الفَلْسفيّـةُ والقِيميّـةُ النّاتِجَةُ عن هَيْمَنَـةِ الإنْسان على بيئتِـه وسَيْطَرَتهِ علـى أنْمَاطِ حياته، وتفاعُـلِ الفَلْسفة والفِكْـرِ الإنْسانيّ مع إفْـرَازَاتِ «المَنْهَجِ العِلْمـيّ»، وطُـرُقِ تَفْكيـرِه، وآليّـاتِ تَحْليلِـه وتصوُّراتِه حول الحيـاة والطَّبيعة والكَـوْن، وكان من آثارهـا – على سبيل المِثـال – الحركةُ الفَلْسَفِيّـةُ المُسَمَّاة «الفَلْسَفَـة التَّجْريبيّة المَنْطقيّـة»، أو «الفَلْسَفَة الوَضْعيّـة المَنْطقيّة»، وقد أدَّتْ هـذه «الفَلْسَفَةُ التّجْريبيّةُ» بالفِعْـل دَوْراً لا يُمْكِنُ تجاهلُه في تَكْوين جَوانب عِدّةٍ من «العلوم الإنْسانيّة» وتَطَوُّرِهَا، مِثْل: «عِلْم النَّفْس» و«عِلْم الاجْتماع»[٩١].

٥) عمومـاً إذا اتَّفَقْنَا مع محمد عابد الجابريّ[١] بـأنّ «الفِكْرَ» هو «مُحْتوىً وأداةٌ» تَرْبطهمـا عَلاقَـةٌ عُضْويّـة بالمُحيط الاجْتماعـيّ – الثّقافيّ الـذي يَنْتَمِي إليه هـذا الفِكْر، فإنّـه يَتَّضِحُ حَجْمَ التّأْثيرِ الـذي يُمْكِنُ أنْ يُحْدِثَـهُ «الفِكْرُ العِلْميُّ» علـى «الثّقافـة»، ونُظُمِهَا المَعْرفيّـة، وأدواتِها اللّغويّـة، وفَاعِليّتِها الاجْتماعيّة، وتفاعُلاتِهـا المُخْتلفة. بَلْ إنّنا نَسْتطيعُ أنْ نَعْـزُوَ الفَرْقَ بين «العَقْلِ العربيّ» في رُكُودِهِ واجْتِـرَارِهِ وسُكُونِهِ وتناقُضاته، وبين «العَقْلِ الغَرْبيّ» في حيويّتِهِ وحركته وديناميكيّتِـه، إلـى غِيَـابِ «الثّقافة العِلْميّـة» و«الفِكْـرِ التَّجْريبـيّ» و«الحَاسَّةِ النّقْديّة» في «الثّقافة العربيّة».

وفي هذا السِّياق يَتَطَرَّقُ عبـد الرحمن المحسني[٩٢] إلى «أَثَرِ التَّقْنية» في «التَّكْوين الفِكْـريّ» الذي يَصْنَعُ «النَّصَّ الأدبيّ» حيث يُؤكِّدُ هذه الظّاهِـرَةَ فيقول: (يَمْتَزِجُ كُلُّ أدبٍ بالعَصْرِ الذي يَنْبُتُ فيه الأدب، ومن هنا فإنّنا لكي نَسْتطيع أنْ نُقَدِّمَ وَعْياً شَامِلاً لحقيقة «الأدب العربـيّ» يجب أنْ نَدْرُسَ مُعْطيات العَصْرِ دِراسةً جيِّدةً، ونَفْهَمَ حالة التّناغي بين

الأدب والعَصْر. ومن أهمّ ما يُمَيِّزُ عَصْرَنَا سُرْعةُ التّواصُلِ بين أطْيافِه الفِكْرية المُخْتلفة الـذي هَيّـأَهُ التَّوَاصُلُ التّقنيّ، وبالطّبع والأَمْرُ كذلك أنْ نرى أدبـاً مُخْتلِفاً عن كُلِّ العُصُورِ السّابقـة؛ ممّـا يَعْنِي أنّ علـى دَارِسِ هذا الأدب أنْ يَعْلَـمَ أنّ المَعْرفة الزُّلْفَـى التي أَصْبَحَ النَّصُّ يَتَحَـرَّكُ بها في مدارٍ عَوْلَميٍّ من شَرْقِ الكَوْنِ لغَرْبِهِ ستكـون مُؤَثِّرةً أيّما تَأْثيرٍ على صُنْعِ الأدب دِراسةً ونَصّاً)، وفي الوَقْت ذاته يرى عبد الرحمن المحسني أنّه: (يجب أيضاً أنْ نَعِيَ أنّ من أهمّ سِمَاتِ العَصْرِ «الجَانِبَ التِّقانيّ»، وأثره الفَاعِلَ على النَّصّ، وإذا كانتْ «التَّقْنيةُ» قد أَلْقَتْ بظِلالِهَا على كُلِّ مُعْطياتِ حياتنا، فيجب أنْ نُؤْمِنَ بأثرها على التَّكْوين الفِكْريّ الذي يَصْنَعُ النَّصّ؛ فالنَّصُّ الذي يَسْتَجِيبُ للمنْبر التّلفزيونيّ والإذاعيّ، ورسائِل الـ sms، والوسائِط، والنَّصّ الحاسوبـيّ...؛ كُلُّ هذه المُعْطيات التّقنيّـة المُعَاصِرَة تُؤثِّرُ علـى إنْتاج النَّصّ، وهي تَحْتَاجُ إلى نَاقِدٍ حَاذِقٍ قَادِرٍ علـى التَّوَاصُلِ مع أبْعَادِهَا، وظِلالِهَا على النَّصّ).

وهكذا يَتَّضِحُ أنّ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» قد طَبَعَتْ هذا العَصْرَ بطابعِها المُمَيَّز، واحْتَلَّـتْ مَوْقِعاً مَرْكزيّـاً لا يُمْكِنُ إنْكَارُهُ أو تجاهُلُه، وتزدادُ قُـدْرَةُ هذه الحركة على تَغْييرِ العَالَـم وتتنامـى أهميّة دَوْرِهَا ونحن نُعاصِـرُ العَقْدَ الثّاني من «الأَلْفيّـة الثّالثة»، ونتعاملُ مـع «ثَوْرَةِ المَعْلُومـات» وتَدَفُّـقِ «العَوْلَمَة»، وضُغُـوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهـذا هو الفَارِقُ الرَّئيس بين المُجْتمعات، وهو الذي يُحَدِّدُ حالتها في «أنْ تكون أو لا تكون»، ويَصِفُ جورج سارتون (George Sarton) هذا الفَارِقَ بقوله: (الفَارِقُ الفِكْريُّ العظيمُ بين البشر ليس بسبـب الجُغْرافيا والجَوانِب العِرْقيّة، ولكن بين أولئك الذيـن يَفْهَمُونَ ويُطَبِّقُونَ «المَنْهَجَ التَّجْريبيّ»، وبين أولئك الذين لا يَفْهَمُونَهُ ولا يُطَبِّقُونَه)[٩٣].

أمّـا بلُغَـةِ «الفيزياء» فإنّنا نقـول: إذا كان «النيوترون البطيء» فـي «العلوم النّوويّة» هـو الذي يَبْدَأُ مـا يُعْرَفُ بـ«التَّفاعُلِ المُتَسَلْسِلِ» من الانْشِطَـارَاتِ في عُنْصُرِ «اليورانيوم» لتَنْطَلِقَ تلك الطّاقةُ الجَبَّارَةُ في «المُفَاعِلاتِ النّوويّة»، فإنّ «الثَّقافة العِلْميّة» عند اخْتِرَاقِهَا لـ «الجَسَدِ الثَّقافيّ» للمُجْتمع هي القَادِرَةُ على بَدْءِ «التَّفاعُلاتِ التَّنْمَويّة»، وإطْلاقِ شرارة الطّاقـات الإنْتاجيّة، وضَبْـطِ مسيرة التّفاعُـلات الاجْتماعيّة، وتَطْويرِ الآفـاقِ الإنْسانيّة

والمـدارك المَعْرفيّة. ومـا دُمْنَا في نِطَاقِ «الفيزياء النّوويّة» فإنّ مـن المُهِمّ أنْ نَعْرِفَ أنّ هنـاك «كُتْلَةً حَرِجَـةً» من «المادّة المُشِعَّة» لازِمَـةً لإِحْدَاثِ «التَّفاعُـلِ المُتَسَلْسِلِ» وإِطْلاقِ «الطَّاقَـة النّوويّة» مـن عِقَالِهَا، وبالمُقَارَنَةِ مـع «الوَاقِعِ الثَّقافيّ» فإنّ هـذا يَعْنِي أنّ هناك «تَرَاكُمَاتٍ كَمِّيّةً» من مُعْطياتِ «الثَّقافة العِلْميّة» وأَطْيَافِهَا التي تقودُ - عند تَرَاكُمِهَا وبُلُوغِهَا ذلـك «الكَمّ الحَـرِج» - إلى إِحْدَاثِ تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّة» التي هـي تتويجٌ لتلك التَّرَاكُمَاتِ والتّفاعُلاتِ والطُّرُوحَاتِ في مضامير «الثَّقافة العِلْميّة».

٦-٣) «الثّقافة العِلْميّة»: المَدْخَلُ إلى تَفْكيك «إشْكَالِيّة التّنْمية»:

لقـد وجدنا - في سِياق فُصول هذا الكِتاب - أنّ «إِشْكَالِيّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّـة» تَكْمُـنُ - أساساً - في «التَّـرَدِّي المَعْرفيّ»، و«ضَعْف الإنْتاجيّـة»، وانْعدام الدَّوْرِ الحيـويِّ في الإسْهَامِ في التّفاعُلاتِ والتّحوُّلاتِ المُعَاصِرَة. وأمّا أبْرز المُتطلَّباتِ للتَّصَدِّي لهـذه التّحدّيات، فهو صِياغَةُ وتَأْسيسُ «ثقافةٍ تَنْمَويّـةٍ» تُمَكِّنُ هذه المُجْتمعات من التَّغَلُّب علـى أزْمَتِهَـا الثّقافيّـة وإشْكَالاتِهَا التّنْمَويّـة، ومن الضّـروريّ والمَنْطقـيّ أنْ تَنْبَثِقَ هذه «الثَّقافة» عن طبيعة العَصْرِ وظُرُوف المَرْحلة؛ فالحاجةُ مُلِحَّةٌ لـ«ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تقومُ بدَوْرِ «الوَسَـطِ» القَادِرِ علـى اسْتيعاب مُعْطياتِ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّـة»، وتوفيرِ الشُّرُوطِ الخُلُقِيّـة والمَعْرفيّـة والقِيميّة والسُّلوكيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّـة المُتناغِمَةِ مع طبيعة هذه «الحركة» ومُقْتضياتها. تلك «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» المُؤَسَّسَةُ على «العِلْم» و«المَعْرِفَة» هي التي ستُوَفِّرُ «البيئَـةَ المُنَاسِبَة» لتَشْكيلِ تلك «الذِّهْنِيّة» التي وَصَفَهَا غازي القصيبي بأنّها «الذِّهْنِيّـة التّنْمَويّة» وهي: (ذِهْنِيّةٌ عِلْميّةٌ بالدَّرجة الأولـى، بمَعْنَى أنّها تَلْجَأُ إلى الأُسْلوبِ العِلْمـيّ فـي حَلِّ المشاكل بَدَلاً من التَّخَبُّطِ الخالي مـن كُلِّ مَنْهَجيّةٍ أو الانْحِرَافِ التِّلْقائيّ تِجـاه الحُلُـولِ الأيديولوجيّة)[١٠]. هذا - أيضـاً - ما يُؤَكِّدُهُ انطونيوس كـرم بقوله: (إنّ التَّوَصُّـلَ إلـى اكْتشافاتٍ واخْتراعاتٍ هامّةٍ يكـون مُرْتَبِطاً بالحاجـات المُلِحَّة التي تُواجِهُ المُجْتمـع وبطبيعة العَلاقَـاتِ والحَوافِزِ السَّائِـدَةِ أو المُتَاحَةِ في المُجْتمـع. وإذا كان من المُسْتحيـل التّنَبُّـؤ بلحظة حُصُولِ اكْتِشَـافٍ أو اخْتِراعٍ ما، فإنّ أيّ اخْتِـراعٍ أو اكْتِشافٍ لا

يُمْكِـنُ اسْتغلاله والاسْتفادة منه عِلْميّاً واقْتصاديّـاً واجْتماعيّاً إلاّ إذا كان المُسْتوى العامّ للمَعْرفـة والعلوم والاقْتصاد مُتلائِماً مع تَحْقيقِ مِثْل هذه الاسْتفادة أو الاسْتغلال. فهناك في التّاريخ اكْتشافاتٌ واخْتراعاتٌ هامّةٌ ضَاعَتْ، أو اسْتَغَلّتْهَا حضاراتٌ أُخْرى، لعدم تَوَفُّرِ حوافِز ومُسْتوىً كافٍ من التّقدُّم الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ في البلد الذي تَمَّ فيه الاكْتشاف أو الاخْتـراع أصْلاً، أو لأنّ القِيَـمَ الاجْتماعيّة السّائِدَةَ كانتْ عَائِقـاً لاسْتِخْدام واسْتِغْلالِ هذه الاكْتِشافات والاخْتِراعات في مجالاتٍ تتناقضُ مع هذه القِيَم)[٨٥].

كُلُّ هـذه الاعْتبارات المُهمّة تَجْعَلُ من «الثَّقافـة العِلْميّة» «قَاطِرَةَ الثَّقافةِ المُعَاصِرَة»، والرَّافِعَـةَ اللّازِمَـةَ لقيامِ «الثَّقافـة» بدَوْرِهَا التّنْمَويّ؛ ممّـا يَجْعَلُ «الثَّقافـة العِلْميّة» مِحْوراً مُهَيْمِناً من مَحَاوِرِ «الثَّقافة التّنْمَويّة»، ومَدْخَلاً ضروريّاً لتَفْكيكِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، وركيزةً صَلْـدَةً فـي برامِج التّوعيـة والتّطْوير والمُشَارَكَـة، ومُكَوِّنـاً حيويّاً من مُكَوِّنَـاتِ التّفاعُلات الفِكْريّة المُعَاصِرَة، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ جلين سيبورج بقوله: (بالإضافة إلى الحاجة إلى العُلماء المُدَرَّبين، وعُلمـاء الرّياضيّات والمُهندسين والعاملين غيـر المهنيّين المُلِمّين بتَجْهيزاتٍ تِقنيّةٍ مُعَقَّدَةٍ، فإنّ هناك حاجةً إلى فَهْمٍ وَاسِعِ النِّطَاق للعِلْم بين عامّة النّاس)[٤٤].

إنّ المُتَأَمِّلَ لظَاهِرَةِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، سيَخْلُصُ إلى أنّ «المُجْتمعات النّامية» ستظلُّ تـدورُ في حَلَقَاتٍ مُفْرَغَةٍ في لهاثِها وراء «نَقْلِ التّقْنيـة»، وتَطْويرِ التّعْليم، وتَنْشيطِ البَحْث، وتوطينِ الصّناعة، و«تَنْويعِ مصـادِر الدَّخْل»، ما لم تَهْتَمّ اهْتماماً حقيقيّاً بتشييدِ الجُسُورِ المتينـة مع «الفِكْرِ العِلْميّ» ومُعْطياتِه لتَشْكيلِ «العَقْـلِ العِلْميّ الجَمْعِيّ»، واسْتِنْبَاتِ «العلوم الحديثـة» في البِيئـة، لتمتدَّ جُذُورَهَا إلى أعْمَـاقِ الكيان المُجْتمعيّ، وتتفاعـلَ مع أنْسجتِه الثّقافيّـة وفعّاليّاتِـه الفِكْريّـة، وتَتّسِقَ مع تَوَجُّهَـاتِ مُثقّفيه وطُرُوحَـاتِ مُفكّريه وتفاعُلاتِ العامّة؛ فتتدافعُ الإسْهامـاتُ والإبْداعاتُ بفِعْلِ «الوَعْي العِلْميّ» السّائِد. أمّا عندما نَتَحدَّثُ عـن «المُثقّف التّنْمَويّ» ووظيفتِـه الاجْتماعيّة ودَوْرِه التّوعويّ، فإنّه مـن الضّروري تَحْديد الشُّـرُوطِ اللّازِمَة لأداء تلك الوظيفة وإنْجاح مَقَاصِدِهَـا، وسنجدُ أنّ «الفِكْرَ العِلميّ» يُمَثِّلُ العِمَادَ الرّئيسَ لمَنْظُومَةِ الشُّرُوط اللّازِم توفُّرها، وهذا هو جوهرُ القضيّة ولُبُّهَا، وهنا يَبْرُزُ

أيضــاً السُّؤالُ الاسْتِنْكَارِيّ الــذي طَرَحَهُ جلين سيبورج: (كيف يُمْكِنُ للمُواطِن أنْ يَتَصَرَّفَ بحِكْمَةٍ بشَأن موضوعاتٍ تُؤثِّرُ فيها قُوىً تَقَعُ خارجَ نِطَاقِ الأُمُورِ التي يَفْقَهُهَا؟)[٤٤].

وأمّــا مَخْرَجُ «الثَّقافة العربيّة» مــن «المَأْزِقِ القديم – المُتَجَدِّد» فــي ظِلّ التّعامُلِ مع «تفاعُــلات السّاحة العَالَميّة» بكُلِّ عناصرِها ومُقَوِّمَاتِهَــا وآثارِها، فإنّه يَكْمُنُ في ما يُوجِزُهُ أحمــد زويل بقوله: (صحيــحٌ أنّ المنْطقة العربيّة تُعَانِي من نِزَاعَــاتٍ ومن مشاكل دَاخِلِيّةٍ تَسْتَنْــزِفُ جُلَّ قُدْرَاتِهَا ومَوارِدِهَا، ولكن يَتَعَيَّنُ على العــرب، إذا كانوا يُريدون الارْتِقَاءَ إلى مصافّ الدُّول المُتَقَدِّمَــة، أنْ يُحْدِثُوا نَهْضَةً عِلْمِيّةً حقيقيّةً، وليس تَغْيِيراً تدريجيّاً. والعِلْمُ والتِّكنولوجيا هما العُمْلَةُ الجديدةُ للقَرْنِ الواحد والعشرين، ولن يُمْكِن تَغْيِيرُ الوَضْعِ الرّاهِن دون تَحْسِيــن مُسْتويات التَّعْليم والمهارات واسْتِحْدَاثِ «ثقافةٍ عِلْمِيّة»)[٧٠]. وأمّا عبد الغني عبــود، فلا يَتَصَــوَّرُ حُدُوثَ «تَنْمِيةٍ مــا»: (دون أنْ يَتِمَّ هــذا التَّغْيِيرُ المَنْشُــودُ للمُجْتمع في اتِّجَــاهِ «العِلْــم» و«التِّكْنولوجيا»، ففي ظِلِّهِمَا يعيشُ كُلُّ فَرْدٍ في العَالَم اليوم، حتى في البلاد المُتَخَلِّفَة، وفي إطَارِهِمَا يَتَحَرَّكُ كُلُّ مُجْتمعٍ مُعَاصِرٍ في شَتّى شُؤون حياته، حتى لو كان هذا المُجْتمــع مُتَخَلِّفَاً، ومن ثــمّ فإنّ «التّنْمية» اليوم تَفْرِضُ ضَــرورةَ التّحْويلِ الفِكْرِيّ للمُجْتمع بأسْرِهِ إلى الرُّوحِ العِلْمِيّة وإلى التِّكْنولوجيا، وهما الدّعامتان الأساسيّتان لـ«التّنْمية»)[٢٢].

وهكــذا يَتّضِحُ أنّــه من الضّروريّ أنّ تُصْبِحَ «الثَّقافةُ العِلْميّــةُ» مُكَوِّناً رئيساً وعُضْويّاً فــي «الثَّقافة السَّائِدَة»، وأنْ تتفاعــلَ – بحيويّةٍ وديناميكيّةٍ – مع عناصرِها المُخْتلفة، لكي يَتَحَقَّــقَ ما أَدْرَكَهُ تشارلز سنو من ضَرورةٍ لـ«لمُجْتمعــات الغَرْبيّة» عندما قال: (يَنْبَغِي أنْ يَتِمَّ اسْتيعابُ العِلْمِ كجُزْءٍ لا يَتَجَزَّأُ من كَامِلِ تَجْرِبتِنَا الفِكْرِيّة، وأنْ يُسْتَخْدَمَ بشَكْلٍ طبيعيٍّ كما تُسْتَخْدَمُ بقيّةُ الأنْشِطَةِ الفِكْرِيّة)[٣٢].

٦-٤) الطّبيعة الاقْتِحَاميّة للعلوم والتّقْنية:

من بدهيّات الحيــاة المُعَاصِرَة أنّ الهَجْمَةَ التّقنيّة العِلْميّــة المُتسارِعَةَ والمُتعاظِمَةَ قــد غَيَّرَتْ وَجْــهَ الأرْض، وانْطَلَقَتْ فــي أرْجَاءِ السَّمَــاء، وقَلَبَتْ المفاهيــم مَعَاشَاً وفِكْراً،

وبَدَّلَتْ أنْمَاطَ الحيَاة وأشْكَالَ الحجر وتفاعُلاتِ البشر؛ ومن بَدَهِيَّاتِهَا أنّ العَصْرَ هو «عَصْرُ العلوم والتّقْنية» فمن يُمْسِكُ بزِمَامِ تلك الحركة النَّشِطَة - بكُشُوفِهَا واخْتراعاتِها وتَطْبيقاتِها - يَفْرِضُ هَيْمَنَتَهُ على السّاحة العَالَميّة؛ فأصْبَحَتْ الحاجةُ لتَبَنِّي الأنْظِمَةِ العِلْميّة والتّقنيّة من ضَروراتِ اسْتمراريّة حياة البشر وتَسْهيلِها وتَطْويرِها. وهكذا نجدُ أنّ «حركة العلوم والتّقنية» تَقْتَحِمُ المُجْتمعات، وهي تَفْعَلُ ذلك دون انْتِظارِ الإذْنِ أو الحُصُولِ على المُوَافَقَة، وذلك بسبب ما تُقَدِّمُهُ من سِلَعٍ وخِدْمَاتٍ وتَطْويرٍ مُسْتمرٍّ لأنْمَاطِ العيش ووسائل الحياة، وما تُوَلِّدُهُ من احْتياجاتٍ مُتناميةٍ في مُخْتلف المجالات، وما تُؤَمِّنُهُ من ابْتِكَاراتٍ جديدةٍ مُتَتاليةٍ تَتَّسِمُ بجَوْدَةِ الأداء والرُّخْصِ ويُسْرِ اسْتِخْدَامِهَا فقد تكونُ أصْغَرَ حَجْماً أو تكونُ أقلَّ اسْتِهْلاكاً للطّاقة؛ وكُلُّ تلك الأسْباب وغيرها تَدْفَعُ إلى تزايد الطَّلَبِ عليها والتَّسَابُقِ في اقْتنائِها.

لقد أَدْرَكَ سليم البستاني في أواخِرِ القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ هذه «الخَاصّةَ الاقْتِحَاميّةَ للعلوم والتّقْنية» مُؤَكِّداً أنّها تُمَثِّلُ «رُوحَ العَصْر»، وخَالِصاً إلى أنّه: (من حُسْنِ التَّدْبير المُوَافَقَةُ لرُوحِ العَصْر. لأنّ من لا يُوَافِقُهُ بالرِّضَى يُوَافِقُهُ على رَغْمِ أنْفِه) [٤]. ولكن فَهْمَ الشّكْلِ العامّ للظّاهِرَة لا يَعْني إدْرَاكَ خصائصِها المُمَيِّزَةِ أو اسْتيعابِ عناصرِها الأساس، كما لا يَعْني - على الإطْلاق - تَوَافُرَ القُدْرَةِ على التَّعامُلِ معها بكفاءَةٍ، وتَطْويعَها بفاعِليّةٍ، والتَّكَيُّفَ معها بإيجابيّةٍ. ولذا فإنّ ما عهدناه في ثقافتنا من الإسْهَابِ في الإنْشائيّاتِ والجَدَلِ لا يَخْدِمُ في فَهْمِ هذه الظّاهِرَة، كما أنّه لم يَخْدِمْ أيَّ قضيّةٍ من قضايانا في الماضي أو الحَاضِر، بَلْ كان وبالاً وشُؤماً على الأُمّة عبْر تاريخها. بطبيعة الحال، كان من المُتَوَقَّعِ لمِثْلِ ذلك الاقْتِحَام العَارِمِ أنْ يُوَلِّدَ في «المُجْتمعات العربيّة» رُدُود فِعْلٍ رَافِضَةً لهَيْمَنَتِه؛ فـ«مُقَاوَمَة التّغْيير» سُنَّةٌ كَوْنيّةٌ لا مناص عنها، ولكنّنا اعْتقدنا أنّنا تَغَلَّبْنَا على مِثْلِ هذه «المُقَاوَمَة» عندما سمحنا لأنفسنا بالتّمتُّعِ بمُعْطياتِ العِلْمِ ووسائلِ التّقْنية، ولم نَتَنَبَّه إلى ذلك «العَدَاءِ الخَفِيّ» الكَامِنِ في وِجْدَانِنَا لهذه «المَنْظُومَة» التي تَقْتَحِمُ حياتَنا ومَأْكَلَنَا واتّصالاتِنا واقْتصادَنا وتفاعُلاتِنا الاجْتماعيّة والفِكْريّة، ويكونُ مَلاذُنَا الوَهْمِيّ - عادةً - هو ذلك «المَوْقِفُ الانْتِقَائيّ»، أو «الدَّعْمُ اللّفْظيّ»، وهما لا

يُقدِّمَان شيئاً على طريق الإنْجاز الفِعْليّ، بينما نَسْتَمِرُّ في تَقْديم «التَّنَازُلاتِ الاسْتِهْلاكيّة» تحْـت وَطْأَةِ العصْر ومُقْتضياتِـه، ونَسْتَسْلِمُ لعُنْفـوانِ «القُدْرَةِ الاقْتِحَامِيّـةِ لحركة العلوم والتّقْنية».

لم تُدْرِكْ طُرُوحَاتُنَا ومَشْرُوعَاتُنَا واستراتيجيّاتُنَا المُخْتصَّةُ بـ«التّنْمية» أنّ «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّـة للعلوم والتّقْنية» هي «رُوحُ التّنْمية» وجوهرُها الأصيـل؛ فأيُّ تنْميةٍ تَحْتَاجُ إلى كِيانٍ عِلْميٍّ وتقْنياتٍ حديثةٍ قَادِرةٍ على مُوَاكَبَةِ التّغيُّراتِ المُتسارِعَةِ، والمُنَافَسَاتِ العَوْلَمِيّةِ، وحَـلِّ المُشْـكلات. ولذا فإنّ «الطَّبيعـة الاقْتِحَامِيّة للعلوم والتّقْنية» ليسـتْ مُجَرَّدَ عناصِر مادّيّـةٍ وأدواتٍ حِسّيّـةٍ، ولكنّها أَعْمَقُ من ذلك بكثيـر؛ فهي تُوجِـبُ إدْرَاكَ أنّ نِسْبَةً عاليةً مِـنْ قُوى العمـل والإنْتاج في مُجْتمعاتنا سوف تَتَّجِهُ - بضَـرورة مُتطلَّبات «سُوق العمل» - إلـى العمل في مِهَنٍ وقطاعاتٍ «كثيفة الاسْتِخْـدَامِ للعلوم والتّقْنية»؛ ممّا يَسْتَوْجِبُ التّعامُلَ مع الاحْتياجـات النّفْسيّة والثقافيّة والماديّة والاجْتماعيّة لهـذه الشّرائِح المُتنامِية، التي أَصْبَحَـتْ ظَاهِرَةً ضَاغِطَةً تَفْرِضُ نفْسها بقُـوّةِ الإنْجاز، لتَعْبُرَ بحيويّةٍ من «عَالَم الأشْياء» إلى «عَالَم الأفْكار»، ويُصْبِحَ التّعامُلُ معها بَوْتَقَةً مُعَقَّدَةً، تتفاعلُ فيها عَوالِمُ فِكْريّةٌ وثقافيّةٌ واجْتماعيّـةٌ وتَعْليميّـةٌ وبَحْثيّـة، وتُؤَثِّرُ فيها سُلُوكيّـاتٌ فَرْديّةٌ وهُمُومٌ جماعيّـةٌ ومُمَارَسَاتٌ إعلاميّة وعَوامِلُ اقْتصاديّةٌ وظُرُوفٌ سياسيّة.

إنّ المُتَأمِّـلَ في «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّة للعلوم والتّقْنية» يرى نتيجَتَيْن لذلك «العُنْفوان الاقْتِحَاميّ» لا ثالث لهما؛ فإمّا أنْ تقود إلى الإغْرَاقِ في الاسْتِهْلاكِ والاتِّكَالِ على الآخَرين، وهذا اسْتِسْلامٌ مُـرَوِّعٌ مُشَاهَدٌ في أرْجَاءِ عَالَمِنَا العربيّ؛ وإمّا أنْ تُوَلِّدَ «اسْتِجَابَةً إيجابيّةً» لـ«تَحَـدٍّ صَـارِخٍ» تقودُ إلى توليدِ عناصِـر «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» مع هــذه «المَنْظُومَةِ العِلْميّة - التّقنيّـة» التي أَضْحَتْ قضيّـةَ «حياةٍ أو مَوْتٍ» للأُمّة. وأمّا أهـمّ مُقَوِّمَاتِ ذلك «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» فهي أنْ نُدْرِكَ أنّ لهذه «المَنْظُومَةِ» عناصِر «فِكْريّة - ثقافيّة - اجْتماعيّة» مُتكامِلَةً تَتَغَلْغَـلُ في «الوَعْي الفَـرْديّ»، وتَلْتَفُّ حول «النّسيج المُجْتمعيّ» لتَصْنَـعَ «البيئة المُنَاسِبة» القَـادِرَةَ على التّعامُلِ - بفَاعِليّـةٍ وحيويّةٍ - مع تلك «الطَّبيعـة الاقْتِحَامِيّة»، وتَطْويعِهَا لما يُحَقِّقُ المنافِعَ والأهْـداف المَنْشُودَة. وهكذا تَبْقَى «الطَّبيعـةُ الاقْتِحَامِيّةُ للعلوم والتّقْنية»

حقيقــةً رَاسِخَةً مُتنامِيةً لا مِرَاء فيها - شِئْنا أمْ أبينا -، ويَبْقى الخِيارُ أمامنا إمّا الإغْراق فــي إنشائيّاتِنا ومواعظِنا وقصائدِنا بينما يَنْدفِعُ «الطُّوفَانُ الاسْتِهْلاكيّ» و«المَدُّ الاتِّكَاليّ» ليَقْتَلِعَ الجُذُورَ ويُقَوِّضَ دَعَائِمَ التّماسُك، وإمّا أنْ نَفْهَمَ خصائِصَ ذلك الطُّوفَان، ونُرَوِّضَ مَنَابِعَه، ونَرْكَبَ مَوْجَتَه، ونَسْتَوْعِبَ ثقافتَه، ونَنْطَلِقَ في ساحاتِه.

٦-٥) «الثّقافة العِلْميّة» في «التّجرِبَة الغَرْبيّة»:

لقــد أثارتْ أُطْرُوحَةُ تشارلز سنو[٣٢] عــن «إشْكَاليّةِ الثَّقَافَتَيْن» جَدَلاً كبيراً في العَالَم الغَرْبــيّ (انْظر الفَصْل الثّاني)، وما زالــتْ آثارُها تتفاعلُ على مُخْتلف الأصْعِدَة. وبالرّغْم مــن أنّ طَــرْحَ سنو كان طَرْحــاً نُخْبَويّــاً؛ أيْ أنّه كان مَعْنِيّــاً - في المقــام الأوّل - بالنُّخَبِ الفِكْريّــة، ونَاقِــداً لانْعِــدَامِ التَّوَاصُلِ بين أصْحــاب «التّخصُّصات الأدبيّــة والإنْسانيّة» من جِهَــةٍ، وبين أصْحاب «التّخصُّصات العِلْميّة» من جِهَةٍ أُخْرى، إلاّ أنّه - في تفاعُلاته وآثارِه وامْتداداتِه - أَكّدَ ضَرورةَ إقامةِ الجُسُورِ بين «الحركة العِلْميّة» وبين «الجُمْهُور» بشَكْلٍ عامّ.

لقد رأى كثيرٌ من المُفكّرين أنّ التّفاعُلَ بين «الحركة العِلْميّة» وبين «المُجْتمع» ضَرورةٌ لا مناصَ عنها لتَطْويرِ «المُجْتمع العِلْميّ» الــذي يستمدُّ متانته من «التَّكَامُلِ البُنْيويّ» بين أجْزائِــه و«التَّرَابُطِ العُضْويّ» بين عناصرِه ممّا يَجْعَــلُ «التَّقَدُّم العِلْميّ - التِّقنيّ» مَحْكُوماً بمــدى تفاعُلِ الجماهير معه وحماسِهم له وإدْراكِهم لأبْعادِه واسْتجابتِهم لمُقْتضياتِه[٨٦]. وهــذا مــا تُقَرِّرُهُ الرُّؤيــةُ العِلْميّة - الثقافيّــة - التَّعْليميّة التي طُرِحَتْ فــي أرْجاء الولايات المُتّحدة الأمريكيّة في دَليلٍ يُعْرَفُ باسْم «العِلْمُ لكُلِّ الأَمْريكان»[٩٤] حيث ورد فيه: (يُمْكِنُ لعادات العَقْلِ العِلْميّة مُسَاعَدَة النّاس في كُلِّ مناحي الحياة للتّعامُلِ بحِكْمَةٍ مع المُشْكلات التــي غَالِبــاً ما تَنْطَوِي علــى الأدِلّة، والاعْتبــارات الكَمِّيّــة، والحُجَجِ المَنْطقيّــة، والشَّكّ؛ ولــذا فإنّه بدون القُدْرَةِ على التَّفْكيــرِ النَّقْديّ وبشَكْلٍ مُسْتَقِلٍّ، فــإنّ المُواطِنين يُصْبِحُون فريسةً سَهْلَــةً للمُتعصِّبين والماهرين المُخَادِعين ومُزَوِّدي الحُلُــولِ البسيطة للمُشْكلاتِ المُعَقَّــدَة)؛ وفــي مقامٍ آخر يُؤَكّدُ هذا الدَّليل - أيضــاً -: (إنّ قُدْرَةَ تَعْزيزِ الحياة الكَامِنَةِ فــي العِلْــمِ والتّقْنية لا يُمْكِــنُ تَحْقيقُها، ما لم يَتَمَكّنْ الجُمْهُورُ بشَــكْلٍ عامٍّ من فَهْمِ العلوم

والرّياضيـات والتّقْنية، واكْتِسَاب عادات العَقْلِ العِلْميّة. إنّه بدون مُواطِنين يَتَمَتَّعُون بوَعْيٍ عِلْميٍّ فإنّ اسْتِشْراف عَالَمٍ أفْضل لا يكون وَاعِداً).

وأمّا فيما يَتَعَلّقُ بتَرْسيخِ «الثَّقافة العِلْميّة» في «التَّرْكيبة الثَّقافيّة العَامّة»، فقد أَدْرَكَتْ «المُجْتمعـاتُ الغَرْبيّةُ» أهميّة «الكَمِّ» و«الكَيْفِ» في آنٍ وَاحِدٍ، كما حَرَصَتْ تلك المُجْتمعات علــى الاسْتفـادة من «القانون الفيزيائيّ» الـذي يَنُصُّ على أنّ (التَّراكُـم الكَمّيّ يقودُ إلى تَغَيُّـرٍ نَوْعِيّ)، وهي حقيقةٌ يصوغُهـا محمد عابد الجابريّ قائـلاً: (إنّ العَلاقَةَ بين الكَمِّ والكَيْـفِ في عمليّــة التّقَدُّم عَلاقَةٌ جَدَليّةٌ، عَلاقَةُ تَأْثيرٍ مُتَبَـادَلٍ: إنّ اتِّسَاعَ الكَمِّ شَرْطٌ في نُمــوِّ الكَيْــف، ونُموُّ الكَيْف شَرْطٌ في تَعْميـقِ جُذُورِ الكَمّ)[1]. من هــذا المُنْطَلَقِ برز الدَّوْرُ الحَاسِـمُ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في تَطَوُّرِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، وراحتْ جُهُودُها تَتْرَى - كَمّاً وكَيْفاً - في توسيعِ نِطَاقِ «الثَّقافة العِلْميّة» وتَرْويجِ وسائِلِها، ووجدتْ مَقُولَةُ «العِلْمُ للجميع» عنْدهــم حُضُوراً مُمَيَّزاً واهْتماماً مُكَثَّفاً من صَانِعي القرار، وأَصْبَحَتْ هذه المَقُولَةُ شِعاراً قوميّــاً وأولويّةً بَارِزَةً فــي التَّخْطيط والاهْتمام والدَّعْمِ في «الــدُّول المُتَقَدِّمَة»، كما بَرَزَتْ علــى السّاحة عنْدهم حِواراتٌ وندواتٌ ومُؤَلَّفاتٌ وإصْداراتٌ تُرَكِّزُ - بعُنْفوانٍ - على قضيّة «العِلْم والمُجْتمع».

وهكــذا نشطتْ فــي «العَالَمِ الغَرْبــيّ» البرامِجُ المُخْتلفــةُ لـ«التَّوعيــة العِلْميّة»، وهي المُمَارَسَــةُ الفَاعِلَةُ لنَشْرِ «الثَّقافة العِلْميــة»؛ فراحتْ المطابِعُ تَقْذِفُ يوميّاً عشرات الكُتب والنَّشرات والدَّوريّات في مجالاتٍ مُخْتلفةٍ من العلوم لتَبْسيطِهَا وطَرْحِ حَقَائِقِهَا وأهْدافِها فــي سلاسةٍ ويُسْرٍ، واحْتَضَنَتْ وسائِلُ الإعلام طُرُوحَاتٍ وبرامِجَ وتَوجُّهَاتٍ تُعْنَى بـ«الثَّقافة العِلْميّــة»، وتَعَـدَّدَتْ الوسائـطُ والنّــدواتُ والمُحاضـرات، وتأسَّسَتْ عنْدهــم الجمعيّاتُ والهيئــاتُ العِلْميّــة - على المُسْتـوى المحلّيّ والقُطْـريّ والدّوليّ - المُهْتَمَّــةُ بالتّفاعُل مع «الجُمْهُــورِ» وتَهْيئــةِ «مُنَاخٍ عِلْمــيٍّ» يُسَاعِدُ علــى زَرْعِ «الثَّقافة العِلْميّة» فــي تُرْبَةِ المُجْتمع، وتَغَلْغُلِهَــا في نسيجِه. وأمّا على المُسْتوى الفِكْريّ والأكاديميّ فقد تَعَمَّقَ عندهم الاهْتمامُ بموضوعات «تاريخ العلوم» و«فَلْسَفَة العلوم» و«اجْتماعيَّات العلوم» ممّا رَسَّخَ أُصُولَ التّفاعُلِ الجَــادِّ بين «العلـوم الإنْسانيّة» و«الفِكْرِ العِلْميّ»، ونَجَمَتْ عــن ذلك رُؤًى عميقةٌ في طبيعة

تَرْكيب «المَعْرِفَة العِلْميّة» وطريقة اعْتمادها على «التَّكْوين الثقافيّ» للمُجْتمع من أعْرَافٍ ومُمَارَساتٍ وقِيَمٍ وأفْكار. لقد تَبَلْوَرَ عن كُلِّ ذلك إدْراكٌ وطيدٌ بأنّ «العلوم» هي «مَنْظُومَةٌ من الأنْشطة الثَّقافيّة» تُمَثِّلُ تَعْبيراً لتوجُّهِ المُجْتمع نحو العَالَمِ والكَوْنِ والحياة، تماماً كما تُعَبِّرُ الفُنُونُ والأدْيانُ عن تَوَجُّهَاتِ ذلك المُجْتمع، ممّا يَعْني عدم إمْكانيّة فَصْلِ العلوم عن القضايا الأساس في السّياسة والأخْلاق والاقْتصاد والتّفاعُلات الاجْتماعيّة، ويُلَخِّصُ كونراد وودنجتون (C.H. Waddington) تلك الرُّؤية بقوله: (العِلْمُ ليس فقط مَجْمُوعَةً من الوسائِل، ولكنّه تَوَجُّهٌ نحو العَالَمِ وطريقةُ حياة)(٨٩).

وأمّا السُّؤالُ الاسْتِنْكَارِيّ الذي يَطْرَحُهُ جلين سيبورج بقوله: (مَنْ في زماننا هذا يَسْتطيعُ أنْ يقوم بنَقْدٍ مَقْبُولٍ للحياة دون مَعْرِفَةِ قِيَمِ وطُرُقِ وديناميكيّةِ العِلْم؟)(٤٤)، فإنّه سُؤالٌ كبيرٌ في مضامينه وأبْعاده وتَبِعَاتِه؛ فلقد أصْبَحَ من البدهيّات المَعْرُوفَةِ أنّ القضايا المُعَاصِرَة إمّا أنّها نِتَاجٌ مُبَاشِرٌ لآثار «العلوم والتّقْنية»، أو أنّها إفْرازاتٌ جَانِبيّةٌ تَمَخَّضَتْ عن تفاعُلاتِ «الحركة العِلْميّة» وتَسَارُعِهَا المُذْهِل؛ وفي كِلْتا الحَالَتَيْن، فإنّ المُجْتمعات في حاجةٍ إلى «رُؤيةٍ عِلْميّةٍ» لفَهْمِ هذه التّأْثيرات والتّعامُلِ معها بكفاءَةٍ ونُضْجٍ، ولكنّ الإشْكَاليّة الكُبْرى تَبْقَى في أنّ القضيّة ليستْ قضيّة مَجْمُوعَاتٍ من أهْلِ الاخْتصاصات العِلْميّة تَجْتَمِعُ ثم تَنْفَضُّ بعد تَشْخيصِ العِلَلِ وطَرْحِ الحُلُول، ولكنّها قضيّةُ مُجْتمعٍ بأسْرِهِ، يتعامَلُ مع المُسْتَجِدَّاتِ سَلْباً وإيجاباً، وهي قضيّةُ أفْرادٍ يُمَارِسُون حياتهم اليوميّة، فيُؤَثِّرُون ويَتَأَثَّرُون، وهي قضيّةُ أخْطَاءٍ وإبْداعَاتٍ وإحْباطَاتٍ وإنْجازَاتٍ تتفاعلُ في بَوْتَقَةِ الفِكْرِ والمُمَارَسَة، وتصوغُ - في النّهاية - مُعادَلاتِ التَّفَوُّقِ أو صِفَاتِ الإخْفَاق؛ ومن هذا المُنْطَلَقِ تَبْرُزُ أهميّةُ «الوَعْي العِلْميّ الجَمْعِيّ» الذي يَصْنَعُ الفُرُوقَ بين «الأُمم المُتَقَدِّمَة» و«الأُمم المُتَخَلِّفَة».

٦-٥-١) بين «الثّقافة العلميّة» و«الدِّيموقراطيّة»:

لقد أدْرَكَ «المُجْتمعُ الغَرْبيُّ» أهميّة «الثَّقافة العِلْميّة» لسبَبَيْن رئيسَيْن(٤٤):

١) إنّ القَاعِـدَةَ الجماهيريّةَ العريضـةَ المُتفاعِلَةَ مع «الفِكْـرِ العِلْميّ» والمُتواصِلَةَ مـع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» هـي مَنْبَتُ المَواهِبِ ومُسْتَودَعُ القُدْرَاتِ ومَكْمَنُ الطّاقات، وهي التي تُزَوِّدُ المُجْتمع بالعُلماء والباحثين والتّقنيين، وكُلّما اتّسَعَتْ هـذه القَاعِدَة، نَمَتْ احْتمـالاتُ الإبْداع والإنْجـاز، وزادتْ فُرَصُ بُـرُوزِ العُقُولِ المُبْدِعَةِ والكفاءاتِ المُنْتِجَة.

٢) لقـد كان للاعْتبارات السّياسيّة والاقتْصاديّـة أثرٌ كبيرٌ في الاهْتمام بـ«الثّقافة العِلْميّة»؛ فـ«دَافِعُ الضَّريبةِ» عنْدهم هو الذي يُؤثِّرُ - بمُتابعاتِه ومُسَاءَلاتِه - في أوْجُهِ الإنْفَـاق، وبالتّالي فإنّ الدَّعْمَ الماليّ الضّخْمَ المَطْلُوبَ لمُخْتلف البرامِج والمَشْرُوعات العِلْميّة يتطلّبُ درجةً عَاليةً من «الاسْتِحْسَانِ الثّقافيّ» للعلوم بين العامّـة. وفي هذا السِّياق يقول جليـن سيبورج[٤٤]: (إنّ مبـادئ العلوم تُهَيْمِنُ علـى العديد من قضايا اليوم والغد الحَاسِمَة، فـإذا كان جَوْهَرُ الدِّيموقراطيّة هو مُمَارَسَةُ التّأثيرِ من قِبَلِ مُواطِنين مُزَوَّدِين بالمَعْلُومَاتِ كما أَعْتقد، فإنّ هذا يَعْنِـي أنّ فَهْمَ المبادئ الأساسيّة لـ«العِلْم» يَنْبَغِـي أنْ يكون مُؤسَّساً بشَكْلٍ وَاسِعٍ فــي المُجْتمع)؛ ويَصِفُ سيبـورج «العِلْم» بقوله: (إنّ لديه قُـدْرَةً لم تَتَوَفَّرْ لأيِّ أداةٍ أُخْـرى عرفهـا الإنْسان، ولذا فإنّه بدون مَعْرِفَـةِ مبادئه العامة، فإنّنا غير جَاهِزين للأداء السّليم في مُجْتمعٍ ديموقراطيٍّ في عَصْرِ الفضاء).

ما هو أهمُّ من ذلك، وهي قضيّةٌ مَطْرُوحةٌ - بامْتياز وبقَلَقٍ - أمام «الدُّول النّامية»، أنّ نُموَّ «الدِّيموقراطيّة» يَحْتَاجُ إلى تَوَافُرِ شُرُوطٍ فِكْريّةٍ ومُجْتمعيّةٍ وعمليّةٍ تَتَجَسَّدُ - بشَكْلٍ جَلِيٍّ - في مفاهيم «العلوم والتّقْنية» وتَأْثيراتِها ومساراتِ عملها؛ فلم يكنْ الأمْرُ مُصَادَفةً أنّ نُمـوّ «الدِّيموقراطيّة» فـي «المُجْتمعات الغَرْبيّة» منْذ القَرْنِ السّابع عشر الميلاديّ كان مُوَاكِبـاً للتَّطَوُّرِ العِلْمـيّ، والكُشُوفَاتِ الطّبيعيّة، وما تَرَتَّبَ عليها مـن آثارٍ عمليّةٍ وتطوُّراتٍ اقْتصاديّـةٍ وتغيُّـراتٍ مُجْتمعيّـةٍ. فليـس من المَعْقُـولِ أنْ نقـول إنّ شُعُوبَ ما قبـل القَرْنِ السّابـع عشـر كانتْ غبيّـةً أو لا تَعْرِفُ معانــي «الدِّيموقراطيّة» ودَلالاتِهَـا خَاصَّةً وأنّ هذا المَفْهُـومَ قديـمٌ ومُتَأصِّلٌ في «الفِكْرِ اليونانيّ»، ولكن انْعِـدَامَ «الشُّرُوط الموضوعيّة» ذات

التّراكُمَـاتِ الفِكْرِيّـة والعِلْميّـة والاجْتماعيّة والعمليّة هـي التي أَخّرَتْ بُـرُوزَ الظّاهِرَةِ في «المُجْتمعات الغَرْبيّة».

إنّ التّفاعُـلاتِ السّريعة وشِبْـهَ الآنيّةِ التي تَطْرَأُ على «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» في ظِلِّ التّضَافُـرِ بيـن «الدِّيموقراطيّـة» و«الثّقافة العِلْميّـة» تَتَجَلّى في أمْثلـةٍ لا حَصْرَ لها؛ فعلى سبيـل المِثال تَمَخّضَ السَّبْقُ الفضائيّ، الذي أَحْرَزَهُ «الاتّحاد السّوفييتي» في عام ١٩٥٧م بإطْلاقِـه «قَمَرًا سبوتنيك»، عن زَوْبَعَةٍ فـي «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، ونشط جَدَلٌ وَاسِعٌ حول جَوانِبِ الإخْفَاقِ في مَنْظُومَتِهِمْ العِلْميّة والثّقافيّة، وأَدّى في الوَقْت نفْسه إلى قِيامِ الرّئيس الأمريكيّ أيزنهاور بتَأْسيس «وكالة الفضاء الأمْريكيّة (ناسا)» في عام ١٩٥٨م، كما طلب مـن «اللّجنة الاسْتشاريّة العِلْميّـة» المُرْتَبِطَةِ به، وكان أحـد أعضائها جلين سيبورج[٤٤]، أنْ تَتَوَلّـى دِراسة بعْض هذه المُشْكلات، وبالفِعْل قَدَّمَتْ له اللّجنة في عام ١٩٦٠م تَقْريراً بعنْـوان (التَّعْليمُ لعَصْرِ العلوم). لقد أَكّدَ ذلـك التّقْريرُ الدَّوْرَ الحيويّ لـ«الثّقافة العِلْميّة» فـي المُجْتمعات المُعَاصِرَة حيث ورد فيه مـا يلي: (إنّ المُواطِنين في مُجْتمعٍ ديموقراطيٍّ اليوم يَنْبَغِي أنْ يَفْهَمُوا «العِلْمَ» لكي تكون لهم مُشارَكَةٌ وَاسِعَةٌ وذكيّةٌ في كثيرٍ من القرارات القوميّـة. إنّ هـذه القرارات في طَـوْرِ الصُّنْع الآن، ولا يُمْكِنُ تَأْجيلُهَـا لمُدّةِ عشرين عاماً ريثمـا نقومُ بتَحْسيـن نِظَامِنَـا التّعْليميّ الحالـيّ عندما يُكَـوِّنُ خرِّيجُوه نِسْبَـةً مُهمّةً من النّاخِبين النّاضِجين. وبالتّالي فإنّه لا مَفَرَّ من الاضْطِرَارِ الآن إلى تَزْويدِ الكِبَار بتَعْليمٍ في العلوم يكون مُكَثَّفَاً وعالي المُستوى ومُوَجَّهاً إلى أولئك الذين لا يعرفون حتّى الأساسيّات)[٤٤]. وهكـذا أَصْبَحَتْ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» مِعْيـاراً يُقَاسُ به مُسْتوى تَطَوُّرِ المُجْتمعات، فعلى سبيل المِثال اتّفَقَتْ الدُّوَلُ الأعْضاءُ في «مُنَظَّمَةِ التّعَاون الاقْتصاديّ والتّنْمية» (OECD) على إعْدَادِ برنامجٍ يَهْدِفُ إلى تَقْويمِ مدى إمْكانيّات الشَّبَاب من فِئة عُمْرِيّةٍ مُحَدَّدَةٍ بـ«١٥ عاماً»، وقِياس درجـة اسْتعدادهم لمُواجَهةِ الحياة العمليّـة، وجَعَلَتْ«الثّقافة العِلْميّة» من أهمّ معايير البرْنامج التي مَكَّنَتْ من إجْراء التَّصْنيف[٩٥].

٦-٦) «الثقافة العلميّة» و«مُجْتمع المَعْرِفَة»:

لقد ضَرَبَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» التي انْطلقتْ في أوروبا في القَرْنِ السّابع عشر الميلاديّ أطْنَابَهَـا في مُخْتلف مناحي الحياة المُعَاصِرَة، وتَمَدَّدَتْ في رِحَابِ الأَرْضِ وآفاقِ السّمَاء، وراحتْ في تراكُم مُذْهِلٍ وتسارُعٍ حثيثٍ تُنْتِجُ قِلاعاً من الإنْجازات والمَعْلُومات والاكْتشافات فيما عُـرِفَ بـ«انْفِجَارِ المَعْلُومـات» لتَدْلِفَ البشريّةُ إلـى عَالَم «مُجْتمـع المَعْلُومات» ممّا قـاد - بالضّرورة - إلى تحوُّلاتٍ جِذْريّةٍ في طبيعة «المُجْتمعـات المُتَقدِّمَة» وخصائصِها وتفاعُلاتِهـا وعَلاقَاتِهَا؛ وهكذا من رَحِم «مُجْتمع المَعْلُومات» وُلِدَ «مُجْتمع المَعْرِفَة». ذلك مـا يُؤكِّدُهُ «التَّقْريرُ العَالَميّ لمُنَظَّمَـةِ اليونسكو»[٨٢]، الصّادِر في عام ٢٠٠٥م تحت عنْوان «مِـن مُجْتمع المَعْلُومات إلى مُجْتمعات المَعْرِفَة»، فيقـول: («مَفْهُومُ المَعْرِفَة» هو في قَلْبِ هـذه التَّحَوُّلات إذْ يُعْتَرَفُ اليوم بـأنّ المَعْرِفَةَ أَضْحَتْ مَوْضِعَ رِهاناتٍ اقْتصاديّةٍ وسياسيّةٍ وثقافيّـةٍ وَاسِعَـةٍ إلى حَدٍّ أنّنا نَسْتَخْدِمُهَا في وَصْفِ المُجْتمعـات التي نَبْدَأُ بالكاد في تَبَيُّنِ ملامحها). وأمّا ما يُمَيِّزُ «مُجْتمعاتُ المَعْرِفَةِ» فهو: (في قَلْبِ «مُجْتمعات المَعْرِفَة» هناك القُـدْرَةُ على تَحْديـدِ وإنْتاجِ ومُعالَجَةِ وتَحْويـلِ ونَشْرِ واسْتِعْمَالِ المَعْلُومـات لخَلْقِ وتَطْبيقِ المعـارف الضّروريّـة للتَّنْميـة الإنْسانيّـة، وهي تَسْتَنِـدُ إلى رُؤيـةٍ للمُجْتمـع تُسَاعِدُ على الاسْتقلاليّـة التي تَضُمُّ مفاهيـم التَّعدُّديّة والانْخِرَاطِ والتّعـاون والمُشَارَكَة)[٨٣]. وهكذا أَصْبَـحَ الحديـثُ اليوم هو عـن «اقْتصاد المَعْرِفَـة» حيث تكـونُ «المَعْرِفَةُ» هــي «المَادَّةُ الخَـامّ» و«المُنْتَجُ الرَّئيس» فـي آنٍ وَاحِدٍ؛ فهو، بشَكْلٍ عامٍّ، ذلك الاقْتصـادُ الذي تُؤسِّسُهُ العناصِرُ البشريّة، وتُطَوِّرُهُ المُؤسَّسَاتُ الاجْتماعيّة القَادِرَةُ على اكْتِسَابِ المَعْرِفَةِ الحاليّة والمُسْتقبليّـة، واسْتِيعابِها، وإنْتَاجِها، ونَقْلِها، وتَسْويقِها، بفَعّاليّةٍ وكفاءَةٍ لرَفْعِ درجة النُّموّ والقُدْرة التّنافُسيّة في الاقْتصاد.

تلـك التَّحَـوُّلاتُ الجِذْريّـةُ في «التّفاعُـلاتِ المَعْلُوماتيّـة» من ناحيـةٍ، و«التَّطْبيقات الاقْتصـاديّـة» من ناحيةٍ أُخْرى، أَعْطَتْ أبْعـاداً جديدة لـ«مَفْهُوم التّنْمية»، وتَمَخَّضَتْ عنها عناصِـر حيويّةٌ فـي «التَّفاعُلات الاجْتماعيّـة والثّقافيّة»، فبينما (يَرْتَكِـزُ مَفْهُومُ «مُجْتمع

المَعْلُومـات» على الإنْجـازات التّكْنولوجيّة فإنّ مَفْهُـومَ «مُجْتمع المَعْرِفَـة» يَتَضَمَّنُ أبْعَاداً اجْتماعيّـةً وأخْلاقيّةً وسياسيّةً أكْثـر اتِّسَاعاً بكثير)[٨٣]؛ وهكذا أَصْبَـحَ الحديثُ الرّئيسُ فـي «المُجْتمعات المُتَقدِّمَة» هو عن بُـزُوغِ «مُجْتمع المَعْرِفَة» وسعيهـا الحثيث إلى تَمْكينِ قَواعِـدِهِ وتَرْسيـخ أرْكَانـهِ وتَطْويـرِ فَعّاليّاته. وأمّـا «المُجْتمعـاتُ النَّامية» فـإنّ فُرْصَتَهَا الوحيـدة، لأيِّ مُسْتَقْبَلٍ يُرْتَجَى في «الألْفيّـة الثّالثة»، تَكْمُنُ في مُحاولة التّعامُلِ مع شُرُوطِ «مُجْتمـع المَعْرِفَـة» والتّفاعُلِ مع مُقْتضياتِـه، وأَصْبَحَ أهمّ ما يَقْبَعُ فـي قَلْبِ التّحدّيات هو ذلك «التّدافُعُ المُجْتمعيّ والثّقافيّ والفِكْريّ والمَعْرفيّ» المُنْطَلِقُ - بالضّرورة - نحو حَسْمِ القضايا في اتِّجَـاهِ التَّوَافُقِ مع مُتطلَّباتِ «العَصْرِ» عبْر تَأْسيس «مُجْتمع المَعْرِفَة» وتوطيد مُقَوِّمَاتِـهِ على ركائز متينةٍ تجد في «الهُويّة» مَأْمَناً لها، وفي «الثَّوَابِتِ» تَرْسيخاً لجُذُورِهَا، وفي «المُسْتَقْبَلِ» تناغُماً مع تفاعُلاتِهَا.

أمّـا المُشْكلـةُ فهي ليستْ - في رأْيـي[٧٨] - في تَعْريفِ «مُجْتمـع المَعْرِفَة» أو تَحْديدِ أُسُسِـهِ ومُقَوِّمَاتِـه، حيـث لا تُوجَدُ هناك ألْغـازٌ أو أسْـرَارٌ، ولعلّ التَّحَـدِّي الأكْبر في هذا المسـاق أنّ التَّنْظيـرَ لـه سَهْلٌ طَيِّعٌ لَيِّـنٌ، ولذا تَزْخَرُ أدبيَّـاتُ الجامعـاتِ وإسْتراتيجيّاتُ المُؤسَّسَـاتِ - في العَالَم العربيّ - بالدَّنْدَنَـةِ حول هذا المُصْطلح وغيره من مُصْطلحاتٍ أُخْـرى مُتناغِمَةٍ، مِثْل: «اقْتصاد المَعْرِفَة»، و«التَّنْميـة المُسْتَدامَة»، و«توطين التّقْنية». إنّ الانْتِقَـالَ من إطَـارِ الطُّمُوحِ والتَّنْظيرِ والتَّمنِّي، إلى وَاقِعِ التَّطْبيـقِ والمُمَارَسَاتِ والإنْجَاز، يُمَثِّـلُ - عـادةً - مَكْمَـنَ الفَشَلِ الرّئيس في تجـارِب «الدُّول النَّاميـة»، فتَرْديدُ المُصْطلح والتَّغَنِّي به أمْرٌ «ليس عليه جُمْرُك» - كما يقولون -، ولكن السُّؤال هو: (هل اسْتَكْمَلَتْ هذه المُجْتمعـاتُ شُرُوطَ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتأهَّلَتْ لمُتطلَّباته، أمْ أنّها تَقْفِزُ في فَرَاغٍ، وتَعْتَقِدُ أنّ من السَّهْلِ حَرْقَ المراحل؟).

إنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» في «العَالَم المُتَقدِّم» هو «نَمُوذَجٌ مَعْلُوماتيٌّ - ثقافيٌّ - اجْتماعيٌّ» نَتَجَ عن تفاعُلاتٍ عميقةٍ - ثقافيّاً ومَعْلُوماتيّاً ومُجْتمعيّاً وتَعْليميّاً وبَحْثياً -، وشُرُوطٍ صَارِمَةٍ على عَوالِمِ الاقْتصاد والإنْتاج والابْتكار والاكْتشاف، وضَوابِطٍ حَاسِمَةٍ على مضامين القِيَم والمفاهيـم والمُمَارَسَات؛ وكُلُّهَا - عبْر وِلادَةٍ صَعْبَةٍ - اسْتطاعتْ - بتراكُماتِها المُتلاحِقة

- أنْ تُحدِثَ «النَّقْلَةَ النَّوْعيّة» المطْلُوبَة؛ ولذا فإنّه لا يُمكِنُ بحالٍ لـ«المُجْتمعات النَّامية» أنْ تَنْجَـحَ في الانْضِمَامِ إلى «نادي مُجْتمعات المَعْرِفَـة» دون أنْ تَتَوَافَرَ لها مُقَوِّمَاتُ «التَّأْهيل المُنَاسِـب»، والتّهْيئَـةُ الجَادّةُ لـ«البِنْيَة التّحْتيّة» اللّازِمَة. وفي هــذا السِّياق لا بُدَّ من تأمُّل الشُّــرُوطِ الرّئيسةِ للانْضِمَامِ إلى «نادي مُجْتمعات المَعْرِفَة»؛ لأنّ ذلك لن يَتِمّ اعْتِباطاً أو ارْتِجالاً أو بمَحْضِ الصُّدْفَةِ أو بحركاتٍ بَهْلوانيّةٍ دِعَائيّةٍ؛ فـ«التَّحَوُّلاتُ الكُبْرى» في التّاريخ لا تَتَحَقَّقُ إلاّ إذا ظَهَرَتْ مُواصَفَاتٌ تُؤهِّلُ لهذه التّحَوُّلات، ولا يُمْكِنُ اسْتِبَاقُ نَتَائِجِهَا قبْل أنْ تَكْتَمِلَ مُقَدِّمَاتُهَا، وتَتَوَافَقَ مُكَوِّنَاتُهَا، ويَتَشَكَّلَ مُنَاخُهَا.

إنّ هــذه الحقيقةَ الحَاسِمَةَ تَسْتَدْعِي التَّعَرُّفَ علــى خصائِص «مُجْتمعات المَعْرِفَة» ومُوَاصَفَاتِهَا، وتَتَطَلَّبُ اسْتِيعاب تلك الشُّرُوطِ في الخُطَطِ والآليّاتِ والبرامِج على مُخْتلف الأصْعِدَةِ، وهذه الشُّرُوطُ، للتّأْهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»[٧٨،٩٦]، أرْبعة:

١) الشَّرْطُ المَعْرفيّ. ٢) الشَّرْطُ اللّغَويّ.

٣) الشَّرْطُ الاجْتماعيّ. ٤) الشَّرْطُ الثَّقافيّ.

ويَهُمُّنَــا في هذا السِّيَــاقِ الشَّرْطَيْن «الاجْتماعيّ» و«الثَّقافــيّ»، وسنُؤَجِّلُ التّطَرُّقَ إلى الشَّرْطَيْن، «المَعْرفيّ» و«اللّغَويّ»، إلى الفَصْلِ الثّامن من هذا الكِتاب.

٦-٦-١) الشَّرْط الاجْتماعيّ:

لقد أَصْبَحَ مــن البدهيّات المَعْرُوفة أنّ القضايا المُعَاصِرَةَ هي إمّا أنّها نِتَاجٌ مُبَاشِرٌ لمُعْطيــاتِ «العلوم والتّقْنيــة»، أو أنّها إفْــرازاتٌ جَانبيّةٌ تَمَخَّضَتْ عــن تفاعُلاتِ «الحركة العِلْميّــة» وتَسَارُعِهَــا المُذْهِل؛ وفي كِلْتا الحالتيــن، فإنّ المُجْتمعات في حاجــةٍ إلى «رُؤيةٍ عِلْميّــةٍ» لفَهْــمِ هذه التّأْثيــرات والتّعامُلِ معها بكفــاءَةٍ ونُضْج، وبمــا أنّ «المَعْرِفَة العِلْميّة» تَعْتَمِدُ - في المقام الأوّل - على «الرّأْسمال البشريّ»، فإنّ قُدْرَتَهَا على تَأْدِيَةِ دَوْرٍ مِحْوريٍّ تَكْمُــنُ فــي توضيحِ صُورتِهــا، وتَبْسيــطِ مُحْتوياتِهــا، وإبْــرازِ مَعَالِمِهَا للمُجْتمــع بمُخْتلف فِئَاته وشَرَائِحِه.

إنّ «الإشْكَاليّةَ الكُبْرى» هي أنّ القضيّةَ ليستْ قضيّةَ مَجْمُوعَاتٍ من أهْلِ الاخْتصاصات العلْميّــة تَجْتَمِعُ ثــمّ تَنْفضُّ بعد تَشْخيصِ العِلَــلِ وطَرْحِ الحُلُول؛ فـ«مُجْتمــع المَعْرِفَة» ليس «مُجْتمعــاً نُخْبَويّاً»، ولكنّه قضيّــةُ مُجْتمعٍ بأسْرِهِ يتعاملُ مع المُسْتَجِدَّاتِ - سَلْباً وإيجاباً -، وهــو قضيّةُ أفْرَادٍ ومَجْمُوعــاتٍ يُمَارِسُون حيواتهم اليوميّة فيُؤثِّــرُون ويَتَأثَّرُون، ليصوغوا - فــي النّهايــة - مُعــادلاتِ التّفَــوُّقِ أو صِفَــاتِ الإخْفَاق؛ ومن هــذا المُنْطلق تَبْــرُزُ أهميّةُ «الوَعْي العِلْمــيّ الجَمْعيّ» الذي يَصْنَعُ الفُرُوقَ بين «الأُمــم المُتَقَدِّمَة» و«الأُمم المُتَخَلِّفَة». إنّ «مُجْتمــع المَعْرِفَــة» «مُجْتمــعٌ شَامِلٌ» قَادِرٌ علــى أنْ يتفاعل، بلُغَتِه وثقافتِــه وهُويّتِه، مع مُعْطياتِ «العَصْــرِ» ومُسْتَجِدَّاتِ «المَعْرِفَة» بحيث تُشَارِكُ جميع الشَّرائِح ومُخْتلف الفِئات فــي اسْتيعاب «المَعْرِفَة» وإنْتاجها وتوظيفها. إنّ هــذه الحقيقة تَفْتَحُ على فضاءاتٍ وَاسِعَةٍ قَارِعَــةً الجَرَسَ - بقُــوّةٍ وعُنْفوانٍ - أمــام وسائِل الإعْــلام، ورِجَالِ التّعْليــم، وأكاديميّي البحــوث، وأطْيَافِ «المُجْتمع المَدَنِيّ»، وقطاعات الخِدْمات والتّدْريب والإنْتاج، ليتولّى كُلُّ طَــرَفٍ مَسْؤوليّتــه بفاعليّةٍ لتوليد «الإرادة الجماعيّة» الواعيةِ القَــادِرَةِ على قَطْعِ الأشْواطِ العمليّــة على طريــق «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ فالعطــاءُ العِلْميُّ إنْ بَقِيَ أسير عَقْــلٍ وَاحِدٍ انْتَهَى بنهايتِه، كما أنّ بَقَاءَ العملِ العِلْميِّ حبيس أسْوار معاقِل هنا وهناك هو حُكْمٌ عليه بالفناء، أو ارْتهانه لعطاءاتِ الآخَرين وإنْجازاتِهم.

ولا بُــدَّ أنْ نَتَوَقَّــفَ هنا أمــام مُصْطلح «مُجْتمــع المَعْرِفَــة»؛ لنُدْرِكَ أنّنــا نَقِفُ أمام مُصْطَلَحَيْن مُتَكَامِلَيْن، وهما «مُجْتمع» و«مَعْرِفَة»؛ فالأساسُ في هذا التّرْكيب هو «التّفاعُلُ المُجْتمعــيُّ» مع «المَعْرِفَة»، وجَعْلُهــا مُتَاحَةً لكُلِّ فِئات المُجْتمــع؛ فـ(«مُجْتمع المَعْرِفَة» هو مَشْــرُوعُ مُجْتمــع)[٨٣]، ممّا يَعْنِي أنّــه يَطْمَحُ إلى تَكْوينِ «المَجْمُــوع البشريّ» الذي يتفاعلُ - بحيويّــةٍ - مــع «الانْفِجَارِ المَعْلُوماتــيّ»، ويتعاملُ - بإيجابيّةٍ - مــع المُعْطيات الإنْسانيّة والثقافيّــة والبيئيّة، ويُطَــوِّعُ - بمهارةٍ - حقائِق «الثَّــوْرَةِ العِلْميّة» المُتنامِيــةِ عبْر الكَوْكَبِ الأرْضــيّ وفي آفــاقِ المَجَــرَّاتِ الكَونيّة. وأمّــا أبْرز خصائِصــ «مُجْتمــع المَعْرِفَة»، فهي الكفــاءَةُ العَالِيــةُ في تَأْمينِ «النَّفــاذ إلى المَعْرِفَــةِ والمَعْلُوماتِ للجميع»، ولــذا فإنّه: (لن تتمكّنَ «مُجْتمعات المَعْرِفَة» في القَرْن الواحد والعشرين من بُلُوغِ حِقْبَةٍ جديدةٍ من التّنْمية

الإنْسانيّــة والمُسْتَدامَة إلاّ بشَرْطٍ لا يقومُ فقط على تَأْمين نَفَاذٍ شَامِلٍ للمعارف، بَلْ أيضاً على مُشارَكةِ الجميع في «مُجْتمعات المَعْرِفَة»)[٨٣].

٦-٦-٢) الشَّرْط الثّقافيّ:

ولأنّ «الثّقافة» هــي: «الوَسَطُ الذي يَحْمِلُ مُجْمَلَ النَّشَاطِ البشريّ، ويَضُمُّ المفاهيمَ السَّائِـدَةَ والقِيَمَ المُهَيْمِنَة، ويُبَلْوِرُ الأولويَّـاتِ والاهْتمامات، ويُنَظِّمُ المَدارِكَ والعَلاقَات»، فإنّهــا تُصْبِـحُ ذات تَأْثيـرٍ حَاسِمٍ فــي عمليّــاتِ «التَّحَوُّل الكُبْـرى»، ومُنْطَلقَــاتِ «التَّأْهيل الشَّامِـل»، ويَتَطَلَّـبُ ذلك جُهْـداً كبيراً لإعـادة صَوْغِ «الثّقافـة» بما يتناغمُ مـع مُتطلَّبات «مُجْتمع المَعْرِفَة» وضَوابِطِـه؛ وهذا يَعْنِي أنّ هناك ثقافةً لازِمَةً لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»، وهي بالضّرورة «ثقافةٌ تَنْمَويّةٌ» عِمادُها «الثَّقافة العِلْميّة»، وأدواتُها «العلوم والتّقْنية»، ورَوافِدُهَا «المعارِف الإنْسانية» بتَشْكيلاتِها وانْتماءاتِها المُخْتلفة.

إنّ تلــك الرُّؤيــة تَقْتَضِي التّعامُلَ الجَــادَّ مع «مَفْهُومِ الثَّقافــة التَّنْمَويّة»، حيث تُصْبِحُ «التَّنْميــةُ» قِيمــةً ثقافيّةً وفِكْريّةً وسُلُوكيّــةً واجْتماعيّةً؛ لتَتَحقَّقَ شُــرُوطُ «البِيئة الصِّحيّة»، وتَصْنَعَ «الوَسَطَ الفَعّــالَ»، لتَنْميةِ طاقاتٍ وقُدْرَاتٍ بشريّةٍ تَحْتَرِمُ مهنَها، وتُطَوِّرُ مهاراتِها، وتَهْتَــمُّ بالإتْقَان، وتُوَظِّـفُ الإمْكَانَاتِ والمَوَارِد. وهكذا نجدُ أنّ «الثَّقافــة العِلْميّة» تَقْبَعُ في قَلْــبِ «الثَّقافة التَّنْمَويّــة» وَقُوداً ودَافِعاً ومُحَرِّكاً، وتَبْرُزُ بِصِفَتِهَا الــذِّرَاعَ الفَاعِلَةَ لـ«الثَّقافة المُعَاصِــرَة» في أُطُرِهَا المُخْتلفــة وأطْيَافِهَا المُتَعَدِّدَة، ممّا يَعْنِي أنّ نَشْرَ «الثَّقافة العِلْميّة» هــو جُــزْءٌ مِحْوريٌّ من جُهُودِ الانْضِمَــام إلى «نادي مُجْتمع المَعْرِفَة» عبْــر تجاوز «التَّعَامُلِ السَّطْحِــيّ» مــع «العلوم والتّقْنيــة»، وتَهْيئَةِ تُرْبَةٍ خِصْبَــةٍ لإنْتاج عُلماءٍ ومهــاراتٍ وكفاءاتٍ قَــادِرَةٍ على «التَّعَامُــلِ الإيجابيّ» مع مُتطلَّباتِ «مُجْتمــع المَعْرِفَة» عبْــر «التَّطْوير النَّوْعيّ» لتَفْكيــرِ الفَــرْد، وتَعْميقِ قِيمتِه الذّاتية، وتَنْميةِ «الحِسِّ العِلْمــيّ» لديه، ورَفْعِ درجة إسْهامِه المُجْتمعيّ والثَّقافيّ والتَّنْمَويّ.

٦-٧) «الثّقافة العِلْميّة»: أولويّة للمُجْتمعات العربيّة:

إنّ «الثَّـوْرَةَ العِلْميّة – التّقْنيّة» تفْرضُ إيقاعاً خاصّـاً على المُجْتمعات البشريّة كافّةً بغَضِّ النَّظَرِ عن خلفيّاتِها الثّقافيّـة، وأُسُسِهَا العقائديّة، ومَوْرُوثَاتِهَا التّقْليديّة، وأعْرَاقِهَا المُتباينـة؛ فالعَالَمُ يَتَحَرَّكُ حثيثاً نحو «حضارةٍ عَالَميّةٍ» يَصْبُغُهَـا «الفِكْرُ العِلْميُّ» بألْوانه المُمَيِّـزَة، وتُشَكِّلُهَـا المُعْطياتُ التّقنيّـةُ بقفزاتِهـا المُذْهِلَة، ويتسابقُ الجميـعُ في طُمُوحٍ مُشْتَـرَكٍ نحـو تَحْقيقِ مـا أَطْلَقُوا عليـه اسْم «مُجْتمـع المَعْرِفَة». لقد بَـرَزَتْ – في حيويّةٍ وعُنْفُوانٍ – مَعَالِمُ هذه «الحضارة العَالَميّة»، وما تَفْرِضُهُ من ضُغُوطٍ وتداخُلاتٍ وتَعْقيداتٍ وهَيْمَنَـةٍ، وتَجَلَّـى كُلُّ ذلك في الظّاهِـرَةِ المَعْرُوفَةِ باسْـم «العَوْلَمَة» التـي أَصْبَحَتْ -كما هـو مَعْلُـومٌ- قضيّـةً مَطْرُوحةً في جَـدَلٍ مُتزايدٍ، وتَأْويـلاتٍ مُتباينةٍ، وحِـوَارٍ مُكَثَّفٍ على مُخْتلف الأَصْعِدَة.

لقـد رأينا – فـي الفَصْلِ الثّاني مـن هذا الكِتاب – مـا أَفْرَزَتْهُ «الحركـة العِلْميّة – التقنيّـة» مـن فَجْـوَةٍ ثقافيّةٍ فـي «المُجْتمعات الغَرْبيّـة» تَصَدّى لهـا المُفكِّـرون والعُلماءُ والمُثقّفـون وصُنّاعُ القرار عبْر جُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ لرَفْعِ درجـة «اسْتِحْسَان العلوم والتّقْنية» بين الجماهير، ومَحْـوِ «الأُمِّيّة العِلْميّة»، ونَشْرِ «الوَعْي العِلْميّ» كشَرْطٍ أساسٍ لتَشْكيلِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة». وإذا كان السِّيَـاقُ الذي ناقشنـاه هو وَاقِعُ الحِوَارِ والجَـدَلِ والشَّدِّ والجَذْبِ في مُجْتمعـاتٍ نَبَتَتْ فيها «الحركةُ العِلْميّةُ» بشَكْلٍ طبيعيٍّ، وانْبَثَقَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» عن عُقُولِ رجَالِهَـا وجُهُودِهِـمْ، فكيف يكون الحال في بيئـاتٍ انْتَصَبَتْ أمامها العلـومُ كَائناً عِمْلاقاً غريباً كَامِلَ النُّموّ يَبْطِشُ بكُلِّ أَنْظِمَةِ الحياة ومعاييرها؟. أليس من الضّروريّ بالنِّسْبَةِ لها أنْ تكـون قضيّةُ «الوَسَطِ الثَّقافيّ» الذي يُمَهِّدُ لـ«الحركـة العِلْميّة»، ويَحْتَضِنُ مُقْتضياتِها، ويُيَسِّـرُ حركتَهـا، ويَدْعَـمُ انْطلاقَها، قضيّةً ذات أولويّـةٍ بَارِزَةٍ وضَـرورةٍ حَاسِمَة؟. أليسَ هـذا مـا يَقْصِدُهُ زكي نجيب محمـود[٢٠] عندما يقول: (إنّك لا تَعْـرِفُ طبيعة العَصْرِ من تَفْصيـلاتِ المعيشـة العمليّة، بقَـدْرِ ما تَعْرِفُهَا مـن الطَّابَعِ الفِكْريّ العـامّ الذي تكون له السِّيـادةُ في توجيه النّاس وهُمْ بصَدَدِ الحُكْمِ علـى الأشْياء والنّاس والمَوَاقِف)؟، وأليسَ

هذا – أيضاً – ما يَرْمي إليه زكي نجيب محمود[٢٠] عندما يُؤكِّدُ: (ما لمْ تَحْدُثْ في مُنَاخِنَا الفِكْريّ تَحَوُّلاتٌ تُوَائِمُ بينه وبين صُوَرِ الحياة الجديدة، فسيظلُّ التّنَافُرُ قَائِماً بين الرَّأْسِ والقَدَمَيْـن)؟. أليسَ هـذا – أيضاً – هو «مَنَاطُ الإصْلاح» الذي تُقَـرِّرُهُ قِرَاءَةُ علي أومليل لوَاقِـعِ «المُجْتمعات النَّاميـة» عندما يقول: (إنّ المُجْتمع الوَاحِد فـي العَالَم النّامي يسير بسُرْعَتَيْـن: أقليّـةٌ تَمْتَلِـكُ المَعْرفَةَ المُتَقدِّمَة، والقُـدْرَةَ على الانْدِمَاج فـي شَبَكَاتِ العَالَم المُعَوْلَم، وأكْثريّةٌ تَغْلُبُ عليها الأُمّيّة، أو تَتَعَلَّمُ تَعْليماً غير نَافِعٍ في عَالَمِ اليوم. وهكذا فإنّ تَحْديـثَ «الثّقافة العربيّة» هو الكفيلُ بتَمْوينِ الرّأْسمـال الإنْسانيّ الذي به وَحْده نَسْتطيعُ المُنَافَسَةَ في عَالَمٍ سريع التّطوُّر. وهذا «مَنَاطُ الإصْلاح»)[٣٧].

٦-٧-١) في مُواجَهَةِ «المَأْزِق التَّنْمَويّ»:

فـي ضوء مـا سَبَقَ، فإنّه من المُهِـمّ أنْ نَعْتَرِفَ أنّ أبْرز أوْجُـهِ «إشْكَاليّة التَّنْمية» هو «التَّكْويـن الفِكْريّ» لـ«المُثقَّـفِ العربيّ» الذي لم يُصَاحِبْ تَغَيُّرَاتِ عَصْـرِهِ ومَعَالِمَ زمانِه، ولـم يَتَطَوَّرْ ليتنـاغم مع خصائِص «الحركـة العِلْميّة – التّقنيّة» و«ثَـوْرَةِ العَوْلَمَة»، بَلْ بَقِيَ يُـراوِحُ مكانه، ويُطَـارِدُ إنْشائيّاته، ويُعَانِقُ أشْعَارَه، ويُسَابِـقُ فصاحتَه، بينما راحتْ الدُّنيا بِرُمَّتِهَا تَأْخُذُ أشْكالاً مُعَقَّدَةً من التّفاعُلات، وراحتْ الحياةُ بأسْرِهَا تَتَّخِذُ أنْمَاطاً مُتسارِعَةَ التّغيُّـرِ والتّبدُّل، وراحتْ المُجْتمعاتُ تخوضُ معـارِك شَرِسَةً على المَوارِد – البشريّ منْها والطّبيعيّ –، وتَعْكِفُ على تَطْويرِها وتوظيفِها ورَفْعِ إنْتاجيّتِها.

لقـد بَقِيَـتْ «الثّقافـةُ النَّمَطيّةُ العربيّـةُ» أسيـرةَ مُصْطلحاتِها وحماسِهـا وبلاغتِها وخَلْطِهَا، فراحتْ تَجْتَرُّ التّجارب ذاتها، وتُكَرِّرُ الأخْطاء نفْسها، ولا يَخْتَلِفُ في ذلك مُتَعَلِّمٌ عـن جَاهِلٍ، ولا يَنْجُو من شِبَاكِهَا مُثقّفٌ يَزْعُمُ وِصَالاً مـع «حَدَاثَة» هناك، أو آخَرُ مُلْتَحِفٌ بـ«قَديـم» يُنافِـحُ عنه في كُلِّ مَحْفَل. وعبْر قِـرَاءةٍ مُتَأنيّةٍ لهذه «الثَّقافـة النَّمَطيّة» فإنّه لا مناص لنا من الاعْتِرَافِ بأنّنا نُواجِهُ «مَأْزِقاً ثقافيّاً» وَقَعَتْ فيه الأُمّةُ منذ أمدٍ طويلٍ، ودَفَعَتْ ثمناً بَاهِظاً مُقَابِلَ إدْمانِها عليه، وتَخَوُّفِهَا – غير المُبرَّر – من تَشْخيصِه بنزاهةٍ، وتَحْليلِه بعقْلانيّـةٍ، وعِلاجِـه بشجاعةٍ. ولذا فـإنّ أيَّ وَقْفَةٍ نزيهةٍ أمام هذا الأوضـاع المُتَرَدّية في

تفاعُلاتِ الأُمّة تُحَتِّمُ ضَرورة التّعامُلِ مع العَصْرِ بأدواتِه، فلا يُمْكِنُ خَوْضُ مَعْرَكَةٍ بأسْلِحَةٍ صَـدَأَتْ بفِعْلِ الزَّمن، ولا يجوزُ قَبُـولُ الأَعْذارِ والمُبَرِّراتِ ونحن نتعامـلُ مع «مُقَدِّمَاتٍ» لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تقود إلى «النَّتَائِج» المَنْشُودَة. وعندما يَعْتَرِفُ القَاصِي والدَّانِي بأنّ العَصْرَ هـو «عَصْرُ العلوم والتّقْنيـة»، وأنّ الهَيْمَنَةَ الفِكْريّة والاقْتِصاديّة والثّقافيّة والعَسْكريّة هي لمن يُنْتِجُ أدواتِه ويُطَوِّرُ مُعْطياتِه ويُوَظِّفُ مَوَارِدَه، فإنّ تلك الحقيقة البدهيّة تَفْرِضُ شُرُوطاً وضَوابِطَ لا تَحْدُثُ تِلْقائيّاً، ولا تَتَحقّقُ بمُجَرَّدِ التّمنّي، ولكنّها تَتَرَاكَمُ وتَتَبَلْوَرُ تدريجيّاً، ولا يُمْكِنُ اسْتِبَاقُ نَتَائِجِهَا قبل أنْ تَكْتَمِلَ مُقَدِّمَاتُهَا، وتَتَوَافَقَ مُكَوِّنَاتُهَا، ويَتَوَافَرَ مُنَاخُهَا.

لا يُمْكِنُ الرّكونُ إلى القناعة بأنّ «أَزْمَةَ التّنْمية» سيحلُّها الزَّمن، أو تَهْبِطُ تِلْقائيّاً، أو يجودُ بها علينا الآخَرون؛ وبينما تَنْتَشِرُ مؤسَّسَاتُنَا الفِكْريّة والثّقافيّة والإعْلاميّة والتّعْليميّة - علـى امْتـداد الأرْض - مُشِيدَةً بدَوْرِ «العلوم والتّقْنية» في انْتِشَالِ الأُمّة من وِهَادِ الرّكُودِ والتَّخَلُّـف، إلاّ أنّها - في الوَقْتِ نفْسـه - تُسَارِعُ الخُطَى - دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ - إلى الانْغِمَاسِ فـي الطُّرُوحَاتِ التّقْليديّة والقضايـا الاسْتِهْلاكيّة والجَدَلِ اللّفْظيّ والتَّـرَفِ الفِكْريّ. أمّا عُنْـوانُ الخُـرُوجِ من ذلك «المَأْزِق» - في رأْيي[٩٧] - فهو لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ يَتَعَدَّى كَوْنَهُ من «جِنْـسِ العَصْرِ»، ليَتَجَلَّى في مَفْهُوم «التَّفْكيـر العِلْميّ» الذي يُعابُ على «الثَّقافة النَّمَطِيّة» غِيَابُهُ عنها، بينما تَحْظَى الإنْجـازاتُ المُعَاصِرَةُ بمزاياه وإسْهاماتِه، وذلك هـو «التَّحَدِّي الأَكْبـر» الذي يَسْتَدْعِي «اسْتِجَابَةً» تتناسبُ مــع حَجْمِه، ويتطلّبُ دِراساتٍ مُسْتفيضةً تَهْتَمُّ بتَجْريـدِ «الإشْكَالِيّة» من الإنْشائيّات والمُزَايدات والجَدَليّات لتَدْلِفَ إلى جوهرِها المُتَمَثِّلِ فـي حالة «الفَقْـرِ المَعْرِفيّ» الذي تعيشُهُ الأُمّةُ إزاء تسـارُعِ الأَحْداثِ من حولها، وعَجْزِهَا عن فَهْمِ «التَّرْكيبة المُعَاصِرَة» التي تَصْنَعُ زمن اليوم، وتُشَكِّلُ أبْعَادَهُ وتضاريسَه.

٦-٧-٢) «التَّفْكير العِلْميّ» و«الثّقافة»:

انْسجامـاً مع طبيعة «الثّقافة العربيّة» فـإنّ مُصْطلح «التّفْكير العِلْميّ» يَحْظَى برَوَاجٍ إنْشائـيٍّ فـي أدبيّاتِنا المُعَاصِـرَةِ إلاّ أنّه يَنْبَغِي أنْ نَعْتَرِفَ أنّ وَسَائِلَـهُ لا تَكْمُنُ في الوسائلِ ذاتهـا التي اسْتخدمناها - عبْر قُرُونٍ - من بلاغيّات وإنْشائيّات واسْتطراداتٍ. ولذا فإنّ

كُلَّ أشْـكَالِ «الطَّرْحِ الإنْشائيّ» التي تَتَسَلَّلُ إلى حِواراتِنا عن «التَّفْكير العِلْميّ» تَخْسرُ – في رأْيي[٩٧] – رِهاناتِها منذ البداية؛ لأنّها تَسْتَخْدِمُ أدواتٍ لا تُلائِمُ طبيعة ذلك «المَنْهَج» ولا تتناغـمُ مع مُكَوِّناتِه؛ فليس من المَنْطقيّ أنْ نَتَوَقَّعَ التَّحَرُّكَ بفَاعِليّةٍ على تضاريس «العلوم والتِّقْنيـة» باسْتِخْـدَامِ «خريطة العَالَمِ القديم» التي مهما كانـتْ جَدْوَاهَا في زمانِها فإنّها لـن تَسْتطيع أنْ تَرْصُدَ خَصَائِصَ «الخريطة الحديثـة» التي تَحْمِلُ ملامِحَ جديدةً، وآفاقاً رَحْبَـةً، وتفاصيل دقيقـة. ومن الطَّريف أنّه عندمـا يُطَالِبُ هـذا أو ذاك بضَرورة إدْخَالِ مُقَرَّرٍ دِراسيٍّ خَاصٍّ بـ«التَّفْكير العِلْميّ» في مَنْهَجِنَا التَّعْليميّ، وتَكْثيفِ جُرْعَاتِهِ في حِواراتِنا وإعْلامِنـا وقراراتِنا، فإنّ الحديث يَجْرِي وكأنّ هـذه «الطَّريقة العِلْميّة» في «التَّفْكير» هي «جِهَازٌ» يَتِمُّ اسْتيرادُهُ وتَشْغيلُـهُ في الحال، أو «كِتَابُ مَخْفُوظاتٍ» نَخْتَزِنُهُ ونُعيدُ اسْتِظْهَارَهُ عـن ظَهْـرِ قَلْبٍ، وتغيـبُ عن الأذْهَانِ أنّ «التَّفْكيـر العِلْميّ» – في الحقيقـة – هو مُمَارَسَةٌ فِكْريّـةٌ لهـا أُصُولُهَا وضَوابِطُهَا، وتَجْربـةٌ تراكُميّةٌ تَحْتَاجُ إلى مِحْورٍ تَلْتَـفُّ حوله، وتَتَطَلَّبُ أساساً تَسْتَنِدُ إليه، وتَنْشُدُ تُرْبَةً خِصْبةً تَتَرَعْرَعُ عليها.

من البدهيّـات الضّروريّات في «عَصْرِ المَعْلُومات» – على سبيل المِثال – أنّ «ثقافة الأرْقَـامِ والمَعْلُومات» جُزْءٌ أصيلٌ من خَصَائِصِ «التَّفْكير العِلْميّ» إلاّ أنّ هذه «الثَّقافة» ما زالتْ غريبةً على «العَقْلِ العربيّ»، وما زلنا نَقْرأُ ونَسْمَعُ نِسَباً مِئويّةً تُلْقَى على عَواهِنِهَا في المَحَافِـلِ ووسائلِ الإعْلام، أو حقائِق عِلْميّة تُشَـوَّهُ وتُبْتَرُ دون رقيبٍ أو حسيب. إنّه لم يَعُدْ مَقْبُـولاً في «عَصْرِ المَعْلُومات» أنْ تُحْشَدَ الأرْقَـام، وتَتَدَافَعَ مَزَاعِمُ الإنْجاز، دون مَرْجِعِيّةٍ مَوثُوقَـةٍ ودِراساتٍ جَـادّةٍ ومَعْلُوماتٍ دقيقةٍ. إنّه من المؤسِـف أنْ نَرْصُدَ – في المُجْتمعات العربيّة – حالاتٍ مُتكرِّرَةً لحركاتٍ بَهْلوانيّةٍ لمَزَاعِمِ إنْجازاتٍ عِلْميّةٍ لا يَدْعَمُهَا وَاقِعٌ مَلْمُوسٌ أو أرْقَـامٌ مَدْرُوسَةٌ، ومن المُحْزِنِ أنْ نَشْهَدَ حِـواراتٍ ولِقاءاتٍ ومُنْتدياتٍ يَصْرُخُ أصْحَابُهَا بالنِّسَبِ المِئويّة والأرْقَامِ العَدَديّة دون تَحْديدِ مَرْجِعِيّتِهم ومعاييرِهم؛ فكَمْ من زَاعِمٍ – بكُلّ ثِقَـةٍ واعْتِـدادٍ – أن «تِسْعين في المائة» من النّاس يَتَّفِقُـون معه، ولا يُبَيِّنُ لنا صاحِبُنا هذا كيـف قِيسَتْ هذه النِّسْبَةُ؟، وما العَيِّنَاتُ التي اسْتُخْدِمَتْ في القِياس؟، وعلى أيّ اعْتباراتٍ تَأَسَّسَـتْ المعاييرُ التي حَدَّدَتْ تلك «التِّسْعين في المائة»؟. بطبيعة الحال، ليس أَدْهَى من

ذلـك إلاّ حالة صاحبنا الذي زعم أنّه لو حَقّقَ «عِشْرين في المائة» من تطلُّعاته في جِهَازِهِ الإداريّ فإنّـه يكـون قد حَقّقَ إنْجازاً كبيـراً، ولم يُفْصِحْ لنا عن مَوْقِـعِ تلك «العِشْرين في المائة» في قَائِمَةِ الأولويّات، ولم يَتَبَرَّعْ بمَعْلُومَةٍ عن مِقْدَارِ المال والوَقْتِ والجُهْدِ المَبْذولِ علـى «العِشْرين في المائة» مُقارَنَةً بـ«الثَّمانين في المائة» التي تَقْبَعُ في «خَانَة النِّسْيان»!.

إنّـه من الوَاضِحِ أنّ كُلّ تلك الأسْئلة وغيرها وَارِدَةٌ عِنْدما تكون الأرْقَامُ ضِمْنَ المُسْتَندات فـي الحِوَارِ والتّوثيق؛ ففي «عَصْرِ المَعْلُومـات» لا تَأْتِي الأرْقَامُ اعْتِبَاطاً، ولا تُولَدُ بالمِزَاج، ولكنّهـا - بطبيعتها الرّقميّـة - ذات خصائِص مُنْضَبِطَةٍ تَعْتَمِدُ على أساليب عِلْميّةٍ ثَابِتَةٍ؛ منهـا القِياسُ المُبَاشِر، ومنها الاسْتِـدْلالُ بالمُقارَنَةِ العِلْميّـةِ المَنْهَجيّة، ومنها الإحْصَاءُ المُسْتَنِدُ إلى أساليـب إحْصائيّةٍ مُعْتَمَدَةٍ. وأمّا مُجَرَّدُ الزَّجِّ بالأرْقَام دون إدْرَاكٍ لطبيعتِها وضَوابِطِهَا فهو مَنْهَجٌ فَاشِلٌ قد يُرَوِّجُ لفُقّاعَةٍ إعْلاميّةٍ سُرْعان ما تَنْفَجِرُ ويَتَكَشَّفُ عَوَارُهَا، وهـو طريقةٌ فـي التّفْكير والعمل لا تَنْسَجِـمُ مع تطلُّعاتِ المُجْتمعات إلـى تَحْقيقِ «التّنْمية الحقيقيّة»، والانْفِتَاحِ على «العلوم الحديثة»، والأَخْذِ بأسْبَابِ «التَّطَوُّرِ التِّقنيّ».

لقد كان هناك زمنٌ انْتَشَرَتْ فيه - في العَالَم الثّالث - صِيَغُ المُبَالَغَة، فهَيْمَنَتْ على وسائِـلِ الإعْلام عِباراتُ «أكْبر مَشْرُوعٍ»، و«أضْخم مَبْنَىً»، و«أقْوى جيشٍ»، وبالرّغم من أنّ التّباهـي بالأكْبـر والأضْخم والأقْوى يَفْرِضُ - بالضّرورة - أنْ يكـون هنـاك «ثانٍ أكْبر»، و «ثـانٍ أضْخم»، وما يلي ذلك من تَرْتيبٍ، إلاّ إنّ إغْفَالَ التّرتيب - في حَدِّ ذاته - دَلالَةٌ على بُعْدِ المَعْلُومات عن الوَاقِع، وعدم اسْتنادها إلى المُقارَنَةِ العِلْمية السّليمة. ولا شكّ في أنّ أُفُولَ ذلك النَّهْجِ في كثيرٍ من وسائِلِ إعْلام «العَالَم الثّالث» يُعْتَبَرُ دَلالَةً على نُموّ الوَعْي بين أفْرادِه إلاّ أنّ تلك «الرُّوحَ العِلْميّة» ما زالَتْ في حاجةٍ إلى جُهْدٍ كبيرٍ لتَرْسيخِهَا وإنْضَاجِهَا فـي الكِيَـان الإداريّ والتّخْطيطي والتّنْفيذيّ والاجْتماعيّ لـ«الـدُّول النّامية». وأمّا التّحَقُّقُ من صِحَّةِ المَعْلُومـات وتَحَرِّي الدِّقَّة في الأرْقَام ومصادرِها، فموضوعاتٌ ما زالَتْ حَائِرَةً بين الإعْلاميّين وحَمَلَةِ الأقْلام في العَالَم الثّالث، وهي قضيّةٌ لا تَعْنيهِمْ من قريبٍ أو بعيدٍ، فنجِـدُ أنّ أحدهم مـا أنْ تَبْلُغَ مَسَامِعَهُ قضيّةٌ ما حتى يُسَارِعَ إلـى طَرْحِهَا في الصُّحف أو وسائِـلِ «الإعْـلام الجديد»، وذلك قبل التّأكُّدِ مـن صِحَّةِ مَعْلُومَاتِه، وفـي رأيه أنّ التّأكيد

والنّفـي وجَمْـعَ المَعْلُومات مهـامٌّ تَقَعُ على عَاتِقِ الجِهَـةِ المَعْنِيَّة، وأنّ مُهمّته تَبْـدَأُ وتَنْتَهِي بالْتِقَـاطِ المَعْلُومة عَشْوائيّاً وطَرْحِهَـا أمام النّاس دون تَمْحيصٍ مَبْدَئِيٍّ أو تَمْييزٍ عَقْلانيٍّ؛ وهـذا – فـي الوَاقِعِ – أسْلوبٌ غير عِلْميٍّ، وهو أقْرب إلى أسْلُـوبِ الارْتِجَالِ وافْتِعَالِ الإثارة منه إلى أسْلُوبِ العمل الهَادِف الذي يَجْمَعُ في إطارِه دِقَّةَ المَعْلُومات، وموضوعيّة الطَّرْح، وحياديّة المُنَاقَشَة.

لا مَفَـرّ مـن إدْراك حقيقة أنّ للأرْقَـامِ والمعْلُومات مصادِر ثَابِتَـةً، ودَلالاتٍ دقيقةً، ومعاييـر مُنْضَبِطَـةً، وتُبْنَى عليهـا قراراتٌ مُهِمَّةٌ، ولـذا كان من المُهِمّ تَكْريسُ «التَّفْكير العِلْميّ» في كُلّ المُؤَسَّسَاتِ – العَامّ منها والخَاصّ – في مُحاولاتٍ جَادّةٍ لفَحْصِ الظّواهِر، وجَمْـعِ المَعْلُومات، واسْتِخْدَام «لُغَـةِ الأرْقَام»، واسْتِكْشَافِ العَلاقَـاتِ الخَفِيّة بين الأمور، ورَبْـطِ الأسْبَابِ بمُسَبِّبَاتِهَا بوسائِل عِلْميّـةٍ، وأدوات إحْصائيّةٍ، وبُحُوث ميدانيّة. يَنْبَغِي أنْ نُـدْرِكَ أنّ «التَّفْكيـر العِلْميّ» ليس وحياً يَنْزِلُ من السّمَاء، وليـس لحظاتِ سِياحَةٍ في رُبُوع «وادي عَبْقَر»، ولكنّه شَأْنٌ يَتَطَلَّبُ مَعْرفةً ومَعْلُوماتٍ ومُرْتكزاتٍ وتفاعُلاتٍ سَبْقِيَّةً مُتَأصِّلَةً. وأمّـا «التّفْكيـرُ» دون هـذه «البِنْيَةِ التَّحْتيّـة» فهو تَجَوُّلٌ فـي فَرَاغٍ، وهـو كَلٌّ على صاحبه، فكمـا قُلْنَا – في الفَصْـلِ الخامِس – إنّ «العَقْلَ» في حاجةٍ إلى مُحَـدِّدَاتٍ، لأنّه يتعاملُ مع أدواتٍ هـي المفاهيم والتّعْريفات والمُصْطلحات والمَعْلُومـات، وبقَدْرِ تَوَافُرِ هذه المعاني والـدَّلالاتِ والقِيَمِ من مُعْطياتِ «الفِكْرِ العِلْميّ» يَسْتطيـعُ «العَقْلُ» أنْ يُؤَمِّنَ درجةً أعْلى من «الإنْجاز المَعْرفيّ»، وقُدْرَةً أكْبر على النَّفَاذِ إلى رِحَابِ «التَّفْكير العِلْميّ».

وهكـذا نجـدُ أنّ تَأْسيسَ «التَّفْكير العِلْمـيّ» في المُجْتمع يَتَحَـوَّلُ – بالضّرورة – إلى «قضيَّة ثقافةٍ» بكُلِّ أبْعَادِهَا ومُجْمَلِ تفاعُلاتِها، ونجدُ – من وَاقِعِ طبيعة العَصْرِ ومُقْتضياته، واسْتِنَـاداً إلـى المُصْطلح ذاته – أنّ «التَّفْكيـر العِلْميّ» يَغْرِسُ جُـذُورَهُ في مبادئ «العلوم الحديثـة» وطُرُقِ تَحْليلِهَا ووسائِلِ تَطْبيقِهَا ومَنْهَـجِ اسْتِدْلالاتِهَا، ويَسْتَمِدُّ أدواته وعناصره مـن عمليّاتِ «التَّفَاعُلِ الفِكْريّ» التـي يَرْسُمُ أُطُرَهَـا «فِكْرٌ عِلْميٌّ»، وتُثْرِي ساحاتِها «قفزاتٌ تِقنيّةٌ»؛ وبهذا يكـونُ «التَّفْكيرُ العِلْميُّ» نِتَاجاً طبيعيّاً لتَأْصيـلِ «الثَّقافة العِلْميّة»، ومُحَصِّلَةً تِلْقائيّـةً تَراكُميّـةً مُلازِمَةً لحَرَاكِ «الثَّقافـة العِلْميّة» وانْتِشارِهَا. ولـذا كان لِزاماً على أيِّ

رُؤىً تَطْمَحُ إلى تَأْصيلِ «التَّفْكير العِلْميّ» في البيئة، وإرْسَاءِ أُسُسِهِ في العُقُول، أنْ تَحْرِصَ وتُرَاهِنَ على جَعْلِ «الثَّقافة العِلْميّة» عُنْصُراً مُؤثِّراً في التّفاعُلاتِ الفِكْريّة، وجُزْءاً عُضْويّاً مِن «الثَّقافة السَّائِدَة»، بحيث يَسُودُ مُنَاخٌ يتجاوبُ مع «رُوحِ العَصْر»، ويَتَفَهَّمُ ضُغُوطَهُ وشُرُوطَه، ويُرَسِّخُ الحماس والاهْتمام بالكُشُوفات العِلْميّة والمُنْجزات التّقنيّة. وأمّا الحقيقةُ الثّابِتَةُ، فإنّه عندما تَزْدَهِرُ «ثقافةُ العِلْم» بين النّاس، ويَتَبَلْوَرُ «التَّفْكيرُ العِلْميُّ»، وتَتَغَلْغَلُ جُذُورُهُ في «النَّسيج المُجْتمعيّ»، فإنّ النّاتِجَ التّلْقائيّ هو اضْمِحْلالُ قراراتِ «الجَهْلِ» المَبْنِيّةِ على المِزَاجِ اللّحظيّ، والارْتِجَالِ التَّعَسُّفيّ، والتَّوهُّمَاتِ الانْفعاليّة، والتَّصَوُّراتِ النَّرْجَسِيّة، والخُطَبِ البلاغيّة.

وهكذا يَتَّضِحُ أنّ من أبْرز الأدْوار التي يُمْكِنُ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» أنْ تقوم بها هو أنْ تَرْتَقي بـ«الثَّقافة العربيّة» من قَوْقَعَةِ المَنْظُومَاتِ اللّفظيّة والتّأمُّلاتِ الوَصْفيّة والجِدَالِ الكلاميّ إلى فُسْحَةِ الأرْقَام والإحْصاءاتِ والمَعْلُوماتِ والتّجْريبِ والانْضِبَاطِ الموضوعيّ، وهذا أمْرٌ مَلْحُوظٌ – إلى حَدٍّ كبيرٍ – في وَاقِعِ الحياة المُعَاصِرَة حيث نجدُ أنّ أولئك الذين خاضوا تَجْرِبَةَ التّأسيس العِلْميّ والتّدْريب التّجْريبيّ يكونون – إلى حَدٍّ ما – أكْثر انْضِبَاطاً ومُرَاعَاةً لعناصرِ «الموضوعيّة»، وحِرْصاً على عدم التّعْميم، واهْتِمَاماً بالاسْتِدْلالِ والتّحْليلِ والتّدْقيق؛ إلاّ أنّه من المُحْزِنِ أنْ نَلْحَظَ – في المُجْتمعات العربيّة – أنّ «التَّفْكير العِلْميّ» – بمَنْهَجيّتِهِ الحقيقيّة وضَوابِطِهِ الصّارِمَةِ – ما زال غَائِباً – بدرجاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ – بين أصْحاب «التّخَصُّصات العِلْميّة – التَّجْريبيّة» أنْفسهم، ولا عجب في ذلك، فالغَلَبَةُ في النّهاية هي لـ«الثَّقافة النَّمَطِيّة» السَّائِدَة، وأفْلاكِهَا الانْفعاليّة، ورَوَاسِبِهَا التّرْبويّة والنّفْسيّة والاجْتماعيّة.

٦-٧-٣) عَقْلَنَة الثّقافة:

انْطلاقاً ممّا سَبَقَ، نَسْتطيعُ أنْ نَخْلُصَ إلى أنّ المُوَاصَفَاتِ والشُّرُوطَ المَطْلُوبَةَ للخُرُوجِ من «المَأْزِقِ الثّقافيّ» أكْثر تَعْقيداً ممّا نَعْتَقِدُ، ولعلّ أهمّ أشْكال ذلك التّعْقيد هو قضيّةُ «عَقْلَنَةِ الثَّقافة» التي تُمَثِّلُ مَسْألةً جوهريّةً لإحْداثِ تَحَوُّلاتٍ في «المُنَاخِ الفِكْريّ»

تُوائِـمُ بين «الثَّقافة العربيّة» وبين صُـوَرِ الحياة المُعَاصِرَة، وتُرَسِّـخُ «الفِكْرَ التَّنْمَويّ» في التّفاعُـلاتِ والمُمَارَسَاتِ، وبدون ذلك ستَسْتمرُّ «الثَّقافـةُ» عِبْئاً على أصْحابِها بإفْرازاتِها الضَّحْلَةِ وسَلْبيّاتِها المُتَعَاقِبَةِ وجَدَلِهَا العقيم. من المُهِمّ - إذاً - في سِياق تَقَصِّي الحُلُولِ لـ«إشْكَاليّـةِ التَّنْميـة» أنْ نَطْـرَحَ السُّؤال الـذي يَفْرِضُ نفْسه مِـرَاراً وتَكْراراً ولـو بأشْكَالٍ مُخْتلفـةٍ، وباسْتِعَـارَةِ توصيف محمد عابد الجابري[٦٧] لـ«الثَّقافـة العربيّة» بأنّها «خِطَابُ وِجْدَانٍ» لا «خِطَابُ عَقْلٍ»، فإنّنا نَطْرَحُ السُّؤال على النّحو التالي: (كيف نَسْتطيعُ أنْ نُحَوِّلَ «الخِطَـابَ النَّهْضَويّ - التَّنْمَويّ» في «الثَّقافة العربيّة» مِـن «خِطَاب وِجْدَانٍ» إلى «خِطَابِ عَقْلٍ»؟). ولا شكَّ لديّ في أنّ مُثقّفينا ومُفكّرينا سيَخْرُجُون علينا بعشرات الإجابات التي تُحَلِّقُ في فضــاءاتٍ لَفْظيّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وتَسْتَعِينُ بمُصْطلحاتٍ «حَدَاثيّة» مُؤَثِّرةٍ، وتَسْبُرُ أغْوارَ مُنْطَلقاتٍ «تُرَاثيّةٍ» شَائِقَةٍ، ولكن المُرَاجَعَةَ والتّقْييمَ لـ«الحركة النّهْضَويّة» في «المُجْتمعات العربيّة» - منذ انْطلاقتها قبل حوالي مائتي عامٍ - يُوضِّحان أنّ كُلَّ تلك الإجابات - دون اسْتِثْنَــاءٍ - لا تَعِدُنَــا بإنْجازٍ وَاضِحِ المعالِم على طريق ذلــك «التَّحَوُّلِ النَّوْعيّ» في التّفْكيرِ والمُمَارَسَــةِ والإنْتــاج، كمــا أنّها لــم تُفْلِحْ في تَحْريـرِ «العَقْلِ العربيّ» من حالــة ما يُعْرَفُ بـ«التَّفْكير الحَدِّيّ» الذي لا يرى في الأشْياء إلاّ «الكَمَالَ المُطْلَقَ» أو «النَّقْصَ الفَادِح»، ولم تَتَمَكَّنْ من إدْخَالِ «العَقْلِ العربيّ» في مَنْظُومَةِ «العَقْلِ المُنْضَبِطِ» الذي يَزِنُ الأُمُورَ بمعايير موضوعيّةٍ، ويُرَوِّضُ الانْفعالاتِ بضَوابِط رشيدة.

تلـك الحقيقة يُؤَكِّدُهَا محمد جابر الأنصاري، وهو يُبَيِّنُ أنّ من خصائِص «التَّفْكير العربـيّ السَّائِد» هو: (انْجرافه للعُموميّـاتِ والأفْكَارِ المُجَرَّدَةِ الغَائِمَـةِ وغير المَحْسُوسَةِ على حِسَابِ الوَقَائِع والحقائِق والجُزْئيّات التي تَتَطَلَّبُ جُهْداً في البَحْثِ والتّفْكير، وصَبْراً عليهمـا، وجُرْأةً فــي مُوَاجَهَةِ تضاريسِ الوَاقِعِ الصُّلْبِ أيّـاً كانتْ صُعُوبَتُـهُ وقَسْوَتُه)[٧٠]، وأمّــا محمد عابد الجابريّ فيَسْبُرُ غَوْرَ «الخِطَابِ الفَلْسَفيّ العربيّ المُعَاصِرِ» فيَذْهَبُ إلى أبْعد من ذلــك فيقول: (التّنَاقُضُ بين «الطَّابَعِ العَقْلانيّ للأهْداف» و«الطَّابَعِ اللاعَقْلانيّ للتّفْكيـر» هو السِّمَةُ البَارِزَةُ فــي «الخِطَابِ الفَلْسَفِـيّ العربيّ المُعَاصِـر»)[٦٧]. أمّا عمليّةُ «عَقْلَنَـةِ الثّقافـة» فهي - وفْق ما يَطْرَحُـهُ ماكس فيبـر (Max Weber) - عمليّةٌ تَهْدِفُ

إلـى (تَحْويـل القِيَمِ والتّصـوُّراتِ الجديدة إلى قَواعِـد ومُرْتكزاتٍ يَتَأَسّسُ عليها «البِنَاءُ الاجْتماعـيّ»)[١٦]؛ وهذا يَعْنِي - بالضّـرورة - اكْتِسَابُ المَقْدرة علـى التّحْليلِ المُنْضَبِطِ والتّفْكيـرِ الموضوعـيّ والرُّؤى المُعَاصِـرَةِ لتأْطيرِ تلك المُعْطيـاتِ التُّرَاثيّة والحَداثيّة في مَنْظُومَةٍ تتعاملُ مع عَصْرِهَا بحيويّةٍ، وتَسْتفيدُ من مُنْتَجَاتِهِ المُتَنَوِّعَةِ باقْتدار؛ فـ(«العَقْلَنَةُ» عنـد فيبـر تَعْنِي إعادة تَنْظيم «المجـال الثّقافيّ» ضمْن دَوائِر مَعْرفيّـةٍ مُسْتقلّةٍ وخَاضِعَةٍ لمَجْمُوعَةٍ من القِيَمِ والمفاهيمِ المُحَدَّدَة)[١٦].

وهكـذا تَكْمُنُ «البِيئةُ المحليّةُ» - بكُلِّ أبْعَادِهَـا الثَّقافيّة والماديّة والاجْتماعيّة - في قَلْبِ «المُشْكلـة التّنْمَويّة المُعَاصِرَة»، وعندما نَتَحَدَّثُ عن «حركـة العلوم والتّقْنية»، فإنّنا نَحْتَاجُ إلى لُغَةٍ مُنَاسِبَةٍ قَادِرَةٍ على توطينِ هذه الحركة وتَخْصيبِ التُّرْبَةِ لاسْتِقْبَالِهَا، فكما يقولُ طه حسين: («العِلْمُ» لا وطن له، ولكنّه إذا اسْتَقرَّ في وطنٍ من الأوطان تَأَثَّرَ بإقْليمِه وبيئتِـه ليَسْتطيـع أنْ يَتَّصِلَ بنُفُوسِ سَاكِنيه)[١٧]. أمّا محمـد عابد الجابريّ[١]، فإنّه يجدُ أنّ «الوَضْـعَ الثَّقافـيَّ الرَّاهِنَ» يُنْتِجُ (فِكْـراً مُشَوَّشَاً غريباً عـن مُجْتمعه وعَصْرِه)؛ وذلك لأنّ ما تُـرَوِّجُ له الوسائلُ الإعْلاميّة والثّقافيّة يَنْحَصِرُ في بِضَاعَتَيْنِ ثقافيَّتَيْنِ مُنْفَصِلَتَيْنِ مُتَنَافِرَتَيْنِ: الأولى تَنْتَمِي إلى (التُّرَاث تَعْرِضُهُ وتُكَرِّرُه)، والأُخْرى (بِضَاعةٌ ثقافيّةٌ غَرْبيّةٌ حديثـةٌ)، ويرى الجابريّ أنّـه: (في كِلْتَا الحَالتَيْنِ يَتَعَلّقُ الأَمْرُ بأجْـزَاءٍ وقِطَعٍ مُنْتَزَعَةٍ من سِياقِهَا مَفْصُولَةٍ عن الرُّوحِ العامّةِ التي أَنْتَجَتْهَا). ومن الوَاضِحِ أنّ تلك الرُّؤيةَ هي إعادةُ صِياغَة، أو إفْرَازٌ من إفْرَازَاتِ «إشْكَاليَّة التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، ولقد اهْتَمَمْنَا بهذه «الإشْكَاليَّة» في الفَصْلِ الرّابع، حيث أوضحنا الدَّوْرَ الحَاسِمَ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في التّعامُلِ - بإيجابيّةٍ - مع هـذه «الإشْكَاليَّة»، وتفكيكِ تناقُضاتِها، وقُدْرَتِهَا على تجاوز «حالة الاسْتِقْطَاب» بين «التُّرَاثـيّ» و«الحَداثيّ» عبْر «تَوافُقٍ تنْمَويٍّ» يَتَبَنّـى «الفِكْرَ العِلْميّ» ليُحَقِّقَ الأُلْفَةَ والانْسِجَامَ والتّلاقُـحَ بيـن مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع ومُقَوِّمَاتِـه، لا لشيءٍ إلاّ لأنّ «ثقافـة العَصْرِ» ومُجْتمعاتِه وأنْمَـاطِ حياتِه واقْتصـاده وازْدهارِه تَعْتَمِدُ - في المقـام الأوّل - على «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، ومُعْطَيَاتِهَا الكَاسِحَة، وثقافتِها التي لا تَسْتَعْدِي أحداً.

ولا شكّ في أنّ «التّركيبة الثّقافيّة - العِلْميّة» التي تُؤصِّلُ لـ«التّفْكير العِلْميّ»، وتُرَسِّخُ الـرُّؤى العَقْلانيّة، وتُوطِّدُ دَعَائِمَ المَنْطِـقِ والتّجْربةِ والموضوعيّة عنـد التّحْليلِ والتّقْييم والدّراسة؛ كُلُّ ذلك من أهمّ ذخائِر التّفْكير اللّازم اسْتدعاؤها إذا أردنا الاسْتجابة لدَعْوَةِ محمـد عابد الجابريّ وهـو يُوَضِّحُ طبيعة المهامّ التي يَنْبَغي لـ«الفِكْرِ العربيّ» أنْ يقوم بها بـ«رُوحِ عَقْلانيّةٍ نَقْديّةٍ» وإلاّ: (فإنّ التّطوُّرَ إلى الأمام لـن يَشُقّ طريقه الصّحيحة عنْدنا. هـذه المهـامّ تَتَلَخَّصُ في عِبَارةٍ وَاحِـدَةٍ هي نَقْدُ الوَاقِـعِ العربيّ من جميـع جوانبه: نَقْدُ المُجْتمع، ونَقْدُ الاقْتصاد، ونَقْدُ العَقْل)[1]. وعموماً فإنّ المُتَأمِّلَ لأبْعَادِ «إشْكَالِيَّة التّنْمية» كمُعْضِلَةٍ مُتَفَاقِمَةٍ يُدْرِكُ أنّ غِيَابَ «الثّقافة» - القَادِرَة على فَهْمِ «رُوحِ العَصْرِ» والاسْتِجَابَةِ لتحدّياتـه - مَسْؤولٌ عـن تَفَاقُمِ هذه «الإشْكَالِيّة» واسْتِمْرَارِهَا فـي «المُجْتمعات النّامية»؛ فقضيّــةُ نَشْـرِ «الثّقافة العِلْميّة» وتَأْصيلِها في هذه المُجْتمعـات ما زالتْ - إلى حَدٍّ كبيرٍ - خَاضِعَـةً لجُهُودٍ فَرْديّةٍ مُبعْثَـرَةٍ واجْتهاداتٍ مَحْدُودَةٍ قَاصِرَة، فهـي - كما قُلْنَا[٢٣] وكَرَّرنَا في أكْثر من مقامٍ ومقالٍ - «القضيّةُ الغَائِبَةُ» في «المُجْتمعات العربيّة». وأمّا عنْدما يقولُ أسامة عبد الرحمن: (إنّ الحريّة الأكاديميّة والمُنَاخ المُلائِمَ للبَحْثِ والإبْدَاعِ لا يَصْدُرَان بقانـونٍ أو بنِظَامٍ ولكنّهما مُحَصِّلَةُ قِيَمٍ اجْتماعيّةٍ وسياسيّةٍ وثقافيّةٍ رَاسِخَةِ الجُذُور)[١٢]، وعنْدما نَتَحَدَّثُ عن افْتِقَارِ العَالَمِ العربيّ إلى النّشاطِ البَحْثيّ المُمَيَّزِ والابْتكاراتِ التّقنيّةِ المُجْدِيَـةِ والإسْهَـامِ العِلْميّ المُنْتِج، فإنّنـا - دون شَكّ - نَتَحَدَّثُ هنا عـن أهميّة تَرْسيخ ثقافـةٍ قَـادِرَةٍ على تَحْفيزِ المَواهِـبِ والقُـدْرَاتِ واسْتِقْطَابِهَا واحْتِضَانِهَـا، وتَهْيِئَةِ «البيئة المُنَاسِبـة» لاسْتِيعابِ عطاءاتها، وبدهـيٌّ أنّ مثْل تلك «الثقافة» لن تَسْتطيع أنْ تَقِفَ وتَنْمُوَ دون الاعْتِمَادِ على عمودِها الفِقْريّ المُتَمَثِّلِ في «الثّقافة العِلْميّة».

٦-٧-٤) في انْتظار «تَحوُّلٍ ثقافيٍّ»:

إنّ النّقْـلاتِ العميقـة، التـي حَدَثَـتْ على مُسْتـوى الكُـرَة الأرْضيّة عبْـر تفاعُلاتِ «الحركـة العِلْميّـة - التّقنيّة»، لـم يُصَاحِبْهَا - للأسف الشّديد - «تَحَـوُّلٌ ثقافيٌّ» مَلْمُوسٌ فـي «المُجْتمعـات العربيّة»، ولذا بَقِيَـتْ ثقافتُها بريئةً مـن كُلِّ ما يَضْطَـرِمُ على السّاحةِ

العِلْميّة والمَعْرفيّة والإنْتاجيّة. وأمّا أكْبر تَأَثُّرَاتِهَا فقد كانتْ - كما هو مُتوقَّعٌ ومُنْسَجِمٌ مع طبيعة «الثَّقافة العربيّة» - على الصّعيدِ الكلاميّ والتّأمُّليّ والخَطَابيّ عبْر تَصَادُمِ تيَارات «الحَدَاثيّيــن» بمعَاقِـل «التّقْليديّين»، أو بَرَزَتْ علــى السّاحة في شَـكْلِ صِرَاعاتٍ سياسيّةٍ ونِزَاعَــاتٍ حول السُّلْطَة؛ ولكنّها في كُلِّ أشْكَالِهَا المُخْتلفة من عِرَاكٍ وحَرَاكٍ لم تُسْهِمْ في تَقْليصِ الفَجْوَةِ مع «ثقافة الغَالِب»، أو إضْعَافِ الاعْتِمَادِ على مُعْطياتِه ومُنْتَجَاتِه، أو الدَّفْعِ نحو تَفْكيكِ «إشْكَاليَّة التّنْمية» والتّصَدِّي لمُسَبِّبَاتِهَا.

لقد رأينا - في سِيَاقِ هذا الكِتاب - كيف أَصْبَحَ الاسْتِقْطَابُ القَائِمُ بين «ثقافة النُّخْبَة» و«ثقافــة الجُمْهُور» يتداعى تحْت وَطْأَةِ «ثَوْرَةِ المَعْلُومات» و«ثَوْرَةِ الاتِّصالات»؛ فالتّفاعُلاتُ والتّبَادُلاتُ بين «الثَّقافَتَيْن» أَصْبَحَتْ أمْراً حَتْمِيّاً، ولكي تَسْتطيع هذه التّفاعُلاتُ أنْ تَنْسَجِمَ مــع «رُوحِ العَصْر» وتَسْتَجيبَ بفَاعِليّةٍ لأنْواعِ التّحدّيات، فإنّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» دَوْراً رئيساً فــي تلك المُهِمّــةِ التي تُؤسِّــسُ لـ«التَّجَانُسِ الفِكْــريّ» و«التّوَافُقِ الاجْتماعــيّ» و«الانْطَلاقَةِ التّنْمَويّــة»؛ وذلك - بكُلِّ بساطةٍ - هو أحد نَوَاتِجِ «الحركة العِلْميّة - التقنيّة» وخَصَائِصِهَا وتفاعُلاتِهــا اللّصيقة بـ«التّدَافُعِ الثّقافيّ - العِلْميّ»، وهــو الأَمْرُ الذي يُوضِّحُهُ أحمد زويل بقوله: (وفــي الدُّوَلِ المُتَقَدِّمَةِ يكون إنْجَازُ «العِلْم» وإبْهَــارُ «التكنولوجيا» ودِقَّتُهَا على قَدْرِ تَشَرُّبِ المُجْتمع بـ«الثَّقافة العِلْميّة») (٧٠).

وهكذا نجدُ أنّ «الثَّقافــة العِلْميّة» ليستْ فقط قَادِرَةً على رَبْطِ المُجْتمع بالقُوى التي تَحْكُــمُ عَصْرَه، وليستْ فقــط دَاعِمَةً لقُدْرَاتِ الاكْتِشَافِ والابْتِـكَارِ والإبْدَاع، وليستْ فقط مُهَيِّئَــةً لأجْوَاءِ «البِيئة المُنَاسِبَة» التي تَدْفَعُ نحو الإنْجازِ العِلْميّ والإنْتاجيّةِ العمليّة، ولكنّها - أيضــاً - تُنَمِّــي الفُضُولَ المَعْرفيّ وحُــبَّ الاسْتِطْلاعِ والبَحْثَ والرَّغْبَةَ فــي قِرَاءَةِ «كِتَابِ الطَّبيعــة» المَفْتُوحِ المُذْهِلِ فــي أسْرَارِهِ والفَائِقِ في إنْجازاته؛ وهــي تَغْرِسُ بُذُورَ «التَّفْكير العِلْمــيّ»، وتُطَوِّرُ مهاراتِ التّحْليلِ والتّعْليلِ والعَقْلانيّة، وتُبَلْـوِرُ قِيَمَ الانْضِبَاطِ وأخْلاقيّاتِ العمــل. وأمّا تَرْقِيَةُ الحِسِّ الجماليّ، وتَعْزيزُ ومضاتِ الاسْتِشْعَارِ الوِجْدانيّ، وتَعْميقُ الرُّؤى الإنْسانيّة، فإنّ «الثّقافة العِلميّة» قريبةٌ منها ومُتَفَاعِلَةٌ معها عبْر سِيَرِ رِجَالاتِهَا، وأطْيافِهَا الإنْسانيّــة، ومجالاتِها الرَّحْبَــةِ والمُتَّسِعَةِ باسْتمرارٍ، وخيالِها الأخَّاذِ الــذي تُبْرِزُهُ أدبيّاتُ

«الخيال العِلْميّ»، وتَحْفِلُ به مُعْطياتُ «العِلْمِ» التي تَفَوَّقَتْ بمراحِل على كُلِّ ضُرُوبِ الخيال.

من المُهِمِّ - إذاً - أنْ نَعِيَ ضَرورة إجْرَاءِ «تَحَوُّلٍ ثقافيٍّ» جِذْريٍّ بحيث تَحْتَلُّ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» مَوْقِعـاً ذا أولويّةٍ بَـارِزَةٍ في مَنْظُومَةِ الاهْتمامـاتِ الثّقافيّة والتّوعويّـة والفِكْريّة فـي حياة «المُجْتمعـات العربيّة»، ومن الضّـروريّ - في سِياقِ طَـرْحِ الخَلْفيّاتِ والقضايا والمفاهيـمِ العامّـةِ المُرْتَبِطَةِ بمُصْطلح «الثَّقافة العِلْميّـة» - أنْ نَحْرِصَ على تَعْريفِ هذا المُصْطلح، وضَبْطِ تَصْنيفَاته ومُوَاصَفَاتِهِ ومَضَامينِهِ وأهْدَافِهِ ومُعَوِّقَاتِه، وذلك في إطَارِهِ العـامِّ المُتَعَلِّـقِ بـ«المُجْتمعات الإنْسانيّـة»، وفي إطَـارِهِ الخاصِّ المُرْتَبِـطِ بـ«المُجْتمعات العربيّـة» وما يُمَيِّزُهَا من ثقافةٍ وعقيـدةٍ ومفاهيمَ وتحدّياتٍ، وهذا ما نَسْعَى إلى مُعَالَجَتِهِ في الفَصْلِ التّالي.

«الثَّقَافَةُ العِلْمِيَّةُ»: نَظْرَةٌ شَامِلَةٌ

٧-١) مَدْخَل:

إذا اتَّفَقْنَا مع محمد عابد الجابريّ بأنّ «مُشْكِلَ النَّهْضة» عند العرب: (يجدُ مَصْدَرَهُ ومُكَوِّناته في التَّنَاقُضِ الذي يُمَيِّزُ الوَضْعَ العربيّ الرّاهِن: التَّنَاقُض بين مَظَاهِرِ الحضارة الحديثـة كما يعيشونُها على مُسْتوى الاسْتِهْلاك، وبيـن مَظَاهِرِ التَّخَلُّف كما يُعَانُونَهَا على مُسْتـوى الإنْتَـاج والسُّلُوك والفِكْـر)[١]، فإنّ مِثْلَ هـذا التَّنَاقُضِ القَائِم يَحْتَـاجُ إلى «لُغَةٍ» تَسْتطيـعُ أنّ تُقَلِّصَ مـن مِساحاتِه، وتُحَاصِرَهُ في مَواقِعِه، وتُفَـكِّكَ عُقَدَهُ وتشابُكاتِه. ومن المُهِمّ أنْ تكون تلك «اللّغة» مُنْبَثِقَةً عن طبيعة المُشْكِل، ومُنْسَجِمَةً مع عناصِرِه، ولأنّ هذه العناصـرَ والمُقَوِّمَـاتِ في زماننا هـي – في المقام الأوّل – مُسْتَمَـدَّةٌ من طبيعة «الحركة العِلْميّـة – التّقْنيّـة» وتفاعُلاتها، فإنّنا لا نَسْتطيـعُ أنْ نجد «لُغَةً» أكْثـر فَاعِليّةً وتَأْثيراً من «لُغَةِ العلـوم والتّقْنية» المُتَمَثِّلَةِ – فِكْرِيّاً وثقافيّاً وعمليّاً – في «الثَّقافة العِلْميّة». وأمّا مالك بـن نبيّ فإنّه – بعد مُعالَجَـةٍ عميقةٍ لأوضاعِ «النَّهْضَةِ العربيّـة» – يَخْلُصُ إلى: (أنّ ثقافة نَهْضتنا لم تُنْتِجْ سوى حِرَفيِّين مُنْبَثِّين في صُفُوفِ شَعْبٍ أُمِّيّ)[٢]، ويجب أنْ نَأْخُذَ «الأُمِّيّة» هنـا بكُلِّ أشْكَالِهَا؛ فـ«الأُمِّيّة الأَبْجَدِيّة» المَعْهُودَةُ آفَـةٌ ما زالتْ تُلْقِي بظِلالِهَا القاتمة على قطاعـاتٍ وَاسِعَةٍ فـي «المُجْتمعـات العربيّة»، ولكـنّ «الأُمِّيّـة العِلْميّة» أَدْهَـى وأَمَرّ، فهي تَنْتَشِـرُ بيـن غَالِبيّة القطاعات مـن كُلِّ الشّرائح المُتَعَلِّمَـةِ والمُثَقَّفَة، وهـي المُعَوِّقُ الأوّلُ المُنْتَصِـبُ أمام «التَّفَاعُـلِ الثَّقافيّ» اللّازم لتَحْقيق «شُرُوط التَّنْميـة». وفي هذا السِّيَاقِ، نَسْتطيـعُ أنْ نقول إنّ «الحركة العِلْميّة» لا تَتَحَرَّكُ في فَرَاغٍ، ولكنّها كما يقولُ دافيد رزنيك (David B. Resnik)[٩٨]: (مُجْتمـعٌ يَجْـرِي دَاخِـلَ مُجْتمع)، وهي: (تَجْعَـلُ العُلماء في

تفاعُلٍ مُباشِرٍ بالمُجْتمع على اتِّسَاعِه)؛ وهذا يَعْنِي أنّ نجاح هذه الحركة، يَتَطَلَّبُ مُجْتمعاً قَادِراً على اسْتيعابِها، وامْتصاصِ مُعطياتِها، والتَّجَانُسِ مع مُقْتضياتِها ،وتَمَثُّلِ ثقافتِها.

٧-٢) «الثّقافة العِلْميّة»: التَّعْريف والصّنوف:

يُصَاحِبُ مَفْهُومَ «الثقافة العِلْميّة» قَدْرٌ كبيرٌ من الضَّبَابيّة، ويُعَانِي هذا المُصْطلح من درجةٍ عَاليةٍ من الارْتِباك، وليس هذا بغريبٍ على مُصْطلحٍ دخل «الثَّقافة العربيّة» خَجُولاً، وفي مراحِل مُتأخِّرَةٍ، ولم يَحْظَ بعَوامِلِ التَّمْحيصِ والدِّراسة، كما أنّه فَشِلَ في أنْ يَحْتَلَّ مكاناً مُنَاسِباً في الأولويّاتِ الثّقافيّة والتّنْمَويّة والإعْلاميّة والتّعْليميّة في «المُجْتمعات العربيّة». إنّ مُعْظَمَ الطُّرُوحَاتِ المُرْتَبِطَةِ بتَعْريفِ «الثَّقافة العِلْميّة» تَحْصُرُها في أنّها: (جُرْعَاتٌ من المعارِف العِلْميّة والأساسيّة والحديثة للرَّاغبين في الإلْمَام بها)، وهذا التَّعْريفُ يَجْعَلُ «الثَّقافة العِلْميّة» «مَفْهُوماً كَمِّيّاً»، حيث تَبْقَى مَحْصُورَةً في إطار ثقافة «هلْ تَعَلَمْ؟»، وتَظَلُّ مَحْدُودَةً ببقائِها في «الإطَارِ المَعْلُوماتيّ النَّظَريّ»، وعدم انْتقالِها إلى «الإطَارِ الفِكْريّ» الذي يُحْدِثُ التّفَاعُلَ على أصْعِدَةِ المُمَارَسَاتِ والتّفْكيرِ والتّحْليل. ومن الواضِحِ أنّ مِثْلَ هذا التّعْريف لا يَمْنَحُ «الثَّقافة العِلْميّة» الأبْعَادَ المُتَعدِّدَةَ والرِّياديّةَ في تَشْكيلِ «الثَّقافة التّنْمَويّة»؛ لأنّ السُّلُوكَ الاجْتماعيّ، والتَّوَجُّهاتِ الإنْتاجيّة، والقِيَمَ العمليّة، والتَّطَوُّرَ الفِكْريّ؛ كُلُّها تَرْتَبِطُ بعناصرٍ هي أوثق في صِلَتِهَا بالوَعْي الثّقافيّ والاسْتِيعَابِ الفِكْريّ منْها بجَمْعِ المَعْلُوماتِ وتَكْديسِ البيانات، مع أهميّة «الكَمّ» الذي أشَرْنَا - فيما سَبَقَ - إلى دَوْرِهِ في تَحْقيقِ «التَّحَوُّلاتِ النَّوْعِيّة».

في الوَاقِعِ لا يُوجَدُ في أدبيّاتِ «الثَّقافة العِلْميّة» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» ما يُبَرِّرُ حَصْرَ «مَفْهُومِ الثَّقافة العِلْميّة» في «ثقافة المَعْلُومات». فهناك جُهُودٌ وَاضِحَةٌ ومُتَنامِيةٌ لتَرْسيخِ «البُعْدِ الثَّقافيّ والفِكْريّ» بطَرْحِ مَفْهُوم «العِلْمُ كثقافة» (Science as Culture)، ويَتَجَلّى هذا التّأكيدُ في قِيام «الجمعيَّة المَلَكيّة البريطانيّة» بإصْدارِ مجلّةٍ تَحْملُ هذا الاسْم في عام ١٩٨٧م، ويرى روبرت هيزن (Robert M. Hazen) أنّ: («الثَّقافة العِلْميّة» بكُلِّ بساطةٍ هي خليطٌ من المفاهيم والتّاريخ والفلْسفة التي تُسَاعِدُ الفَرْدَ على فَهْمِ القضايا

العِلْميّـة فـي زمننا)[٤٦]. وأمّـا كِتابُ (العِلْمُ لـكُلِّ الأَمْريـكان)[٩٤] فيُقَـرِّرُ أنّ (لـ«الثَّقافة العِلْميّـة» جَوانِب كثيرة. وهذه تَشْمَلُ التّآلُفَ مـع العَالَمِ الطّبيعيّ واحْتِرَامَ وَحْدَتِه، وإدْرَاكَ بعْضِ الطُّـرُقِ المُهِمَّةِ التي تُبَيِّنُ اعْتماد الرّياضيّات والتّقْنيـة والعلوم على بعْضها بعْضاً؛ وفَهْمَ بعْـض المفاهيم والمبادئ الأساسيّة للعلوم، وتَأْسيسَ القُدْرَةِ على التّعامُلِ مع طُرُقِ التّفْكيـر العِلْميّة، ومَعْرِفَةَ أنّ العلوم والرّياضيّـات والتّقْنية هي أنْشطةٌ بشريّة، ومَعْرِفَةَ ما يَعْنيه هذا الأَمْر من نِقَاطِ القُوّةِ والضَّعْف، والقُدْرَةَ على اسْتِخْدَام المَعْرِفَةِ العِلْميّة وطُرُقِ التّفْكير لأغْرَاضٍ شخْصيّةٍ واجْتماعيّة).

وعُمومـاً فـإنّ «مَفْهُوم الثقافة العِلْميّة» فـي مُجْمَلِه لا يَخْرُجُ فـي عناصِره عن أَرْبعة أَوْجُه[٩٩]، هي:

١) المَعْرِفَـةُ العِلْميّـةُ: وهـي مَعْرِفَـةُ الحقائـق والمفاهيـم والمبـادئ والقوانيـن والفَرْضيّات والنّظريّات والنَّماذِج العِلْميّة.

٢) الطَّبيعـةُ الاسْتِقْصَائيّةُ للعلوم: وهي تَهْتَـمُّ بالمُمَارَسَةِ الفِكْريّة والعِلْميّة للعلوم، واتِّخَـاذِ القرارات، وإجْـرَاءِ الاخْتبارات، واسْتِخْدَام النَّمـاذِجِ والطُّرقِ العِلْميّة مِثْـلَ المُلاحَظَـةِ والقِياسِ والاسْتِـدْلال، وتَدْوينِ المُعْطيـاتِ وتَحْليلِهـا، ونَقْلِ المَعْلُومـاتِ بوسائِل مُتَعَدِّدَةٍ كالكِتابـة والتّخَاطُبِ واسْتِخْـدَامِ الرُّسُومِ البيانيّة والبياناتِ المُصَوَّرةِ وغيرها.

٣) العلـومُ بصفتها طريقة تَفْكير: وهو الجَانِبُ الذي يَكْثُرُ التّركيزُ عليه والمَعْرُوفُ بـ«التَّفْكير العِلْميّ»، فيَتِمُّ هنا التّشْديدُ على مَنْهَجِيّةِ التّفْكيرِ والتّعْليلِ المَنْطقيّ، وأُسُسِ «المَنْهَجِ العِلْميّ»، وأهميّةِ «الطَّبيعة التَّجْريبيّة» في هذا المَنْهَج، والتّبَحُّرِ فـي «بِنْيَـةِ المَعْرِفَـةِ العِلْميّة» و«فَلْسَفَـةِ العلـوم»، والتّبَصُّرِ في أعْمـالِ العُلَماء وتجاربهم، و«تاريخ العلـوم» ومساراته، واسْتِخْدَام الفَرْضيّاتِ العِلْميّةِ والتّعْليلِ الاسْتِقْرَائـيّ والاسْتِنْبَاطِـيّ والعَلاقَـةِ السَّبَبِيَّـة، والحِرْصِ علـى «الموضوعيّة العِلْميّـة» عبْـر القُدْرَةِ على التّمْييـزِ بين البراهين والحقائق مـن ناحيةٍ، وبين الآراء الانْطباعيّة والطُّرُوحَاتِ الخُرَافيّةِ من ناحيةٍ أُخْرى.

٤) التَّفَاعُـلُ بيـن «العلوم والتّقْنيـة» و«المُجْتمـع»: ويَتَمَثَّلُ هذا المِحْوَرُ فـي إدْرَاكِ تَأْثيـر العلـوم فـي المُجْتمـع والعَلاقـاتِ المُتداخِلَـةِ بيـن العلـوم والمُجْتمـع والتّقْنيـة، ويتضمَّنُ - أيضاً - فَهْم المِهَـنِ والمَسَائِلِ العِلْميّة المُرْتَبِطَةِ بقضايا المُجْتمع ومُشْكلاتِه.

لقد شَدَّدَتْ العديدُ من تَعْريفات «الثَّقافة العِلْميّة» على اسْتِخْدَامِ «المعارِف العِلْميّة» فـي أُمُورِ الحياة اليوميّـة، خاصّةً فيما يَتَعَلَّقُ بعمليَّتَيْ «اتِّخاذ القـرار» و«حَلِّ المُشْكلات»، ولذا كان لا بُدَّ من اعْتبار «الاسْتِخْدَامِ الشَّخْصيّ للمعارِف العِلْميّة» أحد مُكَوِّنَاتِ «الثَّقافة العِلْميّـة»، ويُمْكِـنُ اعْتبـارُهُ جُزْءاً من مِحْوَرِ «العلـوم كطريقة تَفْكير». وبشَـكْلٍ أوسع، فإنّ المَضْمُـونَ الأبْـرز في هذا الرُّؤية هـو المَفْهُومُ الـذي أَسْمَاهُ روبرت هيـزن[٤٦] «التَّرَابُطُ الفِكْريُّ»، حيث يقول: (يَرْتَبِطُ مُجْتمعُنا ارْتباطاً وثيقاً باكْتشافاتِ العِلْم لدرجة أنّها غالباً مـا تَلْعَبُ دَوْراً حَاسِماً في تَشْكيلِ «المُنَاخ الفِكْريّ» للحِقْبَة)، وذلك ما دَفَعَهُ لطَرْحِ السُّؤال الاسْتِنْكَارِيّ: (كيـف نَأْمَـلُ أنْ يَتَمَكَّنَ أيُّ شخْصٍ من اسْتِحْسَانِ الخُيُـوطِ العميقةِ الكَامِنَةِ وراء «الحياة الفِكْريّة» في زمنِه دون فَهْمِ «العِلْم» الذي يَسْري معها؟!).

فـي هذا الإطَارِ يَنْبَغِي أنْ لا نُهْمِلَ أهميّة «القضايـا الأخْلاقيّة والقِيميّة» التي تُرافِقُ اتِّخاذ القرارات في المسائِل العِلْميّة، والتي تُعَدُّ من المُكَوِّنَاتِ المُهِمّةِ لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، ولـذا يَنْبَغِي تَضْمينُها في أَوْجُهِ «الثَّقافة العِلميّـة»، وهي مَشْمُولةٌ - في رأْيي - في مِحْوَرَيْ «التَّفكيـر العِلْمـيّ» و«التَّفَاعُل بين العلـوم والمُجْتمع». وفي هذا السِّيَاقِ يـرى مُؤلِّفو كِتَاب «العِلْـمُ لـكُلِّ الأَمْرِيـكان» أنّ: («العِلْم» في الوَاقِـع هو - في كثيرٍ مـن الجَوانِب - التّطْبيق المَنْهَجِـيّ لبعْض القِيَـم الإنْسانيّة ذات التّقْديـر العَالِي مثْل النّزَاهَةِ والمُثَابَـرَةِ والعَدَالَةِ والانْفِتَـاحِ علـى الأفْكَارِ الجديـدة والشّكِّ والخيـال. إنّ العُلماء لم يَخْتَرِعُـوا أيّاً من هذه القِيَـم، وهم ليسوا الوحيدين الذين يَعْتَنِقُونَهَا. لكنّ المجال الوَاسِع للعلوم يَتَضَمَّنُ ويُؤكِّدُ هذه القِيَم، ويُوضِّحُ - بشَكْلٍ مُؤثِّرٍ - مدى أهميّتها لتقدُّم المَعْرِفَةِ البشريّة والازْدهار. لذا فإنّـه إذا دُرِّسَـتْ العلوم على نَحْوٍ فعّالٍ، فـإنّ النتيجة ستُعَزِّزُ مِثْل هـذه التّوَجُّهَاتِ والقِيَم الإنْسانيّة المَنْشُودَة)[٩٤].

٧-٢-١) من «المُثقّف علْميّاً»؟:

فــي سِيَــاقِ ما سَبَقَ، نَسْتطيــعُ أنْ نقول - بإيجازٍ - إنّ الإنْســان «المُثقّف عِلْميّاً» هو: (إنْســانٌ يُــدْرِكُ أنّ العلوم والرياضيّــات والتّقْنية هي مَشْرُوعاتٌ بشريّــةٌ مُسْتقلّةٌ، ولكنّها مُتَداخِلَــةٌ ويَتأثّرُ بعْضُها ببعْضٍ، وتَحْتَوِي علــى مَوَاطِنِ قُوّةٍ ومنابِعِ إلْهَام ومُنْطلقاتِ خيالٍ، ولكنّهــا فــي الوَقْت نفْسه مُقَيَّــدَةٌ ومُنْضَبِطَةٌ وصَارِمَة. إنّــه إنْسانٌ يَفْهَمُ الأفْــكَارَ والأُسُسَ المُهِمّةَ في العلوم، ومُطَّلِعٌ على «العَالَم الطَّبيعيّ»، ويُلاحِظُ تَنَوُّعَهُ ووَحْدَتَهُ في آنٍ، ويُوَظِّفُ المَعْرِفَــةَ والطُّــرُقَ العِلْميّة في حياتــه الشَّخْصيّة)؛ وهذا ما أَوضحــه تشارلز سنو ضَارِباً مِثالاً لذلــك بأنّ مَعْرِفَةَ الفَرْدِ العاديّ بـ«القانون الثّانــي للدِّيناميكا الحراريّة» تَحْتَاجُ لكي تُصْبِــحَ ذات قِيمــةٍ إلى (فَهْم لا يُمْكِنُ تَحْقيقُهُ ما لم يَتَعَلّــمْ الفَرْدُ بعْضاً من لُغَةِ الفيزياء، وهذا الفَهْمُ يَنْبَغِي أنْ يكون جُزْءاً من ثقافةٍ عامّةٍ في القَرْنِ العشرين) [٣٢].

وأمّــا طبيعة مُعَالَجَــةِ الإشْكَاليّات التــي أَبْرَزَتْهَــا، أو أَوْجَدَتْهَا، «الحركــةُ العِلْميّةُ - التّقنيّةُ» فــي المُجْتمعات المُخْتلفة، فإنّها تُوَضِّحُ ضَرورة أنْ تَحْملَ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» - في إطَارِهَا العامّ - الجَانِبَيْن «الكَمّيّ» و «الكَيْفِيّ»، فيَنْطَبِقُ على مَفْهُومِهَا التّعْريفُ الذي تَبَنَّتْهُ «مُنَظَّمَــةُ التّعاون الاقْتصاديّ والتّنْميــة» (OECD) بأنّ «الثّقافة العِلْميّــة» هي: (القُدْرَةُ على تَبَنِّــي فِكْرٍ عِلْميٍّ) [٩٥]، كما أنّها - بالضّرورة - مُصْطلحٌ عامٌّ تَنْضَوِي تحت لوائِه أَنْوَاعٌ مُتَعَدِّدَةٌ من الأنْشِطة والمُمَارَسَاتِ والاهْتمامات والأشْكَالِ والوسائِط، وتُغَطّي -كما سنرى لاحِقــاً- مِساحاتٍ وَاسِعَةً من التّنَوُّعِ والتّعَدُّدِ على مُسْتوياتٍ مُخْتلفةٍ؛ لأنّ «الثّقافة العِلْميّة» تَحْمِــلُ نَبْضَ «الحياة المُعاصِرَة» وحَيويّتَهَا، وتَعْكِسُ وَاقِعَهَــا ومُتَغيِّراتِهَا، وتَشْمَلُ تَفَرُّعَاتِهَا ومضامينِها.

وأمّــا التّعْريفُ - الوَارِدُ أعْلاه - الــذي تَبَنَّتْهُ «مُنَظَّمَة التَّعاون الاقْتصاديّ والتّنْمية»، فمِــن الوَاضِــحِ أنّه يظلُّ قَاصِراً عن الإحاطــة بأبْعَادِ «الإشْكَاليّــةِ» القَائِمَةِ في المُجْتمعات المُتَقدِّمَــة والنّاميــة بدرجــاتٍ مُتَفَاوِتَــةٍ، والدَّاعِيَــةِ إلى ضَرورة توفيــر «البِنْيَــةِ التَّحْتيّة الثَّقافيّــة» القَادِرَةِ علــى اسْتِيعابِ مُعْطياتِ «الحركــة العِلْميّة - التّقنيّــة» وأفْكَارِهَا ضمْن

أُطُرِهَـا الثّقافيّة وتفاعُلاتِهَا الاجْتماعيّة وتَطَوُّرِهَا التّاريخيّ وقِيَمِهَا السّائِدَةِ؛ لكي تتكامل جَوانِـبُ «الإنْسـان المُثقَّف عِلْميّاً»؛ وهـذا يَصُبُّ في ذات الاتِّجَاهِ الـذي يَدْفَعُ به عبد الله القفـاري بقولـه: (إنّ أيَّ مُحَاوَلَـةٍ للإسْهَام في حالة تَنْوِيرِ عِلْميٍّ أو نَشْـرِ ثقافةٍ عِلْميّةٍ لن تكـون فقط بمُحَاوَلَةِ تَبْسيطِ المادّة العِلْميّة ليتَـمّ تداولُها بين أفْرَادِ المُجْتمع، باعْتبار أنّ هـذا عَامِلٌ ضروريٌّ لتَقْديـرِ العِلْمِ والكُشُـوفِ والتّقْنياتِ المُتَجَـدِّدَةِ والتَّعَامُلِ معها، ومن ثـمّ الدَّفْع بهذا الاتِّجَـاهِ في سِيَاقِ المُجْتمع. مـن المُهِمِّ – أيضـاً – بالإضافة إلى هذا أنْ تكـون قِرَاءَةُ «تاريخ العلوم» ليستْ بمَعْزِلٍ عـن التّطوُّراتِ التي صَاحَبَتْهَا على صعيد الفِكْرِ الاجْتماعيّ والسّياسيّ والاقْتصاديّ)(١٤).

٧-٢-٢) مُؤشِّرُ أداء: «مُعَامِلُ كفاءَةِ الأداء المُجْتمعيّ»:

كُلُّ تلك المُصْطلحاتِ الحيويّةِ المُعَاصِرَةِ مِثْل «مُجْتمعُ المَعْرِفَة» و«التّنْميةُ المُسْتَدَامَة» و«توطيـنُ التَّقْنية»؛ كُلُّهـا – دون اسْتِثْنَاءٍ – تَتَطَلَّبُ شَرْطاً أساسـاً، وهو «الأداء المُجْتمعيّ الجَيِّـد في مجالات العلـوم والتّقْنية»؛ ولذا فالحاجةُ إلـى مِعْيَارٍ، قَابِلٍ للقِياسِ والمُتَابَعَةِ يكـون مُؤشِّراً إلى درجـة الاسْتِعْدَادِ ومدى التَّأْهيلِ لذلـك «الأداء المُجْتمعيّ الجَيِّد»، أَمْرٌ ضَروريٌّ. وفـي خِضَمّ تفاعُلاتِ «المُجْتمع المُعَاصِر» مع التّقاطُعَاتِ المُتَنَوِّعَةِ والتّشابُكَاتِ المُتناميـةِ لـ«العلوم والتّقْنية»، واقْتِحامها لمساقات «الحياة المُعَاصِرَة» بمُخْتلف أنْمَاطِهَا وأشْكَالِهَـا، فإنّـه يَتَحَتَّـمُ علينا – في رأيـي(٧٨) – أنْ نُعَرِّفَ مـا يُمْكِنُ أنْ نُطْلِـقَ عليه اسْم «مُعَامِلُ كفاءَةِ الأداء المُجْتمعيّ» الذي هو بمثابة: (مِقْيَاسٌ يُحَدِّدُ مدى قُدْرَةِ المُجْتمع على توفيـر البيئة النّاجِحَةِ في تفاعُلاته مع مُشْكَلاتِ العَصْرِ الحديث وتحدّياته التّنافُسيّةِ في مُخْتلف المجـالات الإنْتاجيّة والعِلْميّة والبَحْثيّة وغيرها). إنّ هذا «المُعَامِلَ» – بالضّرورة – يتناسبُ طَرْدِيّاً مع ارْتِفَاعِ عَدَدِ «المُثقَّفين عِلْميّاً» في المُجْتمع، فيكون تَعْريفُهُ: (النِّسْبَةُ بيـن عدد الأشْخاص «المُثقَّفيـن عِلْمياً» وبين إجْمالي عَدَدِ السُّـكان)؛ وذلك لأنّ السُّكان هـم الذين يَحْتَلُّون مَوَاقِعِ مُخْتلفةً في المُجْتمـع، ويُسْهِمُون في صُنْعِ القرار على مُسْتوياتٍ مُخْتلفـةٍ مـن الصّلاحيّاتِ ودرجـاتٍ مُتفَاوِتَةٍ مـن الأداء، ويُمارِسُون حياتهـم – الخاصّة

والعامّــة – على مُسْتويات نَوعيّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وبالتّالي كُلّمــا ارْتَفَعَ عَدَدُ الأشْخاص «المُثقّفين عِلْميّــاً» تَحَسَّــنَ «الأداءُ المُجْتمعيّ»، وتَطَوَّرَتْ عطاءاتُ المُجْتمــع، وارْتَفَعَتْ فَعّاليّتُه، فوفْق «التَّقْريــر العَالَميّ لمُنَظَّمَة اليونسكو» – الصّادر في عــام ٢٠٠٥م – فإنّ: (النَّفَاذ الشَّامِل للمَعْرِفَة هو الدّعامة التي تُسَانِدُ الانْتِقَالَ إلى «مُجْتمعات المَعْرِفَة») [٨٣].

بطبيعة الحال ستَدْخُلُ على تَعْريف «مُعَامِل كفاءَةِ الأداء المُجْتمعيّ» مُؤَثِّراتٌ أُخْرى، منْهــا على سبيل المِثال طبيعــةُ المَوْقِع الذي يَحْتَلُّــهُ «المُثقَّفُ عِلْميّاً»، فكُلّمــا كان المَوْقِعُ أكْثَــر تأْثيراً في قــراراتِ المُجْتمع وتَوَجُّهَاتِهِ، ارْتَفَعَتْ «كفــاءَةُ الأداء المُجْتمعيّ»، والعَكْسُ صحيــح. وأمّــا ما يَجْعَلُ تلك العَلاقَة قريبــةً من وَاقِع الحياة فهو أنّ القَاعِــدَةَ العامّةَ تَدُلُّ علــى أنّه كُلّما ازْدَادَتْ أعْدادُ «المُثقَّفين عِلْميّــاً» زَادَتْ فُرَصُهُمْ، وكَبُرَتْ احْتمالاتُ تَبَوئِهِمْ مَواقِع مُؤَثِّرةٍ ذات نُفُوذٍ أكْبر في حياة المُجْتمع، وبالتّالي تَحْسينُ أحْواله وتَطْويرُ إمْكاناته وإنْجَــاحُ خُطَطِــه التّنْمَويّة، فوفْق «التَّقْرير العَالَميّ لمُنَظَّمَــة اليونسكو» – الصّادر في عام ٢٠٠٥م –، فإنّ: («الشَّرْخ المَعْرفيّ» يَنْتُجُ عن أنّ اسْتيعاب المَعْلُومات أو المَعْرفة يكون أقلّ لدى الغَالِبيّــة من تلك الفِئات التي تَشْغَلُ الدَّرجات الأكْثر ارْتفاعاً في السُّلَّمِ الاجْتماعيّ) [٨٣].

٧-٢-٣) نحو تَعْريفٍ شَامِلٍ لـ«الثّقافة العِلْميّة»:

نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّ «الثَّقافة العِلْميّة» تُمَثِّلُ عَالَماً مُتَعَدِّدَ الأطْياف، ومُتَدَاخِلَ الألْوان؛ فهي الفيزياء والكيمياء والرياضيّــات وعُلوم الحياة وعُلوم الأرْض والفلك وعُلوم الفضاء بمبادئهــا ونظريّاتهــا، وهي التّطْبيقــاتُ الحياتيّةُ والتّقنيّــةُ المُتَنَوِّعَة، وهــي الاكْتشافاتُ والاخْتراعــاتُ، وهــي «تاريــخُ العلــوم» و«فَلْسَفَةُ العلــوم»، وهي سِيَــرُ العُلَمــاء وعَلاقَاتِهِمْ وتفاعُلاتِهــم، وهــي «المَنْهَــجُ العِلْمــيُّ» بمُقَوِّمَاتِــهِ وأُطُرِه، وهــي التّأْثيــراتُ العميقةُ التي تَتْرُكُهَا «العلــوم والتّقْنية» على أفْكَارِ «العلوم الإنْسانيّة» ومُعْطياتِها، وهي «الخيالُ العِلْميُّ» بانْطلاقاتِــه وإبْداعاتِــه، وهــي «الإعْجَازُ العِلْميُّ فــي القــرآن والسُّنّة» بآفاقِــه وتَجَلّيَاتِه، وهــي القِيَمُ والمُمَارَسَــاتُ والمعاييرُ المُرْتَبِطَةُ بالتّفاعُلِ العِلْمــيّ والإنْتاجيّةِ العمليّة، وهي

المُسْتَجِـدَّاتُ اليوميّةُ على ساحة «العلوم والتّقْنية» التي تُبَدِّلُ مَعَالِمَ الأرْض، وتَسْبُرُ أغْوَارَ الفضــاء، وتُغَيِّــرُ أنْمَــاطَ العَلاقَات، وتُشَــكِّلُ مُعْطياتِ الاقْتصــاد، وتَفْرِضُ علينا - عبْر «الطَّبيعة الاقْتِحَاميّة للعلوم والتّقْنية» - نَهْجَهَا وخَصَائِصَهَا ومُقْتضياتِها.

بإيجازٍ، نَسْتطيعُ هنا أنْ نَسْتَعِيرَ المَقُولَةَ التي تُعْزَى إلى جورج سارتون بأنّ: («العلوم الحديثـة» هي «شُمُوليّةُ المَعْرِفَةِ الإيجابيّة»)، فنقول بأنّ: («الثَّقافة العِلْميّة» هي «شُمُوليّةُ الثَّقافــة الإيجابيّة») ليَتَجَلَّى بذلك دَوْرٌ أرْحب، وتَبْــرُزُ تداعِياتٌ أكْبر، لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، وهي ذات عَلاقَةٍ عُضْويّةٍ بالرُّؤية التي طَرَحَهَا زكي نجيب محمود بقوله: (ليستْ المَسْألَةُ هنا مَسْألَةَ طَائِفَةٍ من القوانين العِلْميّة يَحْفَظُهَا طُلّابُ العلوم، بلْ هي قبْل ذلك وبعْد ذلك مِنْهَــاجٌ للنَّظَــر، إذا ما اصْطَنَعْنَاهُ بحَــقٍّ، ألْفيناه يُجاوزُ حُدُودَ الكُتُــبِ والمخابير، ليُصْبِحَ طريقــةً للنَّظَرِ في شُؤون الحيــاة العمليّة كُلّها من سياسةٍ إلى اقْتصادٍ إلى عِمْرانٍ والْتِزام بقَواعِـدِ الصِّحَّة وغيرها من جَوانِبِ العيش)[٣٤]. من هــذا المُنْطَلَقِ لجأ بَعْضُ المُهْتمّين إلــى «تَعْريــفٍ إجْرَائِيٍّ» بحيث تكــونُ «الثَّقافــةُ العِلْميّةُ» هــي: (تَزْويدُ الأفْــرَادِ بمَعْلُوماتٍ وظيفيّــةٍ مُرْتَبِطَةٍ بالعِلْم وتَطْبيقاتِــه، واتِّجاهاتٌ إيجابيّةٌ نحو العِلْــم كنِعْمَةٍ، وسَلْبيّةٌ نحوه كنِقْمَــةٍ، وتَفْكيرٌ عِلْميٌّ في حَــلِّ قضايا العِلْم ومُشْكلاته، وتَفْكيرٌ ابْتِكَاريٌّ نحو تَقَبُّلِ الجديدِ والمُسْتَحْـدَثِ فــي مجــال الاكْتشافــات والاخْتراعــات العِلْميّة، ومهــاراتٌ يدويّــةٌ وعَقْليّةٌ واجْتماعيّــةٌ، ومهاراتُ اتِّصَالٍ في مجــالِ العِلْم وتَطْبيقاته، ومُيُــولٌ واهْتماماتٌ عِلْميّةٌ في مجــال العِلْــم، وتَقْديرُ جُهُودِ الدّولة في المجــالات العِلْميّة وجُهُودِ العِلْــم والعُلماء، واتِّبَاعُ السُّلُــوكِ البيئــيّ السّليــم، كُلُّ ذلك في إطَــارٍ قِيميٍّ وأخْلاقــيٍّ يَتَمَشَّى مع الإطَــارِ القِيميّ للمُجْتمع)[١٠٠].

وانْطلاقــاً من تلك المِساحاتِ الشّاسِعَـةِ التي تَتَمَدَّدُ عليها «الثَّقافــةُ العِلْميّة»، نجدُ أنّهــا ليستْ مُجَرَّدَ اهْتمام بنَشْرِ الحقائِــق العِلْميّة والمَعْلُومات التّقْنيّة؛ فهي ليستْ «ثقافة مَعْلُومــات» فقــط، ولكنّها أيضــاً حِرْصٌ على تَأْسيسِــ عَلاقَةٍ بين «عَالَــمِ الأشْياء» و«عَالَمِ الأفْــكار» لتكون قُوّةً دَافِعَــةً للتَّحَوُّلاتِ الاجْتماعيّة المُعَاصِرَة، ورُؤيــةً حضاريّةً مُتأصِّلَةً في القِوامِ الفِكْريّ، وعَامِــلاً مُحَفِّزاً للابْتكارِ والتّفاعُلِ الإيجابيّ مع طبيعة العَصْرِ ومُتَغيِّراته

عبْر مُشارَكَةِ الفَرْدِ وإدْراكِه للتَّحَوُّلاتِ الكَيْفيّةِ التي تَفْرِضُهَا «العلوم والتِّقْنية» على مُخْتلف مسارات المُجْتمع، والمَطْلُوب منْهـا أنْ تصل إلى درجةٍ من العُمْـقِ والاتِّسَاعِ لتتمكَّنَ من تَشْكيلِ وَعْي الفَرْد، وتَكْوينِ التَّوَجُّهَاتِ الاجْتماعيّة، والتَّأْثيرِ في السُّلُوك، وتَأْصيلِ مهاراتِ النّقْـدِ والتّحْليـلِ والتّفْكيرِ الموضوعـيّ، وذلـك لأنّ «المَعْرِفَةَ العِلْميّة»، كمـا يقولُ جلين سيبـورج،: (ليسـتْ عقيمةً أو مَلْفُوفةً بـأوراق السيلوفـان، ولكنّها تَقْبَعُ بالقُـرْبِ من قَلْبِ الفَلْسَفَة والثّقافة)[٤٤].

ومـن المُهـمّ الإشارة هنـا إلى أنّه في زمـن تَغَلْغُـلِ المُعْطيات العِلْميّـة والتّقنيّة في مُخْتلـف مناحي الحياة، ووجودِهـا المُؤثّرِ في مُخْتلـف الأصْعِدَة، فإنّ «الثّقافـة العِلْميّة» تقومُ بدَوْرٍ مُهمٍّ في عمليّة التّمْييزِ بين الجَيِّدِ والرَّديء، والفَرْزِ بين الحَسَنِ والسَّيئ، فكما يقولُ ديفيد رزنيـك: (إنّ الجُمهُورَ يَحْتَاجُ إلى التّثقيف في شَأْنِ التّطوُّراتِ العِلْميّة المُهِمَّة ونتائِـجِ البَحْـثِ العِلْميّ، كما أنّه يَحْتَاجُ إلى الحِمايةِ من مخاطِـرِ العِلْمِ التّافِهِ والمَعْلُوماتِ الخَاطِئَـة)[٩٨]. ولعـلّ من المُنَاسِب هنـا أنْ نَسْتَلْهِمَ من «عِلْمِ الفيزيـاء» رُؤيةً ثقافيّةً عبْر أحـد أبْرز مفاهيـم «النّظريّة النِّسْبيّة الخَاصّة» التي تَنُصُّ علـى: (تكافؤ المادّة والطّاقة حيث يُعْتَبَرَان وَجْهَيْن لعُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ فيُمْكِنُ تَحْويلُ أحْدهما إلى الآخر)؛ فنقولُ إنّ تَرَاكُماتِ «الثَّقافة العِلْميّة» - بمُحْتواها الفعّالِ من مَعْلُوماتٍ وقِيَم وضَوابط وخيالٍ وإنْجازاتٍ وتاريخٍ مُفْعَم بمُتَغيِّراتٍ غير مَسْبُوقَةٍ في حياة البشر - قَادِرَةٌ على أنْ تُحَوِّلَ تلك «المَادَّة» الثَّقافيّة لـدى المُتَلَقِّي - إلى «طاقـةٍ» دَافِعَةٍ إلى عَوالِمِ الابْتِكَارِ والاكْتِشَـافِ والإنْتَاجِ والمُشارَكَةِ الإيجابيّةِ في مُتَغيِّرَاتِ العَصْرِ بـ«رُوحِ العَصْر».

تَأْسيسـاً على مـا سَبَقَ تُصْبِحُ «الثّقافـةُ العِلْميّةُ»، في إطَارِهَا العـامّ، هي: (الجُهُودُ التي تَحْرِصُ على تَقْليصِ الفَجَوَاتِ «العِلْميّة» و«التّقنيّـة» و«المَعْلُوماتيّة» دَاخِلَ المُجْتمع، وتُعْنَى بتَبْسيطِ مُعْطياتِ العلوم ومُنْتَجَاتِ التّقْنية، وما تُحْدِثُهُ «الحركةُ العِلْميّةُ - التّقنيّةُ» مـن آثارٍ وانْعكاساتٍ علـى المُسْتويات المَعْرفيّة والفِكْريّة والفلْسفيّـة والسُّلُوكيّة والقيميّة والبِيئيّة والاجْتماعيّـة والاقْتصاديّة، وغير ذلك من مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع المُعَاصِرِ ومَلامِحِهِ فـي سَيْرِهِ الحثيثِ نحو تَحْقيقِ «المُجْتمع العِلْميّ»)[٣٥،٣٤]. وتَأْسيساً على ما سَبَقَ - أيضاً -

تَتَّضِحُ أهميّةُ «الثَّقافة العِلميّة» كأداةٍ مُعَاصِرَةٍ للتّغْيير والتّطْوير والتّنْمية: «تَنْميةُ التَّفْكير» و«تَنْميــةُ المَوارِد»؛ وهكذا نجـدُ أنّ «الثَّقافة العِلمّيّة» تَقَعُ – بالضّــرورة – ضمْن ما أسْمَاهُ محمــد عابد الجابريّ بـ«الأدوات الجديـدة» عندما كتب يقول: (لا يُمْكِنُ أنْ نُقيمَ لأنْفسنا فَهْمــاً جديداً لثقافتنا الماضيــة، ولا بِنَاء ثقافةٍ جديـدةٍ، إلاّ باسْتِعْمَالِ أدواتٍ جديدةٍ من هذا النَّوْع، أعْنِي مفاهيم ومناهِج الفِكْرِ المُعَاصِر)(١).

وبغَضِّ النَّظَرِ عن الطَّبيعةِ الانْفعاليّةِ والسَّجِيّــةِ العَاطِفيّةِ لـ«الثَّقافة العربيّة» اللتين تَلَمَّسْنَــا سِمَاتِهُمَــا في فُصُــولٍ سَابِقَةٍ من هذا الكِتاب، فــإنّ الحقيقة تَبْقَى بــأنّ الإنْسان بطبيعتِه عَاطِفــيّ المِزَاج، ويُعَانِي من خاصِّيَّةِ «القُصُورِ الذَّاتيّ» التي تُقَاوِمُ التَّغْيير، وهذا هــو الجَانِبُ الذي عَبَّــرَتْ عنه «إشْكَاليّةُ الثَّقافَتَيْن» التــي طَرَحَهَا تشارلز سنو(٣٢) (انْظر: الفَصْــل الثّاني). ولــذا فإنّ «الجَانِبَ العِلْميّ» الــذي يَسْتَوْجِبُ اسْتِبْعَــادَ العَاطِفَة، وتَغْلِيبَ الصَّرَامَــةِ في التّحْليلِ والتّقْييــم، يَتَطَلَّبُ «تَدْريباً» خاصّاً على أساليبِــه وفِكْرِه، ويَسْتَدْعِي «ثقافةً» تَتَوَاءَمُ مع خَصَائِصِــه وتَسْتَوْعِبُ آفاقَه، فكما يقولُ زهير الكرمي(٧٧): (إنّ «العِلْمَ» بطبيعتــه غريــبٌ عن طبيعة الفِكْرِ الإنْسانــيّ المُعْتَاد)، ويقولُ أيضاً: (مــن الوَاضِح أنّه لا يُمْكِــنُ أنْ يكون الإنْســانُ عَالِماً بالفِطْــرَة، ولا أنْ يُصْبِحَ عَالِماً بدون مِــرانٍ شَاقٍّ وتَدْريبٍ مُتَّصِــلٍ، شريطــة أنْ يكون ذلك في مُنَاخٍ عِلْمــيٍّ يُوَفِّرُهُ المُجْتمعُ والدّولــةُ ويَحْرِصَان على تَنْميتــه). وأمّا فيما يَتَعَلَّقُ بالبَحْثِ عن تَعْريفٍ جَامِــعٍ مَانِعٍ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» فقد تَعَدَّدتْ الجُهُــودُ لمُحَاوَلَةِ وَصْفِ هــذا الأخْطَبُوطِ الذي يَمْتَدُّ ويَتَشَعَّبُ يوميّــاً، وتَلْتَفُّ دَوائِرُهُ بشَكْلٍ مُتنامٍ حول حياة الإنْسان بكُلِّ أبْعَادِهَا ومضامينِها؛ ولكنّي أُفَضِّلُ أنْ أصوغ تَعْريفَ «الثَّقافة العِلْميّــة» علــى أنّها: («المُحْتَــوَى العِلْميّ – التّقنــيّ – الفِكْريّ» القَادِرُ علــى القيام بعمليّةِ «التَّأهيل الثّقافيّ» للمُجْتمع ليَتَمَكَّنَ من خَوْضِ غِمَارِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»)(١٠١،٧٨).

٧-٣) «الثّقافة العِلْميّة»: التّفرُّعات:

انْطلاقاً من الإطَارِ العامّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، فإنّنا نَسْتطيعُ أنْ نَتَعَرَّفَ على صُنُوفِهَا وتفرُّعاتِهَــا، فهــي تَتَنَوَّعُ بتنوُّعِ «الجُمْهُــور المُسْتَهْدَف»، كما أنّها تَتَلَــوَّنُ بطَيْفِ «المجال أو التَّخصُّص المَعْنيّ».

٧-٣-١) «الثّقافة العِلْميّة» في ضوء «الجُمْهور المُسْتَهْدَف»:

لقــد أَدْرَكَ تشارلز سنو عند طَرْحِهِ لـ«إشْكَالِيّة الثّقافتَيْن» أنّ حَصْرَ «الإشْكَالِيّة» في الفَجْــوَةِ بين «أصْحــاب التّخصُّصات العِلْميّة» و«أصْحاب التّخصُّصــات الأدبيّة» يَتَضَمَّنُ قَــدْراً كبيراً من تَبْسيــطِ الحقائِق، ولقد ساعد ذلــك التّبْسيطُ على توفيــرِ زَخْمٍ للقضيّة لبساطَتِــه ووضوحِه، فحسب قول سنو: (لقــد وَقَعَ الاخْتيارُ علــى المُفكّرين الأدباء لأنّهم يُمَثِّلــون ويُبْرِزُون، وإلى حَدٍّ كبيرٍ يُشَكِّلُون ويُعَبِّــرُون عن مِزَاجِ «الثّقافة غير العِلْميّة»)[٣٢]. أمّا وَاقِعُ الأَمْرِ، فإنّ شرائِحَ المُجْتمع من المُفكّرين والمُثقّفين وصَانِعي القرار تُمَثِّلُ أطْيافاً مُخْتلفــةً من الاهْتمامات والتّخصُّصات في مجالاتٍ أدبيّةٍ وإنْسانيّةٍ واقْتصاديّةٍ وسياسيّةٍ وقانونيّــةٍ وغيرها، وكُلُّ شريحةٍ تَحْمِلُ ثقافتها الخاصّــة المُرْتَبِطَةَ بطبيعة اهْتمامِها ونَوْعِ تَخَصُّصِهَــا، ممّا يضعنا في مُوَاجَهَةِ مِئات الثّقافات بَدَلاً من «الثّقافَتَيْن» اللتين طَرَحَهُمَا تشارلز سنــو. في الوَقْت نفْسه فإنّ تَشْخيصَ سنو لـ«الإشْكَالِيّــة» يَكْتَسِبُ رَمْزيّةً مُهِمَّةً في ضــوء تلك التّعْقيــدات والتّداخُلات، ويُؤَكِّــدُ أنّ «الانْفِصــامَ الثّقافيّ» يَتَعَمَّــقُ ويَتَرَسَّخُ مع تنامي العلوم والتّقْنية والآداب والدّراسات الإنْسانيّة والاقْتصاديّة وغيرها، ويُبْرِزُ ضَرورة التَّصَــدِّي للشَّرْخِ المُتَفَاقِــمِ بين «الحركة العِلْميّــة - التّقنيّة»، وبيــن «الجُمْهُور» بمُخْتلف شرائِحِه وفِئاتِه وثقافاتِه.

تلــك الحقيقةُ تُكْسِبُ «الثّقافة العِلْميّــة» مضامين مُخْتلفةً وأساليب مُتَعَدِّدَةً تتناسَبُ مع اهْتمامات «الشّريحة المُسْتَهْدَفَة» وخَلْفيَّتِهَا العِلْميّة ورصيدِها الثّقافيّ؛ فمن ضَرورات برامِــج التّوعية والتّثقيف والحِوار أنّ «لكُلِّ مقامٍ مقالاً» وفْقاً للمَقُولَةِ المَشْهُورَة: (خَاطِبُوا النَّاســ على قَدْرِ عُقُولِهِمْ). ولذا فإنّ من الواضِــحِ أنّ مَضْمُونَ «الثّقافة العِلْميّة» المُوَجَّهَةِ إلــى شرائح من النُّخَبِ المُتَخصِّصةِ ليســ بالضّرورة مُتَوافِقاً في «المُحْتَوَى»، أو مُتَطابِقاً فــي «الأهْداف»، مع النَّهْجِ الــذي يَنْبَغِي اتّبَاعُهُ مع عامّة النّاســ، ونَذْكُرُ هنا - على سبيل المِثال - خصائِصــ «الثّقافة العِلْميّة» المُوَجَّهَةِ لـ«الطِّفْل»، وهي قضيّةٌ حَاسِمَةٌ في خُطَطِ «التّنْميــة العِلْميّــة والثّقافيّــة والتّقنيّة»، ونجدُ هنــا - بطبيعة الحــال - أنّ مضامين هذه

«الثَّقافة» ووسائـلِ إيضاحِها وأساليبِ طَرْحِهَا تَتَمَيَّزُ عن غيرهـا بالمفاهيمِ والشُّرُوحَاتِ والرُّسومات المُنَاسِبَةِ لمدارِك «الطِّفْلِ» ومَرْحلته العُمْرِيّة.

ويـرى «التَّقْرير العَالَميّ لمُنَظَّمَة اليونسكو»، الصّـادر في عام ٢٠٠٥ م، أهميّة نَشْرِ «الثَّقافـة العِلْميّة» بين «أصْحَـابِ القَرَارِ»، حيث يُقَرِّرُ أنّه: (يجبُ إضافة «الثَّقافة العِلْميّة» على مَنْهَجِ إعْدَادِ أصْحَابِ القَرَارِ وكِبَارِ مُوظَّفي الدّولة، وسيُشَكِّلُ ذلك نُقْطَةً كبيرةً للبلدان النّامية حيث يُكْبَحُ التّجْديدُ أحْياناً بسبب الصُّعُوبَةِ التي يُجَابِهُهَا أحْياناً «أصْحَابُ القَرَارِ» فـي فَهْمِ الرِّهانـاتِ وأهميّةِ الإشْكاليّاتِ العِلْميّـة والتّكنولوجيّة. إنّ تَكْويـنَ «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» يَهْـدِفُ إلى مَنْـحِ الأفْرَادِ القُدْرَةَ علـى المُشَارَكَةِ الفعّالـةِ في حُكْمِ المُجْتمعـات المُتَأثِّرَةِ بصُـورةٍ مُتزايدةٍ بالعلوم والتّكنولوجيّات أكْثر مـن هدفه في إغْنَائِهِمْ بكَمِّيّةٍ من المعارِفِ المُحَدَّدَة) [٨٣].

أمّا خريطة التّخصُّصات العِلْميّة والمجالات التّقنيّة نفْسها فإنّها تَتَمَدَّدُ وتَتَّسِعُ؛ فكُلُّ تخصُّصٍ يُفْرِزُ مزيداً من التّخصُّصات التي تَبْتَعِدُ تدريجيّاً عن «التَّخَصُّص الأُمّ»، كما أنّ «الدِّرَاسات البَيْنِيّة» (Interdisciplinary Studies)، وهي عمليّةٌ نَشِطةٌ ومُتنامية، وَلَّدَتْ مزيداً من التّخصُّصات الجديدة والتّقْنيات الحديثة؛ ولذا نجدُ - مع تباعُدِ التّخصُّصاتِ ونُمـوّ تداخُلاتِهـا - أنّ كثيـراً مـن المُتخصّصين عِلْميّاً هـم - في الوَاقِـع - «أُمِّيّون» في مجالاتٍ عِلْميّةٍ تَقَـعُ خَارِجَ نِطَاقِ تخصُّصِهِم الدّقيق، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ روبرت هيزن بقوله: (مـن المُدْهِشِ أنّ الدِّرَاسَةَ المُكَثَّفَةَ لمجالٍ مُحَدَّدٍ من العلوم لا تَجْعَلُ صاحبها بالضّرورة «مُثقّفـاً عِلْميّاً». في الوَاقِعِ إنّني مُنْدَهِشٌ أنّ العُلمـاء العَامِلين يصلون - في الغَالِب - إلى درجـةٍ مُثيـرةٍ للشّفقة في عـدم إلْمَامِهِـمْ بمجالاتٍ عِلْميّـةٍ تَقَعُ خَارِجَ نِطَـاقِ تخصُّصِهِم المِهْنـيّ) [٤٦]. ولا يُمْكِنُ هنا إغْفَـالُ الدَّوْر الحيويّ للعَامِلين التّقنيّين والفنّيين في مُخْتلف المجـالات؛ فالتّعْقيـدُ المُتزايدُ في الأجْهِـزَةِ التّقنيّة - بمُخْتلف أغْرَاضِهَـا وتَطْبيقاتِها - تَسْتَدْعِـي مُسْتوياتٍ من «الثَّقافة العِلْميّة» والخِبْرَة التّقنيّة والانْضِبَاطِ العمليّ لدى العُمّال والفنّيّيـن الذين يتولُّـون صِناعتَها وصِيانتَهـا وتَشْغيلَها، وهذا ما يُوَضِّحُـهُ زهير الكرمي بقولـه: (لقد ثَبَـتَ أنّ العَامِلَ الذي يكون على عِلْمٍ ودِرايةٍ، ولو مَحْـدُودَةٍ، بالأُسُسِ العِلْميّةِ

التي بُنِيَتْ عليها تكنولوجيّة آلتِه التي يَعْمَلُ بها يكون أقْدر على إتْقَانِ العمل واتِّقَاءِ الأخْطاء وزِيـادة الإنْتاج بالمُقَارَنَةِ مـع زميله الجَاهِلِ الذي يقوم بعمله بعـد تَدْريبٍ آليٍّ ودون فَهْمٍ صحيـح. وفـوق ذلك يكون الأوَّلُ أقْدر علـى التَّحَوُّلِ من آلةٍ تكْنولوجيّةٍ إلـى أُخْرى مُطَوَّرةٍ وأكْثـر تَعْقيـداً، ولهذا ما له من أثَـر على حالته النّفسيّـة وثِقَتِه بنفْسِـه ومُسْتَقْبَله، وهذا يَنْعَكِسُ إيجابيّاً على سُلُوكِه وحياتِه وأُسْرَتِه ومُجْتمعِه)[٧٧].

كُلُّ تلك الحقائق تَعْنِي - بالضّرورة - أهميّة القيام أيضاً بعمليّات تَثْقيفٍ وتوعيةٍ بين أصْحاب التَّخصُّصات العِلْميّـة» أنْفسهم، وبين العَامِلين في المجالات التّقنيّة المُخْتلفة، ويَبْرُزُ هنا مِثَالٌ وَاضِحٌ على تَعَـدُّدِ أشْكَالِ «الثَّقافة العِلْميّة» ومُكَوِّناتها؛ فـ«الثَّقافة العِلْميّة» المُوَجَّهَـةُ إلى العَامِلين في «المجالات العِلْميّة والتّقنيّة» ستَخْتَلِفُ في مضامينها وأشْكَالِهَا وأهْدَافِهَـا وأساليبِها عـن «الثَّقافة العِلْميّـة» المُوَجَّهَةِ إلى غيرهم مـن شرائح المُجْتمع؛ فدارِسُو العلوم يَلْتَقُون - على الأقلّ - عند حَدٍّ أدْنَى من المَعْرِفَةِ العِلْميّة، والفَهْمِ المُشْتَرَك، والمُنْطلقاتِ المُتَشَابِهَة.

٧-٣-٢) «الثّقافة العِلْميّة» في ضوء «التّخصُّصات العِلْميّة والتّقنيّة»:

تتأثّـرُ «الثَّقافـةُ العِلْميّـةُ» المُوَجَّهَـةُ إلـى «الجُمْهُـورِ» بامْتـداداتِ السّاحـة العِلْميّة والتّطـوُّراتِ التّقنيّـة لتَتَفَـرَّعَ وفْق تلـك التّشْكيـلاتِ والأنْمَاط، وتَتَلَـوَّنَ بألْوانِهَـا، وتَتَبَنَّى أهْدَافَهَـا؛ فالثّقافـة الصِّحيّة، والإرْشَـاد الزِّراعـيّ، والتّوعية الغِذائيّـة، والوَعْي البيئيّ، والثّقافة التّقنيّة؛ كُلُّها فُرُوعٌ لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، وهي تُعْنَى بمجالاتٍ مُحَدَّدَة، وتَعْمَلُ دَاخِلَ أُطُـرٍ تُقَيِّدُهَـا طبيعةُ الاهْتمـام، ونَوْعُ التّخصُّـص، ودرجةُ التّجاوبِ المَنْشُـود. ولعلّه من اللاّفِتِ للانْتباه أنّ برامِجَ «الثَّقافة العِلْميّة»، المُرْتَبِطَةَ بالصِّحَةِ والغِذَاءِ والتَّأْثيرِ المُبَاشِرِ فـي حياة الفَرْد، قد حَقَّقَتْ حُضُوراً مَلْمُوساً في كثيـرٍ من «المُجْتمعات العربيّة»، واهْتَمَّتْ بهـا وَسَائِلُ الإعْـلام، ممّا يُوضِّحُ أنّ الحاجة تَفْرِضُ درجة الاهْتمـام، وبالتّالي فإنّ تَفْعيلَ برامِـج «الثَّقافة العِلْميّة» الأُخْـرى مَرْهُونٌ بقُدْرَةِ المُجْتمعات على إدْرَاكِ أهميّة هذا النّوْعِ من «الثَّقافة»، ومدى ارْتِبَاطِهِ بتَحْديدِ مُسْتَقْبَلِهَا ورخائِها وتَنْميتِها؛ فكُلّما ارْتَقَى «المُسْتوى

الثَّقافـيّ - العِلْميّ» في أوساط المُجْتمع، ارْتَفَعَتْ «درجـةُ الإنْتاجيّة»، وازْدَهَرَتْ «مُقَوِّمَاتُ الحيـاة المُعَاصِرَة»، ونما الطَّلَبُ علـى «الثَّقافة العِلْميّة»، وبَرَزَتْ الحاجةُ إليها. أمّا أحْدث مِثـالٍ على التّنَوُّع والتَّوالُدِ الذّاتيّ لـ«الثَّقافـة العِلْميّة»، فهو ظاهِرَةُ «ثقافة الإنْترنت وتَقْنية المَعْلُومـات» التـي اجْتَذَبَتْ إليها أعْداداً مُتزايدةً من مُخْتلـف الشّرائِح والاهْتمامات؛ لما يُقَدِّمُـهُ هذا الطُّوفَانُ المَعْلُوماتيُّ والاتِّصَالاتيُّ من خِدْماتٍ وآثارٍ على المُسْتويات الثّقافيّة والتّرفيهيّة والمَعْلُوماتيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة وغيرها.

ومـن أنْواع «الثَّقافـة العِلْميّة» ما أشرنا إليه سابقاً، ونقْصـد به «ثقافة المَعْلُومات»، وهـي مـن أهمِّ أنْـواع «الثَّقافـة العِلْميّـة» لاهْتمامِها بشَـرْحِ الحقائـق العِلْميّـة، وتَبْسيطِ المبادئ، وتوضيح عمل الأجْهِزَةِ التّقنيّة، وحِرْصِهَا على توعية «الجُمْهُورِ»، ورَفْع رصيدِهم المَعْلُوماتـيّ، ومُوَاكَبَةِ المُسْتَجِدَّاتِ العِلْميّة؛ ممّا يُتِيحُ للفَرْد فُرَصَ تَنْميةِ مَعْلُوماتِه العِلْميّة والتّقنيّـة وتَصْحيحِها. ولذا فـإنّ «ثقافة المَعْلُومات» جَانِبٌ لا يُمْكِـنُ إغْفَالُهُ في «مَنْظُومَةِ الثَّقافة العِلْميّة»؛ لما لها من تَأْثيرٍ حيويٍّ في تَفْعيلِ «الثَّقافة التّنْمَويّة» وتَحْقيقِهَا لوظيفتِها الاجْتماعيّـة؛ فمـن الوَاضِحِ أنّ «ثقافـة المَعْلُومات» تُسْهِمُ إسْهاماً جَمّـاً في تَنْمية «الحِسِّ العِلْميّ» لدى «الجُمْهُورِ»، وتَحْقيقِ «حَدٍّ أدْنَى» من «الثَّقافة العِلْميّة» في «النَّسيج المُجْتمعيّ»، وتُهَيِّـئُ عامّةَ النّاس لاسْتيعابِ طرائِق «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» وقضاياها ومُشْكلاتِها وحُلُولِهَـا، ووسائـل توظيفِهـا لخِدْمَةِ الفَـرْدِ والمُجْتمع. ولكن على الرّغْم مـن أهميّة هذا الجانِـبِ إلاّ أنّ سَطْـوَةَ «الثَّقافة العِلْميّـة» تَمْتَدُّ لتَلِجَ إلى المضاميـن الفِكْريّة والاجْتماعيّة والثقافيّـة لتُنَاقِشَ ما يَرْتَبِطُ بـ«العلـوم والتّقْنية» من أفْكَارٍ ومُصْطلحاتٍ وتَوَقُّعَاتٍ ونتائِج، تَنْتَشِـرُ على مِسَاحَـاتٍ وَاسِعَـةٍ ومُسْتوياتٍ مُتَنَوِّعَـةٍ فِكْريّـةٍ وفَلْسفيّةٍ وعمليّـةٍ واجْتماعيّة وثقافيّةٍ وتَنْمَويّة.

وهكـذا نجدُ أنّ «الثَّقافـة العِلْميّة» مِسَاحَةٌ شَاسِعَةٌ من التَّنَوُّع والتّعَدُّدِ على مُسْتوياتٍ مُخْتلفـةٍ تَعْكِسُ وَاقِـعَ «الحيـاة المُعَاصِـرَة» بأنْمَاطِهَا المُتَعَـدِّدَةِ وتداخُلاتِهـا المُتَجَدِّدَةِ ومضامينِهـا المُتَرَاكِمَـة، ومن المُتَوَقَّعِ أنْ يقـود «التَّرَاكُمُ الكَمّيّ» - فـي مُخْتلف مجالات «الثَّقافـة العِلْميّـة» - إلى «التَّحَوُّلِ الكَيْفـيّ» المَطْلُوبِ تَحْقيقه، لتُصْبِـحَ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ»

جُـزْءاً حيويّـاً مـن «التَّكْوين الثَّقافـيّ» للمُجْتمـع، ومَعْلَماً أساساً فـي تفاعُلاتـه التّنْمَويّة والاجْتماعيّة والفِكْريّة. وتَأْسيساً على ما سَبَقَ نجدُ أنّ «الثَّقافة العِلْميّة» هي الأَدَاةُ الفعّالَةُ لتَحْقيقِ «امْتدادات التّنْمية» - أفقيّاً ورأْسيّاً -؛ فهي تَشْمَلُ كُلَّ تلك التّفاعُلاتِ والتَّقَاطُعَاتِ والتّداخُـلاتِ بين مُخْتلف قطاعات المُجْتمع ومناطقِه وأنْشطتِـه، فيَتَحَسَّنُ الأداءُ وتَرْتَفِعُ الإنْتاجيّة؛ وهي تَحْفِرُ دَاخِلَ «التَّخصُّصات العِلْميّة والإنْسانيّة» أعْمَاقاً جديدةً عبْر إثْرَائِهَا وتَزْويدِها لـ«الجُمْهُورِ» بالمَعْرِفَـةِ المُتَنَوِّعَةِ في مُخْتلف مجالات «العلوم والتّقْنية»، فتَتَبَلْوَرُ المَدْلُولاتُ، وتَزْدَهِرُ الخِبْرَاتُ، وتَعُمُّ الفَائِدَة.

٧-٤) «الثّقافة العِلْمية»: الأهْدَاف:

ومـن مُنْطَلَقِ أنّ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّـة» حركةٌ بشريّةٌ تَنْتُجُ عـن تَدَافُعِ النّاس وإبْداعاتِهـم، وتَصُوغُهَـا تفاعُـلاتُ المُجْتمـع واهْتماماتُـه، وتُوَجِّهُهَـا حاجـاتُ العَصْرِ ومُتطلَّباتُه، ولأنّها أَصْبَحَتْ الهَمَّ الرّئيسَ في سياسات الدُّول وخُطَطِهَا بمُخْتلف مُسْتوياتِها العِلْميّـة وإنْجازاتِها التّقنيّة، وهي المُحَدِّدُ الأوّلُ لرفاهيّة المُجْتمعات وقُدْرَاتِهَا الإنْتاجيّة، فإنّ نَشْرَ «الثَّقافة العِلْميّة» في المُجْتمعات يَطْمَحُ إلى تَجَاوِزِ «التَّعَامُل السَّطْحِيّ» مع العلوم والتّقْنية، والانْطلاق إلى تَحْقيقِ الأَهْدَافِ التّالية:

١) الإسْهَامُ الفَاعِلُ في إزالة العَقَبَاتِ الفِكْريّة والعراقيل المَعْرفيّة التي تَحُولُ دون المُمَارَسَةِ العِلْميّة الرّصينة والتّفْكيرِ الجَادّ؛ لأنّ ضَخَّ جُرْعَاتِ «الثَّقافة العِلْميّة» فـي «البِنْيَةِ الفِكْريّـة» والتّفاعُلاتِ الثّقافيّـة السّائِدَةِ يُزيلُ كثيـراً من عناصرِ الرَّهْبَـةِ ومَشَاعِرِ الغُرْبَة، ويُؤَسّسُ لتفاعُـلاتٍ عَصْريّة، وفَهْمٍ لشُرُوطِ «النَّهْضَة العِلْميّة - التّقنيّة» ومُقَوِّمَاتِهَا.

٢) تَهْيِئَـةُ تُرْبَـةٍ خِصْبةٍ لإنْتاج عُلمـاءٍ، ومهاراتٍ، وكفاءات، قَـادِرَةً على المُمَارَسَةِ العِلْميّة والإبْدَاعِ التّقنيّ والمهارات الإنْتاجيّة؛ فـ«القَاعِدَةُ الجماهيريَّةُ» العريضةُ المُتفاعِلَةُ - بحيويّةٍ - مع «الفِكْر العِلْميّ»، والمُتواصِلَةُ - بحماسٍ - مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، هي - بطبيعة الحال - مَنْبَتُ المَواهِبِ ومُسْتَودَعُ القُدْرَات. إنّ

من أبْرز نتائِج وجود هـذه «البيئة العِلْميّة» الجَادّة إسْهامها القويّ في اجْتِذَابِ «الأدْمِغَـة المُهَاجِرَة»، وهي مُشْكِلَةٌ تُعَانِي منهـا «المُجْتمعات العربيّة» بدرجاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وتُمَثِّلُ أحد التّحدّيات التي تَسْعَى هذه المُجْتمعات إلى التَّغَلُّبِ عليها.

٣) توفيـرُ «الشَّفَافيّـة العِلْميّة» التي تُيَسِّرُ على الفَرْدِ فَهْـمَ ماهيّةِ «الحركة العِلْميّة -التّقنيّة»، واسْتيعـابِ مُنْطلقاتِها، وامْتصاصِ تقْنياتِهـا؛ ليَسْتَفِيدَ منها الفَرْدُ أقْصى اسْتفادةٍ مُمْكِنَةٍ في حياته العمليّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة، ويتعامل معها وفْق ضَوابِطِهَا وشُرُوطِهَا في مُمَارَسَةٍ رشيدةٍ ومَسْؤوليةٍ وَاعِية.

إنّ مُعْظَـمَ القـراراتِ الحَاسِمَةِ في «المُجْتمعات المُعَاصِـرَة» تَتَمَحْوَرُ حول قضايا عِلْميّـةٍ وتِقَنيّةٍ ابْتداءً من «ثُقْبِ الأوزون»، ومُـرُوراً بتَطْبيقات «الهنْدسة الوراثيّـة»، وانْتهـاءً بـ«أسْلِحَةِ الدَّمَـار الشَّامِل»، وتُؤثِّرُ هـذه القرارات في حياة الملايين مـن البشـر وفُرَصِهِمْ الوظيفيّـة ومُسْتوياتِهـم المعيشيّـة ومُسْتَقْبَلِ أجْيالِهـم وأوطانِهم. ولذا فإنّ مُشَارَكَتَهُمْ في اتِّخَاذِ القرار، وقُدْرَتَهُمْ على فَهْمِ المُشْـكلات وتَحْلِيلِهـا، وإسْهَامَهُمْ في طَرْحِ البدائِل وتَقْليـلِ الأضْرَار؛ كُلُّ ذلك يُصْبِـحُ أَمْراً ضَروريّاً مـن النّاحية الأخْلاقيّة والحضاريّـة والتّنْمَويّة، وتتنامى أهميّتُهُ مع ارْتفاع درجة الوَعْي السّياسيّ والرَّفاه الاقْتصاديّ.

٤) تَهْيئَـةُ مُنَاخٍ من «الرّأي العامّ» مُتَعَاطِفٍ مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، ومُفْعَمٍ بالحماس والتّفاؤل والثّقَة، لمُجابَهَةِ الانْطباعات الانْفعاليّة، والعادات السّلْبيّة، والخُرَافَـاتِ الشّائِعَة، التي تُلَوِّثُ «ثقافة المُجْتمع»، وتُشَوِّهُ تفاعُلاته، وتعوقُ نُموّ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّـة»، وهو الحالُ الذي تَطَرَّقَ إليه تشارلز سنو، عندما وَصَـفَ حالة «عدم فَهْم العلوم» بأنّها: (تَمْنَـحُ - بشَكْلٍ أعْمق ممّا نَتَوَقَّعُ - نَكْهَةً غير عِلْميّةٍ للثّقافة التّقْليديّـة برُمَّتِهَا، وتلك النَّكْهَةُ غير العِلْميّة تَتَحَوّلُ غَالِباً - وبشَكْلٍ أكْبر ممّا نَعْتَرِفُ به - إلى مَوْقِفٍ مُضَادٍّ للعلوم) (٣٢).

٥) «التَّطْويرُ النَّوْعيُّ» لتَفْكيرِ الفَرْد، وتَعْميقِ قِيمَتِهِ الذّاتيّة، وتَنْميةِ «الحِسّ العِلْميّ» لديـه، فعلى سبيل المِثـال: ما زالَتْ «ثقافَـةُ الأرْقَام والمَعْلُومَـات» غريبةً على

«العَقْـلِ العربـيّ»، وما زلنا نَقْـرَأُ ونَسْمَـعُ نِسَبَاً مِئويـةً تُلْقَى علـى عَواهِنِهَا في المَحَافِلِ ووسائِلِ الإعْلام، أو حقائِق عِلْميّةً تُشَوَّهُ، أو تُبْتَرُ، دون رقيبٍ أو حسيب.

٦) رَفْعُ درجةِ الإسْهَامِ الاجْتماعيّ، وتعزيزُ «الفَاعِليّة الثَّقافيّة»، وتَحْسينُ مُمَارَسَاتِ المُجْتمع، بما تُضْفيه مُعْطياتُ «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» على الفَرْدِ من آفاقٍ مَعْرفيّـةٍ، ومهاراتٍ تِقَنيّـةٍ، وانْضِبَاطٍ عمليٍّ، وعَقْلانيّـةٍ مَسْؤولةٍ؛ فالحاجةُ إلى إحْدَاثِ «قَفْزَةٍ نَوْعيّةٍ» في «العَقْلِ العربيّ» في اتِّجَاهِ الانْضِبَاطِ العمليّ و«التّفْكير العِلْمـيّ» ليستْ مكان اخْتِلافٍ، وقد وَصَفَهَا مالك بـن نبيّ بقوله: (نحن أَحْوَجُ مـا نكونُ إلـى المَنْطِقِ العمليّ لأنّ «العَقْـلَ المُجَرَّدَ» مُتَوَفِّرٌ فـي بلادنا، غير أنّ «العَقْـلَ التَّطْبيقيّ» الذي يَتَكَوَّنُ في جَوْهَرِهِ من الإرادة والانْتباه شيءٌ يكاد يكون مَعْدُوماً)[٢٨].

٧) جَعْـلُ «الثَّقافـة العِلْميّـة» جُـزْءاً عُضْويّـاً ومُكَوِّناً رئيسـاً من مُكَوِّنَـاتِ «الثَّقافة الجماهيريّـة» السَّائِـدَةِ لتَحْقيقِ شُـرُوطِ «المُعَاصَرَة» و«الكفـاءَة» و«التَّوَازُن»، ولتَأْصيلِ «الثَّقافة التَّنْمويّة» في أعْمَاقِ «التّفاعُلات المُجْتمعيّة»؛ فنجاحُ الأنْشطة العِلْميّة، والمَشْرُوعات الإنْتاجيّـة، والجُهُود البَحْثيّة، مَرْهُونٌ بـ«إرادةٍ جماعِيّةٍ» وَاعيةٍ تَدْفَعُ بها إلى الوَاجِهَةِ الاجْتماعيّة والسّياسيّة والثقافيّة والفِكْريّة، وتتفاعلُ معها بحماسٍ وإيجابيّةٍ. وهنا تَبْرُزُ أهميّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» ودَوْرُهَا الحَاسِمُ في تَأْسيسِ «ثقافـة البَحْث العِلْميّ»، التي تُعَزِّزُ من مَكَانَةِ «العلوم والتّقْنية»، وتَفْهَمُ خَصَائِصَهَـا ومُتطلَّباتها، وتتصدَّى – بحِكْمَـةٍ وموضوعيّةٍ وفَاعِليّةٍ – إلى «غُولِ البيروقراطيّـة» الـذي يَنْهَشُ في كِيان «المُجْتمعات العربيّـة»، ويُعَرْقِلُ «مسيرة التّنْمية»، ويَكْبَحُ «التَّفاعُل الإيجابيّ» مع أحْوال «الحياة المُعَاصِرَة».

٨) تَحْقيـقُ «الأَمْـن العِلْميّ» للمُجْتمع، وهو أَمْرٌ ذو أهميّـةٍ اسْتراتيجيّةٍ، ويَتَمَثَّلُ في قُـدْرَةِ المُجْتمع على اكْتِسَـابِ «المَعْرفة العِلْميّة»، وإنْتَـاج «التَّقْنيات الحديثة»، وتَنْميـةِ الإمْكانَـاتِ للتّطْويـرِ والتّطْويـعِ والإنْتَـاج، وتَأْسيسِ آليّاتٍ قَـادِرَةٍ على توظيفِ المعـارِف بحيويّةٍ، والمُحافَظَةِ علـى المُكْتَسَبَاتِ بكفـاءَةٍ، ممّا يَتَطَلَّبُ

وَعْيــاً عِلْميّاً سَائِداً في جَنَبَاتِ المُجْتمع. إنّ «الأَمْنَ العِلْميّ» هو «البِنْيَةُ التَّحْتِيّةُ» ذات القَاعِـدَةِ المُمْتَـدَّةِ والحَلَقَـاتِ المُتَرَابِطَةِ التي تُؤَثِّرُ فـي كُلِّ أَوْجُهِ «الحياة المُعَاصِـرَة»، وتُحَـدِّدُ - بالضّـرورة - قُـدْرَاتِ الأُمّـة علـى تَعْظيـم مَوَارِدِهَا، وتوظيـف عُقُولِهَا، وتَرْسيخ كِيَانِهَـا، وتَحْقيقِ غاياتِها. إنّ النَّظْـرَةَ المُتَأَنِّيةَ إلى العَالَمِ الغَرْبيّ تُبَيِّن أنّ الغَرْبَ جعل من «البَحْثِ العِلْميّ» جُزْءاً جوهريّاً من أَمْنِهِ القومـيّ والوطنيّ؛ فقد رَبَطَ «البَحْثَ العِلْميّ» - بشَكْلٍ حيويٍّ ودَائِمٍ - بالنّواحي العَسْكريّـة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّة، وبأَمْنِ الدَّولـة كُلِّها، وهذا ما ذَهَبَ إليه روبـرت ماكنمارا - وزير الدّفـاع الأمريكيّ الأسْبق - بـأنّ: (الأَمْنُ القوميُّ هو التّنْميةُ ذاتُها)[٩٩]؛ ولذا فإنّ لنا وَقْفَةً أشْمل مع «مَفْهُومِ الأَمْن العِلْميّ».

٥-٧) «الثّقافة العِلميّة» و«الأَمْن العِلْميّ»:

لا يُمْكِـنُ لقضايـا «الإصْـلاح» المُتَعَـدِّدَة، التـي يَطْرَحُهَـا السّياسيّـون والمُثقَّفون والمُفكِّرون بمُخْتلف توجُّهاتِهم وأطْيافِهم، أنْ تَعْمَلَ خَارِجَ إطار زمْنها وتحدّيات عَصْرِهَا؛ ممّـا يَجْعَلُ قضيّة «الإصْلاح العِلْمـيّ» الرّكيزة الأساس التي تَنْطَلِقُ منهـا، وتَعْتَمِدُ عليها، كُلُّ تلـك الأَشْكَالِ المَرْجُوَّةُ من «الإصْـلاح»، والمُسْتَهْدَفَةُ من «برامِجِ التّنْمية»، فكما يقولُ عبد العزيـز التويجري فإنّ: (الإصْلاحُ مَنْظُومَةٌ مُتكامِلَةٌ من القِيَم والمبادئ والسّياسات تترابطُ عناصرُها، وتتكاملُ حَلَقَاتُهَا، ولكنّها جميعاً تقومُ على قَاعِدَةٍ عِلْميّةٍ عريضة)[١٠٢]. إنّ هذه المَقُولَةَ الصّائِبَةُ تعودُ بنا إلى «نُقْطَةِ البَدْء» لتُحَدِّدَ بوضوحٍ أولويّات المَرْحلة التي تعيشُهـا الأُمّة؛ فبدون تلك «القَاعِدَة العِلْميّـة العريضة» التي تَتَغَلْغَلُ في «نسيج المُجْتمع»، وبـدون ذلك الدَّفْعِ الفعّـالِ الذي تُوَلِّدُهُ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» فـي حيوات الأفْراد، وبدون ذلك «التَّرَاكُمِ الخِصْبِ» الذي تَصْنَعُهُ آليّاتٌ حَاذِقَةٌ على مسارات «الإنْجاز العِلْميّ - التّقنـيّ»، فـإنّ كُلَّ الطُّرُوحَاتِ والتَّنْظيـراتِ والآمالِ والطُّمُوحَاتِ عـن «الإصْلاح» تَبْقَى مُجَرَّدَ سَرَابٍ بقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظّمآنُ ماء.

وهكـذا نجدُ أنّ مفهُومَ «الإصْلاح العِلْميّ» يَنْبَغِي أنْ يكون على رَأْسِ القَائِمَة؛ لأنّه هو القَـادِرُ على توجيه «برامِج الإصْلاح» في مُخْتلف الميادين عبْر بَلْوَرَةِ قُدْرَاتِ المُجْتمعات، وتَعْزِيـزِ مهـاراتِ الأفْراد، وتَطْويـرِ فِكْرِ الأُمّة. لقـد أَصْبَحَ من البدهيّـاتِ المَطْرُوحَةِ في «أدبيّات التّنْمية» المُعَاصِـرَةِ أنّ تَأْسيسَ «المُجْتمع العِلْميّ» هو المَطْلبُ الجوهريُّ لتَحْقيقِ الأَمْـن وتَطْويرِ القُدْرَاتِ وتَحْقيقِ الطُّمُوحَات، وهي قضيّـةٌ مُعَقَّدَةٌ يتشابكُ فيها «الفِكْريُّ» مـع «السِّياسـيّ»، وتتداخلُ فيهـا أَطْيَافُ «الاجْتماعـيّ» و«الاقْتصـاديّ»، ويتقاطعُ عندها «الثَّقافيُّ» مـع «التّرْبويّ»، ولكنّنا نَسْتطيعُ أنْ نضعها جميعهـا ضمْن إطَارِ مُصْطلحٍ شَامِلٍ وحيويٍّ، هو مُصْطلح «الأَمْن العِلْميّ».

وأمّـا عندمـا نَسْتَعْرِضُ كُلَّ صُـوَرِ «الأَمْنِ» التـي تَتُوقُ إليها المُجْتمعـات، ابْتداءً من طُرُوحَـاتِ «الأَمْـن الكُلِّيَّة» كمفاهيـم «الأَمْـن الفِكْريّ»، و«الأَمْـن الاجْتماعـيّ»، و«الأَمْن القوميّ»، وانْتهاءً بطُرُوحَاتِ «الأَمْن الجُزْئِيَّة» مِثْل «الأَمْن المَائيّ» و«الأَمْن الغِذَائيّ»، فإنّنا نجدُ أنّها كُلَّها - دون اسْتِثْنَاءٍ - تَصُبُّ في بَوْتَقَةِ «الأَمْن العِلْميّ» الذي يضع بين يدي الأُمّة مفاتيـح القُدْرَاتِ التّطْويريّـة والإنْتاجيّة والتّسْليحيّة والتّخْطيطيّـة، فيكون بذلك الوسيلة الوحيدة لتَأْمينِ الاحْتياجات القَائِمة، ومُجَابَهَةِ التّحدّيات المَفْرُوضَة.

٧-٥-١) مُقَوِّمَاتُ «الأَمْنِ العِلْميّ»:

لـو أردنا تَمْحيصَ مُقَوِّمَاتِ «الأَمْن العِلْمـيّ» وتَحْديدَ ركائزِه، فإنّنـا سنجدُ أنّها لن تَخْرُجَ في أُطُرِهَا العامّة عن ما يلي:

١) إشَاعَـةُ مُنَـاخٍ ثقافيٍّ عـامٍّ يتجاوبُ مـع «رُوحِ العَصْر»، ويَتَفَهَّـمُ ضُغُوطَ الزَّمن وشُرُوطَـه، ويُرَسِّخُ الحماس والاهْتمام بالعطاءات العِلْميّة والإنْجازات التّقنيّة؛ فعندمـا تَزْدَهِرُ «ثقافـةُ العِلْم» بين النّاس وتَتَغَلْغَلُ في «النَّسيـج الاجْتماعيّ»، تَضْمَحِلُّ تِلْقائيّاً «قَرَارَاتُ الجَهْلِ» المَبْنِيَّةُ على الحِسَابَاتِ الخَاطِئَة، والتَّوَهُّمَاتِ الانْفعاليّة، والتَّصَوُّرَاتِ النّرْجسيّة.

٢) توفيـرُ قَاعِـدَةٍ من المعـارِف العِلْميّـة، والبيانـات المُنْضَبِطَـة، والإحْصاءات الدَّقيقـة، في مُخْتلف المجالات الحياتيّـة؛ فصَانِعُ القَرَارِ والمُخَطِّطُ والبَاحِثُ يَحْتاجـون أوّلاً إلى المَعْلُومة الصّحيحة؛ لكي يكـون القَرَارُ سديداً، والتَّخْطيطُ سليماً، والبَحْثُ موضوعيّاً.

٣) تَكْوينُ قُدْرَةٍ ذاتيّةٍ على التّطْويرِ والتّطْويعِ والإنْتاجِ عبْر برامِجَ تَعْليميّةٍ وتَدْريبيّةٍ وبَحْثيّـةٍ لا تَغْـرَقُ فـي مُسْتَنْقَعَاتِ الإنْشائيّـاتِ الفَارِغَةِ والمُـداولاتِ التّنْظيريّةِ الجَوْفَـاء، ولكنّهـا تُصَافِـحُ عَصْرَهَا - بحزْمٍ وحيويّـةٍ - عبْر بَلْـوَرَةِ الأهْداف الجادّة، وانْتِقَاءِ المسارات العمليّة، وإطْلاقِ القُدْرَاتِ الكَامِنَة.

٤) تَأْسيسُ وتَفْعيلُ آليّاتٍ قَادِرَةٍ على توظيفِ المعارِف المُتَاحَة، واسْتيعابِ التّطْوير المُنْجَـز، وتَعْظيـمِ المَرْدُودِ النّاتِج عبْـر مَشْرُوعاتٍ وطنيّـةٍ تُلَبّي الاحْتياجات، وتَتَصَـدّى للتّحديّات بأهْـدافٍ لا تَشُوبُهَا ضبابيّةٌ في الطَّـرْح، وببرامِجَ تَحْتَرِمُ الوَقْت، وباسْتِخْدَامِ معايير نَاجِعَةٍ للمُرَاجَعَةِ والتّقْييمِ والتّصْحيح.

٥) توفيـرُ مَنْظُومَـةٍ سليمـةٍ ومُتَكَامِلَةٍ من القِيَـم والمفاهيمِ التي تُسْهِـمُ في إثْرَاءِ «المَعْرِفَـةِ الفَرْديّـة»، ودَفْعِ الفَرْدِ إلـى الاطّلاعِ والبَحْـثِ والتّشْخيص، وتوسيعِ مَعَارِفِهِ ومَدَارِكِه، بشَكْلٍ يُمَكِّنُهُ من الإنْتاجِ المَعْرفيّ.

لعلّ المُشْكلة الكُبْرى التي تعوقُ بُرُوزَ مُصْطلح « الأَمْن العِلْميّ» بُرُوزاً وَافِياً شَافِياً في «المُجْتمعـات العربيّة» هي ضبابيّةُ المفاهيم السّائِـدَة، وهَيْمَنَةُ «ثقافة الكلام» المَأْلُوفَة، والانْتِكَاسُ إلى الشّكليّاتِ والإنْشائيّاتِ عند التّعامُلِ مع المُشْكلات، والخَوْفُ من المُبَادَرَاتِ التـي تُحَاسِـبُ على الإنْتاجيّـة وتَفْرِضُ الانْضِبَاط. تلـك الأسْباب، وغيرهـا كثيرٌ، جَعَلَتْ من مُصْطلـح «الأَمْن العِلْميّ» ضيفاً خَجُولاً على مَوائِدِ «الفِكْـرِ التّنْمَويّ» في «المُجْتمعات العربيّـة»، وراح كثيرٌ من المُفكّرين والبَاحِثيـن والمُخَطّطين يتعاملون مع المُصْطلح على اسْتِحْياءٍ، ويَرْمُقُونَهُ عن بُعْدٍ بقَدْرٍ كبيرٍ من الوَجَلِ والتّوَجُّس، ليَرْتَدُّوا سِرَاعاً إلى ما أَلِفُوهُ مـن أفْكَارٍ ومفاهيم تَجْتَرُّ نفْسها اجْترَاراً، وتَرْتَعُ في ساحاتِ التّنْظيرِ المَقْهُورِ تحت وَطْأَةِ «إشْكاليّة البُعْدِ الزّمْكَانيّ» الذي تَطَرّقْنَا إليها في أكْثر من مَوْضِعٍ في هذا الكِتَاب.

إنّنـا لا نَحْتَاجُ إلى كبير جُهْدٍ لكي نَلْمَسَ تَفَاقُمَ الخَلَلِ الذي يُعَانِي منه العَالَمُ العربيّ فـي «مَنْظُومَـة الأَمْن العِلْمـيّ»، وتَمْتَدُّ جُذُورُ هذا الخَلَـلِ - عبْر عَلاقَـاتٍ مُتشابِكةٍ - إلى أنْمَـاطِ «الحياة العربيّة» لتُؤسِّسَ لأسْقَـام تَفْتِكُ في «مَنْظُومَاتِ الأَمْـن» الأُخْرى بأنْواعِها المُخْتلفـة. إنّ غِيَابَ «الأَمْن العِلْميّ» يُهَدِّدُ أمْنَ البَشَرِ وتَمَاسُكَ الحَجَرِ في الكِيان العربيّ؛ لأنّ هذا النَّوْعَ من الأَمْن يُمَثِّلُ «العمود الفِقْريّ» لـ«مَنْظُومَاتِ الأَمْن» الأُخْرى فيَصْبغُهَا بلون العَصْـر، ويَبْنِي هياكلَها بلَبِنَـاتِ المرْحلة، ويَضْبطُ إيقاعَها مع تحدّيـاتِ المُسْتَقْبَل. وأمّا إحْـدى أبْـرز الظّواهِرِ المُقْلِقَةِ في العَالَم العربيّ فهي أنّ الحديـثَ عن التّخَلُّفِ لا يَتَوَقَّف، ووَصْـفَ المُؤامـراتِ المُوَجَّهَةِ إلى الأُمّـة - المُتَخَيَّل منها والحقيقـيّ - لا يَنْتَهِي، وتَفَاقُمَ المُشْـكلاتِ في التّعْليم والإنْتاج والتّوظيف هو السِّمَةُ الأبْـرز. ولكنّنا بعد أنْ نَمْنَحَ «العِلْمَ» و«التَّقَـدُّمَ» و«ثَـوْرَةَ المَعْلُومَات» زَخْمَاً كبيراً مِـن الإنْشائيّات والشّكليّـات، فإنّنا لا نَضْبِطُ أفْعَالَنَا ومُمَارَسَاتِنَا وطُرُوحَاتِنَا بالمقاييس العِلْميّة الأصيلة.

إنّ الوَاقِـعَ الحزيـنَ يُؤكِّدُ أنّ حِسَابَاتِ «الأَمْن العِلْمـيّ» ما زالتْ في حاجةٍ إلى الكثير مِـن التّدْقيقِ والمُرَاجَعَة، والحقيقةُ المُؤلِمَةُ تقول إنّ القُوّةَ الكَامِنَةَ وراء تفاعُلاتِ «الحياة المُعَاصِـرَة» كانتْ آخِـر اهْتمامـات مُجْتمعاتنا الحَائِـرَة، وحتّى أولئـك الذين وضعوها ضمْـن أولويّاتِهـم الخَطَابيّة والشَّكْليّة فَشِلُوا فـي تَفْعيلِهَا واحْتِضَـانِ قِيَمِهَا ممّا نقلها إلى خَانَـةِ «السَّهْل المُمْتَنِع». وأمّا الحقيقةُ الثّابِتَةُ فهي أنّ الأَمْرَ ليس خِياراً مَطْرُوحاً قد نَقْبَلُهُ أو نَرْفُضُـه، ولكنّـه «حَتْمِيّـةٌ تاريخيّةٌ»، وقضيّة «حيـاةٍ أو موتٍ»، ممّـا يَتَطَلَّبُ - في المقام الأوّل - «إرادةً سياسيّةً» تَدْفَعُ في اتّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، وتَعْمَلُ على تَهْيئَةِ «البِيئَة العِلْميّة»، وفَتْحِ الآفاق التّقنيّة، وتَشْجيعِ الاهْتمامات العِلْميّة، وتوجيهِ «ثقافة المُجْتمع» نحو احْتِضَانِ «الفِكْـر العِلْمـيّ» والتّفاعُلِ معه بإيجابيّة. وهكذا نجـدُ أنّ من المُهِـمّ أنْ يَتَحَوّلَ مُصْطلحُ «الأَمْـن العِلْمـيّ» إلى رُؤْيـةٍ اسْتراتيجيّةٍ وآليّـاتٍ فعّالَةٍ ومُمَارَسَـاتٍ مُتَراكِمَـةٍ تَنْقُلُ الفِكْرَ والأفْـرَادَ والثّقافةَ والمُجْتمعَ إلى مُسْتوىً أكْثر اقْتراباً مِـن مُتطلَّباتِ المرْحلة، وأقلَّ غُرْبَةً عن «شُرُوطِ العَصْر».

٧-٦) «الثّقافة العِلميّة» و«الأَمْن الفِكْريّ»:

مـن أبْرز قضايـا «المُجْتمعات العربيّـة» قضيّةُ «الأَمْـن الفِكْريّ» الـذي تَطْمَحُ هذه المُجْتمعـاتُ إلـى تَأْمينِه لضمـانِ نُضْجِ التّفاعُـلاتِ الفِكْريّة، وتَوَازُنِ المسيـرةِ الوطنيّة، وجَـدْوَى التَّلاقُحَاتِ الثّقافيّـة؛ وكُلُّها لا يُمْكِنُ أنْ تَتَحَقَّقَ بـدون التّواصُلِ مع «رُوحِ العَصْر» وفَهْـمِ مُقْتضياتِها. وهذا يعودُ بنا إلى «المُرَبَّعِ الأوّل» وهو «الكفـاءَةُ العِلْميّةُ» القَادِرَةُ على إشَاعَـةِ «فِكْر العَصْر» في البيئة، وتوفير قَاعِدَةٍ وَاسِعَةٍ من المُنْتَمين إليه، وبطبيعة الحال كُلّما كَبُرَتْ تلك القَاعِدَة، ارْتَفعَتْ نِسَبُ الإبْدَاعِ، وزَادَتْ الإنْتاجيّة، وتَأَصَّلَ «الأَمْنُ العِلْميُّ» في المُجْتمع، وتَحَقَّقتْ أسْبابُ «الأَمْنِ» بأنْوَاعِه.

إنّ قضيّـةَ «الأَمْنِ الفِكْريّ» في أيِّ مُجْتمعٍ قضيّةٌ مِحْوَرِيّـةٌ، وبدونها يُصْبِحُ المُجْتمع نَهْبـاً للقَلاقِلِ، ومَرْتَعاً للارْتِجَال، وساحةً لكُلِّ نَاعِقٍ وحَاقِدٍ؛ فلا حضارة دون «أَمْنٍ فِكْريٍّ» يُرَسِّـخُ «هُويّة المُجْتمع»، ويَحْمِـي اسْتِقْرَارَهُ وعُنْفُوانَه، ويُبَلْوِرُ قِيَمَـهُ ومفاهيمَه. ولذا فإنّه لا غرابة فـي أنْ نَشْهَدَ عَقْدَ المُؤتمرات، واكْتِظَاظَ القاعـات، وتَحَدُّثَ الخُطباء، وإسْهَابَ المُفَوَّهِيـن، وتَشَبُّعَ الأَرْفُـفِ العِلْميّة بأوراقٍ وبُحُـوثٍ وتوصياتٍ عن هـذا الأَمْر؛ فالقضيّةُ - ولا شـكّ - جوهريّـةٌ، والأَمْرُ جَلَلٌ؛ ولكن، يَنْبَغِـي أنْ نَسْأَل: (هل يُمْكِـنُ أنْ نَتَحَدَّثَ عن «الأَمْـن الفِكْريّ» بمَعْزِلٍ عـن «العَصْر»، وخصائِصِ تحدّيّاته، وطبيعة القُـوى المُهَيْمِنَةِ عليه، والمُحَرّكَةِ لمساراتِه؟، وهل يجوزُ أنْ تَنْصَبَّ حِواراتُنا وسِجالاتُنا ودِراساتُنا على ما أَلِفْنَـاهُ من كلامٍ وخِصَامٍ وجِدَالٍ واجْتِرَارٍ، بينما تَبْقَـى مُقَوِّمَاتُ «الحياة الحديثة» غريبةً عـن سِيَاقِ التّفْكير، وغَائِبَةً عن صُلْبِ الطُّرُوحَات؟). إنّ السُّؤالَ بصِياغَةٍ أُخْرى هو: (هل بالإمْـكان التّعامُلُ مـع التّحدّياتِ المُعاصِـرَة، والنَّظَرُ إلـى «المُسْتَقْبَـلِ» دون اللجوءِ إلى تَأْسيسِ «فِكْرٍ تَنْمَويٍّ» يُدْرِكُ أنّ أُصُولَهُ وجُذُورَهُ ومُقَوِّمَاتِه تَكْمُنُ في أعْمَاقِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وآليّاتِـه ووسائِلـه ومُمَارَسَاتِه؟)؛ وإذا كان هناك إجْمَاعٌ على ضَـرورة مِثْل ذلك التّأْسيس لضمـان مُسْتَقْبَلٍ زَاهِرٍ لأَجْيالٍ مُقْبِلَةٍ، فإنّ ذلك يَعْنِي أنّ طُرُوحَاتِ «الأَمْن الفِكْريّ» يَنْبَغِي أنْ لا تُهْمِلَ قضيّة «المُسْتَقْبَل»، ومُقَوِّمَاتِهِ المُعَاصِرَة، وتحدّياته المُتنامية.

لا أشكُّ لَحْظَةً في أنّ هناك قِيمَةً ذاتيّةً ومَقاماً فِكْريّاً لكُلِّ ما تَطْرَحُهُ النّدواتُ والمُؤتمراتُ والمَحافِلُ من دِراساتٍ وتأمُّلاتٍ ومُراجَعاتٍ إلاّ أنّها تَفْتَقِدُ الحيويّةَ التي تَرْبِطُهَا بعَصْرِهَا، وتَدْفَعُ بها نحو «المُسْتَقْبَل»، وتُؤصِّلُ فيها تحدّياتِه، وتُوَطِّدُ في ثناياها مُعْطياتِه؛ فمن البدهيّ أنّ الخِطَابَ مهما كان مُنَمَّقاً، والطَّرْحَ مهما كان مُعَمَّقاً، فإنّه إذا لم يَتَمَكَّنْ من تَكْوين رَوابِط حَيّةٍ مع وَاقِعٍ مُتَحَرِّكٍ في ساحة عَالَميّةٍ مُتغيِّرةٍ ذات تحدِّياتٍ مُتناميةٍ، فإنّ تَأْثيرَهُ وجَدْوَاهُ لن يتجاوزا - في أحْسنِ الأحْوال - عمليّةَ تَدْريبٍ عَقْليٍّ، وتَطْويرَ مَهَارَةٍ لَفْظيّةٍ، لتَبْقَى إشْكالِيّاتُ الحياةِ المُتَجَدِّدَةِ على ما هِيَ عليه، وليَتَفَاقَمَ الأَمْرُ، وتَتَعَقَّدَ الأُمُور.

من المُهمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ قضيّةَ «الأَمْنِ الفِكْريّ» مُرْتَبِطَةٌ جذْريّاً بـ«قضيَّة التّنْمية»؛ فـ«العَجْزُ التّنْمَويُّ» هو عدوُّها الأوّل، ولذا كان من المُهِمّ تَأْسيسُ «الفِكْرِ التّنْمَويّ» المُهْتَمّ بـ«المُسْتَقْبَلِ»، والقَادِرِ على توليد قِيَمٍ ومُمَارَسَاتٍ ومعارف تتعاملُ مع مُعْطياتِ عَصْرِهَا بلُغَةِ زمانِها لتكون «القَاطِرَةَ» التي تَجُرُّ «المُجْتمع» في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، وتُعَمِّقُ اسْتِقْرَارَهُ وانْتِمَاءَهُ وتَنْميتَه، وذلك عبْر «الانْدِمَاجِ الحيويّ» - فِكْراً وثقافةً وسُلُوكاً - في «بَوْتَقَةِ التّنْمية» بتفاعُلاتِها المُجْتمعيّة المُتَوَافِقَةِ مع عَصْرِهَا، والمُتَّسِقَةِ مع طبيعة مُشْكلاتِها، والمُتَنَاغِمَةِ مع تطلُّعاتِ أجْيالِها. إنّ تجارِبَ «المُجْتمعات المُتقَدِّمَة» تُؤكِّدُ أنّه كُلّما اتَّسَعَتْ «القَاعِدَةُ العِلْميّة - التّقنيّة»، ازْدَادَ النّشاطُ الفِكْريّ والاجْتماعيّ والثّقافيّ والإنْتاجيّ، وتَوَطَّدَتْ صِلاتُ المُجْتمع مع عَصْرِه، واكْتَسَبَ الثِّقَةَ في قُدْرَاته، وانْخَرَطَ في التّفاعُلاتِ الحيويّة المُجْدِيَة، وتَعَزَّزَتْ في سُلُوكيّاتِ أفْرَادِهِ معاني الانْضِبَاطِ والعمل والإبْداع، وتَحَرَّرَ مَنْسوبوه من نَوَازِعِ «الإحْبَاطِ» وهَوَاجِسِ «الغُرْبَةِ الفِكْريّة» التي تَدْفَعُ إلى حماقاتٍ لا تُحْمَدُ عُقْبَاهَا، وتُشْغِلُ أهْلَهَا بتَأْويلاتٍ فَاسِدَةٍ، ورُؤىً أحَاديّةٍ، ومفاهيم سقيمة. وأمّا الحقيقةُ التي لا مِرَاءَ فيها فهي أنّ ابْتِعَادَ «المُجْتمع» عن «المَنْظُورِ التّنْمَويّ»، يَدْفَعُ به إلى التَّوَغُّلِ في إشْكالاتٍ تَنْظيريّةٍ، وجَدَلٍ عقيم، وصِراعاتٍ عَبَثيّةٍ، وأوهامٍ بَالِيَةٍ، ليَسْقُطَ «المُجْتمعُ» في فَخِّ «الفَرَاغِ الحياتيّ» - فِكْريّاً ومَعْرفيّاً وإنْتاجيّاً واجْتماعيّاً -. ولذا كان لِزَاماً أنْ تُؤَسِّسَ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» لـ«ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تكون الرَّكيزَةَ الصَّلْدَةَ لـ«الأَمْنِ

الفِكْريّ»؛ ولذا كان لِزَاماً - أيضاً - على مراكزنا البَحْثيّة، ومؤسَّسَاتِنا الفِكْريّة، ومعاقِلِنا العِلْميّة، أنْ تَبْحَثَ مَلِيّاً في أُصُولِ هذه «الثَّقافة التَّنْمَويّة» ومُقْتضياتِها وآليّاتِها.

٧-٧) «الثّقافة العِلْميّة» و«الأَمْن الوطنيّ»:

أنّ «الأَمْـنَ الوطنـيّ» كُلٌّ لا يَتجزّأ، وهـو مَفْهُومٌ شَامِلٌ ذو أبْعَادٍ مُتَعَـدِّدَةٍ وآفاقٍ رَحْبَةٍ فـي عَصْرٍ تَعَقَّدَتْ أدواتُـه، وتسارعتْ مُتَغيِّرَاتُه، لتُصبِحَ «القضيَّـةُ الأَمْنيّةُ» - في مُجْمَلِهَا - قضيّـةً يتشابكُ حولها «العَسْكريُّ» مع «السّياسـيّ»، وتتداخلُ فيها أطْيَافُ «الاجْتماعيّ» و«الاقْتصاديّ»، ويتقاطعُ عندها «العِلْميُّ» مع «الثّقافيّ»، ويتلاقحُ في رُبُوعِهَا «الفِكْريُّ» مع «الإعلامـيّ»، ممّا يَفْرِضُ علـى القائمين عليها ليس فقط الاهْتمـام بالقضاء على تَشَتُّتِ الجُهُـود، وغِيَابِ التّنْسيق، وارْتِجَالِ القرار، وضَعْفِ الأداء، والخَلْخَلَةِ في معاييرِ التّقْويم، ولكـن - أيضـاً - اسْتِشْـراف «المُسْتَقْبَل» - بـكُلِّ مُقْتضياتِه ودعاماتِـه ومُتَطلَّباتِه - عبْر مَنْهَجِيّةٍ موضوعيّةٍ تُدْرِكُ طبيعة «العَصْر» وضُغُوطه، وتَسْتَوْعِبُ أبْعاده ومُتَغَيِّراته.

لـذا نَسْتطيعُ أنْ نقولَ إنّ «الأَمْنَ الوطنيّ» ليس قضيّـةً عَسْكريّةً بَحْتَةً، أو اخْتصاصاً أَمْنيّـاً مَحْضـاً، ولكنّـه - في المقـام الأوّل - «قضيّةٌ تَنْمَويّـةٌ» بامْتيازٍ تَسْتَدْعِـي - أوّل ما تَسْتَدْعِـي - تَأْسيسَ رُؤيـةٍ اسْتراتيجيّةٍ مُتَكامِلَةٍ وتَطْويرَهَا وتَقْييمهـا بشَكْلٍ دَائِب، وتوفيرَ الدِّراسـات العِلْميّة المُنْضَبِطَـة، وتَحْليلَ الأوضاع المحليّة والظُّـروف الدّوليّة، ومُراجَعَةَ التّطَـوُّراتِ والمُسْتجِدَّات، وبَلْوَرَةَ الآليّـاتِ والبرامِجِ والخُطَطِ القَادِرَةِ على حِماية مَصَالِحِ البـلاد الأَمْنيّـة والسّياسيّـة والاجْتماعيّـة والاقْتصاديّـة والعَسْكريّة، وتوظيـفَ المَوارِدِ والإمْكانَاتِ لإحْدَاثِ «النَّقْلات النَّوْعِيّة» على مُخْتلف الأصْعِدَة.

وهكذا نجدُ - مَـرَّةً أُخْرى - أنّ «قضيّة التّنْمية» تَفْرِضُ حُضُورَهَا، بمُخْتلف أبْعَادِهَا العِلْميّة والتّقْنيّة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّة والسّياسيّة والعَسْكريّة، لتكون «مَرْبَطَ الفَرَسِ» في قضيّة «الأَمْنِ الوطنيّ»، ونَسْتطيعُ هنا أنْ نَتَعَرَّفَ في الحال على «الإشْكَاليّةِ» التي يَنْبَغِي أنْ تتصـدَّى لهـا مُخْتلفُ المؤسَّسَـاتِ المَعْنِيَّةِ بتلك الجَوانِب، وهي تَتَمَثَّـلُ في ضَعْفِ - أو

انْعِـدَام - أدوات الاتّصال والتّفاعُـل والتّنْسيق بين أطْـرَافِ «المَنْظُومَةِ الوطنيّة»، وعدم التّرْكيـز على تَطْويـرِ خِبْـراتٍ مُشْتَرَكَةٍ علـى أصْعِدَةِ توظيـفِ المَوارِدِ وتوحيـدِ الجُهُود، والصُّعُوبَـةِ المُتَفاقِمةِ في تَرْجَمَةِ الأهْدَافِ والخُطَطِ إلى وَاقِـعٍ عمليٍّ، وحركةٍ فَاعِلَةٍ تَدِبُّ على الأرْض.

من هذا المُنْطَلَقِ، يَنْبَغِي أنْ تُصْبِحَ «إشْكَالِيّةُ التّنْمية» من أبْرز هُمُوم «الأَمْنِ الوطنيّ» مُصْطَحِبَـةً معهـا - بالضّرورة - كُلَّ تداعياتِهـا الثّقافيّة والعِلْميّـة والتّقنيّة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّـة. وبالرّغْـم من كُلِّ ذلك التّداخُـلِ والتّشابُكِ في تَرْكيبـةِ «الأَمْنِ الوطنيّ» إلاّ أنّـه يَنْبَغِـي له أنْ يَسْتَقِرّ علـى أرْضٍ صُلْبَة، وأنْ يَنْطَلِـقَ من قَاعِدَةٍ مُتَمَاسِكَـةٍ تَسْتطيعُ أنْ تَضُمَّ عَنَاصِرَهُ المُتَنَوِّعَة، وتَسْنُدَ مُقَوِّمَاتِهِ المُخْتلفة، وفي عَصْرِ «العلوم والتّقْنية» فإنّ تلك «البِنْيَـةَ التَّحْتيّة» الصّلْـدَةَ لا يُمْكِنُ لها إلاّ أنْ تكون من جِنْسِ عَصْرِهَا، ويَتَحَتَّمُ عليها أنْ تتناغم مع تحدِّيات زمانِها.

٧- ٨) «الثَقافة العِلْميّة» و «الأَمْن الاجْتماعيّ»:

إنّ «الأَمْنَ الاجْتماعيّ» هو أَحَدُ مفاهيم «الأَمْن» الذي يَنْتُجُ عن توفير «الأَمْنِ العِلْميّ» إلاّ أنّنـا آثرنـا أنْ نُفْـرِدَ له مَبْحثاً خاصّـاً لأبْعَادِهِ المُهِمّـةِ في حياة الأُمم بعامّـةٍ، ولدَوْرِهِ الحَاسِمِ في الوَاقِعِ العربيّ الرّاهِنِ بخاصّة.

تُبَيِّـنُ القِـرَاءَات الاجْتماعيّة - فـي عُمُومِهَا - أنّ الفَشَلَ في «التّنْميـة» هو أَحَدُ أبْرز الأَسْبـاب التـي تَقْضِي على التّمَاسُـكِ الوطنيّ، وتُفَاقِـمُ الاخْتلافات الإثنيّـة والطّائفيّة، وتَتَخَلَّقُ في ظِلِّهَا كِياناتٌ صغيرةٌ مُتَصَارِعَةٌ فتَحْتَمِي كُلُّ فِئَةٍ بأنْصَارِهَا، وتُلْقِي باللوم للكَارِثَةِ التّنْمَويّـةِ والفَشَلِ الحياتيّ على الفِئَـاتِ الأُخْرى. وفي الوَقْت نفْسه فـإنّ وجود اسْتِقْطَابٍ دَاخِـلَ المُجْتمعِ الوَاحِدِ بين ثقافـاتٍ مُتباينةٍ سَبَبٌ جوهريٌّ لحـالات «التّوَتّرِ الاجْتماعيّ» وتَفَاقُمِ «إشْكَالِيّة التّنْمية»؛ فوجودُ فِئَاتٍ تَخْتَلِطُ لديها «الأَبْعَادُ الزّمْكَانيّةُ» فتَبْتَعِدَ عن «رُوحِ العَصْـرِ» وفَهْـمِ مُعْطيات «الزَّمَـن»، وأُخْرى تَسْعَى - بحماسٍ أو حماقـةٍ -إلى التّفاعُلِ مع

مُتطلَّبَـاتِ «الزَّمَن» ومُوَاكَبَـةِ مُستَجدَّاتِهِ دون تَمْييزٍ لخصائِص «المـكان». كُلُّ ذلك يَضَعُ ضُغُوطـاً على «التّركيبة الاجْتماعيّة»، ويقودُ إلى حالةٍ من «عدم التّوَازُن»، ممّا يَنْتُجُ عنه – بالضّـرورة – «اضْطِرَابٌ فِكْريٌّ» يجدُ له تَجلّيَاتٍ وانْعكاساتٍ على وَاقِعِ المُجْتمع وعَلاقَاتِهِ المحليّـة والدّوليّة، وهذا ما يُنَبِّهُ إليه «التّقْريـر العَالَميّ لمُنَظَّمَةِ اليونسكو» – الصّادر في عـام ٢٠٠٥م – حيـث يقول: (إنّ الشَّـرْخَ المَعْرفيّ الذي يَفْصِلُ البلـدان الأكْثر حظْوةً عن البلـدان النّامية، وبخاصّةٍ البلدان الأقلّ تقدُّماً قد يتفاقم، بينما تَظْهَرُ ضمْن المُجْتمعات نفْسهـا شُرُوخٌ بالعُمْق ذاتـه أو تَتَوَسَّع. كيف إذاً لـ«مُجْتمعات المَعْرفَة» المُسْتقبليّة أنْ تَقْبَلَ أنْ تكـون مُجْتمعـاتٍ مُفَكَّكَـة؟. إنّ دَوْرَ التَّخْطيطِ المُسْتقبلـيّ هو ألاّ يُسْتَخَـفّ بالتَّوَتُّراتِ والأخْطَـارِ المُسْتقبليّة باسْم نَزْعَةٍ تفاؤليّةٍ تَقْليديّـة)[٨٣]. ومن المُهمّ أنْ نَلْحَظَ – في هذا المقـام – العَلاقَةَ العُضْويّةَ بين مُخْتلف أنْواع «الأَمْـن» والتّأْثيراتِ المُتَبَادَلَةَ بين عَنَاصِرِهِ المُتَنَوِّعَـةِ، إلاّ أنَهـا كُلّها تَخْضَعُ لظُرُوفِ العَصْـر، ويُشَكِّلُهَا مُنَاخُـه، وتَتَحَكَّمُ في حركتِها طبيعـةُ «المَعْرِفَةِ السَّائِدَةِ» وحَجْـمُ ذلك «الشَّرْخِ المَعْرفيّ» بين أرْكَانِـه، ومن الوَاضِحِ أنّ لـ«إشْكَاليّـةِ التّنْميـةِ» دَوْراً حَاسِماً في درجـةِ تَمَاسُكِ «مَنْظُومَةِ الأَمْـن»، ومدى قُدْرَةِ هذه «المَنْظُومَةِ» على تَحَمُّلِ ضُغُوطِ «العَصْرِ» والتّعامُلِ مع تحدّياته.

٧-٩) «البَنْدُولُ الفِكْريّ و«نُقْطة التّوازُن»:

ليـس خَافِياً على أحدٍ درجة تَأْثيـر «العوامِلِ الفِكْريّة» في اسْتِقْرَارِ المُجْتمعات، ولذا كان التّـلازُمُ وَاضِحاً بين «الأَمْنِ الفِكْريّ» و«الأَمْنِ الاجْتماعيّ». وأمّا «الشَّرْخُ الفِكْريُّ» في المُجْتمع، وما يُصَاحِبُهُ من تَحَوُّلاتٍ وتَشَوُّهاتٍ وانْتِقَالٍ من النَّقيضِ إلى النّقيض، فهو أَمْرٌ شبيـهٌ بـ«البَنْدُولِ الفيزيائـيّ» المُتَذَبْذِبِ الذي يَهْتَزُّ حول مَوْقِـعِ تَوَازُنِهِ من أقْصَى اليمين إلـى أقْصَى الشّمال؛ ونجدُ أنّه في حالة الحركة في فَرَاغ، فإنّ هذا التّذَبْذُبَ يُحَافِظُ على حركتِـه ويُوَاصِلُ اهْتزازاته دون تَوَقُّفٍ، وأمّا في حالة وجود وَسَطٍ يُعِيقُ الحركة، فإنّ مدى التّذَبْذُبِ يَضْمَحِلُّ تدْريجيّاً حتّى يَتَوَقَّفَ «البَنْدُولُ» عند «نُقْطَةِ التّوَازُن»، وكُلّما زادتْ كثافةُ «الوَسَطِ»، كان الاضْمِحْلالُ أكْبر، وبُلُوغُ «التَّوَازُنِ» أسْرع.

إنّ تَطْبيق هذا المِثَالِ الفيزيائيّ على «الحالة الفِكْريّة»، يقودُ مُبَاشَرةً إلى الدَّوْرِ الحَاسِمِ لـ«الثَّقافة السَّائِدَة»، فهي ذلك «الوَسَط» الذي يُمْكِنُ له أنْ يُعِيقَ التّذَبْذُبَ والتّطَرُّفَ في «البَنْدُولِ الفِكْريّ» إذا توافرتْ لهذه «الثَّقافة» الخَصَائِصُ المُنَاسِبَة؛ فكُلّما زَادتْ كثافتُها المَعْرفيّة وقُدُرَاتُهَا التّحْليليّة ومُمَارَسَاتُهَا العِلْميّة وإنْجَازَاتُهَا العمليّة، اسْتطاعتْ أنْ تُؤثِّرَ في تلك الارْتجاجات فيَثْبُتُ «البَنْدُولُ الفِكْريّ» تدْريجيّاً عند «نُقْطَة التَّوَازُن»، أو يَتَذَبْذَبُ حولها تَذَبْذُباً ضئيلاً – بسبب مُؤثِّراتٍ خَارِجيّةٍ مَحْدودة التَّأثير – لتتّسِمَ أوضاعُ المُجْتمع بـ«الوَسَطِيّة» والاعْتِدَالِ والعَقْلانيّة.

وأمّا البَحْثُ عن «نُقْطَةِ التَّوَازُنِ» في «البَنْدُولِ الفِكْريّ» للعَالَم العربيّ فيعود إلى قُرُونٍ طويلةٍ مَرَّتْ بها الأُمّةُ باضْطِرَابَاتٍ فِكْريّةٍ وتَقَلُّبَاتٍ اجْتماعيّةٍ وإخْفَاقَاتٍ سياسيّةٍ وهَزَائِم عَسْكريّةٍ وكَوارث اقْتصاديّةٍ، ويَتَجَلّى التَّحدِّي في أقْسَى أشْكَالِه ونحن نَدْلِفُ إلى العُقُودِ الأولى من «الألْفيّة الثّالثة»، ومن الوَاضِح – انْطلاقاً من الطّبيعة المَعْرفيّة لهذا العَصْر – أنّ «نُقْطَةَ التَّوَازُنِ» لن تَتَحَقَّقَ إلاّ في «وَسَطٍ مَعْرفيٍّ» كثيفٍ تقومُ فيه «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» بدورٍ مِحْوَرِيٍّ بَارِز. مِثْلُ ذلك «التَّوَازُنِ» – في حالة «البَنْدُولِ الفِكْريّ» – يُحَقِّقُ أبْرز ما يَحْتَاجُهُ «الأَمْنُ الاجْتماعيُّ»، وهو «عُنْصُرُ التَّسَامُح» الذي يَتَحَقَّقُ عبْر ما أسْميناه «التَّوَافُق التّنْمويّ» (انظر: الفَصْل الرّابع)؛ فتتلاقى التّيَاراتُ الوطنيّةُ والمَشَارِبُ الاجْتماعيّةُ حول «قضايا تَنْمَويّةٍ» تَجْمَعُ كِيانَهُمْ، وتُثْري وجودَهم، وتَخْدِمَ ازْدهارَهم، فكما يقولُ محمد جابر الأنصاري: (إنّ التّسَامُحَ مُمَارَسَةٌ عمليّةٌ بالدّرجة الأولى وحَصِيلةٌ لأسبابٍ موضوعيّةٍ قبل أنْ يُصْبِحَ قِيمَةً مُجَرَّدَة)[٢١].

إنّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» – في هذا السِّياق – الدَّوْرَ الأبْرَزَ في مُعَالَجَة «إشْكَاليّة الفَجْوَةِ المَعْرفيّة» دَاخِلَ المُجْتمع الوَاحِد؛ ففي عَصْرٍ تَتَّسِعُ فيه «الهُوّةُ المَعْرفيّةُ» بين «المُجْتمعات النَّامية» و«المُجْتمعات المُتَقدِّمَة»، فإنّ الضُّغُوطَ تَزْدَادُ على «المُجْتمعات النّامية»، وتكون هناك فِئَاتٌ تَمَكَّنَتْ لأسْبابٍ عِدَّةٍ من فُرَصِ التَّعَلُّم ووَسَائِلِ الاتّصال الحديثة ومُوَاكَبَة عُلومِ العَصْرِ وتطوُّراته، بينما بَقِيَتْ فِئَاتٌ أُخْرى خَارِجَ هذه التّفاعُلاتِ؛ ممّا يَنْجُمُ عنه اضْطِرَابٌ مُجْتمعيٌّ؛ وهنا تقومُ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» بتوسيع دَائِرة «نَشْرِ المعْرِفَة»،

واسْتِقْطَـابِ الحماس للعلـوم المُعَاصِرَة، وتوفيرِ «التَّجَانُسِ الثَّقافـيّ» عبْر تَقْريبِ وِجْهَاتِ النَّظَرِ وتوحيدِ الرُّؤيةِ نحو العَصْرِ وأدواته ومُتَطلَّباته، وفَهْم مُقوِّمَاتِ «التَّنْمية» وتحدّياتِها. من المُهمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ من شَأْنِ «الثَّقافة العِلْميّة» أنْ تُسْهِمَ في تَهْيئَة تلك «البِيئَة التّنْمويّة» القَـادِرَةِ على تَنْظِيم الفِكْر، وتَهْذيبِ الغَرَائِـز، وصَقْلِ الدَّوافِع، وتَقْريبِ الرُّؤى نحو العَالَم ووسائِلـه ومُقْتضياته، وهي شَـرْطٌ لازِمٌ لتَأْمِيـن «التَّجَانُسِ الثَّقافـيّ» و«الالْتِقَاءِ الفِكْريّ» لتَحْقيقِ «التَّكَامُلِ البُنْيويّ» بين مُكوِّنَاتِ المُجْتمع، وتَأْسيسِ الأنْمَاطِ الاجْتماعيّة والأشْكَالِ المُؤسَّسِيّـةِ القَادِرَةِ على التّفاعُلِ - بإيجابيّةٍ - مع طُوفـان «الثَّوْرَةِ المَعْلُوماتيّة» وتحدّيات «ظَاهِرَةِ العَوْلَمَة»، وهذا ما أَكَّدَتْهُ «مُنَظَّمَةُ اليونسكو» في عام ١٩٩٤م بقولها: (إنّ «الثَّقافة العِلْميّـة والتِّكنولوجيّة» حاجةٌ عَالَميّةٌ لكي لا يَتَغَـرَّبَ النَّاسُ عن مُجْتمعهم، ولكي لا يكونوا مُرْبَكين وضعيفي المَعْنويّاتِ بسبب التَّغْيير)[٩٩]. وفي هذا الصَّدد يرى عبد الله القفاري أنّ: (أكْبر المكاسِب من نَشْرِ «ثقافة التَّفْكير العِلْميّ» هي بِنَاءُ جُسُورٍ بين «العِلْم» و«الوَعْي الاجْتماعيّ»، وإعادةُ صِياغَةِ العَقْلِ وفْق مَنْظورٍ عِلْميٍّ غير قَابِلٍ للاسْتِلاب، بَلْ ربّما نَذْهَبُ بعيـداً لنقول بأنّـه حتّى مُوَاجَهَة بعض الظّواهِر التي يُعَانِي منهـا عَالَمُ اليوم كالإرْهَابِ أو التَّطَـرُّفِ أو النَّزْعَـةِ الجماهيريّةِ الغوغَائيّة لـن تكون بنَشْرِ الدِّيموقراطيّـة وَحْدَهَا، إنّها أيضـاً في اسْتِعادة عَقْلِ إنْسانٍ من بَرَاثِـنِ الأَسْرِ الفِكْريّ ليكون عَقْلاً عِلْميّاً لديه المَقْدِرَةُ علـى الفَحْصِ والاسْتِشْـكَالِ والقَبُولِ والرَّفْـض، وحينها سيكون من الصَّعْـبِ تَطْويعُ هذا «العَقْلِ» لصَالِح مَشْروعٍ غير قَابِلٍ للحياة وغير مُتَمَاسِكٍ ووخيم النّتائِج)[١٤].

٧-٩-١) «مَلَفّ الإرْهَابِ» كمِثَالٍ:

لقـد هَيْمَنَـتْ إشْكاليّاتُ «ظَاهِـرَةِ الإرْهَابِ» علـى العَالَمَيْن العربـيّ والإسْلاميّ في العُقُـودِ الأخيـرة، واسْتَفْحَـلَ أَمْرُهَـا لتُصْبِـحَ ظَاهِـرَةً مُؤرِّقَةً تَسْتَهْـدِفُ العُقُـولَ الغَضّةَ والمُكْتَسبـاتِ الوطنيّـة، وتُهَدِّدُ بـكُلِّ الرُّعُونَةِ والحَمَاقَـةِ أَمْنَ الوطـن ومُسْتَقْبَلَ المُواطِن، واستُنْفِرتْ لمُحاربتِهـا ومُكافحتِها الجُهُودُ الأمنيّةُ والمُعَالَجَاتُ الفِكْريّة. إنّ الوقوف أمام هـذه الظَّاهِـرَةِ المُزْرِيةِ - بتَرْكيبتِهـا المُعَقَّدَةِ وتفاعُلاتِهَـا المُتَشَابِكَةِ - يُؤَكِّـدُ أنّ «الحَلَّ

الأَمْنــيّ» ليس إلاّ حَلاًّ مُؤَقّتاً يُعَالِجُ نتائِج الظّاهِــرَةِ ويتصدَّى لأَعْرَاضِهَا، ولكنّه لا يَسْتطيعُ أنْ يتعامــل بعُمْــقٍ مــع أسْبَابِهَا ودَوافِعِهَا؛ ولذا فإنّــه يَنْبَغِي عدم إهْمَــالِ الأدْوار المِحْوَرِيّة لـ«مُؤسَّسَــات المُجْتمــع» المُخْتلفة في عِلاجِ هذه الظّاهِــرَةِ والتّخْفيفِ من وَطْأتِهَا - إنْ لم يكنْ اسْتئصالها -.

إنّ «المُعَالَجَةَ الفِكْريّــة»، وهي الأبْرز بين التّحدّيات القَائِمَة، تَحْتَاجُ إلى إسْتراتيجيّةٍ عميقةِ الجُذُورِ ووَاضِحَةِ الملامِحِ، وتجدُ تَرْجَمَتَهَا على أرْضِ الوَاقِعِ في آليّاتٍ قَابِلَةٍ للتّطْبيق والتّقْييــم والتّطْوير، ومهما شَرَّقَتْ هذه الإسْتراتيجيّةُ أو غَرَّبَتْ، فإنّها - في نهاية المطاف - ستَلْتَــفُّ - بالضّرورة - حول عِدّة مَحَاوِر جوهريّةٍ، ومن أبْرزها مِحْوَرُ «الثّقافة العِلْميّة»، حيــث لا مناص مــن الاعْتِرَافِ بأنّ «المُنَــاخَ الفِكْريّ» في «المُجْتمعــات العربيّة» في حاجةٍ إلــى «تَحَوُّلاتٍ كيفيّةٍ» تُوَائِمُ بين بِيئَته وبين صُوَرِ «الحياة المُعَاصِرَةِ» وتحدّياتها المُتَجَدِّدَة. إنّ مِثْــلَ هــذا التّــوَاؤُم المَطْلــوب لا يَتَحَقّقُ بتلــك الأساليب السَّطْحيّــةِ الهَشَّةِ التــي تَعْتَقِدُ أنّهــا باسْتِفْزَازِهَا للمُجْتمع، وتَعْرِيضِهَــا بقِيَمِه، وتحدِّيها لمُسَلَّمَاتِه، ســوف تَنْقُلُهُ إلى قِمّةِ السِّلْــمِ الوطنيّ والتّقدُّم المَعْرفــيّ والازْدِهَارِ الاجْتماعيّ، فالعَكْسُ هو الصّحيحُ، فمِثْلَ هذه الأساليــب الفَجَّــة هي - في المقام الأوّل - أبْعد ما تكون عن فَهْمِ «رُوحِ العَصْرِ»، ومُقَوِّمَاتِ القُوّةِ، وعَنَاصِرِ التّمْكين، وهي التي - في نهاية المطاف - تُوَلِّدُ من «رُدُودِ الفِعْلِ» ما يَصُبُّ في قناة «الإرْهَاب»، ويُمِدُّ دُعَاتَهُ من الحَمْقَى بأوراق التّحْريضِ وصرخات التّمَرُّد.

إنّ القــول بأنّه - عند التّعامُل مــع «مَلَفِّ الإرْهَابِ» - يَنْبَغِي عدمُ إغْفَالِ دَوْرِ «الثّقافة العِلْميّة» في حياة المُجْتمع وتفاعُلاته، هو تَأْكيدٌ لحقيقةٍ فِكْريّةٍ وحياتيّةٍ وثقافيّةٍ واجْتماعيّةٍ تَفْرِضُ ضُغُوطَهَــا ومُقْتضياتِهــا بشَكْلٍ يتنامــى مع تســارُعِ «الحركة العِلْميّــة - التّقنيّة»، واتِّسَــاعِ «الفَجْوَةِ المَعْرفيّة» بيــن أولئك المَأْسُورين لــرُدُودِ الفِعْــلِ الوِجْدانيّة والانْفعاليّة والكلاميّــة، وبين أولئك المُنْطَلِقين في آفاق الإنْجــاز التّقنيّ والازْدهار المعيشيّ والتّفوّق العِلْمــيّ والأَمْن الوطنــيّ. لا بُدَّ أنْ نُدْرِكَ أنّ المُشْكلة الأساس فــي «مَلَفِّ الإرْهَابِ» مُشْكِلَةٌ فِكْريّــةٌ - ثقافيّةٌ تَمَخَّضَتْ عن طُوفَانٍ من المُتَغيّــرَاتِ المُتسارِعَةِ التي تكالبتْ مع رَوَاسِب تاريخيّــةٍ وانْفعالاتٍ كَامِنَةٍ لم تُفْلِحْ الأُمّة في التّخَلُّــصِ منها عبْر قُرُونٍ؛ لتَدْفَعَ على طريق

الهـلاك بعناصِر شَابّةٍ لديها الحماس والطّاقـة والطُّمُوح، ولكنّها افْتَقَدَتْ الرُّؤية ليَخْتَلِطَ عليهـا «الزَّمَان» و«المكان»، وتَصْطَدِمَ في دَواخِلِها مَشَاعِرُ الرَّغْبَةِ في الإنْجاز والتّفوّق مع هجماتِ الإحْبَاطِ والاغْتِرَابِ عن العَصْر، لتكون المُحَصِّلَةُ ذلك «الإرْهَابيّ» الذي لا يَرْعَى إلاًّ ولا ذِمّة، ولا يَتَوَرَّعُ عن سَفْكِ الدِّماء وحَصْدِ الأرْواح.

نَسْتطيعُ أنْ نَفْهَمَ الظّاهِرَةَ في إطَارٍ أبْرز، عندما نضعُها في سِيَاقِ محاولات «النّهْضَة» التي عَجِزَتْ الأُمّةُ - عبْر أكْثر من قرْنَيْنِ - عن تَحْقيقِهَا لتَتَكَرَّرَ الكَوارِثُ بأشْكَالٍ مُخْتلفةٍ، ونَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَمَهَـا عندما نُـدْرِكُ أنّها جُزْءٌ مِحْوَرِيٌّ من فُقْـدَانِ «التَّوَازُن» الذي أصاب الأُمّـة عندما اضمحلَّ دَوْرُهَـا الرّياديّ، ودخلتْ في متاهاتِ التَّخَلُّـفِ والهزيمة، وهذا هو الحـال الذي يَصِفُهُ مالك بن نبيّ عندما يقول: (لـو أنّنا حَلَّلْنَا حياة مُجْتمعِنا لوجدنا فيه ألْواناً جديدةً تَدُلُّ في جُمْلَتِهَا على نَزْعَاتٍ مُتباينةٍ واسْتِعْدَادَاتٍ فَرْديّةٍ مُتَنَافِرَةٍ في مُجْتمعٍ فَقَدَ تَوَازُنَهُ القديم ويَبْحَثُ الآن عن تَوازُنٍ جديد)[٢].

ممّا سَبَـقَ يَتَّضِحُ أنّ تَحْقيقَ «الأَمْن» بأنْواعِهِ المُختلفـةِ وشُرُوطِهِ المُعَاصِرَةِ يَتَطَلَّبُ تفاعُـلاتٍ مُجْتمعيّـةً مُتَوَافِقَةً مع زمنِهـا، وأنْسَاقاً ثقافيّـةً مُتَّسِقَةً مع طبيعـةِ مُشْكلاتِها، ومـدارِك مَعْرِفيّةً مُتَنَاغِمَـةً مع تطلُّعات أجْيالِها؛ فلا تكونُ الأُمّةُ مُتَطفِّلاً ثقيلاً على مَوائِدِ الآخَرين تُعَانِي من حالة الانْبِهَارِ والرَّهْبَة، ولا يَدْفَعُ الإحْبَاطُ بعض جماعاتِها إلى حَمَاقَاتٍ لا يُحْمَدُ عُقْبَاهَا، ولكنّها تتعاملُ مع مُعْطياتِ عَصْرِهَا بلُغَةِ زمانِها، وتَسْتَنْفِرُ قُدْرَاتِهَا بثِقَةٍ وعَقْلانيّـةٍ وتفاؤلٍ حيث يرى ديفيد رزنيك أنّ: (مـن الأرْجَح أنّ الجُمْهُورَ «المُثقَّف عِلْميّاً» يَتَّخِذُ بصُورةٍ جَيّدةٍ قراراتٍ وسياساتٍ أفْضل من التي يَتَّخِذُهَا جُمْهُورٌ جَاهِلٌ عِلْميّاً)[٩٨].

أمّـا «النَّقْلَـةُ المَطْلُوبَـةُ» فتَكْمُنُ في التَّغلُّـبِ على حالة «الاغْتِرَاب» عـن العَصْرِ التي تُسْهِـمُ في تأْصيلِ كثيرٍ من حالات المَيْلِ إلى العُنْف، وتُعَمِّقُ مشاعِر العُزُوفِ عن «التَّعامُلِ الإيجابـيّ» مـع «مُتَطلَّبَاتِ العَصْرِ» عبْر الانْعِزَالِ أو الانْغِـلاقِ أو الانْكِفَاء، ومن ثمّ الهُرُوب مـن تحدّياتِه إلى وَسَائِـلِ التّدْمير. إنّ انْعِدَامَ القُـدْرَةِ الذّاتيّةِ على التّعامُـلِ مع «مُكَوِّنَاتِ العَصْـرِ» الحيويّـة، أو الجَهْلَ بكُنْهِهَـا وطبيعتِها، أو الرَّهْبَةَ من مُعْطياتِهـا ونتائِجها؛ كُلُّها

أُمُــورٌ كفيلةٌ – في كثيرٍ من الأحْيان – إلى دَفْــعِ بعْضهم إلى نَزْعَةٍ ارْتِدَادِيّةٍ كَاسِحَةٍ تُهَيْمِنُ علــى الوِجْدَانِ، وتُغَيِّبُ العَقْلَ، وتُرَسِّــخُ الإحْبَاط. وأمّا إذا أَدْرَكْنَا مــدى عُنْفُوان «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّــة للحركــة العِلْميّة والتّقنيّة» (انْظــر: الفَصْل السّادس)، وما تُبَلْــوِرُهُ من أبْعَادٍ إنْتاجيّــةٍ فَاعِلَــة، وما تُحَقِّقُهُ من إنْجازاتٍ بَاهِرَةٍ، وما تُضْفيــه على مداركِ العَقْلِ من رُؤىً جديدةٍ، فإنّنــا نُدْرِكُ أنّ مَشَاعِرَ «الاغْتِرَابِ»، وحالات «الإحْبَــاطِ»، ستجدُ لها دواءً نَاجِعاً عبْــر التّعامُلِ مع «العِلْم كثقافةٍ»، و«العِلْم كقيمَــةٍ»، و«العِلْم كمُمَارَسَة». إنّه من الواضِح أنّ رِحْلــة الأُمّــة نحو «التَّوَازُنِ الجديد»، الذي نَوَّهَ به مالك بن نبيّ، قد طَالَتْ ودَخَلَتْ مَرْكَبَتُهَا اللّاهِثَــةُ فــي مُنْعطفاتٍ أشــدّ توتُّراً واضْطراباً، ومــا «مَلَفُّ الإرْهَابِ» إلاّ إفْــرازٌ شنيعٌ من إفْــرازاتِ حالة «انْعِــدَامِ التَّوَازُن»، ونتيجةٌ طبيعيّــةٌ لفُقْدَانِ القُدْرَةِ علــى التّحْليلِ السَّليمِ، والعملِ السَّديدِ، والرُّؤيةِ النّاضِجَة.

٧-٩-٢) نَحْوَ «خِطَابٍ مَعْرِفِيٍّ» فَاعِلٍ:

مــن المُهِــمّ – إذاً – توليدُ «خِطَابٍ مَعْرِفيٍّ» قَادِرٍ على التّصَــدِّي للتّحدّياتِ الدّاخليّة والمُتَغيِّــرَاتِ الخارجيّة، ولا يَقْتَصِرُ على مُجَرَّدِ «رَدّ الفِعْل»، بَلْ يُبَادِرُ بالسّعي نحو التَّطْوير والتّنْميــة ليُصْبحَ الوطنُ فَاعِلاً على المُحيط المحلــيّ والإقليميّ والدّوليّ، فعندما يَنْشَغِلُ الإنْســانُ بـ«صِنَاعَةِ التَّقَدُّم» فإنّ مُبَرِّراتِ «مُنْطَلَقَاتِ الإرْهَــابِ» العَدَميّة تَضْمَحِلّ، ودَوافِعَ تلــك الانْفِعــالاتِ الهَوْجَاءِ تتلاشى، فمــن بدهيّات «التَّجْربة الإنْسانيّــة» أنّ هنــاك شُرُوطاً أَخْلاقيّــةً وعَقْليّةً وقِيميّــةً وعمليّةً لازِمَةً للإنْسان لكي يَدْلِفَ إلــى عَالَمِ «صِناعة الحضارة والتّنْمية»، ومُوَاكَبَةِ «حركة التَّقدُّم والتّطَوُّر».

مــن ذلك المُنْطَلَــقِ، نجدُ أنّ أهميّة ذلــك «الفِكْــرِ» المُتَفاعِلِ مع «قضيّــة التّنْمية»، والمَهْمُوم بـ«مُسْتَقْبَلِ المُجْتمع»، والحريصِ على «عمليّة البِنَاء»، تَتَجَلّى في أنّ هذا «الفِكْرَ» بطبيعتِــه يَفْرِضُ شُرُوطاً عَقْلانيّــةً وعِلْميّةً وإنْتاجيّــةً وعَوْلَميّةً هي حِصْــنٌ من الحُصُونِ الرّئيسةِ في مُحَارَبَةِ التَّطَرُّف والإرْهَاب، وتوليدِ معاييرِ «التَّوَازُنِ الجديدِ» وتَرْسيخ أَرْكانه. ومن ذلك المُنْطَلَقِ – أيضاً – تَفْرِضُ «ثقافةُ العِلْم» دَوْرَهَا الحتْميّ على حياة المُجْتمعات،

وذلـك علـى الرّغم ممّا تُعَانِيه من إهْمَـالٍ ثقافيٍّ، وتَجَاهُلٍ إعْلامـيٍّ، وإقْصَاءٍ اجْتماعيٍّ، فـي «الدُّول النّامية» التي ستَبْقَى تُراوِحُ مكانها فـي حالتها «النَّامية!» دون بُلُوغِ غايتها في التَّقَـدُّمِ والنُّضْجِ طالما أنّها لم تُدْرِكْ الأبْعَادَ الجوهريّةَ لـدَوْرِ «الثَّقافة العِلْميّة» في تَهْيئة «البِيئة التّنْمَويّة» القَادِرَةِ على تَنْظيمِ الفِكْرِ والغَرَائِزِ والوسائِل، وتَقْريبِ الرُّؤى نحو العَالَم ووسائِله ومُقْتضياته.

نَسْتطيـعُ أنْ نقول - بكُلِّ ثِقَةٍ - إنّ «الثَّقافة العِلْميّـة» تُرْسِي لَبِنَاتِ «التّفْكير العِلْميّ» وتَجْعَـلُ منه تَطْبيقـاً عمليّاً حياتيّـاً يَفْرِضُ على الفَرْدِ الاحْتِـكَامَ إلى العَقْـل، والتّأمُّلَ في الأسْبَـابِ والنّتائِـج، والمزايا والعُيُوب، والإيجابيّـاتِ والسّلبيّات، والمَصَالِـحِ والمَفَاسِد، ليُزيـلَ كُلُّ ذلك هَوْجَائيّـةَ الانْفعالاتِ والتَّحَيُّزَاتِ التي تَحْكُمُ «الخِطَـابَ الثّقافيّ العربيّ»، وتُهَيْمِـنُ على «رُدُودِ الفِعْلِ» لدى «العَقْلِ العربيّ» الغَارِقِ في المُتَناقِضات. ولا شكّ أنّنا إذا اسْتطعنا أنْ نَجْعَلَ من «ثقافةِ العِلْم» جُزْءاً جوهريّاً من «الثَّقافة الجماهيريّة»، فإنّنا نكون قـد أفْلَحْنَا في توطيدِ دعائِم «عَقْلَنَةِ المُجْتمع»، وتأسيسِ مُعْطيات ذلك «التّوَازُنِ الجديدِ» الوَاعِدِ بالاسْتِقْرَارِ والازْدِهَارِ والأَمْنِ الحقيقيّ بأنْواعِه.

لا ريب في أنّ «الطّبيعة البشريّة» تَسْعَى إلى إثْبَاتِ الذَّات، وتَكْريسِ القِيمَةِ الشّخْصيّة، وتَحْقيقِ المَصْلحة الخاصّة والعامّة، وتوفيرِ الرِّضا الحياتيّ؛ ولذا فإنّها ستتخلَّصُ من قَدْرٍ كبيرٍ من ذلك الخَوَاءِ النّفْسيّ والتِّيهِ الفِكْريّ والاغْتِرَابِ المَعْرفيّ عندما يَحْتَفِي «المُجْتمعُ» وأفْـرَادُهُ بالقِيَمِ الإنْتاجيّة والمعاني العِلْميّة والانْطلاقاتِ التّقنيّة والمُكْتسباتِ اليوميّة على الصّعيدَيْـن الماديّ والمَعْنويّ، وبطبيعة الحال، لا يُمْكِنُ لمِثْلِ ذلك الحال أنْ يَتَحَقَّقَ إلاّ في مُجْتمعٍ تَبَوَّأَتْ فيه «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» مَوْقِعَهَا الصّحيح، وتَغَلْغَلَتْ في أنْسِجَتِهِ وخلاياه.

إنّه لا يُمْكِنُ تَخَيُّلُ «إسْتراتيجيّةٍ» تَطْمَحُ إلى مُعَالَجَةِ «ظَاهِرَةِ الإرْهَابِ» دون أنْ تَسْتَنِدَ إلـى «بِنْيَةٍ تَحْتيّـةٍ» تَسْتطيعُ أنْ تتَحَمَّـلَ الضُّغُوطَ الجَمّـةَ النّاجِمَةَ عن «تَداخُـلِ الأَمْكِنَة»، وتَشَابُكِ المصالِح، وهَيْمَنَةِ الأقْوياء، وشَرَاسَةِ «العَوْلَمَة»، واخْتِزَالِ الزَّمن، وآنيّةِ الاتِّصال، والتّأثُّرِ المُبَاشِرِ بمضامين المَعْلُومَة؛ وفي زمن «العلوم والتّقنية» فإنّ تلك «البِنْيَةَ التَّحْتيّة»

الصَّلْدَةَ لا يُمْكِنُ إلاّ أنْ تكون من جِنْسِ عَصْرِها، ويَتَحَتَّمُ عليها أنْ تتناغم مع طبيعة زمنِها. ومن هنا كانتْ أهميّةُ «الثَّقافة العِلْميّة»، وضَرورةُ أنْ تُصْبِحَ جُزْءاً جوهريّاً ليس فقط من «مَلَفِّ مُكافَحَةِ الإرْهَابِ» أو برامِج «تَعْزيزِ الأَمْنِ» بمُخْتلف أشْكالِه ومضامينِه، ولكن يَنْبَغي أنْ تكون جُزْءاً حيويّاً من «الرُّؤية الشَّامِلَةِ» لأيِّ اسْتراتيجيّةٍ ثقافيّةٍ أو إعْلاميّةٍ أو تَعْليميّةٍ أو بَحْثيّةٍ أو تَنْمَويّةٍ، وذلك – بطبيعة الحال – إذا افْتَرَضْنَا أنّ هذه «الاسْتراتيجيّات» تَطْمَحُ إلى أنْ تتفاعل مع عَصْرِهَا، وتُوقِظَ أُمّتَهَا، وتَغْرِسَ «أَخْلاقيَّاتِ العمل»، وجِدّيّةِ الإنْتاج، وحيويّةِ التَّفْكير، ومهارةِ الانْضباط، وتَوَازُنِ الرُّؤية.

عندما نُدْرِكُ أهميّة دَوْرِ «ثقافة العِلْم» بصفتها مِحْوَراً رئيساً في مُعَالَجَةِ «ظَاهِرَةِ الإرْهَابِ»، وتَحْقيقِ «التَّوَازُنِ الاجْتماعيّ»، وتَعْزيزِ «التَّوَافُقِ التَّنْمَويّ»، فإنّنا سنُدْرِكُ ساعتها سبب فَشَلِ الخُطَطِ التَّعْليميّة والإعْلاميّة والثّقافيّة والاجْتماعيّة والتّنْمَويّة في «المُجْتمعات العربيّة»؛ فهي تتعاملُ مع «العلوم والتّقْنية» بأسْلوبٍ سَطْحيٍّ هَشٍّ لا يتجاوزُ التّنْظيرَ العامّ، أو الاكْتِسَابَ العَائِمَ للمَعْلُومَات، أو الفَهْمَ الغَائِمَ للتّطْبيقات، دون الانْخِرَاطِ في عمليّة «التَّأْصيل الفِكْريّ» التي تَزْرَعُ في العَقْلِ الضَّوابِطَ اللّازِمَةَ لمُمَارَسَةٍ رشيدةٍ، ومَسْؤوليةٍ وَاعِيةٍ، وحركةٍ تَنْمَويّةٍ جَادّةٍ، وحِرْصٍ صَادِقٍ على معايير «الأَصْلَح» و«الأَجْدَى» و«الأَنْفَع» في نَسَقٍ مُتَصَالِحٍ مع «العَصْر»، ومُتَّسِقٍ مع مُتَطلَّباتِه، وفي إطَارٍ شَامِلٍ يجدُ مُنْطَلَقَاتِهِ في ثَوابت دينيّةٍ واجْتماعيّةٍ وعَقْليّةٍ لا تتعارضُ مُطْلَقاً مع الانْطلاق في «عَوالِمِ العَصْرِ» بأبْعَادِهَا التّقنيّة والعِلْميّة والتّنْمَويّة.

من تلك الرُّؤى نَسْتطيعُ أنْ نَخْلُصَ إلى أنّه إذا كان ازْدهار «الاقْتصاد» بصفته مُؤَثِّراً مادّيّاً في «التّنْمية الاقْتصاديّة»، هو خير عِلاجٍ لاسْتِقْرَارِ المُجْتمعات وأَمْنِهَا وتَطَوُّرِهَا، فإنّ «الثَّقافة العِلْميّة» كمُؤَثِّرٍ ثقافيٍّ في إطار «التّنْمية الشَّامِلَة» هي خيرُ عِلاجٍ لـ«المُعْضِلَةِ الثَّقافيّة» لتَجْعَلَ «الثّقافة» ذات «فَاعِليّةٍ اجْتماعيّةٍ» تُوَطِّدُ دعائم «الأَمْنِ» بمُخْتلف أشْكالِه، وتَبُثُّ «رُوحَ العَصْرِ» في جَنَبَاتِ «المُجْتمع» لتَدْفَعَ في اتِّجَاهِ حركةٍ نَشِطَةٍ على الأَصْعِدَةِ الفِكْريّة والاقْتصاديّة والتّعْليميّة والإنْتاجيّة والبَحْثيّة، وغيرها من مُقْتضياتِ «العَصْرِ» وتفاعُلاتِه.

٧-١٠) «الثّقافة العِلْميّة»: القِيَم والمعايير:

لكـي تَتَحَقَّـقَ «الفَاعِليّـةُ الاجْتماعيّةُ» في مضاميـن «مَفْهُوم الثَّقافـة العِلْميّة»، فإنّه مـن المُهِـمّ التَّعامُل مـع هذا «المَفْهُوم» علـى أنّه «جَسَـدٌ» و«رُوحٌ»، حيث يَتَمَثَّـلُ «الجَسَدُ» في الأشْـكَالِ المادّيـة، ووسائِل الإنْتـاج، والمُصْطلحـاتِ العِلْميّـة، والأدواتِ التّجْريبيّة، والمَعْلُومَـاتِ الوظيفيّة، وهي ما يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيـه «عَالَمَ الأشْياء»؛ بينما تَتَمَثَّلُ «الرُّوحُ» في «عَالَـمِ الأفْكَار»، وهو ما تَفْتَحُهُ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» من تَأَلُّقَـاتٍ فِكْريّةٍ، ومُنْطلقاتٍ فَلْسفيّةٍ، وطُمُوحَـاتٍ بَحْثيّةٍ، وأبْعَادٍ تأمُّليّةٍ من «عَالَمِ الذرَّات» إلـى «آفاق المَجَرَّات»، وفيما يَرْتَبِطُ بهـا من مُمَارَساتٍ وقِيَمٍ ومهارات، وبذلك يُصْبِحُ مَفْهُـومُ «العِلْمُ قِيمَةٌ» مُسَانِداً ومُعَاضِداً لمَفْهُـوم «العِلْمُ مَعْرِفَةٌ». وأمّا ذلك التّكامُلُ، بين عَالَمَيّ «الأَشْياء» و«الأَفْكَار»، فإنّه يَتَحَقَّقُ عنـد بُلُـوغِ المُجْتمع نُقْطة «التَّحَوُّلِ الكَيْفـيّ» عبْر «التّراكُمَاتِ الكَمِّيّـة» لمُعطيات «الثَّقافة العِلْميّـة»، وفي إطار التّفاعُلِ الجَادِّ مع «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» ومضامينِها، ومُمارَسَةِ تَطْبيقاتها، والانْخِرَاطِ في مضاميرها.

ويُمْكِنُ حَصْرُ أهمّ ما يُنْجِزُهُ ذلك «التَّحَوُّلُ الكَيفيُّ» من قِيَمٍ ومعايير فيما يلي:

- المُلاحَظَةُ المُحَايِدَةُ في التَّعَامُلِ مع المُشْكلاتِ والقضايا.
- التَّواضُعُ المَعْرفيُّ والتَّعلُّمُ بالمُمَارَسَة.
- الأمانةُ العِلْميّة، والموضوعيّة، والاسْتِقْلاليّة، وإدْراكُ أنّ رأي الأنْدَادِ والنُّظَرَاءِ ضروريٌّ ومُجْدٍ في الوصولِ إلى الحقائِق.
- تَقْديرُ الإنْتاجيّة واحْتِرَامُ الكفاءَة، وإعْطَاءُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه، وعدمُ بَخْسِ النّاس إسْهاماتِهم الفِكْريّة والعِلْميّة والحياتيّة.
- الدِّقّةُ العمليّة، والانْضِبَاطُ المَنْهَجِيّ.
- أخْلاقيّاتُ العمل، والحِرْصُ على الإتْقَان.
- تَطْويـرُ «ثقافة السُّؤال»، وتَعْزيزُ قُـدُرَاتِ التّحْليلِ ومهـاراتِ «التّفْكير العِلْميّ»، وغَرْسُ بُذُورِ «الإدارة العِلْميّة».

- تَرْسيخُ القناعة بأنّ «المِصْداقيّة» مُرْتَبِطَةٌ بالقَبُولِ الجماعيّ للأفْكَارِ والنّتائِج.
- دَعْمُ طُرُقِ «العمل الجماعيّ»، وتَرْسيخُ مفاهيم «العَدَالَة الاجْتماعيّة» و«التَّعاون» و«المَسْؤوليّـة» عبْر أُطُرِ «التَّكَامُـلِ البُنْيويّ» و«التَّرَابُطِ العُضْـويّ» بين مُخْتلف مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع وشرائحِه.
- بَثُّ رُوحِ المُبَادَرَةِ والابْتِكَارِ والبَحْثِ والاخْتِرَاع.
- تَعْزيزُ العَقْلانيّة، واحْتِرَامُ الحقائِـق، ونَبْذُ أساليب المُبَالَغَةِ والإيهام، وتَحْديدُ المُعْطياتِ والفَرْضيّاتِ والمَصَادِرِ بجلاءٍ عند التَّعامُلِ مع المُشْكلات.
- تَحْفيزُ الإنْتاجيّة، واحْتِرَامُ قِيمَةِ الوَقْت.
- تَأْكيـدُ أنّ الفُضُـولَ غريـزَةٌ يَنْبَغِـي تَشْجيعُها، وغَرْسُ حُبِّ الاسْتِطْـلاعِ ورُوحِ المُنَافَسَةِ والتَّحدّي، وتوليدُ الدَّوَافِعِ الذّاتيّة للمُتَابَعَةِ المَعْرفيّة والتَّطْويرِ الذّاتيّ.
- نَبْذُ الخُرَافَاتِ والدَّجَلِ والأوهامِ والعاداتِ السَّيِّئة، وتَقْليصُ مِساحاتِ الانْفعالاتِ والعَواطِفِ والمُعَوِّقَاتِ الفِكْريّة.
- اضْمِحْـلالُ انْتِشَـارِ الشَّائِعَاتِ، فكُلّمـا قَوِيَ عُودُ «الفِكْرِ العلمـيّ» في المُجْتمع، كانتْ الرّغْبَةُ في توليدِ الشَّائِعَاتِ أضْعف، وسُرْعَةُ انْتِشَارِهَا أقلّ.
- التَّأْكيـدُ علـى أنّ «التّنْظيرَ» ليس هدفاً في حَدِّ ذاتِـه، ولكنّه يَنْبَغِي أنْ يُؤدِّيَ إلى تَنَبُّـؤاتٍ قَابِلَةٍ للاخْتبَـارِ والتَّحَقُّقِ، ووسائِلَ قَابِلَةٍ للتَّفْعيـلِ والتّقْويم، وآثارٍ ذات جَدْوَى وفَاعِليّة.
- الابْتِعَـادُ عـن «أَحَادِيّـة الـرّأي»، وإشَاعَـةُ «رُوحِ التّسَامُح»، وعـدمُ الخَوْضِ في القضايـا دون براهيـنٍ، والحِرْصُ على جَمْعِ المَعْلُومَـاتِ وتَقَصِّي البيانات قبل تَحْديدِ المَواقِفِ واتِّخَاذِ القرارات.
- تَكْريـمُ العُلماء والمُبْدعين في مجالات «العلـوم والتّقْنية»، وإبْرازُهم بصفتهم قُـدْوةً تُحْتَـذَى، ودَعْـمُ المَواهِـبِ الفَرْديّـة، وتَعْميقُ القِيمَـةِ الذّاتيّـةِ للإنْسان وكرامته.

- التَّغَلُّبُ على مَشَاعِرِ الانْبِهَارِ والتَّبَعِيَّةِ والإحْبَاطِ، وإشَاعَةُ رُوحِ التّفاؤلِ والثِّقَةِ في تَطْويرِ المُجْتمع وتَنْميته.
- تَقْليصُ مساحاتِ المَحْسُوبيّةِ والمُحَابَاةِ والوَسَاطَةِ والاعْتبَاراتِ الخاصّةِ كالتّمْييز غير المَشْرُوعِ بين الرَّجُلِ والمَرْأَة؛ فـ(قِيمَةُ الفَرْدِ فيما يُتْقِنُه).
- تَأْصيلُ مَفْهُوم «المُجْتمع دَائِم التَّعَلُّم» عبْر التّطْويرِ المُسْتمرِّ للمهارات، وتَنْمِيةُ المَواهِبِ إلى أقْصَى قُدْرَاتِهَا، واسْتيعابُ المُسْتَجِدَّاتِ بعَقْلانيّةٍ وفَاعِليّة.
- إذْكاءُ حماسِ المُجْتمع لـ«العلوم والتّقْنية»، والحِرْصُ على توفير شُرُوطِهَا عبْر تَنْمية الشَّغَفِ بالبَحْثِ العِلْميّ والإبْدَاعِ التّقنيّ.
- الاسْتِخْدَامُ الأمْثل للمَوارِد، والحِفَاظُ على البِيئة، ومُكَافَحَةُ التَّلَوُّث، والمُحَافَظَةُ على المُنْجزاتِ الوطنيّة.
- تَحْفيزُ مَلَكَةِ التَّساؤلِ والاسْتكشاف، وتَنْميةُ القُدْرَةِ على النّقْدِ وطَرْحِ الفَرَضيّاتِ واخْتبارِها والتّحليلِ والمُقَارَنَةِ والانْتِقَاء.
- التَّأْكيدُ على أنّ «العلوم الطَّبيعيّة» ومَنْهَجَهَا هما الطّريقةُ الفُضْلى لمُحاكَمَةِ مُخْتلفِ الأُمُورِ الدُّنيويّة وتَقْييمِهَا والتَّعَامُلِ معها، وأنّ هناك مَنَافِع جَمّةً تَنْجُمُ عن فَهْمِ «الطَّبيعة» ودِراسةِ قوانينها والتَّكيُّفِ مع مَنْهَجِهَا.
- الانْفِتَاحُ على الثّقافاتِ الأُخْرى واحْتِرَامُهَا، والتّعَامُلُ مع «العَوْلَمَة» بإيجابيّةٍ، فـ«الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِن»؛ فـ«النَّشَاطُ العِلْميّ» يُمَثِّلُ رَابطَةً عامّةً ومُشْتَرَكَةً بين البشر بمُخْتلف أجْنَاسِهِمْ وأَعْرَاقِهِمْ وألْوَانِهِمْ وعَقَائِدِهِمْ، فـ«المَعْرِفَةَ العِلْميّةَ» هي أكْثر أنْواع المَعْرِفَةِ التي أَنْتَجَهَا «العَقْلُ البشريّ» مَوْثُوقِيّةً، كما أنّها العُنْصُرُ الأسَاسُ المَسْؤولُ عن التّقدُّمِ والرَّفاهِ الذي حَقّقَتْهُ البشريّةُ خلال ما يُقَارِبُ ثلاثة قُرُونٍ فقط من عُمْرِ البشريّة الضَّارِبِ في أعْمَاقِ الزَّمن.
- تَعْميقُ «البُعْد الإنْسانيّ» في التّفاعُلاتِ البشريّة من مَنْظُورِ الهُمُوم المُشْتَرَكَة، والمصيرِ الوَاحِد، والمَصَالِحِ المُتَشَابِكَة، والمُؤَثِّرَاتِ المُتَبَادَلَة.

- تَنْميـةُ أرْضيّـةٍ فِكْريّةٍ مُشْتَرَكَةٍ ومُسْتَنِـدَةٍ إلى أُسُسٍ عِلْميّـةٍ واهْتمامات تَنْمَويّةٍ فـي «التّرْكيبة الاجْتماعيّة»؛ ممّا يَعْضُـدُ أبْعَادَ «التَّوافُـقِ التّنْمَويّ» في «النَّسيجِ المُجْتمعيّ».
- تفعيـلُ بعضُ مُنْطَلَقـاتِ «نَمُـوذَجِ التَّوَافُـقِ التّنْمَـويّ» (انْظُـرْ: الفصـل الرّابـع) الرَّامِيَـةِ إلـى الجَمْـعِ بيـن «التُّـرَاثِ» و«الحَدَاثَـةِ» عبْـر إثْـرَاءِ «الثَّقافَـة العِلْميَّـة المُعَاصِـرَة» بمُعْطيـاتِ «الحضـارة الإسْلاميّـة» وإنجازاتِهـا فـي مجـالات «العلـوم والتقنيـة» عبْر عمليّـاتِ «تحقيـق التُّرَاثِ» واسْتِيعـابِ أُصُوله، ورَبْطِهِ بالتَّطـوّراتِ المُعَاصِرَةِ و«الفِكْرِ العِلْمِيّ»، وبَلْوَرَتِهِ في «مَنْظُومَـةِ العلوم الحديثة»، وتَرْسيخِهِ فـي «تاريخ العلوم»، وتَعْميقِهِ في «فَلْسَفَةِ العلـوم»، وتَأْصيلِه فـي أُسُسِ «المَنْهَـجِ العِلْمِيّ»؛ ليكون جُزْءاً مـن العمليَة التي أَطْلَـقَ عليها محمد عابـد الجابريّ اسم «امْتِلاك التُّـرَاث»، والانطلاق به إلى الآفاق المُعَاصِرَة، حيث يقول: (إعادةُ كِتابَةِ تاريخنا الثّقافيّ برُوحٍ نَقْديّةٍ ورُؤيةٍ عَقْلانيّةٍ تاريخانيّةٍ ضرورةً مُلِحَّـةً، ليس فقط من أجل امْتِلاكِ تُرَاثنا والتّحَرُّرِ من ثِقَلِ حُضُورِه، بَلْ أيضاً من أجل إعْدَادِ التُّرْبة الصّالِحَة الضّروريّة لاسْتِنْبَاتِ أُسُسِ التّقدُّم والتَّطَوُّرِ في فِكْرِنَا وثقافتِنا المُعاصِرَة، الشَّرْط الضّروري لتَأْصيل «المُعَاصَـرَةِ» فينـا، أعْنِـي تَحْويلها من مُعَاصَـرَةٍ قَائمَـةٍ على التَّبَعِيّـةِ والنّقْلِ والاسْتِنْسَاخِ إلى مُعَاصَرَةٍ قَائِمَةٍ على المُوَاكَبَةِ والمُسَاهَمَةِ إنْتاجاً وإبْداعاً)[1].
- تَعْميـقُ الإيمـان بالخَالِقِ عزَّ وجلَّ عبْـر مَعْرفة أسْرَارِ «الطَّبيعـة»، والإبْداعاتِ الكَونيّـة، والتّنْظيـم المُذْهِـلِ فـي «الأَنْفُسِ والآفَـاق»؛ وفي هذا الإطـار، تقومُ الدِّراسـاتُ المُرْتَبِطَةُ بمجال «الإعْجَازِ العِلْميّ في القُـرآن والسُّنّة» بدَوْرٍ مُهِمٍّ فـي المُجْتمعـات العربيّة والإسْلاميّة، كما أنّ لها دَوْرَهَـا البَارِزَ على «الصَّعيدِ الدَّعَوِيّ» في زمن هَيْمَنَةِ «الفِكْرِ العِلْميّ».

٧-١١) «الثّقافة العِلْميّة»: المُعوِّقات:

تَتَحَكَّمُ في مسار «الثَّقافة العِلْميّة» وتطوُّرها مَجْمُوعَةٌ من المُعَوِّقاتِ التي تتفاوتُ في درجتِهـا من مُجْتمعٍ إلى آخَـر، إلاّ أنّها تَبْقَى مُحَافِظَةً على ملامحِهـا الأساس التي يُمْكِنُ إيجازُها فيما يلي:

١) تَصْطَـدِمُ قضيّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» فـي «المُجْتمعات العربيّـة» بتفشِّي «الأُمِّيَّة» فيهـا[١٥،٩٥]، فمـن البدهيّ أنّ مساعـي تَقْليص «الأُمِّيَّـة العِلْميّـة» تَعْتَمِدُ – في المقـام الأوّل– على التَّغَلُّب على مُشْكلة «الأُمِّيَّـة الأَبْجَدِيّة». أمّا تَدَنِّي المُسْتوى التَّعْليمـيّ، ومُشْـكلاتُ الفقْـرِ والبَطَالَـة، وتَدَهْـوُرُ الخِدْمَـات، وتَوَتُّـرُ الأَجْواءِ السِّياسيّة؛ فكُلُّها سَلبيّاتٌ تَصُبُّ في تضاؤلِ اهْتمام المُواطِن بالقضايا العامّة، ومن أبْرز الضّحايا في ظِلِّ هذه الظُّرُوفِ هي «الثَّقافة العِلْميّة».

٢) مـن خَصَائِصِ «الثَّـوْرَةِ العِلْميّة» تَشَعُّبُهَـا وتَكَاثُرُها بشَكْلٍ مُطَّـرِدٍ، وهي تتوالدُ وتَنْمُـو بمُعَـدَّلاتٍ عَاليَـةٍ عبْر مجـالاتٍ جديدةٍ وتقْنيـاتٍ مُتلاحِقَةٍ، ممّـا يَجْعَلُ مُتابعتَهَـا أمْـراً مُسْتَعْصِياً على أصْحَـابِ التّخصُّصات العِلْميّـة أنْفسهم، فما بالـك بغيرهم مـن أصْحَـابِ التّخصُّصـات الأُخْـرى ذات الطّبائِـعِ المُغَايِرَةِ والاهْتِمامات المُخْتلفة؟.

من ذلك المُنْطَلَق، فإنّ مُهِمّةَ «الثَّقافة العِلْميّة»، في تَقْلِيصِ «الفَجْوَة» بين أصْحَابِ التّخصُّصات العِلْميّة أنْفسهم من ناحيةٍ، وبين أصْحَاب التّخصُّصات العِلْميّة و«الجُمْهُورِ» بشَكْلٍ عامٍّ من ناحيةٍ أُخْرى، تَزْدادُ صُعُوبَةً إلاّ أنّ تلك الحقيقة – أيضاً – تَجْعَلُ مُهِمَّتَهَا أكْثر ضَرورةً وإلْحَاحاً في وَاقِعِ «الحياة المُعَاصِرَة»؛ لأنّ معايير التّقدُّم والتّطوُّرِ في «المُجْتمعات الحديثة» مُرْتَبِطَةٌ بمدى اسْتيعابِ أفْرَادِ المُجْتمع لـ«العلوم والتّقْنية»، واسْتجابتِهم لها، وكفاءتِهم في التّفاعُلِ معها على طريـق تَحْقيق مُواصَفَاتِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة». لقد أوضح تشارلز سنو[٣٢] أنّه لا يُوجَـدُ حَلٌّ كَامِلٌ لهـذه المُعْضِلَة، فـ«رَجُلُ النّهْضَـة» (Renaissance man)، أو

«الرَّجُلُ المَوْسُوعِيّ»، الـذي كان يُحِيطُ بكُلِّ العلوم الأدبيّة والعِلْميّة والفَلْسَفيّة، لم يَعُدْ له مكانٌ في عَصْرِ «انْفِجَارِ المَعْلُومَات»، ولكن هذا لا يَعْنِي عدم الاهْتمام بتَحْقيق «حَدٍّ أَدْنَى» من «الوَعْي العِلْميّ» بين الشَّرَائِحِ المُخْتلفة، وإنْجاز درجاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ من المُشَارَكَةِ والتّفاعُلِ بين مُخْتلف فِئَاتِ المُجْتمع تَضْمَنُ «بِنْيَةً تحْتيّةً ثقافيّةً» دَاعِمَةً لـ«الحركة العِلْميّة»، ومُسَانِدَةً للنّشاطِ التّقنيّ.

٣) تُغَطِّـي مُهِمَّـةُ «الثَّقافـة العِلْميّـة» مِساحـاتٍ وَاسِعَـةً مِـن المُجْتمـع وشَرَائِحِهِ المُتَنَوِّعَـة؛ فهـي قضيّـةٌ جَامِعَـةٌ شَامِلَةٌ تَبْدَأُ مِـن المنْزل في سنـوات التَّكْوين الأولـى، عُبُوراً بالمراحـل والمُؤَسَّسَـات التّعْليميّة المُخْتلفة، ومُـرُوراً بمُخْتلف التّفاعُـلات الاجْتماعيّة والفِكْريّة والفعّاليّـات الحياتيّة والثّقافيّة، والْتِحاماً مع كُلِّ الوَسَائِطِ المُتَعَدِّدَةِ والمُتَجَدِّدَةِ في «دُنْيَا الإعْلام»، و«عَالَم الاتِّصالات». وفي هذا السِّياق، نجدُ أنّ «تَقْرير التّنْمية الإنْسانيّة العربيّة لعام ٢٠٠٢م» يُولِي هذا الجَانِـبَ تَرْكيزاً خاصّاً، حيث يَنُصُّ على أنّـه: (تتوقّفُ قِيمَةُ المَعْرِفَة لأغْرَاضِ التّنْميـة على مدى تَطْبيقِهَا بفعّاليّةٍ، لذلك يَتَطَلَّـبُ السّعي لإقامة مُجْتمعٍ يقومُ على المَعْرِفَة وَضْعَ اسْتراتيجيّاتٍ «فوق – قطاعيّة» تُحَقِّقُ التّكَامُل بين اسْتيعابِ المَعْرِفَـةِ واكْتسابهـا ونَشْرِهَا)(١٥). وهكـذا يَتّضِحُ أنّ تَفْعيـلَ «الثّقافة العِلْميّة» مَنُـوطٌ بجِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْل التَّعْليم والإعْـلام والمَنْظُومَاتِ المَدَنيّة ومُؤَسَّسَاتِ القطـاع الخاصّ، ممّا يَنْتُجُ عنـه مُعَوِّقَاتٌ على مُسْتوياتٍ مُخْتلفـةٍ من التّنْسيق والتّخْطيط والتّكَامُل والتّنْفيذ والمُتَابَعَة.

٤) تَكْتَنِـفُ أنْشِطَـةُ «تَعْزيـز العلوم وتَرْويجها» فـي «المُجْتمعات النّاميـة» مَجْمُوعَةٌ مِـن المُعَوِّقَاتِ الفنيّة والتّنْظيميّة والإداريّة والتّمْويليّـة المُرْتَبِطَةِ بتَفْعيل برامِجِ «الإعْلام العِلْميّ»، ومن أبْرز العَقَبَاتِ في هذا الشَّأْنِ «نُدْرَةُ الكَوادِر البشريّة» التي تَجْمَعُ بين الكفَـاءَةِ العِلْميّة والتَّمَرُّسِ الإعْلاميّ، والقَادِرَةِ على طَرْحِ موضوعات «الثَّقافة العِلْميّة» وصِيَاغَةِ أفْكَارِهَا وتَنْفيذِ برامِجها بطريقةٍ شَائِقَةٍ وفعَّالَة.

٥) عُـزُوفُ أصْحَـابِ التّخصُّصَـاتِ العِلْميّـة عـن عمليّـة «التّوَاصُـلِ الجماهيريّ» والمُشَارَكَـةِ في نَشْـرِ «الثّقافـة العِلْميّة»، ومَيْلُهُـمْ إلى قَصْـرِ اهْتماماتِهم على الجَوانِبِ البَحْثيّـة أو التّعْليميّة أو التّدْريبيّة. وسَواءٌ كان هذا العُزُوفُ نَاجماً عن اسْتِعْـلاءٍ أو عـدمِ قُـدْرَةٍ أو قُصُورٍ في فَهْمِ طبيعةِ هذا النَّـوْعِ من الجُهُودِ ومدى أهميّتِـه، فإنّ الوَضْعَ - بشَكْلٍ عامٍّ - يَتَطَلَّبُ المُوَاجَهَةَ الواقعيّة والاهْتِمامَ الجَادَّ لاسْتِقْطَـابِ الكفـاءاتِ والمَواهِـبِ - مـن بين أصْحَـابِ التّخصُّصَـاتِ العِلْميّة - القَـادِرَةِ علـى الإسْهَـامِ فـي مجالات «الثّقافـة العِلْميّـة» المُخْتلفـة. إنّ هذه المُفَارَقَةَ المُحْزِنَةَ تَجْعَلُنَا نَطْرَحُ السُّؤالَ الاسْتِنْكَارِيّ الذي طَرَحَهُ نورمان كامبل (Norman R. Campbell) عندما قال: (إنّ رِجَالَ العلومِ يَشْكُون من القُصُورِ فـي اتِّسَاعِ اسْتِحْسَانِ المَعْرِفَةِ العِلْميّة بين النَّاس، ولكن ماذا يَتَوَقَّعُونَ إذا كانوا فقط يُقَدِّمُونَ للعَالَمِ العِظَامَ الجَافَّةَ للمَعْرِفَةِ التي غَادَرَتْهَا «رُوحُ التَّنَفُّس»؟)[٩٣].

لا بُـدَّ - إذاً - أنْ يُـدْرِكَ المُشْتَغِلُـونَ بالتّخصُّصَـاتِ العِلْميّة والتّقنيّـة، أنّ واجبهم يَقْتَضِي التَّوَسُّعَ في «النَّشَاطِ العِلْميّ» على مُسْتَوَيَيْن:

١) المُسْتوى الرَّأْسيّ: ويَتَمَثَّلُ في التّعَمُّقِ في تخصُّصاتِهم وتَطْويرِ مجالاتِهم.

٢) المُسْتَـوى الأفقـيّ: ويَتَمَثَّـلُ فـي رَبْطِ هـذه التّخصُّصات بالمُجْتمـع، وتَبْسيطِ علومِهـم، وطَرْحِ قضاياهم واهْتماماتِهم للجُمْهُور، ومَنْحِهَا «رُوح التّنَفُّس» التي أشار إليها نورمان كامبل.

وفي هذا الصَّدَدِ يقول جلين سيبورج[٤٤]: (إنّ الجامعات يجب أنْ تُؤدِّي مُهمّةً أبْعد، فهـي يَنْبَغِي لها أنْ تتجاوز الوَاجِبَ المَحْـدُودَ بتَقْديم العِلْمِ المِهْنيّ للعُلماء لتتولّى مُعَالَجَةَ مُشْكلة تَعْليم المُواطنين وتَهْيئتهم لـ«عَصْرِ العِلْم»)، ويُؤَكِّدُ جلين سيبورج أنّ: (الحال الآن أكْثر من أيِّ حالٍ مضى يَفْرِضُ علينا أنْ نكون جَاهِزين لاسْتِخْدَامِ كُلِّ الوَسَائِلِ والوَسَائِطِ المُتَاحَةِ لنا لرَفْعِ المُسْتوى العامّ من الإدْرَاكِ العِلْميّ في الوطن).

٧-١٢) «الثّقافة العِلْميّة»: العَامِلُ المُهَيْمِنُ على شُرُوطِ التّأهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفة»:

لقد أَصْبَحَ الرِّهَانُ اليوم هو على تَأْسيسِ «مُجْتمع المَعْرِفَة» وتَطْويره، ولكن لن يَتِمَّ ذلك اعْتِبَاطاً أو ارْتِجَالاً أو بحركات بَهْلوانيّةٍ دِعائيّةٍ، فـ«التَّحَوُّلاتُ الكُبْرى» في التّاريخ لا تَتَحَقَّقُ إلاّ إذا ظَهَرَتْ مُوَاصَفَاتٌ تُؤَهِّلُ لهذه التَّحَوُّلات؛ ولا يُمْكِنُ اسْتِبَاقُ نَتَائِجَهَا قبْلَ أنْ تَكْتَمِلَ مُقَدِّمَاتُهَا، وتَتَوافَقَ مُكَوِّنَاتُهَا، ويَتَوَفَّرَ مُنَاخُهَا.

هذه الحقيقةُ الحَاسِمَةُ تَسْتَدْعِي التَّعَرُّفَ على شُرُوطِ التَّأهيل لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة» (انظر: الفَصْلَيْن السّادس والثّامن)، وأمّا العملُ نحو تَحْقيقِ هذه الشُّرُوطِ فيجب أنْ يَكْتَسِبَ جِدِّيَّةً في الطَّرْحِ، وعُمْقاً في الدَّلالاتِ، وفَهْماً لطبيعةِ الإشْكَالِيّة، وقد أَجْمَلْنَا[٧٨] هذه الشُّرُوطَ في أرْبعة شُرُوطٍ، وهي:

١) الشَّرْطُ المَعْرِفيّ.	٢) الشَّرْطُ الاجْتماعيّ.

٣) الشَّرْطُ الثَّقافيّ.	٤) الشَّرْطُ اللُّغويّ.

إزاء هذه الشُّرُوطِ اللازِمَةِ للتّأهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»، فإنّ من المُهِمّ أنْ نَسْأَلَ إنْ كان هناك عَامِلٌ فَاعِلٌ يُهَيْمِنُ على تلك الشُّرُوطِ، ويَضْمَنُ تَحَقُّقَهَا؟. وبالتَّأمُّلِ الدّقيقِ نجدُ أنّ «الثَّقافة العِلْميّة» هي ذلك «العَامِلُ المُهَيْمِنُ»، حيث أنّها:

- هي القَادِرَةُ على تَأْسيسِ «الشَّرْط المَعْرِفيّ» وتَنْميته، وتوليدِ الحماس له، وهي التي تُرْسِي مُقْتضياتِ «إدارة المَعْرِفَة»؛ بمَعْنَى أنّ ما تَمْتَلِكُهُ المُؤسَّسَاتُ من مَعْرِفَةٍ يجب أنْ يُوَثَّقَ، ثمّ يُنْتَجَ، ثمّ يُعَمَّمَ، ليُسْتَغَلَّ في مُخْتلفِ برامِجِ الإصْلاح والتّطوير والتّطبيق والإنْتاج في عمليّةٍ تَرَاكُميّةٍ سَلِسَةٍ تَعْضُدُ بها المُؤسَّسَاتُ بعْضها بعْضاً، وهذا يَقَعُ في صُلْبِ ما تُرَسِّخُهُ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» من شُرُوطِ «التَّوَاصُلِ العِلْميّ» و«التَّراكُم المَعْرفيّ» و«الشَّفَافيَةِ الكَامِلَة» وتَقْديرِ قِيمَةِ «العمل الجماعيّ»، وذلك بمَنْأَىً عن النَّسَقِ المَعْرُوفِ في العَالَمِ العربيّ حيث يَحْتَفِظُ كُلٌّ بما لديه، و«كُلٌّ يُغَنِّي على ليلاه».

- هـي القَـادِرَةُ علـى تَحْقيـقِ «الشَّـرْط الاجْتماعـيّ» عبْـر الانْتِشَـارِ المُجْتمعيّ لـ«المَعْرِفَـةِ المُعَاصِرَةِ» فهي الأداةُ الفَعَّالَةُ لتَحْقيقِ امْتدادات «مُجْتمع المَعْرِفَة» - أفقيّـاً ورأسيّـاً - للوصـول إلـى «العُمْـقِ المُجْتمعـيّ»؛ لتكـون بذلـك بمَثَابَةِ المَرْكَبَـةِ القَـادِرَةِ على توصيـلِ حُمُولَتِهَـا العِلْميّة بكفـاءَةٍ إلى مُخْتلـفِ مَواقِعِ المُجْتمع وشَرَائِحِه.

- أمّـا «الشَّرْطُ الثَّقافيّ»، فإنّه يَفْقِدُ فَاعِليّته إذا لـم تَتَأَصَّلْ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» في ثنايـاه وطيّاتِـه لأنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» هو «حالَةٌ مُجْتمعيّـةٌ» لا تَتَأَصَّلُ ولا تَسْتَقِرُّ إلاّ عندمـا تتوافرُ شُرُوطُ «مُنَـاخٍ عِلْميٍّ» عامٍّ؛ فقضيّـةُ «توطين التّقنية» - على سبيـل المِثال - تُرَاوِحُ مكانها في العَالَم العربـيّ؛ لأنّها تَوَقَّفَتْ عند شَكْلٍ وَاحِدٍ مِـن أشْكَالِهَا وهـو «عمليّةُ الاسْتِيـرَادِ» والاسْتِهْـلاك، ولم تَسْتَوْعِـبْ «التَّجْرِبة العربيّـة» طبيعة هذه القضيّة التي يرى أرغيري إيمانويل أنّها عمليّةٌ ذات ثلاث مراحِـل: «مَرْحَلَـةُ الاسْتِيـرَادِ»، و«مَرْحَلَةُ الاسْتِيعَـابِ»، ومن ثـمّ «مَرْحَلَةُ خَلْقِ التِّكنولوجيا» وهي مَرْحَلَةٌ لا يُمْكِنُ أنْ تكون إلاّ: (مَرْحَلَةً مَشْرُوطةً بتقدُّمٍ مُسْبَقٍ علـى الصَّعيدَيْن الاجتماعيّ والثَّقافيّ يكونُ من الأهميّة بحيث يُشَكِّلُ في الوَاقِعِ قَفْزَةً نَوْعِيّةً بالنِّسْبَةِ للمَرْحَلَةِ الثّانية..أيْ مَرْحَلَةِ الاسْتِيعَاب)[٢٢].

- أمّـا «الشَّرْطُ اللُّغويّ»، فإنّه يَضْرِبُ في أطْنَابِ «الثَّقافـة العِلْميّة»، ويَتَمَدَّدُ على ساحاتِهـا بصُنُوفِهَا وفُرُوعِهَا وجماهيرِها المُسْتَهْدَفَة؛ لتكون «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» هـي الحَامِلَـةُ لنَبْضِ «اللّغَـةِ الأُمّ»، فتتفاعلَ - فـي سُهُولةٍ ويُسْـرٍ - مع مُخْتلف الشَّرائـح والقطاعات لدَمْـجِ المُجْتمع مع العَصْـرِ ومُسْتَجدَّاتِـهِ ومُصْطَلَحَاتِهِ ومفاهيمه ومُتَغيِّراته.

بإيجـازٍ نقـولُ: إنّ «الثَّقافةَ العِلْميّـةَ» «ثقافةٌ تَمْكينِيّـةٌ» تقومُ بدَوْرٍ رئيسٍ في عمليّة التَّمْييـز بيـن الجيِّدِ والـرَّديء، والفَرْزِ بيـن الحَسَنِ والسَّيـئ، ورَبْطِ المُجْتمـع بعَصْرِه، وتَمْكينِـهِ مـن الفُرَصِ للانْطِلاقِ في آفـاقِ الابْتكار والتّطوير والإبْـداع؛ وهي القَادِرَةُ على

ضَبْـطِ اتِّجَاهِ «بَوْصَلَةِ الحَرَاكِ الثَّقافيّ» نحـو «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة». يُمَكِنُنَا - أيضاً - أنْ نقـولَ إنّ «الثَّقافـةَ العِلْميّة» تَكْمُنُ في قَلْـبِ «الحياة المُعَاصِرَةِ» بـكُلِّ تفاعُلاتِها وأشْكَالِهَا وتداخُلاتِهـا ومُؤثِّرَاتِهَـا، ولـذا فلعـلَّ الشـّعَارَ الأكْثـر مُوَاءَمَةً لوَاقِعِ «الألْفيّـة الثّالثة» هو: («الثَّقافةُ العِلْميّةُ» هي الطَّريقُ للتّأهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»).

إنّني أزْعُمُ أنّني لا أعْرِفُ قضيّةً عليها إجْمَاعٌ عامٌّ بين مُخْتلف الفِئَاتِ في «المُجْتمعات العربيّـة» مِثْل قضيّة «مَرْكزيّة الحركة العلْميّة»، وحتميّتها في حيـاة الأُمّة، إلاّ أنّ القَنَاعَةَ بـدَوْرِ «الثَّقافة العِلْميّة» في تَعْميقِ هذه «الحركـة»، وتَطْويرِها، وتوطيدِ مُنْطلقاتِها، تَحْتَاجُ إلـى جُهُودٍ كبيرةٍ للتّأصيلِ والتّعْزيز، كما أنّ أنْصَارَ هـذا التَّوَجُّهِ قَلائِلٌ على صعيد الفِعْلِ والتّخْطيطِ والانْخِرَاطِ في تَجَلِّيَاتِهِ المُخْتلفة.

وفي ضوء كُلِّ تلك الهُمُومِ، من رُؤىً وأهْدافٍ ومُقَوِّماتٍ ومُعَوِّقَاتٍ، يَنْبَغِي لنا أنْ نَتَوَقَّفَ أمـام الوَسَائِلِ القَـادِرَةِ على إحْدَاثِ تلك «النَّقْلَـةِ النَّوْعيّة» اللّازِمَةِ لنَشْـرِ «ثقافة العِلْم»، وبَـثِّ «رُوح العَصْرِ»؛ للتَّغَلُّبِ على «إشْكَاليّة التّنْمية» عبْر تَفْكيكِ «المُعْضِلَةِ الثَّقافيّة»، وهما - مُشْتَرِكَتَـانِ - تُمَثِّـلانِ - فـي رأْيي - الهَمَّ الأكْبر فـي مُشْكلاتِنا النَّهْضَويّـةِ، وتطلُّعاتِنا التّنْمَويّـةِ، وتفاعُلاتِنا الحياتيّة؛ ولذا فـإنّ الفَصْلَ التّالي يَهْتَمُّ بالوَسَائِـلِ الكفؤةِ القَادِرَةِ على إحْدَاثِ تلك «النَّقْلَةِ النَّوْعِيّة».

الطَّرِيقُ إلى تَعْزِيزِ «الثَّقَافَة العِلْمِيَّة»

٨-١) مَدْخَل:

لـن يكون الخُرُوجُ سَهْلاً من شَرْنَقَـةِ «ثقافة الكلام والإنْشائيّات والجَدَلِ» التي تُغَلِّفُ أبْعَادَ «الثَّقافة العربيّة»، وتُسَيْطِرُ على أُطْروحاتِها في صِراعٍ يُحِيطُ به الغُمُوضُ والتّعْميم، وتُهَيْمِـنُ عليه الأساليـبُ البلاغيّة، والحماسُ الوِجْدانيّ، والانْفعـالاتُ الآنيّة؛ ولن يَتَحَقَّقَ مِثْـلُ ذلـك الخُرُوجِ بين يـوم وليلةٍ، ولكنّه سيكون بالضّـرورة نِتَاجَ تَراكُمَـاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ على مـدى عُقُودٍ من الجُهْـدِ والمُثَابَرَةِ والتَّأْصيل؛ ولذا فإنّ الطّامحين إلـى إيجاد حُلُولٍ سَهْلَةٍ وسريعـةٍ سيُصَابُـونَ بخَيْبَةِ أملٍ، وهي ذات الخَيْبَةِ التي هَيْمَنَتْ علـى «مُحَاوَلاتِ النَّهْضَةِ» و«برامِـج التّنْميةِ» على مدى قَرْنَيْن. لقد جَرَّبَتْ «المُجْتمعـاتُ العربيّة» كُلَّ شيءٍ في مُتُونِ الـكلام وشُرُوحاتِ الجَدَلِ، كمـا جَرَّبَتْ الانْقِلابَاتُ والثّـورَاتُ بأنْوَاعِهَا، ولكنّها لم تُجَرِّبْ بعْد تلك «الثَّقافة» التي اسْتَطاعَتْ أنْ تُحَقِّقَ لـ«المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» مجْدَهَا وإنْجازاتِها، ألا وهـي «الثَّقافة العِلْميّة»؛ فتجـارِبُ «المُجْتمعات العربيّة» ومُحَاوَلاتُهَـا، لتوطينِ التّقْنية ونَقْـلِ العلوم، والوُلُوجِ إلى عَالَمِ الكِبَـارِ إنْتاجاً وإسْهاماً في «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة»، تَتَفَرَّعُ في كُلِّ اتِّجاهٍ، ولكن لا يُمْكِنُ لها أنْ تَتَحقّقَ في فَراغٍ لأنّه لا بُدَّ لها من «وَسَطٍ» يَدْعَمُ مُقَوِّمَاتِهَـا، ويُكَيِّفُ صُورَهَا، ويَضْبِـطُ اتّجاهاتِها، ويُغَذِّيهَا بالعُقُـولِ والمَواهِبِ، ويَسْنُدُهَا بالسّياساتِ والقرارات.

إنّ قضيّةَ «الثَّقافة العِلْميّة» قضيّةٌ جَامِعَةٌ شَامِلَةٌ، تَبْدَأُ من المنْزل في سنوات التَّكْوين المُبَكِّـرَة، عُبُوراً بالمراحِل والمُؤسَّسَات التّعليميّـة المُخْتلفة، ومُرُوراً بمُخْتلف التّفاعُلاتِ الاجْتماعيّـة والفِكْريّـة والفَعَّاليّاتِ الحياتيّـة والثّقافيّة، والْتِقَـاءً بكُلِّ الوَسَائِـلِ المُتَعَدِّدَةِ

والمُتَجَدِّدَةِ في «عَالَم الاتِّصالات». من ذلك المُنْطَلَق فإنّ النَّظَرَ إلى الوَسَائِلِ الكفيلةِ بنَشْرِ «الثَّقافة العِلْميّة» في أرْجَاءِ المُجْتمع، وتأْصيلِها في الفِكْرِ والسُّلُوك، وتَعْزيزِهَا في مَظَاهِرِ الحياة المُخْتلفة، يُصْبِحُ أمْراً لا مناص منه إذا كنّا جَادِّين في «عمليّة التَّنْمية» وحريصين على «مَشْرُوعِ النَّهْضَة».

وأمّا وَسَائِلُ تَعْزيزِ «الثَّقافة العِلميّة» ونَشْرِهَا في المُجْتمع فتَتَنَوَّعُ وتَتَعَدَّدُ[٢٤]؛ فمنْها الجمعيّات والهيئات العِلْميّة، والمطْبُوعات بأنْواعِها، والمتاحِف والمعارِض العِلْميّة، والنّوادي العِلْميّة، والرّحْلات العِلْميّة، والمُحاضرات والنّدوات العامّة، وغير ذلك من وَسَائِطِ «التّفَاعُلِ الاجْتماعيّ». أمّا أبْرز تلك الوَسَائِطِ وأكْثرها فعّاليّةً فهما: «التَّعْليم» و«الإعْلام»، والمَقْصُودُ بـ«الإعْلام» هنا نَوْعَاهُ: «التَّقْليديّ» و«الجديد»؛ وأمّا قناةُ توصيل «الثَّقافة العِلْميّة» إلى «التّعليم» و«الإعْلام»، فهي «التَّرْجَمَةُ والتَّأليفُ العِلْميّ». وعندما نَقِفُ - بقَدْرٍ من الإسْهَابِ - أمام هذا «الثُّلاثيّ الحيويّ» من وَسَائِطِ «نَشْرِ المَعْرِفَة»: (التَّعْليم - الإعْلام - التَّرْجَمَة والتَّأليف العِلْميّ)، فإنّ ذلك يعودُ إلى ما يَتَمَتَّعُ به هذا «الثُّلاثيّ» من فَعّاليّةٍ عَالِيَةٍ وتَأْثيرٍ كبيرٍ في تَهْيِئَةِ «البيئة الثّقافيّة والفِكْريّة والعِلْميّة» لـ«إنْتَاجِ المَعْرِفَة» وتَطْويرِها، ولتَأْسيسِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ ولذا سنَتَطَرَّقُ فيما يلي إلى هذا «الثُّلاثيّ الحيويّ» ونَسْبُرُ بعْضَ أغْوَارِهِ وتفاصِيلِه.

٨-٢) وسائِل تَعْزيز «الثّقافة العِلْميّة»:

٨-٢-١) التّعْليم:

لم يَعُدْ سِرّاً أنّ التَّحدِّي الأكْبر أمام «قضيّة التّنْمية» هو «تَحَدٍّ مَعْرِفيٌّ»، ولم تَعُدْ القضيّةُ في حاجةٍ إلى جُهْدٍ كبيرٍ لكي نُدْرِكَ أنّ «العلوم والتّقْنية» هي المَدْخَلُ إلى مُوَاجَهَةِ ذلك «التَّحَدِّي»، والتَّعَرُّفِ على أدواتِه، والتّغلُّبِ على صِعَابِه؛ وليس سِرّاً - أيضاً - أنّ «التّعْليم» - بأشْكَالِهِ وأنْمَاطِهِ ومُسْتوياتِه المُخْتلفة - يُمَثِّلُ «حَجَرَ الزَّاوية» في هذا «التَّحدِّي المَعْرِفيّ». وتَزْدادُ أهْميّةُ «التَّعْليم» كُلّما قطعنا مراحِل أكْبر على طريق «الأَلْفيّة الثّالثة»؛

فـ«التّعْليـمُ المُسْتَمِرُّ مدى الحياة» هو من أبْرز معالِم «مُجْتمع المَعْرِفَة»، كما أنّ «التّفْكير» و«حَـلّ المُشْكلات» هما (الأساسان الجديدان للتّعْليم في القَرْنِ الحادي والعشرين)[٩٩]. وفـي هذا الإطَـارِ يُؤكِّدُ صوما بوجـودة[٩٩] أهميّـة: (أنْ نَتَخلّى عن الفِكْـرَةِ التي ترى أنّ باسْتطاعتنا أنْ نُعَلِّمَ طُلّابَنَا «التّفْكير» دون أنْ يكون لديهم أساسٌ قويٌّ من «المَعْرِفَة»، كما يَنْبَغِي أنْ نَتَحَرَّرَ من الاعْتقاد السّائِدِ بأنّه يُمْكِنُ تَدْريسُ «المعْرِفَةِ» دون حَمْلِ الطُّلاّبِ على «التّفْكيـر»؛ فـ«المَعْرِفَةُ» و«التّفْكيرُ» توأمان مُتلاصِقَانِ، ولذا يجبُ علينا إتّبَاعُ منْهج تَرْبويّ يقـومُ على إعْطَاءِ الطُّلّاب المفاهيم المِحْوَرِيّة ومُسَاعَدَتِهِـمْ على إتْقَانِهَا والتّفْكيرِ بها)، ومِثْـلُ هذه الرُّؤيـة - في رأيه - تَسْتَدْعِـي: (تَمَثُّل مَبَاحِث «الثّقافة العِلْميّـة» في أيِّ مَنْهَجٍ للعلـوم). ولذا فإنّـه لا يُمْكِنُ تَحْقيقُ «النَّقْلَـة النّوْعيّة» المَطْلُوبَة لطَرْقِ أبْـواب هذا «المُجْتمع الجديد» إلاّ عبْر تَعْليم جَادٍّ يَهْتَمُّ بـ«توظيف المُنْتَج التّعْليميّ في خِدْمَةِ المُجْتمع» عبْر اسْتيعاب عَنَاصِـرِ «الثّقافـة العِلميّـة» ومُقوِّمَاتِها، وتوسيع رُقْعَـةِ «التّفاعُلِ العِلْميّ» عبْـر إقْرَارِ البرامج والأنْشِطَةِ والمُقَرَّرَاتِ العِلْميّةِ المُنَاسِبَةِ لكُلِّ الدّارسين في مُخْتلف المراحِل الدّراسيّة.

لا بُدّ من الاعْتِرَافِ بأنّ «ثقافة الإنْشائيّاتِ والجَدَلِ والكلاميّاتِ» وأساليب «الاسْتِظْهَارِ والاجْتِـرَارِ والتّلْقين» قد تَغَلْغَلَتْ فـي «النِّظَام التّعْليميّ» في «المُجْتمعات العربيّة»؛ وقد تَهُونُ القضيّـةُ، وتَسْهُـلُ طُـرُقُ العِلاجِ، لو أنّ هـذا الأمْرَ بَقِيَ فـي حَيِّزِ التّرْكيزِ علـى «الدِّراسات الإنْسانيّـة»، والتّسْليـم غيـر المُبَـرَّرِ بأولويّتِهَـا علـى غيرِها مـن «العلوم الحديثـة»، ولكن المُشْكلة أدْهَى وأمَرّ، فقد أفْلَحَتْ «الثّقافةُ العربيّةُ» في تَحْويلِ «العلوم الحديثة» ومناهجِها، وطُـرُقِ تَدْريسِهَا، ومعاييـرِ تَنْفيذِهَا، ووَسَائِلِ تَقْييمِهَا، إلى مُجَـرَّدِ «عُلوم نظريّةٍ» تَكْثُرُ فيها الشَّكْلِيَّاتُ، وتُهَيْمِنُ عليها «ظَاهِرَةُ الاسْتِظْهَارِ»، وتَنْعَدِمُ وَسَائِلُ التَّجْريبِ، وتَتَقَطَّعُ بها السُّبُلُ عـن طَرَائِـقِ «التّفْكير العِلْميّ». وهكـذا تَمَكَّنَتْ «المَوَاهِـبُ العربيّةُ!» مِـن وَأْدِ تَعْليم «العلوم والتّقْنية» عندما مَسَخَتْهَا عن صُورتِها الحقيقيّةِ - فِكْراً ومَنْهَجاً وتَعَلُّماً ومُمَارَسَةً -، وجَعَلَتْ منهـا مُجَرَّدَ شَـكْلٍ آخَر من أشْكَالِ «الدِّراسَـات الإنْسانيّة»، علـى الرّغم من الاخْتلافات الجوهريّـة بينهما في المعاييـرِ والمَنْهَـجِ والأدواتِ والتّفْكيرِ والتَّحْفيزِ وطُـرُقِ المُمَارَسَةِ والعمـل. وهكذا بَقِيَتْ مُعْظَمُ إشْكَالاتِنَا التّعْليميّةِ تَصُـبُّ في خَانَةِ «الثّقافة» التي لم تَتَعَلَّمْ

كيف تَضَعُ المعايير الدّقيقة، وتُطوِّرُ المَنْهَجِيّةَ العمليّة؛ وغَابَتْ عنها تلك «العَقْلانيّةُ» التي تَهْتَمُّ بموازين صَارِمَةٍ، وتتعاملُ مع «رُوحِ العصْرِ» وخَصَائِصِهِ المُمَيِّزَة.

إنّ البَحْـثَ عن «نُقْطَةِ التَّوَازُن» في «البَنْـدُولِ الفِكْريّ» للعَالَم العربيّ يعودُ إلى قُرُونٍ طويلـةٍ مَـرَّتْ بها الأُمّـةُ، سَيْطَرَتْ فيهـا الاضْطِرَابَاتُ الفِكْرِيّـةُ، والتَقَلُّبَـاتُ الاجْتماعيّةُ، والإخفاقـاتُ السياسيّةُ، والهزائِمُ العَسْكريّةُ، ويَبْقَى «التَّحَـدِّي» في أَقْسَى أشْكَالِه، ونحن نَدْلِـفُ إلـى العُقُودِ الأولى مـن «الأَلْفيّـة الثّالثة». ومن الوَاضِـحِ - انْطلاقاً مـن الطّبيعةِ المَعْرفيّـةِ لهذا العَصْـرِ - أنّ «نُقْطَةَ التَّوَازُنِ» لن تَتَحقَّقَ إلاّ فـي «وَسَطٍ تَعْليميٍّ - مَعْرفيٍّ» كثيفٍ تقومُ فيه «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» بدَوْرٍ مِحْوَرِيٍّ بَارِزٍ، بحيث تَتَمَكَّنُ - عبْر أدواتِها الرّصينة وتفاعُلاتِهـا المُنْضَبِطَةِ ومُبادراتِها الحيويّة - من تَطْويرِ «تجارِب تَنْمَويّةٍ» تَصْنَعُ أَسْئلتَها، وتُبَلْـوِرُ إجاباتِهـا، وتُوَاجِهُ تحدّياتِها، وتَبْنِـي عُقُولَهَا في «مُجْتمع المَعْرِفَـة» المُنْطَلِقِ دون تَوَقُّفٍ، والمُتَسَارِعِ دون انْتِظَار.

إذاً يَنْبَغِـي أنْ نصـوغَ أولويّات تَعْليمنا وفْق «رُوحِ العَصْـرِ» - في وضوحٍ وجِدِّيّةٍ -نحو التّوَافُـقِ مع «مُجْتمع المَعْرِفَة»، والتّواؤم مع شُرُوطِـهِ ومُقْتضياته، وبذلك نَضَعُ «الحِصَانَ أمـام العَرَبَـة» لنَقْضِي علـى العَوائِقِ المُسَبِّبَـةِ لتَعْطيلِ «التّنْميـة» وتوليدِ «البَطَالَـة» ووَأْدِ «الإنْتاجيّة»، ولتَتَحَرَّكَ القَافِلةُ - بعُنْفُوانٍ وحيويّةٍ - حَامِلةً كُلّ مضامينِها من عُلومٍ إنْسانيّةٍ واهْتمامـاتٍ اجْتماعيّـةٍ وطُمُوحَاتٍ تُعانِقُ سمـاء «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ ومـن المُهِمِّ - في هذا السِّيَاقِ - أنْ نُراعِي أبْعَادَ ما طَرَحَهُ كِتَابُ «العِلْمُ لكُلِّ الأَمْريكان» بأنّ: (ما يُخَبِّئُهُ المُسْتَقْبَلُ للأَفْرَادِ من البشر وللأُمّة وللعَالَم يَعْتَمِدُ بشَكْلٍ كبيرٍ على الحِكْمَةِ التي يَسْتَخْدِمُ بها البشرُ العِلْـمَ والتّكْنولوجيا. وهذا، بدَوْرِهِ، يَتَوَقَّفُ على طَابَعِ وتوزيعِ وفَعَّاليّةِ «التَّعْليم» الذي يَتَلَقَّاهُ النّاس)(٩٤). من هذا المُنْطَلَقِ فإنّ اخْتِرَاقَ «الثّقافة العِلْميّة» لـ«النِّظَام التّعْليميّ»، وتَغَلْغُلَهَا فـي نسيجه الإداريّ والمَنْهَجيّ والتّخْطيطيّ والتّجْهيزيّ، شَرْطٌ لا مناص منه إنْ كنّا نُريدُ فِعْـلاً الوُلُوجَ - باقْتِدَارٍ - إلى «مُجْتمع المَعْرِفَـة» الذي يَضَعُ شُرُوطاً قَاسِيةً على الرّاغبين في الانْضمام إليه (انْظر: الفَصْل السّادس)، وعلى رَأْسِهَا «الشَّرْطُ الثَّقافيّ» المُتَمَثِّلُ في مُخْرَجَـاتٍ قَادِرَةٍ على تَمَثُّـلِ «رُوحِ التّنْمية»، والتّفاعُلِ مع «العَصْـر»، واسْتيعابِ مُعْطياته، وتَطْويعِ إيجابيّاتِه، وتَقْليصِ سَلْبيّاتِه.

٨-٢-١- أ) الأولويّة التي لم تَنْضَجْ في «اسْتراتيجيّات التَّنْمية» في العَالَم العربيّ:

لـن نَأْتِـيَ بجديدٍ عندما نقولُ إنّ «التَّعْليـم» يَقعُ على قِمَّة هَـرَم الأولويّات في نَهْضَةِ الأُمـم، ولكـن المُهِمّ أنْ تكون هذه الحقيقـة هَاجِساً دَائِماً، فلا تَغْفَـلُ عنها العَيْنُ لحْظةً، وهذا مـا أَدْرَكَتْهُ «الدُّولُ المُتَقدِّمَـةُ»، فكان هَاجِسُهَا الدّائِمُ هو أحْـوالُ «التَّعْليم» ومعاييرُ تَقْويمِه وأدواتُ قِياسِه، وبالذّات فيمـا يَتَعَلَّقُ بمجالاتِ «الرّياضيّات» و«العلوم» و«التّقْنية»؛ فـ«المُجْتمـعُ المُعَاصِـرُ» مُجْتمـعٌ يَرْقَـى بهذه العلـوم، ويَنْمُو عبْـر تفاعُلاتِهـا المُجْتمعيّة والإنْتاجيّـة والبَحْثيّـة والفِكْريّة، وتَنْدَثِرُ إمْكاناته عندما يَضْمَحِـلُّ تَأْثيرُ «العلوم الحديثة» في مُؤسَّسَاتِه التّعْليميّة والبَحْثيّة والثّقافيّة والاقْتصاديّة والإعْلاميّة.

تلـك بدهيّاتٌ أَدْرَكَتْهَا «الأُمَمُ المُتَقدِّمَةُ»؛ فكانـتْ تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهَا عندما تَشْعُرُ بأنّ تَعْليمها يتراجع؛ فأَطْلَقَتْ أمريكا صَرْخَةً مُدَوِّيَةً بشَأْن «التَّعْليم» في الخمْسينات من القَرْنِ الماضي عندمـا انْطلق القَمَرُ الرُّوسيّ الأوّل (سبوتنيـك) ليُمَثّلَ تحدِّياً خطيراً لإمْكانات أمريـكا العِلْميّة والتّقنيّة، وارْتَجّتْ أرْجاءُ أمريكا مَـرَّةً أُخْرى في مُنْتَصَفِ الثّمانينات من القَـرْنِ ذاته عندمـا شَعَرَتْ بتدهْورِ «التَّعْليـم» في مجالَيْ «الرّياضيّـات» و«العلوم» لتَشْرَعَ فـي برنامجٍ شَامِلٍ شِعَارُهُ «أُمّةٌ في خَطَـرٍ»؛ لتُوَظِّفَ في هذا البرنامج خيرة العُقُولِ، وأقْدر الكفاءات، وأفْضل الإمْكانات. وهذا ما يُؤكِّدُهُ مُؤلِّفو كِتاب «العِلْمُ لكُلِّ الأَمْريكان» بقولهم: (لـدى الطُّلّاب فـي المدْرسة الابْتدائيّة اهْتمـامٌ عَفَويٌّ بالطّبيعة والأرْقـام. وبالرّغْم من ذلـك فإنّهم يَتَخَرَّجُونَ في المدْرسة خَائِفين من الرّياضيّات وكَارِهين للعلوم بحُجَّةِ أنّهما مُمِـلّان للغاية ومـن الصّعْبِ تعلُّمهما. إنّهـم يرون «العِلْمَ» فقط كنشـاطٍ أكاديميٍّ، وليس كوسيلة لفَهْمِ العَالَمِ الذي يعيشون فيه. إنّ عَواقِبَ هذا النُّفُورِ وخيمةٌ، لأنّها تَعْني أنْ تكون حياة أعْدادٍ كبيرةٍ من الطُّلّابِ مَحْدُودَةً، وأنْ يكون مُجمَّعُ المَواهِبِ للأُمّة الذي يُجْلَبُ منه العُلماءُ وعُلماءُ الرّياضيّات والمُهندسون أصْغر ممّا يَنْبَغِي)(٩٤).

مـن هذا المُنْطَلَقِ، تكـون المَسْؤوليّةُ المُلْقَـاةُ على عَاتِقِ «المُجْتمعـات العربيّة» هي الأضْخَـمُ في دَلالاتِهَا، والأشَدُّ فـي تفاصيلِها، والأعْقَدُ في مُتَطَلَّبَاتِهَا؛ ففي نهاية المطاف

لا يُمْكِـنُ أنْ يَخْتَلِفَ عَاقِلان على أنّ «التَّعْليم» هو الـذي يُؤسِّسُ للعُلماء والأطبّاء والقُضاة والمُهندسيـن وأساتـذة الجامعـات وغيرهم من فِئَـاتِ المُجْتمـع وشَرَائِحِـه المُخْتلفة، والبَاحِـثُ الجَادُّ يُـدْرِكُ أنّ أيَّ خَلَـلٍ يُصِيبُ المُجْتمع هـو في الأساس خَلَلٌ فـي التّعْليم»، وهـو أيضاً خَلَلٌ في «الثَّقافـة» لأنّه لا تَخْفَى على لبيبٍ درجةُ التّفاعُلِ القويّ بين «التَّأسيسِ الثَّقافيّ» الصّحيح، و«خُطَطِ التَّعْليم» الفَاعِلَة.

مـن المُؤسِف أنّ «المُجْتمعات العربيّة» لـم تُفْلِحْ في صِيَاغَـةِ «إسْتراتيجيّةٍ مُتكَامِلَةٍ للتّعْليـم» – ذات أهْـدَافٍ قَابلةٍ للقِياس ومُرْتَبِطَةٍ بـ«عناصِر التَّنْميـة» – تَسْتطيعُ أنْ تَجْتَاحَ خلايا تلـك المُجْتمعات في «رُؤيةٍ تَنْمَويّةٍ» تتعاملُ مع «مُقْتضياتِ التَّنْمية» و«عُلوم العَصْرِ» و«أخْلاقيّاتِ العمل» و«مُقوِّمَاتِ الإنْتاج». لقد راحتْ هذه المُجْتمعاتُ تَغْرَقُ في إنشائيّاتٍ لا طَائِـلَ من ورائها، ومُؤتمراتٍ تَنْفَضُّ لتَنْعَقِدَ في طُرُوحَاتٍ فَضْفَاضَةٍ تَلْفِظُهَا «رُوحُ التَّنْمية» التـي تُـدْرِكُ أنّ مَنْشَـأَ مِثْل تلك الطُّرُوحَـاتِ هو «فَـرَاغٌ تَعْليميٌّ»، وعدم فَهْـم لخَصَائِصِ «التَّنْميــة». لـو انْشَغَلَ الجميـعُ بالبرامِج الفَاعِلَـةِ في السّعـي لضَخٍّ «إكْسِيـر التَّنْمية» في المُخْتبرات والمكْتبات، وتَطْويرِ المهارات والأنْشطة اللّاصفيّة، والمُراجَعَاتِ الموضوعيّة فـي التّطْويـرِ والتّقْويم، واسْتيعابِ مُقوِّمَاتِ «التّفْكير العِلْمـيّ»، لما كان لدى أحد ما يَكْفِي مـن الوَقْت للدُّخُولِ في سِجَـالاتٍ تُكَرِّرُ نفْسها وتَجْتَرُّ مُعْطياتِها، ولا تُفْلِحُ في تَأْسيسِ «رُؤًى تَنْمويّةٍ – عِلْميّةٍ» تَتْرك بَصَمَاتِهَا المُتَرَاكِمَةِ على «التَّعْليم» و«المُتَعلِّمين».

ومن المُشْكلات التّعْليميّة المَلْمُوسَةِ في «خُطَطِ التَّعْليم» وجود «فَجْوَةٍ» تَزْدَادُ اتِّسَاعاً بيـن تَعْليم «العلوم» وطُـرُق تَعَلُّمِهَا، وبين الاسْتيعاب الحقيقيّ لهـذه العلوم، بحيث تُصْبِحُ مُرْشِـداً ومُوَجِّهاً في التّفْكيرِ والقـراراتِ والمُمَارَسَات، ولا يُمْكِـنُ تَحْجيمُ هذه «الفَجْوَة»، وتَقْليصُ سَلْبِيّاتِهَا، إلاّ عبْر رَبْـطِ «التّعْليم» بـ«ثقافةٍ عِلْميّةٍ» حيويّـةٍ؛ فـ«التّعْليمُ» يَنْبَغِي أنْ يكون أداةً لتَطْويرِ «ثقافة المُجْتمع»، ورَفْعِ درجة وَعْيه، لأنّه البوابّة الرّئيسة التي يَعْبُرُ منها مُعْظَـمُ المُوَاطِنين – إنْ لم يكنْ كُلُّهم –، ويُعْتَبَرُ «النِّظَامُ التَّعْليميُّ» هو «النَّاقِلُ الاجْتماعيّ للمَعْرِفَـة»[٩]، حيـث إنّ: (المدرسـة تَلْعَـبُ دَوْراً لا يُمْكِـنُ تجـاوزُه كمكانٍ لتَعَلُّـمِ المَعْرِفَةِ والثَّقافة العِلْميّة)[٨٣].

كُلُّ ذلـك يَعْنِي ضَرورة أنْ تَضْبطَ المُجْتمعاتُ النّامية «مُؤشِّرَ البَوْصَلَةِ» على الاتِّجَاهِ الصّحيـح - في تَطْبيقٍ نزيـهٍ وحيويّةٍ فَاعِلَةٍ - حيث يَنْبَغِي أنْ يكـون الشِّعَارُ الرّائِدُ لتَعْليم «الأَلْفيّـة الثّالثة» هو: (التَّعْليمُ لعَصْرِ «مُجْتمع المَعْرِفَة») [٩٦] بحيث يَحْرِصُ «التَّعْليمُ» على تَأْسيسِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّـة» القَادرَة على إسْنَـادِ ركائز «مُجْتمع المَعْرِفَـة»، وتَرْسيخِ قِيَمِه، وتَعْزيـزِ تفاعُلاته، عبْـر إتاحة الإمْكانات المُعَاصِرَة لأفْرَادِ المُجْتمـع كافّةً؛ وهذه «البِنْيَةُ التَّحْتيّـةُ» بدَوْرِهَا مَسْؤولةٌ عن توليدِ الفُرَصِ، وتَطْويرِ المهاراتِ، وتَأْصيلِ المَعْرِفَةِ، وتَنْميةِ المَدَارِكِ، وإِحْدَاثِ «النَّقْلَة النَّوْعيّة» في «الحركة التَّنْمَويّة».

٨-٢-١- ب) نَحْوَ «إسْتراتيجيّةٍ تعْليميّةٍ» فَاعِلَة :

يجـب علـى أيِّ «إسْتراتيجيّةٍ تَعْليميّـة» أنْ تَسْتَوْعِبَ حقيقة أنّ أبْـرز شُرُوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة» [٧٨،٩٦] هو تَحَقُّقُ «الشَّرْط المَعْرفـيّ» عبْر إدْرَاكِ ضرورة «التَّكَامُلِ المَعْرفيّ» بين مُخْتلـف مُكَوِّنَـاتِ «الفِكْرِ البشريّ» وعَنَاصِـرِهِ في «البَوْتَقَةِ الحيَويّة» التـي تَرْبِضُ في قَلْبِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، مع إرْسَاءِ «الرّكيزة الأساس» في هذه «التَّرْكيبة المَعْرفيّة المُعَاصِرَة»، وهي تلك النّاتِجَةُ عن التَّطوُّرَاتِ العِلْميّة والمهاراتِ التّقنيّةِ والقُدْرَاتِ الإنْتاجيّة؛ فـ«الثَّوْرَةُ المَعْلُوماتيّـةُ» والمُتَطَلَّبَـاتُ التَّنْمَويّةُ تُعَزِّزُ - بوضوحٍ - هَيْمَنَـةَ «المعارِف العِلْميّة والتّقنيّة» علـى أنْواع المَعْرِفَةِ الأُخْـرى. وهذا ما يُؤَكِّدُهُ «التَّقْرير العَالَمـيّ لليونسكو» - الصّادر في عام ٢٠٠٥م - حيث يُقَرِّرُ أنّ: (مَفْهُوم «مُجْتمع المَعْرِفَة» يُوضِّحُ أنّ سياسات تَعْليم العلوم والتّكْنولوجيّات تُشَـكِّلُ اسْتِثْماراً اقْتِصاديّاً واجْتماعيّاً له أولويَّتُـه) [٨٣]؛ ولذا فإنّ «إعْطَاءَ الأولويّـة للعلوم والتّقنيّة» فـي «إسْتراتيجيّة التَّعْليم» وخُطَطِـهِ ومَنَاهِجِهِ يُصْبِحُ ضَرورةً لا مناص منها لإنْجـاز الطُّمُوحَاتِ التَّنْمَويّـة، وضمان عدم انْحراف «قَافِلَـة المُجْتمع» عن الطّريق إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة».

وأمّـا «الشَّـرْطُ الاجْتماعيُّ» فـي تَرْكيبـة «مُجْتمع المَعْرِفَـة» فيَسْتَدْعِـي «المُشَارَكَةَ الجماهيريّـة» الواعيـة، و تَحْتَلُّ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» مَوْقِعاً مِحْوَرِيّاً لتَحْقيـقِ تلك المُشَارَكَةِ

ومُوَاكَبَـةِ عَصْرِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ لأنّ أبْرز خَصَائِصِ هذا «المُجْتمع» هو الكفاءَةُ العَالِيةُ فـي تَأْميـن (النَّفَاذ الشَّامِـل للمَعْرِفَة)[83]، فوفْـق «التّقْرير العَالَميّ لليونسكـو»[83] فإنّ: (مُجْتمعات المَعْرِفَة تَرْتَكِزُ على إدْمَاج ومُشَارَكَةِ العَدَدِ الأكْبر)، ويَذْهَبُ التّقْريرُ إلى أبْعد مـن ذلك فيقول: (لـن تَتَمَكَّنَ «مُجْتمعاتُ المَعْرِفَةِ» في القَـرْنِ الواحد والعشرين من بُلُوغ حِقْبَـةٍ جديدةٍ من التّنْمية الإنْسانيّـة والمُسْتَدَامَةِ إلاّ بشَرْطٍ لا يقومُ فقط على تَأْمين نَفَاذٍ شَامِـلٍ للمعارِف، بَلْ أيضـاً على مُشَارَكَةِ الجميع في «مُجْتمعـات المَعْرِفَة»). وهكذا يَبْرُزُ «الشَّـرْط الاجْتماعـيّ»، ليُشَكِّلَ رُكْناً أساساً مـن أرْكَانِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة»، وليُمَثِّلَ مَطْلَباً لازمـاً لتَحْقيـقِ «التَّنْمية»؛ ممّـا يُحَدِّدُ - بالضّرورة - مـدى نجاح «المَنْظُومَـةِ التَّرْبويّة - التّعْليميّـة» أو إخْفَاقِهَا فـي صَوْغِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة»، وتوليـدِ «الإرادة الجماعيّة» الوَاعِيَةِ القَادِرَةِ على التَّغَلُّبِ على الحَواجِزِ الاجْتماعيّة والمَعْلُوماتيّة والمَعْرفيّة والثّقافيّة. وأمّا إذا لـم يَتَحَقَّـقْ الهدفُ الأساسُ، وهو عدم اسْتِبْعَادِ أحدٍ مـن المُشَارَكَة الحيويّة في تفاعُلاتِ «مُجْتمـع المَعْرِفَة»، فإنّ «المَنْظُومَةَ التّرْبويّة - التّعْليميّة» تكون قد فَشِلَتْ في «الاسْتِجَابَةِ الفَاعِلَـةِ لـ«تحدِّيات» هـذا المُجْتمع ومُقْتضياته، وتكـون المُحَصِّلَةُ الحَتْميّـةُ هي «ضَعْفُ كفاءَة المُنْتَجِ التّعْليميّ».

يَنْبَغِـي - إذاً - أنْ يكـون لـ«الثّقافـة العِلْميّـة» حُضُورٌ قـويٌّ في المناهـج والأنْشطة اللاّصفّيّـة، بحيث يَتَحقّقُ ما اعْتَبَرَهُ نادر فرجاني «الهدف النّهائيّ للنَّسَق التّعْليميّ» وهو: (تَزْويـدُ البشر، بلا تَفْرِقَةٍ، بالمعارِف والمهـارات والقُدْرات اللاّزمة للمُشارَكَة - بفعّاليّةٍ وإبْـداع - فـي تَطْويرِ المَعْرِفَةِ وعمليّات التّنْظيم والإنْتاج فـي المُجْتمع، وبصُورةٍ مُسْتمرّةٍ ومُتَطَوِّرةٍ، قَائِمَةٍ على تَأْكيدِ الهُوِيّة الحضاريّة من ناحيةٍ، واعْتِمَادِ «العِلْم الحديث» أساساً لاتِّخـاذ القـرارات من ناحيةٍ أُخْـرى)[11]. إنّ «الثَّقافة العِلْميّة» هي جُـزْءٌ أساسٌ من تلك «الذِّهْنِيّـةِ التَّنْمَوِيّة» التي طالب بها غازي القصيبي؛ لأنّها حسب قوله: (مُرْتَبِطَةٌ ارْتباطاً عُضْويّـاً بـ«العِلْم»، و«العِلْمُ» يَرْتَبِطُ ارْتباطـاً مُبَاشِراً بـ«نِظَام التّعْليم»، ووَضْعُ «التَّعْليم» في العَالَـمِ الثّالث مأْساةٌ تُحْزِنُ الأعْداءَ قبل الأصْدقاء. ولعلّنا هنا نَضَعُ أيدينا على «المِفْتَاح السِّحْـريّ» للتّنْميـة؛ المِفْتَاحُ الـذي يَسْتَحِيلُ فـي غِيَابِهِ تَحْقيـق «التَّنْمية» رغْـم توفُّر كُلِّ

عناصرِهــا، ويُمْكِنُ أنْ تَتَحَقَّقَ «التَّنْمية» عند وجوده حتى مع غِيَابِ عَدَدٍ من عَوَامِلِهَا، هذا المِفْتَــاحُ هــو «التَّعْليم»)[10]. وأمّا أحمد زويل[70]، فيُورِدُ مــا ذَكَرَهُ مهاتير محمد في حِوارٍ بينهمــا مــن أنّه كان (لا بُدَّ من خَلْــقِ حركةٍ في هذا البلد، وقد اسْتَلْــزَمَ ذلك تَغْييرَ عَقْليّةِ المُواطِــن الماليــزيّ) ليَذْكُرَ أنّ أحد العُنْصُرَيْنِ اللذين لجــأ إليهما لتَحْقيقِ ذلك الهدف هــو: (تَغْييرُ نظــام التَّعْليم حتى يُعَادِلَ التَّعْليــمَ المُتقدِّمَ في العَالَــم، ويتفاعل مع الثَّوْرَاتِ العِلْميّــة المُعَاصِرَة). وأمّا أسامة عبد الرحمن[12]، فيرى أنّ «التَّعْليم»: (أداةٌ رئيسيّةٌ في تَحْقيقِ التَّغْييــر الاجْتماعيّ والثّقافيّ والاقْتصاديّ)؛ لأنّ («التَّعْليــم» يُعْتَبَرُ أحد المداخِلِ الرّئيسيّــة لـ«التَّنْمية»، وبتكامُلِهِ مع «التَّدْريب» يُمَثِّلُ المُرْتَكَزَ الأساسيّ لزيادة فَعّاليّة وأداء «إدارة التَّنْميــة» ممّا يَجْعَلُ «التَّعْليم» مُسَاعِداً علــى إحْدَاثِ تَغْييرٍ في الاتِّجاهات والسُّلُوك يَتَّفِــقُ مــع مُقْتضيــات «التَّنْمية»). وأمّــا فلاح سعيد جبــر[75]، فيرى ضــرورة (الاهْتمام بسياسات «التَّعْليم» وإعادة بَرْمَجَتِهَا، ابْتداءً من مراحلِها الابْتدائيّة، ووصُولاً إلى مراحِلِها الأكاديميّــة العُلْيا، وفْق برامِج مُوَجَّهَةً لخِدْمةِ «التَّنْمية الشّامِلَة»)، ويرى – أيضاً – أنّه (لا بُــدَّ من تَحْقيقِ الرَّبْطِ المُبَاشِرِ بين التَّقَدُّم العِلْميّ والتّكنولوجيّ وبين السِّياساتِ التَّعْليميّة والتَّرْبويّة من أجل إيجاد البيئة المُلائِمَةِ لخَلْقِ وتَطْويرِ التِّكْنولوجيا).

عبْــر تلك الرُّؤى الجَازِمَةِ بالــدَّوْرِ الطَّليعيّ لـ«التَّعْليم» نجــد أنّ المُرْتَكَزاتِ المِحْوَرِيّةِ لتلك «العمليّة التَّربويّة – التَّعْليميّة» الحَاسِمَة، هي: («تَطْويرُ المَنَاهِج التَّعْليميّة» – «إعْدادُ المُعَلِّم»– «تَحْسينُ البِيئة التَّرْبويّة»– «برامِجُ النَّشاط اللّاصَفِّيّ»)؛ وكُلُّها تَحْتَاجُ إلى تفاعُلٍ مع «القِيَــم الثَّقافيّة» و«المُنْطلقَاتِ التَّنْمويّة» التي يَنْبَغِــي غَرْسُهَا وتَأْصيلُها؛ وهكذا – على سبيــل المِثال – يُصْبِــحُ من الضّروريّ كما يقــول علي علي حبيش: (الحُصُــولُ على مُعَلِّمٍ قَادِرٍ على بِنَــاءِ الشّخْصيّةِ المُسْتقلّة القَادِرَة على التَّعَلُّم الذّاتيّ، والبَحْثُ عن المَعْلُومات في مصادرِهــا، وعلى انْتِقَــاءِ المَعْلُومة، وتَحْليلِها ونَقْدِهَا وتَنْظيمِهــا، وعلى الاسْتِخْدام الأمْثل لهــا، وتوظيفِهــا في حَلِّ المُشْــكلات)[39]. لذا يَنْبَغِــي الحِرْصُ على إعْطَــاءِ عمليّة «إعْداد المُعَلِّــم» أولويّةً؛ لتَطْويــرِ قُدْرَاتِهِ المَعْرفيّةِ ومَدَارِكِــهِ الثّقافيّة وآفاقِهِ التَّرْبويّــة لتَتَوَاءَمَ مع مُتَغَيِّــرَاتِ «العَصْرِ» ومُسْتَحْدَثَاتِــه، ولا يَنْطَبِقُ هذا فقط على «مُدَرِّسي العلوم» ولكنّه يَنْبَغي

أنْ يَشْمَلَ كُلَّ شرائح المُعَلِّمين ليَسْتطيعوا أنْ يتحدَّثوا بـ«لُغَةِ العَصْر»، ويُسْهِمُوا في تَشْكيلِ الرُّؤى المُعَاصِرَةِ لدى طُلّابهم، وتَطْويرِ مهاراتِهم في «التَّفْكيرِ العِلْميّ» والنَّقْدِ الموضوعيّ.

وهكذا نجدُ أنّ الدَّوْرَ الرّياديّ لـ«التّعْليم» في «صِنَاعَةِ المُسْتَقْبَلِ» بمُكَوِّنَاتِهِ المُخْتلفة يَجْعَلُ تَأْسيس دَوْرٍ بَارزٍ لـ«الثّقافة العِلْميّة» في «إسْتراتيجيّة التّعْليم»، وتَعْميق هذا الدَّوْرِ في مُخْتلف التّفاعُلات التّرْبويّة – التّعْليميّة»، من أبْرز الأولويّات الوطنيّة التي لا تجوزُ المُزَايَدَةُ عليها، فكما يقولُ جلين سيبورج: (مهما كانتْ تَكْلفَةُ تَحْسين التّعْليم، فإنّها اسْتِثْمَارٌ في المُسْتَقْبَلِ يَنْبَغِي أنْ نَلْتَزِمَ به. إنّ التّميُّزَ يُكَلِّفُ كثيراً ولكن التَّوسُّط في الجَوْدَةِ يُكَلِّفُ أكْثر بكثيرٍ على المدى الطّويل)(٤٤). ومن حَقِّنَا أن نَتَوقَّفَ هنا لنتساءَل: (إذا كانتْ تلك هي ضريبةُ «التَّوسُّط في جَوْدَةِ التّعْليم» كما يراها سيبورج في مُجْتمعه الأمْريكيّ، فيا تُرى ما هي ضريبة «التَّخلُّف في التّعْليم» الذي تُعانِي منها مُجْتمعاتُ العَالَمِ العربيّ؟).

٨-٢-٢) الإعْلام:

لا يَخْتَلِفُ اثْنان حول التّأْثيرِ الكَاسِحِ لـ«الإعْلام» اليوم بوَسَائِطِه المُتَعَدِّدَةِ والمُتَنامية والمُتَجَدِّدَة؛ فـ«الإعْلامُ» هو أبْرزُ وسائل «القُوَّةِ النَّاعِمَةِ» التي تُسْتَخْدَمُ لتَشْكيلِ العُقُولِ، وتَحْريكِ الوِجْدَانِ، والتّأْثيرِ في المُمَارَسَاتِ، دون الحاجة إلى اللجوء إلى الوسائل القَهْريّة (القُوَّةُ الصُّلْبَة)؛ ومن أبْرز خصائص «القُوَّةِ النَّاعِمَةِ» أنّها قد تَسْتَغْرِقُ وَقْتاً حتى تَتَغَلْغَلَ وتَتَبَلْوَرَ إلاّ أنّها – في نهاية المطاف – أشدّ رُسُوخاً وأعْمق تَأْثيراً وأطْول أمداً، وفي إطَارِهَا يَدْخُلُ ما يُعْرَفُ بعمليّات «غَسِيل الدِّمَاغ».

لذا فإنّ «مَنْظُومَةَ الإعْلام» مَنْظُومَةٌ مُعَقَّدَةٌ بطبيعة عناصرِها التّقنيّة، ومُتَطَلَّبَاتِهَا المِهْنيّة، ووسائِلِها المُتَعَدِّدَة، وخياراتِها المُمْتَدَّةِ في آفاق الحياة، وتفاعُلاتِها الضَّارِبَةِ في أعْماق المُجْتمع، وتَأْثيراتِها الجَارِفَةِ في العَقْلِ والوِجْدان، وانْعكاساتِها الزّاخِرَةِ بالغثِّ والسَّمين، والتّافه والأصيل، والسُّمِّ والعَسَل. وهذا – بالضّرورة – يَسْتَوجِبُ اسْتِحْضَارَ دَوْرِ «الإعْلام» عندما نَتَحَدَّثُ عن «ثقافةٍ تَنْمَويّة» ضروريّةٍ لنَهْضَةِ المُجْتمع، وذلك ما

يُؤَكِّدُهُ عمر الخطيب[٧٦] بقوله: (إنّ وسائِل الاتِّصال الجماهيريّ أدواتٌ لتَحْقيق «التَّغيُّر الاجْتماعيّ» الذي يَخْدِمُ أغْراض «التّنْمية»، كما تَسْتطيعُ وسائل الاتِّصال إضْفاء المكانة وتأْسيس المعايير التي تَحْكُمُ المَسْلَكِيّات التّنْمَويّة بين الشَّعْب، وتَسْتطيعُ أيضاً رَصْدَ الانْحراف عن هذه المعايير، وتَلْعَبُ وسائلُ الاتِّصال دَوْراً حيويّاً في نَقْلِ المَعْرِفَةِ ونَشْرِهَا، ونَقْلِ نتائِج البُحوث العِلْميّة إلى الجماهير الوَاسِعَة، وتَسْتطيعُ البرامِجُ الشّعْبيّةُ عن العلوم والأحْداث الجَارِية وكذلك التّقارير الإخْباريّة والبرامِج الوثائقيّة أنْ تُثِيرَ الفُضُولَ الفِكْريّ الذي يجبُ تَوَفُّرُهُ حتى يُمْكِنَ فَهْمَ واسْتيعاب الأفْكار الجديدة)؛ وفي هذا الصَّدَدِ يُقَرِّرُ عمر الخطيب أنّه: (غالباً ما يكون التَّدَفُّقُ المُتزايدُ للمَعْلُومات هو العَامِلُ الأساسيُّ الذي يَغْرِسُ بذْرة التّغْيير، ويُهَيِّئُ المُنَاخَ المُلائِمَ لـ«التّنْمية»).

٨-٢-٢- أ) الوَاقِعُ العربيّ و«الإعْلام»:

إنّ نَظْرَةً فَاحِصَةً لوَاقِعِ «الإعْلام العربيّ» تُبَيِّنُ ذلك الدَّوْرَ المُتنامي لإعْلام «الغَرائِز والإثارة الحِسِّيّة» الذي تُؤَجِّجُ نيرانه مقاصِد تجاريّةٌ بَحْتَةٌ، أو أهْدافٌ تَخْريبيّةٌ مَحْضَةٌ، أو خَلْطَةٌ مَاكِرَةٌ من ذا وذاك؛ وكُلُّها تَحْرِصُ على جَرِّ «طاقات المُسْتَقْبَلِ» من شبابٍ وشابَّاتٍ إلى مَحْرَقَةِ المَلَذَّاتِ الحِسِّيّة، والمتاهاتِ العَاطِفيّة، والانْفعالاتِ المُتَمَرِّدَة، والفَرَاغِ الفِكْريّ، بَدَلاً من سَكْبِ حماسهم وطاقاتهم في قَوالِبَ رصينةٍ من «التَّوَازُنِ الحياتيّ» الذي يُحَقِّقُ مُتَطلَّبَاتِ «الأَمْنِ الفِكْريّ» من اسْتِقْرَارٍ وإنْجازٍ وتَطْويرٍ للذّات، ومُعالَجاتٍ رصينةٍ للمُشْكلات، وحمايةٍ للهُويّة. أمّا البدائِلُ الإعْلاميّةُ الأُخْرى المَطْرُوحَةُ على السّاحة العربيّة فهي تتراوحُ بين التّعْميق المُسْتمرّ للجَدَلِ العَبَثِيّ، أو الاسْتِفْزَازِ المُتَعَمَّدِ للمُجْتمع عبْر الإساءة لقِيَمِه وانْتِهَاكِ ثَوابِتِه، والأمثلةُ كثيرةٌ لنماذج عجيبةٍ على السّاحة الثّقافيّة والإعْلاميّة العربيّة؛ وكُلُّها تُبْرِزُ مُعْطياتٍ هَشّةً، لا تَمْتَلِكُ مُقَوِّمَاتِ «الرُّؤية التّنْمَويّة» التي يُدَنْدِنُ حولها الجميع، ولا تَتَمَتَّعُ بإرْهَاصَاتِ «الفِكْر الإصْلاحيّ» الذي يتنادون إليه، ولا تتفاعلُ مع مُتَطَلّبَاتِ «رُوحِ العصْرِ» التي يُشِيدُون بها.

بطبيعـة الحال، لا يُمْكِـنُ أنْ نَنْسَى «الإعْلام الرَّسْميّ العربيّ» الـذي فَقَدَ تَأْثيره في خِضَمّ غَزْوِ الفضائيّات، وضَعْفِ الرّقابة أو تراجُعها تحت وَطْأةِ هَجْمَةِ «العَوْلَمَة» وتقْنيات الاتِّصـال الحديثة، وعَجْزِه عـن توفير إسْتراتيجيّةٍ قـادِرَةٍ على المُنافَسَـةِ وطَرْحِ البديل النّاجِـع. وبشَـكْلٍ عامٍّ فإنّنا نَسْتطيـعُ أنْ نَخْلُصَ إلـى أنّ شيئاً ما لم يَتَغيَّرْ، بَـلْ إنّه ازْداد اسْتِفْحَـالاً على ما خَلُصَتْ إليه «الخُطَّةُ الشّامِلَةُ للثَّقافة العربيّة» الصّادِرَةُ عن «المُنَظَّمَة العربيّـة للتَّربية والثَّقافة والعلوم (أليكسـو)» - في عام ١٩٨٥م - حيث رأتْ أنّ أحد أبْرز السَّلْبيّات في حـال «الثَّقافة العربيّة» هي: (سِيَادَةُ الإعْلام التَّرْفيهيّ السَّطْحِيّ) [١٠٣]. أمّا الهَـمُّ الأكْبَرُ في حياة الأُمّة، وهـو «قضيّةُ التَّنْمية» بإشْكالاتِهـا وشُرُوطِهَا، فهو غريبٌ في ساحـات تلك البدائل الإعْلاميّة الجَاثِمَةِ على السّاحة العربيّـة، وأمّا السُّؤالُ الذي يَنْبَغِي طَرْحُـهُ، دون مُوارَبَـةٍ أو مُجَامَلَةٍ، فهـو: (هل بالإمْكان التَّعَامُل مـع التّحدّيات المُعَاصِرَة، وتَحْقيق «الأَمْن الفِكْـريّ»، والتّعاطي مع ضُغُوطِ المُسْتَقْبَلِ وشُجُونِ الأُمّة وتطلُّعاتِ الوطن وأحْـلامِ الفَرْدِ وقضايـا المُجْتمع دون تَأْسيس «إعْلامٍ تَنْمَوِيٍّ» مُـدْرِكٍ لـ«شُرُوط التَّنْمية»، ومُتفاعِلٍ مع مُتَطَلَّبَاتِهَا، ودَافِعٍ نحو سُبُلِهَا؟).

المُشْكِلَـةُ هي أنّه في كُلِّ البدائل المَطْرُوحَةِ أمامنا على السّاحة الإعْلاميّة الشّاسِعَةِ ووسائِلها المُتَعَدِّدَةِ وإمْكانيّاتِها المُتَنامية، فإنّ أكْثر ما يَصْدِمُنَا هو غِيَابُ «القِيَم التَّنْمَويّة» فـي تفاعُلاتِ «الإعْلام العربيّ»، وهو أمْرٌ كفيلٌ بـأنْ يُعَمِّقَ «إشْكَالِيّة التّنْمية»، بَلْ هو- في رأْيـي- أحَد أهمّ أسْبابها، ممّا يَجْعَـلُ المُجْتمع غريباً على عَصْره، وطَارِئاً على مُجْريات زمنـه. وفـي غِيَابِ «موازين التّنْمية» تَنْمُـو متاهات «الفَرَاغ الحياتـيّ»، وتَزْدَهِرُ مساحات الإسْفَـافِ والابْتِذَالِ والتَّطَرُّفِ والإفْرَاطِ والنَّرْجسيّةِ والتّفْخيم والتّضْخيم، وما يَنْجُمُ عن كُلِّ ذلك من تَشَنُّجٍ، وتَطَرُّفٍ، وانْكِفَاءٍ، وتَغْريبٍ، وانْبِهَارٍ، واجْتِرَارٍ، وحركاتٍ بَهْلوانيّةٍ تُريد أنْ تعيش دَاخِلَ الزَّمن وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِد.

لعلّه من المُقْلِقِ أنْ يَجْتاحنا - إزاء الوَاقِع المعيش - شُعُورٌ بأنّ «المُجْتمعات العربيّة» لـم تُـدْرِكْ بعد أنّ «قضيّـة التّنْمية» ليستْ قضيّةً قَابِلَـةً للأَخْذِ والعَطَـاءِ، ولا يُمْكِنُ تَرْكُهَا لجلسـاتِ السَّمَـرِ ومُنَاظَرَاتِ الجَـدَلِ؛ فـ«التّنْميةُ» قضيّةُ حياةٍ أو مَـوْتٍ، وإذا كان هذا هو

الحال فإنّ «الإصْلاحَ الإعْلامـيّ» والانْخِرَاطَ في مَنْظُومَةِ «الإعْلام التَّنْمَويّ» من القضايا التي يجبُ أنْ تكون من أبْرز أولويّات «المُجْتمعات العربيّة».

٨-٢-٢- ب) هُمُومُ «الإعْلام التَّنْمَويّ»:

ليس بالإمْـكان الحديث عن «ثقافةٍ تنْمَويّةٍ» دون أنْ يَعْضُدُهَا ويَنْقُلُهَا «إعْلامٌ حيويٌّ» - عبْـر وَسَائِطِه المَقْـرُوءَةِ والمَسْمُوعَةِ والمَرْئِيّةِ - بحيث تَتَحَقّقُ فيـه مُوَاصَفَاتُ الكَفَاءَةِ والمِهْنِيّـةِ والمَسْؤوليّـةِ والقُـدْرَةِ على التّأْثيـرِ الوَاسعِ على مُخْتلف الشّرائـح الاجْتماعيّة. مـن هذا المُنْطَلَقِ يَبْـرُزُ مُصْطَلَحُ «الإعْلام التَّنْمَويّ» الذي أَصْبَـحَ - بالضّرورة - مُلازِماً لـ«عمليّـة التَّنْمية» وأهْدافها ليكون «الإعْلامُ» فَاعِلاً علـى ساحتها عبْر تَرْويجِ قِيَمِهَا، وبَثِّ أخْلاقيّاتِها، وتَعْميقِ مُقَوِّمَاتِهَا المَعْرفيّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة.

إنّنا نَسْتطيعُ أنْ نَفْهَمَ أنْ يكون «الإعْلامُ» في «العَصْرِ الحديث» حريصاً على تَحْقيقِ «الرِّبْـحِ المَالـيّ» ليتمكَّنَ من مُوَاصَلَـةِ أداء وظائفِه المُتَعَـدِّدَة، ونَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَمَ - إلى حَـدٍّ مـا - تلك النّظرية التـي يَطْرَحُهَا بعضُ الإعْلاميين العرب بصِيَـغٍ مُخْتلفةٍ، ولكنّها - فـي نهاية المطـاف - تعودُ إلـى أصْلِهَا المُتَمَثِّلِ في تلـك المَقُولَةِ الشّعبيّـة: (الجُمْهُور عايـز كِـدَه)؛ ولكنّنـا لا نَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَـمَ كيـف يكـون مَقْبُولاً لـدى بعْضِ الإعْلاميين - قبْـل غيرهـم - أنْ يُخْتَـزَلَ دَوْرُهُم في مُجَـرَّدِ تَحْقيقِ الرِّبْـح، أو الاسْتِجَابَـةِ للنَّزْعَاتِ التِّلْقائيّةِ للطّبيعة البشريّة وغَرَائِزِهَا؟.

وعنـد التَّحاور مع الإعْلاميين العرب، قـد تَصْدُمُنَا المَقُولَةُ التـي يُكَرِّسُهَا بعْضهم عنـد التَّحَدُّثِ إليهم عـن مَسْؤوليّاتِهم نحو «التَّنْميـة»، ونَشْرِ «الثّقافة الجَـادّة»، وتَرْسيخ دعائِـم «مَنْظُومَـةِ مُجْتمع المَعْرفَة»، حيـث يَحْتَجُّون بأنّه لا يُوجَدُ «جُمْهُـورٌ» يَسْتَهْلِكُ هذه «البِضَاعَـة»؛ فـدَوْرُ «الإعْلام» - فـي رأيهم - هو أنْ يُقَـدِّمَ الخِدْمَـاتِ المَرْغُوبة، ويَطْرَحَ «البِضَاعَـةَ» التي يَطْلُبُهَا المُسْتَهْلِك؛ وفي رأيهم أنّ على «المُجْتمع» تَهْيِئَةَ «الجُمْهُور» الذي يَسْتَهْلِكُ ذلك النَّوْعَ من «البِضَاعَةِ» المُرْتَبِطَةِ بـ«الوَعْي التَّنْمَويّ» و«صِنَاعَةِ المَعْرِفَة» ونَشْرِ

«الثَّقافة العِلْميّة»، ومن ثمّ يقومُ «الإعْلامُ» فيما بعْد - مَشْكُوراً - بتَقْديمِهَا وتوفيرِها!. ولا شَكّ إنّ في مِثْل تلك المَقولَةِ بَخساً لـ«الإعْلام» وإهْمَالاً لدَوْرِه الرِّياديّ في تَشْكيلِ القَنَاعَاتِ وتَأْسيسِ الـرُّؤى وتَطْويرِ الإمْكانَـاتِ والالْتِحَامِ مع قضايا المُجْتمـع؛ فمن الأوصاف التي يُطْلِقُهَـا بعْضهم على «الإعْلام» أنّه «مِرْآةُ المُجْتمع»، ولكن هذا يَخْتَزِلُ حقائِق كثيرةً، من أهمِّهـا أنّ «المِـرْآة» مُحَايدَةٌ تُبيِّـنُ ما أمامهـا دون أنْ تُؤثِّرَ في ما تُبيِّنُـهُ، وأمّا «الإعْلامُ» فالقَائِمُونَ عليه بَشَرٌ، والمُمَوِّلُونَ له بَشَرٌ، والمُتَلَقُّونَ له بَشَرٌ، ممّا يَجْعَلُ له تَأْثيراً - سَلْباً أو إيجاباً -، كما أنّه سيكونُ - بطبَائِع البَشَرِ - مَشُوبَاً بتحيُّزاتٍ هنا، ومَصَالِح هناك، وأهْوَاءٍ بيـن ذا وذاك. ولذا فـإنّ لـ«الإعْلام» دَوْراً لا يُسْتَهَانُ به في صِنَاعَةِ ذلك «الجُمْهُورِ» الذي يَسْتَهْلِـكُ «الثَّقافة الجَادّة» والـرُّؤى التّنْمَويّة والتّفاعُلاتِ العِلْميّة، ومن المُفْتَرَضِ أنْ يكون لـ«الإعْلام العربيّ» دَوْرٌ رياديٌّ في كُلِّ تلك المضامير انْطِلاقاً من هَيْمَنَتِهِ شِبْهِ المُطْلَقَةِ في التّأْثيرِ على العامّة ومُعْظَمِ الخاصّة من النّاس.

وأمّا المَقُولَةُ القديمةُ - المُتَجَدِّدَةُ بأنّ «التَّاجِرَ» المُسْتَثْمِرَ في «الإعْلام» يَبْحَثُ فقط عـن الرِّبْـحِ المـاديّ، وأنّ «الإداريَّ» القَائِمَ على المُهِمَّةِ مُطَالَبٌ من قِبَـلِ «رِجَالِ الأعْمال» بـأنْ يُحَقِّقَ ذلك الهدف وليَأْتِ بعد ذلك الطُّوفان، فإنّها مَقُولَةٌ أصْبَحَتْ في أعْرَافِ اليوم تَخْضَـعُ لكثيرٍ من المُرَاجَعَاتِ والنّقْدِ حيث تَبَلْوَرَ «مَفْهُـومُ المَسْؤوليّة الاجْتماعيّة» للقطاع الخاصّ لِيَنْمُو ويَسْتَقِرّ ويُصْبِـحَ أكْثر اتِّساعاً وانْفتاحاً. ولا شَكّ فـي أنّ على «الإعْلام» - بوسائلِـه المُخْتلفـة - أنْ يَحْمِلَ القَدْرَ الأكْبر من ذلك «الهَـمّ الاجْتماعيّ»؛ فـ«الإعْلامُ» - وفْـق نظريّـات الإعْلاميين أنْفسهم الذين سَكُّـوا مُصْطلح «الإعْـلام التّنْمَويّ»- من أبْرز الأدوات القَـادرَةِ على إحْدَاثِ «التَّغيير الاجْتماعيّ» الذي يَخْدِمُ «التّنْمية»، ويُعَزِّزُ الانْتماء، ويُكَرِّسُ الهُويّة، ويُؤسِّسُ المعايير التي تَحْكُمُ السُّلُوكيّات والتّوجُّهات والمُمَارَسَات.

بطبيعـة الحال، ليس «الإعْلامُ التّنْمَويُّ» جَافّاً صَارِماً مُتَقَوْقِعاً حول «الفِكْرِ العِلْميّ»، أو التّحْليل التّنْمَويّ، أو التّأْصيل المَعْرفيّ، أو الأُطُرِ التّجْريبيّة، بَلْ تَرْكُضُ - أيضاً - قِيَمُهُ علـى مجـالاتِ التّرْفيه والتّسْليـة والرّياضة، وتَرْبِضُ مُعْطَيَاتُهُ في عَوالِـم الشِّعْرِ والأدب والسِّجَالاتِ الفِكْريّة، وتَرْقُصُ أهْدَافُهُ على حُرُوفِ الرّوايات والمقالات، وتَلْتَحِمُ مَضَامِينُهُ

مع التّفاعُلاتِ الإنْسانيّة بمُخْتلـف تخصُّصاتِها، وتَتَسَلَّلُ رُوحُهُ إلى الفعّاليّاتِ الاجْتماعيّة بمُخْتلـف اهْتماماتِها؛ ولكنّ المَطْلُـوبَ وَضْعُ «الإسْتراتيجيّة المُناسِبَـة»، وتوظيفُ العُقُولِ القَادِرَة، وتَطْويعُ المهارات الكفؤة.

وهكـذا، في ظِلِّ «تحدِّيات الألْفيّة الثّالثة» و«ثقافـة العَوْلَمَة»، تَبْرُزُ مضامين جديدةٌ قـد يُرَحِّـبُ بها بعْضهم، وقـد يُحَذِّرُ منها آخَـرون، وقد تتقاعسُ فِئةٌ عـن دَعْمِهَا؛ لأنّها لا تَعْرِفُ كيف تتعاملُ معها أو تُعَبِّرُ عنها، فـ«النَّاسُ أعْداءُ ما جَهِلُوا»، إلاّ أنّه يَنْبغِي أنْ نُدْرِكَ أنّ هنـاك مَوْجَةً ثقافيّةً وإعْلاميّةً ومُجْتمعيّةً تتنامى مع نُموِّ الشّرائِح الاجْتماعيّة المُخْتلفة التي تتعاملُ مع «العلوم والتّقْنية» بحُكْم المِهْنَةِ أو التّخصُّص أو الاهْتمام الفِكْريّ والثّقافيّ والاجْتماعـيّ بأبْعَـادِ «ظَاهِـرَةِ العلوم والتّقْنيـة» وآثارِهـا؛ وبالتّالي يجبُ توفيـرُ القَنَوَاتِ والوسائـلِ والأنْمَاطِ التـي تَسْتطيعُ أنْ تَسْتَوْعِبَ تلك المَوْجَـة، وتُوَظِّفَهَا، وتَرْتَقِيَ بها. ولذا فـإنّ السُّؤالَ المَطْرُوحَ بإلْحَاحٍ علـى «الضَّمير العربيّ» هو: (ألم يَئِـن الأوان للإعْلاميّين والمُموِّليـنَ العرب أنْ يَسْتَشْعِرُوا مَسْؤوليـة «صِناعَةِ المُسْتَقْبَلِ» فيَنْفَكُّوا من قَوْقَعَةِ الثّقافة اللفْظيّة وضجيـجِ الانْفعالات وبرامِج الإثارة الحِسِّيّةِ وساحـاتِ «الوَغَى الكُرَويّة»، ويُطِلُّوا على «الثّقافة العِلْميّة» بآفاقِها الرّحْبَة، ويَفْتَحُوا نَوافِذَ جديدةً أمام «العَقْلِ العربيّ» ليَنْطَلِقَ - بتوَاؤُمٍ وانْسِجَامٍ - مع «رُوحِ العَصْرِ» وتطوُّراتِ «الزَّمَنِ» وتحدّياته؟).

٨-٢-٢-ج) المَوقِعُ الرّياديّ لـ«الإعْلام العِلْميّ»:

إنّ أبْـرز ملامح «الإعْـلام التّنْمَويّ» هو بُـرُوزُ «الإعْلام المُتَخَصِّـص»، ونُموُّهُ أفقيّاً ورأْسيّـاً، فبـرزتْ برامِجُ «الإعْلام الاقْتصـاديّ» و«الإعْلام الرّياضـيّ» وغيرهما، وأَصْبَحَ «الإعْـلامُ المُتَخَصِّصُ» يَتَبَـوَّأُ مكاناً حيَويّاً فـي «المَنْظُومَةِ الإعْلاميّـة» في «المُجْتمعات المُتَقدِّمَة» التي تَسْتطيعُ أنْ تقيسَ مدى رُقِيِّهَا بما حَقَّقَتْهُ من مُسْتوىً في مضامير «الإعْلام المُتَخَصِّـص» المُخْتلفة، وهي تتفاعلُ - يوميّاً - مع خلايا المُجْتمع، وتَتَغَلْغَلُ في أنْسجَتِه، وتصـوغُ توجُّهاتِـه، وتُنَظِّمُ حياته، وتُرسِـي قِيَمَه. في قَلْبِ «الإعْـلام المُتَخَصِّص» يَرْبضُ «الإعْلامُ العِلْميُّ» بكُلِّ تفرُّعاتِه وتشعُّباتِه، ومن المُهِمّ أنْ نَضَعَ هنا تَعْريفاً إجْرائيّاً وَاضِحاً

لمَاهِيّةِ «الإعْلام العِلْمـيّ»، نَسْتَخْلِصُهُ من المُمَارَسَاتِ المَطْلُوبَةِ منه، لنجد أنّه: (الإعْلام المَعْنيّ أساسـاً بمُعَالَجَةِ الأحْداث والتّطوُّرات التّنْمَويّة، والهَادِفِ إلى التّأْثيرِ في مسارات التّطـوُّر والتّغْيير عبْر التّوظيف المَاهِـر للوسائل الإعْلاميّة المُتَاحَـةِ وتقْنياتها المُتَطَوِّرة للإسْهَـامِ الفعَّالِ في اسْتِنْبَـاتِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» فـي المُجْتمع، وتَنْميةِ «الحِسّ العِلْميّ» لدى الشَّرائح المُجْتمعيّـة المُخْتلفة، وتَبْسيطِ القضايا والمفاهيم العِلْميّة، ورَبْطِ «العِلْـم» بأَوْجُهِ الحياة وحركة المُجْتمـع وطرائِق التّفْكير، وجَعْلِ «الثَّقافـة العِلْميّة» جُزْءاً عُضْويّـاً من «الثَّقافـة السَّائِدَة»، وتَهْيئَةِ «المُنَـاخ العامّ» القَادِرِ علـى اسْتيعاب المُعْطيات العِلْميّـة والوفاءِ بشُرُوطِهَا وإعْـدَادِ المُواطِن للتّعامُلِ بحماسٍ وأُلْفَةٍ وثِقَةٍ مع «رُوحِ العصْرِ» ومُتَطَلَّبَاتِ التّقْنية، وتوفيرِ البِيئة الحَاضِنَةِ للإبْداع العِلْميّ والتّفوّق التّقنيّ).

إنّ المُعَالَجَةَ الصّحيحةَ لـ«إشْكَالِيّةِ التّنْمية» لا يُمْكِنُ لها أنْ تَغُضَّ الطَّرْفَ عن الكَارِثَةِ المُتَفَاقِمَةِ المُتَجَلِّيَةِ في اكْتِظَاظِ «الفضاء الإعْلاميّ العربيّ» بكُلِّ حَابِلٍ ونَابِلٍ، ولكن لا نكادُ نَلْمَسُ بين الحَابِلِ والنَّابِلِ «إعْلاماً عِلْميّاً» ذا تَأْثير. وهكذا نجدُ أنّه في الوَقْت الذي تتوالدُ فيــه قنَوَاتٌ فضائيّةٌ وإذاعيّةٌ في «العَالَم الغَرْبيّ»، وتَنْمُو عندهم مجلاّتٌ وصُحُفٌ يَنْحَصِرُ كُلُّ اهْتمامِهــا في تَبْسيطِ العلـوم، ونَشْرِ المعْرِفَة التّقْنيّة، وجَذْبِ مُجْتمعاتِهم إلى ساحات العلـوم والابْتكار، وتوسيــعِ أُطُرِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وتفاعُلاتِه مـع «القَاعِدَةِ المُجْتمعيّة»، فإنّ «الفضــاء العربيّ» يَضِجُّ بالمزيد من صِياحِ الدِّيكَة، والمُمَاحَكَاتِ اللفْظيّة، وقَنَوَاتِ الإثارة الحِسِّيّـة. وأمّا المُؤسَّسَاتُ الصّحفيّةُ، فقد انْصَرفَتْ إلــى ما اعْتَقَدَتْ أنّه يَحْصُدُ الأرْباح حيـث تَنْمُو «الصِّحَافَةُ التَّقْليديّةُ» التي تُكَرِّرُ ذاتها، وتَسْتَنْسِخُ تجارِبها، دون العِنَايَةِ بذلك الجديـد التّنْمَويّ، القَادِرِ على الإسْهَامِ في إحْدَاثِ «النَّقْلَة النّوْعيّة» في حياة «المُجْتمعات العربيّــة»، الذي يَقَعُ الآن - إلى حَدٍّ كبيرٍ - في خَانَــةِ ذلك الإعْلامِ المَجْهُولِ والمَنْبُوذِ في «العَالَمِ العربيّ»؛ ألا وهو «الإعْلامُ العِلْميّ»!.

الطَّريـفُ المُحْزِنُ في الأَمْرِ أنّ قضيّةَ «الإعْلام العِلْميّ»، وبشَكْلٍ أعمّ قضيّة «الثَّقافة العِلْميّــة»، تُمَثِّـلُ «حَجَرَ الزَّاوية» في كُلِّ مــا تَصْبُو إليه الأُمّةُ من طُمُوحَـاتٍ، وما يُنَادِي به السّاسَةُ والقَادَةُ من تطلّعاتٍ، وما يتنادى إليه رِجَالُ التّرْبية والتّعْليم من خُطَطٍ، وما يتحاورُ

حوله جَهَابِذَةُ الثّقافة والفِكْرِ والوَعْظِ من مُشْكلات. إنّ قضايا «التّنْمية» والتّطوير والإنْتاج والمَنَعَـةِ وإرْسَـاءِ دعائِـم «مُجْتمع المَعْرِفَة» تَلْتَـفُّ - كُلُّهَا - بإحْكام حـول قضيّة «العلوم والتّقْنيَـة»، ومدى القُدْرَةِ على تَرْسيخ أدواتِها وفِكْرِهَا ومعانيها ومُقْتضياتِها في المُجْتمع؛ ودون ثقافةٍ قَادِرَةٍ على تَهْيئَة تلك البِيئة، ودون إعْلام يَحْمِلُ تلك «الثّقافة» ويُشِيعُ مُعْطياتِها ويُبْـرِزُ دَلالاتِها، فإنّ كُلَّ تلـك الجُهُودِ تَبْقَى في مَهَبِّ الرِّيح. تلـك هي الحقيقة الجوهريّة التـي لم تَسْتَطِعْ «الثّقافةُ العربيّةُ» أنْ تَسْتَوْعِبَهَا بعْـد، وتلك هي «الإشْكَالِيّةُ الأساسُ» التي فَشِلَ «الإعْلام العربيّ» في التّعامُلِ معها؛ والطَّريفُ أنّ السّاحةَ تَعِجُّ بالإعْلاميين من شتّى الخَلْفيّـات والاهْتمامات، وعلـى مُخْتلف مُسْتويات صُنْعِ القَـرَارِ والأداء الإعْلاميّ، وكُلّهم - دون اسْتِثْنَـاءٍ - يُقِـرُّونَ بذلـك العَجْزِ، ويُدْرِكُـونَ حَجْمَ الخَسَارَةِ الوطنيّـةِ النّاتِجَةِ عن إهْمَالِ «الفِكْرِ العِلْميّ»؛ وأمّا أدبيّاتُهم في الحماس لـ«الحركة العِلْميّة» و«نَقْلِ التّقْنية» فهي كثيـرةٌ، ولكنّهم كُلُّهم - دون اسْتِثْنَاءٍ - لديهم ما يَكْفِي مـن الأعْذَارِ الحقيقيّة والمُبَرِّرَاتِ المُتَوَهَّمَةِ لفشلهم الذَّريعِ في المُسَاهَمَةِ في التّفْعيلِ الجَادِّ لرُؤى «الإعْلام العِلْميّ» والتّعامُلِ مع شُرُوطِه!.

علـى مدى قُرابَةِ ثلاثة عُقُودٍ طَرَحْتُ قضايا «الثَّقافة العِلْميّة» و«الإعْلام العِلْميّ» مع إعْلاميّيــن في وطني - أكاديميِّين ومِهنيِّين في القِطَاعَيْنِ الخاصّ والعامّ - لأتَلَمَّسَ معهم طبيعَـة الإشْكال، وأَسْتفيدَ من تَجْرِبَتِهِمْ الإعْلاميّة فـي تَشْخيصِ حقيقة المُعَوِّقَاتِ وسُبُلِ التَّغَلُّـبِ عليها ومُبَادَرَاتِ العمل اللّازمــة، واتّفَقْتُ معهم في أنّ عَدَداً من المُعَوِّقَاتِ يَرْتَبِطُ بطبيعَـةِ «التّرْكيبة الثَّقافيّة» السّائِدَةِ في المُجْتمع، وحَدَاثَةِ «التَّجْرِبَةِ العِلْميّة والتّقْنيّة» في حيَـاة النّاس، وصُعُوبَةِ المُعْطياتِ الفِكْريّة والعِلْميّة والتّقنيّة وصَرَامَتِهَا، ولكنّي اكْتَشَفْتُ - أيضاً - أنّ العَقَبَةَ الأولى الكَأْدَاءَ هي في أنْ يَتَغَلَّبَ الإعْلاميون أنْفسهم على تلك الهَوَاجِسِ والمَخَاوِفِ، ويتجاوزوا سَيْطَرَةَ «الثَّقافة الأدبيّة» المُتَمَكِّنَة من عُقُولِهِمْ ووِجْدَانِهِمْ، ويتأَقْلَمُوا مع مُتَطَلَّبَاتِ «الفِكْر العِلْميّ»، ويُقْبِلُوا على تَأْسيسِه وتَفْعيلِه دون تَهَيُّبٍ أو حساسيّة.

أدْري أنّ (النَّاس أعْدَاء ما جَهلوا)، ولكن عندما يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بقضايا مصيريّة، فإنّ كُلّ الجُهُـودِ يَنْبَغِـي أنْ تُبْذَلَ للتّغلُّبِ على تلك العُقَدِ النّفْسيّـة والعَقَبَاتِ المِهْنيّة والظُّرُوفِ

المُجْتمعيّــة، وأنْ تَتَّجِهَ لفَتْحِ المجــال أمام قُدْرَاتٍ جديدةٍ قَادِرَةٍ على أنْ تتعامل مع قضايا القَـرْنِ الواحد والعشرين، وأنْ تَسْعَى إلى إعْدَادِ كفــاءاتٍ وَاعِيةٍ، وتَهْيئتِها لخَوْضِ «عَوالِمِ الإعْــلام العِلْميّ»، والتّعامُلِ معها بحِرَفِيّةٍ وجِدِّيَّــةٍ؛ وأمّا الوَاقِعُ الحزينُ فيُؤكِّدُ أنّنا سنَتْعَبُ في البَحْثِ عن تلــك المُؤَسَّسَةِ الإعْلاميّة التي يَتَوَافَرُ لها قِسْمٌ جَادٌّ لـ«الصِّحَافَة العِلْميّة»، وسيعــودُ البَصَــرُ خَاسِئاً وهــو حسير. ولعــلّ الزَّمن كفيــلٌ بإقْحَــام الإعْلاميّين وغيرهم فــي «بَوْتَقَــةِ القَرْنِ الواحــد والعشرين»، ولكن هــل لدينا ذلك الوَقْت في زمــنٍ نَخْسَرُ فيه يوميّــاً نتيجةً لتفــوُّقِ الآخَرين المُتَسَارِعِ؟. وهكذا يَبْقَى سُؤالُ «الإعْــلام العِلْميّ» حَائِراً مع الإعْلاميّيــن وبينهــم!؛ وبالرّغم من أنّنــي أُدْرِكُ أنّ وِزْرَ قضيّة «الثَّقافــة العِلْميّة» تتحمَّلُهُ أطْــرافٌ عديدةٌ في القِطَاعَيْنِ الخاصّ والعامّ، إلاّ أنّنــا نَتَحَدَّثُ هنا عن «قضيّةٍ إعْلاميّةٍ» بامْتيازٍ، ومن المُتَوَقَّعِ أنْ يَحْمِلَ الإعْلاميّون شُعْلَةَ الرِّيادَةِ فيها!.

٨-٢-٢- د) التّلاؤمُ بين «التَّعليم» و«الإعْلام»:

من الطَّريفِ أنْ نَرْصُدَ – أحْياناً – حالةً من «تَبَادُلِ اللّوم» بين «أَهْلِ الإعْلام» و«أَهْلِ التَّعْليــم»؛ فيلومُ الإعْلاميّــون «التَّعْليم» لتَقْصِيرِهِ في تَهْيئة «الجُمْهُــور» للتّفاعُلِ مع قضايا أكْثَــر جِدِّيّةً وأشدَّ الْتِصاقاً بتحدّيات «التّنْمية»، ويُســارِعُ التّرْبويّون للوم «الإعْلام» لتَأْثيرِهِ الكَاســحِ، حيث يرون أنّه يَهْدِمُ مــا يَبْنُونَ، ويُقَوِّضُ ما يُشَيِّــدُونَ. وأمّا الحقيقةُ المُرَّةُ فهي أنّ الطَّرفَيْــنِ مَلُوْمَــان، وأنّ كِلَيهما مُقَصِّــرٌ؛ فـ«الثَّقافةُ التَّنْمَويّةُ» تَحْتَــاجُ إلى تعاضُدِهِما، وتكامُلِهمــا، وتفاعُلِهما؛ لأنّهمــا المُحَرِّكَانِ الرّئيسانِ لآليّات «الثَّقافــة» وبرامِج «التّنْمية»، وتَقْصيــرُ أيٍّ منهما في هذا المجال يُعَرْقِلُ حركة الآخَر، ويُبْطِئُ أداءه، ويُضْعِفُ فَاعِليّته. إذا كانــتْ المضاميــنُ فــي «التَّعْليم» مُهِمّــةً لصِناعة المُواطِــن القَادِرِ علــى الإسْهَام في «التّنْميــة»، فــإنّ «الإعْــلامَ» يَشْتَرِكُ في تلك الخصائِــص، فهو ليس مُجَــرَّدَ وسائل فَنِّيّةٍ، وأدواتٍ عمليّةٍ، واعْتبارات مِهَنيّةٍ، ومَواهِب ذاتيّةٍ، ومهاراتٍ شَخْصِيّةٍ؛ فكُلُّ ذلك خَواءٌ إذا لم يَحْمِلْ مَضْموناً ولم يَخْدِمْ هدفاً، وبطبيعة الحال، قد يكونُ المَضْمونُ غَثّاً رَثّاً، وقد يكونُ الهــدف سقيماً مُتَهَالِكاً. ولذا فإنّ «الإعْلام» الذي يتبنَّــى نظريّة «الجُمْهُور عايز كِدَه» هو

«إعْلامٌ مُفْلِسٌ» بكُلِّ المقاييس، إضافةً إلى أنّه «إعْلامٌ جاهِلٌ» بوَاقِعِ «المُجْتمعات العربيّة» وحاجاتها؛ فلقد بَرَزَتْ شرائحُ مُتناميةٌ ذات توجُّهاتٍ علْميّةٍ، ومهاراتٍ تقنيّةٍ، واهْتماماتٍ مَعْرفيّةٍ، وهي من ضمْن «الجُمْهُور» الذي يَنْبَغي التّفاعُلُ مع مُمَارَسَاتِه واهْتماماته وقضاياه. وأمّا الحقيقةُ الثّابتَةُ، فهي أنّ «الإعْلام» الذي لا يَسْتطيعُ أنْ يَسْتَوْعِبَ دَوْرَهُ الرّياديّ في صِنَاعَةِ «مُسْتقبَلِ الأُمّة»، ويَفْشَلَ في الارْتِقَاءِ بالمَدارِكِ والمعارِف، ويُصِرَّ على مُواصَلَةِ جُهُودِهِ في تَكْريسِ إثاراتٍ حِسّيَّةٍ، أو توجُّهاتٍ مَشْبُوهَةٍ، أو انْفعالاتٍ آنيّةٍ، أو تَسْطيحٍ ثقافيٍّ؛ فإنّه يَحْرِمُ مُجْتمعه من تَأْسيس «البِنْيَة التَّحْتيّة» اللاّزمة لاسْتيعاب تغيُّراتِ «العَصْرِ» ومُعْطياته، ويَمْنَعُ شبابه من الانْطلاق في آفاق «الفِكْر العِلْميّ» الرّحْبة، والتّطْوير الذّاتيّ، والتّأْهيل التّنْمَويّ، ليَجْثُمَ على ساحة «الإعْلام العربيّ» ذلك السُّؤال القاسِي الذي طَرَحَهُ محمد الرميحي: (هل يُقَدِّمُ لنا إعْلامُنا «تَنْمِيَةً» أمْ «تَعْمِيَة»؟)[١٠٤].

إنّ توظيفَ «وسائل الإعْلام» في بَثِّ «الثّقافة العِلْميّة»، وتَرْويجِ قِيَمِ الإنْتاج، أَضْحَى عُنْصُراً مُهمّاً في اسْتراتيجيّات كثيرٍ من الدُّول؛ فتَكْريسُ «وسائِل الإعْلام» لجُزْءٍ من طاقاتِها وجُهُودِهَا لقضايا «العلوم والتّقْنية»، والاهْتمامُ بـ«الإعْلام العِلْميّ»، وتَبْسيطُ العلوم وتوفيرُها لأوسع القِطَاعَاتِ بين «الجُمْهور»؛ كُلُّها تَعْمَلُ على تَأْسيس «ثقافةٍ جديدةٍ» في المُجْتمع، وتُسْهِمُ في تَشْكيلِ «العَقْلِ المُعَاصِرِ»، وتَبْنِي - وبشَكْلٍ تَدْريجيٍّ - نَمَطاً تراكُميّاً وسُلُوكيّاتٍ جديدةٍ ومُمَارَسَاتٍ تَتَّفِقُ مع مُقْتضياتِ «التّنْمية» وشُرُوطِ «مُجْتمع المَعْرِفة»، كما أنّ لها «دَوْراً حيويّاً» في رأْيِ فلاح سعيد جبر لا يَكْمُنُ فقط: (في تَطْوير التّكنولوجيا المحليّة، ولكن على المدى الطويل في تَحْديدِ مُواصَفَاتِ التّكنولوجيا المَرْغُوبِ في اسْتيرادِها وكيفيّةِ اسْتيعابِها وتَطْويعِها وتَطْويرِها)[٧٥].

٨-٢-٣) «التّعْريبُ» و«النّشْرُ العِلْميّ»:

في خِضَمِّ الانْتِهاكَاتِ اللّغويّةِ والانْسياقِ الأعْمَى إلى لُغَاتٍ أجنبيّةٍ، سَواءً على صعيد التّعْليم أو التّعامُل، وفي إطَارِ الإهْمالِ الذي يَبْدُو مَقْصُوداً في بعْض الحالات، فإنّ من حَقِّ «لُغَةِ الضّاد» أنْ تَصْرُخَ بأعْلى صوتِها وتَسْتَغِيثَ!. إنّ السّاحةَ - بأشْكالِها الإعْلاميّة

والتّعْليميّــة والحياتيّة والعمليّة – تَضِجُّ بالهَجَمَاتِ على «اللّغَةِ الأُمّ»، حيث انْتَشَرَ اسْتِخْدَامُ اللّهَجَـاتِ العاميّـة، وراحـتْ وَسَائِلُ الإعْـلام، وبالذّات القَنَـواتُ الفضائيّـة، تتسابقُ إلى إضْعَـافِ «اللّغة العربيّـة» واسْتِخْدَام اللّهَجَاتِ المحليّـة، وأَصْبَحَ التّطَـوُّرُ مُقْتَرِناً باللّغات الأجنبيّـة فـراح بعْضهم يتسابـقُ إلى التّفَاخِـر بالتّحدُّث بهـا، والتّباهـي بمُصْطلحاتِها ومُفْرداتِهـا، وكأنّ «اللّغــة العربيّة» – بتُرَاثِهَا الضّخْـم ومُفْرداتِها المُتَنَوِّعَـةِ ومُترادِفاتِها المُتَعَـدِّدَةِ – عَجَـزَتْ عن اسْتيعاب تلـك المعاني، أو التّعْبير عن تلـك الأفْكار، أو مُسايرة «شُرُوط التّطَوُّر»!.

إنّ قضيّــةَ «تَعْريــب العلوم» – تَأْليفــاً وتَرْجَمَةً –، كمُعْظم قضايانــا في «المُجْتمعات العربيّــة»، هي قضيّةٌ قديمةٌ جديـدةٌ، وهي قضيّةٌ تَفْرِضُ نفْسها باسْتمـرارٍ وإلْحَاحٍ؛ لأنّها مُرْتبطةٌ بأبْرز التّحدّيات التــي تُجَابهُ الأُمّةُ العربيّةُ، وهو «التّحَدِّي العِلْميّ – التّقنيّ»؛ ولذا نجـد أنّ قضيّــة «تَعْريــب العلوم» قد بَــرَزَتْ منذ اللحْظة التــي شَعَرَتْ فيهــا «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» بضَرورة الأَخْذِ بأسْبَابِ القُوّةِ والنّهْضَةِ المُتَمَثِّلَةِ في «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة». لقــد كان السُّــؤالُ، وما زال، هو: (هل تَسْتطيــعُ الأُمّةُ أنْ تَسْتَوْعِبَ «العلــوم الحديثة»، وأنْ تُوطِّنَ «التّقْنية»، وأنْ تتفاعلَ مع مُقوِّمَاتِ «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة»، وأنْ تُبْدِعَ في رِحَابِهَا، إذا لم تكنْ لُغَتُهَا عُنْصُراً رئيساً وجوهريّاً في بَوْتَقَةِ التّفاعُلِ والتّلاقُحِ والإبْدَاع؟).

لقــد شَغَلَ هــذا السُّؤالُ بال أصْحَــابِ القَـرَار والنّهْضَويّين والتّنْمَويّيــن والتّرْبويّين والمُفكِّريــن من مُخْتلف المَشَــارِبِ والاهْتمامات، وانْقَسَمَ فيه سَـوَادُ النّاس إلى فريقَيْن: أوّلُهمــا يرى أنّ الأولويّة هي لصَهْرِ «العِلْـم والتّقْنية» في البَوْتَقَةِ الثّقافيّةِ والفِكْريّة للأُمّة، ولأنّ «اللّغة» هــي «وِعَاءُ الفِكْر»، و«أداةُ التّواصُل والتّفاعُل»، فإنّه لا يُمْكِنُ تَحْقيق «النّهْضَة العِلْميّــة» دون جَعْـلِ «اللّغــة» وسيلــة التّعَلُّـمِ والتّخَاطُـبِ والتّواصُلِ والتّفْكيـرِ في مجالات «العِلْـم والتّقْنيــة»؛ ولذا أَصَرّ هذا الفريق على أهميّة أنْ تجــد «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» طريقها إلى ذلك «الوِعَاءِ الفِكْريّ – اللّغويّ – الثّقافيّ». ويَخْلُصُ أصْحاب هذا الرّأي إلى أنّ اسْتِخْـدَامَ لُغَاتٍ أَجْنبيّةٍ فــي تَدْريسِ «العلوم والتّقْنية»، ومُناقَشَــةِ الأفْكار والنّظريّات والطُّرُوحــات العِلْميّــة، هو – فــي الوَاقِع – تَفْريغٌ لـ«اللّغــة العربيّة» مــن «المُحْتَوى العِلْميّ

والمَعْرفـيّ» المُعَاصِـر؛ ممّـا يَجْعَلُها تَنْزَلِـقُ - تدريجيّـاً -، لتُصْبِحَ فقط «لُغَـةَ التُّرَاثِ»، وليستْ لُغَـةً مُنْتِجَةً لـ«العِلْمِ الحديث»، ومُتفاعِلَةً مع مُعْطيـاتِ «العَصْرِ» ومُشْكلاتِه. ووفْقَ هـذا الـرّأي، يُصْبِحُ «التَّحَـدِّي المَعْرفـيّ المُعَاصِر» الـذي يُجَابِهُ «المُجْتمعـاتُ العربيّةُ» عِبَارَةً عن تَحَدِّيَيْن، وكأنّ تَحَدِّياً وَاحِداً لا يَكْفينا!؛ فهناك «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» بكُلِّ تخصُّصاتِـه ونُمُوِّه المُتَسَـارِعِ المُذْهِلِ، وهناك «التَّحَدِّي اللّغَوِيّ» بـكُلِّ شُرُوطِهِ ومُعَوِّقَاتِه. وأمّـا الفريقُ الثّاني فيَبْدُو أنّه على عَجَلَةٍ من أَمْرِه، فهو يرى أنّ الاهْتمام بدَمْجِ «اللّغَة» في التّفاعُلِ العِلْميّ «تَرَفٌ ذِهْنِيٌّ» لا يُسْعِفُنَا الوَقْتُ للسَّمَاحِ به، ويرى هذا الفريق - في أحْسنِ الأحْـوال - تَأْجيـل تلك «المُهِمَّـةِ اللّغَوِيّةِ» إلـى أنْ يَتِمّ اكْتسابُ «العِلْـم والتّقْنية»، وبعْد أنْ يُصْبِحَ للأُمّة العربيّة حُضُورٌ قويٌّ ومُؤَثِّرٌ على السّاحة العِلْميّة.

عبْـر التَّأَمُّلِ المُتَأَنِّـي لمَوقِفَيْ الفريقَيْن يَتَّضِحُ أنّ الفريق الثّانـي يُهْمِلُ - في عَجَلَتِهِ لتَحْقيـقِ «التّنْميـة» وهَرْوَلَتِهِ نحـو تَكْثيفِ «الحركـة العِلْميّة» في «المُجْتمعـات العربيّة» - الحقيقـةَ الثّابِتَةَ عـن دَوْرِ «اللّغَةِ» في حياة الأُمّـة؛ فهي «وِعَاءُ الفِكْرِ» القَـادِرِ على تَشْكيلِ المفاهيـم وبَلْوَرَةِ التّفاعُلاتِ وتَعْميقِ الرُّؤى؛ فـوفْق نبيـل علي[99]، فإنّ: (الثّقافة محْوَرُهَا اللّغَـة)، وبالتّالي هـي (تَقَعُ في قَلْـبِ مَنْظُومَةِ الثّقافة)، وكما يقـولُ محيي الدين صابر، فـإنّ: (اللّغَـة هي مَنَـاطُ الثّقافـة فـي كُلِّ معانيها، فهي التـي تُحِيـلُ التَّصَوُّرَ إلـى فِكْرٍ، تَعْبيـراً عنـه، وتُحِيلُ الفِكْرَ إلى عمـلٍ، تَفْسيراً له)[18]. مـن المُهِـمّ - إذاً - أنْ نُدْرِكَ أنّ القضيّـة ليستْ سَهْلَةً، وهي أبْعَـدُ ما تكون عن تلك الحُلُولِ السّريعـة المُرْتَجَلَةِ التي نُهْرَعُ إليهـا عادةً؛ فالإشْكَاليّةُ تَكْمُنُ في طبيعة العَلاقَةِ بيـن «العِلْم» و«اللّغَةِ» وما يُحِيطُ بها من تداخُـلاتٍ فِكْريّةٍ، وتفاعُلاتٍ ثقافيّةٍ، وتحدّياتٍ حضارية. إنّ القضيّة ليستْ قضيّة تَعْريبِ مُصْطلحاتٍ، أو تَرْجَمَةِ بُحُوثٍ، أو تَأْليفِ مَرَاجِعِ، وإنْ كان كُلُّ ذلك مُسَانِداً ومُهِمّاً، ولكنّها أَعْمَقُ بكثيرٍ وأشدّ تَعْقيداً، فهي قضيّةٌ تَرْتَبِطُ بوجود «العِلْم» في «التَّرْكيبة الثّقافيّة» وجوداً طبيعيّـاً ومُتَنَاغِماً ومُنْسَجِماً مع «رُوحِ العَصْر»، ومُتَوَافِقاً مع «حَرَاكِ المُجْتمع» وتفاعُلاتِه، وهـذا «الشَّرْطُ الثّقافيّ - المُجْتمعيّ» لن يَتَحَقّـقَ إلاّ إذا أَصْبَحَتْ «اللّغة العربيّة» حَاضِنَةً لـ«العِلْم»، ومُوَاكِبَةً له بطلاقةٍ وتِلْقائيّةٍ وحماس.

فـي خِضَمِّ الانْدفاع نحـو «العَوْلَمَةِ»، وهُمُـوم «التَّنْمية»، وتحدّيـاتِ «العَصْر»، تغيبُ الجِدِّيَّـةُ في تعامُلنـا مع قضايا «اللّغة العربيّـة» وهُمُومِها، سَواءً كان ذلـك على الأَصْعِدَةِ التّعْليميّـة أو الإعْلاميّة أو الثّقافيّة، وننسى، أو نتناسى، أنّ كثيراً من تلك الإشْكالات تجد جُذُورَهَـا في إغْفالِنا للـدَّوْرِ الجوهريّ الذي تُؤدِّيـه «اللّغَةُ» في حياة الأُمَـم؛ فالتّفاعُلاتُ المُجْتمعيّـة، والإرْثُ القوميّ، والفِكْرُ المُتَجَذِّرُ في كِيـان الأُمّة، وركائِزُ «مُجْتمع المَعْرفة»؛ كُلُّهـا تَلْتَفُّ حول قضيّـة «اللّغَة الأُمّ»، فهي التي تَسْتطيعُ أنْ تَلُـمَّ الشَّمْلَ، وتُؤصِّلَ الحماس، وتُغَذِّي الفِكْرَ، وتُؤسِّسَ الإبْدَاعَ، وتَحْمِي الهُوِيّةَ؛ وكُلُّها شُرُوطٌ لازِمةٌ لنَهْضَةٍ حقيقيّة.

٨-٢-٣- أ) «الشَّرْط اللّغوِيّ» لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»:

مـن المُهِمّ أنْ نُشيـرَ هنا إلى أنّ إحْـدى أهمّ المُشْكلات التـي تُعَانِي منها «الحركة العِلْميّـة – التّقنيّة» فـي «المُجْتمعات العربيّة»، هي غُرْبَتُهَا عـن «الثّقافة السَّائِدَة»، وعدم قُدْرَتِهَا على التّغَلْغُلِ في نسيج البيئة وخلايا «الفِكْرِ الجَمْعيّ» للأُمّة، فتظلُّ عُضْواً مَرْفُوضاً مـن الجَسَد، وهَامِشيّاً فـي التّأْثير. ولذا فـإنّ «الفَجْوَةَ» بين «الحركـة العِلْميّة – التّقنيّة» وبيـن «المُجْتمعات العربيّة» هي في ازْديادٍ بسبب غِيَـابِ دَوْرِ «اللّغَة» التي هي أساسٌ لازِمٌ لنَشْرِ «ثقافـة العِلْم»، وتزْدادُ هذه «الفَجْوَةُ» اتِّساعاً مع نُموّ التّقْنيات الحديثة وتَعْقيداتها، وتَكْبُرُ مـع اسْتِخْدامات «الإنْترنت» وتَطْبيقات «تَقْنية المَعْلومـات». ومن المُؤسِفِ أنْ نرى أنّ أصْحـاب التّخصُّصـات العِلْميّـة والتّطْبيقيّـة هم الأكْثر بُعْـداً عن لُغَتِهِـمْ الفُصْحَى؛ لأنّهـم يَعْتَقِـدُونَ أنّ هـذا الموضوع لا يَقَعُ ضمْـن اخْتصاصاتهم، ولا يَنْضَـوِي تحت إطَارِ مَسْؤولياتِهم، ولا يَتَعَلَّقُ بعلومهم، وهم بذلك يَنْسونَ تماماً أنّ واجبهم الأوّل هو غَرْسُ تلك العلـوم في «اللّغَـة الأُمّ»، لتُصْبِحَ أكْثر اتِّسَاعاً في اسْتيعابِها للكفـاءات، وأعْمق شُمُولاً في احْتضانِها للمَوَاهِبِ، وأكْثر قُدْرَةً على التّغَلْغُلِ في «نسيج المُجْتمع» وخلاياه الفَاعِلَة.

إنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» ليس «مُجْتمعاً نُخْبَوِيّاً» تَمْتَلِكُ فيه النُّخْبَةُ أدواتِ «العَصْر» وطُرُقَ التّعامُلِ معه، وتُخاطِبُهُ بلُغَةٍ مُهَيْمِنَةٍ عَالَميّةٍ – أيّاً كانتْ هذه اللّغَة –، ولكنّه «مُجْتمعٌ شَامِلٌ» قَادرٌ على أنْ يتفاعل – بلُغَتِهِ وثقافتِهِ وهُوِيّتِه – مع مُعْطيات «العَصْرِ» ومُسْتَجِدَّاتِ «المَعْرِفَة»،

بحيث تُشارِكُ جميع الشَّرَائِح ومُخْتلف الفِئَاتِ في اسْتيعابِ «المَعْرِفَة» وإنْتاجِها؛ ممّا يَضَعُ «شَرْطــاً لُغَوِيّاً» على «عمليّة التَّحَــوُّلِ» إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة». إنّ «اللّغَــةَ الأُمّ» هي الوسيطُ الوحيــدُ القادِرُ على تَأْسيس «مُجْتمع المَعْرِفَة» والنُّهُوضِ بمُكَوِّنَاتِهِ المُخْتلفة[٧٨،٩٦]، وهذا مــا يُؤَكِّــدُه «التَّقْريــرُ العَالَميّ لليونسكــو»[٨٣] - الصّادر في عــام ٢٠٠٥ م - بقوله: (يجب علــى «مُجْتمع المَعْرِفَة» أنْ يَتَمَكَّنَ من دَمْجِ كُلِّ فَرْدٍ من أعْضائه والنُّهُوضِ بأشْكَالٍ جديدةٍ مــن التّضامُن. يجب أنْ لا يكون هنــاك مُسْتَبْعَدُونَ فــي «مُجْتمعات المَعْرِفَة»، طالما كانَتْ «المَعْرِفَةُ» مِلْكِيّةً عامّةً يَنْبَغِي أنْ تكون مُتَاحَةً لكُلِّ فَرْد).

مــن ذلك «المُنْطلــق العمليّ» البَحْت، قبْــل أيِّ اعْتبارٍ آخَر، يُصْبِحُ مــن أهمّ شُرُوطِ الوُلُــوجِ إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة» هو أنْ تكون «اللّغة العربيّة» قِوَامَ «الحركة العِلْميّة» وعِمَادَهَا فــي «المُجْتمعات العربيّــة»، وأنْ تتفاعلَ بحيويّةٍ مــع مُعْطيات «العَصْــرِ» وتَجَلِّيَاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ»، فلا يجوزُ بحالٍ نَفْيُ «اللّغة العربيّة» إلى خَارِجِ «العَصْر»، وإقصاؤها عن عمليّات «التَّحَوُّل الكُبْــرى» على طريق «مُجْتمع المَعْرِفَة». ويَدْعَمُ «التَّقْريــرُ العَالَميّ لليونسكو»[٨٣] قضيّــةَ «الحِفَاظِ على اللّغَاتِ الأصْليّة» لـ«مُجْتمعــات المَعْرِفَة النَّاشِئَة»، ويتصدَّى لحالات تَــرَدِّي أحْوال هذه اللّغَاتِ بحُجَجِ هَيْمَنَــةِ «اللّغَاتِ النَّاقِلَة للمَعْرِفَة» فيقــول: (إنّ التَّصَدِّي لتآكُلِ التَّنَوُّعِ اللّغَوِيّ، والتَّسَلُّحَ بوسائل لكَبْحِ انْطِفَاءِ لُغَاتٍ أصْليّةٍ، أو الارْتِقَاءِ بتعدُّديّة اللّغَاتِ النَّاقِلَــةِ الوَاسِعَــةِ الانْتشار، ليس نِضَالاً من أجل قضيّةٍ نوسْتالجيّــةٍ خَاسِرَةٍ مُقَدَّماً، بَلْ هو اعْتِرَافٌ بأنّ اللّغَات هي أدواتٌ مَعْرِفيّةٌ ونَوَاقِلٌ ثقافيّةٌ وبِيئَةٌ تَكْوينيّةٌ لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة» يُشَــكِّلُ التَّنَوُّعُ والتَّعَدُّدُ بالنِّسْبَةِ إليها ثَراءً ومُسْتَقْبَــلاً). وفي أكْثر من مقامٍ يُعَزِّزُ «التَّقْريرُ العَالَمــيّ لليونسكــو»[٨٣] أهميّة العِنَايَةِ باللّغَاتِ الأصْليّة للسُّــكّانِ، ودَمْجِهَا في «التَّفَاعُلاتِ المَعْرفيّــة»، ويقــول: (إنّ مَسْأَلَــةَ مُسْتَقْبَلِ اللّغَات ستكون على جــدول الرِّهانات الرّئيسيّة لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة»؛ فالتَّنَوُّعُ اللّغَوِيّ مُهَدَّدٌ فِعْلاً إذْ أنّ من المُحْتمل أنْ يَخْتَفِيَ من السّتة آلاف لُغَةِ المُسْتَعْمَلَة حاليّاً نِصْفُهَا من الآن وحتى نهاية القَرْنِ الواحد والعشرين)، ويُؤَكِّدُ التَّقْريرُ على أنّه: (تظلُّ اللّغَاتُ الأصْليّةُ الوسيلةَ الرّئيسيّةَ للتَّعْبير عن التَّطَلُّعاتِ والرَّغَبَاتِ الحميميّــة والعَوَاطِف وعن الحياة المحليّة فهــي «المُسْتَوْدَعُ الحَيُّ للثَّقافات»، وفي السِّيَاقِ

العامّ لتَعْزيزِ «التَّعَدُّدِ اللّغَويّ» لا يُوجَدُ - بالضّرورة - تناقُضٌ بين تَشْجيع «اللّغَاتِ النَّاقِلَةِ» مِثْل الإنْجليزية التي قد تُسْتَعْمَلُ للنّفَاذِ إلى التّكنولوجيّات الجديدة، والإبْقَاءِ على اسْتعمالٍ نَوْعيٍّ للُّغَاتِ الأُمّ).

٨-٢-٣- ب) مُعْجِزَة التّرْجَمَة:

ممّــا سَبَقَ من اعْتبارات حيويّــةٍ، نجد أنّ «حركة التّعْريب» - فــي المجالات العِلْميّة والتّقنيّــة - قضيّةٌ مــن أهمّ قضايا «الثّقافــة العِلْميّة» لتَحْويلِ «العلــوم الحديثة» إلى وَاقِعٍ فِكْريٍّ وثقافيٍّ واجْتماعيٍّ، وتَأْصيلِها في «الثّقافة العربيّة»، وتَرْسيخِهَا في «نسيج المُجْتمع»، وإثْــرَاءِ «اللّغة العربيّة» بـ«المُصْطلحــات العِلْميّة والتّقنيّة»، لتَسْتَجيــبَ لطبيعة التَّحدِّيات التــي تَفْرِضُهَا «الحركــة العِلْميّة - التّقنيّة»، وتُوَلِّدُهَا مُقْتضيــاتُ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهذا مــا يُؤَكِّدُهُ نبيل علي[٩٩] بقوله: (إنّ اللّغَةَ هــي مَدْخَلُنَا لتَهْيئَةِ المُجْتمعات العربيّة وتَحْويلِهَا إلى مُجْتمعــاتٍ مَعْلُوماتيّة)، ويُواصِلُ ليقول: (إنّ «تَعْريب العلــوم» يُعَدُّ خُطْوَةً مُهمّةً للغاية لتَنْميــة المهارات الذِّهْنيّة وتَوثيقِهَا). وأمّا عبد العزيــز السّماري، فيرى أنّ حَصْرَ «اللّغة العربيّــة» فقط في «تَعْليم الدِّيــن والشَّريعة» يُؤَدِّي إلى: (تَقْسيم وَعْــي المُجْتمع إلى دِينيٍّ وغيــر دِينيٍّ، وهو حَاصِلٌ بالفِعْل، فالمُغَيَّبُونَ عن «العلوم الحديثة» بسبب «الفَجْوَة اللّغَويّة» يَظَلُّون مُتَقَوْقِعينَ في ثقافةٍ مَحْدُودَةٍ، وعَاجِزينَ عن فَهْم النُّخَبِ الاجْتماعيّةِ في المجالات الأُخْــرى، والتــي تَلَقّتْ تَعْليمها الحديــث باللّغة الإنْجليزيّة دَاخِلَ أو خَــارِجَ الوطن، وهو ما قــد يُؤَدِّي إلى الانْقسام، وإلى وجود طَبَقِيّةٍ مَعْرفيّــةٍ، لا تَلْتَقِي إلاّ في أشْياءٍ مَحْدُودَةٍ، لكن تَخْتَلِفُ في الرّأي بشِدّةٍ؛ نظراً لاخْتلاف المَرْجِعيّة اللُّغويّة أو الحضاريّة)[١٠٥].

ومــن المُهــمّ أنْ نسوق هنــا رأْي زكــي نجيب محمود في هــذا الشّــأْن، حيث يقول: (إنّ أوضــح مــا يُمَيِّزُ «العَصْرَ» هو «العِلْــمُ» وتكْنياته، هذا أمْرٌ لم يَعُــدْ مَحَلّ خِلافٍ، فإذا صَبَبْنَــا هذا المَضْمونَ العِلْمــيّ بمُمَيِّزاتِهِ في وِعَاءَيْن من عندنا، كانتْ النّتيجة التي نُريد؛ أمّــا الوِعَــاءُ الأوّلُ فهو «اللّغَة»، فانْقُلْ إلــى «اللّغة العربيّة» نِتَاجَ «الفِكْــرِ العَصْريّ» كما هو يُصْبِــحُ هذا النِّتَاجُ عربيّ القَسَمَاتِ والمَلامِح، وأمّا الوِعَــاءُ الثّاني هو قَوَاعِدُ السُّلُوكِ من

تَشْريـع وعُرْفٍ، علـى شَرْطِ ألاّ تتعارض هذه القَواعِدُ مع مـا تَقْتَضيه «عُلومُ العَصْرِ» على اخْتلافِهـا فـإنْ تعارضتـا وَجَبَ الإبْقاءُ على «عُلـوم العَصْرِ» وحَذْفُ مـا تعارض معها من قَواعِد السُّلُوك، وإنّي على يقينٍ بأنّ الأنْمَاطَ السُّلوكيّة الإقليميّة المُحَايدَةَ بالنِّسْبَةِ لأحْكَام «العِلْـم» كَافِيةٌ وَحْدَهَـا أنْ تصون للأُمّة مُمَيِّزاتٍ تُمَيِّزُهَا من سِواها، وبهذا - فيما أتصوَّر - نُسَايـرُ عَصْرَنَا بـ«الفِكْرِ العِلْميّ»، ونُمَيِّزُ أنْفسنـا بـ«اللّغَة» وبهذه الأنْمَاطِ السُّلُوكية التي نَتَفَرَّدُ بها)[٢٠]. وأمّا محمد عابد الجابريّ، فإنّه يرى أنّ «الحَلَّ الطَّبيعيّ» لـ«مُشْكلة اللّغَاتِ المحليّة» يجب أنْ يَمُرّ عبْر «تَعْميمِ العِلْمِ ونَشْرِ المَعْرفة العِلْميّة»، وذلك لأنّ: (لُغَةُ «العِلْم» في الوطن العربيّ، من الخليج إلى المُحيط، لا يُمْكِنُ أنْ تكون إلاّ اللّغة العربيّة، ليس لأنّها كانـتْ كذلـك في الماضـي، وهي كذلك إلى حَدٍّ ما فـي الحَاضِر، بَلْ أيضـاً لأنّ أيّة لَهْجَةٍ دَاخِـلَ الوطن العربيّ لا تَسْتطيعُ أنْ تَتَحَـوَّلَ إلى لُغَةٍ عِلْميّةٍ تطالُ اللّغة العربية، هذا فَضْلاً عن انْتشار هذه الأخيرة واحْتلالها مَكانَةً مَرْمُوقَةً بين اللّغَاتِ الحَيّةِ في العَالَم)[١].

وهكـذا تَتَجَلّى أهميّةُ «التَّعْريبِ» و«النَّشْرِ» في مجالات «الثَّقافة العِلْميّة» على جَبْهَتَيِ «التَّرْجَمَـة والتَّأْليف» لتَعْزيزِ دَوْرِ «اللّغة العربيّـة»، وتَأْصيلِ تَفاعُلِهَا مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّـة»، ودَمْجِ المُجْتمع بمُخْتلـف شَرَائِحِهِ في أبْعَادِهَا الفِكْريّـة والمَعْلُوماتيّة والثقافيّة والتَّنْمَويّـة. إنّ «التَّرْجَمَةَ» لا تَعْني فقط «نَقْـلَ المَعْلُومات» من لُغَةٍ إلى أُخْرى، ولكنّها تقومُ بدَوْرٍ رياديٍّ جَنْباً إلى جَنْبٍ مع نشاط «التَّأْليف» في إذْكاء تفاعُلٍ فِكْريٍّ وثقافيٍّ ومُجْتمعيٍّ يُرَسِّـخُ القُدْرَةَ علـى اسْتيعابِ الوَافِدِ المُفيـدِ وهَضْمِهِ وتَطْويعِهِ - لُغَويّـاً وفِكْريّاً -، ليتهيَّأَ المُجْتمـعُ ثقافيّـاً للتَّعَامُلِ مـع المُسْتَجِـدَّاتِ الحديثة والمُتَغَيِّـرَاتِ المُتَسَارِعَـة؛ وهذا ما يُؤَكِّـدُهُ فلاح سعيد جبر، حيث يـرى أنّ سياسة «تَعْريب العِلْم والتّقْنيـة»: (تُوَسِّعُ القَاعِدَةَ الجماهيريّـةَ التي تتعاملُ مع «العِلْم» في حُقُولِ الإنْتـاج المُخْتلفة، وتُطْلِقُ طاقات الابْتكار والإبْداع لأوسع قِطَاعَاتِ الشَّعْب)[٧٥].

إنّ الحديـث عن «العَوْلَمَةِ»، و«مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتحدِّيات «الأَلْفيّة الثّالثة»، هو - في وَاقِـعِ الأمْرِ - حديثٌ عن طُرُقِ نَفاذِ المُجْتمعِ بمُخْتلف شَرَائِحِهِ إلى «المَعْرِفَةِ المُعَاصِرَة»، وسُبُـلِ اسْتيعابِ «العلوم الحديثة»، ووسائِلِ «توطين التّقْنيات المُتَطَوِّرَة»، وهذا لن يَتَحَقّقَ

بحـالٍ إلاّ بواسطـة «التّرْجَمـةِ» التي تَدْفَـعُ بالمُجْتمع إلـى الانْفِتَاح على مُعْطيـاتِ العَالَم بأسْرِهِ، وتُمَكّنُ كُلَّ الأطْيَـافِ الاجْتماعيّة من التّفَاعُلِ معها ومُوَاكَبَةِ إنْجازاتِها. ولهذا فإنّ مـا وَصَفَهُ بول ريكـور (Paul Ricoeur) بـ«مُعْجِـزَة التَّرْجَمَة»[٨٣] يَبْقَـى وَصْفاً دقيقاً لما تَتَمَخَّضُ عنه هذه العمليّة من نتائـجَ بَاهِرَةٍ عند النّجاح في تَطْبيقِهَـا بانْضِبَاطٍ وجِدّيَّةٍ؛ ممّـا يَسْتَدْعِي الجُهْدَ الجَادَّ لنَقْـلِ «قضيّة التَّرْجَمَةِ» من إطَارِ الطُّمُـوحِ والتَّنْظِيرِ والتَّمنّي إلـى وَاقِعِ التّطْبيقِ والعملِ والإنْجاز، فكما يقولُ عبـد العزيز السّماري: (المُجْتمعُ العربيُّ فـي أمسّ الحاجة لتوحيد الجُهُود العربيّة لإحْياء «بَيْت الحِكْمَة» من خلال مَنْظُومَةٍ عربيّةٍ مُوَحَّـدَةٍ ومُؤهَّلَةٍ للقِيام بتَرْجَمَةٍ فَوْرِيّةٍ لمُخْتلف العلوم، ثمّ تَقْديمها للعامّة وللمُتَخصّصين بلُغَةٍ عربيّـةٍ سَلِسَةٍ، وخُصُوصاً ما يَسْتَجِدُّ في العلـوم الأساسيّة في مُخْتلف التَّخصُّصات العِلْميّـة، وأكاد أَجْـزِمُ أنّ تَكْلِفَتَهَـا الماليّة ستكـونُ أقلّ بكثيرٍ ممّا يُصْـرَفُ على كثيرٍ من الأُمُور الثّانويّة والتّرفيهيّة في حياة الإنْسان العربيّ)[١٠٥].

٨-٢-٣-ج) بين «حِمايَة البِيئَة» و«حِمايَة اللغَة»:

بالتَّأَمُّـلِ في الوَاقِعِ العربيّ، نجد أنّ قضيـة «التَّعْريب» - تَرْجَمَةً وتَأْليفاً - في مجالات «العلـوم والتّقْنيـة» قد لَقِيَتْ إهْمالاً وجُحُوداً كبيرَيْن يَبْلُغَـانِ - في رأْيي - درجةَ الجِنَايَةِ في حَقّ فِكْرِ هذه الأُمّة ومُسْتَقْبَلِ أجْيالِها؛ فـ«التّعْريبُ» هو المِحْوَرُ الرّئيسُ الذي يَقِفُ وراء نجاح برامِجِ «نَقْل التّقْنية وتوطينها»، فلا يُمْكِنُ بحالٍ لأيِّ أُمّةٍ أنْ تُنْجِزَ على صعيد العلوم وتُوَاكِبَ التَّطَوُّرَ التّقنيّ إلاّ إذا أَصْبَحَتْ «الحركةُ العِلْميّةُ» جُزْءاً عُضْويّاً من «النَّسيج الثّقافيّ» للأُمّة، وتفاعلَـتْ - بشَكْلٍ قَـويٍّ - مع مُؤسَّسَاتِهِ وجماعاتِـه وأفْرَادِه. بطبيعة الحَـال، لا يتأتّى هذا الأمْـرُ إلاّ إذا وجـدتْ هذه الحركـةُ جُذُورَهَا في «لُغَةِ الأُمّـة»، وتَرَسَّخَـتْ مَعَالِمُهَا في «بِنْيَةِ المُجْتمـع»، وبذلك يَتَحَقّقُ ما أشار إليه عبد العزيـز التويجري بقوله: (وفي جميع الأحْوال فـإنّ اللّغـة العربيّة تَحْتَاجُ مِنّـا إلى تضافُرِ جُهُودِنَـا لخِدْمتِها ولتَجْديدِهـا، ولتوفيرِ أسْباب النُّهُوضِ أمامها، لتكـون لُغَةَ الحياة وليستْ لُغَـةَ الكُتُبِ التي نُسَطِّرُ، ولُغَـةَ المُسْتَقْبَلِ الذي نصوغُهُ بعملنا المُشْتَرَكِ في المجالات كافّة، وليستْ لُغَةَ الماضي الذي نَزْهُو به)[١٠٦].

مـن ذلك المُنْطَلق، فإنّه يَنْبَغِي أنْ لا نَسْتَغْرِبَ من المَوقِعِ الخَجُولِ الذي تَحْتَلُّهُ «الأُمّة العربيّة» على خريطـة «التّنْمية والمَعْرفة والعلوم والتّقْنية»، فهو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لإهْمَالٍ طويلٍ لقضيّـة «التَّعْريب والنَّشْر العِلْميّ»، حيث أَمْضَتْ مُؤَسَّسَاتُنَا التّعْليميّة والثّقافيّة والإعْلاميّة عُقُـوداً من الزَّمنِ تتباكى عليها، وتَتَغنّى بهـا في كُلِّ مُنَاسَبَةٍ ومَحْفَلٍ، وتَخْطُبُ وِدَّهَا في كُلِّ مقامٍ ومقالٍ، ولكن العطاء بَقِيَ هزيلاً ومُشَتَّتاً في جامعاتِنا ودُورِ نَشْرِنَا وفعّاليّاتِنا الثّقافيّة واهْتماماتِنـا الفِكْريّة، مُؤكِّداً بذلك حالاً مُزْرِياً من البُؤسِ الفِكْريّ والعَجْزِ المَعْرفيّ والتِّيهِ التّنْمَـويّ؛ وهذا مـا يُؤَكِّدُهُ عبد العزيز التويجـري بقوله: (إنّ النُّهُوضَ باللّغة العربيّة من النّواحـي كافّةً يجبُ أنْ يَتَصَـدَّرَ أولويّات العمل العربيّ المُشْتَـرَك على جميع المُسْتويات. ولا أقولُ العمل العربيّ الثّقافيّ التّعْليميّ فحسبْ، بَلْ أقولُ العمل العربيّ العامّ على مُخْتلف الأصْعِـدَة، لأنّ النُّهُوضَ باللّغة ليس مَسْأَلَةً ثقافيّةً، ولا هـي مَسْأَلَةٌ تَرْبويّةٌ تَعْليميّةٌ فحسْب، وإنّما هي مع ذلك مَسْأَلَةُ السِّيادَةِ والأمْنِ والاسْتِقْرَارِ والمصير)[١٠٦]. وأمّا الحقيقةُ الثّابتَةُ، التـي تُكَرِّسُهَا التَّجَارِبُ الماضية على مدى قَرْنَيْن، فهي أنّنـا سنظلُّ نراوحُ مكاننا، ونَجْتَرُّ أحْلامنـا، مـا لم نُحْدِثْ تلك النّقْلَـةَ الثّقافيّة والفِكْريّة - نَوْعاً وكَمّاً - فـي كِيانِنا التّعْليميّ والاجْتماعـيّ والإعْلاميّ عبْر توظيـفِ «الثّقافة العِلْميّـة» بأشْكَالِهَـا المَعْلُوماتيّة والثّقافيّة والفِكْريّـة والتّنْمَويّة، وغَرْسِهَا في نسيج الحياة ومسـار المُسْتَقْبَل، ومن الوَاضِحِ أنّ «اللّغَةَ الأُمّ» هي أداةُ «الثّقافة العِلْميّة» ووسيلتُها ووعاؤها للتَّغَلْغُلِ في «خلايا المُجْتمع» ومُكَوِّنَاتِه.

عندما تَتَحَدَّثُ «أدبيَّاتُ التّنْمية» عن «التّنْمية المُسْتَدَامَة»، وتَضَعُ «الاعْتبارات البيئيّة» على رَأْسِ القَائِمَةِ، حيث يُهَيْمِنُ الحِرْصُ على تَرْشيد اسْتِخْدَام «المَوارِد الطّبيعيّة» لضمان بقائِها واسْتمرارها لأجيالٍ مُتتاليةٍ عبْر السّعي الدّائم لتَطْويرِ نَوْعِيّة الحياة الإنْسانيّة، مع الأَخْذِ في الاعْتبار «قُدْرات النِّظَام البيئيّ» الذي يَحْتَضِنُ الحياة وإمْكَانَاتِهَا، فإنّه لا يُمْكِنُ إغْفَـالُ «الجَانِب الثَّقافيّ والمُجْتمعـيّ» في تَأْسيسِ تلك المَنْظُومَـةِ المُتَنَاغِمَةِ وتَطْويرِها؛ فتفاعُـلُ الإنْسان مع «المَنْظُومَةِ التّنْمَويّة»، وانْسِجَامُـهُ مع مُقْتضياتِها الفِكْريّة والمعيشيّة والثّقافيّـة والبِيئيّة، وتَكَيُّفُـهُ مع مُقَوِّمَاتِهَا العِلْميّـة والعمليّة، وقُدْرَتُهُ علـى تَطْويرِ أدواتِها وتوظيـفِ مُعْطياتِها على الصّعيـد المحليّ المُبَاشِر؛ كُلُّ ذلك - فـي نهاية المطاف - هو

العُنْصُرُ الذي يُحَدِّدُ نجاح «التّنْمية» واسْتمرارها. ولذا فإنّنا إذا كنّا نَحْرِصُ على حِرَاسَةِ «مَنْظُومَـةِ التّنْمية المُسْتَدَامَة» وتَطْويرِهَا عبْر برامِج «حِمَايَـة البيئة»، فإنّ «حِمَايَةَ اللّغَة» تَقَعُ حَتْماً ضمْن تلك الشُّرُوطِ والمُتَطَلَّبَاتِ والبرامِج؛ لتَأْمين التّفاعُلِ الكَامِلِ بين مُكَوِّنَاتِ المُجْتمـع، واسْتقطـابِ جُلّ طاقاتـه ومَوَاهِبه، والتّوظيـف الأشْمل للإمْكانـات والمَوَارِد، والحِفَاظِ على المُقَوِّمَاتِ الفِكْرِيّة والتُّرَاثيّة.

إنّه من المَعِيبِ أنْ نرى أنّ بعض الجامعات العربيّة قد وَقَعَتْ في الخطأ الجسيم الذي يَتَوَقَّـعُ تَعْليماً رفيعاً، وبَحْثـاً أصيلاً، وتَنْمِيةً فَاعِلَةً، بينما تكونُ «اللّغَـةُ الأُمّ» في ذَيْلِ قَائِمَةِ اهْتمامات التّخْطيـط وإسْتراتيجيّات العمل، وتَحْظَى عندهم برامِـجُ «التّأليف والتّرْجَمَة والتّعْريـب» بأقلّ الدّعْم المَعْنويّ والمـادّيّ، إنْ حَظِيَتْ بشيءٍ؛ والغريبُ أنّ هذه الجامعات تُخَطِّـطُ للّحَـاقِ بـ«مُجْتمع المَعْرِفَـة» وتَأْسيسِهِ في أوطانها، وتَتَغَنّى بدَفْـعِ «عَجَلَة التّنْمية» وتَكْثيـفِ أنْشطتِها، بينمـا تُهْمِلُ الدّوْرَ الرّئيسَ لـ«اللّغَةِ الأُمّ» في تَأْسيسِ ذلك «المُجْتمع المَعْرفيّ»، وتَحْقيقِ «شُرُوط التّنْمية»!.

وأمّـا في خِتَامِ هذا الطَّرْحِ، فإنّي أُقِرُّ بأنّ جيلنا قد انْتَهَتْ صَلاحِيَّتُهُ في القُدْرَةِ على اسْتيعابِ هذه المُعْطيات، والتّفاعُلِ معها بحيويّةٍ؛ لإحْدَاثِ تلك «النَّقْلَة المَنْشُودَة» - فِكْريّاً وثقافيّـاً وعِلْميّـاً -، فكما قالوا «منْ شَبَّ على شيءٍ شَـابَ عليه»، ولكن يَنْبَغِي أنْ نَهْتَمَّ بما نَتْرُكُهُ لأجيالِ المُسْتَقْبَل، وبما نَزْرَعُهُ في تُرْبَتِهِمْ، وبما نُعَوِّدُهُمْ عليه، فمن المُهِمّ أنْ نَتَأَكَّدَ بأنّنـا نَضَعُ البُذُورَ السَّليمةَ لـ«حَرَاكٍ ثقافيٍّ» قَادِرٍ علـى التَّعَامُلِ مع عَصْرِهِ - عِلْمِيّاً ولُغَوِيّاً وتَنْمَوِيّاً وفِكْرِيّاً -.

جِمَاعُ القَوْلِ

٩-١) مَدْخَل:

سعينــا إلى التَحَرِّي - عبْر فُصُولِ هذا الكِتَاب - عن أبْعَادَ «الأَزْمَةِ» التي تُعَانِي منها «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» في مُحاولاتِها المُتَعَدِّدَةِ لـ«النَّهْضَةِ» وبرامِجِها المُتَنَوِّعَةِ لـ«التّنْمية»، ورَصَدْنَــا مَحطَّاتٍ ووَقَفَــاتٍ لمسيرة «المُثقّف العربيّ» وهو يُحاوِلُ جَاهِــداً أنْ يَسْبُرَ أغْوَارَ «الإشْكَالِيّــة» المُتَفَاقِمَــة، وأنْ يجــد مَخْرَجــاً منهــا، وأنْ يقوم بمــا وَصَفَهُ نــادر فرجاني بـ«المَشْرُوع التّاريخيّ»[١١] في تَطْويرِ «نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْمية».

لقــد تَعَدَّدَتْ أُطْرُوحَــاتُ المُثقّفين، وتَنَوَّعَتْ مُبَرِّرَاتِ المُفكّريــن، في تَحْديدِ أسْبَابِ فَشَــلِ «المَشْرُوعِ النَّهْضَويّ» وإخْفَاقِ «خُطَطِ التَّنْميــة»؛ فمنهم من رأى أنّ الخَلَلَ يَكْمُنُ في «البِنْيَــةِ السِّياسِيّة» في العَالَمِ العربيّ، وشُيوعِ «ثقافة الاسْتِبْدَادِ»، وغِيَابِ «الدِّيموقراطيّة» و«الحُريّــة»، والقُصُــورِ فــي توفيــرِ مُتَطلَّبَــاتِ بِنَــاءِ «الدَّولــة العَصْريّــة» (دولــة القانون والمُؤَسَّسَــات)؛ ورأى آخَرُون أنّ العَيْــبَ يَكْمُنُ في «طبيعة المُجْتمعات العربيّة» التي تُعَظِّمُ مفاهيــم «القبيلة» و«العشيرة»، وتَرْتَعُ فــي رُبُوعِ المُحَابَاةِ والوَسَاطَــةِ والمَحْسُوبِيّاتِ التي تَطْغَــى على الرُّؤية السّديدة عند اتِّخَاذِ القرارات وتوزيــعِ المَسْؤوليّات؛ ورأى بعْضهم في «نظريّة المُؤامرة» مَرْتَعاً رَحْباً لتَبْرير وَاقِعِ التّخَلُّفِ والهزائم والنّكبات، واسْتَسْلَمَ بعْضهم لحــالاتٍ من «الانْبِهَــارِ» بحضارة الغَرْبِ ومُعْطياتِه؛ ممّا شَلّ مــن قُدْرتهم على التّمْحيص العَقْلانــيّ لأُسُسِ هذه الحضارة ومُقَوِّمَاتِهَا، بينما راح آخَرُون يَنْكَفِئُون على أنْفسهم خَوْفاً من ضيــاعِ «الهُويّة». وأمّا ثُلّةٌ أُخْرى، فقد تَلَمَّسَتْ في «الأُطُرِ الثّقافيّة»، وبرامِجِ «الإصْلاح الاجْتماعــيّ»، وتَطْويرِ «المَنَاهِجِ التّعْليميّة»، ودَعْــمِ مَشْرُوعات «البَحْث العِلْميّ»، واسْتِيرادِ

«مُقَوِّمَاتِ التّقنيــة» ونَقْلِهَا، مَدْخَلاً إلى إحْدَاثِ التّغْييرات الإيجابيّة في الوَاقِع العربيّ، إلاّ أنّ كُلَّ تلـك الطُّرُوحَـاتِ - فـي مُجْمَلِهَا - كانـتْ - وما زالتْ - تُعَانِي مـن صِياغَاتٍ تتّسِمُ بالعُمُوميّة والارْتِجَالِ والحماس اللّفْظيّ.

وهكـذا نجـدُ أنّـه بالرّغم مـن كُلّ تلـك الطُّرُوحَـاتِ والجُهُـودِ والاجْتِهـاداتِ فإنّ «المُجْتمعات العربيّة» في تَجْرِبتِهَا مع «النّهْضَة» - على مدى قُرابَة القَرْنَيْن - فَشِلَتْ فَشَلاً ذريعـاً في خَلْقِ مُسْتَلْزَمَـاتِ «الإصْلاح النّهضويّ» و«التّنْمية الشّامِلَـة»؛ وبالتّالي بَقِيَتْ كُلُّ الشِّعَـارَاتِ الكُبْرى، التي طَرَحَتْهَا التّياراتُ والنُّخَبُ العربيّة المُخْتلفة، مُجَرَّدَ راياتٍ تُلْهِبُ الحماس وتُدغْـدِغُ المشاعِر، وبَقِيَتْ كُلُّ الدّراسات والأُطْرُوحـات حبيسةَ عُقُولِ أصْحابها أو أسيــرةَ مَواقِعِ النُّخَبِ في المكْتبات والجامعات والنّدوات والمُؤتمرات. وأمّا على صعيد الوَاقِـعِ الاجْتماعـيّ والسّياسـيّ، وحِسَابات الإنْتاج و«معاييــر التّنْميــة» الموضوعيّة، فإنّ المُشْكلات ما فَتِئَتْ تَتَفَاقَمُ، والأزْمَات تَسْتَفْحِلُ، ممّا يُعِيدُ إلى الوَاجِهَةِ السُّؤالَ ذاته الذي يـكادُ يَبْدُو أزليّاً، وتَرَدَّدَ في فِكْرِ الأُمّــة منذ بِدايات القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ: (لماذا تَأَخَّرْنَا وتَقَدَّمَ غيرُنا؟).

لقد تَنَبَّهَ زهير الكرمي[٧٧] - منذ السّبعينات في القَرْن الماضي - إلى الوَضْعِ الفَادِحِ في «الفِكْرِ العربيّ» الذي لم يَسْتَطِعْ أنْ يُمَيِّزَ بين مَفْهُومَيْ «الحضارة الغَرْبيّة» و«الحضارة العِلْميّة الحديثة»؛ فللأولى: (جُذُورٌ دِينيّةٌ وفَلْسَفيّةٌ وَاضِحَةٌ ومُنَاخٌ فِكريٌّ مُمَيِّز)، وللثّانية: (طبيعــةٌ عَالَميّــةٌ غيــر مُرْتَبِطَةٍ ببيئةٍ مُحَــدَّدَةٍ أو بوطــنٍ أو بأُمّة)، ويَخْلُـصُ الكرمي إلى نتيجـةٍ مُهِمّةٍ وهي أنّ: (زُعمــاء الفِكْرِ العربيّ المُتَفَتّحِ غرقوا فــي بِحَارِ الحضارة الغَرْبيّة «الليبراليّة» يُتَرْجِمُونَ تُراثَهَا وإنْتاجَها الثّقافيّ وبشَكْلٍ خاصٍّ الأدبيّ والفَنِّيّ منه، بَلْ وارْتَدَّ بعْضهـم إلــى أُصُولِهَا اليونانيّة والرومانيّة، وكُلُّ هذا جميلٌ، لو أنّه كان جُهْداً ثانويّاً، أو لم يَسْتَنْفِـدْ كُلَّ الطّاقاتِ الفعّالَةِ في ذلك الزّمن)؛ وأمّا المَأْخَذُ الرّئيسُ - وفْق طرْح الكرمي - فهـو أنّ مُثقّفي الأُمّة (لم يُمَيِّزوا بين «الحضارة الغَرْبيّــة» و«الحضارة العِلْميّة»، لا..بَلْ أنّهـم عُمُوا عن «الحضارة العِلْميّة» كُلِّيَّةً، ووَجَّهُوا جُهْدَ الأُمّة العربيّة سنواتٍ طوالٍ توجيهاً

خَاطِئـاً، وكانتْ الأُمّةُ مُطْمَئِنَّةً خلالها إلى أنّها سَائِـرَةٌ على الدَّرْبِ، فإذا بها تَكْتَشِفُ أنّها كانتْ تَحُثُّ الخُطَى في دَرْبٍ آخر مُخْتلفٍ، ولا يُؤدِّي إلى نفْس الهدف المُبْتَغَى).

لقـد بَقِيَتْ الأَسْئلةُ حيرى تَائِهَةً منذ بُزُوغ ما أَطْلَقُوا عليه اسْم «عَصْر النَّهْضَة»؛ لأنّ «المُجْتمعـات العربيّة» لم تُغَيِّرْ من صِيَغِ الأَسْئلة، ولم تُبَدِّلْ طُرُقَ التّعامُل معها، ولم تُطَوِّرْ نَمَطَ خِطَابِهَا؛ وأمّا في حالاتٍ جريئةٍ وعميقةٍ مَحْدُودَةٍ - كما وجدنا في سِياق هذا الكِتَاب -، فإنّـه - بعـد محاولات التّفْكيكِ والنّقْدِ والتّحْديثِ والتّحْليـلِ - يَرْتَدُّ «الخِطَابُ العربيُّ» مـن جديدٍ إلى أُصُولِهِ الخَطَابيّة ومُتُونِهِ اللّغَوِيّة وشُرُوحَاتِهِ البلاغيّة، وفي أحْسن الحالات يُغْـرِقُ في المُعالَجَاتِ الفَلْسَفيّة، ويَحُومُ حول الحِمَـى ولكنّه لا يَقَعُ فيه!. وفي هذا الفضاء التّنظيـريّ الشّاسِـعِ بين المُدَاولاتِ المُتَكَـرِّرَةِ واجْترَارِ الأَلْفَـاظِ المُتَشَابِهَة، فإنّ شيئاً ذا بـالٍ لم يَطْرَأْ علـى «الوَعْي العربيّ»؛ صحيـحٌ أنّ هنـاك تحوُّلاتٍ لَفْظيّـةً ومُعَالَجَاتٍ شَكْليّةً ومُصْطلحاتٍ حديثةً، ولكنّها كُلُّها لم تُلامِسْ شِغَافَ «الوِجْدَانِ العربيّ» لتَدْفَعَهُ في الاتّجاه الصّحيـح، ولـم تَسْتَثِـرْ فيروسات عَقْلِـهِ لتُحَفِّزَهُ على طريـق الإنْتاج والإبْـداع، ولذا بَقِيَ «الوَاقِعُ العربيّ» بمَنْأىً عن ذلك «التَّحَوُّلِ النَّوْعيّ» على «دَرْبِ النَّهْضَة» و«مَسَارِ التّنْمية».

٩-٢) بَرَامِجُ «التّنْمية النَّمَطِيّة»:

لقـد عَاشَتْ «المُجْتمعـاتُ العربيّةُ» أَنْمَاطاً مُخْتلفة من سياسـات «التَّنْمية» وتجارِب «النَّهْضَـة»، واعْتَمَدَتْ - اعْتِمـاداً شِبْه مُطْلَقٍ - على نَقْلِ نمـاذِج جَاهِزَةٍ من «المُجْتمعات الغَرْبيّة» واستِنْسَاخ تجاربها دون مُساءَلةٍ موضوعيّةٍ لمُحْتواها، أو تَكْييفٍ جَادٍّ لمضامينها؛ لتتحوَّلَ بذلك إلى مُجَرَّدِ «أنْمَاطٍ تَقْليديّةٍ» يُجَرِّبُهَا الجميع، وتَفْشَلُ مع الجميع، فكما يقولُ نادر فرجاني: (قد صار فَشَلُ هذا النّموذج مُوَثَّقاً ممّا يَجْعَلُ الخَوْضَ في الموضوع من قبيل التَّكْرَارِ المُمِلّ)(١١). وفي هذا السِّياق يَنْبَغي أنْ نَتوَقَّفَ أمام فِكْرَةِ «المراكِز المُضِيئة» التي طَرَحَهَـا أحمد زويل(٧٠)، وهي: (مُدُنٌ عِلْميّةٌ رفيعةُ المُسْتـوى ومَرْمُوقةٌ بالمعايير العَالَميّة فـي أكْثر بلاد العَالَم تقدُّماً)، وهي بذلك تكونُ علـى النَّسَقِ نفْسه الذي عايشه وتَألَّقَ فيه أحمد زويل في أمريكا، ويرى زويل أنّ بإمْكان هذه المراكِز أنْ: (تَصِلَ بالعِلْمِ والتِّكنولوجيا

فـي المجالات التي عُنِيَتْ بها إلـى مُسْتوىً عَالَميٍّ بَالِغ الرِّفْعَةِ برغـم الفَقْرِ والجَهْلِ الذي يُحِيطُ بهذه المُدُن الاسْتثنائيّة من عُمُومِ الشَّعْبِ وعَوَامّ النَّاس).

نَسْتطيـعُ القول إنّ مَفْهُومَ «المراكِز المُضِيئـة» قد اسْتطاع أنْ يَجِدَ له محاضِن عِدّةً منـذ فتْرةٍ ليستْ بالقصيرة في تَجَارِب «المُجْتمعـات العربيّة»، وبالرّغْم ممّا لهذه الرُّؤية مـن وَجَاهَةٍ في مُحاولةٍ للتّصدِّي للوَاقِعِ المُتَرَدِّي، وإنْقَـاذِ ما يُمْكِنُ إنْقَاذُه، إلاّ أنّها ليستْ حَلاًّ للسُّؤال الذي يَطْرَحُهُ ويُجيبُ عنه زويل نفْسه: (هل يُمْكِنُ لـ«العِلْم» أنْ يتفاعل ويُعْطِي دونمـا بيئةٍ مُنَاسِبَـةٍ وأجْوَاءٍ صَالِحَةٍ؟ الإجابـة: لا، فهناك ما يُمْكِـنُ تَسْميتها بـ«الشُّرُوطِ الاجْتماعيّـة للعِلْم»، ولـولا هذه الشُّرُوطِ لمـا أَمْكَنَ لـ«العِلْـم» أنْ يَنْهَضَ بذاتـه أو يَنْهَضَ بمُسْتَخْدميه، فـ«العِلْمُ» ليس وَهْبَاً أو عَطَاءً بقَدْرِ ما هو كَسْبٌ واجْتِهَاد)(٧٠). وهكذا نجدُ أنّ هذه «المراكِز المُضِيئة»، باعْتِرافِ زويل، هي قَفْزٌ على وَاقِعِ «المُجْتمعات العربيّة» التي -في رأْيه- قد (تأْخُذُ وَقْتاً طويلاً لتُصْبِغَ بالطّابَعِ العِلْميّ، وقد لا يكونُ من الحِكْمَةِ الانْتظارُ حتـى يَتَشَكَّلَ «المُجْتمعُ العِلْميُّ» تِلْقَاءَ ذاته ثم يكـون العِلْمُ والتِّكنولوجيا)(٧٠)؛ ولا شكَّ في أنّ هـذه المراكِز وغيرها من برامِج «التّنْمية النَّمَطِيّـة» تَأْتي من باب القَاعِدَةِ المَعْرُوفة: (مـالا يُدْرَكُ كُلُّهُ لا يُتْرَكُ جُلُّهُ)، ولكنّها، دون شَكٍّ ووفْق تَعْبير عُلماء الرّياضيّات، (شَرْطٌ ضَروريٌّ ولكنّه غير كَافٍ) لقِيام «المُجْتمع العِلْميّ».

مـن الوَاضِحِ أنّ مِثْلَ هـذه «المراكِز المُضِيئة»، لو تَغَلَّبَتْ على عَوائِق البيئة المُحيطة ومُشْكلات البيروقراطيّة المُهَيْمِنَة، فإنّ تَأْثيرها في ما حولها سيكون مَحْدُوداً، وإشْعاعها سيَتَفَـرَّقُ فـي سَمَاءٍ مُلَبَّـدَةٍ بضباب التَّخَلُّـف، ومَوْجَاتِهَـا ستَتَشَتَّـتُ بفِعْلِ غُبَـارِ السّلْبيّة واللامبالاة؛ وأمّا النّتيجةُ الحَتْميّةُ فهي ما أَقَرَّ به زويل(٧٠) عندما تَطَرَّقَ إلى جُهُودِ العُلماء (الذيـن غيَّرُوا شَكْلَ الحيـاة على وَجْهِ الأرْض) فكتب يقول: (ومـا كان لجُهْدهم العظيم وعطائهم الوفير أنْ يكون له هذا الأثر لولا تَهَيُّؤ البيئة الاجْتماعيّة لاسْتِقْبَالِ «العِلْم» الذي أتوه. وفي المَرَّاتِ التي كان المُجْتمع فيها غير أهْلٍ للتّعامُل مع نتائِج «العِلْم» وجُهُود العُلماء كان «العِلْـمُ» يَذْبُل). تلك الحقائِق تُؤَكِّدُ أنّ الاهْتمام فقط بتَشْييد جُزُرٍ تِقنيّةٍ أو صِناعيّةٍ، أو بَحْثيّـةٍ مَعْزُولـةٍ عن وَسَطِهَا الجماهيـريّ، يَجْعَلُهَا تُصْبِحُ مُجَرَّدَ «مُجَمَّعَـاتٍ نُخْبَويّةٍ» لا

تُمَثِّـلُ ولا تتفاعلُ مع القَاعِدَةِ الواسِعَـةِ من المُجْتمع، وبذلك تَتَحَوَّلُ - في أغْلب الأحْوال - إلـى مُجَرَّدِ «فِيلةٍ بيضاء» كما يقولون، أو تُصْبِـحُ - وفْق مَقولة زهير الكرمي - «مُعْتَقَلاتٍ عِلْميّـةً»[٧٧]؛ فهي غير قَادِرَةٍ على أنْ تُؤثِّر أو تَتَأَثَّر بمُحِيطِهَا بالشَّكْلِ المَطْلُوب، ويَبْقَى سِرُّ بقائهـا مُرْتَبِطَاً باعْتمادها الأكْبر على ما يَرِدُهَا من خَـارِجِ البِيئة في عُزْلَةٍ عن تفاعُلاتِ الأغْلبيّـة من النّاس في الوطـن وهُمُومِهِمْ ومُتَطلَّبَاتِهِمْ، وهذا مـا يُؤَكِّدُهُ فلاح سعيد جبر عندمـا وَصَفَ مِثْل هذه الكِيانـات بأنّها: (تُشَكِّلُ جُزُراً صِناعيّـةً أو زِراعيّةً قليلة الفاعِليّة والتّأْثير على مُجْمَلِ اقْتِصاديّات تلك الكِيانات دون أيِّ روابِط تَشُدُّهَا إلى بقيّةِ القطاعات التي تَسْتَخْدِمُهَا الأكْثريّةُ السّاحِقَةُ من الجماهير في معيشتِها)[٧٥].

إنّ الإشْكَالِيّـةَ في تلـك «المراكِز المُضِيئة» - مهما صَاحَبَهَا من وَهَجٍ إعْلاميٍّ ساعة تَأْسيسِهـا، ومهمـا وَاكَبَهَا من إشَـاداتٍ وتفاؤلاتٍ إبّـان تَجْهيزِهَا - هو أنّهـا عندما تَفْقِدُ المُسَانَـدَةَ الثَّقافيّـة والدَّعْـمَ المُجْتمعيّ، فإنّها تَنْفَصِـلُ تدْريجيّاً عـن مُجْتمعها - زماناً ومكاناً -، وتَذْبُلُ مُقَوِّمَاتُهَا وقُدُرَاتُهَا؛ ليُضِيفَ حُضُورُهَا اضْطِرَاباً إلى «المَشْهَدِ الثَّقافيّ»، وارْتِبَـاكاً فـي «التَّفَاعُـلِ المُجْتمعـيّ» في شَـيءٍ مُمَاثِلٍ لمـا أَسْمَاهُ محمد عابـد الجابريّ (تَدَاخُلُ الأَزْمِنَةِ الثَّقافيّة)[١]، بينما تَتَلَبَّدُ رُؤى المُسْتَقْبَل بغُيُوم تحدّياتٍ مُتزايدةٍ وضُغُوطٍ مُتنامية. في الوَاقِعِ أنّ هذه «المراكِز المُضِيئة»، وغيرها من نماذجِ نَمَطِيّةٍ، ليستْ جديدةً فـي «التّجْرِبَةِ العربيّة»، فهناك الكثيرُ مـن المراكِز الصّناعيّة والبَحْثيّة والعِلْميّة والتّقنيّة التـي تَأَسَّسَتْ وهي تَحْمِلُ أحْلاماً كبيـرةً، وتُبَشِّرُ بوعودٍ ليس هذا مقام عَدِّهَا وتَصْنيفِهَا، إلاّ أنّ الوَاقِعَ المُشَاهَدَ يُؤَكِّدُ فَشَلَ كثيرٍ منها، بينما اسْتطاع بعْضها القليل أنْ يَحْتَفِظَ بقَدْرٍ من حيويّته عبْر ارْتباطه بشِرْيان الحياة العِلْميّة والمَدِّ التّقنيّ في العَالَمِ الغَرْبيّ.

وهكـذا تُصْبِحُ تلـك الجُزُرُ التّقنيّـة والبَحْثيّة والعِلْميّـة قليلة الفَاعِليّـة والتّأْثير في مُجْمَـلِ الأنْشطة القَائِمَة، وتَسْتَمِرُّ دون رَوابِط متينـةٍ، تَشُدُّهَا إلى التّفاعُلاتِ السّائِدَةِ في مُجْتمعِهـا؛ ولأنّ «ظَاهِـرَةَ العِلْم والتّقْنية» هـي «ظَاهِرَةٌ جماعيّةٌ» تَخْضَـعُ لجُهُودٍ تراكُميّةٍ وتفاعُلاتٍ عميقةٍ على المُسْتوى العملـيّ والفِكْريّ والثّقافيّ، فإنّ تلك «المراكِز المُضِيئة» ستَذْوَى حَتْماً إذا انْعَدَمَتْ - أو ضَعُفَتْ - تلك «البِنْيَةُ التَّحْتيّةُ الثّقافيّةُ» التي تَسْنُدُهَا، وتَدْفَعُ

بها على طريق الإنْجاز والرُّسُوخ والتَّطوُّر. وبالرّغم من طَرْحِ أحمد زويل لمَفْهُوم «المراكِز المُضيئَـة» كمَخْـرَجٍ من «عُنُـقِ الزُّجَاجَـةِ التَّنْمَـويّ»، إلاّ أنّ الرُّؤية الثّقافيّـة والتّفاعُلات المُجْتمعيّـة تَبْقَى وَاضِحَةً لدى زويل حيث يقول: (وما اعْتَقِدُهُ في هذا الشّأن هو أنْ لا أمل فـي إنْجاز عِلْمٍ أو تَنْمية شَعْبٍ أو إحْداث التَّطَوُّر اللائِق لنَمَطِ الحياة دون وجود «المُجْتمع العِلْمـيّ» بركائزه الثّـلاث: العِلْمُ والتِّكْنولوجيـا والمُجْتمع، وكُلُّهم يُشَكِّلُـون مُثَلَّثاً مُتساوي الأضْـلاع، فـ«العِلْمُ» يَخْلُـقُ «التِّكْنولوجيا»، وهـي تَدْفَعُهُ ثانيةً للتّطْويـر، وكِلاهُما لا يُوجَدُ علـى نَحْوٍ مُكْتَمِلٍ إلاّ في «مُجْتمعٍ عِلْميٍّ»، و«المُجْتمع العِلْميّ» بدَوْرِهِ يُهَيِّئُ السّبيل لـ«العِلْم»، ويَسْتَقْبِـلُ نتائِجَه، مُهَيِّئاً السّبيل مَرَّةً أُخْـرى لتَطْبيقاته، وفي الدُّوَلِ المُتَقَدِّمَةِ يكون إنْجَازُ «العِلْمِ» وإبْهَارُ «التِّكْنولوجيا» ودِقَّتُهَا على قَدْرِ تَشَرُّبِ المُجْتمع بـ«الثَّقافة العِلْميّة») (٧٠).

وأمّا مالك بن نبيّ، فقد أدْرَكَ طبيعة تلك الجُهُودِ وضَعْفِهَا في تَأْمين العِلاج النّاجِع عندمـا كتب يقـول: (العالَـمُ الإسْلاميُّ يتعاطى هنـا «حَبَّةً» ضِـدّ الجَهْـل، ويَأْخُذُ هناك «قُرْصَـاً» ضِـدّ الاسْتعمار، وفي مكانٍ قَصِيٍّ يتناولُ «عقاراً» كي يَشْفَى من الفَقْر، فهو يَبْني هنـا مَدْرَسَةً، ويُطَالِبُ هنالـك باسْتقلالِه، ويُنْشِئُ في بُقْعَةٍ قَاصِيـةٍ مَصْنَعاً. ولكنّنا حين نَبْحَـثُ حالته عن كثبٍ لـن نَلْمَسَ شَبَحَ البُرْءِ، أيْ أنّنا لن نجد حضارة) (٢). ذلك «التَّفاعُلُ السَّطْحِـيُّ»، وتلـك المُفَارَقَاتُ المُؤَرِّقَـةُ في طبيعة تفاعُلات الحُضُـورِ العِلْميّ والتّقنيّ في العَالَمِ العربيّ، هي الأَمْرُ الذي تَنَبَّهَ إليه أيضاً نجيب عيسى وهو يُقَرِّرُ: (لم تَمُدّ التِّكْنولوجيا الوَافِـدَةُ جُذُوراً عميقة لا في المُجْتمع، ولا حتّى فـي الاقْتصاد، فلم يكنْ للصّناعات التي تَلَقَّتْهَـا وعلـى مُخْتلف أنْواعها ذلك المَفْعُـولُ الانْتشاريّ الكبير الذي عُقِـدَتْ عليه الآمالُ العِرَاضُ لإخْرَاجِ البلاد من مُسْتَنْقَعِ التَّخَلُّفِ، وبَقِيَتْ مَحْصُورَةً في جُيُوبٍ صغيرةٍ ضعيفة الرّوابِط فيما بينها وبين سَائِرِ قِطَاعَاتِ المُجْتمع والاقْتصاد) (٢٢).

٩-٢-١) هل نَحْتاج إلى آينشتاين عربيّ؟:

لقد تَسَاءَلْتُ أكْثر من مَرَّةٍ: (هل نَحْتَاجُ إلى آينشتاين عربيّ؟) (١٠٧)، والإجابةُ العمليّةُ القَاطِعَـةُ - فـي رأْيي - هي: (أنّنـا لا نَحْتَاجُ في هذه المرْحلة إلى هـذا النَّوْعِ من «التَّرَفِ

العِلْميّ») ؛ فنحن نُخْطِئ كثيراً إذا اعْتَقَدْنَا أنّ فَوْزَ وَاحِدٍ أو اثنين أو أكْثر من العُلماء العرب بـ«جائِـزة نوبل» أو مـا مَاثَلَهَا من جَوائِز قيِّمَةٍ فـي المجالات العِلْميّـة والتّطْبيقيّة، سيكون إعْلانـاً بتَسَنُّمِنَا القِمّة إلى جِـوَارِ عَمَالِقَةِ العَصْرِ الحديث ونُمُورِ الإنْتـاج والتّقْنية. إنّ مِثْلَ هـذا التّصوُّر يُبَيِّنُ سُوءَ فَهْم فَـادِحٍ لطبيعة «الحركة العِلْميّة الحديثـة» ومُتَطَلَّبَاتِهَا، ويُبْرِزُ جَهْلاً جَليّاً بشُرُوطِ «القَفْزَة التّقنيّة» وضَوابِطِهَا؛ فـ«التَّطَوُّرُ العِلْميّ – التّقنيّ» هو نِتَاجُ «عملٍ جماعـيٍّ»، تتضافرُ فيه جُهُودُ فِرَقٍ مُخْتلفةِ الاهْتمامات العِلْميّة والمهارات التّقْنيّة، وليستْ كُلُّها في ذكاء آينشتاين ولا عَبْقريّة نيوتن، ولكنّها – في غَالِبيّتها السّاحِقَة – قُدُرَاتٌ عاديّةٌ جِـدّاً تَـمّ توجيهها وتَفْعيل طاقاتها؛ كُلٌّ في مجاله، وما تَيَسَّـرَ له، وكُلٌّ يُؤدِّي عمله المُحَدَّدَ فـي تلك المَنْظُومَةِ المُتَناغِمَةِ مُدْرِكاً أنّ دَوْرَهُ – مهما كان صغيراً – أمْرٌ لازِمٌ لدَفْعِ العَجَلَةِ وتَأْمين مَسَارِهَا.

إنّ الأسْئلـة، التي تُجَلِي طبيعة هذه الإشْكَاليّة، هي: (مـاذا نَتَوَقَّعُ لو قَرَّرَ أحمد زويل، ونُخْبَةٌ من العرب المُهَاجِرين الأكْفَاء، أنْ يعودوا فجأةً إلى أيِّ بلدٍ عربيٍّ، ويضعوا علومهم في خِدْمَةِ «الحركة التَّنْمَويّة» فيه؟ هل سيَتَغَلَّبُ ذلك البلد على مُشْكلات التَّخَلُّف، ويُمْسِكُ بزِمام الإنْتاج، ويُنافِسُ الآخَرين في مَتَانَةِ اقْتصاده، وجَوْدَةِ صِناعته، وتَفَوُّقِ مُبْتكراته؟ هل سيجـدُ أولئك العُلماء والتّقنيّون «البِنْيَةَ التَّحْتيّة» القَادِرَةَ على دَعْمِ جُهُودِهم، وامْتِصاصِ عطاءاتِهم، وتَطْويرِ إبْداعاتِهم؟) . وأمّا الإجابةُ عن هذه الأسْئلة فمَتْرُوكَةٌ لخيال المُواطِن العـاديّ، وهـو يجـوبُ بنظره في وَاقِـعِ العَالَمِ العربـيّ، وقـد أَمْسَكَتْ بتلابيبـه مُشْكلاتٌ تَعْليميّـة، وبُحُـوثٌ مُشَتَّتَةٌ، وكفاءاتٌ مُهْـدَرَةٌ، وإخْفَاقَـاتٌ إداريّةٌ، وضبابيّـةٌ إستراتيجيّةٌ، وقـراراتٌ مِزاجيّـة. وأمّا الأمْرُ المُؤَكَّـدُ عِنْدي، فهو أنّ أحمد زويـل، وغيره من الكفاءات المُهَاجِرَةِ، لن يَسْتطيعوا أنْ يَفْعَلُوا شيئاً إزاء هذا الوَاقِعِ إلاّ أنْ يَحْزِمُوا حقائبهم، ويعودوا مِـن حيث أتوا، حيـث تتوافرُ لهم «بِنْيَةٌ تَحْتيّةٌ» تَدْعَمُهُمْ في تَفْعيل جُهُودِهِمْ، وتُؤازِرُهُم في تَطْوير طُمُوحَاتِهِمْ.

مِـن المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ «الحركة العِلْميّـة – التّقنيّة» حركةٌ بشريّةٌ مُتَلاقِحَةٌ، تتدافعُ على مِساحتها جُهُودٌ شَتَّى، وتتساندُ في رُبُوعِهَا اهتماماتٌ مُخْتلفةٌ، وتتضافرُ على طريقها

تخصُّصـاتٌ مُتَنَوِّعـةٌ؛ ومن هـذه الحقيقة، يَنْبَغِـي أنْ يَبْرُزَ نَمَطٌ فـي التَّخْطيط والتَّفْكير والمُمَارَسَـةِ، قَـادرٌ علـى اسْتِيعابِ تلك المضاميـن، والتَّغَلُّبِ على عقباتِهـا، والتَّحَكُّم في مَسَارَاتِهَـا. لقـد أَصْبَحَـتْ «العلوم الحديثـة»، و«التِّقْنِيات المُتَطَـوِّرَة»، عمـلاً مُؤَسَّسَـاتيّاً ضَخْمـاً، سواءً من ناحية التَّمْويل اللاّزِم أو الكثافة البشريّة العَامِلَة، وأَصْبَحَ النُّبُوغُ نِتَاجاً طبيعيّاً لتُرْبَةٍ غنيّةٍ بعناصِر النُّموّ المُتَمَثِّلَةِ في جحافِل من العَامِلين العاديّين ذوي مهاراتٍ مُخْتلفـةٍ وفـي مجالاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، ودونها يُصْبِحُ أيُّ نُبُوغٍ صَيْحَةً في وادٍ لا تَجِدُ لها صدىً ولا تَتْـرُكُ أثراً. ومن هذا المُنْطَلَقِ، فإنّ الاهْتمام في «الدُّول النّامية» يَنْبَغِي أنْ يَنْصَبَّ بشَكْلٍ وَاضِـحٍ على توسيع «القَاعِدَةِ العريضة» التي تُمَثِّلُ «البِنْيَةَ التَّحْتِيّة» اللّازِمَةَ لدَفْعِ «الحركة العِلْمِيّـة – التّقنيّة» وتَعْميقِها فـي «نسيج المُجْتمع»، كما يَنْبَغِي الاهْتمامُ بتعدُّد المُؤَسَّسَاتِ – الخاصّ منها والعامّ – التـي تَعْمَلُ – في تَكَاتُفٍ وتَنْسيقٍ – عبْـر «خُطَّةٍ وطنيّةٍ» وَاضِحَةِ الملامِـح وواقعيّةِ الرُّؤْية، وتُعْنَى بالفَـرْدِ والجماعة، وتُطَوِّرُ القُـدُرَاتِ المُتَفَاوِتَة، وتُوَظِّفُ المهاراتِ المُتَعَدِّدَة، في مَنْظُومَةٍ مُتفاعِلَةٍ في حيويّةٍ وتَكَامُل.

وهكـذا نـرى أنّ الإجابة عـن سُؤالنا: (هـل نَحْتَاجُ إلـى آينشتاين عربـيّ؟) تُوجِزُ الأولويّـاتِ الـلّازِم تَبَنِّيهَا، كما تُوجِـزُ طبيعـة «الإسْتراتيجيّة» اللّازِمـة للإسْهَام في حَلِّ «إشْكَالِيّـة التَّنْميـة»؛ فالعطاءُ العِلْميُّ إنْ بَقِيَ رهينة عَقْلٍ وَاحِدٍ انْتَهَى بنهايته، كما أنّ بقاء العمـل العِلْميّ حبيس أَسْوَارِ معاقِل هنا وهناك هو حُكْمٌ عليه بالفَنَاءِ، أو ارْتِهَانُهُ لعطاءاتِ وإنْجازاتِ «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة». إنّ «التَّنْمية» العَاجِزَةَ عن التَّمَدُّدِ – أفقيّاً ورأْسيّاً – هي تَنْميةٌ فَاشِلَةٌ؛ لأنّ «التَّجْرِبَةَ التَّنْمَوِيّةَ» الحَقّةَ هي تلك القَادِرَةُ على «التَّمَدُّدِ الأفقيّ»، لتَكْسَبَ إلـى دَاخِلِ حُدُودِهَا يوميّاً قِطَاعَاتٍ جديـدةً ودِمَاءً شابّةً ومُعْطياتٍ محليّةً، وهي القَادِرَةُ – أيضـاً – على «التَّمَدُّدِ الرَّأْسيّ»، فتَتَحَسَّنَ نَوْعِيَّتُهَا، ويَرْتَقِي أداؤها، وتَتَعَمَّقَ تفاعُلاتُها. ولا شـكّ في أنّ تلك «المراكز المُضيئة»، التي نَصَحَ بهـا أحمد زويل[٧٠]، وغيرها من وسائل «التَّنْميـة النَّمَطِيّة»، جُـزْءٌ من الحَلّ، ولكنّها جُزْءٌ غيـر قادرٍ وَحْدَهُ على إِحْـدَاثِ «النَّقْلَة» المَطْلوبـة؛ فاقْتِرَاحُ «المَشْرُوعـات التَّنْمَوِية» على غِرَارِ «المراكِز المُضيئـة» يَتَعَدَّدُ بشَكْلٍ لافِـتٍ للنَّظَرِ في العَالَمِ العربيّ في مجالات الصّناعة والتّعْليم والبَحْث والتّطْوير وغيرها،

ولكنّهـا - فـي مُعْظَمِ الحالات - تَبْقَى مُجَرَّدَ حِبْرٍ علـى وَرَقٍ، أو تَدْخُلُ في متاهات «ثقافة اللّفـظ» و«مِصْيَدَة البيروقراطيّة»، أو تَخْرُجُ إلـى حَيِّزِ التّنْفيذ، وقد أصَابَتْهَا نَوازِلُ العَجْزِ والجَهْـلِ والتّخَبُّطِ، لتَتَرَنَّحَ على «خريطة التَّنْميـة» مُشَوَّهَةً وكَسِيحَة. إنّ أكْبَرَ خَوْفِي هو أنْ تَتَحَوَّلَ تلك «المراكِزُ المُضيئةُ» إلى «مُعْتَقَلاتٍ عِلْميّة» وفْق الوَصْفِ البليغ لزهير كرمي(٧٧)، وأكْبَرَ خَوْفِي أنْ لا يكون الطّريق أمام القَاطِرَةِ مُعَبَّداً وسَالِكاً، وأنْ تَعْتَرِضَ حركتها فَجْواتُ «الأُمِّيّـة العِلْميّة»، ويَنْخُرُ فـي قُضْبَانِهَا صَدَأُ «البيروقراطيّة»، ويُوهِـنُ تماسُكها «الفَسَادُ» بأنْواعِـه، وتَنْسِـفُ خُطُوطَهَا «ثقافـةٌ كلاميّةٌ» مُتَأصّلـةٌ تَنْخَرِطُ في متاهـات الإنْشائيّات، وعَواصِف الجَدَل، ونَعَرَاتِ التَّعَصُّب، وفوضى المَحْسُوبيّة.

عُموماً، فإنّنا نَتّفِقُ بأنّ كُلَّ جُهْدٍ يَصُبُّ في توفيرِ مزيدٍ من الدّعائِم العِلْميّة والوسائِط التّقنيّـة أَمْرٌ مَطْلوبٌ وضَـروريٌّ لكُلِّ مُجْتمع، وبالتّالي فإنّ «المراكِـزَ المُضيئة»، و«معاهِدَ التَّمَيُّـز»، وقِلاعَ الصِّناعة، ومراكِـزَ التّدريب المُتَطوِّرَة، وحَمَلَةَ «جَائـِزَةِ نوبل»؛ كُلُّها أمورٌ مُرَحَّبٌ بها لرَفْعِ وتيرة «التّنْمية»، ودَفْعِ حركة المُجْتمع، ولكن لكي لا نَحْرُثَ في البَحْر يجب أنْ لا تغيب عن إسْتراتيجيّتنا وخُطَطِنَا تلك «الأولويّةُ الأهَمُّ»، وهي العملُ على الحيلولة دون تَحَوُّلِهَـا إلى «فِيلَةٍ بيضاء» وجُـزُرٍ مَعْزُولَةٍ، والحِرْصُ على تَفْعيلِ تلك الجُزُر، ورَبْطُ بعْضها ببعْضٍ، وتوفيرُ «المُنَاخِ المُنَاسِبِ» لها؛ لتَنْمُـوَ وتَتَرَعْرَعَ وتَزْدَهِر. إنّ هذه «الأولويّةَ الأهَمَّ» تَتَمَحْـوَرُ في أُطُرِهَا المُتَنَوِّعَة، وتَلْتَفُّ في تَرْكيباتِهـا المُتَعَدِّدَة، حول «الثَّقافة العِلْميّة» بكُلِّ مُكَوِّنَاتِهَـا وأبْعَادِهَا وآفاقِها وقِيَمِهَا وضَوَابِطِهَا، وهي القضيّـةُ التي حَرَصْنَا على تَأْصيلِها في هذا الكِتاب، وسَعَيْنَا إلى إبْرازِ مَعَالِمِهَا وتَأْسيسِ «الرُّؤية الإسْتراتيجيّة» لها.

٩-٢-٢) «الرّأسمال البشريّ» و«نزيف الأدْمغَة»:

لقـد مَيَّزَ فرانسيس فوكوياما بين مَفْهُـوم «الرّأسمال البشريّ»، ومَفْهُوم «الرّأسمال الاجْتماعـيّ»، وأَوضح أنّ: («الرّأسمال البشـريّ» ليس قِيمَةً مُنْتِجَةً ما لم يَسْنُدْهُ «رأسمال اجْتماعـيّ»، بمَعْنَى أنّـك تَسْتطيعُ أنْ تُكَـوِّنَ النّاس في مُخْتلف ميادِيـن المعارِف والمهن والتّخَصُّصَـات، ولكنّهـم لن يكونوا حقيقةً مُنْتِجين، ما لم يكـنْ مُجْتمعهم قد تواطأ على

قِيَم اجْتماعيّةٍ من ثِقَةٍ في التَّعامل، والْتِزَام بالتَّعاقُد، ووجود بيئةٍ اجْتماعيّةٍ تُتِيحُ تَدَفُّقَ المَعْلُومات وأَخْلاقيَّات العمل والجِدِّ فيه وإِتْقَانِه. وهذا كُلُّهُ «رأسمال اجْتماعيّ» يأْتِي من التَّربية التي تُوفِّرُهَا الأُسْرَة، ومن رصيد القِيَم والسُّلُوك في المُجْتمع)[٣٧].

أمّا أحدُ أبْرز الأوجاع، الذي تُعاني منه «الدُّول النّامية»، فهو ذلك النَّزيفُ المُسْتَمِرُّ، والخَسَارَةُ المُتَفَاقِمَةُ، فيما عُرِفَ بـ«نزيف الأَدْمِغَة»، ويَتَمَثَّلُ في الهِجْرَة المُتزايدةِ لعُلمائها ومُهندسيها وأطبّائها وتقنيّيها وفنّيّيها والأيدي العَامِلَةِ المُدَرَّبَة، فتَنْتَقِلُ تلك العُقُولُ والمهاراتُ إلى تُرْبَةٍ خِصْبَةٍ في دُول «العالَم الغَرْبيّ» التي وَفَّرَتْ كُلَّ الحوافز، وهَيَّأَتْ كُلَّ العناصر لاسْتِقْبَالِ تلك العُقُولِ، والاسْتِفَادَةِ من طاقاتها، لتَعْمَلَ في بيئةٍ مُنَاسِبَةٍ قَادِرَةٍ على تَطْويرها وتَفْعيلِها وإثْرَائِهَا، ولتَجُوبَ آفاق «مُنَاخٍ عِلْميٍّ» مُحَفِّزٍ على الإبْداع والإنْجاز. وأمّا ذلك الحديثُ المُتَكَرِّرُ عن «تَنْويع مَصَادِرِ الدَّخْل» في «الدُّول العربيّة»، وجَذْبِ الاسْتثمارات الأجْنبيّة، فإنّ أشدّ مَوانِع «تَنْويع مَصَادِر الدَّخْل»، وأكْبر قُوّةٍ طَارِدَةٍ لـ«الاسْتِثْمَارِ الأجْنبيّ»، هي عَدَمُ توافُرِ البيئة القَادِرَةِ على التّعامُل مع مُقْتضيات «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، فلا يَتَوَافَرُ فيها الأعْداد الكبيرة من العمالة المُدَرَّبَةِ والمُهندسين الأكْفَاء والبَاحِثين المَهَرَةِ والمُجْتمع المُتفاعِلِ بإيجابيّةٍ مع احْتياجاتِها ومُتَطَلَّبَاتِهَا. وهكذا نجدُ أنّنا نَصْطَدِمُ بعقَبَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ تعودُ في جُذُورِهَا إلى غِيَابِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّة - الثَّقافيّة» القَادِرَةِ على التّفاعُلِ مع «شُرُوطِ العَصْرِ» وتوجُّهاتِه العِلْميّة، وامْتِصاص مفاهيمه وإبْداعاته وأساليبه وآليّاته.

٩-٣) ثالوثٌ في حَاجَةٍ إلى تلاقُح:

عندما يَذْكُرُ عبد الله عبد الدائم[١٨] أنّ المُثقّفين العرب قد عَجَزُوا عن (تَحْقيق الالْتِحَامِ العُضْويّ بين عطائهم الثّقافيّ وبين مَطَالِبِ المُجْتمع العميقة)، فإنّ أوّل ما يَخْطُرُ على الأذْهان - في ضوء طَرْحِنَا في هذا الكِتَاب - ذلك «التَّحَدِّي الأكْبر» المُنْتَصِبُ أمام «المُجْتمعات العربيّة»، والمُتَمَثِّلُ في ثَالُوثِ «التّنْمية - الثّقافة - العِلْم»، ومن نَافِلَةِ القول أنْ نُذَكِّرَ هنا بما أكّدَهُ عبد الله عبد الدائم بأنّ هذا لا يَعْنِي أنْ: (نَفْرِضَ على

المُثقَّفين ألاّ يُجَاوِزُوا الثَّقافة المُلْتَزِمَةَ بهُمُومِ المُجْتمع، وأنْ يُهْمِلُوا ألْوان الثَّقافة المُتَنَوِّعَةِ التي تُغَـذِّي الإحْسَاسَ بالجَمَالِ، وتُغْنِي المَشَاعِرَ الإنْسانيّـة على اخْتلاف أنْواعِها، وتُفَتِّقُ الخيـال الذي هـو شَرْطٌ من شُرُوطِ الإبْداع)، ويُقَرِّرُ عبد الله عبـد الدائم أنّه: (في وَسْعِ الثّقافـة الرّفيعة، أيّاً كان الموضوع الذي تُعَالِجُهُ، أنْ تُقَـدِّمَ للمُجْتمع زاداً فِكْريّاً وعَاطِفيّاً وجَماليّـاً هو بحَقٍّ من أهمّ مَواقِدِ التّغْييـر الاجْتماعيّ)؛ وهنا نجدُ ضَرورة أنْ نَتَحدَّثَ عن مـا أَسْمَاهُ عبد الإله بلقزيز « المُثقِّف المُنْدَمِـج» (المُثقّف العُضْويّ)، وهو النّمُوذَجُ الذي (يَتَحَوَّلُ رأْسماله المَعْرفيّ إلى أداةٍ من أدوات إنْتاج المَصْلَحَةِ وصَوْنِهَا)(١٨).

لقد انْصَبَّ اهْتمامُنا – في هذا الكِتَابِ – على بَلْوَرَةِ ارْتباط «الثَّقافة العِلْميّة» بالجُذُورِ الفِكْريّـة والاجْتماعيّة والتّنْمَويّة لـ«المُجْتمعات المُعَاصِـرَة»، وأهميّة تَأْسيس هذه «الثّقافة» وتَأْصيلهـا في هـذه المُجْتمعات. ولقد أَبْرَزْنَا – بقَدْرٍ من التّفصيل في هذا الكِتَاب – أنّنا لو نظرنـا إلى أيٍّ من المُصْطلحـات والمفاهيم المُرْتَبِطَةِ بـ«الحيـاة المُعَاصِرَةِ» لوجدنا أنّ «الثَّقافـة العلميّـة» تقومُ بدَوْرٍ رئيسٍ فـي تَشْكيلِهِ أو تَحْديدِهِ أو تَعْميقِـهِ أو بَلْوَرَتِهِ أو تَفْعيلِهِ أو تَأْصِيلِـهِ؛ فـكُلُّ «المُصْطلحـات المُعَاصِـرَةِ» مِثْـل: «الحَداثة» و«الحضـارة» و«العَوْلَمَة» و«مُجْتمع المَعْرِفَة»، و«اقْتِصـاد المَعْرِفَة» و«التَّنْمية المُسْتَدامَة» و«تَنْويع مَصَادِرِ الدَّخْل»، وغيـرُ ذلك كثير؛ كُلُّها تَلْتَفُّ – بإحكام – حول «مَفْهُوم الثَّقافة العِلْميّة»؛ لتَتَّضِحَ أبْعَادُ هذه المُصْطلحات، ومَرَامِيهَا، وطُرُقُ تَفْعيلِهَا، وسُبُلُ تَأْصيلِهَا.

لقـد حَرَصْتُ – بين طيّات هذا الكِتَابِ – علـى تَسْجيلِ مُقْتضيات «الثَّقافة العِلْميّة»، وهـي تتقاطـعُ مع كُلِّ شرائِحِ المُجْتمع، وتتفاعـلُ مع مُؤسَّسَاتِهِ كَافّـةً، وتُرْسِي الأُسُسَ لأيِّ تحـرُّكٍ جَادٍّ نحو تَحْقيقِ «النَّهْضَة المَنْشُودَة»؛ ممّا يَجْعَلُ من هذه «الثّقافة» ضَرورةً لازِمَةً فـي «الاعْتِبارات التّنْمَويّة»، ورَكيزةً حيويّةً فـي «المُراجَعَاتِ الفِكْريّة»، وقضيّةً حَاسِمَةً في «التَّفاعُـلاتِ الاجْتماعيّـة». ولذا فـإنّ دَوْرَ «الثّقافـة العِلْميّة» في «صِنَاعَـةِ المُسْتَقْبَلِ» في «المُجْتمعـات العربيّة» أَمْـرٌ قَمِينٌ بالتّمَعُّـنِ والتّمْحيص والتّأْصيلِ والجُهْـدِ الدَّؤوب حتى تَسْتَقِرّ القَنَاعَاتُ لدى صَانِعِيّ القَرَارِ في مُخْتلف الهيئات والمُؤسَّسَات والقِطَاعَاتِ – على الصَّعيدَيْنِ الخاصّ والعامّ – بأنّ القضيّةَ ليستْ قضيّةً اخْتياريّةً يَسْمَحُ لنا الزَّمنُ بقَبُولِهَا

أو رَفْضِهَـا، ولكنّهـا في الوَاقِعِ قضيّةٌ مصيريّةٌ؛ ففي مَعْمَعَـةِ التّنَافُسِ والاهْتمام المُتنامي عَالَميّـاً بتأْسيسِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وهـو النِّتاجُ الطَّبيعيّ والمُحَـرِّكُ الحقيقيّ لـ«تَفاعُلٍ تَنْمَـوِيٍّ» أصيـل، تُصْبِـحُ الحاجةُ مُلِحَّةً إلـى إشَاعَةِ «ثقافـة المَعْرِفَة» فـي المُجْتمع؛ وفي «الألْفيّـة الثّالثة» يَنْبَغِـي أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ «ثقافة المَعْرِفَةِ» هـي - في المقام الأوّل - «ثقافةُ العلوم والتّقْنية».

٩-٣-١) نَحْوَ «التّخْصيب الفِكْرِيّ»:

مِـن المُهِـمّ أنْ تُدْرِكَ «المُجْتمعاتُ العربيّـةُ» أنّ «الإبْدَاعَ العِلْميّ» ليسَ وَمْضَةَ إلْهَامٍ اصْطَدَمَـتْ بالعَقْـلِ في «وادي عَبْقَر»، وليسَ تداعياتٍ تَلاقَحَتْ في جَلَسَـاتِ أُنْسٍ وسَمَر، وليسَ جَعْجَعَةً تَلاطَمَتْ في مُزَايَدَاتٍ بين البشر، ولكنّه أمْـرٌ يَخْتَنِقُ في مِثْلِ تلك الأجْواء ويَذْبُـل، ولا يَنْمُو ويَزْدَهِرُ إلاّ في بَوْتَقَةٍ خاصّةٍ مِـن الخيال والانْضِبَاطِ والمُثَابَرَة. من هذه الطّبيعـة، ذات الخصائِـصِ الفريدة، كانتْ تحدّياتُ «العمل العِلْمـيّ» مُخْتلفةً عن غيرها من الأعْمال والتَّوجُّهات، وكان القَادِرُونَ عليها والمُتَمَكِّنُونَ منها قِلَّةً نَادِرَةً في المُجْتمعات، وتَـزْدَادُ أعْدادُهُمْ فـي «المُجْتمعـات المُتَقَدِّمَة» التـي اسْتَوْعَبَتْ تلك الطّبيعـة الخاصّة، وثَابَرَتْ على تَحْقيقِ مُوَاصَفَاتِهَا، وتَعْميقِ مُتَطَلَّبَاتِهَا، وتَأْصيلِ عَنَاصِرِهَا.

إنّ «الإبْـدَاعَ العِلْميّ» قَفْزَةٌ في «عَالَمِ المَجْهُول» تَسْتَنِـدُ أساساً إلى تَرَاكُمَاتِ «ثقافةٍ مُسَانِـدَةٍ»، تَهْتَـمُّ بالتّأسيسِ العِلْمـيّ الصّحيح، وتَنْميـةِ الحِسِّ الفَطِن، وتَطْويـرِ المُثَابَرَةِ المُتواصِلَـة؛ فتُوقِـظُ المَواهِبَ الكَامِنَة، وتَدْفَعُ بالعمل الإنْتاجـيّ، وتَشْحَذُ طاقات الإنْسان وفِكْـرَهُ لاخْتِـرَاقِ عَوالِمَ جديدةٍ وآفـاقٍ رَحْبَة. وإذا أخذنا - على سبيـل المِثال - ما أَطْلَقَ عليه آرثر كوستلر (Arthur Koestler) [١٠٨] اسْم «آليّات الرَّبْطِ الثُّنَائِيّ» (Bisociative Mechanisms) التي تَنْتُجُ عنها إبْداعاتٌ وإنْجازاتٌ، فإنّنا نجدُ أنّ المَوهُوبَ لا يَنْطَلِقُ من فَـرَاغٍ، ولكن ما يُقَدِّمُهُ من إنْتَـاجٍ مُتَميِّزٍ هو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لما أُطْلِـقَ عليه آرثر كوستلر [١٠٨] اسم «عمليّة التَّخْصيب المُتَقَاطِع» (Process Of Cross – Fertilization) حيث تتداخلُ أنْمَـاطٌ فِكْريّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وتتقاطعُ أُطُرٌ عِلْميّةٌ مُخْتلفةٌ، لتَنْدَمِجَ في ذِهْنِ المَوهُوب، وتتفاعلَ

فـي كِيانِـه، ليَخْلُصَ - عبْر تلـك العمليّة - إلى أبْعَـادٍ جديدةٍ لم تكنْ جُـزْءاً من الأنْمَاطِ الأوليّة التي اعْتَمَدَ عليها، وبَدَأَ منها.

ولكـن كيف تَتَحَقَّقُ شُرُوطُ عمليّة «التَّخْصيب الفِكْريّ» بأنْمَاطِهَا المُتَعَدِّدَةِ وأشْكَالِهَا المُخْتلفـة؟. إنّ الذيـن يَعْتَقِـدُونَ أنّ بإمْكانهـم إعادة «اخْتِـرَاعِ العَجَلَة»، يُهْـدِرُونَ وَقْتَهم وجُهْدهم، والذين يُراهِنُون على بِنَاء كِياناتٍ عِلْميّةٍ مُسْتَنِدَةٍ إلى فَرَاغ، يَلْهَثُونَ وراء سَرَابٍ فـي صَحْراء قَاحِلَةٍ؛ فالتَّجْرِبَـةُ الإنْسانيّةُ، وطبيعةُ العَقْلِ البشـريّ، تُؤَكِّدانِ ضَرورة وجود «الوَسَـطِ المُلائِـم»؛ لكـي تَسْتَقِرَّ عمليّـةُ «التَّخْصيب الفِكْـريّ» في النّسيج العـامّ للبِيئة، وتَنْدَفِـعَ - بعُنْفُوانٍ تِلْقَائيٍّ - فـي مُجْتمعاتٍ قَابِلَةٍ للتّفاعُلِ معهـا، والانْصِهَارِ في بَوْتَقَتِهَا؛ ومِـن الوَاضِحِ أنّه في زمن «العلـوم والتّقْنية» فإنّ «الوَسَطَ المُلائِمَ» هـو وَسَطٌ تَسْتَقِرُّ في قَلْبِهِ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» بصفتها مُرْتَكَزاً أساساً ومِحْوَراً حيويّاً.

٩-٤) نَحْوَ «نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْمية»:

إنّ الدَّعْـوَةَ قَائِمَـةٌ فـي «المُجْتمعـات العربيّة» - علـى مُخْتلف الأصْعِـدَةِ السّياسيّة والتّعْليميّـة والثّقافيّة والإعْلاميّـة - لحَضِّ الأُمّة على اسْتِيعاب عناصِـر «الحركة العِلْميّة - التّقنيّـة - المَعْلُوماتيّة»، ولكنّها - فـي نهاية المطاف - دَعْوَةٌ غير قَادِرَةٍ على أنْ تُحْدِثَ «النَّقْلَـةَ» المَطْلُوبَةَ على الصّعيدِ الإنْتاجيّ والعمليّ، بَلْ لعلّها تُسْهِمُ أكْثر في إحْبَاطِ الأُمّة، وتَفَاقُـم «الفَجْوَة»، عبْر الاعْتقاد بـأنّ الإنْشائيّات وَحْدَها تَكْفِي، أو أنّ النّواحي التّنفيذيّة، التـي ترى في «العلوم والتّقْنية» مُجَرَّدَ أدواتٍ ومُعِـدَّاتٍ وتَجْهيزاتٍ ووسائِل، كفيلةٌ بتَحْقيقِ المُهِمَّة. ومن الوَاضِحِ أنّ فَشَلَ «النَّمَاذِج التّنْمَويّة» التي تَمَّ تبنِّيها في «المُجْتمعات العربيّة» - عبْـر قَرْنَيْـنِ من المحاولاتِ المُتَعَثِّرَة لتَحْقيقِ «النّهْضَة» - تقـودُ بالضّرورة إلى تَكْريسِ أهميّـة السَّعْـي نحو تَطْويرِ «نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْمية» يكون قَـادِراً - وفْق مَقُولَةِ نادر فرجاني - علـى أنْ: (يتفاعل جَدَليّاً مع فَهْمِ التَّغْييـر المُجْتمعيّ في الوطن العربيّ من ناحيةٍ، ومع العمل على التّغْيير من ناحيةٍ أُخْرى)[١١].

لـم تُفْلِحْ - عبْر قُرُونٍ - جُهُودُ المُفكّريـن، وأفْعَالُ السّياسيين، وصَرَخَاتُ الثّوريين، وكاريزما الزُّعمـاء، وتَخْطِيطُ الاقْتصاديين، وحَمَاسِيَّاتُ الخُطَبَـاء، وبَلاغَةُ الدُّعَاة، في إحْـدَاثِ تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّة» في حياة «المُجْتمعات العربيّة»، وإخْرَاجِهَا من نَفَقِ الهزيمة والتَّخَلُّـفِ والتَّشَـرْذُمِ والفِتَـنِ؛ وهذا يَسْتَدْعِـي - بالضّرورة - مُرَاجَعَـةَ كُلِّ تلك المراحل لاسْتِكْشَـافِ «العُنْصُـر الغَائِـب» في كُلّ تلـك الطُّرُوحـات والبرامِج والمَشْرُوعَـات. إنّنا لـن نَجْهَـدَ كثيراً لنرى أنّ هنـاك إخْفَاقاً ثقافيّاً مُرَوِّعَـاً يَتَحمّلُ المَسْؤوليـةَ الأكْبر في كُلِّ الإخْفَاقَـاتِ المُتَكَرِّرَةِ في مُحاولات «النَّهْضَـة العربيّة»، ونَتَّفِقُ هنا مع نادر فرجاني في ما خَلَصَ إليه بـأنّ: (تَطْوير نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْميـة مُهِمّةٌ شَاقّةٌ، طويلـةٌ، وتَرَاكُميّة) (١١)، إلاّ أنّ هـذا - بالضّـرورة - يَفْرِضُ إرْسَاءَ مَحَـاوِرَ رئيسةٍ، تَلْتَفُّ حولها هـذه المُهِمَّةُ الشَّاقَّة، وتَسْتَنِـدُ إليها فـي رِحْلَتِهَا الطَّويلة، وتَسْتَوْعِبُ مُقْتضياتِها العمليّـة ومُتَطَلَّبَاتِهَا التَّرَاكُميّة. إنِّـي أزْعُمُ في هذا الكِتَاب - عبْر التّحْليـل والتّدْقيق في وَاقِعِ «التَّنْمية» وتجاربها، وطبيعةِ «الثَّقافة» وتَرْكيبتِهـا - أنّ «إشْكَاليّةَ التّنْمية»، وإخْفَاقَاتِ برامِج «التَّخْطيط التّنْمَويّ»، هي - فـي الأسـاس - مُشْكَلاتٌ ثقافيّةٌ، وليستْ مُشْكَلاتٍ اقْتصاديّةً أو تقنيّةً؛ فلا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تَتَحقّقَ طُمُوحَاتُ «الإصْلاح»، وأهْدَافُ «التّنْمية»، وتَطَلُّعَاتُ «النَّهْضَة»، وأشْوَاقُ «الرّبيع العربـيّ»، دون تَحَوُّلٍ جِـذْريٍّ في القِيَم، وتَطَـوُّرٍ عَصْرِيٍّ في المفاهيـم، يَنْقُلُهَا من كَوْنِهَا مُعِيقَـةً لـ«برامِجِ الإصْـلاح» و«خُطَطِ التّنْمية»، إلـى كَوْنِهَا مُسَاعِدَةً ومُحَفِّـزَةً ودَافِعَةً إلى تَحْقيقِ تلك البرامج، وقَطْفِ ثِمَارِ تلك الخُطَط.

مـن المفاهيـم التـي أَصْبَحَتْ في حُكْـم المُسَلَّمَـاتِ فـي «الدِّراسـات التّنْمَويّة» أنّ («التّنْميـة» ليستْ ظَاهِـرَةً اقْتصاديّةً صِرْفَـاً) (١١)، وأنّ نَجَاحَ «التّنْميـة» لا يُمْكِنُ التَّعْبيرُ عنـه فقط بالمُعَدَّلِ السَّنويّ لنُموّ «النّاتج القوميّ الإجْماليّ»، ممّا يَعْني، كما يرى إبراهيم العيسـوي(١١)، أنّ: («مَفْهُومُ التّنْمية الحديث» أوسع مـن أنْ يُقَاسَ بمُتَغيِّرٍ وَاحِدٍ، حتّى إذا كان مُتَغيِّراً وَاحِداً يُشْتَقُّ من مُتَغيِّرَاتٍ عديدةٍ، وأنّ الأَمْرَ يَتَطَلَّبُ صِياغَةَ مَجْمُوعَةٍ مُتكامِلَةٍ من المُؤشِّرَات تُغَطِّي مُخْتلـف أبْعَادِ العمليّة التّنْمَويّة)، ويُضِيفُ ليقول: (وفي تَقْديري أنّ الوَقْتَ مُلائِمٌ جِدّاً لبَدْءِ جُهْدٍ مُكَثَّفٍ من جَانِبِ الأقْطار العربيّة في مجال صِياغَةِ مُؤشِّرَاتٍ

لـ«التّنْميــة العربيّــة»، انْطِلاقاً مــن فَهْم خاصٍّ لـ«التّنْمية» في ظُرُوفِ الوطــن العربيّ، لا انْطِلاقــاً من المفاهيــم التي تَعْمَلُ الــدُّوَلُ الرّأسماليّةُ المُسَيْطِرَةُ علــى تَرْويجِهَا في بلاد العَالَمِ الثّالث). وتُبَيِّنُ لنا هذه الرُّؤية أنّ من أبْرز أسْبَابِ «الإخْفَاقَاتِ التَّنْمَويّة» هو الفَشَلُ في إدْراك حقيقةٍ جوهريّةٍ، وهي - وفْق علي خليفة الكواري[11] - تُوجَزُ في أنّ: («التّنْمية الاقْتصاديّة - الاجْتماعيّة» الشّامِلَة عمليّةٌ مُجْتمعيّةٌ واعِيَةٌ ومُوَجَّهَةٌ لإيجادِ تَحَوُّلاتٍ هيكليّةٍ تُؤَدِّي إلى تَكْوينِ قَاعِدَةٍ وإطْلاقِ طاقةٍ إنْتاجيّةٍ ذاتيّة)؛ وبالتّالي يكون: (النُّموُّ الاقْتصاديّ جُـزْءٌ من مُكَوِّنَـاتِ «عمليّــة التّنْمية»، يَسْبقُـهُ الكثير من التَّوَجُّـهِ والاسْتِعْـدَادِ المُجْتمعيّ والتَّحَـوُّلاتِ الهيكليّــة، ويُصاحِبُهُ تَوَجُّهٌ اجْتماعيٌّ يَحْرِصُ على وجــودِ عَلاقَاتٍ تُؤَكِّدُ عَدَالَةَ توزيع ثمرات «التّنْمية»، وتَرْبُطُهَا عُضْويّاً بعمليّة التَّطَوُّرِ الحضاريّ).

وفي إطَارِ ذلك «النَّمُوذَجِ التّنْمَويّ» المَنْشُودِ يَنْبَغِي الاهْتِمَامُ - على مُسْتوىً قوميٍّ - بتَأْسيسِ كِياناتٍ - بجميع أنْمَاطِهَا واهْتماماتِها - مُتفاعِلَةٍ مع «الحركة العِلْميّة»، ومُهْتَمَّةٍ بـ«التّوعية العِلْميّة»، ولا يُمْكِنُ أنْ نُهْمِلَ هنا الأدْوار الأهليّة والمَدَنيّة والخيريّة والرِّبْحيّة في هذا المجال، كما يجب أنْ نُقرّ بأنّه إذا كانتْ رَغْبَةُ «القِطَاع الخاصّ» في «توطين التّقْنية» و«تَطْوير المهارات الوطنيّة» رَغْبَةً صَادِقَةً، فإنّ هـذا يَتَطَلَّبُ الإسْهَامَ الجَادَّ والمُتَوَاصِلَ في تَأْسيسِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّة - الثَّقافيّــة» القَادِرَةِ على احْتِضان قَاعِدَةٍ وَاسِعَةٍ من المُواطِنين، والدَّفْعِ بهم إلى مجالات التّقْنية والإنْتاجيّة والتّدْريب.

بطبيعــة الحــال، لا يَجُــوزُ النَّظَــرُ إلــى «عمليّــات التّنْمية» - فــي مُخْتلـف أشْكَالِهَا ومَسَارَاتِهَــا - على أنّها عمليّاتٌ مُجَزَّأةٌ؛ فكُلُّ الجوانِــب التّطْبيقيّة والتّخْطيطيّة والثّقافيّة والاجْتماعيّــة والسّياسيّــة والاقْتصاديّة مُتَدَاخِلَــةٌ ومُتَرَابِطَــةٌ ومُتَكَامِلَةٌ، وهذا مــا يُؤَكِّدُهُ يوســف صايغ بقولــه إنّ: («عمليّة التّنْميــة» تَتَطَلَّبُ تداخُل عَدَدٍ مــن العَوامِلِ الاقْتصاديّة والتِّكْنولوجيّــة والاجْتماعيّــة والثّقافيّة والسّياسيّة ضمْن آليّةٍ مُعَقَّــدَة)[11]؛ إلاّ أنّ «العَامِلَ الثَّقافــيّ» - كما يَتَّضِــحُ من فُصُول هذا الكِتَــاب - يَبْقَى صَاحِبَ التّأْثيــر الأقْوى، والأكْثر فَاعِليّــةً، لقُدْرَتِهِ علــى الانْسياب إلى دَاخِلِ كُلِّ تلــك المَنْظُومَاتِ، ودَعْمِهِ لهــا، وتَخْصيبِهِ لتفاعُلاتِها. ولذا فإنّ «المُؤَشِّرَات الثّقافيّة» يجبُ أنْ تَأْخُذَ مَوْقِعَهَا المِحْوَرِيّ في «مَنْظُومَةِ

التّنْميـة»، وعلى رأْس هذه المُؤشِّرَاتِ يَنْبَغِي أنْ يكـون «مُؤشِّرُ الثَّقافة العِلْميّة»؛ فـ«الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» – فـي نهاية المطاف – هـي القَادِرَةُ علـى «عَقْلَنَةِ الثَّقافة العربيّـة»، وإِخْراجِهَا مـن نَفَقِ الكلاميّات والإنْشائيّات وعَوالِمِ التّنْظير، إلـى وَاقِعِ التَّنْفيذ، ودِراسةِ التّفاصِيل، ووَضْـعِ المعايير الإنْتاجيّـة، وتَقْويم النَّتائج، وتَحْليـلِ المُؤشِّرَاتِ العمليّـة، وإرْسَاءِ أُصُولِ «التّفْكير العِلْميّ».

يَنْبَغِـي لنـا أنْ نَتَوَقَّفَ هنـا أمام تلك «الإشْكَالِيّـة» التي يُطْلِقُ عليهـا علي أومليل[٣٧] اسْـم «الزَّمَـنُ الإصْلاحيُّ» لتزيد مـن مَواجِعِنَا عندما يقـول: (إنّ مُشْكِلَ الـدُّول النَّامية هـو «الزَّمَنُ الإصْلاحيُّ» وكيف يُمْكِنُ اخْتزالُه، أيْ كيـف يُمْكِنُ تَدارُكُ الهُوّةِ التي تَفْصِلُهَا عـن العَالَم المُتقدِّم؟، والحال أنّ هذا الأخير تَطَـوَّرَتْ مُجْتمعاته بحركةٍ ذاتيّةٍ وفي زمانٍ غيـر مَضْغُوطٍ، ولم يكنْ أمامها مُجْتمعاتٌ جِدُّ مُتَقَدِّمَةٌ تَفْصِلُهَا عنها هُوّةٌ تاريخيّةٌ عميقةٌ تَسْتَعْجِـلُ اللّحَاق بها في زمنٍ مُخْتَزَل). وأمّا السُّؤالُ الـذي يَتَرَتَّبُ على هذه «الإشْكَالِيّة»، فـإنّ أومليـل يَطْرَحُهُ على النّحْـو التّالي: (كيف يكـونُ «الزَّمَنُ الإصْلاحـيُّ» تَرَاكُمِيّاً على مُسْتوياتٍ مُتَكَامِلَـةٍ ومُتَدَامِجَةٍ: تَرَاكُمٌ اقْتصاديٌّ يَدْمُجُ قَاعِـدَةً اجْتماعيّةً وَاسِعَةً، وتَرَاكُمٌ مَعْرِفـيٌّ لاسْتيعـاب المَعْرِفَـةِ المُتَقَدِّمَة، وتَرَاكُـمٌ ديموقراطيٌّ تُصْبِحُ فيـه الدّيموقراطيّة كثقافـةٍ وآليّـاتٍ ومُؤسَّسَـاتٍ رَاسِخَةً فـي العَقْليّةِ والمُمَارَسَـةِ رُسُوخاً لا رَجْعَـةَ فيه؟ تلك هي المَسْأَلَة).

أمّا تلك القضيّةُ – التي يرى أومليل أنّها «المَسْأَلَةُ الأساسُ» –، فإنّ أَنْجَعَ الطُّرُق إلى حَلِّهَـا وتَفْكيكِها ودَمْجِهَـا وإِحْدَاثِ تراكُماتِها، فيَكْمُنُ –كما وجدنا في ثنايا هذا الكِتاب– فـي «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَتَمَثَّلُ الطّبيعـة الدّيناميكيّة والإنْتاجيّة لـ«حركة العلوم والتّقْنية». وأمّا «قضيّـةُ الدِّيموقراطيّة» فهي نِتَاجٌ طبيعيٌّ لمُنَظَّمَاتِ «المُجْتمع المَدَنيّ» المُطالِبَةِ بحُقُوقِهَا ومُشَارَكتِهَـا، والفَارِضَةِ وجودها على «التَّرْكيبة الاقْتصاديّة والاجْتماعيّة والسّياسيّة» عبْر فاعِليّتِهـا ورِيادتِها فكمـا يقولُ أومليل: (تُسَاهِـمُ تَنْظيماتُ «المُجْتمـع المَدَنيّ» في تَنْمية الحركة الاجْتماعيّة كما في دَمَقْرَطَةِ المُجْتمع)[٣٧]. وبالتَأَمُّلِ الموضوعيّ، نجدُ أنّ «قضيّة الدِّيموقراطيّـة» تَرْتَبِطُ بما تُنْتِجُهُ «الحركةُ العِلْميّـةُ – التّقْنيّةُ» من تخصُّصاتٍ وتفرُّعاتٍ

ومهـن وهيئـات ومُنَظَّمَـات - حَامِلَةً معهـا ثقافتها واسْتقلاليّتهـا وشُرُوطَهَـا وإفْرَازَاتِهَا وضُغُوطَهَا -؛ لتتفاعلَ «قضيّةُ الدِّيموقراطيّة» وتَتَبَلْوَرَ دَاخِلَ «الدّولة الحديثة».

٩-٤-١) «مُجْتمعُ المَعْرفة» و«قضيّةُ التَّرْجَمَة»:

فـي «النَّمُوذَجِ العربـيّ للتَّنْمية»، يجب أنّ تَحْتَلّ قضيّةُ «العلـوم والتّقْنية» الأولويّة في التّفاعُـلات السّياسيّة والثّقافيّة والمُجْتمعيّـة؛ لتُؤَسِّسَ - بطبيعتِها وبمُكَوِّنَاتِهَا - اقْتصاداً حيويّـاً، وأَمْنـاً وطنيّاً، وقُـدْرَةً على «التَّفَاعُلِ الإيجابـيّ» مع هَجْمَةِ «العَوْلَمَـةِ» وتَشْكيلاتِها المُخْتلفـة. وفي هـذا الإطَارِ، تَبْـرُزُ أهميّةُ «اللّغَـة»، ودَوْرُهَا الحَاسِمُ، فـي تَعْميقِ «الهُوِيّة الثَّقافيّـة»، وتَأْصيلِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» فـي «التَّفاعُلات المُجْتمعيّة» على مُخْتلف المُسْتويـات، فكما يقولُ محيي الدين صابر: (اللّغَةُ هـي المَدْخَلُ المَشْرُوعُ إلى الحضارة المُعَاصِـرَةِ التـي بابها العِلْمُ والمَعْرِفَـة. ولتَحْقيقِ ذلك، فإنّ اللّغَـة العربيّة يجب أنْ تكون لُغَـةَ عِلْمٍ عربيّةٍ، وأنّ الطّريـق إلى هذا هو تَحْديثُهَا، ودَعْمُ طاقاتِها التّعْبيريّة، للاسْتِجَابَةِ لمُتَطلَّبَـاتِ العَصْـر، في إطار تَعْريب مُقَوِّمَـاتِ الحضارة المُعَاصِـرَةِ ومَظَاهِرِهَا بتَعْظيمِ القُدْرَة العربيّة الاجْتماعيّة)[١٨].

لقـد حَرَصْنَا - في الفَصْل الثّامن - على تَأْصيـل مَوْقِعِ «اللّغَةِ» في «الحَرَاكِ العِلْميّ - التّنْمَـويّ» وتعْزيزه، وتَحَدَّثْنَا - ببعْض الإسْهاب - عـن «الشَّرْطِ اللّغَويّ» لقيام «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وإذا كان الاسْتِشْهَادُ بأقْوَالِ المُثقّفين العرب، لدَعْم قضيّة «التّرْجَمَة والتَّعْريب»، أَمْـراً قد يـراه بعْضهم مَجْرُوحاً، فلعلّه مـن المُنَاسِبِ الاسْتِشْهَادَ بهيئـةٍ عَالَميّةٍ مُحَايدَةٍ، وهـي «مُنَظَّمَـةُ اليونسكو» حيـث أكّدَ تَقْريرُهَـا العَالَميّ[٨٣] - الصّادر فـي عام ٢٠٠٥م - أنّ «مُجْتمعـات المَعْرِفَـة» هي تلك المُجْتمعات التـي (تَرْتَكِزُ على إدْمَـاج ومُشَارَكَةِ العَدَدِ الأكْبـر)، وبالتّالـي يَنْبَغِي ليسـ فقط (تأْمين نَفَـاذٍ شَامِلٍ للمَعْلُومات، بَـلْ أيضاً مُشَارَكَة الجميـع في «مُجْتمعات المَعْرِفَة»)؛ وهذا يَفْرِضُ على «مُجْتمـع المَعْرِفَةِ» أنْ يكون مُتَمَكِّناً مـن التَّفاعُلِ بـ«اللّغَة الأُمّ» مع جَوانِـبِ المَعْرِفَةِ المُخْتلفة ليَتَمَكَّنَ مـن (التَّكَيُّف من وِجْهَةِ نَظَرٍ تِقنيّةٍ وإدْراكيّةٍ وثقافيّةٍ مع حاجات مُسْتَخْدِميها الفِعْليّين والمحلّيّين).

لقد تنادى بعضهم، في ظلِّ هَجْمَةٍ عَوْلَميّةٍ ضَارِيةٍ، إلى أنّ الطّريق الأسْرع نحو «العِلْم والتّقْنية» هو عبْر «تدْريس العلوم الأساسيّة والتّطْبيقيّة» بلُغَاتٍ أجنبيّةٍ، ورأى آخرون أنّ مدارس تتَأصّلُ فيها الهُويّاتُ الأجْنبيةُ عبْر التّدْريسِ بلُغَاتِهَا هي المَدْخَلُ الفعَّالُ إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وما دَرَوا - عفا الله عنهم - أنّ ذلك هو الطّريقُ الأكيدُ لانْدِثَارِ الاثْنَيْنِ معاً: «المُجْتمعُ» بما يُمَثِّلُهُ من هُويّةٍ وتُرَاثٍ وتَمَاسُكٍ، و«المَعْرِفَةُ» بما تُمَثِّلُهُ من تَفْكيرٍ واسْتيعابٍ وعُلوم، وهذا ما يُعَزِّزُهُ «تقْريرُ مُنَظَّمَةِ اليونسكو» في أكْثر من مقام، مُؤَكِّداً أهميّة العِنَايَةِ باللّغات الأصْليّة للسُّكّانِ ودَمْجِهَا في «الحركة المَعْرفيّة»، ومُحَذِّراً من مَغَبَّةِ إهْمَالِهَا؛ لأنّ اللّغَاتِ الأصْليّة هي: (أدواتٌ مَعْرفيّةٌ، ونَوَاقِلُ ثقافيّةٌ، وبيئةٌ تَكْوينيّةٌ لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة»)[٨٣]. من المُهِمّ الإشارة هنا إلى أنّ «تقْرير مُنَظَّمَةِ اليونسكو»[٨٣] يَهْتَمُّ بضَرورة إحْياء اللّغات المُهَدَّدَةِ بالانْقراض، ولُغَات الأقليّات وكثيرٌ منها لُغَاتٌ مَحْكيَّةٌ (ليستْ مَكْتُوبَة)، ويرى أهميّة تَفْعيلها وحِمَايَتِهَا من الذَّوبَانِ في طُوفَانِ «اللّغَاتِ النّاقِلَةِ للمَعْرِفَة»، ويُؤَكِّدُ دَوْرَهَا الحيويّ في تأْسيسِ «مُجْتمعات المَعْرِفَة» وتَحْقيقِ أغْرَاضِهَا لكي لا يكون هناك (مُسْتَبْعَدُونَ في «مُجْتمعات المَعْرِفَة»)[٨٣]. فإذا كان هذا هو الحالُ مع لُغَاتٍ مُهَدَّدَةٍ، أو مُوشِكَةٍ على الانْقراض، فما المَوْقِفُ السَّديدُ إزاء «اللّغة العربيّة»، وهي لُغَةٌ تَحْتَلُّ المَوْقِعَ السَّادس في «الأُمم المُتّحدة»، وهي «اللّغَةُ الأُمُّ» لما يَرْبُو على ثلاثمائة مليون نسمةٍ يَقْطُنُونَ في مَنْطِقَةٍ وَاسِعَةٍ من أهمّ مناطقِ العَالَم، ولهذه اللّغَة جُذُورُهَا التّاريخيّة والدِّينيّة والوِجْدانيّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة، وتُعْتَبَرُ رَمْزاً لما يفوقُ المليار من المُسْلِمين، وهي مَدْخَلُهُمْ لعلوم دينِهم، والتّفقُّهِ في عقيدتِهم؟.

في إطار كُلّ تلك التّحدّيات - للتّعامُلِ مع «إشْكَاليّةِ التّنْمية» -، يَبْدُو أنّه قد حان الوَقْتُ لأنْ يَنْتَقِلَ زِمَامُ المُبَادَرَاتِ الإعْلاميّة والثّقافيّة والمُجْتمعيّة، وإدارةِ «التّنْمية» وتَخْطيطها، إلى أيدي القَادِرِينَ على فَهْم «شُرُوطِ التّنْمية» ومُقْتضياتِها، واسْتيعابِ «معاني النَّهْضَة» ومُنْطلقاتِها، في إطَارٍ من «التّوَافُقِ التّنْمَوِيِّ» بين «الخُصُوصِيّة» و«العَوْلَمَة»، وإدْراكٍ عميقٍ لأهميّة «الفِعْلِ التّغْييريّ» لـ«الثّقافة العِلْميّة» على مُخْتلف الأصْعِدَةِ عبْر غَرْسِ «الفِكْرِ العِلْميّ» في مَنْهَجيَّتِهَا، واسْتيعابِ حقائق «العَصْرِ» في برامجِها وفعّاليّاتِهَا. لقد

أَوضحنــا - في سِيَاقِ هذا الكِتَــاب - أنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» ليس «مُجْتمعــاً نُخْبَويّاً» تمْتَلِكُ فيــه «النُّخْبَةُ» أدواتِ العَصْرِ وطُرُقَ التّعامُلِ معه، وتُخَاطِبُــهُ بلُغَتِهِ المُهَيْمِنَةِ العَالَميّةِ - أيّاً كانتْ -، ولكنّه «مُجْتمعٌ شَامِلٌ» قَادرٌ على أنْ يتفاعل - بلُغَتِهِ وثقافتِهِ وهُويّتِهِ - مع مُعْطياتِ «العَصْــرِ»، ومُسْتَجِــدَّاتِ «المَعْرِفَةِ»، بحيث تُشَارِكُ جميع الشَّرَائِــح، ومُخْتلف الفِئَاتِ، في اسْتيعــابِ «المَعْرِفَةِ» وإنْتَاجِها. إنّ هذه الحقيقة تَفْتَحُ على فضاءاتٍ وَاسِعَةٍ قارِعَةً الجَرَسَ - بقُــوّةٍ وعُنْفُوانٍ - أمام وَسَائِــلِ الإعْلام، ورجَالِ التَّعْليم، وأكاديميّــي البحوث، وأطْيَافِ «المُجْتمــع المَدَنِيّ»، وقطاعات الخِدْمَاتِ والتّدْريب والإنْتَــاجِ؛ ليتولّى كُلُّ طَرَفٍ مَسْؤوليّته لتوليد «الإرادة الجماعيّة» الوَاعِية القَادِرَةِ على قَطْعِ الأشْواط العمليّة على طريق «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهذا ما يُؤَكِّدُهُ «تَقْريرُ مُنَظَّمَةِ اليونسكو»، حيث يقول: (لن يكون بِنَاءُ «مُجْتمعات المَعْرِفَــة» عمليّــةً مُسْتَدَامَــةً إلاّ إذا سَمَحَتْ الابْتكارات التِّكْنولوجيّــة بتَجْديدِ ما دعاه بول ريكــور - عــن حَقٍّ - بـ«مُعْجِــزَةِ التَّرْجَمَةِ» التي تَشْهَدُ على القُدْرَةِ التــي سيتمتَّعُ بها دائماً الإنْسانُ على خَلْقِ مَعْنىً مُشْتَرَكٍ من الاخْتلافات، فـ«التَّرْجَمَةُ» باعْتبارها تُوَفِّقُ بين الكُلِّيِّ والمُتَنَــوِّعِ، تَسْمَــحُ بصَوْغِ أفْــكَارٍ مُشْتَرَكَةٍ، تُحَافِــظُ على تَنَوُّعِ كُلِّ فَــرْدٍ وتُثْريه)[٨٣]. ولا بُدَّ - فــي هــذا السِّياق - أنْ نُسَجِّلَ أنّ «تَقْرير مُنَظَّمَــة اليونسكو» يُعَزِّزُ - في أكْثر من مقامٍ - دَوْرَ «التَّرْجَمَــةِ» الجوهريّ في حياة «المُجْتمعــات المُعَاصِرَةِ»، فيُؤَكِّدُ أنّ: («التَّرْجَمَةُ» هي الوسيــطُ بامْتيازٍ بين التَّنَوُّعِ الثّقافــيّ وعَالَمِيّةِ المَعْرِفَة، وبهذا المَعْنَى فإنّ الخَطَّ الأساس هــو أنّه لا تُوجَــدُ لُغَةٌ كَوْنيّــةٌ، ولكن فقط مُبَادَلات بيــن المَوْرُوثَاتِ الثّقافيّــة والرّوحيّة في البَحْــثِ عن لُغَــةٍ مُشْتَرَكَةٍ، ومن هذا المُنْطلــق، فإنّ «مُجْتمعات المَعْرِفَــة» يَنْبَغي أنْ تكون «مُجْتمعات التَّرْجَمَة»)[٨٣].

كُلُّ ما سَبَقَ يَجْعَــلُ من قضيّةِ «تَعْريب العلوم» ومَشْرُوعَاتِ «التَّرْجَمَةِ والنَّشْرِ العِلْميّ» أساساً حَتْميّاً في «النَّمُوذَجِ العربيّ للتّنْمية»؛ وأمّا في سِيَاقِ الوَاقِعِ العربيّ اليوم وما يَشْهَدُهُ مــن تَرَاجُعَاتٍ وانْتِهَاكَاتٍ وإحْبَاطَاتٍ، فإنّنا نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّه إذا كان بول ريكور[٨٣] قد قَصَدَ بـ«مُعْجِزَةِ التَّرْجَمَةِ» ما يُولَدُ من رَحِمِهَا من مُنْجَزَاتٍ وقَفَزَاتٍ، فإنّ ذلك الوَصْفَ في وَاقِعِنَا العربيّ اليوم يَعْنِي أنّ «وِلادَةَ التَّرْجَمَةِ» ستكون هي - في حَدِّ ذاتها - «المُعْجِزَةَ»!.

٩-٤-٢) رَجْعُ الصَّدَى:

لقد وجدنا - في سِيَاقِ هذا الكِتاب - كيف يَعْبُرُ المُثقَّفون والمُفكِّرون العرب بخُيُولِهِمْ، الإنْشائيّ منها والتَّأمُّليّ والوَعْظيّ، على مساحاتٍ شَاسِعَةٍ من المَخَاضِ الفِكْريِّ في مُحاولاتٍ تَسْتَنْسِخُ نفسها وتَجْتَرُّ إخْفَاقَاتِهَا لمَعْرِفَةِ أَصْل البَلاء في «مُشْكلات النَّهْضَة»، ولتَشْخيصِ كُنْهِ «إشْكَاليّة التَّنْمية»، ولكنّ الحِوارَ - في نهاية المطاف - يَبْقَى وكأنّه «حِوَارُ طُرْشَانٍ»، وتَبْقَى قضيّةُ «العلوم والتّقْنية»، وهي القضيّةُ الأساسُ التي تَقَعُ في قَلْبِ «التّنْمية»، بعيدةً عن التّفْعيلِ على أرْضِ الوَاقِعِ والبَلْوَرَةِ في خُطَطِ عملٍ جَادَّةٍ، وذلك برغْم ما تَتَمَتَّعُ به من إشاراتٍ وإشاداتٍ في الخِطَابِ العامّ والجَلَسَاتِ الخاصّة والمُؤلَّفَاتِ والدِّراسات. ولا شَكّ أنّ تَحْديدَ الأُسُسِ والخَلْفيّاتِ والمُنْطلقاتِ المُرْتَبِطَة بأيِّ قضيّةٍ هو أَمْرٌ لازمٌ لبَلْوَرَةِ الإسْتراتيجيّات، وتَحْديدِ الآليّات اللاّزمة للتّعامُلِ معها، ومُعالَجَةِ إشْكالاتِها، وتَطْويرِ إيجابيّاتِها؛ ولذا فإنّ المُؤمَّلَ أنْ يُسْهِمَ الطَّرْحُ في هذا الكِتَاب في إبْرَازِ أهميّة إيلاء «الثّقافة العِلميّة» أولويّةً بَارِزَةً في القرارات السّياسيّة، والمسارات الاجْتماعيّة، والمجالات الإعْلاميّة، والاسْتثمارات الاقْتصاديّة، والمَشْرُوعات البَحْثيّة، والإسْتراتيجيّات التّعْليميّة، والبرامِج التّدْريبيّة.

وبغَضِّ النَّظَرِ عن التَّصْنيفَاتِ التي تَطْرَحُهَا «أدبيَّاتُ التّنْمية»، مِثْل مُصْطلحات: «العَالَمُ الأوّل» و«العَالَمُ الثَّالث»، أو «عَالَمُ الشَّمال» و«عَالَمُ الجنوب»، إلاّ أنّنا نَسْتطيعُ أنْ نرى أنّ الحقَائِقَ وَاحِدَةٌ، وإنْ تَعَدَّدَتْ المُسَمَّيَاتُ، وأنْ نَتَعَرَّفَ - بسهولةٍ - على تمايزاتٍ بَارِزَةٍ، واخْتلافاتٍ جِذْريّةٍ، ومُفارَقَاتٍ مُرَوِّعَةٍ، بين وَاقِعِ «العَالَم العربيّ» وأحْوالِ «العَالَم المُتَقَدِّم». ولن أتوقَّفَ مَلِيّاً أمام الاسْتِقْرَارِ السّياسيّ، والازْدِهَارِ الاقْتصاديّ، والنُّفُوذِ العَالَميّ، والإبْدَاعَاتِ الفِكْريّة، والتّفاعُلاتِ التّرَاكُميّة، التي تُمَيِّزُ «العَالَمَ المُتَقَدِّمَ» إزاء ما نُشَاهِدُهُ في «العَالَم العربيّ» من اضْطِرَابَاتٍ سياسيّةٍ، وقلاقِل اجْتماعيّةٍ، ومُشْكلاتٍ اقْتصاديّةٍ، وإخْفَاقَاتٍ تَنْمَويّةٍ؛ فتلك فُرُوقٌ جوهريّةٌ، إلاّ أنّها «نتائِجٌ» وليستْ «أسْبَاباً»؛ فهي نتائِجُ حَتْميّةٌ لمسارات مُتَنَاقِضَةٍ، حيث أَخَذَتْ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» بالشِّقِّ الأَسْهل،

وتَرَكَـتَ الشِّقَّ الأَصْعب، فتملَّكها الشَّغَفُ بالمَظَاهِرِ، والاهْتمامُ بالسَّفَاسِفِ، والتَّكالُبُ على الاسْتِهْلاكِ، وإهْمَالُ طبيعةِ التَّحدّيات، وإغْفَالُ «رُوحِ العَصْرِ».

إنّ مُعْظَـمَ التَّجلِّيَاتِ العَصْريّةِ في «العَالَم العربيّ» هي مُجَرَّدُ اسْتِعْرَاضٍ واسْتِهْلاكٍ وتَفَاخُـرٍ؛ فالأفْكَارُ يتباهى بها المُثقّفون بعد نَقْلِهَا حرْفِيّاً من مصادرِها الأجنبيّة، أو بعد أنْ يُضِيفُـوا إليها بُهَارَاتٍ بِيئيّةٍ ونَكْهَاتٍ تُرَاثيّــةٍ ولَمَسَاتٍ هَامِشيّةٍ، ثمّ بعد كُلِّ ذلك الجُهْدِ المَمْسُوخِ لا تجدُ لها على أرْضِ الوَاقِعِ تَطْبيقاً ولا نَفْعاً، وكُلُّ ما يَنْتُجُ عنها هو صِرَاعٌ فَوضويٌّ، وجَـدَلٌ عقيـمٌ، و«حِوَارُ طُرْشَـانٍ» حول شِعَـاراتٍ لا تُسْمِنُ ولا تُغْنِي من جُـوعٍ، وكُلُّ غايتها هـو أنْ تَمْنَـحَ المُثقّفين شُعُوراً زَائفاً بالزَّهْـوِ والأهميّةِ والأُسْتَاذيّةِ والرِّيَـادة. أمّا «العلومُ الحديثـةُ» التــي تَسْتَنِدُ إليها حضارةُ العَصْـرِ، وتَنْطَلِقُ منها مُقَوِّمَاتُ الحيـاة المُعَاصِرَة، فهــي – في «العَالَمِ العربــيّ» – مُجَرَّدُ عُلـومٍ للتّلقين، وحَشْوِ الأدْمِغَــة، وتوزيع الشّهادات، وتَخْريــجِ الخرِّيجين الذين يَتَوَلَّى كثيرٌ منهم إعادة «الــدَّوْرَةِ التّقْليديّة» من جديدٍ؛ وهكذا تَتَحَـوَّلُ عُلـومُ «التَّجْريب والتَّطْوير والإنْتــاج» إلى عُلوم «نَظَرِيَّاتٍ وكَلامِيَّــاتٍ»، تَعْتَمِدُ على الحَشْوِ والاسْتِظْهَـارِ بَدَلاً من المُمَارَسَةِ الإنْتاجيّةِ الفَاعِلَة، والفَهْمِ التّحْليليّ الدّقيق. وأمّا «قِصَّةُ الصِّناعة والتّقْنية» في «العَالَمِ الثَّالث»، فهي تَنْحَصِرُ – مع تَنَوُّعٍ في الكَيْفِ وتَفَاوُتٍ في الكَمِّ – في مجالات التَّجْميعِ والتَّوريدِ والتَّوزيعِ والاسْتِهْلاكِ، وهي تَنْتَهِي دائماً بأكْدَاسٍ من النِّفايات، ومُسْتودعاتٍ من الأجْهِزَةِ والمُعِدَّاتِ التي تَنْتَهِي آجالُها سريعاً لتَبْدَأَ الدَّوْرَةُ – مَـرَّةً أُخْرى – فــي اسْتِجْدَاءِ الجديد والمُتَطَوِّر. وأمّـا عن أُسْطُـورَةِ «البَحْثِ العِلْميّ» في «المُجْتمعـات العربيّة»، فحَدِّثْ ولا حَرَجَ، وهي حالةٌ جديـرةٌ بالتَّمعُّنِ والتَّدْقيق، ولا بُدَّ لنا معها من وَقْفَةٍ خاصّة.

٩-٤-٣) أسْطورَة «البَحْث العِلْميّ» في العَالَمِ العربيّ:

فــي الوَقْتِ الــذي يتعاملُ فيــه «العَالَمُ الأوَّل» مــع قضايا «البَحْثِ العِلمــيّ» على أنّها حِرْصٌ نزيهٌ على «المَعْرِفَةِ»، وجُهْدٌ جماعيٌّ تَرَاكُميٌّ، ووسيلــةٌ جَادَّةٌ لـ«التَّنْمية»، وتوظيفٌ موضوعــيٌّ للمَــوَارِدِ الطّبيعيّــة والبشريّة، فــإنّ «المُجْتمعات العربيّة» وَجَـدَتْ في «البَحْثِ

العِلْميّ» ضَالَّتَهَا لخِدْمَةِ أغْرَاضِ «التَّرْقية العِلْميّة» في الجامعات، وتَعْميقِ النَّزْعَةِ الفَرْديّة، وزيادةِ صفحاتِ «السِّيَرِ الذّاتيّة»؛ فكَثُرَتْ «الكراسي العِلْميّة»، وتَعَدَّدَتْ المُسَمَّيَاتُ، وشَحَّتْ «المدارِسُ الفِكْريّة» - أو انْعَدَمَتْ -، وتَقَلَّصَ «البَحْثُ التَّنْمَويُّ» الجَادُّ - أو انْقَرَض -. وأمّا أَبْـرَزُ الشّكاوى في «دِراسات التَّنْميـة» في «العَالَم العربيّ» فهو شُحّ المَـوَارِدِ المُخَصَّصَةِ لـ«البَحْـثِ العِلْميّ» مُقَارَنَةً بما هو مُتَاحٌ في «العَالَم الغَرْبـيّ»، ولكن «قِصّةُ البَحْثِ العِلْميّ» أكْثر تَعْقيداً من تلك الصُّورَةِ المُبَسَّطَةِ التي تُعْطِي الانْطِبَاعَ بأنّ المُشْكلة ماليّةٌ بَحْتَةٌ، وأنّه بمُجَرَّدِ التَّغَلُّبِ عليها سيَنْطَلِقُ المُجْتمعُ إلى آفاقِ «التَّنْمية والبَحْث والتَّطْوير»؛ فحقيقةُ الأَمْرِ أنّ لـ«البَحْـثِ العِلْميّ» تَشَابُكَاتٍ عميقةً وتَدَاخُـلاتٍ جِذْريّةً مع الأُطُرِ الإداريّة والاجْتماعيّة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والثّقافيّة والتّدْريبيّة ممّا يَجْعَلُ التَّعامُلَ معه في حاجةٍ إلى تَمْحيصٍ دقيـقٍ ورَبْطٍ وَاقِعيٍّ مع غيره من العَنَاصِرِ الجوهريّةِ فـي «إشْكَاليّةِ التّنْمية». إنّني أَزْعُمُ - دون تـردُّدٍ - أنّ مـن حُسْنِ الحَظّ أنّ الإنْفَـاقَ على «البَحْثِ العِلْميّ» لم يكـنْ أكْثر ممّا هو عليـه الآن؛ لأنّ «البَحْثَ العِلْميّ» يُصْبِحُ تَرَفاً وإهْدَاراً للمَوَارِدِ عندما تغيبُ «الإسْتراتيجيّةُ» الوَاضِحَـة، والأهْدَافُ المُحَـدَّدَة، والأولويّاتُ الوطنيّـة، والمعاييرُ المُنْضَبِطَـة، والثّقافةُ القَـادِرَةُ على اسْتيعـاب شُرُوطِه، والإدَارَةُ المَاهِـرَةُ المُتَمَكِّنَةُ من رَبْـطِ مُخْتلف العَنَاصِرِ وتوظيفِها - بكفاءَةٍ - في خِدْمَةِ «القضيّة التّنْمَويّة»؛ فحقيقةُ الأَمْرِ أنّ الإنْفَاقَ ليس هدفاً فـي حَدِّ ذاته، ولكنّ المَطْلُوبَ هو تَحْقيقُ الأهْـدَافِ وبُلُوغُ المَقَاصِد، كما أنّ من الضّروري أنْ تَتَوَافَرَ للمُؤَسَّسَاتِ البحثيّةِ القُدْرَةُ على إدارةِ مُخَصَّصاتِها بكفاءَةٍ وفَاعِليّة.

عندما تَتَشَتَّتُ الجُهُودُ البَحْثيّة، وتَتَمَحْوَرُ الاهْتمامَاتُ حول بُحُوثِ «التَّرْقية العِلْميّة»، وتَتَسَابَـقُ الجامعـاتُ - أو مُعْظَمُهَـا - نحـو الوَهَجِ الإعْلامـيّ؛ وعندما تَتَكَدَّسُ الأجْهِزَةُ والمُعِـدّاتُ فـي مَعَامِـلَ تَفْتَقِرُ إلى الخِبْـرَاتِ الحقيقيّة والكَـوَادِرِ المُسَانِـدَةِ القَادِرَةِ على الصِّيانـة والتّشْغيل والتّطْوير؛ وعندمـا تَتَّجِهُ الأنْظَارُ إلى الشَّكْليّـات الدِّعَائيّة والمَظَاهِرِ المُزَيَّفَـةِ بعيداً عـن الفَاعِليّةِ المُنْتِجَة والجوهـرِ العِلْميّ، فإنّ أيَّ مَبْلَـغٍ مَرْصُودٍ لن يَصُبَّ في خِدْمَةِ «الأغْرَاضِ التّنْمَويّة». قد تَكْثُرُ البُحُوثُ المَنْشُورة، وتَتَمَدَّدُ السِّيَرُ الذّاتيّة، ولكنّ انْعكاساتهـا الحقيقيّة علـى العمليّة الإنْتاجيّـة، والتّعْليم النَّافِع، والازْدهـار الاقْتصاديّ،

والإضافة المَعْرفيّة، تَظَلُّ مَحْدُودَةً وقاصِرَةً إزاء حَجْمِ الإنْفَاقِ الفِعْليّ والبَهْرجَةِ الإعْلاميّة الصّاخِبَـة. إنّ من بدهيّات «الاقْتصاد» - على المُسْتـوى الفَرْديّ والجماعيّ - أنّ «كَفَاءَةَ الأداء» ليستْ مُرْتَبطَةً بـ«حَجْمِ الإنْفَاقِ»، فمن الضّروري النَّظَرَ إلى اعْتبارات أُخْرى يكون بعْضها أكْثر أهميّةً من الدِّرْهَم والدِّينَار، بَلْ في حالاتٍ كثيرةٍ يكون العَكْسُ صحيحاً، حيث تُغْرِي وَفْرَةُ المال بالتَّوسُّعِ دون طَائِل.

إنّنـا نُخْطِـئ كثيـراً إذا سَمَحْنَا لخيالِ الشُّعَـرَاءِ أنْ يُداعِبَنَا؛ فنتصـوَّرَ أنّ مَجْمُوعَةً مـن الأبْحَاثِ المُتَفَرِّقَةِ والمُتَوَالِدَة، مهمـا كان دَعْمُهَا وعَدَدُهَا، ستَنْقُلُ المُجْتمع من مَوْقِعِ «المُسْتَهْلِـك» إلـى مَوْقِـعِ «المُنْتِج»؛ فمِثْلُ تلـك التَّصـوُّرات تَعْكِسُ سوء فَهْـم لخَصَائِص «الحركـة العِلْميّـة - التّقنيّة» التي تَحْتَاجُ إلى «عمـلٍ جماعيٍّ» مُتَرَاكِمِ الجُهُـودِ، ومُتَكَامِلِ القَسَمَـاتِ، يَصُـبُّ في اتِّجَاهَـاتٍ وَاضِحَةٍ وأولويّـاتٍ وطنيّةٍ ثَابِتَـةٍ، وتَتَّسِعُ أُطُـرُهُ وقَنَوَاتُهُ لتتفاعـل مع الخُطَـطِ التّعْليميّة، والأنْشِطَـةِ الابْتكاريّة، والبـرامج التّدريبيّـة، والتَّوَجُّهَاتِ الثقافيّـة، والسِّياسـات الإعْلاميّـة، وضَوابِـطِ «التّنسيـق الدّاخِليّ»، ومفاهيـمِ «الإدارة العِلْميّة»، ومَشْرُوعَاتِ «التّعاون الدّوليّ»، وغير ذلك كثير.

وأمّـا الحقيقةُ الأُخْرى، فهي أنّ «البَحْثَ العِلْميّ» ليس إلاّ جُزْءاً من «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنيـة»، ووَجْهاً مـن أوْجُهِهَا الجوهريّة، ولذا لا نَسْتطيعُ أنْ نتعامـل معه بمُفْرَدِهِ بمَعْزِلٍ عـن بقيَّةِ المُكَوِّنَاتِ التي تتلاقحُ وتتفاعلُ لتُنْتِجَ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» بكُلِّ مُعْطياتها وإنْجازاتِهـا وانْطلاقاتِهـا؛ فـ«البحْـثُ العِلْـميُّ» في بيئَتِـهِ الصّحيحةِ هو جُـزْءٌ من ثقافةٍ قَـادِرَةٍ على تَعْبِئَةِ الجُهُودِ، واسْتِقْطَابِ المَوَاهِبِ، وتَفْعيلِ «العمل الجماعيّ»، والتّنْسيقِ بين الإمْكَانَـاتِ والمَوَارِدِ، وتوفيرِ البُنَى التّحْتيّة اللاّزِمَـةِ لتَحْقيقِ «البيئة المُنَاسِبَة» لاسْتيعابِ مُكَوِّنَـاتِ «مَنْظُومَـةِ العلوم والتّقْنية». ومن المُهِـمّ - بدايةً - أنْ نَهْتَـمَّ بتَحْقيقِ الاسْتفادة القُصْوى من القُوى البشريّة والتّجْهيزات الأساس المُتَوَافِرَةِ في مُخْتلف الجامعات ومَوَاقِعِ البَحْـثِ ومؤسَّسَاتِ التّقْنية والصّناعة، ومن المُهِـمّ - أيضاً - أنْ نَتَغَلَّبَ على ما يُؤدِّي إلى تَعْطيـلِ الإمْكَانَاتِ وضَيَاعِ الفُرَصِ وهَدْرِ الطَّاقَاتِ؛ وعندمـا يَتَحَقَّقُ ذلك التّفعيلُ للآليّاتِ المُتَاحَـةِ لبُلُوغِ درجةٍ مَقْبُولَةٍ من الإنْجازِ والتّنْسيق والإنْتاجيّة، نَسْتطيعُ ساعتها أنْ نُطالِبَ

بزيـادة الإنْفَاقِ على «البَحْثِ العِلْميّ» من مَنْظُورٍ إسْتراتيجيٍّ، وقِرَاءةٍ وَاقِعيّةٍ، ومَشْرُوعَاتٍ مُبرْمَجَةٍ - زمنيّاً وماليّاً ومكانيّاً -.

لقـد قُلْنَا إنّ ما تُبْرِزُهُ القِـرَاءةُ السّريعةُ عن أوضاعٍ مُمَيِّزَةٍ لـ«العَالَم الأوّل» هو مُجَرَّدُ أعْرَاضٍ ونتائِج لأسْبَـابٍ وإسْتراتيجيّاتٍ امْتَلَكَـتْ زِمَامَهَا تلك «المُجْتمعـاتُ المُتَقَدِّمَةُ»، وهَيَّـأتْ البُنَـى التّحْتيّـة والآليّات العمليّـة لتَنْفيذِهـا وتَعْميقِها، بينما اهْتَمَّـتْ مُجْتمعاتُ «العَالَمِ الثَّالثِ» بصِياغَـةِ المُبَرِّرَاتِ، وبَلْوَرَةِ المُسَوِّغَاتِ، وتَكْريسِ الشَّكْليَّاتِ، والبَحْثِ عن «المَشَاجِب»؛ فالأعْذارُ دائماً مُتَوافِرَةٌ لكُلِّ شيءٍ وأيِّ شيءٍ. وأمّا الانْضِبَاطُ في أُطُرٍ مَنْهَجِيّةٍ وَاضِحَـةِ الملامِح، والأخْـذُ بالأسْبَابِ الجوهريّـة، ورَسْمُ المَسَار، والصَّبْـرُ على تَنْفيذِه، والدِّقّـةُ في مُتَابَعَتِه، والمُحَاسَبَةُ على التَّقْصير، فإنّ ذلـك كُلَّه ليس من شِيَمِ الكِرَام عند الأمْجَـادِ في «العَالَمِ الثَّالث»؛ وهكذا رَاحَتْ هذه المُجْتمعاتُ تَحُومُ حول «الحِمَى التّنْمَوِيّ» ولا تَقَعُ فيه.

وفـي سِياقِ البَحْثِ عن الأسْبَـابِ الجوهريّة التي قَادَتْ إلى ذلـك التَّصْنيفِ القَائِم بيـن «العَالَمِ الأوّل» و«العَالَمِ الثَّالث»، وأحْدَثَتْ الفُرُوقَ الكُبْرى بين المُجْتمعات في عَالَمِنَا اليـوم، يَنْبَغِي أنْ نَتَوَقَّفَ أمـام مَقُولَةِ جورج سارتون، وهو يُـؤَرِّخُ لحِقَبٍ طويلةٍ من التّاريخ البشـريّ، ليَخْلُصَ إلى أنّ: (الفَرْقِ الفِكْريّ العظيم بين البشـر ليس بسبب الجُغْرافيا أو الجَوانِـبِ العِرْقيّة، ولكن بين أولئك الذيـن يَفْهَمُونَ ويُطَبِّقُونَ «المَنْهَـجَ التَّجْريبيّ»، وبين أولئـك الذيـن لا يَفْهَمُونَـهُ ولا يُطَبِّقُونه) (٩٣). أمّا قضيّـةُ فَهْمِ «المَنْهَـجِ العِلْميّ» وتَطْبيقه فهـي مَدْخَلٌ وَاسِـعٌ تتشابكُ عنـده القضايا وتَتَنَـوَّعُ التَّحدِّيات، وهو يَحْتَـاجُ - في المقام الأوّل - إلـى تَأْسيسِ «التّفْكيـرِ العِلْميّ» وتَأْصيلِهِ في البيئة، وتَدْريـبِ العُقُولِ على التّحْليلِ والاسْتِنْبَـاطِ والاسْتِقْرَاء، وتَحْفيـزِ المُجْتمعات على العملِ الإنْتاجـيّ والمُمَارَسَةِ العمليّة؛ وكُلُّ هـذا يَتَطَلَّبُ عزيمةً قويّـةً وأولويّاتٍ ثَابِتَةً؛ ولأنّ قَنَوَاتِهِ صَعْبَـةٌ، والأَخْذَ بأسْبَابِهِ شَاقٌّ، فـإنّ «العَالَمَ الثَّالثَ» رَضِيَ من الغنيمةِ بالإيـاب. ويَضَعُ جورج سارتون إصْبَعَهُ على جوهرِ القضيّـة حيث تُعْزَى إليه مَقُولة: (إنّ «العلوم الحديثة» هي «شُمُوليّة المَعْرِفَةِ الإيجابيّة»)؛ فلقد أخْفَقَتْ مُجْتمعاتُ «العَالَمِ الثَّالث» أمام تحدِّياتِ «العلوم الحديثة» وشُرُوطِ «التّقْنية»؛

لأنّهـا تَخلّتْ عن «المَعْرِفَـةِ الإيجابيّة»، وتَركَتْها لمُجْتمعاتِ «العَالَـم الأوّل»، وانْصَرَفتْ – كما هو ظَاهِرٌ للعِيان – إلى مُحاولاتٍ عَنْتَريّةٍ تارةً، ومُسْتَكينةٍ تارةً أُخْرى، في خِضَمِّ «رُدُودِ فِعْـلٍ» آنيّةٍ، واسْتِجَابَاتٍ غَريزيّةٍ للأحْدَاثِ ومُجْريات الأُمُور؛ وكُلُّ ذاك أَمْرٌ سَهْلٌ وتِلْقَائيٌّ، وأمّـا «الفِعْلُ الرِّياديُّ» المَطْلُوبُ فقد هَجَرَتْهُ طَوْعَاً أو كَرْهَاً، وهو اتِّخَاذُ القَرَارِ الصَّعْبِ في الوَقْتِ الصَّعْبِ للهدفِ الصَّعْب.

وأمّا الخُلاصَةُ، فإنّه من الوَاضِحِ – عبْر هذا الطَّرْحِ – أنّ «النَّمُوذَجَ العربيّ للتّنْمية» يَنْبَغِـي أنْ يَحْتَضِنَ في مُخْتلف مساقاتِه التّربويّـة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والمُجْتمعيّة تلك «الرُّؤيَةَ الحضاريّة – الثَّقافيّة» لجوهرِ طبيعة «العلوم والتّقْنية»، ودَوْرَهَا الرِّياديّ في تَنْميةِ المُجْتمع وازْدِهَارِهِ واسْتِقْرَارِهِ وأَمْنِه؛ وبالتّالي فإنّ تلك «الرُّؤية الشَّامِلَةَ» يَنْبَغِي أنْ تَقعَ في قَلْبِ «مَنْظُومَةِ التّنْمية»، وتُمَثِّلَ الأُسَّ الأكْبَرَ في نَمُوذَجِهَا لتَمْكينِ قَواعِدِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتَرْسيخِ أَرْكَانِه، وتَطْويرِ فَعّاليّاتِه.

٩-٥) العَلاقَة بين «الثّقافة» و«التّنْمية»:

لقـد حَرَصْـتُ – في هـذا الكِتَاب – علـى التّأكيـدِ علـى أنّ العَلاقَةَ بيـن «التّنْمية» و«الثَّقافة» هـي «عَلاقَةٌ عُضْويّةٌ» حيث يَحْتَاجُ كُلٌّ منهما للآخَرِ لكي يُحقِّقَ وجوده، ولذا تجدُ «إشْكَاليّـةُ التّنْميـة» جُذُورَهَا في «مُعْضِلَةِ الثَّقافة». قد يَبْدُو هذا الطَّرْحُ على قَدْرٍ كبيرٍ من التّبْسيط، وأنّه لا يَأْخُذُ في الاعْتبارِ الطّبيعةَ المُعَقَّدَةَ لـ«عمليّة التّنْمية»، ولكن مهما تَنَوَّعَتِ العَنَاصِـرُ المُتداخِلَـةُ في تفاعُلاتِ «العمليّـة التّنْمَويّة»، فإنّـه لا يُمْكِنُ التَّهْويـنُ من شَأْنِ «التَّأْثيـرِ الثَّقافيّ»؛ بَـلْ إنّ كُلَّ عُنْصُرٍ من عَنَاصِرِ «التّنْميــة» مُرْتَبِطٌ – بالضّرورة – برُؤيةٍ ثقافيّةٍ، وهذا ما يُؤكِّدُهُ مالك بن نبيّ بقوله: (كُلُّ وَاقِعٍ اجْتماعيٍّ هو في أَصْلِهِ قِيمَةٌ ثقافيّةٌ خَرَجَتْ إلى حَيِّزِ التّنْفيذ)[٢٨]. تلك الحقيقةُ تَجْعَلُ «الثَّقافة العِلْميّة»، وهي جَوْهَرُ قضيّتِنا في هذا الكِتَاب، ذات بَاعٍ طويلٍ في تَفْعيلِ «ثقافةٍ مُعَاصِرَةٍ» قَادِرَةٍ على أنْ تَحْتَضِنَ بَرَاعِمَ «التّنْمية»، وتُطَوِّعَ مُعْطياتِها، وتُؤَمِّنَ مُقْتضياتِها. وفي الوَقْتِ نفْسه تَنْتَصِبُ «ثقافةُ العلوم» – فـي حَـدِّ ذاتها – لتكـون قضيّةً في حَاجَةٍ إلى الكثيـرِ من الدِّراسة والتَّعْميـق والتَّأْصيل

والتَّطْوير والتّفْعيل لأدواتِها ووسائِلها لجَعْلِهَا مُكَوِّناً رئيساً من مُكَوِّنَاتِ «الثَّقافة السَّائِدَة»، وعُنْصُـراً حيويّاً قَـويَّ التَّفاعُلِ ودَائِمَ التَّأْثيرِ في «قضيّة التّنْميـة» ومُتَغيِّرَاتِهَا الدّيناميكيّة العمليّـة وحَرَاكِهَا المُجْتمعيّ. كُلُّ هذا يَجْعَلُ من قضيّة «الثَّقافة العلميّة» تَحَدٍّ قَائِم في حَدِّ ذاتــه، ولا يُمكنُ التّعامُـلُ - بنجاحٍ مَلْموسٍ - مع «فضاءات التّنْميــة» المُتَعَدِّدَةِ إلاَّ بإعْطاءِ هذه القضيّة حَقَّهَا من الاهْتمامِ والدِّراسةِ والبَحْثِ والدَّعْمِ والتَّكْثيفِ والتَّفْعيل.

ومـن الأسْئلــة المُهمّة التي يجـبُ أنْ تَشْغَلَ ذِهْـنَ المُتَأمِّلِ للوَاقِعِ العِلْمـيّ - الثَّقافيّ سؤالُنــا: (إذا كان «مَفْهُــومُ الثَّقافــة العِلْميّــة» ومضامينُــه ومُقْتضياتُــه قــد اسْتَقَرَّتْ في العَقْـلِ والوِجْـدَانِ الغَرْبيّ عبْر «عمليّةٍ تَرَاكُميّةٍ» لها تجاذُباتُهــا وتحدّياتُها ومُعَوِّقَاتُهَا على مــدى ثلاثة قُرُونٍ، فهل يَلْزَمُ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» انْتِظَــارَ الفتْرة نفْسها ليَتَأصَّلَ «الوَعْيُ العِلْمــيُّ» في نسيجِها الحياتيّ، وتَتَكَثَّفَ «العَنَاصِــرُ المَعْرفيّةُ» و«الرُّؤى التّنْمَويّة» في بِنْيَتِهَا الذِّهْنيّــة؟). إنّ هــذا السُّــؤال - في حَــدِّ ذاته - يُمَثِّــلُ «تحدّياً» كبيراً أمــام «المُجْتمعات العربيّــة»، ويَسْتَدْعِــي «اسْتِجَابَــةً» تتناسـبُ مــع حَجْمِــهِ ودَلالاته وامْتداداتــه. ومن ذلك المُنْطَلـقِ، يَنْبَغِـي أنْ نَهْتَمَّ بصِياغَةِ برامِجِ ومَشْرُوعَاتٍ تُمَثِّلُ مُبَــادَرَاتٍ رِياديّةً شَامِلَةً على «المُسْتــوى الوطنــيّ» ذات اسْتِقْطَابَــاتٍ وتداعياتٍ وتأْثيراتٍ على مُخْتلِــف الجَبْهَاتِ - في القِطَاعَيْنِ العامّ والخاصّ - للوصولِ إلى «العُمْقِ المُجْتمعيّ»: تفاعُلاً، وإحْصَاءً، وتَأْسيساً لقَواعِدِ البيانات، ونَشْراً للمفاهيم العِلْميّة، وتوظيفاً للمَوارِدِ البشريّة والإمْكَانَاتِ الماليّة؛ وبذلــك تكونُ «الثَّقافةُ العِلْميّــةُ» بمَثَابَةِ المَرْكَبَةِ القَادِرَةِ على توصيــل حُمُولَتِهَا الثّقافيّة - العِلْميّة بكفاءَةٍ إلى مُخْتلف مَوَاقِعِ المُجْتمع وشَرَائِحِه.

ومــن المُهــمّ أنْ تكون تلــك المُبَــادَرَاتُ والمَشْرُوعَاتُ قَــادِرَةً على اخْتِــرَاقِ «البِنْيَةِ الثّقافيّة والتّعْليميّــة والإعْلاميّة والمُجْتمعيّة»، فتتمتَّعُ بِصِفَةٍ مُؤسَّسِيّةٍ ذات صِبْغَةٍ تفاعُليّةٍ لتُؤَصِّــلَ أبْعَادَ «الثَّقافة العِلْميّة» فــي المُجْتمع، وتُشَيِّدَ الجُسُورَ مع فِئَاتِــهِ المُخْتلفة، وتَفْتَحَ القَنَــوَاتِ بين «الحركــة العِلْميّــة - التّقنيّة» والتَّفاعُــلاتِ المعيشيّة والثّقافيّــة والتّنْمَويّة، وتُسْهِــمَ في تَهْيِئَــةِ مُنَاخٍ تَزْدَهِرُ فيــه «الثَّقافةُ العِلْميّــةُ» بصفتها «ظَاهِــرَةً اجْتماعيّةً» لها فَاعِلِيّتُهَــا وصداهــا وامْتداداتُهــا. ولأنّ «الزَّمَــنَ» - في حَــدِّ ذاته - يُمَثِّلُ أحــد التَّحدِّيات

الكُبْرى لجيــل «الأَلفيّة الثّالثة»، فإنّ طبيعة التَّرَاكُمَاتِ المُؤهِّلَــةِ لإحْدَاثِ «النَّقْلَة النَّوْعيّةِ» المَنْشُــودَة ستتطلّبُ مُواصَفَاتٍ خاصّةً، فليس من المَعْقُــولِ خَوْضُ مَعْركةٍ بأَسْلِحَةٍ صَدَأَتْ بفِعْلِ الزّمن، ولا يَجُوزُ قَبُولُ الأَعْذَارِ والمُبَرِّرَاتِ ونحن نتعاملُ مع «مُقَدِّمَاتٍ» لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تقودَ إلى «النَّتَائِجِ» المَنْشُودَة. إنْ كنّا جَادِّين في مُوَاجَهَةِ «تَحَدِّيات العَصْرِ» والانْطَلاقِ فــي «آفَــاقِ التَّنْمية» فلا مناص من رُؤيةٍ شَامِلَةٍ تَهْتَمُّ بصياغَــةِ «مَشْرُوعَاتٍ وطنيّةٍ» تَمْتَلكُ خاصيّةَ «الدَّفْعِ الذّاتيّ» و«التَّكَاثُرِ المُتَلاقِحِ» لتَسْتَوْعِبَ مُعْطياتِ «الزَّمان» و«المكان» لتَسُدَّ فَجْــوَةَ «البُعْدِ الزَّمْكَانيّ» الــذي تَطرَّقْنَا إليها في الفَصْلِ الثّالث، ولتَدْفَعَ بالطَّاقَاتِ الشَّابَّةِ على طريقِ الإنْتاج والإبْداع والابْتكار، ولتَنْتَزِعَهَا من دَوَّامَاتِ العَجْزِ والإحْبَاطِ والغُرْبَةِ في عَصْرِ التَّفوُّقِ العِلْميّ والهَيْمَنَةِ التّقنيّة.

وفي نهاية المطاف، فإنّ من المُهِمّ أن نَسْتَوْعِبَ حقيقة أنّ الأَمْرَ يَرْتَبِطُ برُؤيةٍ تُدْرِكُ أنّ «التَّغْييــرَ الثَّقافيّ» يَتطَلَّبُ زَمَناً وصَبْــراً، وأنّ «الثَّقافة العِلْميّة» – بطبيعتِها ومضامينِها – قضيّــةٌ تَرَاكُميَّــةٌ، والمُهِمُّ هو توظيفُ آليّاتٍ وبرامِج ذات رُؤيَــةٍ بعيدةِ المدى قَادِرَةً على التّأثير الفعَّال، وقَابلَةً للقِياسِ والتّحْليلِ والتّقْييم والتّصْحيح. ومن المُهِمّ – أيضاً – إدْراك أنّ لـ«الثَّقافــة العِلْميّــة» دَوْراً مِحْوَرِيّاً في مُعَالَجَــةِ مُعْظَمِ الهُمُوم التــي يَطْرَحُهَا المُثقَّفون العرب، مثْل: «قضيّةُ المَرْأَةِ»، و«قضيّةُ الوَحْدَةِ العربيّة»، و«قضيّةُ الدِّيموقراطيّة»، وغيرها من «إشْكَالاتِ النَّهْضَةِ» و«طُرُوحَاتِ التّنْمية». وبالرّغْم من أنّ هذه الموضوعات – في حَدِّ ذاتها – تَحْتَاجُ إلــى أسْفَارٍ ومُدَوَّنَاتٍ للإحَاطَةِ بتداخُلاتِهَا وتشعُّباتِهَا، إلاّ أنّنا نُعَرِّجُ عليها علــى عَجَلٍ، وفي إيجازٍ قد يَبْلُــغُ درجة التَّبْسيط، إلاّ أنّه ضَروريٌّ لإرْسَاءِ المُنْطَلَقِ الأَساسِ لمُعَالَجَةِ هذه القضايا، ولإبْرازِ الدَّوْرِ المِحْوَرِيّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في هذه المُعَالَجَة.

٩-٥-١) «قضيّة المَرْأة» في «المُجْتمعات العربيّة»:

لقد عَزَا «تَقْريرُ التَّنْمية الإنْسانيّة العربيّة لعام ٢٠٠٢ م»[١٥] – الصَّادر عن «بَرْنامج الأُمَــم المُتَّحدة الإنْمائيّ» – أَسْبَــابَ «الأَزْمَةِ التّنْمَويّة» في المنْطقــة العربيّة إلى نَواقِص ثلاثــة، كان أحدهــا «النَّقْصُ فــي تَمْكين المــرأة»؛ وعمومــاً، فــإن أوضاع «المَــرْأة» في

«المُجْتمعـات العربيّة»، وما يَدُورُ - منْذ أمدٍ طويـلٍ - عن دَوْرِهَا في المُجْتمع، وما يَعْتَريه مـن ضبابيّـةٍ أو تَهْميشٍ أو ظُلْمٍ، موضوعٌ ما زال يَحْتَـلُّ الوَاجِهَةَ في التّفاعُـلاتِ الثّقافيّة والسّياسيّـة والاقْتصاديّـة والاجْتماعيّـة السّائِدَة. وبغَضِّ النَّظَرِ عن طبيعـة المُدَاوَلاتِ المَطْرُوحَةِ في السّاحة العربيّة، وتَفَاوُتِ درجة حِدَّتِهَا من مُجْتمعٍ إلى آخَر، فإنّ من المُهِمّ أنْ نُـدْرِكَ تلـك الحقيقـة التي تَنَبَّـهَ لها مالك بن نبـيّ منْذ أواخر الأربعينـات من القَرْن الماضـي عندما قـال: (ليستْ «مُشْكِلَةُ المَرْأَةِ» شيئاً نَبْحَثُه مُنْفَـرِداً عن «مُشْكِلَةِ الرَّجُل»، فهمـا يُشَكِّلانِ في حقيقتِهما مُشْكلةً وَاحِـدَةً هي مُشْكِلَةُ الفَرْدِ في المُجْتمع)[٢]. ومن هذا المُنْطَلَقِ تُصْبِحُ «قضيّةُ المَرْأَة» جُزْءاً من «المُعْضِلَةِ الثَّقافيّة» التي تعيشُها الأُمّة، ولا يُمْكِنُ حَلُّهَا بقـراراتٍ وتأمُّلاتٍ وانْفعالاتٍ ومُزايـداتٍ واسْتفزازاتٍ، ولكنّها تَكْمُـنُ في «التَّصَوُّرِ الثَّقافـيّ» الذي يَفْهَـمُ «رُوحَ العَصْرِ» ومُقْتضياتِه، ويُدْرِكُ «دَوْرَ الفَـرْدِ» وإسْهاماتِه، ويَهْتَمُّ بـ«التَّنْمية» وشُرُوطِهَا، ويَسْتَوْعِبُ حقيقةَ أنّ «الوطن مِلْكٌ للجميع»، وأنّ «مُسْتَقْبَلَ المُجْتمعِ» رَهْـنٌ لتضافُرِ جُهُودِ «الرَّجُلِ» و«المَرْأَةِ» على حَدٍّ سَواءٍ، وتَمَثُّلِهِمَا الجَادِّ لـ«التَّفْكيرِ العِلْميّ» والالْتِزَامِ الأخْلاقيّ والعمليّ بـ«التّنْمية» ومُعْطياتِها.

إنّ «المَـرْأَة» و«الرَّجُـلَ» شَرِيكَانِ في صِنَاعَـةِ «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَهْتَـمُّ بصَالِحِ المُجْتمع، فكِلاهما طاقاتٌ كَامِنَةٌ يَنْبَغِي تَفْعيلُها نحو «المُسْتَقْبَل»، ورُؤاه التّنْمَويّة، وتفاعُلاتِه الحيويّة، ومعانيـه الإنْسانيّـة؛ ليُصْبِحَ للفَرْدِ - ذَكَراً كان أمْ أُنْثَى - قِيمَةً ومكانةً، ويكون اعْتِزَازُ الفَرْدِ بما يُحْسِنُهُ ويُتْقِنُهُ ويُنْتِجُهُ للمُجْتمع، فليس الهدف كما يقول مالك بن نبيّ أنْ تَتَحَوَّلَ «المَرْأَةُ» إلـى (صُورةٍ مُشَوَّهَةٍ للرَّجُـل)[٢]، ولكن الهدف أنْ تتكامل جُهُودهمـا، وتُؤَمِّنَ حُقُوقهما في بَوْتَقَةٍ «إنْسانيّةٍ - تَنْمَويّةٍ - عِلْميّةٍ» تَذُوبُ فيها، أو تَتَبَخَّرُ منها، تلك الحساسيَّاتُ الغَرَائِزِيَّةُ، والانْفعـالاتُ الاجْتماعيّـةُ، والمُبَالَغَاتُ الكلاميّةُ، وأنْمَاطُ التّغْريـبِ المَمْسُوخَةِ التي كانتْ - وما زالتْ - عَائِقاً أمام قِيَامِ «المَرْأَةِ» بدَوْرٍ فَاعِلٍ في «المُجْتمعات العربيّة».

مـن المُهِـمِّ - إذاً - تَرْسيخُ تلك «الثَّقافة التّنْمَويّة» برُؤاهـا الشّامِلَة، وحِرْصِهَا على المعانـي الإنْسانيّة ومَكَانَةِ الفَرْدِ فيها؛ وبـذا تَتَعَزَّزُ هُوِيَّتُهُ، وقِيَمُ مُجْتمعِه، عبْر تلاقُحِ تلك العناصـرِ الحيويّـة مع قِيَمِ المُجْتمـع وتَطَلُّعَاتِهِ في بَوْتَقَةٍ تكونُ فيهـا، كما قال زكي نجيب

محمود: (الحَوَافِزُ من الدِّينِ والوَسَائِلُ من العِلْم)[٢٠]. إنّ الدّوْرَ الرِّياديّ لـ«الثّقافة العِلْميّة» - في هذه الحالة - هو في إشَاعَةِ رُؤيةٍ ثَاقِبَةٍ، وَاضِحَةِ الملامِح، وبَارِزَةِ التّفاصيل، تَحْتَكِمُ بعَقْلانيّةٍ إلى «شُرُوطِ العِلْم» و«ضَوابِطِ الدِّين» في «تَوَافُقٍ تَنْمَوِيٍّ» يُعَزِّزُ «مَفْهُومَ الأولويَّات»، ويَسْبُرُ أغْوَارَ الدّيناميكيّة اللّازِمَةِ لتَفْعيلِ أُصُولِ «الثَّقافة السَّائِدَة»، ومَنْحِهَا رُوح عَصْرِهَا وفَاعِليّتها الاجْتماعيّة في تفاعُلاتِها مع أفْراد المُجْتمع - ذُكُوراً وإنَاثاً -.

وفي نهاية المطاف، نَطْرَحُ من جديدٍ ما وَضَعَهُ مالك بن نبيّ كإطَارٍ عامٍّ في حَاجَةٍ إلى كثيرٍ من التّفْصيلِ والتّوصيفِ والتّدْقيقِ حيث يقول: (إنّ قضيّتنا مَنُوطَةٌ بذلك التّرْكيب الذي من شَأْنِهِ إزالة التّنَاقُضَاتِ والمُفَارَقَاتِ المُنْتَشِرَة في مُجْتمعنا اليوم، وذلك بتَخْطيطِ «ثقافةٍ شَامِلَةٍ» يَحْمِلُهَا الغنيُّ والفقيرُ، والجَاهِلُ والعَالِمُ، حتى يَتِمَّ للأَنْفُسِ اسْتِقْرَارُهَا وانْسِجَامُهَا مع مُجْتمعها، ذلك المُجْتمعُ الذي سوف يكون قد اسْتَوَى على تَوَازُنِهِ الجديد)[٢]. نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّ ذلك «التّوَازُنَ الجديد» سيتحقَّقُ في ظلِّ «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» تُحَرِّكُ «آليّاتِ التّنْمية»، وتَحْكُمُ مساراتِها، وتَحْتَكِمُ إلى «الشُّرُوطِ التّنْمَويّة»، و«المَقَاصِدِ الشَّرْعِيّة»، والفَهْمِ الحقيقيّ لـ«رُوحِ العَصْرِ» دون انْبِهَارٍ أو انْكِفَاءٍ؛ وسيكونُ لـ«المَرْأةِ» دَوْرُهَا الرِّياديّ مع شقيقها «الرَّجُل» في مُجْتمعٍ يَتَوَلَّى كُلُّ فَرْدٍ فيه أمْرَ ما يُحْسِنُهُ، ويَتَفَوَّقُ في مجال مهارتِه ومَوْهِبَتِه، ويصوغُ الإجابات لمُشْكلاتِه من وَاقِعِ «الحَرَاكِ التّنْمَويّ»، ويَسْتَمِدُّ أشْكالَه الحياتيّة من مَكَامِنِ الإنْجازات المَلْمُوسَة، ويتفاعلُ - بعَقْلانيّةٍ ورَوِيّةٍ - مع هُوِيَّةِ المُجْتمع وقِيَمِهِ وتطلُّعاته.

٩-٥-٢) قضيّة الوَحْدَةِ العربيّة:

من أبْرز ما شَغَلَ أذْهان «المُجْتمعات العربيّة» هي «قضيّةُ الوَحْدَةِ» بين أبْناء الشَّعْبِ الوَاحِد من ناحيةٍ، وبين الشُّعُوب العربيّة المُخْتلفة من ناحيةٍ أُخْرى، ولقد جَرَتْ مُحاولاتٌ عِدَّةٌ - سياسيّةٌ وفِكْرِيّةٌ وثقافيّةٌ وثوريّةٌ واقْتصاديّةٌ - نحو إرْسَاءِ النَّوَى الوَحْدَوِيّة، ولا نَسْتطيعُ - بعد حِقَبٍ طويلةٍ من التّجْريبِ والمُعَانَاةِ - إلاّ أنْ نُؤكّدَ أنّ مُعْظَمَهَا قد باء بالفَشَلِ المُطْلَقِ، بينما بعضها واصل تَعَثُّرَهُ وتَقَهْقُرَه؛ وأمّا الكِياناتُ العربيّةُ القائمةُ

فتُهَدِّدُهَـا انْفِصَامَـاتٌ طَائِفيّةٌ وعِرْقيّـةٌ وأيديولوجيّة. وبالرّغْم من تَعَـدُّدِ الأسْبَابِ لذلك الفَشَـلِ والتَّعَثُّـرِ، إلاّ أنّ قَاصِمَةَ الظَّهْرِ تَكْمُنُ في غِيَابِ «البُعْـدِ التّنْمَويّ» الذي يَسْتطيعُ أنْ يَجْمَـعَ النّاس حول مُعْطياتِه التي تَمْتَصُّ طاقاتِهـم، وتَصْقُلُ إبْداعاتِهم، وتُفَعِّلُ قُدْراتِهم، وتَنْشُـرُ الرَّفَـاهَ والازْدهـار. وتَتَأكّدُ تلك الحقيقةُ فـي «التَّجْرِبَةِ الأوروبيّـة» التي نَجَحَتْ – فـي عُقُودٍ قصيرةٍ – فـي أنْ تَقْطَعَ خُطُواتٍ كبيرةً على طريـقِ اتِّحادِها وتكامُلِ تفاعُلاتِها الاقْتصاديّـة والسّياسيّة والتّنْمَويّة، وذلك بالرّغْم من اخْتلاف لُغَاتِهَا وثقافاتِها، وما فيها مـن صِرَاعَاتٍ قديمةٍ وحديثةٍ وحُرُوبٍ دمَويّةٍ، تَسَبَّبَتْ في إشْعَـالِ نيران حَرْبَيْنِ عالَميَّتَيْنِ في القَرْنِ العشرين أكلتا الأخْضر واليابس، وقضتا على أرْوَاحِ ملايين البشر. وأمّا السُّؤالُ الذي قد يَبْدُو مُحَيِّراً فهو: (كيف نَجَحَتْ أوروبا بكُلِّ تلك الفُرُوقِ والتّنَاقُضَاتِ في أنْ تَصْنَعَ كِيَانَهَا الاتّحادي المُتَطَوِّرَ المُوَاكِبَ لمُشْكلاته، والمُتَّسِعَ – أفقيّاً ورأْسيّاً –، في الوَقْتِ الذي فَشَلَـتْ فيه تَجَارِبُ العربِ الوَحْدَويّة والاتّحَادِيّة بالرّغْم ممّا يَجْمَعُ بين شُعُوبِهَا من رَوابِطِ اللّغَة والتّاريخ والثّقافة والدِّين؟).

إذا كان «الوِجْـدَانُ العربـيُّ» يَحِـنُّ إلـى تلـك «الوَحْـدَةِ الشّامِلَـةِ»، وكان «التَّاريخُ» و«اللّغَـةُ» و«الثَّقافةُ» و«الدِّينُ» عناصر مُقوِّمَاتِهَا، فـإنّ المُشْكلة – إذاً – لا تَكْمُنُ في غِيَابِ الإرادة والرّغْبَـة والحماس، ولكنّها تَتَجَلّى في غِيَـابِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّةِ» القَادِرَةِ على إسْنَادِ «التّجْرِبَـةِ الوَحْدَوِيّةِ التّكامُليّـةِ»، وتَطْويرِ مُعْطياتِها بحيث تُحَافِـظُ على مصالِح الجميع، ويَسْتَفيدُ منها الجميع، وهذا لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّقَ إلاّ في إطَارِ «حَرَكَةٍ تَنْمَويّةٍ» أصيلةٍ وَاسِعَةِ النِّطَـاقِ، وعميقةِ التّأثير. إذا كان مَطْلَـبُ «الوَحْدَة» غايةً نِهائيّةً، وطُمُوحـاً قوميّاً، ورُؤيةً عمليّـةً، لأهميّـة «التّكَتُّـلِ الإسْتراتيجيّ» بيـن مُجْتمعاتٍ تـرى وَحْدَتَها مُتَجَـذِّرَةً في لُغَتِهَا ودِينِهَـا وجُغْرافيّتِهَا وتاريخِها، فإن هنـاك بالضّرورة، كما يرى يوسف صايغ[11]، (مراتب ومراحـل يَنْبَغِي اسْتهدافُها تَبْدَأُ بالتّعاون المُنَسَّق، وتَمْتَدُّ إلى التّكامُل، فالانْدِمَاج، لتَنْتَهي بالوَحْـدَة)؛ وأمّا «مَفْهُومُ التّنْمية العربيّـة» فيَنْبَغِي أنْ: (يَرْتَقي من مُجَـرَّدِ انْتِقَالِ أنْمَاطِ ومَسَـارَاتِ «التّنْميةِ القُطْريّةِ» من حالةِ التّعَارُضِ والتّنَاقُضِ فيما بينها في بعض جَوانِبِهَا، إلى حالةِ عدم التّعَارُضِ والتّنَاقُضِ).

وفي هـذا السِّياق تَبْرُزُ «الثَّقافةُ التَّنْمَويّةُ» (انْظر: الفَصْل الخامس) بصفتها عَامِلاً يَحْمِـلُ تَوَافُقَاتِهِ وضَوَابطَهِ وأُطُـرَهِ التي تتجاوزُ الوَاقِعَ القُطْـرِيّ والخُصُوصِيّاتِ المحليّة؛ فـ«التَّنْميةُ» هي الهدفُ على المُسْتوى القُطْرِيّ والقوميّ؛ لأنّ حقيقةَ الأَمْرِ كما يُؤَكِّدُ يوسف صايغ[١١] هي أنّ: («الوَحْدَة» دون «التَّنْمية» تَظَلُّ ضعيفةً ومَهْزُوزةً وعقيمةً دون ثَمَرٍ)، وفي أغْلَبِ الأَحْوال - كما تُؤَكِّدُ التَّجَارِبُ العربيّة - تؤولُ تلك «التَّجَارِبُ الوَحْدَوِيّة» الخَالِيَةُ من «الرُّؤيـةِ التَّنْمَوِيّةِ» الجَـادّةِ إلى الفَشَلِ والاضْمِحْلالِ والصِّرَاعِ، وكمـا يُؤَكِّدُ يوسف صائغ: (إنّ «الوَحْـدَةَ» لا يُمْكِنُ أنْ تُعمِّرَ طويلاً إذا نَجَمَ عنها إبْطَاءٌ مُسْتَمِرٌّ في مسيرة «التَّنْمية»، وخَفْضٌ لأدائها، وخَلَلٌ في بِنْيَتِهَـا). إنّنا إذا اتَّفَقْنَا مع ما يراهُ لؤي صافي بأنّ: («الثَّقافة النَّاهِضَــة» تتميَّـزُ بخصيصَتَيْنِ رئيسَتَيْـن: ١) القُدْرَةُ على توليد تضامُـنٍ دَاخِلِيٍّ، يَتَمَثَّلُ بتعـاون أَفْـراد المُجْتمع النَّاهِضِ، وتلاحُمِهِـم وتكامُل جُهُودِهم. ٢) القُـدْرَةُ على تَحْرِيرِ الطّاقةِ الخَلاّقةِ المُبْدِعَـةِ للفَرْدِ والجماعة، وبالتّالي تَمْكينُهم من تَطْويرِ أدواتِهم وزيادةِ فَاعِليّتِهـم)[١٦]؛ أقـولُ: إذا اتَّفَقْنَا مع تلك الرُّؤية، فإنّنا نرى أنّ تلك الشُّرُوطَ لا تَتَحَقّقُ إلاّ في إطَـارِ ما عَرَّفْنَاهُ بـ«الثَّقافة التَّنْمَوِيّة» التي تكونُ قَلْبَهَـا ومِحْوَرَهَا «ثقافةٌ عِلميّةٌ» نَشِطَةٌ تتفاعـلُ مع «الحَرَكَـةِ العِلْميّة - التّقنيـة» مُسْتَقْطِبَةً الجُهُـودِ، ومُطَوِّرَةً للمَـوَارِدِ، وصَاقِلَةً للخِبْرَاتِ، ومُعَزِّزَةً للمهارات.

٩-٥-٢- أ) الوظيفة التّاريخيّة» لـ«الثّقافة العربيّة»:

يـرى محمد عابـد الجابـريّ[٥٩] أنّ «الوظيفة التّاريخيّـة» لـ«الثَّقافـة العربيّة» هي: (وظيفةُ التَّوحيـد المَعْنَوِيّ، الرُّوحيّ والعَقْلِيّ، وظيفةُ الارْتِفـاع بالوطن العربيّ من مُجَرَّدِ رُقْعَةٍ جُغْرافيّةٍ إلى وِعَاءٍ للأُمّة العربيّة لا تكونُ إلاّ به، ولا يكونُ إلاّ بها)، ويتساءَلُ الجابريّ: (كيف العملُ على تَقْويةِ وتَنْميةِ هذه الوظيفة التّاريخيّة للثّقافة العربّية حتّى تَسْتطيع الدَّفْعَ بالنُّزُوعِ الوَحْدَوِيّ في الوطن العربيّ خُطُواتٍ حَاسِمَةٍ إلى الأمام وعلى المُسْتويات كافّةً؟).

وأمّا محمد جابر الأنصاريّ[٢١]، فيرى ضَرورَةَ نُضْجِ «الدّولة القُطْرِيّة» وتَحَوُّلِهَا إلى «مُؤَسَّسَـةِ دَولةٍ حقيقيّةٍ»؛ لكي يكون الطّريـقُ مَفْتُوحاً إلى «الوَحْدَة»، فيقول: (إنّ «الوَحْدَة»

تَمُرُّ عبْـر تَنْمية وإنْضَـاج «الدَّولـة القُطْرِيّة» وليسـ تَدْميرها، فـ«الوَحْـدَةُ» لن تكون غير حَاصِـلِ جَمْعِ الوَحْدَاتِ القُطْرِيّة، والأصْفَارُ لا تَتَحَـوَّل إلى وَاحِدٍ صحيح، ذلك أنّ الأعْداد الصّحيحـة والسّليمـة والمُتَعَافِيَـة - وحدها - تُنْتِجُ عَـدَداً صحيحاً أكْبر منهـا). وسَواءٌ كان المَسَـارُ على طريـقِ «الوظيفة التّاريخيّة» لـ«الثّقافة العربيّة» يَبْـدَأُ من مَواقِعِ «الدّولة القُطْرِيّـة»، أو يَنْطَلِقُ من رِحَـابِ «الوَحْدَة العربيّة» الجَامِعَة، فـإنّ أيّاً من ذلك لن يَتَحَقّقَ فـي إطَارٍ سَـوِيٍّ، إلاّ بتَحْقيقِ انْدمَـاجِ «المُواطِن» فـي مُجْتمعه عبْر «التّنْميـةِ» والمُشَارَكَةِ و«التّجَانُسِ الثّقافيّ» والمَرْدُودِ النّفْعيّ؛ ويَخْلُصُ محمد عابد الجابريّ إلى أنّ: (التّعَارُض بيـن كَوْنِ «الدّولة القُطْرِيّة» العربيّة حقيقـةً وَاقِعَةً لا يُمْكِنُ القَفْزُ عليه، وبين ضرورة قيام نَوعٍ جِدّيٍّ من «الوَحْدَةِ العربيّة» لمُوَاجَهَةِ مُتَطَلَّبَاتِ التّقدُّم، تعارُضٌ يُمْكِنُ تجاوزُه لمصْلحةِ هذا الأخير بتَعْميقِ الوظيفة التّاريخيّة لـ«الثّقافة العربيّة» بالصُّورة التي تُمَكِّنُ العرب من الانْخِرَاطِ الجماعيّ الفَاعِلِ في عَصْرِنَا: عَصْرُ العِلْمِ والتِّقانة)[1]. وهكذا تُصْبِحُ «الرُّؤيةُ التّنْمَويّةُ»، المُسْتَنِدَةُ إلى فَهْمِ وَاقِعِ العَصْرِ ومُتَطَلَّبَاتِهِ العِلْميّة والتّقنيّة، مَطْلَباً أساساً على طريـقِ تَهْيئةِ هـذه الوَحْدَاتِ؛ لتكون أعْـداداً مُتَعَافِيَةً وصحيحةً قَادِرَةً علـى تَحْقيقِ وَحْدَةٍ مُتماسِكـةٍ وفعّالَةٍ، ولتُصْبِحَ هـذه «الرُّؤيةُ التّنْمَويّةُ» أكْثر دَلالـةً وأشدّ ضرورةً لتجاوز تلك الآفَـةِ المُتَكَـرِّرَةِ في «المُجْتمعـات العربيّة» التي وَصَفَهَا محمد جابـر الأنصاري بـ«القَفْزِ الخَطِـرِ في الفَـرَاغِ السّياسيّ» الذي يَفْتَقِدُ: (برنامج العمـل السّياسيّ المُتَحَدِّد والالْتِزام اليوميّ الطّبيعيّ بالتّمَرُّسِ والعطاء المَدَنِيّ والسّياسيّ في مجالاتِها المُحَدَّدَة)[21].

إنّ «قضيّـةَ العـرب مـع السِّياسَـةِ» ذات إشْكاليّـاتٍ تاريخيّـةٍ وجُغْرافيّـةٍ ووِجْدانيّةٍ واجْتماعيّةٍ وتُرَاثيّةٍ مُعَقَّدَةٍ ليس هنا مقام تَفْصيلها، ولكن مُعَالَجَةَ محمد جابر الأنصاري لهـا تُبيِّنُ أنّ من أخْطـر مَواقع الخَلَلِ في الحياة العربيّة المُعَاصِرَةِ والطُّرُوحَاتِ الوَحْدَوِيّةِ تلـك «المُفَارَقَـةُ» القَائِمَةُ بين: (قُـوّة «الرّوابِطِ المَعْنَوِيّـة» في الدِّينِ واللّغَـةِ والشُّعُورِ بين العـرب؛ إلى جَانِبِ ضَعْفٍ شديدٍ في «الرّوابِطِ المادّية» الوَاقِعيّة بينهم من حيث الارْتباط الحياتـيّ الوَاقِعيّ، المعيشي والعمليّ، في مُخْتلف جَوانِـبِ الدّولة والاقْتصاد والمُؤسّسات المُشْتَرَكَـة. إنّ العرب يُعَانُونَ من تَضَخُّمٍ في «المَعْنَوِيّاتِ» مع ضُمُورٍ شديدٍ في «المَادِّيّاتِ»

المُوَحِّـدَةِ بينهـم)[٢١]. وأمّا زكي نجيب محمود، فقـد أَلْمَحَ إلى هذا «المَـأْزِقِ السِّياسيّ» القديـم - الجديـد قبل حوالي نِصْفِ قَرْنٍ، عندما كتب يقـول: (كَلاَّ يا ابْنَتي، لا تَسْأليني عـن أيديولوجيا اليَسَارِ واليَمِين، بَلْ اسْأليني عن طريـقِ «النَّظَرِ العِلْميّ» كيف يكون؟ لعلّ شُعَاعـاً منه أنْ يُبَدِّدَ شيئـاً من هذا الظَّلام الكثيفِ الذي ساعد علـى قِيَامِهِ - وأسفاه - نَفَـرٌ مـن قَادَةِ الكلمة مَقْـرُوءَةً ومَسْمُوعَة)[٣٨]. ومَرَّةً أخْـرى - إذاً - تُطِلُّ قضيّةُ «الثَّقافة التَّنْمَويّـة» (انْظر: الفَصْل الخامـس) - بصفتها وِعَاءً قَادِرً على تَفْعيـلِ الطّاقات، وخَلْقِ الإنْتاج، وتَطْويرِ المَوَارِد، وتوليدِ عَنَاصِرِ التَّغَلُّبِ على تلك «المُفَارَقَة»، وتَقْويضِ دعائِم ذلك الخَلَلِ الذي يَتَرَبَّصُ بمُحاولاتِ «الوَحْدَةِ»، وجُهُودِ توثيق الأوَاصِرِ بين «الدُّول القُطْرِيّة».

وأمّـا المَخْرَجُ - من هـذا الإشْكاليّات - الذي يَخْلُصُ إليـه محمد جابر الأنصاري فيَتَمَثَّـلُ في «خُطّةِ عملٍ عربيٍّ» أحد أهـمّ دعائمِها: (اعْتمادُ السِّياسَـة العربيّة، والثَّقافة العربيّـة، على الأساس المَعْرفـيّ العِلْميّ للقضايا التي تُوَاجِهُهَـا)[٢١]. وهكذا نَسْتطيعُ أنْ نقـول إنّ نُموَّ «الوَحْـدَاتِ القُطْرِيّة» ونُضْجَهَا لـن يتحقَّقا إلاّ بهَيْمَنَةِ «ثقافـةٍ تَنْمَويّةٍ» تكون «العلـوم والتّقْنية» وسيلتَهـا وسَنَدَهَا ووَقُودَهَا؛ وبالتّالي لن تَتَحَقَّقَ تلـك «الوَحْدَةُ العربيّةُ» التـي يَتَغَنَّـى بها العرب، وتَرْقُصُ عليها مَشَاعِرُهُـمْ، وتَتَأَجَّجُ بها عَوَاطِفُهُـمْ، ما لم تكنْ نِتَاجـاً طبيعيّاً لـ«وَحْدَاتٍ قُطْرِيّةٍ» تَعَمَّقَـتْ جُذُورُهَا التَّنْمَويّة، وتواصلتْ تفاعُلاتُهَا العمليّة، وتشابكَـتْ مَصَالِحُهَـا الاقْتصاديّة، وتَوَطَّـدَتْ رَوَابِطُهَا الماديّة على أُسُـسٍ عِلْميّةٍ وتقنيّةٍ ومَعْرفيّـةٍ، وانْتَشَرَتْ - بين فِئَاتِهَا المُخْتلفة وشَرَائِحِهَـا المُتباينة - «ثقافةٌ عِلْميّةٌ» نَشِطَةٌ تَشُدُّ من عَضُدِهَا، وتُوَثِّقُ عَنَاصِرَهَا، وتُرْسِي دعاماتِها، وتُؤَلِّفُ بين مُكَوِّنَاتِهَا.

٩-٥-٣) قضيّة الدِّيموقراطيّة:

إنّ الشَّدَّ والجَذْبَ بين الحكوماتِ والشُّعُوبِ ظَاهِرَةٌ أزليّةٌ، فشُعُوبُ أوروبا لم تَكُنْ في عُصُورِهَـا الوسْطى بمَعْزِلٍ عن هذا الصِّرَاعِ والتَّجَاذُبِ، ولكنّ «مِيزان القُوى» لم يَمِلْ إلى صَالِـحِ اسْتِقْرَارِ «المُؤَسَّسَاتِ الدِّيموقراطيّة» وتطوُّرِهَا، إلاّ عندما اسْتَقَرَّتْ «سفينةُ العلوم والتّقْنيـة» عنـد مَرْسَى الإنْتاج والتَّطْوير والابْتـكار. وحقائِقَ التّاريخِ تُؤَكِّـدُ أنّه كُلّما ازداد

وَعْـيُ الشُّعُوبِ بقُدْرَاتِهَـا الكَامِنَةِ في صُنْعِ حياتِهـا ومُسْتَقْبَلِهَا، وارْتَفعَـتْ مهاراتُها، ونما رصيدُهـا الإنْتاجيّ، مال «مِيـزانُ القُوى» إلى صَالِحِ الشُّعُوبِ فـي ضَبْطِ الأداءِ الحكوميّ، وتَحْديدِ مَسْؤوليّات الحكومة، ووَاجِبَاتِ الدَّولة، وحُقُوقِ المُواطِن. إنّ هذا الوَعْيُ، المُنْبَثِقُ عـن مُقوِّمَاتِ «العِلْمِ والتّنْميةِ والإنْتاج»، يَتَسَلَّلُ - بالضّرورة - إلى الأجْهِزَةِ الحكوميّة على مُخْتلـف الأصْعِدَةِ والمُسْتويات؛ لأنّه من البدهيّ أنّ العَامِليـن في هذه الأجْهِزَةِ، وصَانِعِيّ القَـرار، هم نِتَـاجُ لمُجْتمعاتِهم، ويتفاعلون مـع وَعْيها وثقافتِهـا وإبْداعاتِها، وهذا الوَعْيُ المُشْتَـرَكُ والمُتنامـي بين الحكومـةِ والشَّعْبِ هـو خير ضَامِـنٍ لـ«التّنْميـة المُسْتَدَامَة»، و«الاسْتِقْـرَارِ الشَّامِل»؛ وهذا يَعنِـي أنّ التَّحَوُّلَ إلى «الدِّيموقراطيّـة» لا يَنْشَأُ من عَدَم، أو يَتَحَقَّـقُ بضَغْطَةِ زِرٍّ، ولكنّه مَرْهُونٌ بشُرُوطٍ تَعْليميّةٍ وثقافيّةٍ وإنْتاجيّةٍ، ومُرْتَبِطٌ بمُسْتوياتٍ لائِقَـةٍ من الرَّفَـاهِ والإبْدَاعِ والعَقْلانيّـة. وفي ظِلِّ «ثقافـةٍ تَنْمَويّةٍ» يُحَرِّكُهَـا دينامو «العِلْمِ والتّقْنيـة»، سيصوغُ كُلُّ مُجْتمـعٍ - وفْقَ هُويّتِهِ وتاريخِهِ ومُعْطياتِـهِ وقِيَمِهِ - ذلك النَّوْعَ من «الدِّيموقراطيّة» الذي يُحَقِّقُ «التَّوَازُنَ» بين «التَّغْيير» و«المُشَارَكَةِ الفَاعِلَة»، وبين «الفَوْضَى» و«الانْفِلاتِ الكَارِثيّ».

بإيجـازٍ، نَسْتطيعُ أنْ نقـول إنّ هناك شَرْطَيْـنِ لازِمَيْنِ لتَشَـكُّلِ «الدِّيموقراطيّة» في المُجْتمـع، ولتَحْقيـقِ مُمَارَسَتِهَـا الإيجابيّة من قِبَلِ أفْـراده؛ أوَّلُهما: «شَـرْطٌ قَبْلِيٌّ» يَنْبَغي تَوَافُـرُهُ - ابْتداءً - ليُسْهِمَ في تَخَلُّقِ «الدِّيموقراطيّـة» واسْتِقْرَارِهَا في المُجْتمع، وهو تَنَوُّعُ الفُرَصِ الإنْتاجيّـةِ للمُواطِن، وتَعَدُّدُهَا - كَمّاً وكَيْفاً -؛ ليكون لهـذه الفُرَصِ دَوْرٌ فَاعِلٌ في تَحْقيـقِ بيئة رَخَاءٍ عامٍّ يَسْعَى الجميع إلى المُحَافَظَةِ عليهـا وتَنْميتِها؛ لأنّ لكُلٍّ منهم فيها نَصيباً، وكُلُّ منهم غَارِمٌ بجُهْدِهِ، وغَانِمٌ بمَكَاسِبِهِ. وهذا «الشَّرْطُ القَبْلِيّ» لا يَتَحَقَّقُ إلاّ في بيئةٍ نَشِطَ فيهـا «الفِكْرُ العِلْميّ»؛ ليُعَمِّقَ «آليّاتِ العِلْم» و«وَسَائِلَ التّقْنية» و«أدواتِ الإنْتاج»، ويُشْرِكَ العَدَدَ الأكْبر من أفْرَادِ المُجْتمع في سِيَاقَاتِهِ وأنْمَاطِهِ وحَرَاكِه.

وأمّـا «الشَّـرْطُ الثّانـي» فهو «شَـرْطٌ بَعْـدِيٌّ» يَتَطَلَّـبُ وَعْياً بـ«رُوحِ العَصْـرِ» وأنْوَاعِ «التَّحَدِّياتِ» وأشْكَالِ «الاسْتِجَابَةِ» المَطْلُوبَةِ لها؛ لأنّه الضّامِنُ لاسْتمراريّةِ «الدِّيموقراطيّة»، ومُمَارَسَتِهَا الفَاعِلَةِ، وتَطْويرِ آليّاتِ «المُشَارَكَةِ الجماعيّة». وهذا «الشَّرْطُ البَعْدِيّ» يَتَطَلَّبُ

- أوّل ما يَتَطَلَّبُ - انْتِشَارَ «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» وَاسِعَةِ النِّطَاقِ؛ تَسْتَوعِبُ المُتَغَيِّرَاتِ، وتَضْبِطُ إيقَاعَاتِ «التَّفاعُلِ الإيجابيّ»، وتَدْفَعُ بالإبْدَاعِ والمَوَاهِبِ لتَطْويرِ عطاءاتِ المُجْتمع، وتَأْسيسِ «اقْتصاد المَعْرِفَة» الذي تُؤَسِّسُهُ العَنَاصِرُ البشريّةُ في «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتُطَوِّرُهُ المُؤَسَّسَاتُ الوطنيّةُ القَادِرَةُ على اكْتِسَابِ «المَعْرِفَةِ» -الحاليّة والمُسْتقبليّة - واسْتيعابِها وإنْتَاجِها ونَقْلِها وتَسْويقِها - بفعّاليةٍ وكَفَاءَةٍ - لرَفْعِ درجة النُّموّ، وتَحْسين القُدْرَاتِ التّنَافُسِيّة. وهذا ما نَوَّهَ به التّقْريرُ الأمريكيُّ المَوسُومُ «التَّعْليمُ لعَصْرِ العِلْم» الذي صدر في عهْد الرئيس آيزنهاور حيث ورد فيه: (يَنْبَغِي للمُواطِنين - في «المُجْتمع الدِّيموقراطيّ» اليوم - فَهْمُ العلوم؛ ليتمكّنُوا من المُشَارَكَةِ الدِّيموقراطيّةِ الوَاسِعَةِ والوَاعِيَةِ في العديد من القرارات القوميّة)[٤٤]؛ وأمّا جلين سيبورج، فيرى: (إنّ مبادئ العلوم تُهَيْمِنُ على العديد من قضايا اليوم والغد؛ فإذا كان جَوْهَرُ الدِّيموقراطيّة - كما أَعْتَقِدُ - هو مُمَارَسَةُ التّأْثير بوساطة النّاس المُطَّلِعِين، فإنّ هذا يَعْنِي أنْ تكون المبادئ البسيطة للعلوم مُتأسِّسَةً على نِطَاقٍ وَاسعٍ في المُجْتمع)[٤٤].

وهكذا نجدُ أنّ «الدِّيموقراطيّة» ليستْ آليّةً تُسْتَوْرَدُ، ولكنّها تَجْرِبَةٌ تَصُوغُهَا الأُمّةُ من وَاقِعِ ثقافتِها ومَوْرُوثِهَا وتفاعُلاتِها وتَجَارِبِهَا، و«الدِّيموقراطيّة» تَتَحَرَّكُ - بالضّرورة - دَاخِلَ «آليّات التّنْمية»، وتَنْمُو في رَحِمِهَا، وتَتَبَلْوَرُ عبْر تفاعُلاتِها، حيث المَطْلَبُ - في الحَالَتَيْن: القَبْليّة والبَعْدِيّة - هو «المُشَارَكَةُ الجماعيّةُ الواعيةُ» على مُخْتلف المُسْتويات لتَحْقيقِ ذلك «المُجْتمع المَعْرِفيّ» الذي يَقْتَنِصُ فُرَصَ «الزَّمَان»، ويُدْرِكُ مُعْطياتِ «المكان»، ويَسْتَنِدُ - في صِياغَةِ مُقَوِّمَاتِهِ - إلى «تَوَافُقٍ تَنَمَوِيٍّ»، ورُؤًى مُتَجَدِّدَةٍ، وثوابت هي كالرَّواسِي تَمْنَعُ أَرْضِيَّةَ المُجْتمعِ أنْ تَمِيدَ بأَهْلِهَا.

٩-٦) حالة «القُصور الذّاتيّ»... إلى متى؟:

سعينا بين طَيَّاتِ هذا الكِتَابِ إلى تَأْكيدِ «الوَجْهِ الثّقافيّ للعلوم والتّقْنية»، وضَرورةِ مُوَاكَبَتِهِ للحَرَاكِ الثّقافيّ والمُجْتمعيّ؛ لتَعْزيزِ أداءِ «العلوم والتّقْنية»، وفَتْحِ فُرَصِهَا، واسْتكشافِ آفاقِها، وتَعْميقِ آليّاتِها في المُجْتمع. وهذه الحقائِقُ تُؤَكِّدُهَا تَجَارِبُ «الدُّول

المُتَقَدِّمَـة» ونجاحاتُها، وتُعَمِّقُهَا مُعَانَـاةُ «الدُّول النَّامية» وتَعَثُّرُهَـا، ويُمكِنُ اخْتِصَارُ هذه الحقائِـق في أنّ «إشْكَالِيّـةَ التّنْمية» تَتَفَاقَمُ عندما نُهْمِلُ حقيقـةَ أنّ «العلوم والتّقْنية» هي فِكْرٌ وثقافةٌ وطريقةُ حياةٍ، قبل أنْ تكون أدواتٍ نَسْتَوْرِدُهَا، أو أَجْهِزَةً نَسْعَى إلى تَصْنيعها؛ فهنـاك شُـرُوطٌ أخْلاقيّـةٌ وعَقْليّةٌ وقِيميّـةٌ وثقافيّةٌ لازِمَـةٌ للإنْسان لكي يَدْلِـفَ إلى عَالَم «صِنَاعَـةِ الحضارة المُعَاصِرَة»، ويَسْتَوْعِبَ عَنَاصِـرَ التّقدُّم والتّطوُّر، فكما يقولُ علي علي حبيشـن: (إنّ مَوْقِـفَ المُجْتمـع والأفْراد تِجَـاهَ الإبْـداع والابْتكار والتّغْييـر والإصْلاح هي عَنَاصِرُ أساسيّةٌ للتّنْمية والتّقَدُّم العِلْميّ)(٣٩).

لقـد أُهْمِلَ «البُعْدُ الثّقافيّ» فـي التّفاعُلاتِ الثّقافيّة، والخُطَـطِ التّنْمَويّة، والبرامِج الاجْتماعيّة فـي العَالَم العربيّ؛ ممّا أثّرَ سَلْباً في قضايا تَحْفيزِ الابْتكارات، ودَفْع «البَحْثِ العِلْميّ»، و«توطين التّقْنية»، وتأْصيلِ «التّنْمية»، وتَطْويرِ «التّعْليم». إنّه من المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ «مَنْظُومَـةَ العلـوم والتّقْنيـة» ليستْ مُجَرَّدَ عَابِـر سبيلٍ يُنْجِزُ مُهِمّتَـهُ ويَمْضي إلى حال سبيلـه، ولكنّها أُسْلوبُ حياةٍ، وطريقـةُ تَفْكيرٍ، ومَنْهَجُ عملٍ، ويَنْبُوعُ ثقافـةٍ؛ فقُدْرَتُهَا على الإنْجازِ تتناسبُ طَرْدِيّاً مع قُدْرَتِهَا على التَّحَوُّلِ إلى «ظَاهِرَةٍ اجْتماعيّة» تَحْتَلُّ مَوْقِعاً قِياديّاً فـي ثقافة «الإنْسان المُعَاصِـرِ» ووَعْيِه وسُلُوكِه. وإذا كان عَدَدٌ كبيـرٌ من المُثقّفين العرب يـرى ما يراه محمـد عابد الجابريّ(٦٧) بأنّ أبْرز عُيُوب «الثّقافة العربيّة» هي أنّها «خِطَابُ وِجْدَانٍ» وليستْ «خِطَابَ عَقْلٍ»، فإنّ الطّريقَ الأبْرَزَ لتَحْويلِ «خِطَابِ الوِجْدَانِ» إلى «خِطَابِ العَقْـلِ»، والانْتِقَالِ من «مَرْحلة الانْفِعَالِ» إلـى «مَرْحلة الفِعْل»، إنّما هو عبْر تَنْميةِ «الثّقافة العِلْميّـة» وأُسُسِهَـا المَعْلُوماتيّـة، ومَنْهَجِهَا التّجْريبِـيّ، ومُقَوِّمَاتِهَا الفِكْريّـة، وعَنَاصِرِهَا العَقْلانيّة، وضَوابِطِهَا الصّارِمَة.

أَدْري أنّ (النَّاسَ أعْـدَاء مـا جَهِلُوا)، ولكن «العلـوم والتّقْنية» أَصْبَحَـتْ ضَرورةً لا مناص منها؛ وبالتّالي، فإنّه يَنْبَغِي أنْ يكون على رأْس الأولويّات الوطنيّة - في المُجْتمعات العربيّـة - الاهْتمام بوَضْـعِ البرامِجِ والإسْتراتيجيّات للتَّغَلُّب على ذلـك الجَهْلِ، وتَقْليصِ مِساحـة ذلك «العَدَاءِ الخَفِيّ»، وتوليـدِ عَنَاصِر «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» مـع «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية» التي أَصْبَحَتْ - دون جِدَالٍ - قضيّة «حياةٍ أو مَوْتٍ» للأُمّة.

أَدْرِي أنّ من سُنَنِ الله «ظَاهِرَةَ القُصُور الذّاتيّ» الفيزيائيّة التي تَسْرِي على الحَجَرِ، وتَنْطَبِقُ على البَشَرِ، وهي ظَاهِرَةٌ طبيعيّةٌ يُوَضِّحُ أبْعَادَهَا «القانونُ الأوّلُ لنيوتن للحَرَكَة» في الفيزياء الذي يَنُصُّ على أنّ: (الأجْرام في الطَّبيعة تُقاوِمُ التّغْيير، وتَميلُ إلى البَقَاءِ على حالتِها، ما لم تُؤَثِّرْ فيها قُوىً خَارِجيّةٌ تُجْبِرُهَا على تَغْييرِ هذه الحالة). ولا شَكَّ في أنّ هذا الحال سُنَّةٌ كونيّةٌ تَنْطَبِقُ على البَشَرِ - أيضاً -، حيث يكون هناك دائماً مَيْلٌ بَشَرِيٌّ للاسْتِمْرَارِ على ما أَلِفَهُ الإنْسان، ولذا فإنّ التّمَسُّكَ باسْتِمْرَارِ الوَضْعِ، والتّخَوُّفِ من التَّغْيير، قد يَأْتِيَانِ مُتَلَبِّسَيْن بأعْذَارٍ مُخْتلفةٍ، ومُبَرِّرَاتٍ مُتنوِّعَةٍ، إلاّ أنّ مُعْظَمَهَا يَنْبُعُ - في الوَاقِعِ - من «ظَاهِرَةِ القُصُورِ الذّاتيّ».

في ضوء تلك الظَّاهِرَةِ، التي تَتَلَخَّصُ في «مُقَاوَمَةِ التَّغْيير»، نجدُ أنّ «التَّغْيير الثَّقافيّ» هو أصْعَبُ أنْواع التَّغْيير، ولكن لا خِيَارَ أمام الأُمّة إزاء تحدِّيات «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ فـ«المُسْتَقْبَلُ» مُرْتَبِطٌ - بالضّرورة - بالمُصَالَحَةِ مع «العلوم والتّقْنيَة»، والإسْهَام في فِكْرِهَا ومُعْطياتِها وأدواتِها، والاسْتيعابِ الكَامِلِ لمُقْتضياتِها وشُرُوطِهَا. ولا شَكَّ في أنّ مِثْل ذلك «التَّغْيير» يَسْتَوْجِبُ تَكْثيفُ جُرْعَاتٍ مُسْتمرّةٍ من «التّفْكير العَقْلانيّ» و«التَّوعية العِلْميّة» في المناهج والحِوارات والوسائل الإعْلاميّة والقرارات المُخْتلفة والإسْتراتيجيّات المُتَنوِّعَة، ولا مناص - إنْ أردنا النّجاة - من دَعْم هذا التَّوَجُّه من أعْلى المُسْتويات ليكون «قَرَاراً سِياسِيّاً» فَاعِلاً في إطَارِ «إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَويّةٍ» حيويّةٍ تَسْتَجيبُ لطُمُوحَاتِ الأُمّة، وتَسْتَطِيعُ توليد «الدَّفْع الذّاتيّ» القَادِر على التّصدّي للتّحدّيات المُعَاصِرَة.

إنّنا نجد - في سِيَاقِ هذا الكِتَابِ - أنّ المُفكِّرين والمُثقّفين العرب يقفون أمام «أَزْمَةِ النّهْضَة»، و«إشْكَاليّةِ التّنْمية»، في عُمُوميّاتٍ بدهيّةٍ تَسْتَهْلِكُ نفْسها، ومُرَاجَعَاتٍ نَقْديّةٍ تُكَرِّرُ ذاتها، وقِرَاءَاتٍ مَاضَويّةٍ تَجْتَرُّ حُمُولَتَهَا، واسْتِلْهَامَاتٍ مُسْتَقْبَليّةٍ تُعَمِّمُ اسْتنتاجاتِها، وتوظيفاتٍ اصْطلاحيّةٍ تزيدُ الطِّينَةَ بِلَّة؛ ولكنّهم - في نهاية المطاف - يقفون - بكُلِّ التّقدير والإعْجاب - أمام صَرْحِ «العلوم والتّقْنية» الذي يَبْقَى - أمام كُلِّ أُطْرُوحاتِهم ونَقْدِهم وانْبهارِهم - مُجَرَّدَ «صُنْدُوقٍ أسْود» مُغْلَقٍ يَحْمِلُ أسْرَارَ الحُلُولِ ولكنّنا لا نَمْتَلِكُ مفاتيحه، ويَبْدُو أنّنا - أيضاً - لم نَتَعَرَّفْ بعْد على الطّريق الذي يقودُ

إلـى حِيَازَةِ تلك المفاتيح، وعلينا أنْ نَطْرَحَ - في كُلِّ مَحْفَلٍ ومُؤتمرٍ وجامعةٍ ومركز بُحُوثٍ واجْتمـاعٍ لصُنَّاعِ القرار- السُّؤال التَّالي: (بعد الإشـادة بـ«مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية»، هل هَيَّأْنَـا لها «البِيئَةَ المُنَاسِبَةَ» التي تُصَادِقُهَـا، وتُعِينُهَا، وتُوَصِّلُهَا في أَعْمَاقِ الكِيان الفِكْريّ والثّقافيّ والإعْلاميّ والاجْتماعيّ والتّعْليميّ؟).

مـن المُهِـمّ أنْ نُتَرْجِـمَ كُلَّ الشّعَـارَاتِ - التـي نَزُجُّ بهـا في المحافِل حـول ضَرورةِ «التَّوعيـة العِلْميّـة»، وأهميّةِ اللّحَاقِ بالرّكْبِ التّقنيّ، والقضـاءِ على التَّخَلُّفِ - إلى تجارِب مُتَرَاكِمَةٍ، وآليّاتٍ مَلْمُوسَةٍ، وإسْتراتيجيّاتٍ مَدْرُوسَةٍ؛ لتَصْنَعَ «ثقافة المُسْتَقْبَلِ» المُتَنَاغِمَةَ مـع مُتَطلَّبَاتِ «التّنْميـة»، والمُتَفَاعِلَةَ مـع «رُوحِ العَصْر». ومن المُهِمّ - أيضـاً - أنْ نُدْرِكَ أنّ القضيّـة ليسـتْ خِيـاراً يَجُوزُ فيـه الأَخْذُ والعَطَـاءُ والجَـدَلُ والعِنَادُ، ولكنّهـا ضَرورةٌ أساسٌ بدونهـا يَصْعُبُ تخيُّلُ صِنَاعَةِ مُجْتمعٍ قَادِرٍ على الأَخْـذِ بأَسْبَابِ «التَّنْمية» والرَّفَاه؛ فـ«مُجْتمـعُ المَعْرِفَـة» الذي نَطْمَـحُ إليه يَتَكَوَّنُ مـن مُصْطَلَحَيْـنِ مُتَرابِطَيْـنِ ومُتَكامِلَيْن، وهمـا «مُجْتمع» و«مَعْرِفَة»؛ ليكـون أساس تَكْوينه هو «التَّفاعُلُ المُجْتمعـيّ» مع «المَعْرِفَةِ»، و«التَّوَاصُـلُ المَعْرفيّ» مع «المُجْتمع»، وليكون الشِّعَارُ الأَكْثَرُ مُواءَمَةً لوَاقِعِ «الأَلْفيّة الثّالثة» هو: («الثَّقافةُ العِلْميّةُ» هي الطَّريقُ إلى التَّأْهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»).

٩-٦-١) إشْكَالِيّة «الثقافة العِلْميّة»:

أمّـا «إشْكَالِيّـةُ الثّقافـة العِلْميّة» في «المُجْتمعـات العربيّة»، فهـي الإشْكَالِيّةُ نفْسها الموجودة في حـالات كثيرٍ من المعاني والقِيَم الجوهريّة في حياة هذه المُجْتمعات، وهي تدورُ حول السُّؤالِ السّرْمَديّ: (كيف نُتَرْجِمُ «الثّقافة العِلْميّة»، و«المُوَاطَنَة»، و«الوَسَطِيّة»، و«أَخْلاقيّـاتِ العمـل»، و«توطيـن التّقْنيـة»، إلى وَاقِـعٍ عملـيٍّ مَلْمُوس؟، وكيـف نَنْقُلُ تلك المفاهيـم من صَفَحَاتِ التّنْظير، وبُطُونِ الكُتُبِ، وقاعـاتِ المُؤتمرات، ومَحَاضِرِ اللّجان، إلـى مُمَارَسَاتٍ مُفْعَمَةٍ بالنّشاطِ والحيويّةِ والتَّطَوُّر؟). ولا بُدَّ أنْ نَتَّفِقَ هنا على أنّ أيّ جُهْدٍ فَرْديٍّ، أو مُؤَسَّسِيٍّ، في اتِّجَاهِ «الثَّقافة العِلْميّة»، هو جُهْدٌ مَشْكُورٌ ومُحَبَّذٌ يُسْهِمُ في «العمليّة التّراكُميّـة»، إلاّ أنّ المُجْتمعـات الطَّمُوحَة تَتُوقُ إلى اخْتِزَالِ الوَقْـت، والاسْتِفَادَةِ القُصْوى

مـن المَـوَارِد، والإسْرَاعِ في إحْـدَاثِ «النَّقْلات النَّوْعيّة» في تفاعُلاتِهـا وإنْجازاتِها؛ وهذا لا يَتَحَقَّـقُ، إلاّ في إطَـارِ «قَرَارٍ سِياسِيٍّ» يَتَبَنَّـى إسْتراتيجيّةً وَاضِحَةَ الأَهْـدَافِ والمَعَالِم، ويُوَظِّـفُ - بجِدِّيّـةٍ - الآليّـاتِ والوسائلِ الفَاعِلَة، ويُكَرِّسُ المُتَابَعَةَ المُسْتمِـرّة للتّصْحيح والتّقْويم والتّطْوير، ويَغْرِسُ القَنَاعَاتِ المُلائِمَةَ لتُهَيْمِنَ على العَقْلِ والوِجْدان. وهكذا تَبْقَى مُعْظَـمُ مُشْـكلات «المُجْتمعات العربيّة» - إنْ لم تكنْ كُلُّها - دون حُلُولٍ نَاجِعَةٍ بالرّغْم من تَوَافُـرِ المَوَارِدِ الماديّة والماليّة والبشريّة، وتَبْقَـى إسْتراتيجيّاتها أَحْبَاراً على أوراقٍ تَلْتَفُّ حـول ذاتها في سَطْحِيَّةٍ مَمْجُوجَةٍ غير قَادِرَةٍ على الغَوْصِ في دَقَائِقِ المُعْضِلاتِ وتفاصيلِ آليّـاتِ العمل، وتَتَمَثَّلُ طُرُوحَاتُهَا في مُعَالَجَاتٍ تُفْلِحُ فقط في عَزْلِ الظَّواهِرِ عن مُكَوِّنَاتِهَا، وتَجْريدِهـا مـن أَسْبَابِهَا، عبْر مـا تميَّزَتْ به «الثَّقافـةُ العربيّةُ» من انْفعـالاتٍ وإنْشائيّاتٍ وكلاميّات (انْظر: الفَصْل الثّالث).

وأمّـا المَخْرَجُ من الأزْمَةِ لدى محمـد عابد الجابريّ فيَكْمُنُ في: (قِيام «إنتلجينسيا عربيّـةٍ جديـدة»: عربيّـةٍ بانْتظامِها في التُّـرَاثِ العربـيّ لتَجْديدِه من الدّاخِـل، وجديدةٍ بانْتظامِهـا في «الفِكْرِ العَالَميّ المُعَاصِـرِ»، ومُوَاكَبَتِهَا له، بقَصْدِ توظيف أدواته المَنْهَجِيّة ورُؤَاه العِلْميّـة فـي إعادة بِنَاءِ الماضـي وتَغْييرِ الحَاضِرِ وتَشْييـدِ المُسْتَقْبَل. إنّه دون هذه «النُّخْبَـة الإنتلجينسيـا» سيَبْقَـى الفِكْـرُ العربيُّ سَجِين المعـارِف القديمـة يَجْتَرُّهَا على أنّهـا جديـدةٌ، وسيظلُّ يُعانِي ليس أَزْمَـة إبْدَاعٍ فقط، بَلْ لربّما من سَكَـرَاتِ المَوْتِ وخَطَرِ الانْقِراض)[1]. وفي هذا السِّيَاق، نَسْتطيعُ أنْ نقول - بكُلِّ ثِقَةٍ - إنّه لا يُمْكِنُ لأيِّ بَاحِثٍ نزيهٍ أنْ يَنْـزَعَ «الثّقافة العِلْميّة» ودَوْرَهَا المِحْوَرِيّ من خَصَائِصِ «الفِكْرِ العَالَميّ المُعَاصِر»، ولا يُمْكِـنُ لأيِّ مُفكّرٍ موضوعيٍّ أنْ يَغْمِطَ حَقَّ «المَنْهَـج العِلْميّ» في تَصَدُّرِ الأدواتِ المَنْهَجيّة، والرُّؤى العِلْميّة القَادِرَةِ على «إعادة بِنَاءِ الماضي وتَغْييرِ الحَاضِرِ وتَشْييد المُسْتَقْبَل».

وللتَّغَلُّـبِ على حالة «القُصُورِ الذّاتيّ» التي تُهَيْمِنُ على الوَاقِعِ العربيّ، فتُكَبِّلُهُ بالعَجْزِ التّنْمَـويّ والشَّلَـلِ الثّقافـيّ، فإنّنا نَحْتَاجُ إلـى تَشْخيص الحالـة، والتَّعَرُّف علـى مَطَالِبِ المُسْتَقْبَـل، وقـد نَخْتَلِفُ حول بعضها، وقد نَتَّفِقُ في مُعْظَمِهَا، ولكنّـي أَجْزِمُ بأنّ «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» يَكْمُنُ في جوهر أيٍّ من تلك المَطَالِبِ؛ فلو أخذنا - على سبيل المِثال -

المَطَالِـبَ التي حَدَّدَهَا محمد عابد الجابريّ، وطَرَحَهَا فيمـا أَسْمَاهُ «المَشْرُوعُ الحضاريّ العربـيّ» الذي يَنْزَعُ إلى: (تَحْقيق هذه الأهْـداف الثّلاثة: الوَحْدَة، التَّمَدُّيَن، العَقْلَنَة)[١]، فإنّنـا نجدُ - كمـا أَسْهَبْنَا في هذا الكِتَابِ - أنّ في أساس كُلٍّ منها تَكْمُنُ قضيّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» التي تُعَزِّزُ «التَّجَانُسَ الثَّقافيّ» المُتَنَاغِمَ مع «رُوحِ العَصْر»، وتُزَوِّدُ المُجْتمع بالوَقُودِ الـلاّزِمِ لتَحْقيـقِ تلك الأهْداف، وتُسْهِمُ - بشَكْلٍ أساسٍ - فـي تَفْعيلِها، وضَخِّ دِمَاءِ الحياة في عُرُوقِ مساراتِها.

لقـد نَظَرَ جلن سيبـورج إلى «المُجْتمـع الأمْريكيّ» فـي أوائِلِ السّتينـات من القَرْنِ العشْريـن، وقال: (في العَقْدَيْـنِ الماضِيَيْنِ اسْتطاع مُجْتمعُنـا أنْ يَلْتَهِمَ العلوم، ولكنّه لم يَتَمَكَّـنْ بعـد من هَضْمِهـا، وهذا مُؤَشِّرٌ على طُفُولَـةِ «المُجْتمع العِلْمـيّ» لدينا، وهذا ليس بمُسْتَغْـرَبٍ؛ فتَجْربتُنـا السَّابقةُ لـم تُهَيِّئْنَا لأيِّ شـيءٍ قريبٍ من «الانْفِجَـارِ العِلْميّ» الذي حـدث في العشريـن عاماً الأخيرة، ويجب أنْ نَتَوَقَّعَ أنْ تكون العشـرون عاماً المُقْبِلَةُ أكْثر ديناميكيّةً، وهذا - بالضّرورة - يَسْتَوْجِبُ الإسْراعَ في «عمليّة الاسْتيعَاب»)[٤٤]. وإذا كان «المُجْتمـع الأمْريكيّ» - بكُلِّ انْجازاتِه ونجاحاتِه - يعيش مَرْحَلَةَ «طُفُولَةِ المُجْتمع العِلْميّ» - علـى الأقـلّ في فتْرة السّتينات وفْق تَحْليل سيبورج -، فما بالُكَ بـ«المُجْتمعات العربيّة» التـي ما زالتْ تَرْزَحُ تحت نِيـرِ «الأُمِّيّة العِلْميّة»، وتَقْبَعُ في خَانَةِ الاسْتِهْلاكِ والاسْتِجْدَاءِ؟. وأمّا النّتيجةُ البدهيّةُ لهذا التّحْليل، فهي أنّ «المُجْتمع العِلْميّ» لم يُولَدْ بعْد في «المُجْتمعات العربيّـة»، وإنْ كانـتْ هنـاك مُؤَشِّرَاتٌ لمَخَاضٍ أليمٍ فـي أتُونِ صِرَاعَاتٍ بيـن متُنَاقِضَاتٍ عميقـةٍ وسَلْبيّـاتٍ مُتَرَاكِمَة. وفي إطَارِ التّفـاؤل نقول إنّ من «المُؤَشِّـرَاتِ الايجابيّة» لهذا المَخَاض، هو تَرَاكُمُ أعدادٍ وفيرةٍ من أصْحَابِ المهارات التّقنيّة والقُدْرات العِلْميّة، وبُروزُ اهْتمامٍ مُتنامٍ بدَوْرِ «الحَرَكَة العِلميّة» في تَحْسينِ وَاقِعِ الأُمّة وتَطْويرِ حياتها؛ وكُلُّها تَجْعَلُنَا فـي انْتِظَـارِ ولادَةِ «مُجْتمع المَعْرِفَة» فـي العَالَمِ العربيّ، وبطبيعة الحـال فإنّنا نَتطَلَّعُ إلى وِلادَةٍ طبيعيّـةٍ، وإنْ كان ولا بُـدَّ فلا مَانِعَ من تَدَخُّـلِ المِشْرَطِ فـي وِلادَةٍ قَيْصَريَّةٍ، ولكنّنا نخـافُ - أكْثـر ما نخافُ - مـن إجْهَاضٍ مَأْسَـاوِيٍّ، أو أنْ تكون القضيّـة بِرُمَّتِهَا عَلامَاتِ «حَمْلٍ كَاذِب»!.

٩-٧) نَحْوَ «عَقْلَنَة الثقافة»:

مـن البدهيّاتِ أنّ «التّنْمية» تَسْتَهْدِفُ حياةَ «الإنْسـان» وتَطَوُّرَهَا، ومن البدهيّات أنّ «الثَّقافة» تُعْنَى بفِكْرِ «الإنْسان» ومُمَارَسَاتِه، ومن البدهيّاتِ - أيضاً - أنّ «العِلْمَ الطّبيعيّ» هـو صَاحِبُ الرِّيادة في تَغْييـرِ أنْمَاطِ الحياة، وتَطْويـرِ قَوالِبِ العَيْش، وتَأْسيسِ مَنْهَجِيّةِ التَّعامُـلِ مـع الكَوْنِ وفَهْمِ قوانينـه؛ ولذا فإنّ الانْفِصَـامَ بين عَنَاصِرِ «الثَّالُـوث التّنْمَوِيّ»: (التّنْميـة - الثَّقافـة - العِلْـم)، يُعْتَبَرُ وَصْفَـةً نَاجِعَةً للعَجْـزِ التّنْمَوِيّ، والتَّـرَدِّي الثَّقافيّ، والتَّوَتُّرِ الاجْتماعيّ، والتَّخَلُّفِ العِلْميّ، والابْتِعَادِ عن «رُوحِ العَصْر». إنّ الغُرْبَةَ، التي يعيشُها «الإنْسـانُ العربيُّ» عـن عَصْرِه، التي تَتَجَلَّى فـي عَجْزِهِ الفَاضِحِ عـن الإسْهَامِ الفَاعِلِ في صِنَاعَةِ «مفاتيح العَصْر»، وانْكِبَابِهِ المُخْجِلِ على اسْتِهْلاكِ مُعْطياتِ الآخَرين ومُنْتَجَاتِهِمْ، ليستْ إلاّ التّعْبير الطّبيعيّ لفشل التَّلاقُحِ بين عَنَاصِرِ هذا «الثَّالُوث»، وهي عَنَاصِرُ أَصْبَحَتْ - بالضّرورة - تَخْتَزِلُ العناوين الرّئيسة لكُلِّ معاني «الحضارة المُعَاصِرَة» والتّطَوُّرِ الفَعّالِ في حياة «مُجْتمعات الأَلْفيّة الثّالثة».

يقـول شَاعِرُنَا إنّ: (الفَرَاغ مَفْسَدَةٌ)، ولكـنّ «الفَرَاغَ التّنْمَوِيّ» - في فضاءاتِ الوَعْي العـامّ - هو أَسْوأ أنْـوَاعِ الفَرَاغ، حيث تَنْعَدِمُ الإنْتاجيّة، ويَفْقِـدُ المُجْتمعُ بَوْصَلَتَه، ويَرْضَخُ لشُـرُوطِ الآخَرين القَادِرينَ على الإنْتَاجِ والإبْـدَاعِ والتّطْوير، ومن ثمّ تَتَخَبَّطُ جُهُودُ النّاس ومَشَاعِرُهُـمْ، وتَتَضَارَبُ مَصَالِحُهُـمْ واهْتماماتُهم، وتَتَعَمَّـقُ إحْباطاتُهم وهزائِمُهم. من المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنْ لا مَخْرَجَ من هذا «المَأْزِق»، إلاّ عبْر «إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَوِيّةٍ شَامِلَةٍ» يكون أحد أَرْكَانِهَا الأصيلة «إسْتراتيجيّةٌ ثقافيّـةٌ» تَعِي «الخَصَائِصَ العِلْميّة» لعَصْرِهَا، وتَصْنَعُ «ثقافـة المُسْتَقْبَلِ» المُتَنَاغِمَةَ مع مُتَطَلَّبَـاتِ «التّنْمية»، والقَادِرَةَ علـى إحْدَاثِ «التَّحَوُّلاتِ الكَيْفيّة» اللّازِمَةِ في أنْمَاطِ التَّفْكير، وتَأْسيسِ «التَّغَيُّرات السُّلُوكيّة» المَطْلُوبةِ في تفاعُلاتِ الحياة، وإنْشَـاءِ «القِيَم العمليّـة» المُنْسَجِمَةِ مع «المُسْتَجِـدّاتِ الاجْتماعيّة» و«التَّحَدِّياتِ المُعَاصِرَةِ» وما يَرْتَبِطُ بها من تطلّعاتٍ فَرْديّةٍ وجَمَاعيّةٍ في رِحَابِ المُجْتمع.

هنالك عِـدَّةُ أهْدافٍ يَنْبَغِـي أنْ تكون على رَأْسِ أولويّاتِ «الإسْتراتيجيّـة الثَّقافيّة» المَنْشُودَة، وأوّلُ هذه الأهْداف - في رأْيي - هو «عَقْلَنَةُ الثّقافة»؛ فيَنْبَغِي أنْ تَنْتَقِلَ «الثّقافةُ العربيّـةُ» من مَرْحَلَـةِ الاهْتمـام بـ«خِطَـابِ الإنْشائيّات» إلـى مَرْحَلَةِ الاهْتمـام بـ«طبيعة المُحْتَـوَى»؛ فلقـد غرِقَـتْ «الثَّقافـةُ العربيّةُ» في لُجَّـةِ «مُفْـرَدَاتِ الخِطَـابِ»، واسْتَنْفَدَتْ حماسيّاتُـه وانْفعالاتُه طاقاتِهـا وعطاءاتِها، وتَضَاءَلَ - أو انْعَـدمَ - الاهْتمامُ بـ«المُحْتَوَى العِلْميّ»، والمَضْمُـونِ الفِكْريّ، والآليّاتِ الفَاعِلَةِ، والجَوانِـبِ المَعْرفيّة، والنّقْدِ المَنْهَجِيّ. بطبيعة الحال، لا يُمْكِنُ أنْ تَتَحَقّقَ تلك «النَّقْلَةُ النَّوْعيّةُ» المَنْشُودَةُ، إلاّ عبْر رَبْطِهَا بعَصْرِهَا ومُتَطلَّبَاتِـه، وتوثيـقِ أوَاصِرِهَـا بخَصَائِصِ المرْحلـة وتداعياتها، فلا تَلْتَـفُّ «المسيرة الثَّقافيّـة» حـول دَوائِر لا تَتَغيَّرُ ولا تَتَبَدَّلُ، ولا تُحَاصِرُ نفْسها فـي إطَارِ جَدَلٍ يُجَدِّدُ - دَوماً - احْتِفَـاءَهُ بالقُشُـورِ وولاءَهُ للتّعَصُّـبِ، ولا تَجْتَرّ ذاتها في رِحْلَةٍ دَاخِليّـةٍ مَعْزُولَةٍ، تَتَضَخَّمُ فيهـا رُؤىً ذاتيّةٌ عبْر الانْعكاسـاتِ المُتَكَرِّرَة على مرايا الأوْهَـام النّرْجسيّة، والإنْشائيّاتِ البلاغيّـةِ، والمُحَسِّنَاتِ اللّفْظيّةِ، والحماسيّـاتِ العَنْتَريّةِ؛ ليُفْلِحَ كُلُّ ذلك في إنْتَاجِ شُرُوطِ الانْحِطَاطِ والإخْفاقِ والتَّخَلُّف.

قـد تكون «نُقْطَـةُ البداية» - على طريق «عَقْلَنَةِ الثَّقافة» - هـي الاعْتِرَافُ بمَسْؤوليّة «الثَّقافـة» في الخَلَلِ البَارِزِ فـي «البِنْيَةِ التّنْمَوِيّةِ» بشَكْلٍ عامٍّ، وفـي التَّشَوُّهَاتِ الكَامِنَةِ في البِيئَـةِ التّعْليميّةِ والحَرَاكِ الاقْتصاديِّ والمُمَارَسَاتِ الحياتيّة، وحَرِيٌّ بمِثْلِ هذا الاعْتِرَافِ أنْ يقـود إلـى نتيجتـه الحَتْميّةِ فـي أهميّةِ تَرْسيـخِ القَنَاعَة بـأنّ هناك شُرُوطـاً أخْلاقيّةً ومَعْرفيّـةً وسُلُوكيّـةً وقيميّةً لازمَـةً للإنْسان؛ لكي يَدْلِـفَ - باقْتِدَارٍ - إلى عَالَـمِ «صِنَاعَةِ الحضـارة والتّقَـدُّم». إنّ المَخْرَجَ مـن مَـأْزِقِ الحَيْرَةِ والتِّيـهِ والإحْبَاطِ، في عَالَـمٍ يَمُوجُ بالتَّحدّيـاتِ والمُفَارَقَـات، يَتَطَلَّبُ «التَّكْوين الثَّقافيّ» القَادرَ على فَهْـمِ المُتَغيِّراتِ بنُضْجٍ، واسْتِيعَـابِ المُسْتَجِـدَّاتِ بفَاعِليّـةٍ، واحْتِواءِ حماسِ الشّبَاب وتطلُّعاتِهـم، ورَبْطِ النّتائِجِ بالأَسْبـاب، وتَمْحيصِ العَنَاصِرِ وتَفْكيـكِ مُكَوِّنَاتِهَا، وإيقـاظِ رُوحِ المُبَـادَرَةِ والمُشَارَكَة، وتَأْسيسِ «التَّفْكيـرِ العِلْمـيّ»، وتَسْريعِ «عمليّة التَّحَـوُّل» نحو «مُجْتمع المَعْرِفَـة» بكُلِّ قِيَمِهِ وأدواتِهِ ومُقْتضياته.

تلـك «المُقدِّمَاتُ العَقْلانيّةُ» في مَعْرِفَةِ «مُواصَفَاتِ العَصْرِ»، وطبيعة تحدّياته، تُعَزِّزُ أهميّـة فَحْصِ الأُمُورِ وتَقْييمِهَا باسْتِخْدَام «مِجْهَرٍ تَنْمَوِيٍّ» يَحْرِصُ على التَّلاقُحِ والتَّرَاكُم، ويُقلِّصُ مساحـات التَّوَتُّر، ويَهْتَـمُّ بتَقْييـم «المَكَاسِبِ والخَسَائـرِ»، ومُوَازَنَـةِ «المَصَالِحِ والمَفَاسِـدِ» في «حَرَاكٍ تَنْمَوِيٍّ» شَامِـلٍ يَتْرُكُ بَصْمَاتِهِ على الأرْضِ، ويُشَكِّلُ - بتفاعُلاته وتراكُماته - وَاقِعَ المُجْتمع عبْر غرْسِ «ثقافةٍ» تَضْبِطُ صِرَاعَاتِهَا الكلاميّةِ واسْتِعْرَاضَاتِهَا اللّفْظيّةِ وسِجَالاتِهَا الإنْشائيّةِ وحَمَاقَاتِهَا الانْفعاليّة، وتُنَمِّي عَلاقَاتِهَا التّنْمَويّة ومَشْرُوعَاتِهَا الحياتيّـة ومَصَالِحَهَـا المُسْتَقْبَليّة، وتَنْخَرِطُ في برامِج عمليّـةٍ تُعِيدُ - بطبيعتِها وتَطوُّرِهَا وتراكُماتِها - صِياغَةَ الأسْئلة، ونَوْعيّةَ الطَّرْح، وطُرُقَ المُعَالَجَة.

لقـد حَرَصْـتُ - بين طَيّاتِ هـذا الكِتَابِ - على إجْـلاءِ ما أَسْمَيْتُهُ «نَمُـوذَجُ التَّوَافُقِ التَّنْمَوِيّ» (انْظر: الفَصْل الرّابع)، ونجدُ أنّ «عَقْلَنَةَ الثَّقافة» - بمضامينِها وأدواتِها - تُعَزِّزُ هـذا النَّمُوذَجَ بين أطْيَافِ المُجْتمع وشَرَائِحِهِ المُخْتلفة، حيث تكون «المعاييرُ التّنْمَويّةُ» - بأُسُسِهَا العِلْميّـةِ المُنْضَبِطَةِ - هي الحَكَمُ في الصِّرَاعَاتِ والخِلافَاتِ والقرارات، وتَتَوَلّى «مَوازيـنُ التّنْمية» مُهِمّـةَ تَقْليصِ مِساحات «الفَـرَاغِ التّنْمَوِيّ»، وما يَنْجُـمُ عنه من تَشَنُّجٍ وتَطَـرُّفٍ وانْكِفَاءٍ وتَغْرِيبٍ وانْبِهَارٍ واجْتِرَارٍ وحَـرَكَاتٍ بَهْلوانيّةٍ تُرِيدُ أنْ تعيش دَاخِلَ الزّمنِ وخَارِجَـهُ فـي آنٍ وَاحِدٍ. إنّ الحقيقةَ الثّابتَةَ في حياةِ المُجْتمعات هي أنها كُلّما ابْتَعَدَتْ عن «المَنْظُـورِ التَّنْمَوِيّ»، أَوْغَلَتْ في إشْكَالاتٍ تَنْظيريّةٍ وجَدَلٍ عقيمٍ وصِرَاعَاتٍ سقيمةٍ وأوهامٍ بَالِيَةٍ، وسَقَطَتْ في فَخِّ «الفَرَاغِ الحياتيّ» فِكْريّاً ومَعْرفيّاً وإنْتاجيّاً واجْتماعيّاً.

بإيجـازٍ نقـولُ: إنّ «عَقْلَنَةَ الثَّقافـة» مُقَوِّمٌ إسْتراتيجـيٌّ يُدْرِكُ أنّ علـى «الثّقافة» أنْ تَلْتَصِـقَ باحْتياجاتِ مُجْتمعهـا، وتَتَغَلْغَلَ في هُمُومِ وطنِها، وتَتَعَـرَّفَ على تحدِّياتِ زمنِها؛ فتتولّـى توليدَ قِيَمٍ ومُمَارَسَاتٍ ومعـارِفَ قَادِرَةٍ على أنْ تكون «القَاطِرَةَ» التي تَجُرُّ المُجْتمع فـي اتِّجَـاهِ «سَهْمِ الزَّمَـنِ»، وتُعَمِّـقُ اسْتِقْـرَارَهُ وانْتِمَـاءَهُ وتَنْميته، وذلك عبْـر «الانْدِمَاجِ الحيويّ» في «بَوْتَقَةِ التّنْميـة» بتفاعُلاتِها المُجْتمعيّةِ المُتَوَافِقَةِ مع عَصْرِهَا، والمُتَّسِقَةِ مع طبيعـةِ مُشْكلاتِها، والمُتَنَاغِمَةِ مـع تطلُّعاتِ أجْيالِها، فلا تكونُ الأُمّـةُ مُتَطَفِّلاً ثقيلاً على مَوائِدِ الآخرين تُعَانِي من حالةِ الذُّهُولِ والرَّهْبَة، ولا يَدْفَعُ الإحْبَاطُ وسُوءُ التَّأْويلِ واحْتِكَارُ

الحقيقـة بعضَ جماعاتِها إلـى حَمَاقَـاتٍ لا يُحْمَدُ عُقْبَاهَـا، ولكنّها تتعاملُ مـع مُعْطياتِ عَصْرِهَا بِلُغَـةِ زمانِها، وتَسْتَنْفِرُ قُدْراتِها بثِقَةٍ وعَقْلانيّةٍ وتفـاؤلٍ، وتَهْتَمُّ بما يَنْفَعُ الإنْسانَ ويُعَمِّرُ الأوطان.

إنّ أحـد الأسْئلة الكُبْرى التي تَطْرَحُهَا قضيّةُ «عَقْلَنَةِ الثَّقافة»، هو سُؤالٌ تَكَرَّرَ ورودُه في صَفْحَاتِ هذا الكِتَاب، ونَطْرَحُهُ هنا للمَرَّةِ الأَلْف: (هل يُمْكِنُ أنْ نَتَحدَّثَ عن «الثَّقافة» بمَعْـزِلٍ عن عَصْرِهَـا وطبيعةِ القُـوى المُهَيْمِنَةِ عليـه والمُحَرِّكَةِ لمَسَارَاتِـه بينما تَنْصَبُّ حِوارَاتُنَـا وسِجَالاتُنَا على ما أَلِفْنَاهُ مِـن كَلَام وجِدَالٍ وخِصَامٍ؟). إنّ الإجابة الموضوعيّة عـن هذا السُّؤالِ تُحَـدِّدُ اتِّجَاهَ «بَوْصَلَـةِ الإسْتراتيجيّة الثَّقافيّة»، وهنا تَبْـرُزُ أهميّة تَوَافُرِ «إرادةٍ سِياسِيّـةٍ» جَـادَّةٍ تَدْفَعُ في الاتِّجَاهِ الصَّحيحِ الذي يُحَقِّقُ مـا تَتَوَخّاهُ «الإسْتراتيجيّة التَّنْمَوِيّـة» من اسْتِقْرَارٍ للمُجْتمـع، وتَأَلُّقٍ لإبْداعاتِه، وتَطْويـرٍ لفعّاليّاته؛ وذلك عبْر تَنْفيذ «إسْتراتيجيّـةٍ ثقافيّةٍ – تَنْمَويّةٍ» تَسْتَوْعِبُ مُعْطيـاتِ «الزَّمَانِ» و«المكان»، وتَدْفَعُ بالطّاقاتِ على طريقِ الإنْتاجِ والإبْـداعِ والابْتكار، وتَنْتَشِلُهَا من دَوَّامَاتِ العَجْزِ والإحْبَاطِ والغُرْبَةِ في عَصْـرِ التَّفوُّقِ العِلْميّ، والهَيْمَنَةِ التّقنيّة، و«العَوْلَمَـةِ» الجَارِفَة؛ وتَتَجَلَّى هنـا بوضوحٍ أهميّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» ونَشْرِهَا وتَكْريسِهَا بصفتها أداةً فَاعِلَةً لتوليد تلك العَقْلَنَة»، ودَمْجِ الفَرْدِ مـع عَصْرِه، وتوثيقِ صِلاتِه بطبيعة «تحدّيات الأَلْفيّة الثّالثـة»، وتَرْسيخِ أواصِرِه مع رَكَائِزِ «مُجْتمع المَعْرِفَة».

٩-٧-١) «مِسْطَرَةُ العَوْلَمَة» و«الإصْلاح»:

وَقَفْنَا – في الفَصْلِ الثّاني – أمام مُصْطلح «العَوْلَمَة» وتداعياته ومُقَوِّمَاته، ومن المُهِمّ أنْ نَقِـفَ فـي خَاتِمَةِ هذا الكِتَاب أمام هذا المُصْطلح مـن جديدٍ؛ وذلك لأهميّته وعَلاقَتِه العُضْويّـة بقضيّة «الإصْلاح» التي يُرَوَّجُ لها في جَنَبَـاتِ «المُجْتمعات العربيّة»، ولارْتباطه الجِذْرِيّ بأحْوالِ ما سُمِّيَ «الرّبيع العربيّ»، وما تَمَخَّضَ عنه من هَزَّاتٍ وارْتِدادات. إنّنا إذا مَحَّصْنَـا طبيعة «المِسْطَرَةِ العَوْلَميّةِ» التي تُقَاسُ بها المَكَاسِبُ والخَسَائِر، وتأمَّلْنَا حقيقة أبْعَادِهَـا التي تُحَدِّدُ درجة النَّجـاحِ أو الإخْفاق؛ فإنّنا نجدُ أنّه في زمن الشَّركاتِ الضَّخْمَةِ

العَابِـرَةِ للقارّاتِ، والمُرَوِّجَةِ - عَالَمِيّاً - لِخِدْماتِهــا ومُنْتَجاتِها، وفي ظِلِّ الضَّخِّ الإعْلامي الهَائِـلِ بعد تهاوي الحُدُودِ والقُيُودِ عبْر «تَقْنيات الإعْلام» ووسائِله المُتَطَوِّرَة، وتحت وَطْأَةِ «ثَوْرَةِ المَعْلُومات» وهي تَتَمَدَّدُ في كُلِّ اتِّجَاهٍ في مُتَوَالِيَةٍ هَنْدَسِيّةٍ مُطَّرِدَةٍ؛ أقولُ: نجدُ - في ظِـلِّ كُلِّ ذلك اللّهاث والتّغيُّـرات - أنّ «مِسْطَرَةَ العَوْلَمَةِ» لا تَمْلِـكُ إلاّ أنْ تَنْحَازَ إلى الأكْثر تنافُسِيّةً، والأطْول بَاعاً، والأعْمق تَأْثيراً على حيواتِ البشر ومعاشِهم وحاجاتِهم.

إنّ «ظَاهِـرَةَ العَوْلَمَةِ» في شُمُوليّتِهَا لكُلِّ مضامين الحياة المعَاصِرَة، وانْتِشَارِهَا عبْر كُلِّ مَرَافِق «المُجْتمع الحديث»، تَنْطَلِقُ - بحيويّةٍ - تحت تَأْثِيرِ «القُوّةِ الدَّافِعَة» المُتَمَثِّلَة في «حَرَكَـةٍ عِلْميّــةٍ» دَؤوبةٍ، وقَفَزَاتٍ تقنيّةٍ مُتَلاحِقَةٍ؛ لنجـد أنّ «العَوْلَمَةَ» - في نهاية المطاف - ليســتْ إلاّ الابن الشَّرْعيّ للعلوم والتّقْنية؛ فهي التَّرْجَمَةُ الفِكْريّة والثقافيّة والاقْتصاديّة والعسْكريّــة والإعْلاميّــة للسَّطْوَة التّقنيّــة، وهي الفِعْـلُ المُتَحَرِّكُ على الأرْضِ بقُوَّةِ دَفْعِ «الهَيْمَنَـةِ العِلْميّة»، ولذا لم يكـنْ غريباً أنْ تُتَّهَمَ «العَوْلَمَةُ» بأنّها «أَمْرَكَةٌ»؛ لأنّه من البدهيّ أن يُمْسِـكَ بتلابيبِ «العَوْلَمَةِ» ويقود مسيرتَها ذلك الطَّرَفُ الذي قَبَضَ على زِمَامِ «العلوم والتّقْنية»، وتَمَكَّنَ من تَطْويعِهَا لأغْرَاضِهِ وفِكْرِهِ ومَصَالِحِه.

وبوَقْفَــةٍ مُتَأَنّيَــةٍ، أمام طبيعــة «المِسْطَـرَةِ العَوْلَميّة»، نُـدْرِكُ أنّ تَحَيُّزَهَــا هو تَحَيُّزٌ مَنْطقــيٌّ لصَالِـحِ «الفِكْـرِ العِلْمــيّ» و«الطَّفْـرَةِ التّقْنيّة»؛ ولـذا فإنّها، وهي تَقِيسُ جَدْوَى الأُطُـرِ المُخْتلفةِ للتّفاعُلِ العَالَميّ، تتجاوزُ الشَّـكْلَ والمَظْهَرَ لتَسْبُرَ أَغْوَارَ الأدَاءِ والجَوْهَرِ، ولتَفْرِضَ شُرُوطاً على كُلِّ الدُّول بقِطَاعَيْهَا العامّ والخاصّ ومُكَوِّنَاتِهَا التّعْليميّة والبَحْثيّة والتّدْريبيّــة والثّقافيّــة والإعْلاميّــة، ومُطَالِبَــةً بتجاوز مَرْحَلَــةِ «رُدُودِ الفِعْـل» الخَالِيَةِ من «الرُّؤيَــة الإسْتراتيجيّة» والعمل المَدْرُوس، ومُلْزِمَةً بالانْتِظَام في قَوَالِب مُنْسَجِمَةٍ مع «رُوح العِلْم»، ومُعَمِّقَةٍ لـ«أخْلاقيّات العمل»، ومُتَوَافِقَةٍ مع «ثقافة الإنْتاج». وأمّا «مَنْطِقُ الإصْلاح» - بأشْكَالِـهِ التّنْمَويّــة - فإنّه يَطْمَحُ إلــى أنْ تَنْحَازَ «المِسْطَرَةُ العَوْلَميّــةُ» إلى صَالِحِهِ عبْر «إرادةٍ» جَازِمَةٍ فــي مُعَالَجَةِ أَوْجُهِ القُصُور، و«إدارةٍ» حَازِمَةٍ في التّوفيقِ بين اتِّخَاذِ القرار وبيــن تَرْجَمَتِهِ على الأرْضِ لإحْدَاثِ «النَّقْلَةِ النّوْعيّة» في دُنْيَا المُنَافَسَةِ التي تَزْدَادُ وَطْأَتُهَا كُلَّ سَاعــةٍ. لــن يَتَحَقَّقَ الوُلُوجُ - باقْتِـدَارٍ - إلى عَالَمٍ يَضِجُّ بمُعْطَيــاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ»، إلاّ

بتَعْميقِ عمليّة «الإصْلاح الثَّقافيّ» في المَنَاهِلِ التّعْليميّة والبَحْثيّة والتّدْريبيّة، والتّفاعُلاتِ الثّقافيّـة والمُجْتمعيّـة والاقْتصاديّة؛ وفي ثنايا هذا الكِتَابِ يَتَجَلّى الهَـمُّ الرّئيسُ المُتَمَثِّلُ فـي ضَرورة «الإصْلاح الثَّقافيّ» الذي يَسْتَوْعِـبُ «رُوحَ العَصْرِ» وتحدّياتِه، ويَضْبطُ إيقَاعَهُ مـع «إكْسِيـر التَّنْمية» القَابِضِ على زِمَـامِ «الحَرَكَة العِلميّة» وامْتِداداتِهَـا التّقنيّة؛ ألا وهو «الثّقافةُ العِلْمِيّةُ» وجذورُها المُجْتمعيّة.

٩-٧-٢) ما بَعْدَ «الرَّبيع العربيّ»:

لا يُمْكِـنُ الحديثُ عن مـا عُرِفَ باسْم «الرَّبيع العربيّ» الذي اجْتَاحَ المَنْطقة العربيّة فـي مَطْلَـعِ العَقْدِ الثّاني مـن «الأَلْفيّة الثّالثـة»، وتَجلّى في شَـكْلِ ثـَوْراتٍ شَعْبيّةٍ وحركات احْتِجَاجٍ في تونس ومصر وليبيا وسوريا واليمن وغيرهم، دون الإشارة إلى الدَّوْرِ الرِّياديّ الـذي قَامَتْ به «التّقْنيـةُ الحديثةُ» – من هَواتِف خلويّةٍ وقَنَواتٍ فضائيـةٍ وشَبَكَاتِ تواصُلٍ اجْتماعـيٍّ واسْتيعابٍ عـامٍّ لـ«شُرُوط العَصْرِ» ومُتَطَلَّبَاتِه – فـي إضْرَامِ نار ذلك «الرَّبيع»، وإنْجَـاحِ أهْدافه الأُولى من تَغْييرِ أنْظِمَةٍ وإسْقَاطِ قيادات. وهذه الحقيقة تَصُبُّ في تَأْكيدِ مـا حَرَصْنَا – في هذا الكِتَاب – على إجْلائِهِ من التّأْثيراتِ العميقةِ لـ«العلوم والتّقْنية» في حيـاة المُجْتمعـات عامّةً، وما تُحْدِثُهُ من تَغَيُّراتٍ على مُخْتلـف الأصْعِدَةِ الحياتية خاصّةً؛ ممّا يُعَزِّزُ من مكانة «الثقافة العِلْميّة»، وأهميّة تَرْسيخِهَا في المُجْتمعات المُعَاصِرَة.

وأمّـا الجَانِبُ الآخَرُ المُهِمُّ في تَجلّيَاتِ ما سُمِّيَ «الرَّبيع العربيّ»، هو أنّ تلك الثّوْرات قد تَخلّتْ عن الشِّعاراتِ الأيديولوجيّة، والتَّنْديدِ بأَعْداءٍ في الخَارِجِ، وادّعاءاتِ المُؤامرات الدوليّـة؛ لتَهْتَـمَّ بوَاقِـعِ الإنْسـان في بلـدِه، وتَحْقيـقِ كرامتِه في وطنـه، وحِمَايَـةِ حُقُوقِهِ وتطلّعاتِـه. كُلُّ ذلك يَشِي بـأنّ «الإنْسان العربيّ» قد اسْتيقظ من تلـك «الغَفْلَةِ التّاريخيّة» التـي أَهْمَلَتْ قضايا «التّنْمية»، وهُمُومَ حياته المُبَاشِـرَة، وأَصْبَحَ «الإنْسانُ العربيُّ» يَطْمَحُ إلـى تَعْزيـزِ مكانته في وطنـه، والمُشَارَكَةِ الفَاعِلَةِ فـي قضايا الحياة وأَحْـوال المُجْتمع. وبِغَضِّ النَّظَرِ عـن النّتائِجِ المُحْتَمَلَةِ في المَنْظُور القريب، والارْتِداداتِ السَّلْبيَةِ، والهَزّاتِ العنيفـةِ لحَرَاكِ «الرَّبيع العربيّ»؛ إلاّ أنّ المُحَصِّلَـةَ النّهائيّة تُبَشِّرُ بـ«ثقافةٍ جديدةٍ» تَحْمِلُ

بُـذُورَ تَغَيُّـراتٍ أساسٍ في الـرُّؤى والمسارات، وتَخْلُـقُ وَضْعاً جديداً علـى كُلِّ المُسْتويات السّياسيّة والتّعْليميّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة وغيرها. ومن المُؤَمَّلِ أنْ تَتَّضِحَ الأولويّات بشَكْلٍ لا يَقْبَلُ التّرَاجُعَ أو التّنَازُلَ؛ ليَحْتَلَّ «المَنْظُورُ التّنْمَوِيُّ»، وبرامِج «التّوَافُق التّنْمَويّ» – بمُعْطَيَاتِهَـا وضَوابِطِهَا وثقافتِها – مَوْقِعَ الصَّدارَةِ بمَنْأىً عن «ثقافةٍ» هَيْمَنَتْ رَدْحاً طويلاً مـن الزّمـن غَابَتْ فيه الأولويّات، واخْتَلَطَتْ الأوراق، وتَداخلَـتْ – وما زالت – أطْيَافٌ من الدّينيّ والقوميّ والحَداثيّ والطّائفيّ والانْتِهازيّ في عُقُولٍ مُضْطَرِبَةٍ؛ لتُصْبِحَ الاسْتِدْلالاتُ في غير مَحَلِّهَا، والمُقَارَنَاتُ خَارِجَ سِيَاقَاتِهَا.

ونَسْتطيعُ القول إنّ الدَّافِعَ الحقيقيّ وراء انْفجار أَحْداث «الرَّبيع العربيّ» هو «الفَشَلُ التّنْمَـويّ» الـذي عَاشَتْهُ تلك المُجْتمعات، وما عَانَتْهُ من تنامِي مُعَـدَّلاتِ البَطَالَةِ، وانْتِشَارِ مَظَاهِـرِ الفَقْـرِ والفَسَـادِ المالـيّ والإداريّ، وتَردّي الإنْتاجيّـة، وتَعْطيلِ المَـوارِد المادّيّة والبشريّـة؛ ممّـا يُعِيدُنَا إلى «مَرْبَـطِ الفَرَسِ»، وهو مـا أَسْمَيْنَاهُ «إشْكَاليّـةُ التّنْمية»، ولقد حَرَصْـتُ – في هذا الكِتَابِ – على تَحْليل أَبْعَادِ هذه «الإشْكَاليّة» التي هَيْمَنَتْ على «حَرَاكِ المُجْتمعات العربيّة» طَوَالَ ما يَرْبُو على قَرْنَيْنِ، ممّا أَسْموه «عَصْرُ النّهْضَة».

ومن بدهيّاتِ الأُمُورِ، أنّه إذا لم يَسْتَفِدْ «الرَّبيعُ العربيُّ» من أَخْطَاءِ مُحاولات الماضي ومُبَادَرَاتِهـا بمُخْتلف أشْكَالِهَا ومَدَارِسِهَا، واسْتَمَرَّ في تَجَاهُـلِ مُقَوِّمَاتِ «إكْسِير التّنْمية»، وتَكْريسِ ما عَهِدَتْهُ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» من إهْمالٍ للتّلاقُحِ المَطْلُوبِ بين عناصر «الثَّالُوث النَّاجِع»: (التّنْمية – الثّقافة – العِلْم)، فإنّ شيئاً ما لنْ يَتَغَيَّرَ جِذْريّاً، وسيَسْتَمِرُّ المَخَاضُ الصَّعْـبُ الذي تَمُـرُّ به المَنْطقة العربيّة؛ بَـلْ وسيَتَفَاقَمُ، وستَنْخَـرِطُ «الثّقافةُ العربيّةُ» – كمـا فعلتْ طَوَالَ مُحاولاتِهـا النَّهْضَويّة – في متاهاتِ التّعْميـم والحماسيّات، والاتّهاماتِ المُتَبَادَلَةِ، وجَـدَلِ «التُّرَاثِ والحَدَاثَةِ»، وخِلافَاتِ «العَوْلَمَـةِ والخُصُوصِيّةِ»؛ لتكون النّتائِجُ أَسْـوَأَ مـن ذي قَبْلُ؛ فالتّاريخُ لا يَرْحَم. وأمّا ما ستؤولُ إليـه الأُمُورُ فسَيكونُ مَرْهوناً بمدى الفَهْـمِ لخَصَائِصِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، وكمـا يُعَلِّمُنَا «عِلْمُ المَنْطِقِ»، فـإنّ: («المُقَدِّمَاتُ» نَفْسُهَا لن تقودَ إلى «نَتَائِج» مُخْتلفة).

لا شـكَّ في أنّ تلك التّغيُّراتِ الوَاعِدَةِ التي كَرَّسَتْهَـا أَحْلامُ «الرَّبيع العربيّ»، وحَمَلَ جَذوتَهَـا شبـابٌ يَتَطَلَّعُ إلى فُرَصٍ تَنْمَويّـةٍ، وإسْهاماتٍ عَصْريةٍ، وحُقُـوقٍ أصيلةٍ، وعَدَالَةٍ اجْتماعيّـةٍ، وأدْوارٍ فَاعِلَـةٍ؛ تُبْـرِزُ - في ثنايَاها - إطْـلالاتٍ تَنْمويّةً تَنْشُـدُ غَرْسَ «الرَّبيع التّنْمَـويّ»، ومُحَبِّذَةً لـ«نَمُـوذَجِ التَّوافُقِ التّنْمويّ»، ومُؤَكِّدَةً علـى ضَرورته (انْظر: الفَصْل الرّابع)؛ وأمّا المَسْأَلَةُ الأساسُ فتَبْقَى مَرْهُونَةً لطُرُقِ تَعْزيزِ هذا «الرَّبيع التَّنْمويّ» وتَمَثُّلِهِ وتَرْجَمَتِـهِ إلـى وَاقعٍ مُتَحَرِّكٍ علـى الأَرْض. إنّ هـذه «الرُّؤية» هي الهَمُّ الـذي حَمَلَهُ هذا الكِتَـابُ، مُحاوِلاً تَقَصِّي أسْباب إخْفَاقِ «البرامِجِ التّنْمَويّة» و«المَشْرُوعَاتِ النَّهْضَويّة» في الماضـي، ومُتَوَخِّياً الاسْتِدْلال بإرْهَاصَاتِ المُثقّفيـن والمُفكّرين، وهي تَبْحَثُ عن مَخْرَجٍ مِـن «إشْكَاليّـة التّنْمية». وهذا يعودُ بنا - من جديدٍ - إلى فُصُـولِ هذا الكِتَابِ ومَبَاحِثِهِ؛ لنَخْلُصَ إلى إيجـازٍ نقولُ فيه: (دون «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» مُتَفَاعِلَةٍ مـع «القَاعِدَةِ الجماهيريّة» الوَاسِعَـة، ودون «تَأْسيسٍ ثقافيٍّ» يَحْتَضِنُ «تفاعُلاتِ العَصْر»، ودون «رُؤيةٍ تَنْمَويّةٍ» تَصْنَعُ «الاسْتِجَابَـةَ» الفَاعِلَـةَ لـ«التَّحَـدّي» القَائم؛ أقولُ: دون كُلِّ ذلـك - مُجْتَمِعاً - لن تَسْتطيعَ «المُجْتمعـاتُ العربيّـةُ» أنْ تَزْعُـمَ أنّهـا اسْتَفَـادَتْ من أَخْطَـاءِ الماضي، ووَظَّفَـتْ كَامِلَ مَوارِدِهَا، وحَفَّزَتْ كُلَّ طَاقَاتِهَا، واسْتَنْفَرَتْ جميع قُدْرَاتِهَا، واسْتَخْلَصَتْ لمَشْرُوعِ «التَّنْمية والرُّقيّ» أَفْضَلَ عُقُولِهَا).

٩- ٨) الخَاتِمة:

لن يُنْكِرَ علينا أحدٌ إذا قُلْنَا إنّ أَقْصَى الشَّرائحِ القَابِعَةِ على سُفُوحِ «الفِكْرِ اليَسَارِيّ» المُتَمَـرِّدِ بطبيعتِه وخَصَائِصِه، وإنّ أَقْصَى الشَّرائحِ الجَاثِمَـةِ على تِلالِ «الفِكْرِ اليَمِينـيّ» المُتَشَـدِّدِ بمُنْطَلَقَاته وغاياته؛ كُلُّها - دون اسْتِثْنَاءٍ - تَلْتَقِي حول رُؤيةٍ جَامِعَةٍ لكُلِّ أطْيَافِهَا وألْوَانِهَـا، وهـي أنّ «الفِكْرَ العِلْميّ» هو عِمَادُ «الحياة المُعَاصِـرَة»، وأنّ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّـة» هي الصَّانِعَةُ لعَنَاصِرِ القُوّةِ والهَيْمَنَـةِ والنُّفُوذِ التي هي - بالضّرورة - المَطَالِبُ المِحْوَرِيّة التي تَتَصَارَعُ لتَحْقِيقِهَا تلك الشَّرائِحُ المُتَضَادَّة، وهي الغاياتُ التي تَتَنَافَسُ على إنْجَازِهَا تلك التَّوَجُّهَاتُ المُتَبَاينَة.

تلك حقيقةٌ بدهيّةٌ على المُستوى العَالَميّ، فنجدُ في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» -بتاريخِها وتفاعُلاتِها وتجاربِها - أنّ «العِلْمَ الطَّبيعيّ» لم يكنْ فقط قَادِراً على إطْلاقِ ثَوْرَةٍ صِناعيّةٍ وإنْتاجيّـةٍ ومَعْرفيّةٍ كَاسِحَةٍ، ولكنّـه أيضاً غَيَّرَ من طبيعةِ عُلومِهِـم الإنْسانيّة، وفَلْسفاتِهم الوَضْعيّة، ومفاهيمِهم الحَرَكيّة. إنّ الصِّرَاعَ التّاريخيّ - في «ثقافة الغَرْب» - بين «الدِّين والعِلْـم»، دَفَعَ بفلاسفتِهـا ومُنَظِّريها إلـى الاسْتِنْجَادِ بـ«الفِكْـرِ العِلْميّ» لحَـلِّ إشْكَالاتِهِمْ وصِرَاعَاتِهِمْ، وراحوا يَسْتَعِيرُونَ مُصْطلحاتٍ ومفاهيمَ من رِحَابِ «الفِكْرِ العِلْميّ» ليُؤَصِّلُوا اجْتِهَادَاتِهِـمْ الوَضْعيّة، وأحياناً يُلَوُّونَ أعْنَاقَ «النُّصُوصِ العِلْميّة» بشَكْلٍ قَسْرِيٍّ فَجٍّ كما هو الحال مع «الفَلْسَفَةِ الماركسيّة» و«الفِكْرِ اللّيبراليّ» و«التَّوَجُّهَاتِ الإلْحَاديّة».

ذلـك على صعيدِ «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» وثقافتِها الغَازِيَةِ الغَالِبَـة، وأمّا على صعيدِ «المُجْتمعـات العربيّة»، فالقضيّةُ أكْثر إلْحاحاً وأشدّ وضوحاً؛ فأَكْثَرُ الليبراليّين ليبراليّةً، وأَشْرَسُ الحَداثيّين حَدَاثَةً، يَلْتَقُونَ - بالضّرورة - مع أَعْتَى المُتَشَدِّدين وأَعْنَتِ المُتَزَمِّتين فـي أنّ مَصَالِـحَ الأوطان تَرْتَبِـطُ مُبَاشَرةً بمدى قُـدْرَةِ مُجْتمعاتِهم علـى «تَطْويعِ العلوم» و«توطينِ التّقْنية». كُلُّ الأطْياف - دون اسْتِثْنَاءٍ - تُؤَكِّدُ أنّها تَنْشُدُ تَحْقيقَ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهـو «حالةٌ مُجْتمعيّةٌ» لا تَتَحَقَّقُ إلاّ عندما يُصْبِحُ «المُجْتمع» قَادِراً على اكْتِسَابِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّـة» والتّقنياتِ الحديثة وإنْتاجِهـا، وتَنْميةِ الإمْكَانَاتِ والمَـوَارِدِ وتَطْويرِهَا، وتَأْسيسِ آليّـاتٍ قَـادِرَةٍ على توظيفِ المعارِف بحيويّـةٍ، والمُحَافَظَةِ علـى المُكْتَسَبَاتِ بكفاءَة. وفي هذا السِّيَاقِ يَصِفُ عبد العزيز التّويجري طُمُوحَ التّعاون بين الدُّول الأَعْضاء في «مُنَظَّمَة التَّعاون الإسْلاميّ» في ميادين «العلوم والتّقْنيّة» بأنّه: (ضَرورةٌ من ضَرورات الانْتقال من مَرْحَلَـةِ الضّعْفِ والقُصُورِ إلى مَرْحَلَـةٍ يَمْتَلِكُ فيها العَالَمُ الإسْلاميُّ شُرُوطَ القُوّة والتّفَوُّقِ والتّقَدُّم، فالتّعـاونُ في هذا المجال الحيويّ على جميع المُسْتويات وعبْر مُخْتلف القَنَوَات هـو الأساسُ في إرْسَاءِ «القَاعِـدَةِ العِلْميّة» بما يُمَهِّدُ السَّبيل لإيجـاد «البِيئة العِلْميّة» التي تَتَبَلْوَرُ في مُحيطِهَا «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» التي هي النَّوَاةُ الأولى لـ«المُجْتمع العِلْميّ») [١٠٢].

إذاً «مُجْتمعُ المَعْرِفَة» «حالةٌ مُجْتمعيّةٌ»، لا تَتَأَصَّلُ ولا تَسْتَقِرُّ إلاّ عندما تَتَوَافَرُ شُرُوطُ «مُنَـاخٍ عِلْميٍّ» عامٍّ، وأهمُّها - على الإطْلاق - ذلـك «الشَّرْطُ الثّقافيّ» المُتَمَثِّلُ في «ثقافةِ

عِلْميّـةٍ»، ووَعْـي مُعَاصِرٍ، يَدْفَعَانِ فـي حركةٍ دَؤوبةٍ نحـو تفاعُلاتٍ مُجْتمعيّـةٍ مُتوَافِقَةٍ مع زَمَنِهَـا، ومُتَّسِقَةٍ مع طبيعةِ مُشْكِلاتِهَا، ومُتَنَاغِمَةٍ مع تطلُّعاتِ أجْيالِهَا، ومُتَصالِحَةٍ مع قِيَم مُجْتَمَعِهَـا، بصفتها مُتطلَّباً جَوْهَرِيّاً لـ«التَّوَاؤم الاجْتماعيّ»؛ فلا تكونُ الأُمّةُ مُتَطَفِّلاً ثقيلاً على مَوَائِدِ الآخَرين تُعَاني من حالاتِ الذُّهُولِ والانْكِفَاءِ والانْبِهَارِ والإحْبَاطِ والانْبِطَاح.

تلـك التَّطَلُّعَـاتُ المُجْتمعيّةُ نحو «التَّنْمية»، والأَهْدَافُ الوطنيّـةُ نحو «النَّهْضَة»، التي تَجْمَعُ بين مُخْتلف الأَطْيَافِ الفِكْريّة، تَسْتطيعُ أنْ تكون حَاضِنَةً وطنيّةً رَحْبَةً تَسْتَمِدُّ الدِّفْءَ والحيويّـة من حِـوَارٍ شَاملٍ على «أرْضيّـةِ التَّنْمية»، ومعاييرِها الموضوعيّـة، ومُقْتضياتِها العمليّـة، ولن يَتَحَقَّقَ ذلـك إلاّ إذا اسْتَنَدَ إلى قَاعِدَةٍ صُلْبَةٍ من «الثَّقافـة العِلْميّة» القَادِرَةِ علـى فَرْزِ الزَّائِفِ من الاعْتبارات، ونَبْذِ الغَثِّ من الطُّرُوحَـات، وتَعْميقِ «التَّوَافُق التَّنْمَويّ» نحـو ما اتَّفَقَ عليه الجميـع من أهميّةٍ حَاسِمَـةٍ لقضايا «توطين التِّقْنيـة»، ونَشْرِ «العِلْم»، وتَحْفيـزِ «الإنْتَـاج»، وتَفْجير مَنَابِـع القُوّة. وأمّا أولئـك الذين يُراهِنُونَ علـى بِنَاءِ كِياناتٍ عِلْميّـةٍ شَامِخَةٍ مُسْتَنِدَةٍ إلى «فَرَاغٍ ثقافـيٍّ»، فإنّهم يَلْهَثُون وراء سَرَابٍ في صَحَرَاء قَاحِلَةٍ؛ فالتّجْرِبـةُ الإنْسانيّـةُ، وطبيعةُ «العَقْلِ البشـريّ»، تُؤكّدَانِ أهميّةَ وجـودِ «الوَسَطِ الثَّقافيِّ» المُلائـم؛ لكي تَسْتَقِرَّ عمليّةُ «التَّخْصيب العِلْميّ» في التّفاعُلاتِ العامّة، وتَرْسَخَ «مُقَوِّمَاتُ العِلْم» في النَّسيجِ المُتَنَوِّعِ للمُجْتمع.

وأمّـا المُضْحِـكُ المُبْكي في حَـال «المُجْتمعـات العربيّة»، فهو عودتُهـا المُتَكَرِّرَةُ - بعـد قَرْنَيْنِ من الشّدِّ والجَذْبِ حول «مَشْـرُوعِ النَّهْضَة» و«قضيّة التَّنْمية» - إلى صِرَاعَاتِها القديمـة، ودَوَائِرِهَا المُغْلَقَـة، وجَدَلِهَا العَبَثِـيّ، وأَسْئلةِ «الانْبِهَارِ والاجْتِـرَار»، بينما تَقْبَعُ «الثَّقافـةُ العِلْميّةُ»، بكُلِّ ما تَحْمِلُهُ من عَقْلَنَةٍ وآفَـاقٍ وإمْكانات، في أسْفل قَائِمَةِ الأولويّات، وأدْنَـى اعْتباراتِ «التَّنْمية». لقد أَهْمَلَ «الخِطَابُ الثَّقافـيُّ العربيُّ» «المَنْظُورَ التَّنْمَويّ» في حيـاةِ الإنْسان، وانْصَرَفَ إلى تَكْريسِ شِعَارَاتٍ فَضْفَاضَةٍ، وتأْجيجِ انْفعالاتٍ مُنْفَلِتَةٍ، تُريدُ أنْ تُنْقِذَ العَالَمَ بأسْرِهِ، ولكنّها تَفْشَلُ - ابْتِدَاءً - في إنْقَاذِ نفْسِها وتَطْويرِ حياتِها وتَصْحيحِ مَسَارَاتِهَـا. وهكذا نجـدُ أنّ الغَائِبَ الوحيدَ عـن السّاحة هو ذلك «المَنْظُـورُ» القَادِرُ على امْتِـلاكِ رُؤيةٍ فَاعِلَةٍ تَتَحَرَّكُ في اتِّجَـاهِ «المُسْتَقْبَل»، وتُوَازِنُ بيـن «المَصَالِحِ والمَفَاسِد»،

وتَأْخُـذُ بالأَسْبَابِ في تفاعُلاتٍ تَعْرِفُ طبيعة عَصْرِهَا؛ فتكـونُ «الـحَرَكَةُ التَّنْمَويّةُ» - بكُلِّ مُعْطياتِهـا وضَوابِطِهَـا - هَاجِسـاً مُقيمـاً يَحْتَلُّ مِساحتـه وأولويّته في الجُهُـودِ الثّقافيّة، والاهْتِماماتِ الفِكْريّة، والإبْداعاتِ الإنْسانيّة، والتّفاعُلاتِ المُؤسَّسِيَّة.

ولإيماننـا بحَتْمِيّةِ السُّنَنِ الكوْنيّةِ؛ فإنّه لن يكون هنـاك مَخْرَجٌ من هذا «المَأْزِق» إلاّ عبْـر الاهْتِمَامِ بـ«قضايا الإنْسان» بَدَلاً مـن الانْشِغَالِ بـ«مهارات اللّسان»، ولن تَتَقَدَّمَ الأُمّةُ إلاّ بالانْصِرَافِ إلى البِنَاءِ والتَّعْميرِ عِوَضَاً عن الفِتْنَةِ والتّدْمير، ومن البدْهيّ أنّ مِثْلَ هذه «الرُّؤيـة» لا يُمْكِـنُ أنْ تَتَحَقَّقَ إلاّ في إطَارِ «ثقافةٍ تَنْمويّـةٍ» تَتَغَلْغَلُ في «النَّسيجِ الاجْتماعيّ» والحياةِ اليوميّة والفِكْرِ السَّائد.

وبإيجـازٍ أَخْتِمُ بما خَتَمَ به تشارلز سنو مُحاضرتـه الشَّهيرة في «جامعة كامبردج» ببريطانيـا - في عام ١٩٥٩م - وهو يَطْرَحُ رُؤيَتَهُ لـ«إشْكَاليّة الثّقافَتَيْن»: (أَلَمْ يَحِنِ الوَقْتُ للبَدْءِ في العمل؟ إنّ الأَمْرَ الخَطِيرَ أنّنا تَرَبَّيْنَا على الاعْتِقَادِ بأنّنا نَمْلِكُ كُلَّ الوَقْتِ الموجودِ فـي العَالَـم، ولكنّنا في الوَاقِـعِ لا نَمْلِكُ إلاّ وَقْتاً قَصِيراً. إنّه وَقْتٌ بَلَـغَ من القِصَرِ دَرَجَةً لا أَجْرُؤُ على تَخْمِينِهَا)[٣٢].

ثَبْتُ المَرَاجِع

أ) المَرَاجِعُ العربيّةُ والأجْنبيّة:

١. محمـد عابد الجابـريّ، إشكاليّـاتُ الفِكْرِ العربـيّ المُعاصِـر، مرْكز دراسـات الوحْدة العربيّة، بيروت، ١٩٨٩م.

٢. مالك بن نبيّ، شُرُوطُ النّهْضة، دار الفِكْر (دمشق)، ١٩٨٥م.

3. Bernard Lewis, What Went Wrong?, Oxford University Press, 2002.

٤. سليم البستاني: «افتتاحيّاتُ مجلّة الجنان البيروتيّة»، ١٨٧٠-١٨٨٤»، إعداد وتحقيق: يوسف قزما خوري، (جُزْءان)، دار الحمراء للطباعة والنّشر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٥. أحمد أمين، زُعماء الإصْلاح في العصْر الحديث، دار الكاتب العربيّ، بيروت، ١٩٧٩م.

٦. ز.ل.ليفـين، الفِكْـر الاجتماعيّ والسّياسـيّ الحديث في لبنان وسوريـا ومصر، ترجمة: بشير السّباعي، دار ابن خلدون ، بيروت، ١٩٧٨م.

٧. شكيـب أرسـلان، لمـاذا تأخَّر المُسْلمـون؟.. ولماذا تقـدَّم غيرهـم؟، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٣١م.

٨. مسعـود ضاهـر، مجلّةُ «شُـؤون عربيّة»؛ عددٌ خاصٌّ بعنوان: «العـرب والقرن الحادي والعشريـن: حصاد قرْنٍ ورؤية مُسْتقبل»، العـدد ١٠٤، الأمانة العامّة للجامعة العربيّة، ديسمبر ٢٠٠٠م.

٩. مجْموعةٌ من الباحثين، دراسات التّنمية العربيّة: الوَاقِعُ والآفاق، مرْكز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٩٨م.

١٠. غازي عبد الرحمـن القصيبي، التّنْمية: الأسْئلةُ الكُـبْرى، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، الطّبعة الثانية، ٢٠٠٤م.

١١. مجموعةٌ من الباحثين العرب، التّنمية العربيّة: الوَاقعُ الرّاهنُ والمُستقبل، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطّبعة الثانية، ١٩٨٥م.

١٢. أسامة عبد الرحمن، البيروقراطيّة النّفطيّةُ ومُعضلَةُ التّنمية، عَالَمُ المعْرفة، العدد ٥٧، سبتمبر ١٩٨٢م.

13. «What is Science?», presented at the fifteenth annual meeting of the National Science Teachers Association, in New York City (1966), published in The Physics Teacher, Vol. 7, issue 6 (1969).

١٤. راشد المبارك، نحو استراتيجيّة وطنيّة لنشْر الثّقافة العِلْميّة، الْمُلتقى الثقافيّ - العلْميّ (أوراق العمل)، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتّقنية، الرياض، ١٤٢٧/٤/٤هـ (٢٠٠٦/٥/٢م).

١٥. تقْريرُ التّنْمية الإنسانيّة العربيّة للعام ٢٠٠٢م، برنامج الأُمم المتّحدة الإنمائيّ، الصّندوق العربيّ للإنْماء الاقتصاديّ والاجتماعيّ، المكتب الإقليميّ للدّول العربيّة.

١٦. أحمد موصللي – لؤي صافي، جذورُ أزْمَة المُثقّف في الوطن العربيّ، دار الفِكْر، دمشق، ٢٠٠٢م.

١٧. طه حسين، مُسْتقبلُ الثّقافة في مصر، دار المعارف، الطّبعة الثانية، ١٩٩٦م.

١٨. أحمد صدقي الدجاني وآخرون، المُثقّفُ العربيّ: همُومُه وعطاؤه، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٩٥م.

١٩. عبد الإله بلقزيز، أسْئلةُ الفِكْرِ العربيّ المُعاصِر، دار الحِوار للنّشْر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، اللاذقية، ٢٠٠١م.

٢٠. زكي نجيب محمود، هذا العَصْرُ وثقافتُه، دار الشّروق، القاهرة، ١٩٧٧م.

٢١. محمد جابر الأنصاري، العربُ والسّياسة: أين الخَلَل؟ (جِذْرُ العطل العميق)، دار السّاقي، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٢. نجيب عيسى، مجلّة «الفِكْرُ العربيّ»، العدد ٤٥، معْهد الإنْماء العربيّ، بيروت، آذار ١٩٨٧م.

٢٣. خضر الشيباني، الثّقافة العِلْميّة: القضيّةُ الغَائبَةُ، جريدة الرياض السّعودية، ١٤٢٢/٣/٧هـ، ١٤٢٢/٣/١٥هـ، ١٤٢٢/٣/٢٢هـ، ١٤٢٢/٤/٣هـ.

٢٤. خضر الشيباني، إشْكَاليّةُ التّنْمية والإعْلامُ العِلْميّ، مجلّة أهلاً وسهلاً (الخطوط الجويّة السّعوديّة)، العدد الثامن، السّنة ٢٧، أغسطس ٢٠٠٣م.

٢٥. راشد المبارك، قِراءةٌ في دفاتِر مَهْجُورَة، دار أبي حيّان، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٢٦. محمود أبو سليمان، أزْمَةُ العقْلِ المُسْلم، المعْهد العالَميّ للفكْر الإسلاميّ (فيرجينيا)، ١٩٩٤م.

٢٧. تيري إيجلتون، فكْرَةُ الثّقافة، ترْجمة: ثائر أديب، دار الحِوار، اللاذقيّة، ٢٠٠٠م.

٢٨. مالك بن نبيّ، مُشْكلَةُ الثّقافة، دار الفِكْر، دمشق، ١٩٨٤م.

٢٩. حسين مؤنس، الحضارة، عَالَمُ المعْرفة، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير ١٩٧٨م.

٣٠. سلامة موسى، الثّقافة والحضارة، مجلّة الهلال، القاهرة، ديسمبر ١٩٢٧م.

٣١. مجْموعةٌ من الكُتّاب، نظريّةُ الثقافة، ترْجمة: د.علي سيد الصاوي، عَالَمُ المعْرفة، العدد ٢٢٣، يوليو ١٩٩٧م.

32. C.P.Snow, The Two Cultures, Cambridge University Press, Canto Edition, 1993.

٣٣. مالك بن نبيّ، الثّقافةُ والأزْمَةُ الثقافيّة في العَالَم العربيّ، جريدة الشّرق الأوسط، ١٩٩٧/٧/١٧م.

٣٤. خضر الشيباني، خلفيّةٌ وقضايا المفاهيم العامّة للثّقافة العِلْميّة والتِّقنيّة، ورقةُ عمل مُقدَّمةٌ إلى «المُنَظّمَة العربيّة للتّربية والثقافة والعلوم – تونس» (أليكسو) في إطار مشْروع إعداد «إستراتيجيّة نشْر الثّقافة العِلْميّة والتِّقانيّة في الوطن العربيّ»، ٢٠٠٣م.

٣٥. إستراتيجيّةُ نشْر الثّقافة العِلْميّة والتِّقانيّة في الوطن العربيّ، «المُنَظّمَة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم – تونس» (أليكسو)، ٢٠٠٦م.

٣٦. إبراهيم البليهي، كيف تكوّنتْ الثّقافة العربيّة؟، جريدة الرياض السّعوديّة، ١٤٢٧/٣/٢٥هـ.

٣٧. علي أومليل، سُؤالُ الثّقافة: الثّقافة العربيّة في عَالَمٍ مُتَحَوِّل، المرْكز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، ٢٠٠٥م.

٣٨. زكي نجيب محمود، هُمُومُ المُثقّفين، دار الشّروق، القاهرة/بيروت، الطّبعة الثانية، ١٩٨٩م.

٣٩. علي علي حبيش، المَوْجَةُ الثّالثة وقضايا البقاء، مؤسّسة الأهرام، القاهرة، يونيو ٢٠٠٥م.

٤٠. مُقدِّمَةُ ابن خلدون، دار الفِكْر.

٤١. برهان غليون – سمير أمين، ثقافةُ العَوْلَمَة وعَوْلَمَةُ الثّقافة، دار الفِكْر، دمشق، ١٩٩٩م.

٤٢. خضر الشيباني، هل العَوْلَمَةُ مَأزِقٌ دَائمٌ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٣/٧/٢٢هـ، ١٤٢٣/٨/١هـ، ١٤٢٣/٨/٨هـ.

٤٣. محمد محفوظ، العَوْلَمَةُ وتحوّلاتُ العَالَم، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، ٢٠٠٣م.

44. Glenn T. Seaborg, A Scientist Speaks Out (A Personal Perspective on Science, Society and Change), World Scientific Publishing Co. Pte. Ltd., Singapore, 1996.

٤٥. خضـر الشيبـاني، بـين ثقافـة التّغيـير وتغيـير الثّقافـة، جريـدة المدينـة السّعوديّة، ١٤٢٥/١١/٢٣هـ.

46. Robert Hazen, Why should you be scientifically literate?. Bioscience, December 2002.

47. Michel Seres, Conversations on Science, Culture and Time, The University of Michigan Press, 1995.

٤٨. إبراهيـم البليهـي، إعـادةُ تكويـن الثّقافـة العربيّـة، جريـدة الرياض السّعوديّـة، ١٤٢٨/٣/٢٠هـ .

٤٩. عبـد الله الغذّامي، النّقدُ الثّقافيّ: قـرَاءةٌ في الأنْساق الثّقافيّـة العربيّة، المركز الثقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، ٢٠٠٠م.

٥٠. عبد الله الغذّامي، الموْقفُ من الحَدَاثة ومسائلُ أُخرى، مطابع دار البلاد ، جدة، ١٩٨٧م.

٥١. مقولةٌ مشهورةٌ تُنْسَبُ إلى الشّاعر الحطيئة.

٥٢. خضـر الشيبـاني، العَقْـلُ العربي: ترْميـمٌ أم إعادة بنَـاء؟، جريدة المدينـة السّعوديّة، ١٤٢٨/١/١١هـ، ١٤٢٨/١/١٨هـ.

٥٣. حسن صعب، تحْديثُ العقل العربيّ، دار العلْم للملايين، ١٩٦٩م.

٥٤. خضـر الشيبـاني، ثقافتُنـا العَـوْرَاءُ و«ثقافـة الثّقافـة»، جريـدة المدينـة السّعوديّـة، ١٤٢٥/٨/٢١هـ.

٥٥. خضـر الشيبـاني، «المثقّـفُ العربـيّ» تحـت الحصَـار، جريـدة المدينـة السّعوديّـة، ١٤٢٣/٣/١هـ.

٥٦. خضـر الشيبـاني، اللـونُ البَاهـتُ في الكلمـة العربيّـة، جريـدة المدينـة السّعوديّـة، ١٤٢٥/١٢/٢٨هـ.

٥٧. خضر الشيباني، المثقّفون العرب والبُعْدُ الغائب، مجلّة الفيصل السّعوديّة، العدد ٢٢٨، أكتوبر/نوفمبر ١٩٩٥م.

٥٨. خضـر الشيبـاني، غيَـابُ «البُعْد الرّابـع» في حياة العـرب، جريدة المدينـة السّعوديّة، ١٤٢٩/٤/١هـ.

٥٩. محمد عابد الجابريّ، المسألةُ الثقافيّةُ في الوطن العربيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطّبعة الثانية، ١٩٩٩م.

٦٠. خضر الشيباني، «إشكاليّةُ التُّراثِ والحَداثَة» من منظورٍ علميّ، محاضرةٌ في «مُنتدى الجمعة» في دارة الأستاذ معتوق شلبي، الرياض، ١٩/١٠/١٤٢٧هـ.

٦١. كريم الوائلي، تناقُضاتُ الحَداثَة العربيّة، ، موقعُ د. كريم الوائلي، http://www.karim-alwaili.com.

٦٢. أدونيس، زمن الشِّعْر، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م.

٦٣. أدونيس، النّصُّ القرآنيّ وآفاقُ الكِتابة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣م.

٦٤. أدونيس، فَاتِحَةٌ لنهايات القرْن، دار العودة، بيروت، ١٩٩٣م.

٦٥. طه عبد الرحمن، روحُ الحَداثَة: المدْخلُ إلى تأْسيس الحَداثَة الإسلاميّة، المرْكز الثّقافيّ العربيّ، بيروت/الدّار البيضاء، ٢٠٠٦م.

٦٦. حسن الهويمل، مُلْحَقُ الرّسالة، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠/٦/١٤٣٣هـ.

٦٧. محمد عابد الجابريّ، الخِطَابُ العربيُّ المُعاصِر (دراسة تحليليّة نقديّة)، مرْكز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطّبعة السّادسة، ١٩٩٩م.

٦٨. رواهُ أحمد ومُسْلِم.

٦٩. رواهُ أحمد.

٧٠. أحمد زويل، عَصْرُ العِلْم، دار الشّروق، القاهرة، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٧١. يوسف أبا الخيل، العَقْلُ العربيُّ بين المِعْياريّة والموضوعيّة، جريدة الرياض السّعوديّة، ١١/١٠/١٤٢٩هـ.

٧٢. خضر الشيباني، العَقْلُ العربيُّ: مُجرّدُ لحْظة انْفعال، جريدة المدينة السّعودية، ٤/١/١٤٢٨هـ.

٧٣. خضر الشيباني، طلاسِمُ الثّقافة العِلْميّة: أين المخْرج؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠/٦/١٤٢٩هـ.

٧٤. علي الوردي، وُعَّاظُ السّلاطين، شركة دار الورّاق للنّشر المحدودة، لندن، ٢٠٠٩م.

٧٥. فلاح سعيد جبر، مشاكلُ نقْل التّكنولوجيا «نظْرةٌ إلى واقِع الوطن العربيّ»، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، الطّبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٧٦. عمر الخطيب، الإعْلامُ التّنْمَويّ، دار العلوم للطّباعة والنّشْر، الرّياض، ١٩٨٤م.

٧٧. زهير الكرمي، العِلْمُ ومُشْكلاتُ الإنسان المُعاصِر، عَالَمُ المعْرفة، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨م.

٧٨. خضر الشيباني، شُرُوطُ التّأهيل لـ«مجْتمع المعْرفة»، ورقةُ عملٍ مُقدَّمَةٌ في «المؤتمر السّعوديّ الدّوليّ للثقافة العِلْميّة ٢٠١٣م» المُنْعَقد في «مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتّقنية» بالرّياض في الفترة ٣ – ٧ جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ ، الموافق ١٣ – ١٧ أبريل ٢٠١٣م.

٧٩. خضر الشيباني، البَحْثُ عن المُثقّف التّنْمَويّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٥/٦/١٤٢٨هـ.

٨٠. خضر الشيباني، نحو المُصالحة مع العلوم والتّقنية، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٦/٤/١٤٢٦هـ، ٢٣/٤/١٤٢٦هـ، ٣٠/٤/١٤٢٦هـ ، ٦/٥/١٤٢٦هـ.

٨١. عبد الله بن بيّه، توازُنُ الضّرورات، جريدة عكاظ السّعوديّة، ١٦/٩/١٤٣٤هـ.

٨٢. محمد صلاح الدّين، عن الجهاد والسّيادة والمُستقبل، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠/٢/١٤٢٦هـ.

٨٣. التّقْريرُ العالَميّ لمُنّظمة اليونسكو، من مُجْتمع المعْلومات إلى مُجْتمع المعْرفة، ٢٠٠٥م.

٨٤. حسن صعب، تحْديثُ العقْل العربيّ، دار العِلْم للملايين، بيروت، ١٩٦٩ م.

٨٥. أنطونيوس كرم، العرب أمام تحدّيات التّكنولوجيا، عَالَمُ المعْرفة، الكويت، ١٩٨٢م.

86. Bertrand Russell, The Impact of Science on Society, Unwin Ltd, London, 1985.

٨٧. أحمد شوقي، العِلْمُ: ثقافة المُستقبل، المكتبة الأكاديميّة، القاهرة، ١٩٩٣م.

88. J.D.Bernal, Science in History, Vol.3, Penguin Books Ltd, London, 1969.

89. Bernard Dixon, What is Science For?, Penguin Books Ltd. London, 1976.

٩٠. ماهر إسماعيل صبري – محب محمود كامل، التّنوُّر التّقنيّ: مفْهومُه وسُبُلُ تحقيقه، مجلّة العلوم والتّقنية، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتّقنية، الرّياض، العدد ٥٥، سبتمبر ٢٠٠٠م.

٩١. مجلّةُ «الفِكْر العربيّ»، العدد الأوّل، معْهد الإنْماء العربيّ، بيروت، يونيو ١٩٧٨م.

٩٢. عبد الرحمن المحسني، أثرُ التّقنية على التّكوين الفِكْريّ الذي يصْنع النّص، جريدة الوطن السّعوديّة، ٩/٦/١٤٢٩هـ.

93. Lloyd W. Taylor, Physics: the Pioneer Science, Volume 1, Dover Publications, 1959.

94. Science for all Americans, The American Association for the Advancement of Science, Oxford University Press, New York, 1989.

٩٥. عبد الكريم بن أعراب، نَشْرُ الثّقافة العلميّة والتّقانيّة في الجزائر: دراسة ميدانيّة، الاجتماع العربيّ بشأن إستراتيجيّة نشر الثّقافة العلميّة والتّقانيّة في الوطن العربيّ، القاهرة، ٢٨-٣٠/١٠/٢٠٠٢م.

٩٦. خضر الشيباني، شُرُوطُ اعْتبار «مشْروع الملك عبد الله» بوابّة دخول التّعليم السّعوديّ إلى «مُجْتمع المعْرفة»، مجلّة المعْرفة، وزارة التربية والتعليم السّعوديّة، العدد ١٤٩، أغسطس ٢٠٠٧م.

٩٧. خضر الشيباني، الثّقافةُ النّمطيّةُ والتّفْكيرُ العلْميّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١/٧/١٤٢٥هـ.

٩٨. ديفيد رزنيك، أخلاقيّاتُ العلْم، ترْجمة: عبد النور عبد المنعم، عَالَمُ المعْرفة، العدد ٣١٦، الكويت، يونيو ٢٠٠٥م.

٩٩. مجْموعةٌ من الباحثين العرب، العلوم والتّكنولوجيا في الوطن العربيّ: الوَاقعُ والطّموح، المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشْر، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٠٠. محمد علي نصر، رؤيةٌ مُستقبليّةٌ للتّربية العلْميّة في عصْر المعلوماتيّة والمُسْتحدثات التّكنولوجيّة، المؤتمر العلْميّ الرّابع: (التّربية العلْميّة للجميع)، الجمعيّة المصريّة للتّربية العلْميّة، الإسماعيليّة، ٣١/٧ - ٣/٨/٢٠٠٠م.

١٠١. خضر الشيباني، طلاسِمُ الثّقافة العلْميّة: ما هو المُحْتوى؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٣/٦/١٤٢٩هـ.

١٠٢. عبد العزيز التويجري، الإصْلاحُ العلْميُّ: الطّريقُ إلى المُسْتقبل، جريدة الشّرق الأوسط، ٢٠/٧/٢٠٠٤م.

١٠٣. مجموعةٌ من الباحثين العرب، الثّقافةُ العربيّةُ: أسْئلةُ التّطوّر والمُسْتقبل، مرْكز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ٢٠٠٣م.

١٠٤. محمد الرميحي، سندوتش الإعْلام الخليجيّ، صحيفة البيان الإماراتيّة، ١٣/٢/٢٠٠٧م.

١٠٥. عبد العزيز السماري، واحلُلْ عُقْدَةً من لساني، جريدة الجزيرة السّعوديّة، ١٠/٤/١٤٣٠٧هـ.

١٠٦. عبد العزيز التويجري، مشروعُ النُّهوض باللغة العربيّة: مشروعٌ أمّة، جريدة الحياة، ١٨/٤/٢٠٠٩م.

١٠٧. خضر الشيباني، هل نحْتاجُ إلى آينشتاين عربيّ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٢/٣/١٤٢٢هـ، ١٩/٣/١٤٢٢هـ.

108. Arthur Koestler, The Act of Creation, Hutchinson of London, 1976.

١٠٩. خضر الشيباني، إشْكَاليّةُ التُّراث والحَداثَة: أين الخَلَل؟، مُحاضرةٌ في «مركز حمد الجاسر الثقافيّ»، الرّياض، ٢٩/١/١٤٣٦هـ.

١١٠. خضر الشيباني، ألبرت آينشتاين في «عالم العجائب»، مجلّة أهلاً وسهلاً (الخطوط الجويّة السّعوديّة)، العدد ١٢، ديسمبر ٢٠٠٥م.

111. Craig Rusbult, Einstein's Theory of Relativity should be called a Theory of Invariance, , 2007, http://www.asa3.org/ASA/education/views/invariance.htm.

112. Francis Fukuyama, End of History and the Last Man, Simon and Schuster, 2006.

١١٣. خضر الشيباني، «نهايةُ التّاريخ»: بين «حالة الانْبِهَار» و«نَشْوَة الانْتِصَار»، مقالٌ منْشورٌ في كتاب «نهاية التّاريخ: تحت مِجْهَر الفِكْرِ العربيّ» للدكتور عبد العزيز قاسم، العبيكان للنّشر، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

*****

ب) مقالاتٌ مَنْشُورةٌ للمُؤلِّف:

- الطّريقُ إلى «المُعجزة السّعوديّـة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، العدد ٦٢١، أغسطس ٢٠١٢م.
- «رأس المال الجريء» وسِرْبَالُ المجانين، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة» بجدّة، مايو ٢٠١٢م.
- سـوقُ الأسْهم و«قانونُ حِفظ الطّاقـة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّـة الصّناعيّة بجدّة، يونيو ٢٠١٢م.
- «ريادةُ الأعْمال» بين الجامعات والقطاع الخاصّ، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، نوفمبر ٢٠١١م.
- الحِوارُ بين «القطاع الخاصّ» و«اقْتصاد المعْرفة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، أكتوبر ٢٠١١م.
- المدْخلُ إلى «الإصْلاح الاقْتصاديّ»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، مايو ٢٠١١م.
- الأطْبـاقُ الطّائِرةُ و«مُنْتدى التّنافُسيّة»، مجلّة التّجارة، الغرفـة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، أبريل ٢٠١١م.
- التّفْكيرُ خارج الصّندوق، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، يناير ٢٠١١م.
- هل يحْتاجُ القطاع الخاصّ إلى «ثقافة»؟، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، ديسمبر ٢٠١٠م.
- ستيفن هوكينج ومَأْزِقُ المَلاحِدَة، جريدة الرّياض السّعوديّة، ٢٧ ذو القعدة ١٤٣١هـ.
- اقْتصادُ «المِسْيار»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، أكتوبر ٢٠١٠م.
- القطـاع الخاصّ و«حجر الفلاسِفـة»، مجلّة التّجـارة، الغرفة التّجاريّـة الصّناعيّة بجدّة، سبتمبر ٢٠١٠م.
- «الإدارة» علـى الطّريقـة الفيزيائيّة، مجلّـة التّجارة، الغرفـة التّجاريّـة الصّناعيّة بجدّة، أغسطس ٢٠١٠م.

- بين المُصْطَلح والمِعْيار، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، يوليو ٢٠١٠م.
- أحْضِروا الذَّهَبَ من الشّمْس، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، يونيو ٢٠١٠م.
- «التّنافُسيّة»: المفْهومُ القديمُ المُتّجدِّد، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، مارس ٢٠١٠م.
- مِسْطَرَةُ «العَوْلَمَة» وأبْعادُها الحقيقيّة، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، فبراير ٢٠١٠م.
- «القطاع الخاصّ» و«مُجْتمع المعْرفة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، يناير ٢٠١٠م.
- قِراءةٌ في «ثقافة المُبادَرَة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، ديسمبر ٢٠٠٩م.
- النّاشرون العرب...إلى أين؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٨ ذو القعدة ١٤٣٠هـ (٢٧ أكتوبر ٢٠٠٩م).
- «كاوست»: جزيرةٌ معْزولةٌ أمْ فُرْصَةٌ واعِدَةٌ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٤ شوال ١٤٣٠هـ (١٣ أكتوبر ٢٠٠٩م).
- «جامعةُ الملك عبد الله»: المنْظور التّنْمَويّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٧ شوال ١٤٣٠هـ (٦ أكتوبر ٢٠٠٩م).
- جامعةُ الملك عبد الله: القيمةُ الأساسُ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٠ شوال ١٤٣٠هـ (٢٩ سبتمبر ٢٠٠٩م).
- «لُغَةُ الضّاد» و«المَجْمَعُ» و«التّنْميةُ المُسْتدامة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٥ شوال ١٤٣٠هـ (١٥ سبتمبر ٢٠٠٩م).
- «السُّؤالُ الحائرُ» مع الإعْلاميين وبينهم، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٧ شعبان ١٤٣٠هـ (١٨ أغسطس ٢٠٠٩م).
- «سُؤالُ المُواطَنَة» و«التّوافُقُ التّنْمَويّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠ شعبان ١٤٣٠هـ (١١ أغسطس ٢٠٠٩م).
- الحَصَادُ قبل الزّرْع، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٥ ربيع الثّاني ١٤٣٠هـ (٢١ أبريل ٢٠٠٩م).
- «قِيَمُ التّنْمية» لا تَسْتَعْدي أحداً، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٨ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ (١٤ أبريل ٢٠٠٩م).

- هل التّحدّي عصيٌّ على الأمّة؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١١ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ (٧ أبريل ٢٠٠٩م).
- «الثّقافة العِلْميّة»: نصيرُ الجميع، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠ ربيع الأول ١٤٣٠هـ (١٧ مارس ٢٠٠٩م).
- خِطابٌ مفْتوحٌ إلى وزير الثقافة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٣ ربيع الأول ١٤٣٠هـ (١٠ مارس ٢٠٠٩م).
- «الثّقافة التّنْمَويّة» ليستْ «ثقافة التّنْمية»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٢ صفر ١٤٣٠هـ (١٧ فبراير ٢٠٠٩م).
- «التّعليم العامّ» بين ثقافَتَيْن، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ (٢٣ يونيو ٢٠٠٩م).
- «التّعليم» بين «الخَفِيّ» و«الخافِي»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ (٩ يونيو ٢٠٠٩م).
- «التّعليم العامّ»: ظالِماً ومظْلوماً، جريدة المدينة السّعوديّة، ٩ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ (٢ يونيو ٢٠٠٩م).
- «الإعْلام التّنْمَويّ»: هل من بديل؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ (٢٦ مايو ٢٠٠٩م).
- في خضمّ الجلبة: أين «المُثقّف التّنْمَويّ»؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ (٣١ مارس ٢٠٠٩م).
- «المسؤوليّةُ الاجْتماعيّةُ» و«السُّؤالُ الثّقافِيُّ»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة» بجدّة، يناير ٢٠٠٩م.
- أدونيس و«العلْمُ التّجريبيّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٨ ذو الحجّة ١٤٢٩هـ (١٦ ديسمبر ٢٠٠٨م).
- أيُّها «العَقْلُ»...مـن رآك؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ ذو الحجّة ١٤٢٩هـ (٢ ديسمبر ٢٠٠٨م).
- «الأمْنُ الفكْريّ»: لماذا نُهْمِلُ «المُسْتقبل»؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠ ذو القعدة ١٤٢٩هـ (١٨ نوفمبر ٢٠٠٨م).

- مجلّـةُ «المُقتطف»: العودةُ إلى نقْطة الصِّفْر، جريدة المدينـة السّعوديّة، ٩ رمضان ١٤٢٩هـ (٩ سبتمبر ٢٠٠٨م).
- مُحاكمةُ «الإعْلام العربيّ»: بين السُّمّ والعسل، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢ رمضان ١٤٢٩هـ (٢ سبتمبر ٢٠٠٨م).
- نظريّـةُ «الإفْلاس الإعْلاميّ»، جريدة المدينـة السّعوديّة، ١٨ شعبان ١٤٢٩هـ (١٩ أغسطس ٢٠٠٨م).
- «المسْؤوليّـةُ الاجْتماعيّـةُ»: القطاع الخاصّ والشّبـاب، جريدة المدينـة السّعوديّة، ٢٦ رجب ١٤٢٩هـ (٢٩ يوليو ٢٠٠٨م).
- كيف أفْلَحْنا في ظُلْمِ أبنائنا وبناتنا؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٩ رجب ١٤٢٩هـ (٢٢ يوليو ٢٠٠٨م).
- مُفارقـاتُ «الثّـوْرَة الجِينيّة» و«الثّوْرَة الجِنّيّة»، جريدة المدينـة السّعوديّة، ١٢ رجب ١٤٢٩هـ (١٥ يوليو ٢٠٠٨).
- «المعْلومـاتُ الخَافِيَـة» وليس «المنْهجُ الخَفِيّ»، جريدة المدينـة السّعوديّة، ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ (١ يوليو ٢٠٠٨)،
- «الوَسَطيّةُ» الحياتيّةُ وفيزياءُ «المُرونة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٩ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ (٣٠ يونيو ٢٠٠٨م).
- مِسْكينةٌ هي مُجْتمعاتُ «العِلْم والتّقنيّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٨ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ (١٢ يونيو ٢٠٠٨م).
- إشْكاليّةُ التُّرَاثِ والحَداثَة: «التّوَافُقُ التّنْمَويّ» هو الحلّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ (٥ يونيو ٢٠٠٨م).
- الثّقافة: «خُطّةُ اسْتفزاز» أمْ «نَهْجُ تنْمية»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٩ ربيع الثاني ١٤٢٩هـ.
- «المَسْألـةُ الثقافيّـةُ» و«الحَثُّ الكهرومغناطيسـيّ»، جريدة المدينة السّعوديّـة، ٢٤ ربيع الأوّل ١٤٢٩هـ.
- ثُنائيّـةُ «العقْل العربيّ»: إمّا «الاسْتبِداد» وإمّا «الفوضـى»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣ ربيع الأوّل ١٤٢٩هـ.

- رسائلٌ من «مُنتدى التّنافُسيّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٨ محرّم ١٤٢٩هـ.
- جَلْدُ الذّات: داءٌ أمْ دواء، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤ محرّم ١٤٢٩هـ.
- الهروب من ساحة «الإعْلام التّنْمَويّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٦ محرّم ١٤٢٩هـ.
- نحو «غَزْوٍ ثقافيٍّ» من نَوْعٍ جديد، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣٠ ذو الحجّة ١٤٢٨هـ.
- من «المُعْجِزة الماليزيّة» إلى «المُعْجِزة السّعوديّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٣ ذو الحجّة ١٤٢٨هـ.
- جامعةُ الملك عبد الله: الأسْئلةُ المُلِحّةُ في الوَاقِع التّنْمَويّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣ ذو القعدة ١٤٢٨هـ، ١٠ ذو القعدة ١٤٢٨هـ.
- الإسْتراتيجيّةُ الثّقافيّةُ: نحو «عَقْلَنَة الثقافة»، جريدة المدينة السّعوديّة ، ٢٦ شوّال ١٤٢٨هـ.
- مُراجعاتُ الإسْلاميّين وأزْمَةُ «الثّقافة التّنْمَويّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٩ شوّال ١٤٢٨هـ.
- الإسْتراتيجيّةُ الثّقافيّةُ: أيُّ ثقافةٍ نُريد ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٢ شوّال ١٤٢٨هـ.
- «سبوتْنك»: الشِّعْرُ ديوانٌ... والعِلْمُ ميزان، جريدة المدينة السّعوديّة، ٦ رمضان ١٤٢٨هـ.
- بين «الإسْتراتيجيّات الكُبْرى» و«التّفاصيل الصّغيرة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٥ شعبان ١٤٢٨هـ،
- في انْتظار «الجنّي»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٥ شعبان ١٤٢٨هـ.
- أزْمَةُ المُثقّف: فَعَلَ...يَفْعَلُ...فِعْلاً ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٨ شعبان ١٤٢٨هـ.
- أين نحن من «مُعْجزة التّرْجمة» ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣ رجب ١٤٢٨هـ.
- «اليونسكو»: شفيعٌ لحماية «اللغة العربيّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٨ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ.
- «التُّراث» و«الحَداثة» و«النّظريّةُ النِّسْبيّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٥ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ.
- ملفّ «الإرْهاب» والبَحْثُ عن «التّوازُن الجديد»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١١ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ.
- بين «العلوم الطّبيعيّة» و«الإنْسانيّة»: صِراعٌ أم إبْداعٌ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٩ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ.
- ملفُّ الإرْهاب و«ثقافةُ العِلْم»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٣ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ.
- قِراءَةٌ في «مشْروع الملك عبد الله لتطوير التّعليم العامّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٨ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ.

- «مؤسّسةُ الفِكْر العربيّ» وسُؤالُ التّعليم، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ.
- الدُّعَاةُ: التَّحَرُّكُ في اتّجاه التّنْمية، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٧ ذو الحجّة ١٤٢٧هـ.
- التّنْميــةُ المُسْتَدَامَــة: رؤيــةٌ ثقافيّةٌ – اجْتماعيّة، جريــدة المدينة السّعوديّــة، ٢٠ ذو الحجّة ١٤٢٧هـ.
- هل يحْتَاجُ الأعْدَاءُ إلى مؤامرة؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٧ ذو الحجّة ١٤٢٧هـ.
- إشْكَاليّــةُ «الــتُّراثِ والحَداثَــة» من منْظــورٍ علْميّ، جريــدة المدينة السّعوديّــة، ٧ ذو القعدة ١٤٢٧هـ، ١٤ ذو القعدة ١٤٢٧هـ، ٢١ ذو القعدة ١٤٢٧ه، ٢٨ ذو القعدة ١٤٢٧هـ.
- «البنْدولُ الفِكْريُّ» والوسَطيّة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٢ شعبان ١٤٢٧هـ.
- الطّبيعةُ الاقْتحاميّةُ للعلوم والتّقنية، جريدة المدينة السّعوديّة، ٥ شعبان ١٤٢٧هـ.
- الحضــارةُ الغَرْبيّة: حالةُ انْبِهَارٍ ووَقْفَةُ تأمُّــل، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٥ جمادى الثانية ١٤٢٧هـ.
- نحو «المُواطَنَة التّنْمَويّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١ جمادى الثانية ١٤٢٧هـ.
- نحو إسْتراتيجيّةٍ وطنيّةٍ للثّقافة العلْميّة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١١ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ،
- ١٨ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ، ٢٥ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ، ٣ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ.
- متى تتكلَّمُ العربيّةُ العلْم؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٧ ربيع الأوّل ١٤٢٧هـ.
- متى يتكلَّمُ العلْمُ العربيّة؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠ ربيع الأوّل ١٤٢٧هـ.
- «أسْلَمَةُ العلوم»: المَوقِفُ بعد ١١ سبتمبر، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٥ محرّم ١٤٢٧هـ.
- قانون نيوتن الاجْتماعيّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٧ ذو الحجّة ١٤٢٦هـ.
- المَشْهَدُ الثّقافيّ: حِوارٌ مع زكي نجيب محمود، جريــدة المدينة السّعوديّــة، ١١ ذو القعدة ١٤٢٦هـ، ١٨ ذو القعدة ١٤٢٦هـ، ٢٥ ذو القعدة ١٤٢٦هـ، ٣ ذو الحجّة ١٤٢٦هـ.
- يا أهْل الثقافة: لقد ولّى زمن الجاحِظ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ ذو القعدة ١٤٢٦هـ.
- أحمد زويل و«المراكز المُضيئة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٩ شوال ١٤٢٦هـ، ١٦ شوال ١٤٢٦هـ.
- زغلول النّجار و«الاعْتداء في التّأويل»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٣ رمضان ١٤٢٦هـ.
- المغناطيسيّــة: مــن «الفيزيائيّ» إلــى «الاجْتماعيّ»، جريــدة المدينة السّعوديّــة، ١ رمضان ١٤٢٦هـ، ٨ رمضان ١٤٢٦هـ، ١٥ رمضان ١٤٢٦هـ.

- فيزياء المجْتمع: الدّلالات والأبْعاد، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٣ شعبان ١٤٢٦هـ.
- ثقافةٌ..وثقافة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٠ شعبان ١٤٢٦هـ.
- «التّفاعُل المُتسلْسل»: من الفيزيائيّ إلى الاجْتماعيّ، مجلّة أهلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة»، السّنة ٢٩، العدد ٧، يوليو ٢٠٠٥م.
- «الطّيف»: من الفيزيائيّ إلى الاجتماعيّ، مجلّة أهلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة، السّنة ٢٩، العدد ٥، مايو ٢٠٠٥م.
- فوكوياما...وياما...ياما!، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ رجب ١٤٢٦هـ، ١١ رجب ١٤٢٦هـ.
- عن الجِهاد والسِّيادَة والاسْتقْلال، جريدة المدينة السّعوديّة، ٩ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ.
- صنْدوق البحْث العِلْميّ: العربة أمام الحِصان، جريدة المدينة السّعوديّة، ٥ صفر ١٤٢٦هـ.
- بين «ثقافة المُسْتقْبل» و«مُسْتقْبل الثّقافة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٣ ذو القعدة ١٤٢٥هـ، ٣٠ ذو القعدة ١٤٢٥هـ.
- الإصْلاح الاقْتصاديّ والانْتماء العِلْميّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٦ رمضان ١٤٢٥هـ.
- مُلْتقى المُثقّفين و«إشْكاليّةُ المُصْطلح»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٨ شعبان ١٤٢٥هـ.
- العَقْلُ العربيّ: بين التّفاؤل والشّعْوذَة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٧/٢٢هـ.
- ومضات على طريق «الإبْداع العِلْميّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٧/٨هـ.
- «الإصْلاحُ العِلْميّ» و«السّهْلُ المُمْتنع»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٦/١٧هـ.
- خالد الفيصل والإسْتراتيجيّة المطْلوبة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٦/٣هـ.
- أمريكا التي نشْتمها: ما هو الحلّ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٥/٤هـ.
- هِجْرَةُ الأدْمغة: بين لَطْم الخُدُود وغِياب البُنُود، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٤/٢٠هـ.
- السّياسة الوطنيّة للعلوم والتّقنية: البيئة المُناسبة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٤/٢٠هـ.
- إسْتراتيجيّةٌ للثّقافة: هل نحن جادُّون؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٤/١٣هـ.
- «المأْزِقُ الثّقافيّ»: إلى متى؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٤/١١/١٤هـ.
- في «الحوار الوطنيّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٤/٤/١٦هـ.
- «أسْلَمَةُ العلوم»: تَرَفٌ أمْ ضَرورة، مجلّة أهلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة، السّنة ٢٧، العدد ١٢، ديسمبر ٢٠٠٣م.

- «إشْكَاليّــة التّنْمية» و«الإعْلامُ العِلْميّ»، مجلّة أهــلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة، السّنة ٢٧، العدد ٨، أغسطس ٢٠٠٣م.
- «وادي عَبْقَر» و«الإبْداع العِلْميّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/٨/١٢هـ، ١٤٢٢/٨/٢٠هـ.
- في انْتظار الوِلادَة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/٦/٨هـ.
- حِوارُ التّنْمية، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/٥/١٦هـ.
- مِطْرَقَةٌ وسِنْدَانٌ للدّول النّامية، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ /١٤٢٢/٤هـ.
- الأمْنُ العلْميّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٦ /١٤٢٢/٢هـ ، ١٤٢٢/٢/١٢هـ.
- الكلامولوجيا والتّكنولوجيا، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/٢/٢٧هـ ، ١٤٢٢/٢/٥هـ.
- الإعْلاميّون و«الإعْلام العلْميّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/١٢/٢٧هـ، ٤،١١ محرم ١٤٢٣هـ.
- الثّقافــة العِلْميّــة: مِفْتَاحُ التّقنيــة، مجلّة العلوم والتّقنيــة، مدينة الملك عبــد العزيز للعلوم والتّقنية، العدد ٥٥، شهر رجب ١٤٢١ (سبتمبر ٢٠٠٠م).
- «الإعْلامُ العِلْميّ»: الدّوْرُ الغَائِب، مجلّة أهلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة، السّنة ٢٣، العدد ٩، سبتمبر ١٩٩٩م.
- فوكوياما...وياما...ياما!، مجلّة اليمامة السّعوديّة، العدد ١٤٥٢ ، ١٩ ذو الحجة ١٤١٧هـ.
- «التّفْكيرُ العِلْميّ» و«الإبْدَاعُ العِلْميّ»، مجلة «أهلاً وسهلاً»، الخطوط السّعوديّة، أغسطس ١٩٩٧م.
- قُيُودُ الهُويّة وسَلاسِلُ التّاريخ، مجلّة اليمامة السّعوديّة، العدد ١٤٤٥، ١٤١٧/١٠/٢٢هـ.
- الجامعــات بين نَمَطِيّةِ التّفْكير والانْقيادِ للمُسْتَـوْرَد، مجلّة اليمامة السّعوديّة، العدد ١٤٣٧، ١٤١٧/٨/١٨هـ.
- وَعْيُ الأرْقام والمعْلومات، مجلّة اليمامة السّعوديّة، العدد ١٤٣٣، ١٩ رجب ١٤١٧هـ.
- التّنْمية في التّعليم، مجلّة اليمامة السّعوديّة، ٥/٧/ ١٤١٧هـ.
- لُغَةُ الضّاد تَسْتَغيث، مجلّة اليمامة السّعوديّة، ١٤، ٢١ جمادى الآخرة ١٤١٧هـ.
- عــن «المنْهج العِلْميّ»، مجلّة أهلاً وسهــلاً، الخطوط السّعوديّة، العدد الرّابع، السّنة الثّانية، محرّم ١٣٩٩هـ.

*****

مَسْرَدُ الأَعْلَام

فيما يَلي حَصْرٌ للأَعْلام الذين وَرَدَتْ أَسْمَاؤهُم في الكِتَاب، وتَعْريفٌ مُوجَزٌ بهم:

(أ)

إبراهيم البليهي	كاتِبٌ سعوديّ، وعضو «مجْلس الشُّورى» السّعوديّ.
إبراهيم العيسوي	أكاديميٌّ وخبيرٌ اقْتصاديٌّ مِصْريّ، والمُستشار بـ«معْهد التّخْطيط القوميّ» في مصر.
أبو حيّان التّوحيدي	فيلسوفٌ وأديبٌ من أعْلام القرْن الرّابع الهجْريّ.
أحمد زويل	عَالمُ الكيمياء المعْروف، والحَائِزُ على «جائِزة نوبل في الكيمياء» لعام ١٩٩٩م.
أحمد صدقي الدّجانيّ	كَاتبٌ ومُؤرّخٌ فلسْطينيٌّ رأس «المجْلس الأعْلى للتّرْبية والثّقافة والعلوم» بـ«مُنظّمَة التّحْرير الفلسْطينيّة».
أحمد موصللي	أكاديميٌّ لبنانيٌّ وبَاحِثٌ في شؤون الحركات الإسْلاميّة.
إدوارد تايلور (Edward Taylor)	أكاديميٌّ بريطانيّ، ومن أبْرز الدّارسين لظَاهرَة «الثّقافة»، ويُعْتَبرُ أحد مُؤسّسي «عِلْمُ الإنْسَان» (الأنثروبولوجيا).
أدونيس	الشّاعر الحَداثيّ المعْروف.
آرثر كوستلر (Arthur Koestler)	روائيٌّ وكاتِبٌ بريطانيٌّ من أصْلٍ مَجَريّ.
أرنولد توينبي (Arnold Toynbee)	المُؤرّخ البريطانيّ المعْروف.

أرغيري إيمانويل (Arghiri Emanuel)	اقْتصاديٌّ فرنْسيٌّ من أصْلٍ يونانيّ.
أسامة عبد الرّحمن	أكاديميٌّ وكَاتبٌ وشاعرٌ سعوديٌّ، وأحد أبْرز المُهْتَمِّين بـ«مُعْضِلَة التَّنْمية» في العالَمِ العربيّ.
إسماعيل صبري عبد الله	أكاديميٌّ واقْتصاديٌّ مِصْريٌّ، تقلَّد عِدَّة مناصِب وزاريّة في مِصْر.
إسماعيل سراج الدّين	كَاتِبٌ مصريٌّ مُهْتَمٌّ بقضايا «التَّنْمية»، وعمل نائِباً لـ«رئيس البنْك الدّولي» بواشنطن.
ألبرت آينشتاين (Albert Einstein)	عَالِمُ الفيزياء المعْروف.
أنطونيوس كرم	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ لبنانيٌّ مُتخصِّصٌ في «الاقْتصاد»، ومُهْتَمٌّ بقضايا «التَّنْمية».
أنور عبد الملك	كَاتِبٌ وأكاديميٌّ مصريٌّ حَائِزٌ على «جَائِزة الدَّولة التَّقديريّة في العلوم الاجْتماعيّة» في مصر لعام ١٩٩٦م.
أنيس صايغ	كَاتِبٌ وأكاديميٌّ فلسْطينيّ، وعمل رئيساً لـ«مرْكز الأبْحاث الفلسْطينيّ» بـ«مُنظَّمَةِ التّحْرير الفلسْطينيّة».
أوزوالد سبنجلر (Oswald Spengler)	مُؤرِّخٌ وفيلسوفٌ ألْمانيّ.
(ب)	
برنارد لويس (Bernard Lewis)	أكاديميٌّ ومُؤرِّخٌ أمْريكيٌّ من أصْلٍ بريطانيّ، ومن أبْرز المُهْتَمِّين بالدّراسات الشّرقيّة.

برهان غليون	أكاديميٌّ وكاتِبٌ سوريٌّ وأسْتاذُ «عِلْم الاجْتماع السياسيّ» في «جامعة السّوربون» بفرنسا.
بول ريكور (Paul Ricoeur)	أكاديميٌّ وفيلسوفٌ فرنسيّ.
(ت)	
تشارلز سنو (C.P.Snow)	عَالمٌ كيمياء وروائيٌّ بريطانيٌّ، اشْتهر بِكتابه الموسوم «الثّقَافَتَان» الصّادِر في عام ١٩٦٥م.
توماس إليوت (T.S.Eliot)	أديبٌ وشاعِرٌ ونَاقِدٌ بريطانيٌّ من أصْلٍ أمْريكيّ.
تيري إيجلتون (Terry Eagleton)	أكاديميٌّ وأديبٌ ونَاقِدٌ بريطانيّ.
كونراد وودنجتون (C.H.Waddington)	أكاديميٌّ وفيلسوفٌ بريطانيّ.
(ج)	
جلين سيبورج (Glenn Seaborg)	عَالمٌ وأكاديميٌّ أمْريكيّ، وحَائِزٌ على «جَائِزة نوبل في الكيمياء» لعام ١٩٥١م.
جمال الدين الأفغانيّ	العَالمُ الأفغانيٌّ المشْهور، ويُعْتَبَرُ أحد أبْرز أعْلام الفِكْر الإسْلاميّ المُجَدِّدين، وأحد الأعْلام البارزين في «حركة النَّهْضة» في أواخِر القرْن التّاسع عشر الميلاديّ في مصر.
جورج سارتون (George Sarton)	أكاديميٌّ وبَاحِثٌ أمْريكيٌّ من أصْل بلْجيكيّ، ومُتخصِّصٌ في «العلوم الطّبيعية والرِّياضيّات»، ويُعْتَبرُ مُؤسِّسَ «عِلْم تاريخ العلوم»، وعمل أسْتاذاً لـ «تاريخ العلوم» في «جامعة هارفارد»، وأبْرز أعْماله كتابه الموسوم «مُقدِّمَةٌ لتاريخ العِلْم» ذو الثّلاثة أجْزاء.

(ح)	
حازم القرطاجني	شَاعـرٌ وأديبٌ من أهْل «قرطاجنة» بالأنْدلس، عاش في القرْن الرّابع عشر الميلاديّ.
حسن الهويمل	أكاديميٌّ وأديبٌ وكَاتِبٌ سعوديّ.
حسن صعب	أكاديمـيٌّ ودبلوماسيٌّ وإعْلاميٌّ لبنـانيٌّ أسَّس «نَدْوة الدّراسات الإنْمائيّة» في عام ١٩٦٤م.
(د)	
دافيد رزنيك (David B. Resnik)	أكاديمـيٌّ أمْريكـيٌّ مُهْتَـمٌّ بـ«أخْلاقيّـات العلـوم»، وحاصِلٌ على درجة «الدّكتوراه في الفلْسفة»، ودرجة «الدّكتوراه في القانون».
دافيد لاندز (David S. Landes)	أكاديميٌّ أمْريكـيٌّ، عمل أسْتاذاً للاقْتصاد والتّاريخ في «جامعـة هارفـارد»، ولـه مُؤلّفـاتٌ في «تاريـخ الاقْتصاد» نالتْ حظَّها من المدْح والنّقْد.
(ر)	
راشد المبارك	أكاديميٌّ سعوديٌّ جمـع بين «العلْم الطَّبيعيّ» والأدب والفلْسفة، وله عدَّةُ مُؤلَّفـات فكْريّة وعلْميّة، كما أنّ لـه إسهاماتـه في الشّعْـر، وهو أحدُ أبْـرز مُناصري «الثّقافـة العلْميّة» في العَالَم العربي، واشْتهر بنَدْوته الثّقافيّة الأسبوعيّة التي عُرِفَتْ بـ«الأحَدِيَّة».
رفاعة رافع الطّهطاويّ	الأزْهـريُّ المعْروف، وأحد قادة «النّهْضَة العلْميّة» في مصر في مُنْتصف القرْن التّاسع عشر الميلاديّ.

رمزي زكي	اقْتصـاديٌّ مصريّ، وحَائِزٌ علـى «جائِزة الدَّولة في الاقْتصاد والماليّة العامّة» في مصر.
روبرت ماكنمارا (Robert McNamara)	وزير الدّفاع الأمْريكيّ الأسْبق.
روبرت هيزن (Robert Hazen)	أكاديمـيٌّ أمريكـيٌّ، وعَالِمٌ في مجال «علـوم الأرْض والتّعْدين».
ريتشارد فاينمان (Richard Feynman)	أكاديمـيٌّ وفيزيائـيٌّ أمْريكـيٌّ، ساهـم في تَطْويـر «القُنْبلـة النّوويّة» في أمريكا خـلال الحرب العالميّة الثّانية، وحَائِـزٌ على «جَائِزة نوبل في الفيزياء» لعام ١٩٦٥م.
ريموند ويليامز (Raymond Williams)	أكاديميٌّ وروائيٌّ ونَاقِدٌ بريطانيّ.
رينيه ماهيو (Rene Maheu)	أكاديمـيٌّ فرنسـيٌّ، والمديـر الأسْبـق لـ«مُنظَّمَـةِ اليونسكو».
(ز)	
زكي نجيب محمود	المُفكّرُ المصْريُّ المعْروف.
زهير الكرمي	إعْلامـيٌّ أردنيّ، اشْتهر بتقْـديم البرنامج الوثائقيّ «العِلْمُ والحياة».
زين العابدين الرّكابي	أكاديميٌّ وإعلاميٌّ سعوديّ.

(س)	
سلامة موسى	صحفيٌّ وكَاتبٌ مصْريّ، ومن أبْرز دُعاة «العَلْمانيّة» و«تَحْرير المرأة» و«الاشْتراكيّة» في مصْر، وأحد مُؤسّسي «المَجْمَع المصْريّ للثّقافة العِلْميّة» في عام ١٩٣٠م.
سليم البستانيّ	كَاتبٌ وصحفيٌّ لبنانيٌّ، عاش في النِّصْف الأخير من القرْن التّاسع عشر الميلاديّ، وساهم مع والده في تَحْرير «دائِرةُ المعارِف: قاموسٌ عامٌّ لكلّ فَنٍّ ومَطْلَب».
(ش)	
شاكر مصطفى	مُؤرّخٌ وأديبٌ سوريّ، شغل منْصب وكيل «جامعة دمشق»، وتقلّد عدّة مناصِب دبلوماسيّة، كما شغل منْصب «وزير الإعْلام» بسوريا، وعمل أسْتاذاً للتّاريخ والدّراسات الإسلامية بـ«جامعة الكويت».
شكيب أرسلان	سياسيٌّ وكَاتِبٌ وشَاعرٌ ومُؤرّخٌ لبنانيٌّ، اشْتهر بلقب «أمير البيان»، ومن مُؤلّفاته كتاب «لماذا تأخّر المُسْلمون؟، ولماذا تقدّم غيرهم؟».
(ص)	
صوما بوجودة	أكاديميٌّ وبَاحثٌ ترْبويٌّ لبنانيّ، وزميلٌ بـ«أكاديميّة العلوم للعَالَمِ النّامي» في مدينة «ترييست» بإيطاليا.

(ط)	
طه حسين	الأديبُ المصْريُّ المعْروف.
طه عبد الرحمن	مُفكِّرٌ وفيلسوفٌ مغْربيٌّ مُتخصِّصٌ في «المنْطق وفلْسفة اللّغة والأخْلاق»، وحَائزٌ على جَائزة «الإسيسكو» في «الفِكْر الإسْلاميّ والفلْسفة» لعام ٢٠٠٦م.
طيّب تيزيني	فيلسوفٌ وبَاحِثٌ سوريٌّ من أنْصار «الفِكْرِ القوميّ الماركسيّ».
(ع)	
عبد الإله بلقزيز	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ مغْربيٌّ، حاز في عام ٢٠١٣م على «جَائِزة السُّلطان قابوس التّقديريّة للثّقافة والفنون والآداب» في مجال «قضايا الفِكْرِ المُعاصِر».
عبد الحميد أبو سليمان	أكاديميٌّ وبَاحِثٌ سعوديٌّ، ومُؤسِّسُ «المعْهد العَالَميّ للفكْر الإسْلاميّ» بأمريكا، و«الجامعة الإسْلاميّة العالَميّة» بماليزيا.
عبد الحميد الكاتب	من أعْلام الكُتَّاب في أواخر العصْر الأمويّ، ويُعَظِّمُ النُّقاد العرب من مَنْزلته في «الأدب العربيّ»، فيقولون فيه: «بدأتْ الكِتَابَةُ بعبد الحميد، وخُتِمَتْ بابن العميد».
عبد الخالق عبد الله	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ أماراتيّ.
عبد الرحمن المحسني	أكاديميٌّ وأديبٌ سعوديّ.

عبد الرحمن بن خلدون	المُؤرِّخُ العربيُّ المعْروف، ويُعْتَبرُ مُؤسِّسَ «عِلْم الاجْتماع».
عبد اللّه الغذّامي	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ ونَاقِدٌ سعوديّ.
عبد اللّه القفاري	كَاتِبٌ سعوديّ.
عبد اللّه بن بيَّه	أحد أبْرز عُلماء السُّنَّة المُعاصِرين، وأسْتاذٌ في «جامعة الملك عبد العزيز» في جدّة، وتقلَّد عدَّة مناصب وزاريّة في موريتانيا، وحَائِزٌ على «جائِزة الملك عبد العزيز» من الدَّرجة المُمتازة.
عبد اللّه النّديم	أديبٌ وشاعِرٌ مصْريٌّ، عاش في النِّصف الثاني من القرْن التّاسع عشر الميلاديّ، ويُعْتَبَرُ «خطيب الثّورة العُرابيّة» في مصْر.
عبد اللّه عبد الدّائم	أكاديميٌّ وترْبويٌّ سوريّ، ومن أهمّ المُشْتغلين بـ«الفِكْر القوميّ العربيّ»، وشغل منْصب «وزير الإعْلام» ثُمّ «وزير التّرْبية» في سوريا، وحَائِزٌ على «جَائِزة سلطان العويس الثّقافية» في مجال «الدِّراسات الإنْسانيّة والمُسْتقبليّة».
عبد العزيز التويجري	أكاديميٌّ وترْبويٌّ سعوديّ، والمدير العامّ لـ«المُنَظَّمَة الإسْلاميّة للتّرْبية والعلوم والثّقافة (الإيسيسكو)».
عبد العزيز السّماري	كَاتِبٌ سعوديّ.
عبد الغني عبود	أكاديميٌّ وترْبويٌّ مصْريّ.
علي الوردي	عَالِمُ الاجْتماع العراقيّ المعْروف.

علي أومليل	أكاديمـيٌّ مغْربيّ، وبَاحِثٌ في «علْم الاجْتماع»، وشغل منْصب الأمين العام لـ«مُنْتدى الفِكْر العربيّ» بعمّان، وعمل سفيراً للمغْرب في القاهرة وبيروت.
علي خليفة الكواري	كَاتِبٌ قَطَريٌّ، وبَاحِثٌ مُهْتَمٌّ بقضايا «التَّنْمية».
علي علي حبيش	أسْتاذُ كيميـاء وتكْنولوجيا النَّسيج بـ«المرْكز القوميّ للبحوث» بمصْر، وشغل منْصب رئيس «أكاديميّة البَحْث العلْميّ» بمصْر، وحَائزٌ على «جَائِزة مبارك للعلوم التّكنولوجية المُتقدِّمة» لعام ٢٠٠٤م.
عمر الخطيب	أكاديميٌّ وإعْلاميٌّ أرْدنيّ.
(غ)	
غازي القصيبي	أكاديمـيٌّ وكَاتِبٌ وشَاعِرٌ سعوديٌّ، تقلَّد عدَّة مناصب وزاريّة ودبلوماسيّة في الممْلكة العربيّة السّعوديّة.
(ف)	
فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama)	أكاديمـيٌّ أمريكـيٌّ، وبَاحِثٌ في «العلوم السّياسيّة»، واشْتهـر بكتابه الموسوم «نِهايةُ التّاريخ والرَّجُل الأخير».
فريدريك تشيللر (Friedrich Schiller)	شَاعِرٌ وفيلسوفٌ ومُؤرِّخٌ ألْمانيٌّ، عاش في النِّصْف الثّاني من القرْنِ الثّامن عشر الميلاديّ.
فريدريك جيمسون (Fredric Jamson)	أكاديميٌّ ونَاقِدٌ أمْريكيّ، ومُنَظِّرٌ ماركسيّ.

فلاح سعيد جبر	مُهَنْدسٌ فلسْطينيّ، شغل منْصب الأمين العامّ لـ «اتّحاد الصّناعات الغذائيّة العربيّة»، وأحد مُؤسّسي مجْموعة من الاتّحادات والهيئات منها «الاتّحاد العامّ للمُهنْدسين الفلسْطينيين» و«اتّحاد الفيزيائيّين والرّياضيين العرب»، وعمل مُستشاراً للدِّراسات والبحوث في «الجامعة العربيّة».
فيكتور هوجو (Victor Hugo)	شَاعِرٌ وأديبٌ وروائيٌّ فرنْسيٌّ، عاش في مُنْتصف القرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ، ومن أشْهر رواياته «البُؤساء» و«أحْدَبُ نوتردام».
(ق)	
قسطنطين زريق	أكاديميٌّ ومُؤرِّخٌ سوريّ، وأحد أبْرز دُعاة «القوميّة العربيّة».
(ل)	
لؤي صافي	أكاديميٌّ أمْريكيٌّ من أصْلٍ سوريّ، ومُهْتَمٌّ بقضايا «التّنْمية والحَدَاثَة»، وعمل مديراً لـ«المعْهد العالَميّ للفكْرِ الإسْلاميّ» بأمريكا.
(م)	
ماثيو أرنولد (Matthew Arnold)	شَاعِرٌ وأديبٌ ونَاقِدٌ بريطانيٌّ، عاش في مُنْتصف القرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ.
ماكس بلانك (Max Planck)	فيزيائيٌّ ألمانيٌّ، ومُؤسِّسُ «نظريّة الكَمّ» في الفيزياء، وحَائِزٌ على «جَائِزة نوبل في الفيزياء» لعام ١٩١٨م.

ماكس فيبر (Max Weber)	فيلسوفٌ ألمانيّ، وعَالمٌ في الاقْتصاد والسّياسة، ويُعْتَبَرُ أحد مُؤسّسي «عِلْم الاجْتماع» الحديث.
مالك بن نبيّ	المُفكّرُ الجزائريُّ المعْروف.
مايكل سبنس (Michael Spence)	أكاديميٌّ واقْتصاديٌّ أمْريكيّ، وحَائزٌ على «جَائِزة نوبل في الاقْتصاد» لعام ٢٠٠١م.
مايكل فاراداي (Michael Faraday)	عَالمٌ إنْجليزيٌّ من أبْرز عُلماء الطّبيعة، وعاش في القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ، وله الدّوْر الرّياديّ في تَأْسيس مَجَالَيْ «الكهرومغناطيسيّة» و«الكهروكيميائيّة»، ويُعْرَفُ بـ «أبو الكهْرباء».
محمد أزهر سعيد السمّاك	أكاديميٌّ عِراقيٌّ مُتخصِّصٌ في «الدِّراسات الجغْرافيّة».
محمد الرميحي	أكاديميٌّ وكَاتبٌ كويتيٌّ مُتخصِّصٌ في «عِلْم الاجْتماع السّياسيّ»، ورأس تَحْرير مجلّة «العربيّ» الكويتيّة، وشغل منْصب الأمين العامّ لـ«المجْلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب» في الكويت.
محمد الميلي	كَاتبٌ وصحفيٌّ جزائريٌّ، التحق بالثّورة الجزائريّة في عام ١٩٥٥م، وتقلّد منْصب «وزير التّعْليم» في الجزائر، وعمل سفيراً للجزائر في القاهرة، وشغل منْصب المدير العامّ لـ«المُنظَّمَةِ العربيّة للتّرْبية والثّقافة والعلوم (أليكسو)» بتونس.
محمد جابر الأنصاريّ	أكاديميٌّ وكَاتبٌ بحرينيٌّ، وعضْو «المجْلس الوطنيّ للثّقافة والآداب والفنون» بالبحْرين، وحَائزٌ على عدد من الجوائز منها «جَائزة الدّولة التّقديريّة» في البحرين، و«جَائزة سلطان العويس الثّقافيّة» في مجال «الدّراسات الإنْسانيّة والمُستقبليّة».

محمد صلاح الدّين	كَاتِبٌ وإعْلاميٌّ ونَاشِرٌ سعوديّ.
محمد عابد الجابريّ	المُفكّرُ المغْربيُّ المعْروف.
محمد عبده	أزْهـريٌّ وفقيـهٌ مصْـريٌّ، وأحـد رمـوز «التَّجْديـد الإسْلاميّ» في العصْر الحديث، واشْترك في «الثّوْرَة العُرابيّـة» في مصْـر، وشغل منْصـب «مُفتي الدّيار المصْريّة»، وتأثّر بالإصْلاحيّ جمال الدين الأفغانيّ، وأصـدرا معاً جريدة «العـرْوة الوثقى» من منْفاهما في باريس في عام ١٨٨٤م.
محمد لبيب شقير	أكاديمـيٌّ مصْريٌّ مُتخصِّصٌ في «العلوم السّياسيّة والاقْتصاد»، وتقلّد عـدّة مناصِب وزاريّة في مصر، وشغـل منْصـب «رئيس مجْلس الشّعب المصريّ» في أواخـر الحقْبـة النّاصريّـة، وعمل مُستشـاراً بـ «صنْدوق النّقْد الدّوليّ».
محمد محفوظ	كَاتِبٌ سعوديّ.
محمود عبد الفضيل	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ مصْريٌّ مُتخصِّصٌ في «الاقْتصاد».
محيي الدين صابر	كَاتـبٌ سـودانيٌّ مُشْتَغـلٌ بقضايا «التّنْميـة والتّعليم والثّقافـة»، ورأس تَحْريـر عـدّة صُحـف يوميّة في السّـودان، وشغل منْصـب «وزير التّرْبيـة والتّعْليم» بالسّودان، وعمل مديـراً لـ«المُنظَّمَة العربيّة للتّرْبية والثّقافة والعلوم (أليكسو)» بتونس.
مسعود ضاهر	أكاديمـيٌّ وكاتِـبٌ لبنـانيٌّ مُتخصِّـصٌ في «التّاريـخ الاجْتماعيّ».

مهاتير محمد	رائدُ «النّهْضة الماليزيّـة الحديثة» المعْروف، ورئيسُ وزراء ماليزيا الأسْبق.
ميشيل سير (Michel Seres)	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ وفيلسوفٌ فرنْسيّ.
(ن)	
نادر فرجاني	أكاديمــيٌّ وكَاتِبٌ مصْريٌّ، رأس فريق تَحْرير تقارير «التّنْمية الإنْسانيّة العربيّـة» الصّادِرة عن «برْنامج الأُمم المُتّحدة الإنْمائيّ».
نبيل علي	كَاتــبٌ مصْريٌّ حَاصــلٌ على الدّكتــوراه في «هنْدسة الطَّـيران»، وأحد أبْرز خُبراء «المعْلُوماتيّة» في العَالَم العربــيّ، وتقلَّــد عــدَّة مناصِــب في شــركاتٍ عربيّةٍ وعالَميّةٍ في مجال «الحاسوب».
نجيب عيسى	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ وخبيرٌ اقْتصاديٌّ لبنانيّ.
نورمان كامبل (Norman R. Campbell)	أكاديمــيٌّ وعَــالمٌ فيزيــاء بريطــانيٌّ، اهْتَــمّ بمجال «فلْسفة العلوم».
(ي)	
يوسف أبا الخيل	كَاتِبٌ سعوديّ.
يوسف صايغ	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ فلسْطينيٌّ مُتخصِّصٌ في «الاقْتصاد السّياســيّ»، وأحــد أبْرز دُعــاة «القوميّــة العربيّة»، وعمــل مُستشــاراً في «مُنَظَّمَــة الأقْطــار العربيّــة المُصــدِّرة للنّفــط» و«الصّنْــدوق العربــيّ للإنْمــاء الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ».